سورة سبأ

[٧٦٠] أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال: حدثني فلان أن فروة بن مسيك الغطفاني قدم على رسول الله [ﷺ] فقال يا نبي الله إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام أفأقاتلهم فقال: **«ما أمرت فيهم بشيء بعد»** فأنزلت هذه الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾(١) الآيات.

[٧٦١] وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سفيان عن عاصم عن ابن رزين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الشام وبقي الآخر فلما بعث النبي [ﷺ] كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه وكان يقرأ بعض الكتب فأتى النبي [ﷺ] فقال: إلام تدعو؟ فقال: **«إلى كذا وكذا»** فقال أشهد أنك رسول الله فقال: **«وما علمك بذلك»** قال إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم فنزلت هذه الآية؟ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾(٢) فأرسل إليه النبي [ﷺ] أن الله قد أنزل تصديق ما قلت.

* * *

---

[٧٦٠] (١) سورة سبأ: الآية (١٥).

[٧٦١] (٢) سورة سبأ: الآية (٣٤).

(٣٤) سورة سبأ مكية
وآياتها أربع وخمسون

سورةً سبأ من السور المكية التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية وتتناول أصول الدين من إثبات الوحدانية ، وإثبات النبوة ، وتقرير الإيمان باليوم الآخر ، والبعث والنشور كسائر السور المكية . سميت سورةَ سبأ لأن قصتها تضمنتْ آيةً عظيمة وفيها أعظم العِبَر على قدرة الله جل وعلا في الانتقام ممن جحد بآياته وكذَّب رسله بتبديل النعمة بالنقمة ، والسراء بالضراء ، فإنَّ « سبأ » وهم ملوك اليمين وأهلُها كانوا في نعمةٍ وغبطة ، وهناءٍ وسرور في بلادهم وعَيْشهم ، وما أغدق الله عليهم من النِّعم في الأرزاق والزروع والثمار ، فقد كانت مساكنهم حدائق وجناتٍ ، فيها من جميع أنواع الفواكه والثمار ، والخُضْرة والنُضْرة ما يزيد النفس بهجة ، والقلبَ سروراً وحبوراً ، فلما كذَّبوا الرسل أهلكهم الله بإرسال السيل المدمِّر ، حتى تفرقوا وتشتتوا في البلاد شَذَر مَذَر وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه ﴿ لقد كانَ لِسَبأٍ في مَسْكِنِهِمْ آيةٌ ، جنَّتانِ عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم ، وبَدَّلْناهم بجنَّتَيْهمْ جنَّتينِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهلُ نُجازي إلاّ الكفور ﴾ ؟

تبتدىء السورة الكريمة بتمجيد الله جلَّ وعلا الذي أحكم شئون العالم ودبَّره بحكمته ، فهو الخالق المالك المتصرف الذي لا يغيبُ عن علمه

مثقالُ ذرةٍ في السمواتِ والأرض ، وهذا من أعظم البراهينِ على وحدانيةِ رب العالمين ﴿ الحمدُ للهِ الذي له ما في السمواتِ وما في الأرضِ ، وله الحمدُ في الآخرة ، وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يَلِجُ في الأرضِ ، وما يَخْرُجُ منها ، وما يَنْزِلُ من السماءِ وما يَعْرُجُ فيها ، وهو الرحيم الغفور ﴾ . ثم تنتقل السورة إلى قضيةٍ هامة وهي إنكار المشركين للآخرة وتكذيبُهم بالبعث بعد المْوت ، وتأمر الرسول ﷺ أن يُقسم بربه العظيم على وقوع المعاد بعد فناء الأجساد ، وهي إحدى آياتٍ ثلاث أُمِرَ صلواتُ الله عليه أن يُقْسم بجلال الله وعظمته عليها تأكيداً للخبر ، مع أنه عليه السلام الصادق المصدوق ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ، قل بَلَى وربّي لتأتينَّكُمْ ، عالمِ الغَيْبِ لا يَعْزُب عنه - أي لا يغيبُ عن علمه - مثقالُ ذرةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ ، ولا أصغرُ من ذلكَ ولا أكبرُ إلا في كتابٍ مبين ﴾ وتأكيداً لموضوع عقيدة البعث يذكر القرآنُ الكريم شبهةَ المشركين ويردُّ عليها بالحجة الدامغةَ ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجلٍ ينبئكم إذا مُزِّقْتم كلَّ مُمَزَّق إنكم لفي خلقٍ جديد ؟ أفْترى على الله كذباً أم به جِنَّةٌ ؟ بلِ الذينَ لا يؤمنونَ بالآخرةِ في العذابِ والضلالِ البعيد . أفلم يَرَوْا إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهم من السماء والأرضِ ، إنْ نَشأْ نَخْسِفْ بهم الأرضَ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء ، إنَّ في ذلك لآيةً لكل عبدٍ منيب ﴾ .

وتنتقل السورة للحديث عن أنبياء بني إسرائيل وتخصُّ بالذكر « داودَ » وولدَه « سليمانَ » عليهما السلام وما سخَّر الله لهما من أنواع النعم الجليلة ، كتسخير الريح لسليمان وتسخير الجنّ له ليقوموا بالأعمال الشاقة التي يعجز عنها البشر ، وتُركِّز على ناحية « الأمور الغيبية » التي كان الاعتقاد السائد أن الجنَّ يعلمونها فتبطل ذلك الاعتقاد الفاسد ،

وتبيّن أن الغيب خاصٌ بالله جل وعلا وحده ﴿ولسليمانَ الريحَ غُدوُّها شهرٌ وَرَوَاحُها شهرٌ ، وأَسَلْنـا له عَيْنَ القِطْرِ ، ومن الجنّ من يعملُ بينَ يديهِ بإذنِ ربه ، ومَنْ يَزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجفَانٍ كالجوابِ وقدورٍ راسيات ، إعملوا آلَ داود شكراً ، وقليلٌ من عباديَ الشكور . فلمَّا قَضَيْنا عليهِ الموتَ مادلَّهُم على موتِه إلا دابَّةُ الأرضِ تأكل مِنْسَأَتَه – أي عصاه التي كان يتوكأ عليها – فلما خرَّ تبيَّنتِ الجنُّ أَنْ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين﴾ .

وتتحدث السورة عن المشركين وتقيم الأدلة والبراهين على أن الله تعالى هو الخالق الرازق لا تلك الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تستجيب لداعيها ﴿قل من يرزقكم من السمواتِ والأرض؟ قل اللهُ ، وإنَّا أَوْ وإيّاكم لَعَلَى هدىً أو في ضلالٍ مبين . قل لا تُسْألون عمَّا أجرمنا ولا نُسأل عمّا تعملون . قل يجمع بيننا ربُّنا ثم يَفْتَحُ بيننا بالحقِّ ، وهو الفتَّاحُ العليم . قل أَروني الذينَ ألحقتمْ به شركاء؟ كلاّ بل هو الله العزيز الحكيم﴾ . وتتحدث السورة عن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فتثبتُ أنه مرسلٌ من عند الله إلى جميع الخلق ، وتردُّ على استهزائهم بالحشر والنشر بأنه آتٍ لا محالة ، وله وقت محدود لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناسِ بشيراً ونذيراً ، ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلمون . ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين؟ قل لكم ميعادُ يومٍ لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون﴾ .

ولمّا كان تكذيبهم برسالة محمد عليه السلام يستلزم تكذيبهم للقرآن العظيم المُنَزّل عليه ، ذكر تعالى قول المشركين الصريح الواضح في عدم الإيمان بهذا القرآن ولا بما أخبر عنه من أمور الحساب والجزاء والبعث

والنشور ، وذكر حالهم المفزع المخزي يوم الدين ﴿ وقالَ الذينَ كفروا لن نؤمنَ بهذا القرآنِ ولا بالذي بين يديه ، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يَرْجعُ بعضُهم إلى بعضٍ القول ، يقول الذين استُضْعِفُوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنَّا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استُضعِفُوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ وتسليةً لرسول الله ﷺ عمَّا يلقاه من المشركين تذكر السورة تكذيب الأمم لرسلهم ، فليس محمدٌ أولَ رسولٍ يَلْقى مثلَ هذا الاستهزاء والتكذيب ، وتذكر كذلك سبب الطغيان الذي دفعهم إلى عدم الإيمان ، وهو اغترارهم بما منحهم الله من المال والبنين ، ظناً منهم أن كثرة المال دليلٌ على رضى الله عنهم وأنهم على حقٍّ ونورٍ وبصيرة ﴿ وما أرسلنا في قريةٍ من نذيرٍ إلا قال مُترفوها إنَّا بما أُرْسِلتُم به كافرون . وقالوا نحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذَّبين . قل إنَّ ربي يبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلمون . وما أموالكمْ ولا أولادُكم بالتي تُقرِّبكم عندنا زلْفى ، إلا مَنْ آمنَ وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاءُ الضِعْفِ بما عَمِلوا وهم في الغُرُفاتِ آمنون﴾ .

وتختم السورة الكريمة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالله الواحد القهار ، وإخلاصِ العبادة والتوجهِ له وحده ، وأن يتفكروا في شأن هذا الرسول الذي بُعث منهم ، وهم يعرفون سيرته وحياته ، وصدقه وأمانته ، فليس هو بمتَّهم وليس به مسٌّ منَ الجُنون ﴿ قل إنما أعِظكم بواحدةٍ أن تقُوموا للهِ مَثْنى وفُرادَى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنَّة ، إنْ هو إلا نذيرٌ لكم بينَ يَدَيْ عذابٍ شديد . قل ما سألتكُمْ من أَجرٍ فهو لكم ، إنْ أجريَ إلاّ على الله وهو على كل شيء شهيد ... إلى نهاية السورة الكريمة ﴿ وحيلَ بينهم وتبينَ ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قَبْلُ ، إنهم كانوا في شك مريب﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة سبأ[١]

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[١]

قوله[٢] عز وجل: **الحمد لله**، قال أهل التأويل: حمد نفسه بأن صنع إلى خلقه. ثم هو يخرج على وجهين. أحدهما على التعليم لخلقه الحمد له والثناء عليه لآلائه وإحسانه إلى خلقه ما لو لا تعليمه إياهم الحمد له والثناء عليه لم يعرفوا ذلك. والثاني حَمِد نفسه لما لم يَرَ[٣] في وسع الخلق القيام[٤] بغاية الحمد له والثناءِ عليه على آلائه وأَيادِيه فتولّى ذلك بنفسه، وهو ما ذكرنا[٥] في قوله: صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا،[٦] فقالوا: قد[٧] عرفنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال:[٨] «أن[٩] تقولوا: اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد...» إلى آخره.[١٠] فهذا تفويض الصلاة إلى الله والدعاء له أن يصلّي هو عليه دونهم. فهو -والله أعلم- كأنه لم ير فيهم وسع القيام بحقيقة الصلاة عليه ولا بغاية الثناء، فأمرهم / أن يفوّضوا ذلك إليه ليكون هو القاضيَ لذلك عنهم، [٦١٥و]

---

[١] ر - سورة سبأ؛ ن: ذكر أن سورة سبأ نزلت بمكة؛ ث + وهي خمسون وأربع آيات مكية؛ م + مكية.

[٢] ن: وقوله.

[٣] ر م + نفسه لما لم ير. لما لم ير: أي لما علم الله تعالى في الأزل...

[٤] ر ث م: والقيام.

[٥] ر ث م: ما ذكر.

[٦] ﴿إن الله وملائكته يصلّون على النبيّ يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا﴾ (سورة الأحزاب، ٥٦/٣٣).

[٧] ر - قد.

[٨] ر: فقالوا.

[٩] ن: وأن.

[١٠] مصنف *عبد الرزاق*، ٢١٢/٢؛ ومسند *أحمد بن حنبل*، ٢٤١/٤، ٢٤٣؛ وصحيح *البخاري*، التفسير ١٠/٣٣؛ وصحيح *مسلم*، الصلاة ٦٦. انظر: تأويل هذه الآية من *تأويلات القرآن*.

فعلى ذلك الحمدُ له.[1] وأصل الحمد له هو الثناء عليه بجميع محامده وإحسانه بأسمائه[2] الحسنى والشكرُ له على جميع نَعْمائه وآلائه.[3]

وقوله: **الذي له ما في السماوات وما في الأرض**، كأنه قال -والله أعلم-: الحمد لله الذي له[4] ملك السماوات والأرض وهو المستحق لذلك، لا الأصنام التي[5] عبدتموها وسميتموها آلهة.

وقوله: **وله الحمد في الآخرة**، قال[6] بعضهم: **له الحمد في الآخرة**، أي يحمده[7] أهل الجنة إذا دخلوا الجنة، كقوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي هَدَانَا لِهٰذَا،[8] وقوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ،[9] وقوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ،[10] ونحوه؛ يحمده أولياؤه في[11] الآخرة ويحمده أولياؤه في[12] الأولى، كقوله: لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ.[13] وجائز أن يكون قوله: **له الحمد في الآخرة**، أي له الحمد في إنشاء الآخرة، لأن إنشاء الدنيا وما فيها إنما كان حكمة بإنشاء الآخرة، ولو لم يكن إنشاء الآخرة لكان خلق ذلك كله عبثًا باطلاً. فأنشأ الآخرة حتى صار إنشاء الدنيا وما فيها من الخلائق حكمة، فأخبر أن له الحمدَ على إنشاء ما صار له إنشاء الدنيا حكمة. ***والله أعلم***.

وقوله: **وهو الحكيم الخبير**، قد تقدّم معنى الحكيم والخبير في غير موضع،[14] وهو الذي لا يلحقه الخطأ في التدبير، وهو الواضع كل شيء موضعه. والفلاسفة يقولون: "الحكيم"

---

[1] ر ث م: لله.

[2] ر ث م: بأسماء.

[3] ر: الآية.

[4] ث - له.

[5] ن: الذي.

[6] ر ث م: وقال.

[7] ر ث م: يحمد.

[8] ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ (سورة الأعراف، ٤٣/٧).

[9] ﴿وقالوا الحمد لله الذي صَدَقَنا وعدَه وأَوْرَثَنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾ (سورة الزمر، ٧٤/٣٩).

[10] ﴿جنات عدن يدخلونها يُحَلَّوْن فيها من أساوِرَ من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الْحَزَنَ إن ربنا لغفور شكور﴾ (سورة فاطر، ٣٣/٣٥-٣٤).

[11] ر م: وفي.

[12] ر م: وفي.

[13] سورة القصص، ٧٠/٢٨.

[14] انظر مثلا تفسير الآية ١٨ من سورة الأنعام.

هو الذي يجمع العلم والعمل جميعًا، وهو ما ذكرنا.[١] أو، **الحكيم**، لِما أحكم كل شيء وأتقنه حتى شهد كل شيء على وحدانيته ودل على إلٰهيته.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾[٢]

وقوله: **يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها**. يخبر أن الأرض مع كثافتها وغِلَظِها لا يَحْجُب عنه[٢] ما يدخل فيها وما يخرج منها، وكذلك السماء مع صلابتها وشدّتها لا يحجب عنه شيء كما يحجب عن الخلائق. أو يخبر أن كثرة ما يدخل في الأرض ويخرج منها وازدحامَه، وكثرةَ ما ينزل من السماء من الأمطار وما يعرج إليه من الدعوات والملائكة لا يَشغله؛ أي علمه بشيء لا يشغله[٣] عن العلم بالآخر كما يشغل الخلائق، لأنه عالم بذاته لا بسبب، والخلق عالمون بأسباب، فعِلمهم بشيء[٤] بسبب يشغلهم عن الأسباب الأخر. فأما الله سبحانه يتعالى عن أن يَشغله شيء أو يَحجُب عنه شيء. **وهو الرحيم الغفور**.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٣]

وقوله: **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم**، قال بعضهم: إنهم أقسموا باللّات والعُزّى أن لا بَعْثَ ولا حياة بعد الموت، فأمرا الله نبيّه أن يقسم بالله الواحد [أن يأتيهم][٥] بعث وقيامة بقوله: **قل بلى وربي لتأتينّكم**. وجائز أن يكون على غير هذا، وهو ما قال في آية أخرى، حيث قال: وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا،[٦] هم أقسموا بالله أنه لا يَبْعث من يموت، فأمر رسوله في هذه الآية أن يقسم بالله الذي أقسموا هم أنه يبعث، وهو قوله: **قل بلى وربي لتأتينّكم**، وكان قَسَمه بما أقسم عندهم أصدق من قسمهم، لأنهم لم يأخذوا عليه كذبًا قطّ ولا اتهموه في شيء.

[١] انظر تفسير الآية ٣٤ من سورة الأحزاب.
[٢] ر م: لا تحجب عنه.
[٣] ر م – أي علمه بشيء لا يشغله.
[٤] ر ث م – بشيء.
[٥] جميع النسخ + بلى. والزيادة من *الشرح*، ورقة ٦١٤و.
[٦] سورة النحل، ٣٨/١٦.

يدلّ على ذلك ما أخبر الله عنهم، حيث قال: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ،[1] أخبر أنهم لا يكذبونك في مقالتك ولكنّ همّتهم جحود الآيات والإنكار لها، فيكون قسمه مقابل قسم أولئك في إنكارهم البعثَ ليعلموا كَذِبَ أنفسهم في قسمهم بقسم رسول الله بما ذكرنا. ***والله أعلم.***

وقوله: **عالمِ الغيب**، بالخفض، وقد قرئ: "عالمُ الغيب" بالرفع، و"علّامِ الغيب"،[2] فمن خَفَضَه جعله صفة ونعتًا[3] لما تقدم من قوله: **قل بلى وربي ... عالمِ الغيب**، ومن رفعه يجعله على الابتداء ويجعل الكلام تامًّا[4] بقوله:[5] **وربي لتأتينّكم**، ثم استأنف فقال: **عالمُ الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة.** ثم قوله: **لا يعزُب عنه**، قد قرئ برفع الزاي وبخفضها "لا يعزِب"، كلاهما[6] لغتان.[7] والعازب في كلام العرب الغائب. وقال بعضهم: **لا يعزب**، أي لا يبعد، وهما واحد.

وقوله: **لا يعزب عنه مثقالُ ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر**، وقال في الأولى: يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا،[8] جائز أن يكون هذه الآية في جواهر الأشياء وأجناسها المختلفة،[9] لأنه أخبر عن علمه بما يلج في الأرض وما يخرج منها وما يصعد فيها وما ينزل، وذلك علم جواهر الأشياء، وقوله: **لا يعزب عنه مثقال ذرة**، إلى آخر ما ذكر، في الأفعال والأعمال، يخبر أنه لا يخفى عليه شيء ولا يغيب عنه شيء من أفعالهم وأعمالهم ليكونوا أبدًا على حذر.

---

[1] سورة الأنعام، ٦/٣٣.

[2] ر ث م: الغيوب. «قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ورُوَيْس عن يعقوب ﴿عالمُ الغيب﴾ بالرفع، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ورَوح وزيد عن يعقوب وخلف ﴿عالمِ الغيب﴾ بالخفض، وقرأ حمزة والكسائي ﴿علّامِ الغيب﴾ بالخفض واللام قبل الألف» (*المبسوط في القراءات العشر* لابن مهران، ٣٦٠).

[3] ر م: نفيا.

[4] ر: فأما.

[5] ر: في قوله.

[6] جميع النسخ: وكلاهما. والتصحيح من نسخة جارالله، ٢ظ.

[7] قرأ الكسائي وحده ﴿لا يعزِب﴾ بكسر الزاي، وقرأ الباقون ﴿لا يعزُب﴾ بضم الزاي» (*المبسوط في القراءات العشر* لابن مهران، ٢٣٥).

[8] الآية السابقة.

[9] م – المختلفة.

ألا ترى أنه ذكر على إثر ذلك الجزاء، حيث قال: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.[١] أو أن يكونا واحدًا، لأنه[٢] ذَكَر في الآية الأولى الداخل في الأرض والخارج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ولم يذكر في ذلك الساكن فيهما والمقيم وما يكون فيهما،[٣] فذكر ذلك في قوله: **لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض،** يخبر عن إحاطة علمه بالأشياء كلها من الساكنة والمقيمة والمتحرّكة والمنقلبة[٤] فيهما. ***والله أعلم.***

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٤]

/ وقوله: **ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم،** [٦١٥ظ] المغفرة هي التغطية والستر. ثم يكون الستر بوجهين. أحدهما يستر[٥] على أعين الزلات وأنفسها[٦] أن لا تُذكَر، والثاني يستر بالجزاء الحسن[٧] إذا لم يجز للزلات. هذا للمؤمنين، يستر عليهم الزلات مرة بترك ذكرها ومرةً بترك الجزاء عليها. وأما الكافر فإنه إذا جُزِيَ على سيئة فقد أظهر وأفشى[٨] ولم يستر عليه.[٩] أو أن يكون قوله: **أولئك لهم مغفرة،** أي سَتْر، وهو أنه[١٠] إذا أدخلهم[١١] الجنة أنساهم زلّاتهم حتى لا يذكرون أبدًا، لأن ذكر زلّاتهم لربهم ينغّص عليهم لذّاتهم وتنعمهم. وقوله: **ورزق كريم،** قيل: الكريم الحسن. وجائز أن يكون سمّاه كريمًا لأن من ناله كرُم وشرُف، كقوله: أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ.[١٢] ***والله أعلم.***

---

[١] الآية التالية.
[٢] جميع النسخ: إلا أنه. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٢ظ.
[٣] ر: فيما.
[٤] ر ث: والمتقلبة.
[٥] م - يستر.
[٦] ر ث م: أنفسها.
[٧] ن: الجزاء.
[٨] ر م: وفشى.
[٩] وعبارة السمرقندي رحمه الله هكذا: «وأما الكافر إذا جزي على سيئة فقد أظهرها الله تعالى في القيامة ولم يسترها عليه» (ورقة ٦١٤و).
[١٠] ن + إنهم.
[١١] ر: إذا دخلهم.
[١٢] سورة المعارج، ٣٥/٧٠.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾[٥]

وقوله: **والذين سعَوْا في آياتنا معاجزين،** يحتمل حقيقة سعيهم في آياته بما ذكر، كقوله: وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ،[١] ذكر مرورهم عليها والإعراض عنها فهو سعي. وجائز على التمثيل، أي يعملون عمل من أعجز الآيات للجحود لها والرد والعناد. والمعجز هو السابق،[٢] وقوله:[٣] وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ،[٤] أي سابقين[٥] فائتين، أي لا تُعجزوني[٦] ولا تفوتوني.[٧] **أولئك لهم عذاب من رجز أليم،** الرجز العذاب الأليم، أي مؤلِم، وذلك جائز في اللغة. وقال أبو عَوْسَجَة: المعاجز الهارب، يهرب لكي يُعجز.[٨]

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٦]

وقوله: **ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق،** قال بعضهم: **الذين أوتوا العلم،** هم مؤمنو[٩] أهل الكتاب الذين أوتوا العلمَ:[١٠] علمَ التوراة والإنجيل وغيرهما.[١١]

---

[١] سورة يوسف، ١٠٥/١٢.

[٢] جميع النسخ: المسابق. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٣و.

[٣] جميع النسخ - وقوله. والزيادة من المرجع السابق.

[٤] سورة العنكبوت، ٢٢/٢٩؛ وسورة الشورى، ٣١/٤٢.

[٥] جميع النسخ: مسابقين. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦١٤و.

[٦] ر م: لا يعجزوني.

[٧] جميع النسخ: ولا تفوتون عني. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٣و.

[٨] «أعجزتُ فلانا وعجّزته وعاجزته: جعلته عاجزا. قال: ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ [التوبة ٢/٩]، ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ [الشورى ٣١/٤٢]، ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ [الحج ٥١/٢٢]، وقرئ: "مُعَجِّزين"؛ فمعاجزين قيل: معناه ظانّين ومقدّرين أنهم يُعجزوننا؛ لأنهم حسبوا أن لا بعث ولا نشور فيكون ثواب وعقاب، وهذا في المعنى كقوله: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا﴾ [العنكبوت ٤/٢٩]، و"معجّزين": ينسبون إلى العجز من تبع النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك نحو: جهّلته وفسّقته، أي: نسبته إلى ذلك. وقيل معناه: مثبّطين، أي: يثبطون الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، كقوله: ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ [الأعراف ٤٥/٧]» (*المفردات* للراغب الإصفهاني، ٥٤٧-٥٤٨). «معنى الإعجاز الفوت والسبق. يقال: أعجزني فلان، أي فاتني. وقال الليث: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه. وقال ابن عرفة في قوله تعالى: ﴿معاجزين﴾ أي يعاجزون الأنبياء وأولياء الله، أي يقاتلونهم ويمانعونهم ليصيّروهم إلى العجز عن أمر الله، وليس يعجز الله، جل ثناؤه، خلق في السماء ولا في الأرض ولا ملجأ منه إلا إليه» (*لسان العرب*، «عجز»).

[٩] ر ث م: هم المؤمنون مؤمنوا. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٣و.

[١٠] ن - هم مؤمنو أهل الكتاب الذين أوتوا العلم.

[١١] ر م: وغيرها.

يقول -والله أعلم-: يعلم الذين أوتوا منافع تلك الكتب أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق. أو[١] هم[٢] بأجمعهم جميعًا الذين[٣] أوتوا العلم بتلك الكتب، لِما يجدون نعته وصفته فيها، يعلمون أنه هو الحق من ربك، لكن بعضهم عاندوا ولم يؤمنوا[٤] وبعضهم قد آمنوا به. وقال بعضهم قوله: **ويرى الذين أوتوا العلم**، هم أصحاب محمد صلوات الله عليه، أي الذين أوتوا منافع ما أنزل إليك هم يعلمون أنه هو الحق من ربك، فأما من لم يُؤتَ منافع العلم فلا يعلم ذلك. وفي حرف ابن مسعود "ويعلم الذين أوتوا الحكمة من قبلُ الذي أنزل إليك من ربك هو الحق"، يعني القرآن.[٥]

وقوله: **ويهدي إلى صراط العزيز الحميد**، قوله: **يهدي**، يحتمل يدعو، ويحتمل، **يهدي**، أي يبيّن لهم صراط العزيز الحميد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٧]

وقوله: **وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبِّئُكم**. كان بعضهم يقول لبعض: هل ندلكم على رجل ينبِّئُكم[٦] إذا مُزِّقتم كل ممزَّق إنكم لفي خلق جديد، قوله: **إذا مزقتم**، يحتمل أن قالوا: إنه[٧] يقول: إذا تفرقت جوارحكم وأعضاؤكم تكونون[٨] خلقًا جديدًا. فإن كان على هذا فهو -والله أعلم- كأنه من أهل الدهر ذلك القولُ، لأنهم يقولون بقِدم العالَم ولا يقولون بفنائه. لأن أهل مكة كانوا فرقتين، فرقة تذهب مذهب أهل الدهر، وفرقة يقولون بحدث العالَم ويقرّون بفنائه لكنهم ينكرون إحياءه بعد الفناء. فإن كان ذلك من هؤلاء فيكون قوله: **ينبِّئُكم إذا مزّقتم كل ممزّق**، أي إذا ذهبت أجسادكم وفَنِيتَ اللحوم والعظام وكنتم رمادًا ورُفاتًا، **إنكم لفي خلق جديد**، أي تكونون[٩] خلقًا جديدًا. يخرج ذلك منهم على أحد وجهين. إما على استبعاد[١٠]

---

[١] جميع النسخ - أو. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ٣و.
[٢] ر ث م - هم.
[٣] ر م: الذي.
[٤] ر ث م + به.
[٥] *تفسير مقاتل بن سليمان*، ٥٩/٣.
[٦] ن - كان بعضهم يقول لبعض هل ندلكم على رجل ينبئكم.
[٧] جميع النسخ: للنبي. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ٣ظ.
[٨] ر م: تكونوا.
[٩] ن: يكونون.
[١٠] جميع النسخ + في. والتصحيح من المرجع السابق.

ذلك في أوهامهم وعقولهم، أي لا يكون ذلك. أو على التعجّب أن كيف يكون ذلك؟ فقالوا[1] عند ذلك [كما أخبر عنهم بقوله]:[2]

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾[٨]

أفترى على الله كذبًا أم به جنة، يقولون: أفترى محمد على الله كذبًا أم به جنون؟ إذ لم يُسْمَع ذلك من أحد من قبل، ولا رأينا ذلك أنه كان ما ذَكَر. فرد الله ذلك عليهم وقال: **بل الذين لا يؤمنون بالآخرة**، أي بالبعث والإحياء بعد الموت هم المفترون على الله، هم **في العذاب والضلال البعيد**. فيكون العذاب لهم[3] جزاء قولهم: إنه افترى على الله، ويكون قوله: **والضلال البعيد**، جزاء قولهم:[4] أم به جنون؟ يقول: بل هم في ضلال بعيد. الضلال البعيد كأنه هو الذي لا يرجع إلى الهدى أبدًا، فتكون[5] الآية في قوم[6] عَلِم الله أنهم يُختَمون على الضلال ولا يؤمنون أبدًا، فيكون في ذلك دلالةُ إثبات الرسالة.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[٩]

وقوله: **أفلم يَرَوْا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض**، قد ذكرنا قوله: **أفلم يروا**، و أَلَمْ تَرَوْا[7] ونحوه أنه يخرج على وجهين. أحدهما أي[8] قد رأوا، على الخبر. والثاني على الأمر، أي[9] انظروا.[10] ثم يقول بعضهم:[11] حيثما قدم الإنسان رأى بين يديه من السماء

[1] ر م: فقال.
[2] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٦١٤ظ.
[3] ر م – فيكون العذاب لهم.
[4] ر م – أنه افترى على الله ويكون قوله والضلال البعيد جزاء قولهم.
[5] ر ث م: فيكون؛ ن: ويكون.
[6] ر ث م: في قولهم.
[7] م: أفلم يروا أو أولم تروا. انظر مثلا: سورة الرعد، ٤١/١٣؛ وسورة لقمان، ٢٠/٣١.
[8] جميع النسخ – أي. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ٤و.
[9] جميع النسخ: أن.
[10] جميع النسخ + إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦١٤ظ. وعبارته هكذا: «أي "انظروا"، في المخاطبة، و"انتظروا" في المعاتبة. قال قتادة: لينظروا كيف أحاطت بهم السماوات والأرض. وقيل: أي حيث ما قدم الإنسان يرى بين يديه من السماء مثل الذي خلفه وكذلك الأرض تحيط به السماء والأرض ويراهما أمامه وخلفه، وهو مثل قول قتادة».
[11] جميع النسخ + لبعض. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٤و.

مثل الذي يرى خلفه، وكذلك الأرض. وقتادة يقول: لينظروا كيف أحاطت بهم السماء والأرض، وهما واحد.[١]

إن نشأ نَخسفْ بهم الأرض، كما خسفنا بمن كان قبلهم، **أو نُسقطْ عليهم كِسَفًا من السماء**، أي عذابًا من السماء، كما أنزلنا[٢] على من كان قبلهم بالتكذيب والعناد. يذكر هذا على إثر قولهم: أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ،[٣] أي لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض لعرفوا أنه رسول الله وأنه صادق وأن ما يقوله:[٤] / إنه بَعْثٌ بعد الموت وإن العذاب ينزل، يقوله [٦١٦و] لا عن جنون ولكن على علم[٥] وعقل ومعرفة، لأن من قدر على إنشاء السماء على ما أنشأ من سَعَتِها وغِلَظِها وشدتها وكذلك الأرض قَدَر على البعث، وخسفِ من يشاء أن يَخسف، وإسقاطِ السماء على من يشاء أن يسقط. أو يقول: لو نظروا لعرفوا أنه لم ينشئ ما ذكر من السماء والأرض عبثًا باطلاً، ولكن أنشأهما على الحكمة، وإنما يصير إنشاؤهما[٦] حكمة[٧] بالبعث والإحياء بعد الموت ومصيرِهم إليه، وأما للفناء خاصة فلا يكون حكمة. والله أعلم ما أراد بذلك.

وقوله: **إن في ذلك لآيةً لكل عبد منيب**، المنيب،[٨] قيل: هو المطيع لله، وقيل: هو المقبل على أمر الله. والمنيب كأنه هو المؤمن، لأنه هو المصدّق بالآيات، فإذا كان المؤمن هو المصدق بالآيات فيكون هو المنتفعَ بها، فيكون الآية له،[٩] وأما المكذّب بها فلا ينتفع بها فلا يكون الآية له في الحقيقة آيةً.[١٠]

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[١٠]

وقوله: **ولقد آتينا داود مِنّا فضلاً**، أي علمًا، كقوله: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا.[١١] وقال بعضهم: **فضلاً**، أي نبوةً. وقال بعضهم: الفضل هو الملك الذي آتاه الله.

---

[١] *تفسير عبد الرزاق*، ٥٧/٣؛ *والنكت والعيون* للماوردي، ٤٣٤/٤.
[٢] جميع النسخ: كما أنزل.
[٣] الآية السابقة.
[٤] ر ث: وأن ما يقول.
[٥] جميع النسخ: عن علم. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٤و.
[٦] ر م: إنشاهما؛ ن ث: إنشاؤهم. والتصحيح من المرجع السابق.
[٧] م – حكمة.
[٨] م – المنيب.
[٩] ر ث م – له.
[١٠] ر ث م – آية.
[١١] سورة النمل، ١٥/٢٧.

وجائز أن يكون ما ذكر من الفضل أنه آتاه هو ما ذَكَر على إثره من تسخير الجبال له[1] والطير والتسبيح معه وإلانة الحديد له بلا نار ولا شيء، حتى اتخذ منه ما شاء أن يتخذ من الدروع[2] وآلات الحروب، وقد آتى الله داود من الفضل ما لو تكلفنا عدّه وإحصاءه ما قدرنا عليه.

وقوله: **يا جبال أوبي معه**، قيل: سبحي معه. وقوله: **والطيْرَ**، من نَصَب الطير جعلها مسخّرة له، كأنه قال: سخرنا له الطيرَ. ومن رفعها جعله على النداء: يا طيرُ أوِّبِي معه، أي سبّحي معه.[3] ثم اختلف في تسبيح الجبال والطير. قال بعضهم: تسبيح خلقة لا تسبيح قَول ونُطق، لِما جعل في خلقة كل شيء الشهادة له بالوحدانية والألوهية. لكن ذكر هاهنا أن سبّحي معه، ولو كان تسبيح خلقة لم يكن لذكر التسبيح مع داود فائدة، لأن تسبيح الخلقة يكون، كان معه داود أو لم يكن. ولكن جائز أن يجعل الله تعالى في سرّيّة الجبال مِن التسبيح ما يفهم منها داود ولم يفهم ذلك غيره، على ما ذكرنا في قِيل النملة لسائر النمل،[4] حيث قال: قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ،[5] الآية، جعل الله تعالى في سرّيّة النمل معنى ألقى ذلك في مسامع سليمان ففهم منها ذلك، ولم يلق ذلك في مسامع غيره من الجنود، فعلى ذلك تسبيح الجبال والطير. *والله أعلم*.

وقوله: **وألنا له الحديد**، جعل له آية لنبوّته لما ألان له الحديد بلا نار ولا سبب يلينه حتى كان يعمل منه ما شاء، ولم يجعل في وسع أحد من الخلائق سواه استعمال الحديد إلا بالنار وأسباب أخر، ليكون له في ذلك آية.

﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[11]

وقوله: **أن اعمل سابغات**، كأنه قال: وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ،[6] وقلنا له: **أن اعمل سابغات.** قال بعضهم: السابغات هي الدروع، وقال بعضهم: هي الواسعات. وقيل: هي الطِّوال. فكأنه أمر أن يتخذ من الدروع ما يأخذ من الرأس إلى القدم ما يَصلُح لحرب العدوّ.

---

[1] ر ث م – له.

[2] ث م: من الدرع.

[3] «قرأ رَوح وزيد عن يعقوب ﴿والطيرُ﴾ بالرفع، وقرأ الباقون ورُوَيس ﴿والطيرَ﴾ بالنصب» (*المبسوط في القراءات العشر* لابن مهران، ٣٦١).

[4] ن: النملة.

[5] ﴿حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يَحْطِمَنكم سليمان وجنودُه وهم لا يشعرون﴾ (سورة النمل، ١٨/٢٧).

[6] الآية السابقة.

وقوله: **وقدّر في السرد**، قال بعضهم: كانت الدروع قبل ذلك صفائحَ مضروبةً، فَسَرد[١] نبيُّ الله حَلَقَها[٢] بعضَها في بعض، والسرد المسامير في الحلق.[٣] يقول: قَدِّر المسامير في الحلق، لا تُدِق[٤] المساميرَ وتُوسِعَ[٥] الحلق فتسلْسَلُ،[٦] ولا تُضَيِّقِ الحَلقَ وتُعظِمَ المسامير فتَقْصَمُ وتَكَسَّرُ، ولكن [اصنعْ] مستويًا لتكون أحكم. وقال[٧] أبو عَوْسَجَة والقُتَبِي: **وقَدِّرْ في السرد**، أي في النسج،[٨] أي لا تجعل المسامير دِقاقًا فتَقْلَق،[٩] ولا غلاظًا فتَكْسِر الحلقَ. ومنه قيل لصانع الدروع: سرّاد وزرّاد، كما يقال: صِراط وسِراط وزِراط.[١٠] والسرد الخَرْز[١١] أيضًا. وقال غيره: السرد الخُرُوق في طبق الحلق وإدخال الحَلَق بعضِها في بعض.

وقوله: **واعملوا صالحًا**، جائز أن يكون قوله: **اعملوا صالحًا**، فيما ذكر من عمل الدروع، ويحتمل في غيره من الأعمال. **إني بما تعملون بصير**، هو على الوعيد. ***والله أعلم***.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[١٢]

وقوله: **ولسليمان الريح غدوَها شهرٌ ورواحها شهرٌ**، كأنه يقول: سخرنا لسليمان الريح، كما ذكر[١٢] في آية أخرى: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ.[١٣]

---

[١] سَرَد الدرع: نسجها فشكّ طرفَيْ كل حلقتين وسَمَرهما أي شدها. والسَّرْد أيضا: اسم جامع للدروع وسائر الحلق، بطريق التسمية بالمصدر (*المعجم الوسيط*، «سرد»).

[٢] ن ث: حلقا. الحَلَق: جمع حَلْقَة، وكل شيء استدار.

[٣] ر م: والحلق. المسامير: جمع مسمار، وهو ما يصنع من حديد ونحوه وأحدُ طرفيه بينّ والآخر ذو رأس، يُدق في الخشب وغيره للتثبيت (*المعجم الوسيط*، «سمر»).

[٤] ر: لا بدق.

[٥] ر م: وتوقع.

[٦] ر ث: فتسلسل.

[٧] ر ث م: قال.

[٨] ر: التسبيح.

[٩] أي لا تستقرّ على حال.

[١٠] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٥٤. وانظر: *الجامع لأحكام القرآن* للقرطبي، ٢٢٨/١؛ و*لسان العرب*، «زرط».

[١١] ن: المحرز.

[١٢] ر م: كما ذكرنا.

[١٣] سورة ص، ٣٦/٣٨.

وقوله: **غدوّها شهر ورواحها شهر**، أي[1] تجري به الريح في غدوّها مسيرة شهر وفي رواحها مسيرةَ شهرٍ وذلك آية له. فمثلها من الآية كان لرسول الله حيث أُسْرِيَ في ليلة واحدة مسيرةَ شهرين من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.[2] وما كان لسليمان من المُلْك بالأعوان[3] من الجن والإنس كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، حيث قال: «نُصرتُ بالرُّعب مسيرةَ شهرَيْن»،[4] فإن لم يكن ما[5] ذكر من الرعب مسيرة شهرين[6] أعظم مما كان لسليمان فلا يكون دونه. وما كان لأبيه داود من إلانة الحديد له بلا سبب وما ذكر[7] كان لمحمد انشقاق القمر،[8] وذلك أعظم في الآية مما ذكر. وما كان لموسى من انفجار العيون من الحجر[9] كان لمحمد من أصابعه، حتى ذكر أنهم كانوا ألفًا وأربعمِائَةِ نفرٍ شربوا جميعًا منه ورَوُوا،[10] فذلك إن لم يكن أعظم في الآية لا يكون دونه. وما كان لعيسى من إحياء الله الموتى وإجرائه على يديه،[11] كان لمحمد مقابلَ ذلك كلام الشاة المَصْلِيَة[12] المسمومة التي أخبرته "أني مسمومة فلا تتناول مني"، لمّا أراد التناول منها.[13] [٦١٦ظ] فآياته كثيرة / حتى لم تذكر لأحد من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم آيةٌ إلا ويمكن أن يذكر لمحمد جميعًا مقابل ذلك مثلها أو أعظمُ منها. ثم يحتمل ذكر ملك سليمان وأبيه لئلا يَحْسُدوا محمدًا عليه الصلاة والسلام على ما أعطاه الله له من الملك والشرف، ليعرفوا أنه ليس هو المخصوص بالملك والشرف، ولكن له في ذلك شركاء وإخوان أعطاهم الله مثل ذلك. ***والله أعلم.***

---

[1] ث – أي.

[2] يقول الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (سورة الإسراء، ١/١٧).

[3] ر: الأعوان.

[4] *المعجم الكبير* للطبراني، ٦١/١١، ٦٤؛ و*السنن الكبرى* للبيهقي، ٦٠٨/٢. وفي الرواية المشهورة: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (*مسند أحمد بن حنبل*، ٣٠١/١؛ وصحيح *البخاري*، التيمم ١؛ وصحيح *مسلم*، المساجد ٣).

[5] جميع النسخ: مما. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٥و.

[6] ر م – فإن لم يكن مما ذكر من الرعب مسيرة شهرين.

[7] انظر: الآية السابقة.

[8] جميع النسخ + له. يشير إلى قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ (سورة القمر، ١/٥٤) وما روي في تفسيرها من الأحاديث.

[9] انظر: سورة البقرة، ٦٠/٢؛ وسورة الأعراف ١٦٠/٧.

[10] م: ورووا. *مسند أحمد بن حنبل*، ٤٠١/١؛ وصحيح البخاري، الأشربة ٣١؛ وسنن *النسائي*، الطهارة ٦١.

[11] انظر: سورة آل عمران، ٤٩/٣؛ وسورة المائدة، ١١٠/٥.

[12] ن – المصلية. المَصْلِيَّة المَشْوِيَّة (*لسان العرب* «صلا»).

[13] سنن *الدارمي*، المقدمة ١١؛ وسنن *أبي داود*، الديات ٦.

وقوله: **وأَسَلنا له عين القِطْر**، قيل: النحاس، وقيل: الصُّفْر. قيل: أسيلت له يعمل بها[1] ما أحبّ، كما أُلين[2] لأبيه الحديد فيعمل به ما أحبّ من الدروع وغيرها بلا سبب. *وقال[3] [٦١٦ظ س٢٦] أبو عَوْسَجة والقُتَبِي: **وأسلنا له عين القطر**، أي أَذَبْنا له عين النحاس.[4]* ***والله أعلم***.

وقوله: **ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه**، قيل: بأمر ربه، أي سخر الله الجن له وأمرهم بطاعته في جميع ما يأمرهم فيما أحب، شاءوا أو كرهوا. يخرج قوله: **بإذن ربه**، على وجهين. أحدهما على التسخير له فيكون الإذن كناية عن التسخير. والثاني، **بإذن ربه**، أي بأمر ربه، أي أمرهم ربهم أن يطيعوه في جميع ما يأمر وينهى. وقوله: **ومن يَزِغ منهم عن أمرنا**، أي عصاه فيما أمره به، **نُذِقه** ما ذكر. تحتمل[6] إضافة الأمر[7] إلى نفسه لما يأمره ما يستعملهم فيما يستعملهم.[8] ***والله أعلم***.[9]

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[١٣]

وقوله: **يعملون له ما يشاء من محاريب**، قال بعضهم: المحاريب هي المساجد، وقال بعضهم: هي القصور. والمحاريب هي أشرف المواضع، ذكر كناية عن غيرها. ***والله أعلم***.

وقوله: **وتماثيل**، قال بعضهم: هي التماثيل كهيئة تماثيل الرجال، يصوّرون في المساجد تماثيل الرجال العبّاد الزهّاد والملائكة والنبيّين والرجال المتواضعين، لكي إذا رآهم الناس مصوَّرًا عبدوا عبادتهم وتشبّهوا بهم. أو أن تكون تماثيل لا رأس لها، نحو الأواني والكيزان ونحوها. أو أن تكون[10] التماثيل يومئذ غير منهيّ العمل بها، فأما اليوم فقد نهوا عن العمل بها مخافة

---

[1] جميع النسخ: يعمل به. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦١٥و.
[2] ن + به.
[3] ر ث م: قال.
[4] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٥٤.
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٦١٦ظ/سطر ٢٦.
[6] جميع النسخ: يحتمل.
[7] جميع النسخ: أمره. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٥ظ.
[8] وعبارة *الشرح* هكذا: «وإنما أضاف أمره إلى نفسه لأن الله تعالى أمرهم بأن يعملوا له إذا استعملهم فيما استعملهم، كما قال: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾» (ورقة ٦١٥و).
[9] ث – وقوله ومن يزغ منهم عن أمرنا أي عصاه فيما أمره به نذقه ما ذكر يحتمل إضافة أمره إلى نفسه لما يأمره ما يستعملهم فيما يستعملهم والله أعلم.
[10] جميع النسخ: أو أن يكون.

أن يدعو[1] ذلك إلى عبادة غير الله، وبذلك[2] غرّ إبليس قومًا حتى عبدوا الأصنام، وإلا ليس من الأصنام ولا فيها ما يغترّ به المرء على عبادته. *والله أعلم*.

وقوله: **وجِفان كالجواب**، قال بعضهم: أي قصاع كالجواب كهيئة حياض الإبل، حتى يجلس على القصعة الواحدة ألف وزيادة يأكلون منها. وقال بعضهم: **وجفان كالجواب**، أي كالجوبة من الأرض التي تحفر للماء، يصف عظم ذلك. ففيه أنهم كانوا يجتمعون في الأكل لا ينفردون به.

وقوله: **وقُدُور راسيات**، أي كانوا يتخذون له قدورًا عظامًا في الجبال التي لا تُحرَّك من مكانها،[3] **راسيات**، أي ثابتات كما ذكر، والجبال الرواسي أي الثوابت. وقال بعضهم: **وقُدور راسيات**، هي القدور العظام التي أُفرغت إفراغًا وأُكفئت[4] لعظمها إكفاءً، وهما واحد. *والله أعلم*.

وقوله: **اعملوا آلَ داود شكرًا**، قال[5] بعضهم: أي اعملوا لآل داود شكرًا، لأنه ذكر أنه ليس من زمان في ليل ونهار إلا ويكون من آل داود صائم[6] بالنهار ومصلّ[7] بالليل، أو كلام نحوه، فأمروا بالشكر لهم. وقال بعضهم: كأنه قال: اعملوا يا آل داود شكرًا لما أعطيتكم من الملك والفضل. **وقليل من عبادِيَ الشكورُ**، أي قليل من عبادي المؤمن،[8] والشكور كناية عن[9] المؤمن على ما ذكرنا في قوله: إنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ،[10] أي لكل مؤمن. *والله أعلم*.* **والشكور**، هو الفعول، والفعول[12] والفعّال هما اللذان يُكثِران الفعل، فكان "الشكور" هو الذي يعتقد الشكر لربه ويشكر مع الاعتقاد، فيكون منه الاعتقاد والمعاملة جميعًا.

---

[1] ر ن م: يدعوا.
[2] جميع النسخ: ولذلك. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٦و.
[3] ر م: مكان.
[4] ر: أو كيفيت.
[5] ن: وقال.
[6] جميع النسخ: صائما.
[7] ر ث م: ومصليا؛ ن: مصليا.
[8] ر م: المؤمنين.
[9] ن – كناية عن.
[10] انظر مثلا: سورة إبراهيم، ١٤/٥.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فنقلناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٦١٦ظ/سطر ٢٦.
[12] ن – والفعول.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[١٤]

وقوله: **فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض**، دل هذا على أن موته كان بحضرة أهله وبمشهد منهم، حيث ذكر:[١] **ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته.** ثم يذكر بعض أهل التأويل أنه سأل ربه أن يُعمي على الجن موته حتى يعلم[٢] الإنس أنهم لو كانوا يعلمون الغيب، يعني[٣] الجن، ما لبثوا في العذاب المهين. وبعضهم يقول: سأل ربه أن يعمي على الجن موته حتى يفرغوا[٤] من بناء بيت المقدس، فدأبوا حولا يعملون فلما فرغوا من بنائه خر سليمان ميتًا من عصاه وكان متكئًا عليها. وبعضهم يقول: لما حضره الموت وكان على فراشه في البيت، لم يكن على عصاه، فقال لأهله:[٥] "لا تخبروا الجنّ بموتي حتى يفرغوا من بناء بيت المقدس"، وكان بقي عمل سنة ففعلوا، فلما فرغوا من بنائه خرّ عَتَبة الباب،[٦] فعند ذلك علمت الجن بموته. *والله أعلم.*

وقوله: **فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين،** وفي حرف[٧] ابن مسعود: "فلما قضينا عليه الموت وهم يَدأبون له حولاً ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت[٨] الإنس[٩] أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين"،[١٠] لأنهم كانوا يدّعون علم الغيب فَابْتُلُوا بذلك.

ودلّ قوله: **ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض،** على أنهم كانوا لا يدنون منه لأحد وجهين. إما لهيبته وسلطانه على الناس، فإن كان ذلك فلذلك[١١] أطاع له كل شيء

[١] ن: حيث ما ذكر.
[٢] ر ث م: حتى يعلمه.
[٣] جميع النسخ: أعني. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٦ظ.
[٤] ن: تفرغوا.
[٥] ر ث م – لأهله.
[٦] جميع النسخ + والباب. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦١٥ظ.
[٧] ر ث م: في حرف.
[٨] م + الجن.
[٩] جميع النسخ: للإنس على. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٠] "وهم يدأبون له حولا" (*تفسير الطبري*، ٢٤٢/١٩؛ و*الدر المنثور*، ١٨١/١٢). "تبينت الإنس" (*تفسير عبد الرزاق*، ٦٠/٣؛ و*تفسير ابن أبي حاتم*، ٢٩١٤/٩؛ و*تفسير القرطبي*، ٢٨٢/١٧).
[١١] ر ث م – فلذلك.

[٦١٧و] / وخضعوا[١] له من الجن والطير والوحش وغير ذلك. أو لِما كان يُكثر[٢] العبادة لله والخضوعَ له يتوحّد ويتفرّد بنفسه لم يجترءوا أن يدنوا منه، وإلا لو دنَوا منه لرأوا فيه آثار الموتى. اللّٰهم إلا أن يكون ما ذكر بعضهم أنه قال لأهله: لا تخبروا أحدًا بموتي، وأمرهم أن يكتموا موته. *والله أعلم*.

وقوله: **تأكل مِنسأته**، قيل المنسأة العصا،[٣] سمي منسأة من النَّساء،[٤] لأنه كان بها يؤخر ما أراد تأخيره وبها يدفع ما أراد دفعه.[٥] ثم في إمساكه العصا أحد وجهين. إما لضعفه في نفسه كان يتقوّى بها في أمور ربه، أو يمسكها لخضوعه لربّه[٦] وطاعته له.

وفيه دلالة أن الأنبياء والرسل[٧] عليهم السلام[٨] كانوا لا يَشغلهم الملك وفضل الدنيا، ولا الحاجة ولا الفقر عن القيام بأمر الله وتبليغ الرسالة إلى الناس، وهما شاغلان لغيرهم. وهم كانوا فريقين: فريق[٩] قد وُسّع[١٠] عليهم الدنيا نحو سليمانَ وإبراهيمَ وغيرهما، وفريق قد اشتدّت بهم الحاجة والفقر، وكلاهما مانعان شاغلان[١١] عن القيام بأمور الله وتبليغ الرسالة، لِيُعلم أنهم لم[١٢] يأخذوا من الدنيا ما أخذوا للدنيا ولكن أخذوا للخلق، ولِله قاموا فيما قاموا،[١٣] لذلك لم يشغلهم ذلك عن القيام بما ذكرنا. *والله أعلم*.

ودلّ قوله: **ما لَبِثوا في العذاب المُهين**، أنه[١٤] كان يأمرهم ويستعملهم في أمور شاقة وأعمال صعبة حيث ذكر لبثهم في ذلك لُبثًا في العذاب المهين. *والله أعلم*.

---

[١] م – وخضعوا.
[٢] ن: ليكثر.
[٣] ر م: العصى.
[٤] النَّساء: التأخير.
[٥] ن – دفعه.
[٦] جميع النسخ: ربه. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٧و.
[٧] جميع النسخ – والرسل. والزيادة من المرجع السابق.
[٨] ث: عليهم الصلاة والسلام.
[٩] جميع النسخ – فريق. والزيادة من المرجع السابق.
[١٠] م: وسع الله.
[١١] م: وشاغلان.
[١٢] ر م: لما.
[١٣] ن – فيما قاموا.
[١٤] ن + لو.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[١٥]

وقوله: **لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آية**، يحتمل الآية التي ذكر لهم في مساكنهم الجنتين اللتين ذكرهما، إحداهما[١] عن اليمين والأخرى عن الشمال، ويكون لهم فيهما عبرةٌ فتحملهم على الشكر لربهم عليهما والحمد له والثناء عليه في تلك النعم. أو يذكرهم قدرة خالقهم وسلطانه وهيبته فيحملهم ذلك على الخوف في العواقب والعِقاب على خِلافه ورجاء الثواب على طاعته، فلم يتذكروا. أو أن تكون[٢] الآية التي ذكر لهم في تبديل الجنتين[٣] اللتين كان لهم فيهما كل سعة وخصب وكل ألوان الفواكه والجواهر على غير مئونة تلحقهم،[٤] لأنه قال في غير آي من القرآن: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.[٥] فأخبر هاهنا لهم أن لهم في تبديل جنتَيهم جنتَين آية، لو اعتبروا واتعظوا[٦] لما وقعت[٧] لهم الحاجة إلى النظر في آثار من تقدم منهم، بل العبرة في ذلك لهم أكثر لأنهم عاينوا هذا على ما عاينوا من أنواع النعم ثم غيّر ذلك وبدّل عليهم، وما تقدم منهم إنما يعرفون ذلك عن خبر يبلغهم لأن أهلهم[٨] قد هلكوا، وهذا على[٩] المشاهدة والمعاينة. وقوله: **عن يمين وشمال**، قيل عن يمين الوادي وشماله، ويحتمل عن يمين الطريق وشماله، فتكون عن يمينهم وشمالهم.[١٠]

وقوله: **كلوا من رزق ربكم واشكروا له**، كأنه قالت لهم الرسل: كلوا من رزق ربكم واشكروا له، إذ ذكر أنه بعث فيهم كذا كذا رسولاً. ثم وصف بلدة سبأ أنها طيّبة، حيث قال: **بلدة طيبة**، يحتمل ما ذكر من طِيبِها هو سعتها وكثرة رِيعها ومِياهها وألوان ثمارها وفواكهها. وقوله: **ورب غفور**، أي إن ربكم إن شكرتم فيما رزقكم وأنعم عليكم ربّ[١١] غفور لذنوبكم.

---

[١] ر م: احدهما.
[٢] جميع النسخ: أو أن يكون.
[٣] انظر: الآية التالية.
[٤] ن: يلحقهم.
[٥] انظر مثلا: سورة الأنعام، ١١/٦.
[٦] م: وانقطعوا.
[٧] جميع النسخ: فلا يقع.
[٨] جميع النسخ: لأن أصلهم.
[٩] ن – على.
[١٠] ر م: وشماله.
[١١] م: ورب.

أو يقال: **وربّ غفور**، أي ستور يستر عليكم ذنوبكم ولا يفضحكم إذا صدقتموه وأطعتموه وشكرتم نعمه. ذُكر أن المرأة منهم كانت تحمل الْمِكْتَل على رأسها والمِغزل[1] بيدها فتدخل البستان فتمتلئ[2] مكتلها من ألوان الفواكه والثمار من غير أن تمسّ شيئًا بيدها لكثرة رِيعها ونُزُلها. *والله أعلم*.

ثم ذكر سبب تبديل الجنتين اللتين كانتا لهم وبما كان التبديل، وهو ما قال:

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[١٦]

فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، قال بعضهم: كان أهل سبأ إذا مُطروا يأتيهم السيل من مسيرة شهر أيامًا[3] كثيرةً فعمدوا فسدّوا العَرِم -وهو الوادي ما بين الجنتين- بالصخر[4] والقِير[5] وجعلوا عليه الأبواب. فلما عصوا ربهم وأعرضوا[6] عنه وكفروا نعمه سلّط[7] الله على ذلك السد الذي بنوا الفأرةَ، فنقبت الردْم، فغشي الماء أرضهم فعقر أشجارهم وأَبَدت[8] أنعامهم ودَفَن مجاريهم وذَهَب بجناتهم. ومنهم من يقول: "العَرِم" هو المُسَنّاة،[9] واحدها عَرِمَة،[10] فذهب السيل الذي أرسل عليهم بالمُسَنّاة[11] فيَبِست جناتهم، وأبدل لهم مكان الثمار والأعناب ما ذَكَر من الخَمْط والأثْل والسدْر، حيث قال: **ذواتي أُكُل خَمْط وأَثْل وشيء من سِدْر قليل.**

---

[1] ث + على.
[2] ن ث: فيمتلئ.
[3] جميع النسخ: أيام. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٧ظ.
[4] م: بالصخرة.
[5] القير: الزفت.
[6] جميع النسخ: فأعرضوا. والتصحيح من المرجع السابق.
[7] جميع النسخ: فسلط. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ٦١٦و.
[8] جميع النسخ: وأبد. أبدت: أي توحّشت.
[9] جميع النسخ: المسنيات.
[10] في الصحاح: العَرِم المسناة لا واحد لها من لفظها؛ ويقال: واحدها عَرِمة. والعَرِم السيل الذي لا يطاق. ومنه قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾ قيل: أضافه إلى المسناة أو السّد. وقيل: إلى الفأر الذي بَثَق السِّكْر عليهم. قال الأزهري: وهو الذي يقال له الخُلد وله حديث. وقيل: العَرِم اسم واد. وقيل: العَرِم المطر الشديد وكان قوم سبأ في نِعمة ونَعمة وجِنان كثيرة وكانت المرأة منهم تخرج وعلى رأسها الزبيل فتعتمل بيديها وتسير بين ظهراني الشجر المثمِر فيسقط في زبيلها ما تحتاج إليه من ثمار الشجر، فلم يشكروا نعمة الله فبعث الله عليهم جُرَذًا، وكان لهم سِكر فيه أبواب يفتحون ما يحتاجون إليه من الماء فنقبه ذلك الجُرَذ حتى بَثَق عليهم السِّكر فغرّق جنانهم (*لسان العرب*، «عرم»).
[11] جميع النسخ: بالمسنيات.

"الأُكُل" قيل:[١] هو الثمر. و"الخمط" قال بعضهم: هو[٢] الأراك، وقال بعضهم: شجر الغَضاة، وهي شجرة ذات شوك. و"الأثْل" قيل: هو شبيه بالطَّرفاء إلا أنه أعظم منه. و"السدر" هو معروف عندهم. وقال أبو عَوْسَجة قريبًا من ذلك، قال: "الأُكُل" الحَمْل، و"الخمط" عندي السدر وحَمْله. وقيل:[٣] "الخمط"[٤] الريح الطيبة، وتقول: هذا شجر له خمطة، أي ريح طيبة، والخمط أن تأخذ شيئًا من هنا وثمة وتَخْلِطه.[٥] و"الأَثْل" شجر أيضًا لا حمل فيه. والزجّاج يقول: "الخمط"[٦] هو الثمرة التي فيها المرارة، تَذهب تلك المرارة بطعمها، أو كلام نحوه.[٧]

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[١٧]

وقوله: **ذلك جزيناهم بما كفروا**، أخبر أنه[٨] جزاهم / بما كفروا نِعمه ولم يشكروا ربهم [٦١٧ظ]
عليها. وقوله: **وهل نجازي إلا الكفور**، لله في نعمه.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾[١٨]

وقوله: **وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قُرًى ظاهرة**، قيل متواصلة بعضُها ببعض من أرضهم إلى الشام، على كل مِيل قرية وسوقٌ وكل شيء فيها. وقوله:[٩] **وقدرنا فيها السير سِيروا فيها لياليَ وأيامًا آمنين**، من الجوع والعطش والسباع وكل ما يخاف منه.

ثم جائز أن يكون ما ذُكّر من القرى الظاهرة كانت[١٠] لهم مع الجنان التي ذكر[١١] بدءًا، فيكون هذا موصولًا بالأول، فلما لم يشكروا ربهم في ذلك كلّه أبدل لهم الكل بما ذكر.

---

[١] ر م: قليل.
[٢] جميع النسخ – قال بعضهم هو. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ٧ظ.
[٣] جميع النسخ: قال. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦١٦و.
[٤] ن: والخمط.
[٥] ن ث: فتخلطه.
[٦] ر ث م: الأثل؛ ن: والأثل.
[٧] «يقال لكل نبت قد أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله: "خمط"» (*معاني القرآن* للزجاج، ٤/٢٤٩).
[٨] ن: أنهم.
[٩] جميع النسخ – وقوله. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ٨و.
[١٠] جميع النسخ: كان. والتصحيح من المرجع السابق.
[١١] جميع النسخ: ذكرنا. والتصحيح من المرجع السابق.

وجائز أن يكون لا على الصلة بالأول ولكن على ما ذكر[1] بعض أهل التأويل أنه لما غيّر عليهم ذلك وأبدل ضاق بهم[2] الأمر فمشوا إلى رُسلهم فقالوا: ادعوا ربكم فَلْيَرُدَّ علينا ما ذهب عنا ونعطيكم ميثاقًا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، فدعوه فرد الله ذلك[3] عليهم وجعل لهم ما ذكر من قرًى ظاهرةٍ، فذكرهم الرسل ما[4] وعدوا ربهم، فأبوا فغيّر ذلك. *والله أعلم*.[5]

قسبأ؛ ذكر أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أخبرني عن سبأ، أجَبل هو أم أرض؟ قال: فقال له: «لم يكن جبلاً ولا أرضًا ولكن كان رجلاً من العرب، وَلَدَ عشْرَ قبائلَ، فأما ستٌّ[6] فتَيَامَنُوا[7] وأما أربعٌ فتشاءموا».[8] وقال بعضهم: كان سبأ رجلاً اسمه سبأ. و"سبأ" هم الذين ذكرهم الله في سورة النمل.[9] وقال بعضهم: هو اسم قرية.

وفي قوله: **وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السَّيْر**،[10] دلالة خلق الأفعال، لأنه أخبر أنه جعل بينهم وبين القرى المباركة قرًى ظاهرة والقرى ما اتخذها أهلها. ثم أخبر أنه جعل ذلك والجعل منه خلق، دلّ أنه خلق أفعال العباد. وأخبر أيضًا أنه قدّر السير فيها والسير هو فعل العباد والتقدير هو الخلق أيضًا، دلّ أنه خلق سيرهم وخلق اتخاذهم القرى. وذلك على المعتزلة لإنكارهم خلق أفعال العباد.

[1] ن ث: ذكره.
[2] ن: عليهم.
[3] ر ث م - ذلك.
[4] ر م - ما.
[5] ر م - والله أعلم.
[6] م - ست.
[7] ر ث م: فيتامنوا.
[8] ر: فيتشاءموا؛ م: فيتشاموا. روي أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ: ما هو، أرجل أم امرأة أم أرض؟ فقال: «بل هو رجل ولد عشرةً فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فمَذْحِج وكِنْدة والأَزْد والأشعَريون وأنمار وحِمْيَر عربًا كلها، وأما الشامية فلَخْم وجُذَام وعَامِلَة وغَسّان» (*مسند أحمد بن حنبل*، ١/٣١٦؛ وسنن *أبي داود*، الحروف والقراءات ١؛ وسنن *الترمذي*، التفسير ٣٤).
[9] يشير الإمام إلى قوله تعالى: ﴿فمكث غيرَ بعيدٍ فقال أحطتُ بما لم تُحطْ به وجئتُك مِن سبإٍ بنبإٍ يقين﴾ (سورة النمل، ٢٧/٢٢).
[10] جميع النسخ + سيروا فيها ليالي وأياما آمنين. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٨ظ.

وقوله: **قرى ظاهرة**، قال عامة أهل التأويل: قرى متواصلة بعضها ببعض، يسيرون من قرية إلى قرية وينزلون فيها من غير أن تقع لهم الحاجة أو يلحقهم مئونة. وجائز أن يكون قوله: **قرى ظاهرة**، أي ظاهرة[١] نِعمها بينةً.

وقوله: **وقدَرنا فيها السَّيْر سِيروا فيها لياليَ وأياما آمنين**،[٢] يحتمل قوله:[٣] **وقدرنا فيها السير سيروا فيها**،[٤] أي قدرنا فيها السير لتسيروا فيها. أو على الأمر،[٥] أي قدرنا فيها السير وقلنا لهم سيروا فيما أنعم الله عليكم[٦] وتقلّبوا فيها ليالي وأيامًا آمنين من الجوع والعدوّ وكلّ آفة. وقال بعضهم في قوله:[٧] **وقدرنا فيها السَّيْر**، أي جعلنا ما بين القرية والقرية مقدارًا واحدًا.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[١٩]

وقوله: **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا**، فيه لغات من خمسة أوجه.[٨] أحدها، **ربنا باعِد**، و[الثاني] بعِّد، كلاهما على الدعاء والسؤال. والثالث باعَدَ،[٩] و[الرابع] بعُد، و[الخامس] بعَّد. قال أبو معاذ: ولولا تغيير[١٠] الكتابة لكان يجوز "بُوعِد". ومن قرأ: "ربنا بَاعَدَ" على الخبر، وكذلك "بعُد"، ومن قرأ "بعَّد بين أسفارنا" يخرج على الشكاية عما بَعُدَ من أسفارهم. فأما على السؤال والدعاء فهو -والله أعلم- لأنهم سَئِموا ومَلّوا لكثرة ما أنعم الله عليهم ورفع عنهم المُؤَنَ وطال مُقامهم فيها سألوا ربهم أن يحوّل ذلك عنهم سفهًا منهم وجهلاً. وكان كقوم موسى حين أنزل عليهم المنّ والسلوى ورفع عنهم المُؤْنة سَئِموا ومَلّوا من ذلك[١١]

---

[١] جميع النسخ - أي ظاهره. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ٨ظ.
[٢] جميع النسخ - سيروا فيها ليالي وأياما آمنين. والزيادة من المرجع السابق.
[٣] ث - يحتمل قوله.
[٤] جميع النسخ - سيروا فيها. والزيادة من المرجع السابق.
[٥] ر م + أي قدرنا فيها السير لتسيروا فيها أو على الأمر.
[٦] ن ث: أنعم عليكم.
[٧] ن + قدرنا عليكم وتقلبوا.
[٨] انظر: *تفسير القرطبي*، ١٧/٣٠٠-٣٠١.
[٩] جميع النسخ - باعد. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ٨ظ.
[١٠] م: تغير.
[١١] جميع النسخ: في ذلك. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ٩و.

وقالوا: لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا،[1] وما ذكروا، فعلى ذلك هؤلاء. ومن قرأ "بعِّد بين أسفارنا" على الشكاية، شكا إلى ربه لما ذهب عنهم من[2] السعة والخصب وأصابهم الجهد والمؤنة. وأما قوله: "باعَد" على الخبر فكأنه كان[3] فيهم ذلك[4] كله، فيهم[5] من سَأَل تحويله، وفيهم[6] من شكا إذا زال ذلك وتحوّل، وفيهم من أخبر بزواله. وعلى ذلك يخرج قول موسى لفرعون حيث قال: لَقَدْ "عَلِمْتُ" مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ،[7] بالرفع، و لَقَدْ عَلِمْتَ، بالنصب.[8] كأنه كان ذلك من موسى الأمران جميعًا، قال في البدء:[9] "لقد علمتُ"، فلما تحقّق عند فرعون وعرف أنه من الله تعالى فعند ذلك قال: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ،[10] لَا أنه كان أحدهما، فعلى ذلك الأوّل وما يشبه ذلك. *والله أعلم*.

وقوله: **فجعلناهم أحاديث**، أي أهلكناهم إهلاكًا، وكذلك قوله: **ومزّقناهم كلَّ مُمَزَّقٍ**، أي أهلكناهم[11] كل إهلاك، حتى صاروا عظة وعبرة لمن بعدهم. وقيل:[12] **فجعلناهم أحاديث**، [أي جعلناهم أحاديث][13] للناس على حقيقة الحديث، يتحدّثون بأمرهم وشأنهم، **ومزقناهم كل ممزق**، أي فرقناهم كل تفريق، أي في كل وجه التفريق حتى وقع بعضهم بمكة وبعضهم بالمدينة وبعضهم بالشام وبعضهم بالبحرين وعمان ونحوه. *والله أعلم*.

---

[1] ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ (سورة البقرة، ٢/٦١).

[2] ر ث م – من.

[3] جميع النسخ: كانت. والتصحيح من نسخة جارالله ورقة، ٩و.

[4] ر م: وذلك.

[5] ر م: منهم.

[6] ث: ومنهم.

[7] سورة الإسراء، ١٧/١٠٢.

[8] «قرأ الكسائي وحده ﴿لقد علمتُ﴾ بضم التاء، وقرأ الباقون ﴿لقد علمتَ﴾ بفتح التاء» (*المبسوط في القراءات العشر* لابن مهران، ٢٧٢).

[9] جميع النسخ: في البدئ.

[10] ر م – بالرفع ولقد علمت بالنصب كأنه كان ذلك من موسى الأمران جميعا قال في البدء لقد علمت فلما تحقق عند فرعون وعرف أنه من الله تعالى فعند ذلك قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر.

[11] ر م – إهلاكا وكذلك قوله ومزقناهم كل ممزق أي أهلكناهم.

[12] جميع النسخ: وقال. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦١٦ظ.

[13] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٦١٦ظ.

وقوله: **إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور**، يحتمل أن يكون الصبار والشكور هو المؤمنَ، كأنه قال: إن في ذلك لعِبَرًا وعِظاتٍ لكل مؤمن. أو، **لآيات لكل صبّار**، على طاعة الله وأمره، **شكور**، لنعمه. أو **لآيات لكل صبّار**، على البلايا والمحارم، **شكور**، لنعم الله.[١] ثم [الصبر والشكر][٢] يخرج على وجهين. أحدهما في الاعتقاد له، والثاني في المعاملة. فيعتقد[٣] الصبر لربه على جميع أوامره ونواهيه[٤] والشكرَ له على جميع نَعْمائه. والمعاملة أن يصبر على ذلك ويشكر له في نعمه.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٠]

وقوله: **ولقد صدّق عليهم إبليسُ ظنّه**، اختلف في ظنه. قال بعضهم: ظنّ بهم ظنًّا فوافق ظنه فيهم حين قال: / لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً،[٥] مَن عصمتَ[٦] مني، [٦١٨و]
وما قال:[٧] لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ،[٨] إلى آخر ما ذكر، فقد صدّق ما ظن فيهم. وقال بعضهم: **صدق عليهم إبليس ظنه**، وذلك أن إبليس خُلق من نار السَّموم وخلق آدم من طين، ثم قال إبليس: إن النار ستغلب الطين، فمِن ثَمّةَ صدّق ظنّه فقال: وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ.[٩] يقول الله: **فَاتَّبَعُوه**، ثم استثنى عباده المخلصين فقال: **إلا فريقًا من المؤمنين**، يعني عباده المخلَصين فإنهم لم يتبعوه، الذين قال[١٠] [فيهم]: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ.[١١] وقال قائلون: "مِن"، هاهنا صلة، كأنه قال: فاتبعوه إلا فريقًا وهم المؤمنون، وجائز أن يكون قوله: **فاتبعوه إلا فريقًا**[١٢] **من المؤمنين**، الذين هم في الحقيقة مؤمنون،[١٣]

---

[١] ر م: - عليه.
[٢] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٦١٦ظ.
[٣] ر ث م: يعتقد.
[٤] ن ث: ومناهيه.
[٥] سورة الإسراء، ٦٢/١٧.
[٦] ر: عصمة.
[٧] ن: وقال.
[٨] ﴿إنْ يدعون مِن دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانًا مَريدًا لعنه الله وقال لأتخذنّ من عبادك نصيبًا مفروضًا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليُبتِّكنّ آذان الأنعام ولآمرنهم فليُغيِّرنّ خلْقَ الله﴾ (سورة النساء، ١١٧/٤-١١٩).
[٩] سورة الحجر، ٣٩/١٥-٤٠؛ وسورة ص، ٨٢/٣٨-٨٣.
[١٠] ث: قالوا.
[١١] سورة الحجر، ٤٢/١٥؛ وسورة الإسراء، ٦٥/١٧.
[١٢] ر م - وهم المؤمنون وجائز أن يكون قوله فاتبعوه إلا فريقا.
[١٣] ر ن م - مؤمنون.

فأما من كان عندكم من المؤمنين في الظاهر فقد اتبعوه، لأنه لا كل مؤمن عندنا هو في الحقيقة مؤمن. أو أن يكون قوله: **فاتبعوه**، أي أصحابُ الكبائر، **إلا فريقًا من المؤمنين**، وهم الذين عصمهم الله من الكبيرة، لأنَّ[1] أصحاب الكبائر قد اتبعوه[2] فيما دعاهم إليه. ***والله أعلم.***

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[٢١]

وقوله: **وما كان له عليهم من سلطان**، قال الحسن: والله ما ضربهم بالسيف ولا طعنهم بالرمح ولا أكرههم على شيء وما كان منه إلا غرور[3] وأمانيُّ[4] ووسوسة[5] دعاهم إليها فأجابوه.[6] وقال بعضهم: قوله: **وما كان له عليهم من سلطان**، أي حُجة، ليس له حجة عليهم، أي لم يُمَكَّن من الحجة عليهم،[7] ولكن إنما مَكَّن له[8] الوساوس والتمويهات، ثم جعل الله للمؤمنين مقابل ذلك حججا يدفعون بها شبهه وتمويهاته.

وقوله: **إلا لِنَعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شكّ**، هذا يخرج على وجوه. أحدها ليعلم كائنًا ما قد علمه أنه يكون. والثاني ليعلم شاهدًا للخلق ما قد علمه[9] غائبًا عنهم. والثالث يُكَنِّيَ[10] بالعلم معلومه،[11] أي ليَكُون المعلومُ، وذلك جائز في اللغة، كقوله: حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ،[12] أي الموقَن به، وذلك كثير في القرآن.

وقوله: **وربك على كلّ شيء**،[13] من الإيمان والشرك وغيره من الأعمال، **حفيظ**، عالم به.[14]

---

[1] ر ث م: ولأن.

[2] ر م – أي أصحاب الكبائر إلا فريقا من المؤمنين وهم الذين عصمهم الله من الكبيرة لأن أصحاب الكبائر قد اتبعوه.

[3] جميع النسخ: إلا غرورا. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ٩ظ.

[4] ن: أو أماني.

[5] ن: وسوسة؛ م: ووسة.

[6] *تفسير عبد الرزاق*، ٣/٦٤؛ و*تفسير الطبري*، ١٩/٢٧١.

[7] ر ث م – عليهم.

[8] جميع النسخ: لهم. والتصحيح من نسخة جارالله ورقة ٩ظ.

[9] ر م – أنه يكون والثاني ليعلم شاهدا للخلق ما قد علمه.

[10] ث: يكفي.

[11] جميع النسخ: معلومة.

[12] ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ (سورة الحجر، ١٥/٩٩).

[13] ر ن م + حفيظ. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٠و.

[14] ث – وقوله وربك على كل شيء من الإيمان والشرك وغيره من الأعمال حفيظ عالم به.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾[٢٢]

وقوله: **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله**، أنهم آلهة: الملائكة والأصنام ومن عبدوهم من دونه، هل يملكون لكم شيئًا من دفع ضُرٍ أو جر نفع؟ فيقول: **لا يملكون مثقالَ ذرة في السماوات ولا في الأرض**، ولا أصغر من ذلك ولا أكبرَ، فكيف تسمونها[١] آلهة؟ أو أن يقول: **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله**، أنها آلهة فليكشفوا عنكم الضرّ الذي نزل بكم من الجوع وغيره، كقوله: هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ،[٢] فالواجب[٣] لذلك أن يقولوا: لا يملكون مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبرَ فكيف يملكون[٤] ما ذكر؟ يذكر -والله أعلم- سفههم وفرَطهم في عبادتهم مَن يعلمون أنه لا يضر ولا ينفع، وتسميتَهم إياها آلهة.

*وقوله: **قل الدعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات** [٦١٨و س٣٧
ولا في الأرض، أي لا يملكون إنشاء ذرة في السماوات والأرض، وما لهم في إنشاء ما[٥] فيهما من شرك، وما له منهم في إنشاء ذلك[٦] من عون،[٧] فكيف تعبدونهم وتسمونهم آلهة؟* ٦١٨و س٣٩]

وما لهم فيهما، يعني في خلق السماوات والأرض وحفظهما [لـ]مَن تعبدون[٩] دونه، **من شرك وما له منهم من ظهير**، أي من عون في ذلك، فكيف سمّيتموها آلهة وشركاء في العبادة.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[٢٣]

وقوله: **ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**، يقول -والله أعلم-: لا يملك أحد الشفاعة لأحد إلا لمن أذن الله بالشفاعة[١٠] له، فهو لم يَأذن بالشفاعة لأحد من الكفرة.

---

[١] جميع النسخ: تسمونه.
[٢] ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنيَ الله بضر هل هنّ كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٣٨).
[٣] جميع النسخ: فالجواب. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٠و.
[٤] ر م: يذكرون.
[٥] ر م: إنشائها.
[٦] ن – ذلك.
[٧] ر ث م: من عود.
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٦١٨و/سطر ٣٧-٣٩.
[٩] ر ث م + من.
[١٠] ر: أذن الله له الشفاعة؛ م: أذن الله له بالشفاعة.

يذكر[1] هذا –والله أعلم– لقولهم: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ،[2] ولقولهم: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى.[3] أو يذكر أن من ترجون منهم الشفاعة بالمحل الذي ذَكَرهم من الخوف والفزع، فكيف ترجون شفاعتهم؟ كقوله: **حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم**. أو، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ،[4] ولا أصغر منه ولا أكبرَ، فكيف يملكون الشفاعة لكم؟ أو نحوه من الكلام. *والله أعلم*.

وقوله: **حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق**، ليس لهذا الحرف في ذا الموضع صلةٌ يوصَل بها، ولا تقدم ما[5] يعطف عليه، وعلى الابتداء لا يستقيم. فبعض أهل التأويل يقول: كان بين عيسى ومحمد فترة زمان طويلٍ، لا يجيء[6] فيها الرسل. فلما بعث الله محمدًا وكلم جبريل بالرسالة[7] إلى محمد سمع الملائكة ذلك فظنوا أنها الساعة قامت فصعقوا مما سمعوا. فلما انحدر جبريل جعل كلما يمرّ[8] يكلمهم[9] حتى[10] تجَلَّى عنهم وكشف، فقال بعضهم لبعض: **ماذا قال ربكم قالوا الحق**، أي الوحي. وقال بعضهم: كان الوحي إذا نزل من السماء نزل كأنه سلسلة على صخرة،[11] قال: فيفزع الملائكة بذلك فيخرون سُجدًا، **حتى إذا فُزّع عن قلوبهم**، قال: إذا انجلى عن قلوبهم، **قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير**.

---

[1] جميع النسخ: فذكر. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٠و.

[2] سورة يونس، ١٠/١٨.

[3] سورة الزمر، ٣٩/٣.

[4] الآية السابقة.

[5] جميع النسخ – ما. والزيادة من المرجع السابق.

[6] جميع النسخ: لا يجري. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦١٧و.

[7] ن – بالرسالة.

[8] ث: تمر.

[9] ر م: منهم؛ ن ث: بكل منهم. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٠ظ.

[10] جميع النسخ – حتى. والزيادة من المرجع السابق.

[11] عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الْجَرَس وهو أشده عليّ فيَفْصِم عنّي وقد وعيتُ عنه ما قال. وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فَأَعِي ما يقول». قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عَرَقًا (*صحيح البخاري*، بدء الوحي، ١).

وقوله: **حتى إذا فُزّع عن قلوبهم**، قيل: جُلّي وكُشف الغِطاء. قال الكسائي: **حتى إذا فُزّع**، مشتقة من الفزع، يقول: أُخرج ما فيها من الفزع،[١] كما تقول: هَيّبه عن قلبه ورَقّه[٢] وفَزّع، كله[٣] واحد. ومن قرأ "فُرّغ" بالراء[٤] يقول:[٥] أُخرج وتُرك فارغًا من الخوف والشُغل، وهي قراءة ابن مسعود.[٦]

وقال[٧] بعضهم في قوله: **قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق**، يقول: يخبرون بالأمر الذي جاءوا به ولا يقولون إلا الحق، لا يزيدون ولا ينقصون.*

[٦١٨ظ] وجائز أن يكون قوله: **حتى إذا فزّع عن قلوبهم / قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق**، ذلك الفزع منهم وذلك القول منهم في القيامة، فَزِعوا لقيامها. وقد قُرئ: **حتى إذا فَزّع**، بنصب الفاء،[٩] أي حتى إذا فزع الله، أي كشف الله عن قلوبهم الفزع وجلّى ذلك[١٠] عنهم. ***والله أعلم***.

[٦١٩و س٢] * قال أبو عَوْسَجة: **فُزّع**، ذُهب. وقال القُتَبي: **فزع**، خُفّف.*[١٢]

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٢٤]

وقوله: **قل من يرزقكم من السماوات والأرض**، هذا في الظاهر وإن كان استفهامًا فهو على التقرير والإيجاب، لأنا قد ذكرنا أن كل استفهام كان من الله فهو منه[١٣] على التقرير والإيجاب.

---

[١] ر م – يقول أخرج ما فيها من الفزع.

[٢] ر م: ودقه.

[٣] جميع النسخ: كل. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٠ظ.

[٤] ر ن م: بالراي.

[٥] ر ث م – يقول؛ ث + أي.

[٦] نسبت هذه القراءة إلى عبد الله بن عمر والحسن البصري وقتادة. انظر: *تفسير الطبري*، ٢٨٢/١٩، و*البحر المحيط* لأبي حيان، ٢٦٦/٧.

[٧] جميع النسخ: قال. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٠ظ.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فنقلناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٦١٨و/سطر ٣٧-٣٩.

[٩] «قرأ ابن عامر ويعقوب ﴿فَزّع﴾ بفتح الفاء والزاي، وقرأ الباقون ﴿فُزّع﴾ بضم الفاء وكسر الزاي» (*المبسوط في القراءات العشر* لابن مهران، ٣٦٣).

[١٠] م – ذلك.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية الآتية برقم ٢٧، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٦١٩و/سطر٢.

[١٢] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٥٦.

[١٣] ر ث م – منه.

ثم لو كان ذلك ممن[1] يكون منه الاستفهام لكان جواب قوله: **من يرزقكم من السماوات والأرض**، أن يقولوا:[2] "الله يرزقنا"، كقوله: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثم قال في آخره: فَسَيَقُولُونَ اللهُ.[3] فيقول لهم: فإذا علمتم أن الله هو[4] رازقكم فكيف صرفتم عبادتكم عنه إلى مَن تعلمون[5] أنه لا يملك شيئًا من رزقكم؟ كقوله: إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ.[6] وذكر[7] في حرف ابن مسعود وحفصة: "قل من يرزقكم من السماوات والأرض قالوا الله قال وإنا[8] أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين".

وقال بعضهم في قوله: **قل من يرزقكم [من السماوات والأرض]**، من السماوات من المطر ومن[9] الأرض النبات، فإن أجابوك فقالوا: الله، وإلا فقل: الله يفعل ذلك[10] بكم فكيف تعبدون غيره؟

وإنا أو إياكم لعلى هدى، يقول ذلك رسول الله لأهل مكة: إنا لعلى هدى أو إنكم لعلى هدى، وإنا أو إياكم[11] لفي ضلال مبين. وقال بعضهم: معناه وإنا لعلى هدى وإياكم لفي ضلال مبين، ولكن ليس هذا في ظاهر هذا الكلام. وجائز أن يكون هذا على تعريض الشتم لهم بالضلال والكناية لذلك، كما يقول الرجل لآخر في حديث أو خبر يجري بينهما: إن أحدنا لكاذب في ذلك، أي أنت كاذب في ذلك،[12] لكنه تعريض منه ذلك ليس بتصريح. وقال[13] قتادة: هذا قول محمد وأصحابه لأهل الشرك: واللهِ ما نحن وأنتم على أمر واحد،

---

[1] ر م: من.

[2] جميع النسخ: أن يقولون.

[3] ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ (سورة يونس، ٣١/١٠).

[4] ر ث م: فهو.

[5] ر م: تعلمونه.

[6] جميع النسخ + أنه لا يملك شيئا من رزقكم. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١١و. سورة العنكبوت، ١٧/٢٩.

[7] جميع النسخ: ذكر. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١١و.

[8] ر ث م: إنا؛ ن: إني. والتصحيح من المرجع السابق.

[9] ث: وفي.

[10] ن + بهم.

[11] ر م: وإياكم.

[12] ن – أي أنت كاذب في ذلك.

[13] ن: وهذا.

والله إن أحد الفريقين لمهتد[1] والفريق الآخر في ضلال مبين،[2] فأنتم تعلمون أنّا على هدًى لِما أقمنا من الدلائل والحجج والبراهين على ذلك، وأنتم لا.[3] وقال بعضهم: قال ذلك لأن كفار مكة قالوا للنبي وأصحابه: "تعالوا ننظر[4] في معايشنا: مَن أفضل دينًا، أنحن أم أنتم؟ فعلى ذلك يكون في الآخرة". فردّ الله ذلك عليهم في قوله: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ،[5] الآية.

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢٥]

وقوله: **قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون**، قال بعضهم: قال ذلك لهم[6] لأنهم كانوا يُعيّرون رسول الله وأصحابه[7] ويوبخونهم[8] في طعنهم الأصنام التي عبدوها وذكرِهم إياها بالسوء، وما يدّعون عليه من الافتراء على الله[9] بأنه رسول الله، فيقول لهم: لا تسألون أنتم عمّا أجرمنا نحن، ولا نسأل عما تعملون. وهو كقوله في سورة هود: قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ.[10] أو أن يكون قوله: **قل لا تسألون عما أجرمنا**، أي عما دِنّا[11] من الدين أو عما عملنا من الأعمال، **ولا نسأل عما تعملون** أنتم، أي[12] عما تدينون[13] من الدين، كقوله: لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ،[14] وكقوله: لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ.[15] وقوله: لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ.[16] وإنما يقال هذا بعد ظهور العناد والمكابرة، فأما عند الابتداء فلا. ***والله أعلم***.

---

[1] جميع النسخ: لمهتدي. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١١و.
[2] *تفسير الطبري*، ٢٨٤/١٩؛ و*تفسير ابن كثير*، ٢٨٦/١١.
[3] ن – وأنتم لا.
[4] ر م: انتظر.
[5] ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ (سورة الجاثية، ٢١/٤٥).
[6] ر ث م – لهم.
[7] ر ث م – وأصحابه.
[8] ر م: ويوبخوهم.
[9] ر ث م – على الله.
[10] سورة هود، ٣٥/١١.
[11] ر م: ديننا؛ ن: دننا؛ ث: دينا. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١١ظ.
[12] ر م – أي.
[13] ث + أنتم.
[14] سورة الكافرون، ٦/١٠٩.
[15] ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ (سورة يونس، ٤١/١٠).
[16] سورة البقرة، ١٣٩/٢؛ وسورة القصص، ٥٥/٢٨؛ وسورة الشورى، ١٥/٤٢.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[٢٦]

وقوله: **قل يجمع بينا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم**، هذا -والله أعلم- صلة ما تقدم من قوله: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ،[١] وصلة قوله: قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا،[٢] كأنهم قالوا لرسول الله وأصحابه: إنا لعلى هدى وأنتم على ضلال مبين، فقال عند ذلك جوابًا لهم: **قل يجمع بيننا ربنا**، أي يجمع بيننا، **ثم يفتح**، أي يقضي، **بيننا بالحق**، مَن مِنّا على الهدى ومَن مِنّا على[٣] الضلال، نحن أو أنتم؟

وهو الفتاح العليم، أي وهو الحاكم العليم ما ظهر وما بطن حقيقة. والمفاتحة هي[٤] المحاكمة، يقال: هلمّ حتى نُفاتحك إلى فلان، أي نحاكمك، وذلك جائز في اللغة.

ويحتمل قوله: **ثم يفتح بيننا بالحق**، أي يكشف كل خفي منا وكل ستير وباطن فيجعله ظاهرًا بيّنًا لِيَظْهَر الذي[٥] هو على الحق من الباطل، والهدى من الضلال. **وهو الفتاح العليم**، أي الكاشف المظهر، **العليم**، يعلم الظاهر والباطن جميعًا والإعلان والإسرار جميعًا. ***والله أعلم***.

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢٧]

وقوله: **قل أروني الذين ألحقتم به شركاء**، أي أروني الذين ألحقتم بالله شركاء في تسميتكم الأصنام آلهة. أو، **أروني الذين ألحقتم به شركاء** في العبادة. وجائز أن يكون قال ذلك للذين عبدوا الملائكة وأشركوهم[٦] فيها. كأن فيه إضمارًا يقول: **أروني الذين ألحقتم به شركاء**، هل خلقوا شيئًا، أم هل رَزقوا، أم هل أحيَوا، أم هل أماتوا؟ فإذ عرفتم أنهم لم يخلقوا ولم يرزقوا ولا يقدرون على[٧] ذلك وعلمتم أن الله تعالى هو خالق ذلك كلّه وهو الرازق[٨] فكيف أشركتم من لا يملك ذلك في ألوهيته؟[٩]

---

[١] الآية ٢٤ من هذه السورة.

[٢] الآية السابقة.

[٣] ر - الهدى ومن منا على.

[٤] ن: هو؛ ث: على.

[٥] جميع النسخ + من. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١١١ظ.

[٦] ر م: وأشركوا.

[٧] ر ن م - على.

[٨] ث: الرزاق.

[٩] ر م: في ألوهية.

كلّا بل هو الله العزيز الحكيم، منهم من يقول: **كلّا**، رد[١] على قولهم: **شركاء**، أي ليسوا بشركائه[٢] بل هو المتفرد الواحد الحكيم. ومنهم من يقول: هو رد على قوله: هل خلقوا شيئًا، أم هل / رزقوا شيئًا؟ يقول: **كلا**، أي لم يخلقوا ولم يرزقوا، بل[٣] الله هو المتفرد بذلك.[٤] ***والله الموفق***.* [٦١٩و]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢٨]

وقوله: **وما أرسلناك**، يا محمد، **إلا كافة للناس بشيرًا**، بالجنة لمن اتبعه، **ونذيرا**، بالنار لمن خالفه وعصاه. وقوله: **كافة للناس**، قال بعضهم: أي ما أرسلناك إلا جامعًا للناس إلى الهدى داعيًا إليه. ومنهم من يقول: **وما أرسلناك إلا كافة للناس**، أي ما أرسلناك إلا إلى الناس جميعًا، إلى العرب والعجم وإلى الإنس والجن ليس كسائر الأنبياء، إنما أرسلوا إلى قوم دون قوم وإلى بلدة دون بلدة. وكذلك روي عن النبي[٦] صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أُعطيتُ أربعًا لم يُعْطَهُنّ نبي قبلي -أحدها ما ذكرنا-: بعثت إلى الناس جميعًا عامة إلى الأحمر والأسود والعرب والعجم، وجُعلتْ لِيَ[٧] الأرض مسجدًا وطَهورًا، وأُرعِبَ لنا عدوُّنا شهرًا،[٨] وأحلت لي الغنائم».[٩]

وقوله: **ولكن أكثر الناس لا يعلمون**، قال بعضهم: لا يصدّقون، ويحتمل، **لا يعلمون**، أي لا ينتفعون بما يعلمون، وإلا يعلمون. أو لا يعلمون[١٠] حقيقة لِما لم ينظروا في الحجج[١١] والآيات، وقد مُكّن لهم ذلك،[١٢] لو نظروا علموا. ***والله أعلم***.[١٣]

---

[١] جميع النسخ: ردا. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٢و.
[٢] ر م: بشركائي.
[٣] جميع النسخ + هو. والتصحيح من المرجع السابق.
[٤] ن + هل خلقوا شيئا.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة برقم ٢٣، فنقلناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٦١٩و/سطر٢.
[٦] ر ث م: عن نبي الله.
[٧] ر: والثاني جعلت إلي؛ ن ث م: والثاني جعلت لي.
[٨] جميع النسخ: وأرعب لنا عدونا مسيرة شهرين. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٢و.
[٩] عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» (*تفسير عبد الرزاق*، ٦٥/٣؛ و*مسند أحمد بن حنبل*، ٢٤٨/٥؛ و*صحيح البخاري*، التيمم ١، الصلاة ٥٦.
[١٠] م - أو لا يعلمون.
[١١] م: إلى الحجج.
[١٢] ث م - ذلك.
[١٣] ر - وقوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون قال بعضهم لا يصدقون ويحتمل لا يعلمون أي لا ينتفعون بما يعلمون وإلا يعلمون أولا يعلمون حقيقة لما لم ينظروا في الحجج والآيات وقد مكن لهم ذلك لو نظروا علموا والله أعلم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢٩]

وقوله: **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**، هذا القول منهم إنما يقولون على الاستهزاء والسخرية ليس على الاسترشاد، على أنه لا يكون ذلك وأنه كذب، كقوله: يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا،[١] أخبر أن أولئك يستعجلون بها لتركهم الإيمان بها استهزاء منهم، والذين آمنوا خائفون منها لإيمانهم بها[٢] أنها كائنة لا محالة. لكن الله سبحانه لم يجبهم بما[٣] يجاب المستهزئ[٤] ولكن أجابهم بما[٥] يجاب المسترشد بلطفه وكرمه وجوده. حيث قال:

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾[٣٠]

قل لكم ميعاد يوم، أي لكم ميعاد الذي وعدكم محمد أنه كائن لا محالة، وهو يوم **لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون**. وهكذا الواجب على كل مسئول إذا كان سائله يسأله سؤال استهزاء أن يجيبه جواب ما يجاب [به] المسترشد لا ما يجاب المستهزئ، ولا يَدَعْ علمه وحكمته لسفه السفيه ولا لِهُزْءِ الهازئ، ولكنه يحفظ حكمته وعلمه وعقله ولا يشتغل بجوابِ مثله. ***وبالله العصمة***. وقوله: **لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون**، فإن كان على طلب التأخير وطلب التقديم ففيه تعيير وتوبيخ لهم، كأنه يقول: ليس لكم من الخَطَر والقَدْر والمنزلة ما يؤخر لكم ما تستأخرون،[٦] أو يقدم لكم ما تستقدمون. وإن كان على تحقيق ترك التأخير وترك التقديم كأنه يقول: ميعادكم يوم لا تملكون تأخيره إذا جاء ولا تقديمه عن وقته ولا دفعه. ***والله أعلم***.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[٣١]

وقوله: **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه**، كأن هذا القول منهم -والله أعلم- خرج عن مخاصمة وقعت بينهم وبين المؤمنين في شأن القرآن وفي[٧] شأن محمد،

---

[١] سورة الشورى، ١٨/٤٢.

[٢] ن - لتركهم الإيمان بها استهزاء منهم والذين آمنوا خائفون منها لإيمانهم بها. صح هـ.

[٣] جميع النسخ: ما. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٢ظ.

[٤] ن: المستهزء؛ ث: المستهزؤ.

[٥] جميع النسخ: ما. والتصحيح من المرجع السابق.

[٦] م: لا تستأخرون.

[٧] جميع النسخ: أو في. والتصحيح من المرجع السابق.

فتحاكموا إلى الكتاب على اتفاق منهم على ما في كتبهم، فلما خرج ذلك على موافقة قول المؤمنين ومخالفة قول أولئك قالوا عند ذلك: **لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه**، وإلا على الابتداء من غير تنازع وخصومة كان بينهم في ذلك غيرُ مستقيم. ويذكر بعض أهل التأويل عن[١] ابن عباس وغيره أن رهطا بعثهم قريش إلى المدينة إلى رؤساء[٢] اليهود يسألونهم عن محمد وبعثه، فأخبروهم[٣] أنه كائن وأنه مبعوث. فلما رجعوا إليهم فأخبروهم أنهم قد عرفوه وهو عندهم في التوراة والإنجيل فعند ذلك قالوا ما قالوا.[٤]

ثم كأنه اشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقل عليه فقال له على التعزية والتصبير على ذلك: **ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم**، أي محبوسون عند ربهم[٥] على محاسبة ما كان منهم من العناد والمكابرة والتكذيب، أي لو رأيت[٦] ما فيهم من الذلّ والهوان والخضوع لَرَحمتهم ولأخذتك الرأفة لهم. ***والله أعلم***. وقوله: **يرجع بعضهم إلى بعض القول**، أي يلوم بعضهم بعضًا فيقولون ما ذكر: **يقول الذين استضعفوا**، أي السفلة والأتباعُ، **للذين استكبروا**، أي القادة منهم والرؤساءِ: **لولا أنتم**، فيما صرفتمونا عن دين الله وصددتمونا عنه، **لكنا مؤمنين**، به تابعين له. لأنهم كانوا يصدرون لآرائهم ويقبلون قولهم لما هم كانوا أهل شرف ومعرفة والسفلةُ لا، فيقولون: لو لا أنتم لكنا نتبع رأي أنفسنا فنؤمن[٧] به، لكن قلتم لنا: إنه كَذِب وإنه افتراء[٨] وإنه سحرٌ، فنحن صدقناكم في ذلك.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾[٣٢]

قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم. قوله: **أنحن صددناكم**، هو على التقرير، أي لم نصدّكم، وإن كان ظاهره استفهاما،

[١] جميع النسخ – عن. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ١٢ظ.
[٢] ن: إلى رسوساء.
[٣] ن: فأخبروه.
[٤] *تفسير مقاتل بن سليمان*، ٢/٢٨٠؛ *وبحر العلوم* لأبي الليث السمرقندي، ٢/٢٩٠.
[٥] ر ث م + أي؛ ن – محبوسون عند ربهم. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٣و.
[٦] جميع النسخ: لو رأيتم. والتصحيح من المرجع السابق.
[٧] م: أفنؤمن.
[٨] ر م: افترى.

ولكن أنتم بأنفسكم تركتم اتباعه. لأن الرؤساء منهم كانوا يقولون للأتباع: مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ،[١] أخبروا أنه بشر مثلهم،[٢] ثم أخبروهم
[٦١٩ظ] أنكم لئن أطعتم بشرا مثلكم إذًا تكونوا خاسرين، ونحن بشر فكيف اتبعتمونا / وأطعتمونا؟ **بل كنتم قومًا مجرمين**، في اتباعكم بما اتبعتموه.

أو أن يكون قوله: لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ،[٣] أي لولا تلبيسكم علينا وتمويهكم أن الرسل كذبة وأنهم سحرة فيما يقولون ويدّعون وأنهم يفترون على الله وإلا كنا[٤] مؤمنين بهم.[٥] والثاني لولا منعكم إيانا عن النظر والتفكّر في أمورهم والتأمل في الحجج والآيات لَكُنَّا مؤمنين. هذا قول الأتباع للرؤساء. ثم أجاب لهم الرؤساء فقالوا: **أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين**، يقولون -والله أعلم-: إن صددناكم ومنعناكم عن اتباعهم ظاهرًا وعلانية فمتى منعناكم سرًا؟ فهلا اتبعتموهم سرًّا من غير أن نطّلع ونعلم نحن بذلك، أو ما ذكرنا من قوله: وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ،[٦] وقد عرفتم أنا بشر مثلكم فأطعتمونا، وتركتم طاعة الرسل لأنهم بشر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣٣]

فأجاب لهم الأتباع فقالوا: **بل مكر الليل والنهار**، قال بعضهم:[٧] بل بمكركم إيانا وقولكم في الليل والنهار: إنهم كذبة سحرة[٨] وخِداعِكم إيانا أنهم[٩] بشر مثلكم، تركنا اتباعهم،

---

[١] ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٣٣-٣٤).

[٢] ن: مثلكم.

[٣] الآية السابقة.

[٤] ر م: لكنا.

[٥] ر ث م - بهم.

[٦] سورة المؤمنون، ٢٣/٣٤.

[٧] ر ث م - قال بعضهم.

[٨] ن: وسحرة.

[٩] ر ث م: وانهم؛ ن: وأنتم.

إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادًا. أو يقولون: بل مكركم في الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله، أي من تخويفكم إيانا وهيبتكم لنا من الأخذ على البغتة والغفلة تركنا اتباعهم في السر إذا ظهر وبلغكم الخبر به. هذه مناظرات أهل الكفر فيما بينهم يومئذ وردّ بعضهم على بعض ولعنُ بعضهم بعضًا، يذكرها في الدنيا ليُلزمهم الحجة وأن لا يقولوا يومئذ: إنا كنا عن هذا غافلين.

فإن قيل: إنهم كانوا لا يؤمنون بهذا القرآن ولا بالبعث فكيف يلزمهم ذلك وهم لا يستمعون له؟ قيل: إنهم قد مُكّنوا من الاستماع[١] له[٢] والنظر فيه، فيُلزمهم الحجة وإن لم يستمعوا له. *والله أعلم*.

وقوله: **وأسَرّوا الندامة لما رأوُا العذاب**، قال بعضهم: أسرّ الرؤساء الندامة بصرف الأتباع وصرف أنفسهم عن دين الله واتباع الرسل، **لمّا رأوا العذاب**. وقيل: **أسروا الندامة**، الأتباع[٣] والرؤساءُ جميعًا. وقوله: **وأسروا الندامة**، قيل[٤] من الإسرار والإخفاء، أخفى بعضهم عن[٥] بعض. وقال بعضهم: أخفى الكفرة الندامة[٦] عن المؤمنين. وقال القُتَبي: **أسروا الندامة**، أي أظهروا، وهو من الأضداد، يقال:[٧] أسررت الشيء أخفيته، وأظهرته.[٨] وأما غيره من أهل التأويل فإنهم قالوا: هو من الإخفاء.

وقوله: **وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا**، الأغلال جماعة الغُلّ، وهو ما يجعل في اليد ثم يشد اليد إلى العنق. **هل يجزون إلا ما كانوا يعملون**، أي لا يجزون إلا جزاء عملهم في الدنيا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[٣٤]

وقوله: **وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون**. قال بعضهم: المترف المتكبر. وقال آخرون: المترف هو الذي يجمع صُنوف[٩] المال مع العناد والتكبر.

---

[١] م: الاستمتاع.
[٢] ر ث م – له.
[٣] ر: والأتباع.
[٤] ر ث م: قال.
[٥] ر ن م: من.
[٦] ر م: والندامة.
[٧] جميع النسخ: ويقال. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٣ظ.
[٨] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٥٧.
[٩] ر م: أصناف.

وقال بعضهم: المترفون هم الرؤساء منهم. وهذا ينقض على المعتزلة في[1] قولهم: إن الله لا يفعل[2] بأحد[3] إلا ما هو أصلح له في الدين. ولا شك أن هؤلاء المترفين إنما قالوا ما قالوا[4] وفعلوا ما فعلوا لِسَعَتهم وبسطهم في المال، فلو لم يكن ذلك لهم ما فعلوا ذلك، دلّ أن المنع لهم عن ذلك أصلح لهم من البسط. *والله أعلم*. وقوله: **وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها**، المترف ما ذكرنا،[5] قال بعضهم: المتكبر المتجبر. وقال بعضهم: المترف الذي يجمع مع الكبر والعناد الأموالَ.[6] وقال بعضهم: **مترفوها**، أغنياؤها، وكلّه واحد، وهم رؤساؤها. وفيه رد قول المعتزلة في الأصلح على ما ذكرنا.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٣٥] ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣٦]

وقوله: **وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولادًا**، يخرج قولهم ذلك لوجهين. أحدهما قالوا ذلك: إنا إذا[7] أوتينا في الدنيا الأموال والأولادَ[8] فلا[9] يعذّبنا في الآخرة على ما تزعمون. أو أن يقولوا ذلك: إنك لو كنت بُعثت رسولاً على ما تزعم فنحن أولى بالرسالة منك لأنّا أكثر أموالاً وأولادًا.[10] *والله أعلم*.

وقوله: **قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**، هذا أيضًا ينقض على المعتزلة ومن يقول بأن الله لا يبسط على أحد الرزق إذا لم يكن في البسط صلاح[11] له وخير، وكذلك لا يُقتّر على أحد ذلك إذا لم يكن في التقتير خير له. وعندنا يبسط الرزق لمن يشاء وإن لم يكن خيرًا له،

---

[1] جميع النسخ – في. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ٤١٠.
[2] ر: لا يفعلون.
[3] ر ث م – بأحد.
[4] ر: لما قالوا.
[5] ر م: ما ذكر.
[6] ر م: والأموال.
[7] ث – إذا.
[8] ن: والأموال.
[9] ن: فلم.
[10] ن – وأولادا.
[11] ر م: إصلاح.

وكذلك يقتّر على من يشاء وإن[١] كان شرًّا له، على ما نطق به[٢] ظاهر الآية[٣] ليس عليه حفظ الأصلح لهم ولا الأخير.[٤] *والله أعلم.*

وقوله: **ولكن أكثر الناس لا يعلمون**، أي لا ينتفعون بعلمهم، أو لا يعلمون حقيقة لِما تركوا النظر والتفكر في أسباب العلم ليعلموا، فلا يُعْذَرون لما مُكّن لهم العلم به.[٥]

وقولهم:[٦] **نحن أكثر أموالاً وأولادًا وما نحن بمعذَّبين**، قالوا ذلك لما لم يروا في الحكمة أن يُحسن أحد إلى عدوّه، والسعة هي من الفضل والإحسان، ثم [إذ] رأوا لأنفسهم ذلك ظنّوا أنهم أولياء الله، وأن الرسل حيث ضيّقت عليهم الدنيا إنما ضُيّقت[٧] لأنهم ليسوا بأولياء الله، لذلك قالوا: **نحن أكثر أموالاً وأولادًا وما نحن بمعذبين**. وهذا القول منهم لإنكارهم البعث، فلو[٨] كانوا مقرّين به لكانوا لا يقولون ذلك ويعلمون أن السعة في الدنيا والضيق فيها بحق الامتحان. وأما إذا كان بعثٌ ودار أخرى للجزاء ففي الحكمة أن يجزى الولي جزاء الولاية، / والمسيء والعدوّ[٩] جزاء الإساءة والعداوة. وأما الدار التي هي دار امتحان [٦٢٠و]
وابتلاء فيجوز ذلك بحق الامتحان في الحكمة، ولذلك خرج الجواب لهم، حيث قال: **قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**، أي يبسط الرزق لمن يشاء[١٠] لا لفضل وقدر له ونعمة عنده، ويقتر على من يشاء لا لعداوة وجناية كانت منه إليه، ولكن[١١] بحق الامتحان. ألا يرى أنه قد وسّع على بعض المؤمنين وضيّق على بعض أولئك، فظهر أن التوسيع لأهل السعة ليس لفضل لهم وقدر أو نعمة كانت لهم عنده حتى[١٢] يكونَ ذلك منه مكافأة[١٣] لذلك،

[١] ث + لم يكن خيرا له وكذلك يقتر على من يشاء وإن.
[٢] ر ث م – به.
[٣] ن + الكريمة.
[٤] ر م: ولا الخير.
[٥] ن: وبه.
[٦] ن: قولهم.
[٧] ر م + عليهم الدنيا.
[٨] جميع النسخ: فإن.
[٩] جميع النسخ: من العدو. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٤ظ.
[١٠] ر ث م – لمن يشاء.
[١١] ر ث م – ولكن.
[١٢] جميع النسخ: وحتى. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٣] ر: مكافات.

وكذلك التضييق لأهل الضيق[1] لم يكن لجناية أو إساءة كانت منهم إليه لما ذكروا ولكن لما ذكرنا. ألا ترى أنهم إذا رأوا أنه وسّع على بعض وقتّر على بعض هلّا علموا أنه يملك أن يوسّع على من قتر عليه ويقتر على من وسّع عليه؟ فيكون في ذلك لهم ترغيب في التوحيد واختيار له، وتحذير عن الكفر وعما هم فيه، إذ يملك التقتير على من وسع عليه والتوسيع على من قتّر عليه. فيُبطل هذا كله قولهم: **نحن أكثر أموالاً وأولادًا**، الآية، ويبيّن أن التقتير والتوسيع ليس لفضل ولا قدر ولا نعمة، ولا لجناية[2] ولا لذنب ولكن للامتحان. ***والله أعلم***.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[٣٧]

وقوله: **وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى**، يخبر أن أموالكم وأولادكم لا تقربكم[3] عندنا زلفى[4] ولكن ما ذكر، حيث قال: **إلا من آمن وعمل صالحًا**، أي ذلك الذي يقرّب عندنا زلفى:[5] مَن أتى به سواءً كان له مال وولد أو لم يكن،[6] **فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا**. من الناس من احتج بتفضيل الغناء على الفقر بهذه الآية يقول: أخبر أن لهم جزاءَ الضعف إذا آمنوا وعملوا الصالحات بالأموال التي أعطاهم، وأما الفقير فليس له ذلك إذ ليس[7] عنده ما يضاعف له، أو كلام يشبه هذا. وأما عندنا أن قوله: **فأولئك لهم جزاء الضّعف بما عملوا**، لهم جزاء الضعف[8] بالصالحات والحسنات التي عملوها، لأن الله وعد أن يجزي لكل من عمل بحسنة عشر أمثالها، ووعد لمن عمل السيئة أن لا يجزي إلا مثلها.[9] فلكل من عمل بحسنة[10] أو صالحة عشر أمثالها، وذلك جزاء الضعف له، وذلك للغني[11] والفقير جميعًا.

---

[1] ر ن م: التضييق.

[2] ث – ولا لجناية.

[3] ث: لا تقربه بكم.

[4] ر م – يخبر أن أموالكم وأولادكم لا تقربكم عندنا زلفى.

[5] ن + ولكن ما ذكر؛ م + ولكن ما ذكر حيث قال إلا من آمن وعمل صالحا أي ذلك الذي يقرب عندنا زلفى.

[6] ر + فما.

[7] ر م + له.

[8] ث – بما عملوا لهم جزاء الضعف.

[9] يشير الإمام إلى قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عَشْرُ أمثالِها ومن جاء بالسيئة فلا يُجزَى إلا مثلَها وهم لا يُظلمون﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٦٠).

[10] ر م – عشر أمثالها ووعد لمن عمل السيئة أن لا يجزي إلا مثلها فلكل من عمل بحسنة.

[11] ر: المغني.

وقد[1] ذكرنا في غير موضع أن التكلّم في فضل الغَناء على الفقر أو الفقر على الغناء كلام لا معنى له، لأنهما شيئان[2] لا صنع لأحد في ذلك، يمتحنان[3] في تلك الأحوال، أحدهما بالشكر والآخر بالصبر. فمن وَفَى بما امتُحن هو في تلك الحال فهو أفضل ممن لم يفِ بذلك، وبه يستوجب الفضل إن استوجب، فأما بنفس تلك الحال فلا. لكن[4] من يفضّل الغناء على الفقر يذهب إلى أن الله تعالى سمّى الضِيق بلاءً وشرًّا وسيّئة[5] في غير موضع من القرآن، وسمّى السعة خيرًا ونعمة وحسنة في غير موضع. ولا شكّ أن الخير والحسنة أفضل وأحمد من الشر والسيئة، فلو لم يكن هذا شرًّا وسيّئة في الحقيقة لم يسمّه بذلك، وهذا خيرًا لم يسمه. ومن يقول بتفضيل الفقر على الغَناء[6] يذهب إلى أن الغنيّ[7] إذا أعطى وبذل إنما استوجب ذلك الفضل لما يُفقر نفسه ويحوج، وأصله ما ذكرنا.

[٦٢٠و س٣٢] * قال القُتَبِي: **فأولئك لهم جزاء الضِعْف بما عملوا**، لم يُرد فيما يرى أهل النظر -والله أعلم- أنهم يُجازَون عن الواحد بواحدٍ مثلِه ولا اثنين. وكيف يكون هذا والله يقول: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا،[8] و [مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ] خَيْرٌ مِنْهَا؟[9] ولكنه أراد لهم جزاء التضعيف،[10] وجزاء التضعيف[11] إنما هو مثلٌ[12] يُضَمّ إلى مثل إلى ما بلغ. وكأن "الضعف" الزيادة،[13] أي لهم جزاء الزيادة. ويجوز أن يجعل "الضعف" في معنى جميع، أي: جزاءُ الأضعاف، ونحوُه: فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ،[14] أي مضعَّفًا.[15]

---

[1] ر م - قد.
[2] ن: سيبان.
[3] أي الغني والفقير. وعبارة الشارح هكذا: «يمتحن بهما...» (ورقة ٦١٩و).
[4] ر: ولكن.
[5] جميع النسخ: وشدة. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٥و.
[6] ر م - على الغناء.
[7] ر: الغنا.
[8] سورة الأنعام، ٦/١٦٠.
[9] سورة النمل، ٢٧/٨٩؛ وسورة القصص، ٢٨/٨٤.
[10] جميع النسخ: الضعف. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٥ظ.
[11] ر م - وجزاء التضعيف؛ ن ث: وجزاء الضعف. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦١٨ظ.
[12] ر م: مثله.
[13] جميع النسخ: الزائدة. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦١٨ظ.
[14] سورة ص، ٣٨/٦١.
[15] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٥٧-٣٥٨.

وقال أبو عَوْسَجة: **جزاء الضعف**، أي جزاء المضاعف أن يُجعل معه مثله، يقال: أضعفت، أي[1] جعلت مثله، وخَيْطٌ مضاعف، أي قد ضُمّ إليه خيط آخر قد فُتلا.

قال: **زلفى**،[2] هي الدنوّ، يقال: تزلفت إليه، ومنه أزلفته، أدنيته. وقال القُتَبي: أي قربة ومنزلةً عندنا،[3] وهما واحد. *والله أعلم*.

وقوله: **وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى**، ذكر الأموال والأولاد، ثم ذكر "التي" بالتأنيث. قال بعضهم: هذا من مقاديم الكلام، كأنه قال: وما أموالكم بالتي

[٦٢٠ظ] تقربكم / عندنا زلفى ولا أولادكم، ولولا ذلك لغلب فعل الآدميين فعلَ الأموال.[4] قال أبو معاذ: يجوز أن نجمع الأموال والأولاد ثم نقول "التي"، لأنك تقول: ذهبت[5] الأموال وهلكت الأولاد،

[٦٢٠ظ س٣] كقوله: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا،[6] و قَالَتْ رُسُلُهُمْ،[7] ونحوه كثير في القرآن،[8] فعلى ذلك عند الجمع.*

وقوله: **وهم في الغرفات آمنون**، من العذاب والموت، أو آمنون من الإخراج، أي لا يكون لهم خوف الإخراج[10] والزوال، لأن خوف زوال النعمة مما ينغّص على[11] صاحبه النعمة ويَحزنه. *والله أعلم*.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾[٣٨]

وقوله: **والذين يسعون في آياتنا معاجزين**، أي يسعون في آياتنا سعي من يكون معاجزًا، وإلا كانوا يعلمون أنهم ليسوا بمعاجزين في سعيهم وأنهم لا يقدرون على[12] ذلك،

---

[1] ر ث م – مضعفا وقال أبو عوسجة جزاء الضعف أي جزاء المضاعف أن يجعل معه مثله يقال أضعفت أي.

[2] ن: الزلفى.

[3] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٥٧.

[4] المَقاديم: جمع المِقْدام، وهو الكثير الإقدام. وقول الإمام رحمه الله: «هذا من مقاديم الكلام» أي مجيء اسم الموصول بصيغة التأنيث "التي" إنما هو بتأثير "أموالكم" فالتي صلة لها. فلو لم يكن كذلك لكانت العبارة هكذا: "بالذي يقربكم"، وتصير الصلة تصف "أولادكم". لذلك قال الإمام: «ولولا ذلك لغلب فعل الآدميين فعل الأموال».

[5] ن: ذهب.

[6] سورة الحجرات، ٤٩/١٤.

[7] سورة إبراهيم، ١٤/١٠.

[8] ر ث م: من القرآن.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٦٢٠و/سطر٣٢-٦٢٠ظ سطر٣.

[10] ن + أي لا يكون لهم خوف الإخراج.

[11] ر م – العذاب والموت أو آمنون من الإخراج أي لا يكون لهم خوف الإخراج والزوال لأن خوف زوال النعمة مما ينغص على.

[12] ن – على.

لكن[١] ما ذكرنا: يسعون في آياتنا سعي من يكون معاجزًا،[٢] لا سعي من لا يكون، وهو ما قال: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ،[٣] أي يعملون عمل من يحسب أنه يسبق، لا عمل من لا يسبق، وهو كقوله: يُخَادِعُونَ اللَّهَ،[٤] لا أحد يقصد قصد مخادعة الله لِعلمه أنه لا يخادَع، ولكن كأنه قال: يعملون عمل مَن يخادع الله، لا عمل من يعلم[٥] أنه لا يخادَع، فعلى ذلك هذا. ***والله أعلم***. وقوله: **في آياتنا**، إنما كان سعيهم في الآيات إما[٦] في آيات الوحدانية أو آيات النعمة أو آيات الرسالة، ليُسقطوا عن أنفسهم مئونة ذلك وقبولها والعمل بها، **أولئك في العذاب محضرون**.*

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[٣٩]

وقوله: **قل إنّ ربّي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**،[٨] قال ابن عباس رضي الله عنه: فهو يخلفه في الدنيا والآخرة،[٩] لأن ما أنفق العبد لو كان الله أخلفه له في الدنيا [بتمامه] ما أحصى أحدكم ماله، ولا يجد مكانًا يجعله فيه، أو كلام هذا معناه. وقال آخر: كل نفقة كانت في طاعة الله فإن الله يُخلفها في الدنيا أو يدّخرها لوليّه في الآخرة. ومجاهد يقول: إذا أصاب أحدكم مالاً فليقتصد[١٠] في النفقة ولا يتأوّلَنّ[١١] قوله:[١٢] **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه**، فإن الرزق مقسوم.[١٣]

---

[١] ر ث م – لكن.

[٢] ر م – وإلا كانوا يعلمون أنهم ليسوا بمعاجزين في سعيهم وأنهم لا يقدرون على ذلك لكن ما ذكرنا يسعون في آياتنا سعي من يكون معاجزا.

[٣] ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤).

[٤] سورة البقرة، ٢/٩؛ وسورة النساء، ٤/١٤٢.

[٥] ر م: يعمل.

[٦] ر م – إما.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فنقلناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٦٢٠و/سطر٣٢-٦٢٠ظ سطر٣.

[٨] ن: وهو جزاء الرازقين الآية.

[٩] *تنوير المقباس من تفسير ابن عباس*، ٤٥٦.

[١٠] جميع النسخ: فليقصد.

[١١] ر: ولا يتولن.

[١٢] ن – قوله.

[١٣] *تفسير سفيان الثوري*، ١/٥٩، ٢٤٤؛ و*معالم التنزيل* للبغوي، ٦/٤٠٣؛ و*تفسير ابن كثير*، ١١/٢٩٤؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ١٢/٢٢٤.

وقال بعضهم: **فهو يخلفه**، إذا كانت في غير إسراف ولا تقتير. وهذه التأويلات كلها ضعيفة، لأن الآية كأنها[1] نزلت[2] -والله أعلم- في منع أولئك الإنفاقَ مخافة الفقر وخشيةَ الإملاق، لأنها نزلت على إثر قوله: **قل إن ربي[3] يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له**، يقول -والله أعلم-: تعلمون[4] أن الله هو الباسط لكم والموسع عليكم وعلى الخلق كله الرزقَ، وهو المقتِر أيضًا على من شاء التقتير عليه، فإذ[5] كنتم تعلمون أنه هو الفاعل لذلك فكيف تمتنعون[6] عن الإنفاق خشية الفقر؟ فهو القادر على البسط والخَلْف لما أنفقتم، وهو القادر على التقتير من غير إنفاق كان منكم. أو أن يذكر[7] هذا ليقطعوا أطماعهم عن الخَلْف من الناس والبذل لهم فيما ينفقون، على ما ينفق الرجل من النفقة فيطمع من الناس البِرّ له والمعروف مكافأة لما أنفق، فيقول: اقطعوا الطمع من الناس فيما تنفقون،[8] فإن الله هو المُخْلِف لذلك، لا الناس. ويحتمل ما قال ابن عباس أنه[9] يخلف في الآخرة [أيضا]، إذ لو أعطى لكل ما[10] أنفق في الدنيا خلفا ما أحصى أحدكم ماله ولا [علم] أين يجعله.[11] هذا هكذا إذا كان الخَلَف من نوع ما أنفق وأعطى، فأما إذا جاز[12] أن يكون الخلف من نوع ما أنفق ومن غير نوعه: من نحو ما يدفع عن المرء وعن المتصلين به[13] من أنواع البلايا والشدائد، ويعطيه من أنواع النعم من السلامة له في نفسه ودِينه والصحة وغير ذلك مما لا يُحْصَى فذلك كلّه بَدَل وخَلَفٌ عما أنفق. وذلك أنه إذا علم في سابق علمه أنه ينفق، جعل ذلك في الأصل خَلَفًا عما أنفق. وعلى ذلك يخرج ما روي عن النبي[14] أن «صلة الرحم تزيد في العمر»،[15]

[1] جميع النسخ: كانت. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٦و.
[2] ر م - نزلت.
[3] ر م: إثر قول الرجل إن ربكم.
[4] جميع النسخ: يعلمون.
[5] ر م: فإذا.
[6] جميع النسخ: يمتنعون. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦١٩و.
[7] ر م: وأن يذكر.
[8] ن ر: ينفقون.
[9] ن: أن.
[10] ر م: رجل.
[11] م: جعله.
[12] ر: جازه.
[13] جميع النسخ: المتصلين له. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٦و.
[14] ر ث م - عن النبي.
[15] انظر: *مسند أحمد بن حنبل*، ١٥٦/٣؛ وصحيح *البخاري*، الأدب ١٢؛ وصحيح *مسلم*، البر والصلة ٢١.

إذ علم أنه يَصِل رَحِمه زاد في عمره في الأصل، ما لو يعلم أنه لا يصل رحمه لكان[1] يجعل عمره دون ذلك، فعلى ذلك الأول. وروي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل معروف صدقة،[2] وما أنفق المرء على نفسه وأهله أو وَقَى به عِرضه فهو له صدقة، وكل نفقة أنفقها المؤمن[3] فعلى الله خَلَفها ضامنًا، إلا نفقة في معصية أو نفقةً في بنيان»،[4] أي لا يحتاج إليه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[٤٠] ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾[٤١]

وقوله: **ويوم يحشرهم جميعًا،** الملائكة ومَن عبدهم،[5] **ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن.**[6] ليس قول الملائكة فيما خاطبهم ربهم جوابًا[7] لما خوطبوا بقوله: **أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون،** حيث قالوا: **سبحانك أنت ولينا من دونهم،** لأنه قال لهم: **أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون،** فجوابهم أن يقولوا: "بلى" أو "لا". فأما أن يكون قولهم: **سبحانك أنت ولينا من دونهم**[8] **بل كانوا يعبدون الجن،** الآية، جوابًا لذلك فلا يحتمل. إلا أن يقال: إن أولئك الكفرة ادَّعوا على الملائكة الأمر لهم بالعبادة إياهم دون الله، فهناك[9] يحتمل أن يقول: أهؤلاء عن أمركم عبدوكم؟ فعند ذلك قالوا: **سبحانك أنت ولينا من دونهم،** ونحن بُرَآء[10] منهم، ما أَمَرْناهم بعبادتنا وأنت أعلم منا، **بل كانوا يعبدون الجن،** بل كانوا أطاعوا أمر الجن والشياطين في ذلك، إذ لو كنا أمرناهم بذلك لم نكن[11] أولياءك[12] ولا كنت أنت ولينا من دونهم.

---

[1] ر: فكان.

[2] مسند *أحمد بن حنبل*، ٣/٣٤٤، ٣٦٠؛ وصحيح *البخاري*، الأدب ٣٣؛ وصحيح *مسلم*، الزكاة، ٥٢.

[3] جميع النسخ: مؤمن. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٦ظ.

[4] مسند *أبي يعلى الموصلي*، ٤/٣٦؛ *والمنتخب من مسند عبد بن حميد*، ٢/١٦٦؛ وسنن *الدارقطني*، ٣/٤٢٨؛ *والمستدرك* للحاكم، ٢/٦٣.

[5] ر ث م: عندهم؛ ن: عبدوهم. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٦ظ.

[6] ر م – بل كانوا يعبدون الجن؛ + لأنه قال لهم أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون الجن.

[7] ر ث م – جوابا.

[8] ر + منا؛ م + أعلم منا.

[9] ر م: فهنالك.

[10] ن: نحن برآؤ؛ ث: ونحن برءاؤ.

[11] ث: لم يكن.

[12] ن: أولياء.

وهذا كما يقول لعيسى حيث قال: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ،[1] وقد كان عَلِم جلّ وعلا أنه لم يقل لهم[2] ذلك، ولكن كان أولئك ادعَوا عليه الأمر والقول لهم في ذلك، فذكر ذلك[3] لعيسى تعييرًا لهم وتوبيخًا على صنيعهم وإظهارًا لكذبهم في دعواهم. فعلى ذلك الأول يحتمل أن يخرج على ذلك. *والله أعلم*.

وقوله: **بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون**، هم[4] كانوا لا يقصدون عبادة الجن ولكن لِما بأمرهم كانوا يعبدون ما يعبدون[5] نسب العبادة إليهم، كقوله: يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ،[6] وهو كقول إبراهيم: يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ،[7] وهم كانوا لا يقصدون بعبادتهم الشيطان لكنهم لِما عبدوا ما عبدوا[8] من دونه بأمر الشيطان نسب العبادة إليه كأنهم عبدوه.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[٤٢]

وقوله: **فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعًا ولا ضرًّا**، أي لا يملك [أحد][9] يوم القيامة
[٦٢١و] ما أملوا وطمعوا[10] / من عبادتهم لأولئك من التقريب لهم إلى الله زلفى والشفاعة لهم عنده، لقولهم: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ،[11] وَمَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى.[12] يقول: **لا يملك بعضكم لبعض**، ما أملوا وطمعوا[13] من عبادتهم لأولئك.[14]

[1] سورة المائدة، ١١٦/٥.
[2] ر م – لهم.
[3] م – ذلك.
[4] ث – هم.
[5] ر ث م: يعبدون ما تعبدون؛ ن: تعبدون ما تعبدون. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦١٩ظ.
[6] ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (سورة يس، ٦٠/٣٦).
[7] سورة مريم، ٤٤/١٩.
[8] ر ث م – ما عبدوا.
[9] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٦١٩ظ.
[10] ر ث م: أو طمعوا.
[11] سورة يونس، ١٨/١٠.
[12] سورة الزمر، ٣/٣٩.
[13] ر ث م: أو طمعوا.
[14] ن ث: أولئك.

ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون، أي كنتم تكذبون[١] الرسل بما أوعدوكم[٢] بها في الدنيا.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٤٣]

وقوله: **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات**، قد ذكرنا الآيات والبينات في غير موضع.[٣]

وقوله:[٤] **ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم**، لا شك أنه كان يريد أن يصدّهم عما كان يعبد آباؤهم، وكذلك كان يريد[٥] كلّ رسول أن يصدّ قومه عما كان يعبد آباؤهم من الأصنام والأوثان، لكن هذا القول من أولئك الرؤساء إغراء الأتباع على الرسل، يقولون: ألا ترون أن واحدًا قد خالف الآباء في دينهم ويريد أن يصدكم عن دين آبائكم، و **ما هذا إلا إفك مفترى**، أي ما يدعو محمد إليه ليس إلا إفك مفترى.[٦]

وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين. وقوله: **للحق لما جاءهم**، أي ما جاء للحق،[٧] وهو القرآن والتوحيد[٨] من البيان والإيضاح له أنه الحق وأنه من عند الله جاء، وهو الآيات والبراهين التي جاءت له أنه حق وأنه من عند الله جاء، لا أنه مفترًى وإفك[٩] وسحرٌ على[١٠] ما تزعمون.[١١] ولم يزل طعن أولئك الكفرة في الآيات والحجج بأنها سحر

---

[١] ن ث – أي كنتم تكذبون.

[٢] ر م: بما أوعدكم.

[٣] انظر مثلا: تفسير الآية ٤٩ من سورة العنكبوت. ر م + وقوله بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون هم كانوا لا يقصدون عبادة الجن ولكن لما بأمرهم كانوا يعبدون ما تعبدون نسب العبادة إليهم كقوله يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان وهو كقول إبراهيم يا أبت لا تعبد الشيطان لكنهم لما عبدوا من دونه بأمر الشيطان نسب العبادة إليه كأنهم عبدوه.

[٤] ر + فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا أي لا يملك يوم القيامة.

[٥] ر ث م – أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم لا شك أنه كان يريد أن يصدهم عما كان يعبد آباؤهم وكذلك كان يريد.

[٦] ث – أي ما يدعو محمد إليه ليس إلا إفك مفترى.

[٧] ن ث: الحق.

[٨] ن: أو التوحيد.

[٩] ر م: أو إفك.

[١٠] ر م – على.

[١١] ر م + و لم تزعمون.

وأنها إفك وأنها مفترى، يلبّسون بذلك على أولئك الأتباع والسفلة ويُموّهون عليهم ويُغْرُون[1] لئلّا يتبعوه[2] ويستسلموا له.[3] *والله أعلم.*

﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾[٤٤]

وقوله: **وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير**، هو[4] -والله أعلم- صلة قوله: مَا هٰذَا[5] إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى، وقوله:[6] إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ،[7] يقول -والله أعلم- جوابًا لقولهم: **وما آتيناهم من كتب يدرسونها**، فيخبرهم[8] أن ليس قول محمد[9] إفك مفترى ولا أرسلنا إليهم[10] أيضا من قبله رسولًا يخبرهم أنه كَذِبٌ مُفْتَرًى. وظهور الكذب في القول والخبر إنما يكون بأحد هذين الأمرين، إما بكتاب أو نبي، وهم لا يؤمنون بكتاب ولا نبي فكيف يدّعون عليه الكذب والافتراء؟ يخبر عن سفههم وقلة عقولهم وعنادهم بعد ما خصّهم عز وجل وفضّلهم على غيرهم من البشر، حيث بعث الرسول منهم ومن أنفسهم والكتابَ على لسانهم وبلغتهم، بعد قَسَمهم أنه لو بعث إليهم نذيرًا ورسولًا[11] لاتبعوه،[12] حيث قال:[13] وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ[14] لم يؤمنوا به[15] ولم يعرفوا منة الله عليهم وخصوصيّتهم فيما خصّهم. *والله أعلم.*

---

[1] ر ث م: ويغزون.
[2] ن ث: يتبعونه.
[3] جميع النسخ: ويستسلمون لهم. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٧ظ.
[4] ر ث م: وهو؛ ن - هو. والتصحيح من المرجع السابق.
[5] ر ث م: صلة وما هذا.
[6] جميع النسخ: وقولهم.
[7] الآية السابقة.
[8] ر ن ث: فتخبرهم.
[9] جميع النسخ: أن ما يقول محمد. والتصحيح من المرجع السابق.
[10] ن: عليهم.
[11] ن ث م: ورسول.
[12] ر م: لا اتبعوه.
[13] جميع النسخ: قالوا. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ٦١٩ظ.
[14] ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا﴾ (سورة فاطر، ٤٢/٣٥).
[15] ن - به.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[٤٥]

وقوله: **وكذب الذين من قبلهم**، يذكر رسوله ويصبره على تكذيب أولئك له،[١] يقول: قد كذب الذين كانوا من قبلهم رُسلهم، لست أنت بأوّل مكذَّب، بل كُذِّب إخوانك من قبل. ***والله أعلم***.[٢]

وقوله: **وما بلغوا معشار ما آتيناهم**، يقول -والله أعلم-: لم يبلغ هؤلاء الذين كذبوك عُشْرَ أولئك في القوة والغَناء والفضل والعلم والأتباع والأعوان و غير ذلك. ثم[٣] مع ما كانوا كذلك لم يقوموا في دفع العذاب الذي نزل بهم بالتكذيب عن أنفسهم. فقومك الذين هم[٤] دون أولئك بما ذكر[٥] أحقّ أن لا يقوموا لدفع عذاب الله[٦] عن أنفسهم إذا نزل بهم بالتكذيب.

وقوله: **فكذبوا رُسُلي فكيف كان نكيرِ**، يقول -والله أعلم-: أليس[٧] وجدوا عذابي حقا؟ قال الزجّاج: هو "نكيري"[٨] بالياء، لكن طُرحت الياء لأنه آخر الآية وختمها، فأبقيت الكسرة علامةً لها، أو كلام يشبه هذا.[٩] وقال[١٠] أبو عَوْسَجَة: نكيري عقوبتي، وقال القُتَبِي: أي إنكاري.[١١]

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[٤٦]

وقوله: **قل إنما أعظكم بواحدة**. قال بعضهم: **بواحدة**،[١٢] أي بكلمة الإخلاص والتوحيد، وقال بعضهم: أي بطاعة الله، وقال بعضهم: **بواحدة**، أي بكلمة واحدة، كقول الرجل لصاحبه: أُكلمك كلمة واحدة، واسمع مني كلمة. لكن الواحدة التي وعظهم بها عندنا ما ذكر على إثره،

---

[١] ر – له.

[٢] ث – وقوله وكذب الذين من قبلهم يذكر رسوله ويصبره على تكذيب أولئك له يقول قد كذب الذين كانوا من قبلهم رسلهم لست أنت بأول مكذب بل كذب إخوانك من قبل والله أعلم.

[٣] ر م – ثم.

[٤] ث م + هم.

[٥] ر م: بما ذكروا.

[٦] ر م: العذاب.

[٧] ث: ليس.

[٨] ر م: نكير.

[٩] *معاني القرآن* للزجاج، ٤/٢٥٦.

[١٠] ر ن م: قال.

[١١] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٥٨.

[١٢] ث – قال بعضهم بواحدة.

حيث قال: **أن تقوموا لله مَثْنَى وفرادَى**، أي تقوموا لله[١] بهما: جميعًا وفرادى وتتفكروا وتنظروا فيما بينكم، هل رأى أحد منكم به جنونًا قط. وقال بعضهم: يريد **بالمثنى** أن يتناظر الرجلان في أمر النبي، **وفرادى**، أي تفكروا،[٢] فإن في ذلك[٣] ما دلّ[٤] على أن النبي ليس بمجنون ولا كذاب على ما تزعمون.

ثم كان الذي حملهم على أن نسبوه إلى الجنون وجوهًا. أحدها أنهم رأوه قد خالف الفراعنة والجبابرة الذين كانوا يقتلون مَن خالفهم على الغضب في أدنى شيء، بلا أعوان ولا أتباع له، فقالوا: لا يخاطر بهذا إلا من به جنون، فنسبوه إلى الجنون. والثاني أنهم رأوه

[٦٢١ظ] قد خالف / دينهم ودين آبائهم جملة من بينهم، فقالوا: لا يُحتمل أن يصيب هو[٥] دينًا بعقله من بين الكل لا يصيب أحد ذلك، فاتهموه في عقله.[٦] والثالث أنه كان في حال صغره وصِباه لم يروه اشتغل بشيء من اللعب أو خالط الصبيان في شيء من أمورهم، بل اعتزلهم من حال صباه إلى أن بلغ[٧] الوقت الذي بلغ، فقالوا: إن به جنونًا وإلا لم يعتزل الناس كلَّ هذا الاعتزال. ثم أخبر أنكم لو تفكرتم ونظرتم[٨] عرفتم أن ليس بصاحبكم جنون.

وقوله:[٩] **إن هو**، أي ما هو، **إلا نذير لكم**،[١٠] أي رسول[١١] إليكم ونذير، **بين يَدَي عذاب شديد**، في الآخرة، إن عصيتم عوقبتم في الآخرة.

وقال بعضهم في قوله: **أن تقوموا لله مَثْنى وفُرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة**، يقول -والله أعلم-: أَلَا يتفكر الرجل منكم وحده أو مع صاحبه فينظران في خلق السماوات والأرض وما بينهما أن[١٢] الذي خلق هذه الأشياء وحده، أنه واحد لا شريك له، وأن محمدا لصادق في قوله بأن الله واحد لا شريك له، وما به جنون، **إن هو إلا نذير**.

---

[١] ر م – مثنى وفرادى أي تقوموا لله.
[٢] ر ث م + قط وقال بعضهم يريد بالمثنى أن يتناظر الرجلان في أمر النبي.
[٣] ر ث م: فإن ذلك.
[٤] ن ث: دلهم.
[٥] ر ث م – هو.
[٦] ر م: في العقل.
[٧] ر م – بلغ.
[٨] ر ث م + ثم.
[٩] جميع النسخ – وقوله. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ١٨ظ.
[١٠] ر ث م + بين يدي عذاب شديد في الآخرة إن عصيتم؛ ن + بين يَدَي عذاب شديد.
[١١] ر ث م: رسول الله.
[١٢] ر ث م – ان.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٤٧]

وقوله: **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم**، هذا يحتمل وجهين. أحدهما[1] [ما] قال بعضهم: إنه صلى الله عليه وسلم[2] سأل قومه أن يَوَدُّوا قرابته وأن لا يؤذوهم، كقوله: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى،[3] وقال[4] في آية أخرى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا،[5] يقول: **ما سألتكم من أجر** يعني المودة في القربى، **فهو لكم**، أي الذي سألتكم هو لكم، وهو المودة في القربى واتخاذ السبيل إلى ربي. والثاني قوله: **ما سألتكم من أجر فهو لكم**، أي لم أسألكم على تبليغ الرسالة إليكم أجرًا منكم فيمنَعكم ثِقَلُ ذلك الأجر وغُرْمه عليكم عن الإجابة، كقوله: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ.[6]

وقوله: **إن أجريَ إلا على الله**، أي ما أجري إلا على الله. **وهو على كل شيء شهيد**، بأني نذير وما بي جنون، أو **هو على كل شيء شهيد**، بأني لم أسألكم عليه أجرًا، أو **على كل شيء**، من صنيعكم، **شهيد**، عالم به. ***والله أعلم***.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٤٨] ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[٤٩]

وقوله: **قل إن ربي يقذف بالحق**، هذا يحتمل وجوهًا. يحتمل، **يقذف بالحق**، أي يقضي بالحق، أو **يقذف بالحق**، أي يتكلم بالوحي ويُلقيه.[7] وقوله: **علّام الغيوب**، كلِّ شيء غاب عن الخلق، وقد ذكرنا[8] ذلك في غير موضع.

وقوله: **قل جاء الحق وما يُبدئ الباطل وما يعيد**،[9] اختلف فيه. قال بعضهم: ما يبدئ الأوثان والأصنام التي عبدوها وما يعيد، أي لا يخلق شيئًا ولا يحييه ولا يميته، كقوله:

---

[1] ر م + أنه سأل؛ ن ث − أحدهما.
[2] ث − وسلم.
[3] سورة الشورى، ٢٣/٤٢.
[4] ر ث م: وما قال.
[5] سورة الفرقان، ٥٧/٢٥.
[6] سورة الطور، ٤٠/٥٢؛ وسورة القلم، ٤٦/٦٨.
[7] ن: وتلقيه.
[8] ر ث م: وقد ذكر.
[9] ر ث م + الآية.

وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا.[1] وقال بعضهم: ما يبدئ الشيطان الخلق فيخلقهم، وما يعيد خلقهم في الآخرة فيبعثهم[2] بعد الموت، بل الله يفعل ذلك. أو أن يكون قوله: **قل جاء الحق**، أي حجج الحق، **وما يبدئ الباطل**، ما يَظهر[3] الباطل،[4] أي ذهبت شُبه[5] الباطل وتلاشت. وعلى ذلك جائز أن يكون قوله تعالى: **قل إن ربي يقذف بالحق**، أي[6] يقذف بحجج الحق، **علامُ الغيوب**، أي علام بحجج الحق من شبه الباطل.

وقوله: **قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب**، قال بعضهم: هو ما ذكر في آية أخرى: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ،[7] إلى آخر الآية، قال: يَزهَق الباطل ويَثبُت الحق، أي نقذف بالحق على الباطل فيُهلّك الباطلُ ويثبت الحق، وهو أيضا ما ذكر: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ.[8]

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[٥٠]

وقوله: **قل إن ضللت**، بكسر اللام ونصبها كلاهما لغتان.[9] قال الكسائي: تقول العرب ضَلَّ يَضِلّ ضلالة، وضل يَضَلّ بالخفض والنصب جميعًا. ثم قوله: **قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي**، يخرج على وجهين. أحدهما إن ضللت فإنما[10] يكون ضرر ضلالي[11] على نفسي لا يكون على الله من ذلك شيء، كقوله: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا،[12]

---

[1] ﴿واتَّخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يُخلَقون ولا يملكون لأنفسهم ضَرًا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/٣).

[2] ر م: فبعثهم.

[3] ر ن م: ما أبدأ. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦٢٠و.

[4] ر م + وما أبدأ الباطل؛ ث – ما يظهر الباطل.

[5] الشُّبه هنا بمعنى الدلائل التي يذكرها أهل الباطل ويتشبهون بها كأنها دلائل.

[6] ر ث م – ذهبت شبه الباطل وتلاشت وعلى ذلك جائز أن يكون قوله تعالى قل إن ربي يقذف بالحق أي؛ ر م + لا.

[7] ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/١٨).

[8] سورة الرعد، ١٣/١٧.

[9] مختصر في شواذ *القرآن* لابن خالويه، ١٢٣؛ وتفسير *القرطبي*، ١٧/٣٣٢-٣٣٣؛ وروح *المعاني* للآلوسي، ٢٢/١٥٧.

[10] ر م: فما.

[11] ر: ضلال.

[12] سورة الإسراء، ١٧/٧.

وقوله: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا.[١] والثاني إن ضللت فإنما يكون ذلك على نفسي ولا يكون على أنفسكم من ضلالي شيء، كقوله: قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ.[٢] ونحوه.

وقوله: **وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي**، هذا يخرج أيضًا على وجهين. أحدهما[٣] إن اهتديت إلى طاعة الله وشرائع[٤] الدين فبما يوحي إلي ربي في ذلك، أي فبوحيه اهتديت إلى ذلك. والثاني وإن اهتديت إلى دينه وهدايته فبتوفيقه إياي وعصمته[٥] اهتديت. أضاف الهداية إلى الله والضلال إلى نفسه، فهو لما ذكرنا أن من اهتدى[٦] كان من الله إليه لطف في ذلك، ليس ذلك في الضلال. وعلى قول المعتزلة يجيء أن يكون المعنى فيهما واحدًا، لأنهم يقولون: إنه لا يكون من الله سوى الأمر[٧] والنهي فلا يكون منه إليه في الهداية إلا كما كان منه إليه في الضلال. *والله أعلم*.

وقوله: **إنه سميع قريب**، قال بعضهم: **سميع**، أي مجيب للداعي، كقوله: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ،[٨] الآية. وقال بعضهم: **سميع**، لمقالتكم لمحمد، حيث قالوا له: لقد ضَلَلْتَ حين تركت دين آبائك، **قريب**، أي مجيب له. وقيل: **سميع** الدعاء، **قريب** الإجابة. *والله أعلم*.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[٥١]

وقوله: **ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب**، اختلف فيه. قال بعضهم: ذلك[٩] أنهم بَعَثوا بعثَيْن قاصدِين تخريب الكعبة،[١٠] فلما بلغوا البَيْدَاء خُسف بأحدهما والآخر ينظر،

---

[١] سورة فصلت، ٤١/٤٦؛ وسورة الجاثية، ٤٥/١٥.
[٢] سورة هود، ١١/٣٥.
[٣] م – أحدهما.
[٤] ن + أهل.
[٥] ن: وبعصمته.
[٦] جميع النسخ – من اهتدى. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ١٩ظ.
[٧] ر م – الأمر.
[٨] جميع النسخ – أجيب دعوة الداع إذا دعان. والزيادة من المرجع السابق. سورة البقرة، ٢/١٨٦.
[٩] جميع النسخ: وذلك.
[١٠] ن: تخريبا للكعبة.

[٦٢٢و] وينفلت / منهم مخبرًا فتحوّل[1] وجهه إلى قفاه[2] فيخبرهم بما لَقُوا،[3] فذلك[4] قوله: **ولو ترى إذ فزعوا**، عن الخسف والعذاب، **فلا فوت**، أي لا فوت[5] عن عذاب الله. **وأُخذوا من مكان قريب**، أي[6] من تحت أقدامهم تخسف[7] بهم الأرض.[8] وعلى ذلك يخرج قوله: وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، من تخريب الكعبة، كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ،[9] وهم أصحاب الفيل. وعلى ذلك روي عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:[10] «يغزو هذا البيتَ جيش حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم فلا[11] ينفلت منهم إلا واحد يخبر[12] عنهم»، قالت:[13] يا رسول الله وإن كان فيهم الْمُكْرَهُ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُبعَثون على نياتهم».[14]

وقال بعضهم قوله: **ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت**، وهو عند الموت يفزعون منه ولا فوت لهم عنه، **وأُخذوا من مكان قريب**،[15] أي على المكان. والحسن يقول: **فَزِعوا**، من القبور، **فلا فوت**، يقول: أُخذوا عند ذلك وهو المكان القريب.[16] وقال بعضهم: ذلك يوم[17] القيامة، يفزعون عند معاينتهم العذاب وأفزعهم ذلك، ولا يفوتون الله.

---

[1] جميع النسخ: مخبر فيحول.
[2] جميع النسخ: في قفاه. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٩ظ.
[3] وعبارة *الشرح* هكذا: «فلما بلغوا إلى موضع خسف بأحدهما والآخر ينظر فانفلت ليخبرهم بما لقوا فتحول وجهه إلى قفاه وأخبرهم بذلك» (ورقة ٦٢٠و).
[4] ر ث م: وذلك. والتصحيح من نسخة جارالله، ورقة ١٩ظ.
[5] ر ث م – أي لا فوت.
[6] ر م: أو.
[7] جميع النسخ: يخسف.
[8] انظر: تفسير *الطبري*، ٣١٠/١٩.
[9] الآية ٥٤ من هذه السورة.
[10] ر م – قال.
[11] ن: ولا.
[12] ن: للخبر.
[13] ر ث م: قال.
[14] *مسند أحمد بن حنبل*، ٢٩٠/٦؛ وصحيح مسلم، الفتن ٤-٨؛ وسنن *ابن ماجة*، الفتن ٣٠.
[15] ث + اختلف فيه قال بعضهم.
[16] *بحر العلوم* لأبي الليث السمرقندي، ٧٨/٣؛ و*تفسير ابن كثير*، ٢٩٩/١١.
[17] ر ث م عند.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[٥٢]

وقالوا آمنا به، وهو كقوله: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ،[1] الآية، وكقول فرعون حين[2] أدركه الغَرَق:[3] آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ،[4] ونحوه.

وقوله: **وأنى لهم التناوش من مكان بعيد،** يقول: التناول من مكان بعيد.[5] وقال بعضهم: **من مكان بعيد،** أنهم سألوا الرَّجْعة والرد أن ينالوه، **من مكان بعيد،** قال: من الآخرة إلى الدنيا. وقال بعضهم: أي لا سبيل لهم إلى الإيمان في ذلك الوقت، وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ،[6] في حال الدَّعَة والرَّخاء فلم يؤمنوا. وقال بعضهم: **من مكان بعيد،** أي من حيث لا يُنال ولا يكون، فذلك "البعيد"، كقول الله: أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ،[7] أي من حيث لا يكون أبدًا، ليس على إرادة حقيقة المكان. وقتادة يقول: هو عند الموت وعند نزول العذاب بهم.[8] ليس من أحد بلغ ذلك الوقت إلا وهو يؤمن ويتمنى الإيمان لكن لا ينفع، كقوله: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا،[9] الآية، على ما ذكر.[10]

*و**التناوش** عند عامة أهل التأويل التناول. وقال بعضهم: الرَّجْعة والرد، لأنهم طلبوا الرجعة والرد[11] إلى الدنيا. قال أبو عَوْسَجَة: **التناوش،** التناول من موضع بعيد، لا يكون من قريب.[12] [٦٢٢و س٢٣
والقُتَبِي يقول: **وأنى لهم التناوش،** أي تناول ما أرادوا بلوغه وإدراكُ ما طلبوا من التوبة، **[من مكان بعيد]** من الموضع الذي لا يقبل فيه التوبة.[13] قال أبو معاذ والزجاج: النَّأْش في كلام العرب الطلب، تقول: نأشت إليه، أي طلبت منه لكن هذا ليس من باب التناوش.* ٦٢٢و س٢٧]

---

[1] سورة المؤمن، ٤٠/٨٤.
[2] ر م: حتى.
[3] م + قال.
[4] سورة يونس، ١٠/٩٠.
[5] ر م – يقول التناول من مكان بعيد.
[6] ث – من قبل. الآية التالية.
[7] سورة فصلت، ٤١/٤٤.
[8] *تفسير عبد الرزاق*، ٣/٦٦؛ و*تفسير الطبري*، ١٩/٣١٢-٣١٣.
[9] سورة الأنعام، ٦/١٥٨.
[10] ن ث + والله أعلم.
[11] ر م – لأنهم طلبوا الرجعة والرد.
[12] ث: بعيد.
[13] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٥٨-٣٥٩.
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٦٢٢و/سطر٢٣-٢٧.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[٥٣] ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾[٥٤]

وقوله: **وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد**، قال بعضهم: معناه -والله أعلم- وذلك أنهم كانوا في الدنيا يَكْذِبون[١] بالآخرة[٢] ويكفرون بالغيب، ويقولون:[٣] لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار، ذلك قذفهم من بعيد. وفي حرف ابن مسعود: ويقذفون بالغيب[٤] ويَرجُمون بالظن. وقال بعضهم: **يقذفون بالغيب**، أي يتكلمون بالإيمان من مكانٍ تباعدَ عنهم فلا يُقبل منهم، وقد غاب عنهم الإيمان عند نزول العذاب فلم يقدروا عليه.

وحيل بينهم وبين ما يشتهون، من قبول التوبة والإيمان عند نزول العذاب بهم[٥] أو عند معاينتهم إياه. **كما فُعل بأشياعهم من قبل**، يقول: كما عُذّب أوائلهم من الأمم الخالية من قبل هؤلاء، **إنهم كانوا في شك**، من العذاب أو البعث والقيامة، **مُريب**. وقال بعضهم: **وحيل بينهم وبين ما يشتهون**، من أهل أو مال أو زَهْرة. وقال بعضهم في قوله: **ويقذفون بالغيب من مكان بعيد**، هو قولهم: هو ساحر هو شاعر كاهن.*

وقوله: **وحيل بينهم وبين ما يشتهون**،[٧] هو ما ذكرنا[٨] من اختلافهم. منهم من قال: بين الإيمان والتوبة، ومنهم من قال: بين شهواتهم التي كانت لهم في الدنيا. لكن إن[٩] كان على الإيمان والتوبة فإنما حيل بينهم وبين القبول للإيمان والتوبة، وإلا نفس الفعل قد أتوا به. وإن كان على الشهوات فهو على حقيقة حيلولة الفعل، وكذلك إن كان على تخريب البيت على ما يقوله بعض أهل التأويل. ***والله أعلم***.

وقوله: **كما فعل بأشياعهم من قبل**، قال أبو عَوْسَجَة: **بأشياعهم**، بأمثالهم[١٠] وأشباههم، فهو -والله أعلم- بأشباههم وأمثالهم في التكذيب والجحود. وقال بعضهم: هو من شيعة الرجل.

---

١ ر م: يكونون.
٢ ر م: في الآخرة.
٣ ر ث م: يقولون.
٤ ر م - يقولون لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار ذلك قذفهم من بعيد وفي حرف ابن مسعود ويقذفون بالغيب.
٥ ن - بهم.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فنقلناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٦٢٢و/سطر٢٣-٢٧.
٧ ر م + ما.
٨ ر: لما ذكرنا.
٩ ر م - إن.
١٠ ر: وأمثالهم؛ م: أثالهم.

وقوله: **إنهم كانوا في شك مريب**، قال بعضهم: **إنهم كانوا في شك**،[١] من العذاب بأنه غير نازل بهم. وقال بعضهم:[٢] **إنهم كانوا في شك**، من البعث والإحياء بعد الممات. وشكهم وريبهم لما استبعدوا الإحياء بعد الهلاك وبعد ما صاروا رمادًا، فمن هذه الجهة[٣] أنكروا، ثم لما[٤] لم يروا خلقَ الشيء للفناء خاصة لا لعاقبة وحكمة فارتابوا في ذلك. *والله أعلم*. وقيل "الشك" في القلب، فإذا ظهر في اللسان قيل: "الريب". وفيهم الشك في القلب وإظهار اللسان. *والله أعلم*.[٥]

[١] ر م – مريب قال بعضهم إنهم كانوا في شك.
[٢] جميع النسخ – بعضهم؛ صح ن هـ.
[٣] ر م: الحجة.
[٤] ر م – لما.
[٥] جميع النسخ – وقيل الشك في القلب فإذا ظهر في اللسان قيل الريب وفيهم الشك في القلب وإظهار اللسان والله أعلم. والزيادة من نسخة جارالله، ورقة ٢١و.

سورة سبأ

مكية وقيل فيها آية مدنية وهي ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية. وهي اربع وقيل خمس وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ①﴾

السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف وسورتان في الأخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم فلنا حالتان الابتداء والإعادة وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء فقال في النصف الأول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ [الأنعام: ١] إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] إشارة إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية وهي الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ① قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢] إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء، فإن الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولو وقعت المنازعات في المشتبهات وأدى إلى التقاتل والتفاني، ثم قال في هذه السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ وقال في الملائكة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلاً إلى يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وقال تعالى عنهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] إشارة إلى النعمة العاجلة وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] إشارة إلى النعمة الآجلة قرئت في الافتتاح وفي الاختتام.

ثم في الآية مسائل:

المسألة الأولى: الحمد شكر والشكر على النعمة والله تعالى جعل ما في السموات وما في

الأرض لنفسه بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يبين أنه لنا حتى يجب الشكر نقول جوابًا عنه: الحمد يفارق الشكر في معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وإن لم ينعم على الحامد أصلاً، فإن الإنسان يحسن منه أن يقول في حق عالم لم يجتمع به أصلاً أنه عالم عامل بارع كامل فيقال له إنه يحمد فلانًا ولا يقال إنه يشكره إلا إذا ذكر نعمه أو ذكره على نعمه فالله تعالى محمود في الأزل لاتصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور ولا يزال على ما أبدى من الكرم وأسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفي ذكر العظمة وفي كونه مالك ما في السموات وما في الأرض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يوجب شكرًا أتم مما يوجبه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩] وذلك لأن ما في السموات والأرض إذا كان لله ونحن المنتفعون به لا هو، يوجب ذلك شكرًا لا يوجبه كون ذلك لنا.

المسألة الثانية: قد ذكرتم أن الحمد ههنا إشارة إلى النعمة التي في الآخرة، فلم ذكر الله السموات والأرض؟ فنقول: نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهي ما في السموات وما في الأرض، ثم قال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخير، والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى في الآخرة.

المسألة الثالثة: الحكمة هي العلم الذي يتصل به الفعل فإن من يعلم أمرًا ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم، فالفاعل الذي فعله على وفق العلم هو الحكيم، والخبير هو الذي يعلم عواقب الأمور وبواطنها فقوله: (حَكِيمٌ) أي في الابتداء يخلق كما ينبغي وخبير أي بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر إلى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم في الابتداء خبير في الانتهاء.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

ما يلج في الأرض من الحبة والأموات ويخرج منها من السنابل والأحياء وما ينزل من السماء من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن، وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء، لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانيًا.

المسألة الثانية: قال ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ ولم يقل: يعرج إليها، إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لأن كلمة إلى للغاية، فلو قال وما يعرج إليها، لفهم الوقوف عند السموات فقال: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال في الكلم الطيب: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر: ١٠] لأن الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول إليه، وأما السماء فهي دنيا وفوقها المنتهى.

المسألة الثالثة: قال: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء، غفور عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال فرحم أولاً بالإنزال وغفر ثانيًا عند العروج.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

ثم بين أن هذه النعمة التي يستحق الله بها الحمد وهي نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ ثم رد عليهم وقال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

أخبر بإتيانها وأكده باليمين، قال الزمخشري رحمه الله: لو قال قائل كيف يصح التأكيد باليمين مع أنهم يقولون: لا رب، وإن كانوا يقولون به، لكن المسألة الأصولية لا تثبت باليمين وأجاب عنه بأنه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ وبيان كونه دليلاً هو أن المسيء قد يبقى في الدنيا مدة مديدة في اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم في دار الدنيا في الآلام الشديدة مدة ويموت فيها، فلولا دار تكون الأجزية فيها لكان الأمر على خلاف الحكمة، والذي أقوله أنا هو أن الدليل المذكور في قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أظهر، وذلك لأنه إذا كان عالمًا بجميع الأشياء يعلم أجزاء الأحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام، وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه لطيفة وهي أن الإنسان له جسم وروح والأجسام أجزاؤها في الأرض والأرواح في السماء فقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى علمه بالأرواح وقوله: ﴿وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى علمه بالأجسام، وإذا علم الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد في المعاد. وقوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب، وعلى هذا فلو قال قائل: فأي حاجة إلى ذكر الأكبر، فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الأكبر؟ فنقول: لما كان الله

تعالى أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر، لكونها محل النسيان، أما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته، فقال الإثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر أيضًا مكتوب فيه، ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء فقال: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ذكر فيهم أمرين الإيمان والعمل الصالح، وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم، فالمغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]وقوله عليه السلام فيما أخبرنا به تاج الدين عيسى بن أحمد بن الحاكم البندهي قال: أخبرني والدي عن جدي عن محيي السنة عن عبد الواحد المليجي عن أحمد بن عبد الله النعيمي عن محمد بن يوسف الفربري عن محمد بن إسماعيل البخاري: «يَخرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ» والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فإن من عمل لسيد كريم عملاً، فعند فراغه من العمل لا بد من أن ينعم عليه إنعامًا ويطعمه طعامًا، ووصف الرزق بالكريم قد ذكرنا أنه بمعنى ذي كرم أو مكرم، أو لأنه يأتي من غير طلب بخلاف رزق الدنيا، فإنه ما لم يطلب ويتسبب فيه لا يأتي.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون لهم ذلك جزاء فيوصله إليهم لقوله: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وثانيهما: أن يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشيء آخر لأن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم﴾ جملة تامة اسمية، وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جملة فعلية مستقلة، وهذا أبلغ في البشارة من قول القائل: ليجزي الذين آمنوا رزقًا.

المسألة الثانية: اللام في ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ للتعليل، معناه الآخرة للجزاء، فإن قال قائل: فما وجه المناسبة؟ فنقول: الله تعالى أراد أن لا ينقطع ثوابه فجعل للمكلف دارًا باقية ليكون ثوابه واصلاً إليه دائمًا أبدًا، وجعل قبلها دارًا فيها الآلام والأسقام وفيها الموت ليعلم المكلف مقدار ما يكون فيه في الآخرة إذا نسبه إلى ما قبلها وإذا نظر إليه في نفسه.

المسألة الثالثة: ميز الرزق بالوصف بقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ ولم يصف المغفرة واحدة هي للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقوم والحميم، ومنه الفواكه والشراب الطهور، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه، ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي بالإبطال، ويكون معناه الذين كذبوا بآياتنا وحينئذٍ يكون هذا في مقابلة ما تقدم لأن قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فإن قيل: من أين علم كون سعيهم في الإبطال مع أن

المذكور مطلق السعي؟ فنقول: فهم من قوله تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ وذلك لأنه حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز وبالسعي في التقرير والتبليغ لا يكون الساعي معاجزًا لأن القرآن وآيات الله معجزة في نفسها لا حاجة لها إلى أحد، وأما المكذب فهو آت بإخفاء آيات بينات فيحتاج إلى السعي العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به، وقيل بأن المراد من قوله: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي ظانين أنهم يفوتون الله، وعلى هذا يكون كون الساعي ساعيًا بالباطل في غاية الظهور، و﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ في مقابلة (لهم رزق)، وفي الآية لطائف الأولى: قال ههنا: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: يجزيهم الله، وقد تقدم القول منا أن قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يحتمل أن يكون الله يجزيهم بشيء آخر، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ إخبار عن مستحقهم المعد لهم، وعلى الجملة فاحتمال الزيادة هناك قائم نظرًا إلى قوله: ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ وههنا لم يقل: ليجازيهم، فلم يوجد ذلك، الثانية: قال هناك: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ثم زادهم فقال: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وههنا لم يقل إلا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، والجواب تقدم في مثله، الثالثة: قال هناك: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ولم يقلله بمن التبعيضية فلم يقل: لهم نصيب من رزق، ولا رزق من جنس كريم، وقال ههنا: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ بلفظة صالحة للتبعيض وكل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة إليها والرجز قيل أسوأ العذاب، وعلى هذا (من) لبيان الجنس كقول القائل: خاتم من فضة، وفي الأليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على أن الأليم وصف العذاب كأنه قال: عذاب أليم من أسوأ العذاب، والجر على أنه وصف للرجز والرفع أقرب نظرًا إلى المعنى، والجر نظرًا إلى اللفظ، فإن قيل فلم تنحصر الأقسام في المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعي المعجز لجواز أن يكون أحد مؤمنًا ليس له عمل صالح أو كافر متوقف، فنقول: إذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم أن المؤمن قريب الدرجة ممن تقدم أمره والكافر قريب الدرجة ممن سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم، وإن لم يكن في الكرامة مثل رزق الذي عمل صالحًا وللكافر غير المعاند عذاب وإن لم يكن من أسوأ الأنواع التي للمكذبين المعاندين. ثم قال تعالى:

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

لما بين حال من يسعى في التكذيب في الآخرة بين حاله في الدنيا وهو أن سعيه باطل فإن من أوتي علمًا لا يغتر بتكذيبه ويعلم أن ما أنزل إلى محمد ﷺ حق وصدق، وقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾

يفيد الحصر أي ليس الحق إلا ذلك، وأما قول المكذب فباطل، بخلاف ما إذا تنازع خصمان، والنزاع لفظي فيكون قول كل واحد حقًا في المعنى، وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يحتمل أن يكون بيانًا لكونه هو الحق فإنه هاد إلى هذا الصراط، ويحتمل أن يكون بيانًا لفائدة أخرى، وهي أنه مع كونه حقًا هاديًا والحق واجب القبول فكيف إذا كان فيه فائدة في الاستقبال وهي الوصول إلى الله، وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يفيد رغبة ورهبة، فإنه إذا كان عزيزًا يكون ذا انتقام ينتقم من الذي يسعى في التكذيب، وإذا كان حميدًا يشكر سعي من يصدق ويعمل صالحًا، فإن قيل: كيف قدم الصفة التي للهيبة على الصفة التي للرحمة مع أنك أبدًا تسعى في بيان تقديم جانب الرحمة؟ نقول: كونه عزيزًا تام الهيبة شديد الانتقام يقوي جانب الرغبة لأن رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك، فالعزة كما تخوف ترجى أيضًا، وكما ترغب عن التكذيب ترغب في التصديق ليحصل القرب من العزيز.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

وجه الترتيب: هو أن الله تعالى لما بين أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم بقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣] وبين ما يكون بعد إتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعي في تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات، بين حال المؤمن والكافر بعد قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣] فقال: المؤمن هو الذي يقول الذي أنزل إليك الحق وهو يهدي، وقال: الكافر هو الذي يقول هو باطل، ومن غاية اعتقادهم وعنادهم في إبطال ذلك قالوا على سبيل التعجب: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهذا كقول القائل في الاستبعاد، جاء رجل يقول: إن الشمس تطلع من المغرب إلى غير ذلك من المحالات.

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

هذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون تمام قول الذين كفروا أولاً أعني هو من كلام من قال: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ كأن السامع لما سمع قول القائل: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ قال له: أهو يفتري على الله كذبًا؟ إن كان يعتقد خلافه،

أم به جنة [أيْ] جنون؟ إن كان لا يعتقد خلافه (وفي هذا لطيفة): وهي أن الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه، ولهذا قسم ولم يجزم بأنه مفتر، بل قال: مفتر أو مجنون، احترازًا من أن يقول قائل: كيف يقول بأنه مفتر، مع أنه جائز أن يظن أن الحق ذلك؟ فظن الصدق يمنع تسمية القائل مفتريًا وكاذبًا في بعض المواضع، ألا ترى أن من يقول: جاء زيد، فإذا تبين أنه لم يجئ وقيل له: كذبت، يقول: ما كذبت، وإنما سمعت من فلان أنه جاء، فظننت أنه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن، فهم احترزوا عن تبين كذبهم، فكل عاقل ينبغي أن يحترز عن ظهور كذبه عند الناس، ولا يكون العاقل أدنى درجة من الكافر، ثم إنه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وقوله: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ وكلاهما مناسب. أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذية، لأنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه إلى الكذب. وأما الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه في الإيذاء، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب، ولكن ينسبه إلى عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون، ثم وصف ضلالهم بالبعد، لأن من يسمي المهتدي ضالاً يكون هو الضال، فمن يسمي الهادي ضالاً يكون أضل، والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل مهتد.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾.

لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازيًا على السيئات والحسنات ذكر دليلاً آخر وذكر فيه تهديدًا. أما الدليل فقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فإنهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مرارًا، وكما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾[لقمان: ٢٥] ويدلان على الحشر لأنهما يدلان على كمال قدرته ومنها الإعادة، وقد ذكرناه مرارًا، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾[يس: ٨١] وأما التهديد فبقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

أي لكل من يرجع إلى الله ويترك التعصب ثم إن الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده، ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جملتهم داود كما قال تعالى عنه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿مِنَّا﴾ إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام، وتقريره هو أن قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾ مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل: آتى الملك زيدًا خلعة،

فإذا قال القائل: آتاه منه خلعة، يفيد أنه كان من خاص ما يكون له، فكذلك إيتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١] فإن رحمة الله واسعة تصل إلى كل أحد في الدنيا لكن رحمته في الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ [التوبة: ٢١].

المسألة الثانية: في قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ قال الزمخشري: ﴿يَٰجِبَالُ﴾ بدل من قوله: ﴿فَضْلًا﴾ معناه آتيناه فضلاً قولنا: يا جبال، أو من آتينا ومعناه قلنا: يا جبال.

المسألة الثالثة: قرئ (أَوِّبِي) بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبي من الأوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع، وقيل بأن معناه: سيري معه، وفي قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: ١٨] قالوا: هو من السباحة وهي الحركة المخصوصة.

المسألة الرابعة: قرئ (وَالطَّيْرَ) بالنصب حملاً على محل المنادى والطير بالرفع حملاً على لفظه.

المسألة الخامسة: لم يكن الموافق له في التأويب منحصرًا في الجبال والطير ولكن ذكر الجبال، لأن الصخور للجمود والطير للنفور تستبعد منهما الموافقة، فإذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى، ثم إن من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التي هي أشد قسوة من الحجارة.

المسألة السادسة: قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ عطف، والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر في قوله ﴿يَٰجِبَالُ﴾ تقديره قلنا: يا جِبَال أوبي وألنا، ويحتمل أن يكون عطفًا على (آتينا) تقديره: آتيناه فضلاً وألنا له.

المسألة السابعة: ألان الله له الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذي يكتب به، فأي عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله، قيل: إنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال فألان له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهي الدروع، وإنما اختار الله له ذلك، لأنه وقاية للروح التي هي من أمره وسعى في حفظ الآدمي المكرم عند الله من القتل، فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قيل إن (أن) ههنا للتفسير فهي مفسرة، بمعنى أي اعمل سابغات وهو تفسير ﴿وَأَلَنَّا﴾

وتحقيقه لأن يعمل، يعني ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه: ألنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهي الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، قال المفسرون: أي لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب ولا توسع الثقب فتقلقل المسامير فيها، ويحتمل أن يقال: السرد هو عمل الزرد، وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أي الزرد إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب إنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقي الأيام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه، والكسب قدروا فيه، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وقد ذكرنا مرارًا أن من يعمل لملك شغلاً ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه، ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيبًا آخر وهو سليمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].

وذكر ما استفاد هو بالإنابة فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ) بالرفع وبالنصب وجه الرفع ولسليمان الريح مسخرة أو سخرت لسليمان الريح ووجه النصب ولسليمان سخرنا الريح وللرفع وجه آخر وهو أن يقال معناه: ولسليمان الريحُ، كما يقال: لزيد الدارُ، وذلك لأن الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد.

المسألة الثانية: الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفًا لجملة اسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز أو لا يحسن فكيف هذا؟ فنقول: لما بين حال داود كأنه تعالى قال ما ذكرنا لداود ولسليمان الريح، وأما على النصب فعلى قولنا: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ كأنه قال: وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح.

المسألة الثالثة: المسخر لسليمان كانت ريحًا مخصوصة لا هذه الرياح، فإنها المنافع عامة في أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح.

المسألة الرابعة: قال بعض الناس: المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شيء ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح، ومن تسخير الريح أنه راض الخيل وهي كالريح وقوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ ثلاثون فرسخًا لأن من يخرج للتفرج في أكثر الأمر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك، وقوله في حق داود: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وقوله في حق سليمان: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أنهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أي أناسًا أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا

ضعف اعتقاده [و] عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة.

المسألة الخامسة: أقول: قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] لو قال قائل: ما الحكمة في أن الله تعالى قال في الأنبياء: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وفي هذه السورة قال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠] وقال في الريح هناك وهاهنا: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾؟ نقول: الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب، والريح لم يذكر فيها أنها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لي وهو أن على قولنا: ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠] سيري فالجبل في السير ليس أصلاً بل هو يتحرك معه تبعًا، والريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها، فلم يقل: الريح مع سليمان، بل سليمان كان مع الريح ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي النحاس ﴿وَمِنَ الْجِنِّ﴾ أي سخرنا له من الجن، وهذا ينبئ عن أن جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر.

واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء في حق داود وثلاثة في حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان، وذلك لأن الثقيل مع ما هو أخف منه إذا تحركا يسبق الخفيف الثقيل ويبقى الثقيل مكانه، لكن الجبال كانت أثقل من الآدمي والآدمي أثقل من الريح فقدر الله أن سار الثقيل مع الخفيف أي الجبال مع داود على ما قلنا: ﴿أَوِّبِي﴾ [سبأ: ١٠] أي سيري وسليمان وجنوده مع الريح الثقيل مع الخفيف أيضًا، والطير من جنس تسخير الجن لأنهما لا يجتمعان مع الإنسان؛ الطير لنفوره من الإنس والإنس لنفوره من الجن، فإن الإنسان يتقي مواضع الجن، والجن يطلب أبدًا اصطياد الإنسان والإنسان يطلب اصطياد الطير فقدر الله أن صار الطير لا ينفر من داود بل يستأنس به ويطلبه، وسليمان لا ينفر من الجن بل يسخره ويستخدمه، وأما القطر والحديد فتجاذبهما غير خفي (وهاهنا لطيفة): وهي أن الآدمي ينبغي أن يتقي الجن ويجتنبه والاجتماع به يفضي إلى المفسدة ولهذا قال تعالى: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم؟ فنقول: قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ إشارة إلى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة ولطيفة أخرى: وهي أن الله تعالى قال هنا: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بلفظ الرب وقال: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ ولم يقل: عن أمر ربه، وذلك لأن الرب لفظ ينبئ عن الرحمة، فعندما كانت الإشارة إلى حفظ سليمان عليه السلام قال: ﴿رَبِّهِ﴾ وعندما كانت الإشارة إلى تعذيبهم قال: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف.

وقوله تعالى: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فيه وجهان أحدهما: أن الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقارع من نار فالإشارة إليه، وثانيهما: أن السعير هو ما يكون في الآخرة فأوعدهم بما في الآخرة من العذاب.

قوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

المحاريب إشارة إلى الأبنية الرفيعة ولهذا قال تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] والتماثيل ما يكون فيها من النقوش، ثم لما ذكر البناء الذي هو المسكن بين ما يكون في المسكن من ماعون الأكل فقال: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ جمع جابية وهي الحوض الكبير الذي يجبي الماء أي يجمعه وقيل: كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات لا تنقل لكبرها، وإنما يغرف منها في تلك الجفان.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قدم المحاريب على التماثيل لأن النقوش تكون في الأبنية وقدم (الجفان) في الذكر على (القدور) مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل، فنقول: لما بين الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذي يمد في تلك الدور، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيه، وأما القدور فلا تكون فيه، ولا تحضر هناك، ولهذا قال: ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي غير منقولات، ثم لما بين حال الجفان العظيمة، كان يقع في النفس أن الطعام الذي يكون فيها في أي شيء يطبخ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان.

المسألة الثانية: ذكر في حق داود اشتغاله بآلة الحرب، وفي حق سليمان بحالة السلم وهي المساكن والمآكل وذلك لأن سليمان كان ولد داود، وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة، واستوى داود على الملك، فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده، ولأن سليمان لم يقدر أحد عليه في ظنه فتركوا الحرب معه وإن حاربه أحد كان زمان الحرب يسيرًا لإدراكه إياه بالريح فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام.

المسألة الثالثة: لما قال عقيب قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ١١]، قال عقيب ما يعمله الجن: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن هذه الأشياء حالية لا ينبغي أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة فيها وإنما الواجب الذي ينبغي أن يكثر منه هو العمل الصالح الذي يكون شكرًا، وفيه إشارة إلى عدم الالتفات إلى هذه الأشياء، وقلة الاشتغال بها كما في قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] أي اجعله بقدر الحاجة.

المسألة الرابعة: انتصاب شكرًا يحتمل ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون مفعولاً له كقول القائل جئتك طمعًا وعبدت الله رجاء غفرانه، وثانيها: أن يكون مصدرًا كقول القائل: شكرت الله شكرًا، ويكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل: جلست قعودًا، وذلك لأن العمل شكر فقوله: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾ يقوم مقام قوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟﴾ وثالثها: أن يكون مفعولاً به كقولك: اضرب زيدًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ١١] لأن الشكر صالح.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ إشارة إلى أن الله خفف الأمر على عباده، وذلك لأنه لما قال: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ فهم منه أن الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغي لا يمكن، لأن الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج إلى شكر آخر وهو بتوفيق آخر، فدائمًا تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر، فقال تعالى: إن كنتم لا تقدرون على الشكر التام فليس عليكم في ذلك حرج، فإن عبادي قليل منهم الشكور ويقوي قولنا أنه تعالى أدخل الكل في قوله: ﴿عِبَادِيَ﴾ مع الإضافة إلى نفسه، وعبادي بلفظ الإضافة إلى نفس المتكلم لم ترد في القرآن إلا في حق الناجين، كقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]فإن قيل على ما ذكرتم شكر الله بتمامه لا يمكن وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ﴾ يدل على أن في عباده من هو شاكر لأنعمه، نقول: الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله، وأما الشكر الذي يناسب نعم الله فلا قدرة عليه، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، أو نقول: الشاكر التام ليس إلا من رضي الله عنه، وقال له: يا عبدي ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك أنك شاكر لأنعمي بأسرها، وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلفك شكرها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين أنه لم ينج من الموت، وأنه قضى عليه الموت، تنبيهًا للخلق على أن الموت لا بد منه، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كان سليمان عليه السلام يقف في عبادة الله ليلة كاملة ويومًا تامًّا وفي بعض الأوقات يزيد عليه، وكان له عصا يتكئ عليها واقفًا بين يدي ربه، ثم في بعض الأوقات كان واقفًا على عادته في عبادته إذ توفي، فظن جنوده أنه في العبادة وبقي كذلك أيامًا وتمادى شهورًا، ثم أراد الله إظهار الأمر لهم، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوقع وعلم حاله.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ كانت الجن تعلم ما لا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك، بل الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلاً فهو أكثر الأشياء الحاضرة لا يعلمه، والجن لم تعلم إلا الأشياء الظاهرة وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان، وتبين لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا

في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حي. وقوله: ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير، لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه، بحكاية أهل سبأ، وفي سبأ قراءتان: بالفتح على أنه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على أنه اسم قبيلة وهو الأظهر، لأن الله جعل الآية لسبأ والفاهم هو العاقل لا المكان فلا يحتاج إلى إضمار الأهل وقوله: ﴿ءَايَةٌ﴾ أي من فضل ربهم، ثم بينها بذكر بدله بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ قال الزمخشري: أية آية في جنتين، مع أن بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان؟ وأجاب بأن المراد لكل واحد جنتان أو عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات، ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة، قوله: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى تكميل النعم عليهم حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض، وقوله: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ بيان أيضًا لكمال النعمة، فإن الشكر لا يطلب إلا على النعمة المعتبرة، ثم لما بين حالهم في مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم بيان النعمة بأن بين أن لا غائلة عليه ولا تبعة في المآل في الدنيا، فقال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم، وقال: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي لا عقاب عليه ولا عذاب في الآخرة، فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة حالية خالية عن المفاسد المآلية. ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

فبين كمال ظلمهم بالإعراض بعض إبانة الآية كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧] ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢] وكيفيته أنه تعالى أرسل عليهم سيلاً غرق أموالهم وخرب دورهم، وفي العرم وجوه أحدها: أنه الجرذ الذي سبب خراب السكر، وذلك من حيث إن بلقيس كانت قد عمدت إلى

جبال بينها شعب فسدت الشعب حتى كانت مياه الأمطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها أبوابًا ثلاثة مرتبة بعضها فوق بعض وكانت الأبواب يفتح بعضها بعد بعض. فنقب الجرذ السكر، وخرب السكر بسببه وانقلب البحر عليهم، وثانيها: أن العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهي الحجارة، ثالثها: اسم للوادي الذي خرج منه الماء، وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بين به دوام الخراب، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فإذا تركت سنين تصير كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الأشجار، والخمط كل شجرة لها شوك أو كل شجرة ثمرتها مرة، أو كل شجرة ثمرتها لا تؤكل، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات، يكون عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه، والسدر معروف وقال فيه ﴿قَلِيلٍ﴾ لأنه كان أحسن أشجارهم فقلله الله، ثم بين الله أن ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي﴾ أي لا نجازي بذلك الجزاء ﴿إِلَّا الْكَفُورَ﴾ قال بعضهم: المجازاة تقال في النقمة والجزاء في النعمة، لكن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم﴾ يدل على أن الجزاء يستعمل في النقمة، ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهي في أكثر الأمر تكون بين اثنين، يؤخذ من كل واحد جزاء في حق الآخر. وفي النعمة لا تكون مجازاة لأن الله تعالى مبتدئ بالنعم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ۝١٨ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾

أي بينهم وبين الشام فإنها هي البقعة المباركة. و﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الأخرى، فإن قال قائل: هذا من النعم والله تعالى قد شرع في بيان تبديل نعمهم قوله: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ فكيف عاد مرة أخرى إلى بيان النعمة بعد النقمة؟ فنقول: ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخمط والأثل، ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى، ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادئ والبراري بقوله: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وقد فعل ذلك، ويدل عليه قراءة من قرأ (رَبُّنَا بَعَّدَ) على المبتدأ والخبر، وقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ الأماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لا تتجاوز، فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار، وكانوا يغدون إلى قرية ويروحون إلى أخرى ما أمكن في العرف تجاوزها، فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جادًا حتى يقطعها، وقوله:

﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ أي كان بينهم ليال وأيام معلومة، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ إشارة إلى كثرة العمارة، فإن خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرفيق لا يكون في مثل هذه الأماكن، وقيل بأن معنى قوله: ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ تسيرون فيه إن شئتم ليالي وإن شئتم أيامًا لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فإن بعضها يسلك ليلًا، لئلا يعلم العدو بسيرهم، وبعضها يسلك نهارًا لئلا يقصدهم العدو، إذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين أحدهما: أن يسألوا بطرًا كما طلبت اليهود الثوم والبصل، ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر كما يقول القائل لغيره: اضربني، إشارة إلى أنه لا يقدر عليه. ويمكن أن يقال: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ بلسان الحال، أي لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم، وقوله: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ يكون بيانًا لذلك، وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلًا، يقال: تفرقوا أيدي سبا، وقوله: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بيان لجعلهم أحاديث، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي ظنه أنه يغويهم كما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾[ص: ٨٢] وقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ بيان لذلك أي أغواهم، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال تعالى في حقهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[الحجر: ٤٢] ويمكن أن يقال: صدق عليهم ظنه في أنه خير منه كما قال تعالى عنه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١٢] ويتحقق ذلك في قوله فاتبعوه، لأن المتبوع خير من التابع وإلا لا يتبعه العاقل والذي يدل على أن إبليس خير من الكافر، هو أن إبليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان في امتناعه ترك عبادة الله عنادًا كفر، والمشرك يعبد غير الله فهو كفر بأمر أقرب إلى التوحيد، وهم كفروا بأمر هو الإشراك، ويؤيد هذا الذي اخترناه الاستثناء، وبيانه هو أنه وإن لم يظن أنه يغوي الكل، بدليل أنه تعالى قال عنه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[ص: ٨٣] فما ظن أنه يغوي المؤمنين فما ظنه صدقه ولا حاجة إلى الاستثناء، وأما في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١٢] اعتقد الخيرية بالنسبة إلى جميع الناس بدليل تعليله بقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢] وقد كذب في ظنه في حق المؤمنين، ويمكن الجواب عن هذا في الوجه الأول، وهو أنه وإن لم يظن إغواء الكل وعلم أن البعض ناج، لكن ظن في كل واحد أنه ليس هو ذلك الناجي، إلى أن تبين له فظن أنه يغويه فكذب في ظنه في حق البعض وصدق في البعض.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] أن علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو في كونه عالمًا لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه، فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما في نفس الأمر فعلم الله في الأزل أن العالم سيوجد، فإذا وجد علمه موجودًا بذلك العلم، وإذا عدم يعلمه معدومًا بذلك، مثاله: أن المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها، ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته، والمرآة لم تتغير في ذاتها ولا تبدلت في صفاتها، إنما التغير في الخارجات فكذلك ههنا قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي ليقع في العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن وكان قبله فيه أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ إشارة إلى أنه ليس بملجئ وإنما هو آية، وعلامة خلقها الله لتبيين ما هو في علمه السابق، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ يحقق ذلك أي الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم عالم بما سيقع، فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه حفظه ولا العاجز.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد إلى خطابهم وقال لرسوله ﷺ: قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم ثم بين أنهم لا يملكون شيئًا بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

واعلم أن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة أحدها: قول من يقول: الله تعالى خلق السماء والسماويات وجعل الأرض والأرضيات في حكمهم، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد الكواكب والملائكة التي في السماء فهم آلهتنا والله إلههم، فقال الله تعالى في إبطال قولهم: إنهم لا يملكون في السموات شيئًا كما اعترفتم، قال: ولا في الأرض على خلاف ما زعمتم، وثانيها: قول من يقول: السموات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فإن الله خلق العناصر والتركيبات التي فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا

لغير الله معه شركًا في الأرض والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له، فقال في إبطال قولهم: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي الأرض كالسماء لله لا لغيره، ولا لغيره فيها نصيب، وثالثها: قول من قال: التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى لكن فوض ذلك إلى الكواكب، وفعل المأذون ينسب إلى الآذن ويسلب عن المأذون فيه، مثاله إذا قال ملك لمملوكه: اضرب فلانًا، فضربه يقال في العرف الملك ضربه ويصح عرفًا قول القائل ما ضرب فلان فلانًا، وإنما الملك أمر بضربه فضرب، فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى في إبطال قولهم: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ما فوض إلى شيء شيئًا، بل هو على كل شيء حفيظ ورقيب، ورابعها: قول من قال: إنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى في إبطال قولهم: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فلا فائدة لعبادتكم غير الله فإن الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي أزيل الفزع عنهم، يقال: قرد البعير، إذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد السلب، وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ وجوه أحدها: الفزع الذي عند الوحي فإن الله عندما يوحي يفزع من في السموات، ثم يزيل الله عنهم الفزع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله؟ فيقول: قال الحق، أي الوحي، وثانيها: الفزع الذي من الساعة وذلك لأن الله تعالى لما أوحى إلى محمد عليه السلام فزع من في السموات من القيامة لأن إرسال محمد عليه السلام من أشراط الساعة، فلما زال عنهم ذلك الفزع قالوا: ماذا قال الله؟ قال جبريل: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي الوحي، وثالثها: هو أن الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل أحد بأن ما قال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه، ثم يقبض روحه على الإيمان المتفق عليه بينه وبين الله تعالى، ويضر ذلك القول من سبق منه خلافه فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه وبين الله تعالى إذا علمت هذا فنقول على القولين الأولين، قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية متعلقة بقوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ لأنه بينه بالوحي لأن قول القائل قل لفلان للإنذار حتى يسمع المخاطب ما يقوله، ثم يقول بعد هذا الكلام ما يجب قوله فلما قال: ﴿قُلِ﴾ فزع من في السموات، ثم أزيل عنه الفزع، وعلى الثالث متعلق بقوله تعالى: ﴿زَعَمْتُم﴾ أي زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع، ثم تركتم ما زعمتم وقلتم قال الحق، وعلى القولين الأولين فاعل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا﴾ هو الملائكة السائلون من جبريل، وعلى الثالث الكفار السائلون من الملائكة والفاعل في قوله: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على القولين الأولين هم الملائكة، وعلى الثالث هم المشركون.

واعلم أن الحق هو الموجود ثم إن الله تعالى لما كان وجوده لا يرد عليه عدم كان حقًا مطلقًا لا يرتفع بالباطل الذي هو العدم والكلام الذي يكون صدقًا يسمى حقًا، لأن الكلام له متعلق في الخارج بواسطة أنه متعلق بما في الذهن، والذي في الذهن متعلق بما في الخارج فإذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما في ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما في الخارج لكن

للصدق متعلق يكون في الخارج فيصير له وجود مستمر وللكذب متعلق لا يكون في الخارج، وحينئذ إما أن لا يكون له متعلق في الذهن فيكون كالمعدوم من الأول وهو الألفاظ التي تكون صادرة عن معاند كاذب، وإما أن يكون له متعلق في الذهن على خلاف ما في الخارج فيكون اعتقادًا باطلاً جهلاً أو ظنًا لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل، وكلام الله لا بطلان له في أول الأمر كما يكون كلام الكاذب المعاند و﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [فصلت: ٤٢]كما يكون كلام الظان، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠]أن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ إشارة إلى أنه كامل لا نقص فيه فيقبل نسبة العدم، وفوق الكاملين لأن كل كامل فوقه كامل فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ إشارة إلى أنه فوق الكاملين في ذاته وصفاته، وهذا يبطل القول بكونه جسمًا وفي حيز، لأن كل من كان في حيز فإن العقل يحكم بأنه مشار إليه وهو مقطع الإشارة لأن الإشارة لو لم تقع إليه لما كان المشار إليه هو، وإذا وقعت الإشارة إليه فقد تناهت الإشارة عنده، وفي كل موقع تقف الإشارة بقدر العقل على أن يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين مأخذ الإشارة والمشار إليه أكثر من هذا البعد لكان هذا المشار إليه أعلى فيصير عليه بالإضافة لا مطلقًا وهو علي مطلقًا ولو كان جسمًا لكان له مقدار، وكل مقدار يمكن أن يفرض أكبر منه فيكون كبيرًا بالنسبة إلى غيره لا مطلقًا وهو كبير مطلقًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ قد ذكرنا مرارًا أن العامة يعبدون الله لا لكونه إلهًا، وإنما يطلبون به شيئًا، وذلك إما دفع ضرر أو جر نفع فنبه الله تعالى العامة بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ [سبا: ٢٢] على أنه لا يدفع الضر أحد إلا هو كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٧] وقال بعد إتمام بيان ذلك ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ إشارة إلى أن جر النفع ليس إلا به ومنه، فإذًا إن كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضرًا أو لم يدفع وسواء نفعكم بخير أو لم ينفع فإن لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضر وجر النفع.

ثم قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ يعني إن لم يقولوا هم فقل أنت: الله يرزق، (وهاهنا لطيفة): وهي أن الله تعالى عند الضر ذكر أنهم يقولون: الله، ويعترفون بالحق حيث قال: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ وعند النفع لم يقل إنهم يقولون ذلك وذلك لأن لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضر هو الله حيث يقعون في الضر كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] وأما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك فلذلك قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ أي هم في حالة الراحة غافلون عن الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر: هذا الذي تقوله خطأ وأنت فيه مخطئ، يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع في الفهم فيفوت الغرض، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك في أنه مخطئ والتمادي في الباطل قبيح والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز فإنه يجتهد ذلك الخصم في النظر ويترك التعصب وذلك لا يوجب نقصًا في المنزلة لأنه أوهم بأنه في قوله شاك ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ مع أنه لا يشك في أنه هو الهادي وهو المهتدي وهم الضالون والمضلون.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ذكر في الهدى كلمة على وفي الضلال كلمة في لأن المهتدي كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة التعلي، والضال منغمس في الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة في.

المسألة الثالثة: وصف الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لأن الهدى هو الصراط المستقيم الموصل إلى الحق والضلال خلافه لكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال وبعضه بين من بعض، فميز البعض عن البعض بالوصف.

المسألة الرابعة: قدم الهدى على الضلال لأنه كان وصف المؤمنين المذكورين بقوله: ﴿إِنَّآ﴾ وهو مقدم في الذكر.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. أضاف الإجرام إلى النفس وقال في حقهم: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم وقوله: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ زيادة حث على النظر وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذًا بجرمه فإذا احترز نجا، ولو كان البريء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

أكد ما يوجب النظر والتفكر، فإن مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب، فكيف إذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله: ﴿يَفْتَحُ﴾ قيل معناه يحكم، ويمكن أن يقال بأن الفتح ههنا مجاز وذلك لأن الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحه على طريق الحقيقة. ثم إن الأمر إذا كان فيه انغلاق وعدم وصول إليه فإذا بينه أحد يكون قد فتحه وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى أن حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. قد ذكرنا أن المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الأشراف الأعزة يعبدونه لأنه يستحق العبادة لذاته فلما بين أنه لا يعبد غير الله لدفع الضرر إذ لا دافع للضرر غيره بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سبا: ٢٢] وبين أنه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبا: ٢٤] بين ههنا أنه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهي القدرة الكاملة والحكمة وهي العلم التام الذي عمله موافق له.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

لما بين مسألة التوحيد شرع في الرسالة فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً﴾ وفيه وجهان أحدهما: كافة أي إرسالة كافة أي عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها والثاني: كافة أي أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر والهاء للمبالغة على هذا الوجه ﴿بَشِيرًا﴾ أي تحثهم بالوعد ﴿وَنَذِيرًا﴾ تزجرهم بالوعيد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ لما ذكر الرسالة بين الحشر.

وقال: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ قد ذكرنا في سورة الأعراف أن قوله: ﴿لَا تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ يوجب الإنذار، لأن معناه عدم المهلة عن الأجل ولكن الاستقدام ما وجهه؟ وذكرنا هناك وجهه ونذكر ههنا أنهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لا استعجال فيه كما لا إمهال، وهذا يفيد عظم الأمر وخطر الخطب، وذلك لأن الأمر الحقير إذا طالبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه على وقت بخلاف الأمر الخطير وفي قوله تعالى: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ قراءات أحدها: رفعهما مع التنوين على وهذا يوم بدل، وثانيها: نصب (يوم) مع رفع (ميعاد) والتنوين فيهما ميعاد يومًا قال الزمخشري: ووجهه أنه منصوب بفعل محذوف كأنه قال: ميعاد أعني يومًا، وذلك يفيد التعظيم والتهويل، ويحتمل أن يقال: نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يومًا كما يقول القائل: أنا جائيك يومًا، وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كأنه يقول: لكم ميعاد تعلمونه يومًا، وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل إنه مقتول يومًا، الثالثة: الإضافة لكم ميعاد يوم كما في قول القائل: سحق ثوب للتبيين، وإسناد الفعل إليهم بقوله: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ﴾ بدلاً عن قوله: (لا يؤخر عنكم) زيادة تأكيد لوقوع اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما بين الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وذلك لأن القرآن مشتمل على الكل وقوله: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ المشهور أنه التوراة والإنجيل، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر، ويحتمل أن يقال: إن المعنى هو أنا لا نؤمن بالقرآن أنه من الله ولا بالذي بين يديه أي ولا بما فيه من الإخبارات والمسائل والآيات والدلائل، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم العموم، لأن أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله ولا بالذي فيه من الرسالة وتفاصيل الحشر، فإن قيل: أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر؟ فنقول: إذا لم يصدق واحد ما في الكتاب من الأمور المختصة به يقال فيه إنه لم يؤمن بشيء منه وإن آمن ببعض ما فيه لكونه في غيره فيكون إيمانه لا بما فيه. مثاله: أن من يكذب رجلاً فيما يقوله فإذا أخبره بأن النار حارة لا يكذبه فيه ولكن لا يقال إنه صدقه لأنه إنما صدق نفسه، فإنه كان عالمًا به من قبل وعلى هذا فقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي الذي هو مشتمل عليه من حيث إنه وارد فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

لما وقع اليأس من إيمانهم في هذه الدار بقولهم لن نؤمن فإنه لتأييد النفي وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه يراهم على أذل حال موقوفين للسؤال يرجع بعضهم إلى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة أخطئوا في أمر يقول بعضهم: كان ذلك بسببك، ويرد عليه الآخر مثل ذلك، وجواب لو محذوف، تقديره: ولو ترى إذ الظالمون موقوفون لرأيت عجبًا، ثم بدأ بالأتباع لأن المضل أولى بالتوبيخ فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن كفرهم كان لمانع لا لعدم المقتضى لأنهم لا يمكنهم أن يقولوا: ما جاءنا رسول، ولا أن يقولوا: قصر الرسول، وهذا إشارة إلى إتيان الرسول بما عليه لأن الرسول لو أهمل شيئًا لما كانوا يؤمنون ولولا المستكبرون لآمنوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ

﴿وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾.

ردًّا لما قالوا: إن كفرنا، كان لمانع ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ يعني المانع ينبغي أن يكون راجحًا على المقتضى حتى يعمل عمله، والذي جاء به هو الهدى، والذي صدر من المستكبرين لم يكن شيئًا يوجب الامتناع من قبول ما جاء به فلم يصح تعليلكم بالمانع، ثم بين أن كفرهم كان إجرامًا من حيث إن المعذور لا يكون معذورًا إلا لعدم المقتضى أو لقيام المانع ولم يوجد شيء منهما.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾.

لما ذكر المستكبرون أنا ما صددناكم وما صدر منا ما يصلح مانعًا وصارفًا اعترف المستضعفون به وقالوا: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ منعنا، ثم قالوا: لهم إنكم وإن كنتم ما أتيتم بالصارف القطعي والمانع القوي ولكن انضم أمركم إيانا بالكفر إلى طول الأمد والامتداد في المدد فكفرنا فكان قولكم جزء السبب، ويحتمل وجهًا آخر وهو أن يكون المراد بل مكركم بالليل والنهار فحذف المضاف إليه. وقوله: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ أي ننكره ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ هذا يبين أن المشرك بالله مع أنه في الصورة مثبت لكنه في الحقيقة منكر لوجود الله لأن من يساويه المخلوق المنحوت لا يكون إلهًا، وقوله في الأول: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [سبأ: ٣١] يقول الذين استضعفوا بلفظ المستقبل، وقوله في الآيتين المتأخرتين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ بصيغة الماضي مع أن السؤال والتراجع في القول لم يقع إشارة إلى أن ذلك لا بد وأن يقع، فإن الأمر الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

معناه أنهم يتراجعون القول في الأول، ثم إذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع الدال على الندامة، وقيل معنى الإسرار الإظهار أي أظهروا الندامة، ويحتمل أن يقال بأنهم لما تراجعوا في القول رجعوا إلى الله بقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] ثم أجيبوا وأخبروا بأن لا مرد لكم فأسروا ذلك القول، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ إشارة إلى كيفية العذاب وإلى أن مجرد الرؤية ليس كافيًا بل لما رأوا العذاب قطعوا

بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الأغلال في أعناقهم، وقوله: ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى أن ذلك حقهم عدلاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

تسلية لقلب النبي ﷺ وبيانًا لأن إيذاء الكفار الأنبياء الأخيار ليس بدعًا، بل ذلك عادة جرت من قبل وإنما نسب القول إلى المترفين مع أن غيرهم أيضًا قالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول، ألا ترى أن الله قال عن الذين استضعفوا إنهم قالوا للمستكبرين: لولا أنتم لكانوا مؤمنين، ثم استدلوا على كونهم مصيبين في ذلك بكثرة الأموال والأولاد فقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أي بسبب لزومنا لديننا، وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي في الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلاً خير من حالكم، وأما آجلاً فلا نعذب إما إنكارًا منهم للعذاب رأسًا أو اعتقادًا لحسن حالهم في الآخرة أيضًا قياسًا [على حسن حالهم في الدنيا]. ثم إن الله تعالى بين خطأهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يعني أن الرزق في الدنيا لا تدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل فكم من موسر شقي ومعسر تقي ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أن قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم بين فساد استدلالهم بقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾.

يعني قولكم: نحن أكثر أموالاً فنحن أحسن عند الله حالاً، ليس استدلالاً صحيحًا، فإن المال لا يقرب إلى الله ولا اعتبار بالتعزز به، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان والذي يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح إقبال

على الله واشتغال بالله ومن توجه إلى الله وصل ومن طلب من الله شيئًا حصل، وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ أي الحسنة فإن الضعف لا يكون إلا في الحسنة وفي السيئة لا يكون إلا المثل.

ثم زاد وقال: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده، فإن من تنقطع عنه النعمة لا يكون آمنًا.

ثم بين حال المسيء بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وقد ذكرنا تفسيره، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ إشارة إلى الدوام أيضًا كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] وكما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٦].

ثم قال تعالى مرة أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافي نعمة الدنيا، بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى بناءً على الوعد، قطعًا لقول من يقول: إذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى، فقال هذا النقد غير مختص بكم فإن كثيرًا من الأشقياء مدقعون، وكثير من الأتقياء ممتعون.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر هذا المعنى مرتين: مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم، ومرة لبيان أنه غير مختص بهم كأنه قال: وجود الترف لا يدل على الشرف، ثم إن سلمنا أنه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك، فإن الله يملكهم دياركم وأموالكم، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى لم يذكر أولاً لمن يشاء من عباده، بل قال: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ [سبأ: ٣٦]، وثانيًا قال: ﴿لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، والعباد المضافة يراد بها المؤمن، ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر، فإن الكافر دابره مقطوع، وماله إلى الزوال، ومآله إلى الوبال. وأما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله، ومخلف الله خير، فإن ما في يد الإنسان في معرض البوار والتلف وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١] وخيرية الرازق في أمور أحدها: أن لا يؤخر عن وقت الحاجة، والثاني: أن لا ينقص عن قدر الحاجة، والثالث: أن لا ينكده بالحساب، والرابع: أن لا يكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك.

أما الأول: فلأنه عالم وقادر، والثاني: فلأنه غني واسع، والثالث: فلأنه كريم، وقد ذكر ذلك بقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢] وما ذكرنا هو المراد، أي يرزقه حلالاً لا يحاسبه عليه والرابع: فلأنه علي كبير والثواب يطلبه الأدنى من الأعلى، ألا ترى أن هبة الأعلى من الأدنى لا تقتضي ثوابًا.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ وَمَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا،

وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»(١) وذلك لأن الله تعالى ملك علي وهو غني ملي، فإذا قال أنفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه، كما إذا قال قائل: ألق متاعك في البحر وعلى ضمانه، فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل، ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف، ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن مالاً من أمواله في معرض الهلاك يبيعه نسيئة، وإن كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الإمهال إلى الهلاك، فإن لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ، ثم إن حصل به كفيل مليء ولا يبيع ينسب إلى قلة العقل، فإن حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون، ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريب من الجنون، فإن أموالنا كلها في معرض الزوال المحقق، والإنفاق على الأهل والولد إقراض، وقد حصل الضامن المليء وهو الله العلي وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ثم رهن عند كل واحد إما أرضًا أو بستانًا أو طاحونة أو حمامًا أو منفعة، فإن الإنسان لا بد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها مال وكل ذلك ملك الله وفي يد الإنسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام، ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجورًا ولا مشكورًا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ينبئ عن كثرة في الرازقين ولا رازق إلا الله، فما الجواب عنه؟ فنقول: عنه جوابان أحدهما: أن يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك في قوله تعالى: وهو ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥] وثانيهما: هو أن الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة، مثال الأول العلم، فإن الله يعلم أنه واحد والعبد يعلم أنه واحد بطريق الحقيقة، وكذلك العلم بكون النار حارة، غاية ما في الباب أن علمه قديم وعلمنا حادث، مثال الثاني الرازق والخالق، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئًا فإن الله هو المعطي، ولكن لأجل صورة العطاء منه سمي معطيًا، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وإنسان، مثال الثالث الأزلي والله وغيرهما، وقد يقال في أشياء في الإطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازًا كالاستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾

لما بين أن حال النبي ﷺ كحال من تقدمه من الأنبياء، وحال قومه كحال من تقدم من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الزكاة)، باب: (قول الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥]) (٢/ ٥٢٢)، حديث رقم (١٣٧٤)، ومسلم في (صحيحه) (٢/ ٧٠٠/ ١٠١٠)، كلاهما من طريق أبي الحباب عن أبي هريرة. . . به.

الكفار، وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم، بين ما يكون من عاقبة حالهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني المكذبين بك وبمن تقدمك، ثم نقول لمن يدعون أنهم يعبدونهم وهم الملائكة، فإن غاية ما ترتقي إليه منزلتهم أنهم يقولون: نحن نعبد الملائكة والكواكب، فيسأل الملائكة أهم كانوا يعبدونكم! إهانة لهم، فيقول كل منهم: سبحانك ننزهك عن أن يكون غيرك معبودًا وأنت معبودنا ومعبود كل خلق، وقولهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن مذاهب الناس مختلفة؛ بعضهم لا يسكن المواضع المعمورة التي يكون فيها سواد عظيم، لأنه لا يترأس هناك فيرضى الضياع والبلاد الصغيرة، وبعضهم لا يريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها إلى الأكياس، ثم إن الفريقين جميعًا إذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الأرذال الذين لا التفات إليهم أصلاً يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لا يؤبه به، ولو أن رجلاً سكن جبلاً ووضع بين يديه شيئًا من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان، وهو يقول: هؤلاء أتباعي وأشياعي، ولا أدخل المدينة مخافة أن أحتاج إلى خدمة السلطان العظيم والتردد إليه ينسب إلى الجنون، فكذلك من رضي بأن يترك خدمة الله وعبادته، ورضي باستتباع الهمج الذين هم أضل من البهائم وأقل من الهوام يكون مجنونًا، فقالوا: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ﴾ يعني كونك ولينا بالمعبودية أولى، وأحب إلينا من كونهم أولياءنا بالعبادة لنا وقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي كانوا ينقادون لأمر الجن، فهم في الحقيقة كانوا يعبدون الجن، ونحن كنا كالقبلة لهم، لأن العبادة هي الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ لو قال قائل: جميعهم كانوا تابعين للشياطين، فما وجه قوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ فإنه ينبئ أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم؟ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم فقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل في الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار، الثاني: هو أن العبادة عمل ظاهر والإيمان عمل باطن فقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما في القلوب فإن القلب لا اطلاع عليه إلا لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم بين أن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الخطاب بقوله: ﴿بَعْضُكُمْ﴾ مع من؟ نقول: يحتمل أن يكون الملائكة لسبق قوله تعالى: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[سبأ: ٤٠] وعلى هذا يكون ذلك تنكيلاً للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر، ويصحح هذا قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[مريم: ٨٧] وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[الأنبياء: ٢٨] ولأنه قال بعده: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا﴾ فأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا.

وعلى هذا يكون الكفار داخلين في الخطاب حتى يصح معنى قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي الملائكة للكفار، والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه في أمر مخاطبًا بسببه، كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك في كلام: أنتم قلتم، على معنى أنت قلت، وهم قالوا، ويحتمل أن يكون معهم الجن أي لا يملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجن، وإذا لم تملكوها لأنفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب هم الكفار لأن ذكر اليوم يدل على حضورهم، وعلى هذا فقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إنما ذكره تأكيدًا لبيان حالهم في الظلم، وسبب نكالهم من الإثم، ولو قال: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ لكان كافيًا لكنه، لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة، فإنهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا عليه من الظلم والعناد والإثم والفساد يتحسرون ويندمون.

المسألة الثانية: قوله: ﴿نَّفْعًا﴾ مفيد للحسرة، وأما الضر فما الفائدة فيه مع أنهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك؟ فنقول: لما كانت العبادة تقع لدفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين أنهم ليس فيهم ذلك الوجه الذي يحسن لأجله عبادتهم.

المسألة الثالثة: قال هاهنا: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وقال في السجدة: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ﴾[السجدة: ٢٠] جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل، والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول ما رأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[السجدة: ٢٠] أي العذاب المؤبد الذي أنكرتموه بقولكم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[البقرة: ٨٠] أي قلتم إن العذاب إن وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم، وههنا أول ما رأوا النار لأنه مذكور عقيب الحشر والسؤال فقيل لهم: هذه ﴿النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

إظهارًا لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾[سبأ: ٤١] أي لا أهلية لنا إلا لعبادتك من

دونهم أي لا أهلية لنا لأن نكون معبودين لهم ولا لنفع أو ضر كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبا: ٤٢] ثم مع هذا كله إذا قال لهم النبي عليه السلام كلامًا من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه، فإن لله في كل شيء آيات دالة على وحدانيته أنكروها وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يعني يعارضون البرهان بالتقليد ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهو يحتمل وجوهًا أحدها: أن يكون المراد أن القول بالوحدانية ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ ويدل عليه هو أن الموحد كان يقول في حق المشرك إنه يأفك كما قال تعالى في حقهم: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦] وكما قالوا هم للرسول: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] وثانيها: أن يكون المراد ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي القرآن إفك وعلى الأول يكون قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى القرآن وعلى الثاني يكون إشارة إلى ما أتى به من المعجزات، وعلى الوجهين فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بدلاً عن أن يقول: وقالوا للحق، هو أن إنكار التوحيد كان مختصًا بالمشركين، وأما إنكار القرآن والمعجزات [فقد] كان متفقًا عليه بين المشركين وأهل الكتاب [فقال] تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ على وجه العموم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ تأكيد لبيان تقليدهم يعني يقولون عندما تتلى عليهم الآيات البينات: هذا رجل كاذب، وقولهم: ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ من غير برهان ولا كتاب أنزل عليهم ولا رسول أرسل إليهم، فالآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية، ولم يأتوا بها أو بالتقلبات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك، والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول الله، ثم بين أنهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قال المفسرون: معناه: وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر، ثم إن الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم، فكيف حال هؤلاء الضعفاء، وعندي [أنه] يحتمل ذلك وجهًا آخر وهو أن يقال: المراد: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان، وذلك لأن كتاب محمد عليه السلام أكمل من سائر الكتب وأوضح، ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى، ثم إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل أنكر عليهم وكيف لا ينكر عليهم، وقد كذبوا بأفصح الرسل، وأوضح السبل،

يؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَا﴾ يعني غير القرآن ما آتيناهم كتابًا وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير، فلما كان المؤتى في الآية الأولى هو الكتاب، فحمل الإيتاء في الآية الثانية على إيتاء الكتاب أولى.

ثم قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ۝٤٦﴾.

ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل فقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى التوحيد وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ إشارة إلى الرسالة وقوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ يقتضي أن لا يكون إلا بالتوحيد، والإيمان لا يتم إلا بالاعتراف بالرسالة والحشر، فكيف يصح الحصر المذكور بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ فنقول: التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره ويرفع في الآخرة قدره فالنبي ﷺ أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيئ لهم أسباب السعادات، وجواب آخر وهو أن النبي ﷺ ما قال: إني لا آمركم في جميع عمري إلا بشيء واحد، وإنما قال: أعظكم أولاً بالتوحيد ولا آمركم في أول الأمر بغيره لأنه سابق على الكل، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ فإن التفكر أيضًا صار مأمورًا به وموعوظًا.

المسألة الثانية: قوله: ﴿بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ قال المفسرون: أنثها على أنها صفة خصلة أي أعظكم بخصلة واحدة، ويحتمل أن يقال: المراد حسنة واحدة لأن التوحيد حسنة وإحسان وقد ذكرنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] أن العدل نفي الإلهية عن غير الله والإحسان إثبات الإلهية له، وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] أن المراد هل جزاء الإيمان إلا الجنان، وكذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ إشارة إلى جميع الأحوال فإن الإنسان إما أن يكون مع غيره أو يكون وحده، فإذا كان مع غيره دخل في قوله: ﴿مَثۡنَىٰ﴾ وإذا كان وحده دخل في قوله: ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ فكأنه يقول: تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ يعني اعترفوا بما هو الأصل والتوحيد ولا حاجة فيه إلى تفكر ونظر بعد ما بان وظهر، ثم تتفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر، فإنه يحتاج إلى تفكر، وكلمة (ثم) تفيد ما ذكرنا، فإنه قال: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبي عليه السلام فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ يفيد كونه رسولاً وإن كان لا يلزم في كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولاً، وذلك لأن النبي عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورة للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب إما الجن أو الملك، وإذا لم يكن الصادر من النبي ﷺ بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة، وعلى التقديرين فهو رسول الله، وهذا من أحسن الطرق، وهو أن يثبت الصفة التي هي أشرف الصفات في البشر بنفي أخس الصفات، فإنه لو قال أولاً: هو رسول الله، كانوا يقولون فيه النزاع، فإذا قال: ما هو مجنون، لم يسعهم إنكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله في قوة لسانه وبيانه فإذا ساعدوا على ذلك لزمتهم المسألة. ولهذا قال بعده: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ يعني إما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين أنه ليس به جنة فهو نذير.

المسألة السادسة: قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى قرب العذاب كأنه قال: ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدي العذاب أي سوف يأتي العذاب بعده.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

لما ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبيًا ذكر وجهًا آخر يلزم منه أنه نبي إذا لم يكن مجنونًا لأن من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل إذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروي يكون مجنونًا، فالنبي عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلاً، فإن كل أحد يقصده ويعاديه ولا يطلب أجرًا في الدنيا فهو يفعله للآخرة، والكاذب في الآخرة معذب لا مثاب، فلو كان كاذبًا لكان مجنونًا لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب، فهو نبي صادق، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تقرير آخر للرسالة وذلك لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة، بأن يدعي شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهي بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول في إفادة العلم بدليل أن من قال لقوم: إني مرسل من هذا الملك إليكم ألزمكم قبول قولي، والملك حاضر ناظر، ثم قال للملك: أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فقل لهم إني رسولك، فإذا قال إنه رسولي إليكم لا يبقى فيه شك، كذلك إذا قال: يا أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فألبسني قباءك، فلو ألبسه قباءه في عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله، كذلك حال الرسول إذا قال الأنبياء لقومهم: نحن رسل الله، ثم قالوا: يا إلهنا إن كنا رسلك فأنطق هذه الحجارة أو انشر هذا الميت، ففعله حصل الجزم بأنه صدقه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

وفيه وجهان أحدهما: يقذف بالحق في قلوب المحقين، وعلى هذا الوجه للآية بما قبلها تعلق،

وذلك من حيث إن الله تعالى لما بين رسالة النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ وأكده بقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بإنزال الذكر عليه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] ذكر ما يصلح جوابًا لهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي في القلوب إشارة إلى أن الأمر بيده يفعل ما يريد ويعطي ما يشاء لمن يشاء.

ثم قال تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ إشارة إلى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو أن من يفعل شيئًا كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشيء لا يوجد في غيره لا يكون عالمًا وإنما فعل ذلك اتفاقًا، كما إذا أصاب السهم موضعًا دون غيره مع تسوية المواضع في المحاذاة فقال: ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب ما يفعله فهو يفعل ما يريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب إذ هو علام الغيوب، الوجه الثاني: أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما قال في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨] وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضًا ظاهر وذلك من حيث إن براهين التوحيد لما ظهرت ودحضت شبههم قال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي على باطلكم، وقوله: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم إلا على التوحيد والرسالة، وأما الحشر فعلى وقوعه لا برهان غير إخبار الله تعالى عنه، وعن أحواله وأهواله، ولولا بيان الله بالقول لما بان لأحد بخلاف التوحيد والرسالة، فلما قال: ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي على الباطل، إشارة إلى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لا خلف فيه فإن الله علام الغيوب، والآية تحتمل تفسيرًا آخر وهو أن يقال: ﴿رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على الوجهين الأولين متعلق بالمفعول به أي الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء في قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩] وفي قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] والمعنى على هذا الوجه هو أن الله تعالى قذف ما قذف في قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم ما في قلوبهم وما في قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾

لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال، ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه أحدها: أنه القرآن، الثاني: أنه بيان التوحيد والحشر وكل ما ظهر على لسان النبي ﷺ، الثالث: المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام، ويحتمل أن يكون المراد من ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهر الحق لأن كل ما جاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق، وقد بينا أن الحق هو الموجود، ولما كان ما جاء به النبي ﷺ لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر، كان حقًا لا ينتفي، ولما كان ما يأتون به من الإشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلًا لا يثبت، وهذا المعنى يفهم من قوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي الباطل لا يفيد شيئًا في الأولى ولا في الآخرة فلا

إمكان لوجوده أصلًا، والحق المأتي به لا عدم له أصلًا، وقيل: المراد لا يبدئ الشيطان ولا يعيد، وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ لما كان فيه معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨] كان يقع لمتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق فأبطله ودمغه، فقال هاهنا: ليس للباطل تحقق أولاً وآخرًا، وإنما المراد من قوله: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي فيظهر بطلانه الذي لم يزل كذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] يعني ليس أمرًا متجددًا زهوق الباطل، فقوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ أي لا يثبت في الأول شيئًا خلاف الحق ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ أي لا يعيد في الآخرة شيئًا خلاف الحق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

هذا فيه تقرير الرسالة أيضًا وذلك لأن الله تعالى قال على سبيل العموم: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ﴾ [الزمر: ٤١] وقال في حق النبي ﷺ: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ يعني ضلالي على نفسي كضلالكم، وأما اهتدائي فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم، وإنما هو بالوحي المبين، وقوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي يسمع إذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير، ليس يسمع عن بعد ولا يلحق الداعي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾.

لما قال: ﴿سَمِيعٌ﴾ قال: هو قريب فإن لم يعذب عاجلاً ولا يعين صاحب الحق في الحال فيوم الفزع آت لا فوت، وإنما يستعجل من يخاف الفوت. وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ جوابه محذوف أي ترى عجبًا ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ لا يهربون وإنما الأخذ قبل تمكنهم من الهرب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾.

أي بعد ظهور الأمر حيث لا ينفع إيمان، قالوا: آمنا ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ أي كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون إلا في الدنيا وهم في الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة، فإن قيل فكيف قال في كثير من المواضع: إن الآخرة من الدنيا قريبة، ولهذا سماها الله الساعة وقال: ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧] نقول: الماضي كالأمس الدابر بعدما يكون إذ لا وصول إليه، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنين فإنه آت، فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها وفي

الدنيا يوم القيامة قريب لإتيانه والتناوش هو التناول عن قرب. وقيل: عن بعد، ولما جعل الله الفعل مأخوذًا كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ والمراد ما مضى من الدنيا.

قوله تعالى ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم بين الله تعالى أن إيمانهم لا نفع فيه بسبب أنهم كفروا به من قبل، والإشارة في قوله: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ إلى شيء واحد، إما محمد عليه الصلاة والسلام وإما القرآن وإما الحق الذي أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى، وقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ضد يؤمنون بالغيب لأن الغيب ينزل من الله على لسان الرسول، فيقذفه الله في القلوب ويقبله المؤمن، وأما الكافر فهو يقذف بالغيب، أي يقول ما لا يعلمه، وقوله: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أن مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من أنهم لا يقدرون على أعمال كثيرة إلا إذا كانوا أشخاصًا كثيرة، فكذلك المخلوقات الكثيرة، وأخذوا بعد الإعادة من حالهم وعجزهم عن الإحياء، فإن المريض يداوى فإذا مات لا يمكنهم إعادة الروح إليه، وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ، ويحتمل أن يقال: إنهم كانوا يقولون بأن الساعة إذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا، كقول قائلهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] فكانوا يقولون ذلك فإن كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن إحساس فإن ما لا يجب عقلاً لا يعلم إلا بالإحساس أو بقول الصادق، فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد، فإن قيل: قد ذكرت أن الآخرة قريب فكيف قال: ﴿من مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد ﷺ ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيدًا عنده، الثاني: أن الحكاية يوم القيامة، فكأنه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا، ويحتمل وجهًا آخر وهو أنهم في الآخرة يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من العود إلى الدنيا أو بين لذات الدنيا، فإن قيل: كيف يصح قولك: ما يشتهون، من العود مع أنه تعالى قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ وما حيل بينهم وبين العود؟ قلنا: لم قلتم: إنه ما حيل بينهم، بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم يقبل، وقوله: ﴿مُّرِيبٍ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: ذي ريب، والثاني: موقف في الريب، وسنذكره في موضع آخر إن شاء الله تعالى، والله أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه أجمعين.

سورة سبأ

مكِّيَّةٌ في قولِ الجميع، إلَّا آيةً واحدةً اختُلف فيها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الآية [٦]، فقالت فرقةٌ: هي مكيَّةٌ، والمرادُ المؤمنون أصحابُ النبيِّ ﷺ؛ قاله ابن عباس. وقالت فرقة: هي مدنية، والمرادُ بالمؤمنين مَن أَسْلَمَ بالمدينة [من أهل الكتاب] كعبد الله بن سلَام وغيره[(١)]؛ قاله مقاتل. وقال قتادة: هم أمةُ محمدٍ ﷺ المؤمنون به؛ كائناً مَن كان[(٢)]. وهي أربعٌ وخمسون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ①﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «الذي» في موضعِ خَفْضٍ على النعتِ أو البدل. ويجوزُ أن يكونَ في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ، وأن يكون في موضع نصبٍ بمعنى: أعني. وحكى سيبويه: «الحمد للهِ أهل الحمد» بالرفع والنصب والخفض[(٣)]. والحمدُ الكاملُ والثناءُ الشَّامِلُ كلُّه لِله؛ إذ النِّعَمُ كلُّها منه. وقد مضى الكلامُ فيه في أوّلِ «الفاتحة»[(٤)].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٤ دون قوله: قاله ابن عباس، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول ابن عباس إن سورة سبأ مكية أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩٤ .

(٢) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٦ . وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٢١٤ ، والنكت والعيون ٤/ ٤٣٣ ، والوسيط ٣/ ٤٨٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٤٩ بلفظ: هم أصحاب محمد ﷺ، وكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وسيذكره المصنف عند تفسير الآية عن ابن عباس.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣١ . وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٦٢ - ٦٣ .

(٤) ١/ ٢٠٢ .

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ قيل: هو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقيل: هو قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، فهو المحمودُ في الآخرةِ كما أنه المحمودُ في الدنيا، وهو المالكُ للآخرة كما أنَّه المالكُ للأُولى[١]. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بأمْرِ خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها من قَطْرٍ وغيره، كما قال: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، ومن الكنوزِ والدَّفَائنِ والأمواتِ وما هي له كِفَاتٌ[٢]. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نباتٍ وغيرِه ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق، والأرزاقِ والمقادير والبركات. وقرأ عليّ بن أبي طالب: «وما نُنزِّلُ» بالنون والتشديد[٣]. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمالِ العباد؛ قاله الحسن وغيره[٤]. ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ قيل: المرادُ أهلُ مكة؛ قال مقاتل: قال أبو سفيان لكفار مكة: واللّاتِ والعزَّى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نُبعث. فقال الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾. وروى هارونُ عن طَلْقٍ المعلِّمِ

---

(١) في (ظ): للدنيا.

(٢) مصدر كفت، ومعنى كَفَتَ الشيءَ، أي: ضمَّه إليه وقبضه. القاموس (كفت).

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢١، والكشاف ٣/ ٢٧٩.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٥٤٨، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٧٩ دون نسبة.

قال: سمعتُ أشياخَنا يقرؤون: «قل بلى وربِّي لَيأْتِيَنَّكُمْ» بياءٍ[١]، حَمَلوه على المعنى، كأنه قال: لَيأتينّكم البعثُ، أو أَمْرُه، كما قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

فهؤلاء الكفارُ مُقِرُّونَ بالابتداء مُنْكِرون الإعادَةَ، وهو نقضٌ لِمَا اعترفوا به من القدرة[٢] على البعث، وقالوا: وإنْ قَدَرَ لا يفعل. فهذا تحكُّمٌ بعد أن أخبر على ألسنةِ الرسل أنه يبعث الخلق، وإذا ورد الخبر بشيءٍ هو[٣] ممكنٌ في الفعل مقدورٌ، فتكذيبُ مَن وَجَبَ صِدْقُه مُحال.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بالرفع قراءةُ نافع وابن عامر[٤] على الابتداء، وخبرُه: «لا يَعْزُبُ عنه». وقرأ عاصم وأبو عمرو: ﴿عَٰلِمِ﴾ بالخفض[٥]، أي: الحمدُ لِله عالِمِ، فعلى هذه القراءة لا يَحْسُنُ الوَقْفُ على قوله: «لَتَأْتيَنّكم». وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «علّامِ الغيب» على المبالغة والنعت[٦].

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يغيبُ عنه، «ويَعْزِب» أيضاً. قال الفرَّاء[٧]: والكسرُ أحبُّ إليّ. النحاس: وهي قراءةُ يحيى بن وثّاب، وهي لغةٌ معروفة. يقال: عَزَبَ يَعْزُبُ ويَعْزِبُ. إذا بَعُد وغاب[٨].

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢١، والمحتسب ٢/١٨٦، والبحر ٧/٢٥٧، ووقع في المحتسب: طليق، بدل: طلق.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة، والمثبت من (ظ).

(٣) في (د) و(م): وهو.

(٤) في النسخ: ابن كثير، وهو خطأ.

(٥) وهي قراءة ابن كثير أيضاً.

(٦) السبعة ص ٥٢٦، والتسير ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٧) في معاني القرآن ٢/٣٥١.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/٣٩٣، وقرأ: «يَعزِبُ» بكسر الزاي الكسائي، والباقون بضمها. السبعة ص٥٢٦، والتيسير ص ١٢٢.

﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي: قَدْرُ نملةٍ صغيرة. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ وفي قراءة الأعمش: «ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ» بالفتح فيهما[١] عطفاً على «ذَرَّةٍ». وقراءةُ العامَّةِ بالرفع عطفاً على «مِثْقَالُ».

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فهو العالمُ بما خلَقَ، ولا يَخْفى عليه شيء. ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ منصوبٌ بلامِ كي، والتقدير: لَتأتينَّكُم لِيجزيَ[٢] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالثواب، والكافرين بالعقاب. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني المؤمنين ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: في إبطالِ أدِلَّتِنا والتكذيبِ بآياتنا. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مُسابِقين يحسبون أنهم يَفُوتوننا، وأنَّ الله لا يقدرُ على بعثهم في الآخرة، وظنُّوا أنَّا نُهملُهم، فهؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ يقال: عاجَزَه وأعْجَزَه: إذا غالبَه وسَبَقَه.

و«أَلِيمٍ» قراءةُ نافعٍ بالكسر[٣] نعتاً للرِّجْز؛ فإنَّ الرِّجْز هو العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩]. وقرأ ابن كَثِيرٍ وحفصٌ عن عاصم: ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع «الميم» هنا وفي «الجاثية»[٤] نعتاً للعذاب. وقرأ ابن كثير وابن مُحيصِنٍ وحُميد بن قيس ومجاهد وأبو عمرو: «مُعَجِّزِينَ»[٥] أي: مثبِّطين، أي: ثبَّطوا الناسَ عن الإيمان بالمعجزات وآياتِ القرآن.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٢.

(٣) وقرأ بها أيضاً من السبعة أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم. السبعة ص٥٢٦، والتيسير ص ١٨٠.

(٤) في الآية (١١) منها. السبعة ص ٥٢٦، والتيسير ص ١٨٠.

(٥) السبعة ص ٤٣٩، والتيسير ص ١٥٨ عن ابن كثير وأبي عمرو.

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

لمَّا ذكر الذين سَعَوْا في إبطال النبوَّة؛ بيَّنَ أنَّ الذين أوتوا العلم يَرَوْنَ أنَّ القرآن حقٌّ. قال مقاتل: «الذين أُوتوا العلمَ» هم مؤمنو أهلِ الكتاب. وقال ابن عباس: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ[1]. وقيل: جميع المسلمين، وهو أصحُّ لعمومه.

والرؤيةُ بمعنى العلم، وهي في موضعِ نصبٍ عطفاً على «لِيَجْزيَ»، أي: ليجزي وليرى؛ قاله الزجَّاج والفرَّاء[2]. وفيه نظر، لأنَّ قوله: «لِيجزيَ» متعلِّقٌ بقوله: «لَتأْتينَّكم الساعةُ»، ولا يقال: لتأتينَّكم الساعةُ ليَرى الذين أوتوا العلم أنَّ القرآن حقٌّ، فإنَّهم يَرَوْن القرآنَ حقًّا وإن لم تأتِهم الساعةُ. والصحيحُ أنه رفعٌ على الاستئناف؛ ذكره القشيريُّ.

قلت: وإذا كان «ليَجْزيَ» متعلِّقاً بمعنى: أَثبت ذلك في كتابٍ مبين، فيحسُنُ عطفُ «ويَرَى» أي: وأَثبت أيضاً ليرى[3] الذين أوتوا العلمَ أنَّ القرآن حقٌّ. ويجوز أن يكون مُسْتأنَفاً.

﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في موضعِ نصبٍ على أنه مفعولٌ أول لـ «يَرى»، و﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ مفعولٌ ثانٍ. و«هو» فاصلةٌ، والكوفيون يقولون: عماد، ويجوز الرفعُ على أنه مبتدأ، و«الْحَقُّ» خبرُه، والجملةُ في موضع نصبٍ على المفعول الثاني. والنصبُ أكثرُ فيما كانت فيه الألفُ واللَّام عند جميع النحويين، وكذا ما كان نكرةً لا يَدْخلُه الألفُ واللام، فيشبِهُ المعرفة. فإن كان الخبر اسماً معروفاً نحو قولك: كان أخوك هو زيدٌ، فزعم الفراء أنَّ الاختيار فيه الرفعُ، وكذا: كان [أبو] محمد هو عمرو. وعلَّتُه في اختياره الرفعَ: أنه

---

(١) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢١٤ عن قتادة، وينظر ما سلف ص ٢٥٨ من هذا الجزء.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٢، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤١.

(٣) في النسخ الخطية: رؤية، والمثبت من (م).

لمَّا لم تكن فيه الألفُ واللَّامُ أشبهَ النكرةَ في قولك: كان زيد هو جالسٌ؛ لأنَّ هذا لا يجوز فيه إلَّا الرفعُ[١].

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: يهدي القرآنُ إلى طريق الإسلام الذي هو دينُ الله. ودلَّ بقوله: «العزيز» على أنه لا يُغالَبُ. وبقوله: «الحميد» على أنه لا يَلِيقُ به صفةُ العجز.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وإن شئتَ أدغمتَ اللامَ في النون لقُرْبِها منها[٢]. ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ هذا إخبارٌ عمَّن قال: «لا تأتينا الساعةُ» أي: هل نُرشدُكم إلى رجلٍ ينبئكم، أي: يقول لكم: إنكم تُبعَثون بعد البِلَى في القبور. وهذا صادرٌ عن فَرْطِ إنكارهم.

الزَّمخشَريُّ[٣]: فإن قلت: كان رسولُ الله ﷺ مشهوراً عَلَماً في قريش، وكان إنباؤُه بالبعث شائعاً عندهم، فما معنى قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ فنكَّروه لهم، وعَرَضوا عليهم الدلالةَ عليه كما يُدَلُّ على مجهولٍ في أمرٍ مجهول.

قلت: كانوا يقصدون بذلك الطَّنْزَ[٤] والهُزْءَ والسُّخرية، فأخرجوه مخرجَ التَّحكِّي[٥] ببعض الأَحَاجيّ التي يُتحاجَى بها للضَّحك والتَّلهِّي، مُتَجاهِلينَ به وبأمره.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣ ، وقول الفرَّاء في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٢ . وما سلف بين حاصرتين منهما .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣ ، وأدغمها الكسائي .

(٣) في الكشاف ٣/ ٢٨١ .

(٤) أي : السخرية. القاموس (طنز).

(٥) في (ظ): التحاكي، وفي الكشاف: التحلي.

و«إذا» في موضع نصبٍ، والعاملُ فيها: «مُزِّقْتُم»؛ قاله النحاس[١]، ولا يجوز أن يكون العاملُ فيها «يُنَبِّئُكُم»؛ لأنه ليس يُخْبِرُهم ذلك الوقتَ. ولا يجوز أن يكون العاملُ فيها ما بعدَ «إنَّ»، لأنه لا يعملُ فيما قَبْلَه، و«إنَّ» لا يتقدَّم عليها ما بعدَها ولا معمولُها. وأجاز الزجَّاج[٢] أن يكون العاملُ فيها محذوفاً، التقدير: إذا مزِّقتم كلَّ ممزَّقٍ بُعثتم، أو ينبئكم بأنكم تُبعَثون إذا مُزِّقتم.

المهدويُّ: ولا يعملُ فيه «مُزِّقتم»؛ لأنه مُضافٌ إليه، والمضافُ إليه لا يعملُ في المضاف. وأجازه بعضُهم على أن تُجعل «إذَا» للمجازاة، فيعملُ فيها حينئذٍ ما بعدَها لأنَّها غيرُ مُضافةٍ إليه. وأكثرُ ما تقع «إذا» للمجازاة في الشعر. ومعنى ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: فُرِّقتم كلَّ تَفريقٍ. والمَزْقُ: خرقُ الأشياء؛ يقال: ثوبٌ مَزِيقٌ وممزوقٌ ومتمزِّق وممزَّق.

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ⑧﴾

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لمَّا دخلت ألفُ الاستفهام استغنيتَ عن ألفِ الوصل فحذَفْتَها، وكان فتحُ ألفِ الاستفهام فرقاً بينها وبين ألفِ الوصل[٣]. وقد مضى هذا في سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ [الآية:٧٨] مستوفًى.

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ هذا مردودٌ على ما تقدَّم من قول المشركين، والمعنى: قال

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٣، وقاله أيضاً الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٤١. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٦: وهو خطأ وإفساد للمعنى. وتعقبه أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٩ بأنه ليس بخطأ ولا إفساد للمعنى، وأن الصحيح أن إذا الشرطية يعمل فيها فعل الشرط كسائر أدوات الشرط. قال السمين في الدر المصون ٩/ ١٥٤: لكن الجمهور على خلافه.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ٢٤٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٣، وما قبله منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣.

المشركون: أَفْتَرَى على الله كذباً ـ والافتراءُ: الاخْتِلاقُ ـ أَمْ به جِنَّةٌ، أي: جنونٌ، فهو يتكلَّم بما لا يدري. ثم رَدَّ عليهم فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمرُ كما قالوا، بل هو أصدقُ الصادقين، ومَن يُنْكِر البعثَ فهو غداً في العذاب، واليومَ في الضَّلال عن الصواب؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإله، ونسبةِ الافتراءِ إلى مَن أَيَّده بالمعجزات.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

أَعْلَمَ الله تعالى أنَّ الذي قَدَرَ على خَلْقِ السماواتِ والأرضِ وما فيهنَّ قادرٌ على البعث، وعلى تعجيلِ العقوبةِ لهم، فاستَدَلَّ بقدرته عليهم، وأنَّ السماواتِ والأرضَ مِلْكه، وأنَّهما محيطتان بهم من كلِّ جانب، فكيف يَأْمنون الخَسْفَ والكَسْفَ كما فُعِلَ بقارونَ وأصحابِ الأيكة؟!.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بهِمُ الأرضَ أو يُسْقِطْ﴾ بالياء في الثلاث، أي: إنْ يشأ اللهُ أَمَر الأرضَ فتنخسف بهم، أو السماءَ فتُسقط عليهم كِسَفاً. الباقون بالنون على التعظيم(١).

وقرأ السُّلَميُّ وحفصٌ: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين. الباقون بالإسكان. وقد تقدَّم بيانُه في «سبحان» وغيرها(٢).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: في هذا الذي ذَكَرْناه من قدرتنا «لآيةً» أي: دلالةً ظاهِرةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: تائبٍ رجَّاعٍ إلى الله بقلبه. وخصَّ المنيب بالذِّكر؛ لأنه المنتفِعُ بالفكرة في حُجج الله وآياته.

---

(١) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠.

(٢) ١٣/ ١٧٥ وعند تفسير الآية (١٨٧) من سورة النمل. وينظر السبعة ص٣٨٥ والتيسير ص١٦٦.

قـولـه تـعـالـى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾ بيَّن لمنكري نبوَّةِ محمدٍ ﷺ أنَّ إرسال الرسل ليس أمرًا بِدْعًا، بل أَرْسَلْنا الرسلَ وأيَّدناهم بالمعجزات، وأَحْلَلْنا بِمَن خالَفَهم العقاب. «آتَيْنا»: أعطينا. ﴿فَضْلًا﴾ أي: أمراً فضَّلْناه به على غيره.

واختُلف في هذا الفضل على تسعة أقوال:

الأوّل: النبوَّة.

الثاني: الزَّبور.

الثالث: العلم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ [النمل: ١٥].

الرابع: القوّة؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ﴾ [ص: ١٧].

الخامس: تسخير الجبال والناس؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾.

السادس: التوبة؛ قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [ص: ٢٥].

السابع: الحكم بالعدل؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [ص: ٢٦].

الثامن: إِلَانَةُ الحديد؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

التاسع: حُسن الصوت، وكان داودُ عليه السلام ذا صوتٍ حسن ووجهٍ حسن. وحُسْنُ الصوت هبةٌ من الله تعالى وتفضُّلٌ منه، وهو المرادُ بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [فاطر: ١] على ما يأتي إن شاء الله تعالى. وقال ﷺ لأبي موسى: «لقد أُوتيتَ مِزْماراً من مزامير آلِ داود»[1]. قال العلماء: المِزْمارُ والمَزْمُور: الصوتُ الحسن، وبه سمِّيت آلةُ الزَّمْرِ مِزْماراً[2]. وقد استَحْسَنَ كثيرٌ من فقهاء

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣): (٢٣٦) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٢٩٦٩)، ومسلم (٧٩٣): (٢٣٥) من حديث بريدة الأسلمي ﷺ.

(٢) المفهم ٢/ ٤٢٣.

الأمصار القراءةَ بالتزيين والترجيع[١]، وقد مضى هذا في مقدِّمة الكتاب[٢]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أي: وقلنا: يا جبالُ أوِّبي معه، أي: سبِّحي معه؛ لأنه قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]. قال أبو ميسرة: هو التسبيحُ بلسان الحبشة[٣]، ومعنى تسبيحِ الجبال: هو أنَّ الله تعالى خَلَقَ فيها تسبيحاً كما خلق الكلامَ في الشجرة، فَيُسمَعُ منها ما يُسمَعُ من المسبِّح، معجزةً لداودَ عليه الصلاة والسلام[٤].

وقيل: المعنى: سِيري معه حيثُ شاء، من التأويب الذي هو سيرُ النهارِ أجْمعَ وينزلُ الليلَ. قال ابن مُقْبِل:

لَحِقْنا بحيٍّ أَوَّبوا السَّيرَ بعد ما ... دَفَعْنا شُعاعَ الشَّمسِ والطَّرْفُ مُجنَحُ[٥]

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما: «أُوْبي مَعَهُ» أي: ارجعي معه[٦]، من آبَ يَؤُوبُ: إذا رجع، أَوْبًا وأَوْبة وإيَاباً.

وقيل: المعنى: تصرَّفي معه على ما يَتَصرَّفُ عليه داودُ بالنهار، فكان إذا قرأ الزبورَ صَوَّتت الجبالُ معه، وأَصْغَتْ إليه الطيرُ، فكأنَّها فَعَلَتْ ما فَعَل.

وقال وهب بن منبِّه: المعنى: نُوحي معه، والطيرُ تساعده[٧] على ذلك، فكان إذا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٨٤ ، وفيه : بالألحان والترجيع.

(٢) ١/ ٢١ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٠ ، وأبو ميسرة هو عمرو بن شُرَحبيل الهَمْداني.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨١ .

(٥) تفسير غريب القرآن ص ٣٥٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧ ، والبيت في ذيل ديوان تميم بن مقبل رقم (١٤). وذكره صاحب منتهى الطلب من أشعار العرب ٦/ ٤٦ عن الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٣٩ . ووقع في (م): يجنح، وهو موافق لما في تفسير الغريب.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧ ، قال ابن عطية: أي: في السير، أو في التسبيح.

(٧) في النسخ الخطية: تسعده، والمثبت من (م).

نادى بالنياحة أجابته الجبال بصَدَاها، وعكفت الطيرُ عليه مِن فوقه. فصَدَى الجبالِ الذي يسمعه الناس إنَّما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة[١]، فأُيِّد بمساعدة الجبال والطير لئلَّا يجد فَتْرةً، فإذا دخلت الفترةُ اهتاج، أي: ثار وتحرَّك، وقَوِيَ بمساعدةِ الجبالِ والطير. وكان قد أُعطِيَ من الصوت ما تتزاحمُ الوحوشُ من الجبال على حُسْنِ صوته، وكان الماءُ الجاري يَنْقَطِعُ عن الجَرْي وقوفاً لصوته.

«وَالطَّيْرُ» بالرفع قراءةُ ابنِ أبي إسحاق، ونصرٍ عن عاصم، وابنِ هُرْمُز، ومَسْلمةَ ابنِ عبد الملك[٢]، عطفاً على لفظ الجبال، أو على المضمَر في «أَوِّبي»، وحسَّنه الفصلُ بمع. الباقون بالنصب عطفاً على موضع «يا جبالُ» أي: نادينا الجبالَ والطير؛ قاله سيبويه. وعند أبي عمرو بن العلاء بإضمارِ فعلٍ، على معنى: وسخَّرنا له الطير. وقال الكسائيُّ: هو معطوفٌ، أي: وآتيناه الطيرَ، حملاً على ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾. النحاس[٣]: ويجوز أن يكون مفعولاً معه، كما تقول: استوى الماء والخشبةَ. وسمعتُ الزجَّاج يُجيز: قمتُ وزيداً، فالمعنى: أوِّبي معه ومع الطير[٤].

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ قال ابن عباس: صار عنده كالشمع[٥]. وقال الحسن: كالعجين[٦]، فكان يعمله من غير نار. وقال السُّدي: كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجينِ والشمع، يُصَرِّفه كيف شاء، من غير إدخالِ نارٍ ولا ضربٍ بِمطْرَقةٍ[٧]. وقاله مقاتل. وكان يَفْرَغُ من الدِّرع في بعضِ اليومِ أو بعضِ الليل،

(١) هذا كلام يناقض سنة الله في كونه، والخبرُ من الإسرائيليات.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣ - ٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧ وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٤، وما قبله منه.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٣.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٨٨.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٧.

(٧) في (ظ): مطرقة.

ثمنُها ألفُ درهم.

وقيل: أُعطيَ قوةً يَثْني بها الحديد، وسَبَبُ ذلك: أنَّ داود عليه السلام لمَّا مَلَكَ بني إسرائيلَ؛ لَقِيَ مَلَكاً وداودُ يَظُنُّه إنساناً، وداودُ مُتنكِّرٌ؛ خرج يسأل عن نفسه وسيرتِه في بني إسرائيلَ في خَفَاءٍ، فقال داودُ لذلك الشخصِ الذي تَمثَّلَ له: ما قولُك في هذا الملِك داودَ؟ فقال له المَلَكُ: نِعْمَ العبدُ لولا خَلَّةٌ فيه. قال داودُ: وما هي؟ قال: يَرتَزِقُ من بيت المال، ولو أَكَلَ مِن عَمَلِ يده لَتَمَّتْ فضائلُه. فرجع، فدعا الله في أنْ يعلِّمه صنعةً ويسهِّلَها عليه، فعلَّمه صنعةَ لَبوسٍ كما قال جلَّ وعزَّ في سورة الأنبياء، فألانَ له الحديدَ، فصنع الدُّروعَ، فكان يصنع الدِّرعَ فيما بين يومِه وليلتِه يساوي ألفَ درهمٍ، حتى ادَّخر منها كثيراً، وتوسَّعتْ معيشةُ منزله، وتَصَدَّق على الفقراء والمساكين، وكان يُنفقُ ثلثَ المالِ في مَصَالحِ المسلمين(١). وهو أوّلُ مَن اتَّخذ الدروعَ وصَنَعها وكانت قبل ذلك صفائحَ. ويقال: إنه كان يبيع كلَّ درعٍ منها بأربعة آلاف(٢). والدِّرعُ مؤنثةٌ إذا كانت للحرب، ودرعُ المرأةِ مُذَكَّر(٣).

مسألة: في هذه الآية دليلٌ على تعلُّم أهلِ الفضلِ الصَّنائعَ، وأنَّ التحرُّفَ بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادةٌ في فضلهم وفضائلهم؛ إذ يحصلُ لهم التواضعُ في أنفسهم والاستغناءُ عن غيرهم، وكَسْبُ الحلالِ الخليِّ عن الامتنان. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ خيرَ ما أَكَلَ المرءُ مِن عَمَلِ يَدِه، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ مِن عَمَلِ يَدِه»(٤). وقد مضى هذا في «الأنبياء»(٥) مُجَوَّداً، والحمد لله.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٠٧ - ٤٠٨ ، وبنحوه في عرائس المجالس ص ٢٨١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥٠ .

(٢) عرائس المجالس ص ٢٨١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٤ .

(٤) صحيح البخاري (٢٠٧٢) من حديث المقدام ﷺ، و(٢٠٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١٠/ ١٦١ .

(٥) ١٤/ ٢٥٤ .

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي: دروعاً سابغاتٍ، أي: كَوَامِلَ تامَّاتٍ واسعات؛ يقال: سَبَغ الدِّرْعُ والثوبُ وغيرُهما: إذا غطَّى كلَّ ما هو عليه وفَضَلَ منه. ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ قال قتادة: كانت الدُّروعُ قبلَه صَفائح، فكانت ثِقَالاً؛ فلذلك أُمِرَ هو بالتقدير فيما يجمع بين[1] الخِفَّةِ والحَصَانة. أي: قَدِّرْ ما تأخذُ من هذين المَعْنَيين بِقِسْطِه، أي: لا تَقْصدِ الحصانةَ فتثقُلَ، ولا الخفةَ فتُزيلَ المَنَعةَ.

وقال ابن زيد: التقديرُ الذي أُمر به هو في قَدْرِ الحَلْقة، أي: لا تَعْمَلْها صغيرةً فتَضْعُفَ، فلا تَقْوى الدروعُ على الدفاع، ولا تَعْمَلْها كبيرةً فيُنالَ لابِسُها [من خلالها][2].

وقال ابن عباس: التقديرُ الذي أُمر به هو في المسمار، أي: لا تجعل مسمارَ الدرع رقيقاً فيَقْلَقَ، ولا غليظاً فَيَفْصِمَ الحَلَق[3]. روي «يَقْصِمُ» بالقاف، والفاءُ أيضاً رواية[4].

﴿فِى ٱلسَّرْدِ﴾ السَّرْدُ: نسجُ حَلَق الدروع، ومنه قيل لصانع الدروع: السَّرَّاد والزرَّاد، تُبدَلُ من السين الزايُ، كما قيل: سِرَاط وزِرَاط. والسَّرد: الخَرْز، يقال: سَرَدَ يَسْرُدُ: إذا خَرَز. والمِسْرَد: الإشْفَى[5]، ويقال: سِرَاد. قال الشَّمَّاخ:

(١) في النسخ عدا (ظ): من، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/٤٠٨ ، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٠٨ ، وما بين حاصرتين منه، وأخرج قول ابن زيد وقول قتادة الطبري ١٩/٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٣) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/١٢٧ . وقوله: فيقلق، أي: لا يستقر ولا يثبت. اللسان (قلق). وعلقه البخاري كما في الفتح ٦/٤٥٣ عن مجاهد قال: لا ترقَّ المسامير فيسلس، ولا تعظم فينفصم. قال الحافظ: معناه: فيخرج من الثقب برفق، أو يصير متحركاً فيلين عند الخروج.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٤٠٨ .

(٥) وهو مِثْقَب الإسكاف، جمعها: الأشافي. معجم متن اللغة (أشف).

فظلَّتْ تِبَاعاً خيلُنا في بيوتكم كما تابعتْ سَرْدَ العِنانِ الخوارزُ(١)

والسِّرَاد: السَّيرُ الذي يُخْرَزُ به؛ قال لَبِيد:

يَشُكُّ صِفَاحَها بالرَّوْقِ شَزْرًا كما خرج السِّرَادُ من النِّقَال(٢)

ويقال: قد سَرَدَ الحديثَ والصومَ، فالسَّرْدُ فيهما: أنْ يَجيءَ به وِلاءً في نسقٍ واحد، ومنه سرد الكلام. وفي(٣) حديث عائشة: لم يكن النبيُّ ﷺ يَسْرُدُ الحديثَ كَسَرْدِكُم، وكان يحدِّث الحديثَ لو أراد العادُّ أن يَعُدَّه لأَحْصَاه(٤). قال سيبويه(٥): ومنه: رجلٌ سَرَنْدَى، أي: جريء، قال: لأنه يمضي قُدُماً. وأصلُ ذلك في سَرْدِ الدِّرْع، وهو أن يُحْكِمَها ويجعل نظامَ حَلقَها وِلاءً غيرَ مختلفٍ. قال لبيد:

صَنَعَ الحديدَ مُضَاعفاً أسرادُه لينال طولَ العيش غيرَ مَرُومِ(٦)

وقال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرُودَتانِ قضاهما داودُ أو صَنَعُ السَّوابِغ تُبَّعُ(٧)

﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً. وهذا خطابٌ لداودَ وأهْلِه. كما قال: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) ديوان الشماخ ص١٩٤ برواية: شكَكْنَ بأحساءَ الذِّنابَ على هُدًى ـ كما تابعت . . . يصف أُتُناً وَرَدْنَ وحَسَسْنَ بالصائد فنَفَرْنَ على تتابُعٍ واستقامة. اللسان (عرق). وذكر ابن قتيبة عجزه في غريب القرآن ص٣٥٤ ، والكلام فيه بنحوه.

(٢) في النسخ الخطية: النعال، والمثبت من (م) وشرح ديوان لبيد ص ٧٩ . وقال الشارح: يشك: يطعن (وهو الثور) صفاحها: جُنوبها. والرَّوق: القَرْن. شَزْراً: جانباً. والنقال واحدها نَقْل: وهو النعل الخَلَق تُرقع فتُخرز.

(٣) في (ظ): ومنه.

(٤) أخرج أوله أحمد (٢٤٨٦٥)، ومسلم (٢٤٩٣)، وعلقه البخاري (٣٥٦٨). وأخرجه من قوله: وكان يحدث الحديث...، البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم في كتاب الزهد (٢٤٩٣): (٧١).

(٥) في الكتاب ٤/٣٢٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٥/٣٩٧ .

(٦) ديوان لبيد ص ١٠٩ برواية: صنع الحديد لحفظه أسرادَه...، قوله: غير مروم، قال شارح الديوان: أي: لينال طول العيش وهو لا يُرام.

(٧) سلف ٢/٣٣٦ .

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ قال الزجَّاج[١]: التقدير: وسخَّرنا لسليمانَ الريح. وقرأ عاصم في روايةِ أبي بكر عنه: «الرِّيحُ» بالرفع[٢] على الابتداء، والمعنى: له تسخيرُ الريح، أو بالاستقرار، أي: ولسليمان الريحُ ثابتةٌ، وفيه ذلك المعنى الأولُ. فإن قال قائل: إذا قلت: أعطيتُ زيداً درهماً ولعمرو دينارٌ، فرفعتَه لم يكن فيه معنى الأولِ، وجاز أن يكون لم تُعطِه الدينارَ. قيل: الأمرُ كذا؛ ولكن الآية على خلافِ هذا من جهة المعنى؛ لأنَّه قد عُلم أنه لم يسخِّرها أحدٌ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ[٣].

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: مسيرةُ شهر. قال الحسن: كان يغدو من دمشقَ فيَقِيلُ بإصْطَخْرَ، وبينهما مسيرةُ شهرٍ للمُسْرِع، ثم يروح من إصْطَخْر ويَبيتُ بكابُل، وبينهما شهرٌ للمُسْرِع[٤]. قال السُّدِّيُّ: كانت تسير به في اليوم مسيرةَ شهرين[٥].

وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كان سليمان إذا جلس نُصبت حَوالَيْه أربعُ مئةِ ألفِ كرسيٍّ، ثم جلس رؤساءُ الإنس ممَّا يليه، وجلس سِفْلَةُ الإنس مما يليهم، وجلس رؤساءُ الجنِّ مما يلي سِفْلَةَ الإنس، وجلس سفلةُ الجنِّ ممَّا يَليهم، ومُوكَّلٌ بكلِّ كرسيٍّ طائرٌ لعملٍ قد عَرَفَه، ثم تُقِلُّهم الريحُ، والطيرُ تُظِلُّهُم من الشمس، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخر [فيَقيلُ بها، ثم يَروحُ من إصطخر] فيبيت ببيت المقدس، ثم قرأ ابن عباس: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[٦].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٥.

(٢) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٧، والطبري ١٩/ ٢٢٨. وإصْطَخْر: مدينة بفارس. معجم البلدان ١/ ٢١١.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٧ عن قتادة، وأخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٧ عن مجاهد.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣٦، والطبري ١٨/ ٣٠.

وقال وهب بن منبِّهٍ: ذُكر لي أنَّ منزلاً بناحيةِ دِجْلةَ مكتوباً فيه ـ كَتبه بعضُ صَحابةِ سليمانَ؛ إمَّا من الجنِّ وإما من الإنس ـ : نحن نَزَلناهُ[١] وما بنيناه، ومَبْنيًّا وجدناه، غَدَوْنا من إصْطَخْرَ فَقِلْناه، ونحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فبائتون في الشام[٢].

وقال الحسن: شَغَلتْ سليمانَ الخيلُ حتى فاتته صلاةُ العصر، فعقر الخيلَ فأَبْدَلَه الله خيراً منها وأَسْرَعَ، أَبْدَلَه الريحَ تجري بأمره حيث شاء، غدوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شهر[٣].

وقال ابن زيد: كان مستقرُّ سليمانَ بمدينةِ تَدْمُرَ، وكان أَمَرَ الشياطينَ قبل شُخوصِه من الشام إلى العراق، فبَنَوْها له بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ والرُّخامِ الأبيضِ والأصفر[٤]، وفيه يقول النابغة:

إلَّا سليمانَ إذ قال الإلهُ[٥] له ... قُمْ في البريَّة فاحْدُدْها عن الفَنَدِ

وخَيِّسِ الجنَّ إنِّي قد أَذِنْتُ لهم ... يَبْنُونَ تَدْمرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

فَمَن أطاعَكَ فانفَعْه بطاعَتِهِ ... كما أطاعَكَ وادْلُلْهُ على الرَّشَدِ

ومَن عصاكَ فعاقِبْه مُعاقَبَةً ... تَنْهَى الظَّلومَ ولا تَقْعُدْ على ضَمَدِ[٦]

ووجدتُ هذه الأبياتَ منقورةً في صخرةٍ بأرضِ كَسْكَر[٧]، أنشأهنَّ بعضُ

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: نزلنا.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٧، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٦.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٢٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٣٠٤، والبغوي ٣/ ٢٥٥، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣١٤ لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) عرائس المجالس ص ٣٠٤، والصُّفَّاح: حجارة عِراض رِقاق. القاموس (صفح).

(٥) في (ظ): المليك.

(٦) ديوان النابغة ص ٣٣، وذكر البغدادي في الخزانة ٣/ ٤٠٥ البيت الأول وقال: قوله: فاحْدُدْها، أي: امنع البرية، والحد: المنع. والفَنَد: خطأ الرأي والصنيع، وقال ابن الأعرابي: الفند: الظلم. اهـ. وقوله: خيِّس، أي: ذَلِّل. والضَّمَد: الحقد. القاموس (خيس) و(ضمد).

(٧) في (د) و(م): يشكر، والمثبت من باقي النسخ، وعرائس المجالس ص ٣٠٤، والكلام منه، وكسكر مكان بالعراق. ينظر معجم البلدان ٤/ ٤٦١.

أصحابِ سليمان عليه الصلاة والسلام:

ونحن ولا حولٌ سوى حولِ ربِّنا نَروحُ إلى الأوطان من أرضِ تَدْمُرِ
إذا نحن رُحْنا كان رَيْثُ[1] رَوَاحِنا مسيرةَ شهرٍ والغُدُوُّ لآخرِ
أُناسٌ شَرَوْا لله طَوْعًا نفوسَهم بنَصْرِ ابنِ داودَ النبيِّ المُطَهَّرِ
لهم في معالي الدِّين فضلٌ ورأفةٌ وإن نُسِبُوا يوماً فمِن خير مَعْشَرِ
متى يركبوا الريحَ المطيعةَ أسرعتْ مُبادِرةً عن شَهْرها لم تُقَصِّرِ
تُظلُّهُمُ طيرٌ صفوفٌ عليهمُ متى رَفْرَفَتْ من فوقهم لم تُنَفَّرِ

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ القِطْر: النحاس؛ عن ابن عباس وغيره[2]. أُسِيلت له مسيرةَ ثلاثةِ أيام كما يسيلُ الماء، وكانت بأرض اليمن، ولم يُذَبِ النحاسُ فيما روي لأحدٍ قَبْلَه، وكان لا يذوب، ومن وقته ذاب، وإنَّما ينتفع الناس اليومَ بما أَخرج الله تعالى لسليمان. قال قتادة: أسال الله عيناً يستعملُها فيما يريد[3]. وقيل لعكرمة: إلى أين سالت؟ فقال: لا أدري[4]!.

وقال ابن عباس ومجاهدٌ والسُّدِّي: أُجريت له عينُ الصُّفْر ثلاثةَ أيامٍ بلياليهن[5]؛ قال القشيريُّ: وتخصيصُ الإسالة بثلاثةِ أيامٍ لا يُدْرَى ما حدُّه، ولعلَّه وَهْمٌ من الناقل؛ إذ في روايةٍ عن مجاهد: أنها سالت من صنعاءَ ثلاثَ ليالٍ مما يليها، وهذا يشير إلى بيانِ الموضع، لا إلى بيان المدَّة. والظاهرُ أنه جعل النحاس لسليمان في

---

(١) في عرائس المجالس: أمر، والرَّيْث: المقدار. القاموس (ريث).
(٢) تفسير الطبري ١٩/٢٢٨ - ٢٢٩ .
(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/٣٩٨ بلفظ: أسال الله له عيناً من نحاس، أي: سالت وظهرت، فكان يستعملها فيما يريد.
(٤) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٥/٢٢٨ .
(٥) أخرجه عن السدي ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/٢٢٨ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس ومجاهد. والصُّفْر هو النحاس، أو النحاس الجيد. معجم متن اللغة (صفر).

معدنه عيناً تسيل كعيون المياه، دلالةً على نبوَّته.

قال الخليل: القِطْر: النحاسُ المُذاب[١].

قلت: دليلُه قراءةُ مَن قرأ: «مِن قِطرٍ آنٍ»[٢].

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بأمره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: في الآخرة؛ قاله أكثر المفسرين[٣].

وقيل: ذلك في الدنيا، وذلك أنَّ الله تعالى وكَّل بهم ـ فيما روي عن السُّدِّيِّ ـ مَلكاً بيده سوطٌ من نار، فَمَن زاغ عن أمر سليمانَ ضَرَبه بذلك السوط ضربةً من حيث لا يراه، فأحْرقته[٤].

و«مَن» في موضعِ نصبٍ بمعنى: وسخَّرْنا له مِن الجنِّ مَن يعمل. ويجوز أن يكون في موضعِ رفعٍ، كما تقدَّم في الريح[٥].

قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ المحرابُ في اللغة: كلُّ موضعٍ مُرتفعٍ. وقيل للَّذِي يصلَّى فيه: محراب؛ لأنه يجب أن يُرفع ويُعَظَّم[٦]. وقال

---

(١) العين ٥/ ٩٥.

(٢) القراءات الشاذة ص ٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦، وسلفت ١٢/ ١٧٢ عند تفسير الآية (٥٠) من سورة إبراهيم.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٨٩، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٣٨ عن الضحاك، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٦.

الضحاك: «مِنْ مَحَارِيبَ» أي: من مساجد. وكذا قال قتادة. وقال مجاهد: المحاريبُ دون القصور[١]. وقال أبو عبيدة: المحرابُ: أشْرفُ بيوتِ الدار[٢]، قال:

ومـاذا عـلـيـه أنْ ذكـرتُ أَوَانِـسـاً كـغِـزلان رَمْـلٍ فـي مـحـاريـبِ أقـيـالِ[٣]

وقال عَدِيّ بن زيد:

كدُمَى العـاجِ في المحاريب أو كالـ ـبِيض في الرَّوْضِ زهرُه مُسْتَنيرُ[٤]

وقيل: هو ما يُرقَى إليه بالدَّرج كالغرفة الحسنة؛ كما قال: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١] وقوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ [مريم:١١] أي: أشْرَفَ عليهم.

وفي الخبر: أنه أمر أن يُعمل حولَ كرسيِّه ألفُ محرابٍ فيها ألفُ رجلٍ عليهم المسوحُ يَصْرخون إلى الله دائباً، وهو على الكرسيّ في موكِبه والمحاريبُ حوله، ويقول لجنوده إذا ركب: سبِّحوا الله إلى ذلك العَلَم، فإذا بَلَغوه قال: هلِّلوه إلى ذلك العَلَم، فإذا بلغوه قال: كبِّروه إلى ذلك العَلَم الآخَر، فتَلِجُّ الجنودُ بالتسبيحِ والتهليلِ لَجَّةً واحدة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ جمع تمثال. وهو كلُّ ما صُوِّر على مثلِ صورةِ غيره من حيوانٍ أو غيرِ حيوان. وقيل: كانت من زجاجٍ ونحاسٍ ورخامٍ تماثيل أشياءَ ليست بحيوان.

وذُكر أنها صورُ الأنبياء والعلماء، وكانت تصوَّر في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادةً واجتهاداً؛ قال ﷺ: «إنَّ أولئك كان[٥] إذا مات فيهم الرجلُ الصالح

---

(١) أخرج أقوالهم الطبري ١٩/ ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) بنحوه في النكت والعيون ٤/٤٣٨ ، وفي مجاز القرآن ٢/ ١٤٤ لأبي عبيدة: المحراب: مقدَّم كلِّ مسجد ومصلًّى وبيت.

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٣٤ . قال شارحه: الأقيال: الملوك، وهم يتخذون الغزلان ويُربُّونها، ومعنى قوله: أن ذكرت أوانساً، أي: ما عليه في أنْ شبَّبْتُ بهنَّ وطَرِبْتُ إليهن!.

(٤) الكامل للمبرد ٢/٩٤٩ ، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٣٦٠ ، والبيان والتبيين ١/ ٤٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٤ .

(٥) في (ظ): كانوا.

بنَوْا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصُّورَ»[١]. أي: ليتذكَّروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة.

وهذا يدلُّ على أنَّ التصوير كان مباحاً في ذلك الزمان، ونُسخ ذلك بشرع محمدٍ ﷺ. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة نوح إن شاء الله تعالى[٢].

وقيل: التماثيلُ طِلَّسْمات[٣] كان يعملُها، ويُحرِّمُ على كلِّ مصوِّرٍ[٤] أن يتجاوزها، فلا يتجاوزها، فيعمل تمثالاً للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبداً[٥] ما دام ذلك التمثالُ قائماً. وواحدُ التماثيل تمثالٌ بكَسْر التاء؛ قال:

ويا رُبَّ يومٍ قد لَهوْتُ وليلةٍ ... بآنِسَةٍ كأنَّها خطُّ تِمثالِ[٦]

وقيل: إنَّ هذه التماثيلَ رجالٌ اتَّخذهم من نحاس، وسأل ربَّه أن ينفخ فيها الروحَ ليقاتلوا في سبيل الله ولا يَحِيك فيهم السلاح، ويقال: إنَّ إسفنديارَ كان منهم[٧]، والله أعلم.

وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيِّه ونَسْرَيْن فوقه، فإذا أراد أن يصعد

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٥٢)، والبخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وتتمته: «... فأولئك شِرارُ الخَلْقِ عند اللهِ يومَ القيامة». وسلف ٢/ ٢٩٤ .

(٢) عند تفسير الآية (٢٣) منها.

(٣) هي نقوش تنقش على أجساد خاصة في ساعات مناسبة بكيفيات ملائمة لحوائج معلومة، واحدها: طِلَّسم. معجم متن اللغة (طلسم).

(٤) في (خ): مصر.

(٥) في (ظ): ويأمرهم ألا يتجاوزوه مرة واحدة أبداً.

(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٢٩ . قال شارحه: قوله: بآنسة، أي: بامرأة ذات أُنْس. وقوله: خط تمثال، أي: نقش صورة، وإنما شبَّهها بالتمثال لأن الصانع له يتأنَّق في تحسينه.

(٧) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١١٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: فلا يحيك، أي: فلا يؤثِّر. القاموس (حاك). قال الآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١١٩ : وهذا من العجب العجاب، ولا ينبغي لأحد اعتقادُ صحته، وما هو إلا حديثُ خرافةٍ.

بَسَطَ الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أَطْلَقَ النَّسران أجنحتهما[١].

الثالثة: حكى مكِّيّ في «الهداية» له: أنَّ فرقةً تجوِّز التصوير، وتحتجُّ بهذه الآية. قال ابن عطية[٢]: وذلك خطأ، وما أحفظُ عن أحدٍ من أئمة العلم مَن يُجوِّزُه.

قلت: ما حكاه مكِّيٌ ذكره النحَّاس قبله؛ قال النحاس[٣]: قال قومٌ: عملُ الصورِ جائزٌ لهذه الآية، ولِمَا أخبر الله عزَّ وجلَّ عن المسيح[٤]. وقال قومٌ: قد صحَّ النهيُ عن النبيِّ ﷺ عنها، والتوعُّدُ لمن عَمِلَهَا أو اتَّخذها، فنسخ الله عزَّ وجلَّ بهذا[٥] ما كان مباحاً قبله، وكانت الحكمةُ في ذلك لأنه بُعث عليه الصلاة والسلام والصورُ تُعبد، فكان الأصلحُ إزالتَها.

الرابعة: التمثالُ على قسمين: حيوانٌ ومَوَات. والمواتُ على قسمين: جمادٌ ونامٍ؛ وقد كانت الجنُّ تصنعُ لسليمان جميعَه؛ لعموم قوله: «وتماثيلَ». وفي الإسرائيليات: أنَّ التماثيل من الطير كانت على كرسيِّ سليمان.

فإن قيل: لا عمومَ لقوله: «وَتَمَاثِيلَ» فإنَّه إثباتٌ في نكرة، والإثباتُ في النكرة لا عمومَ له، إنَّما العمومُ في النفي في النكرة.

قلنا: كذلك هو، بَيْدَ أنه قد اقترن بهذا الإثباتِ في النكرة ما يقتضي حملَه على العموم، وهو قوله: «ما يشاءُ» فاقترانُ المشيئةِ به يقتضي العمومَ له.

فإن قيل: كيف استجاز الصورَ المنهيَّ عنها؟[٦]

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٢.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٩، وما قبله منه. وكتاب مكي اسمه: الهداية إلى بلوغ النهاية. كشف الظنون ٢/ ٢٠٤١.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٦.

(٤) يعني قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

(٥) في إعراب القرآن: فنسخ ﷺ.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٨٨ (والكلام منه): كيف شاء عمل الصور المنهي عنها.

قلنا: كان ذلك جائزاً في شرعه، ونُسخ ذلك بشرعنا كما بيَّنَّا، والله أعلم. وعن أبي العالية: لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرَّماً[١].

الخامسة: مقتضى الأحاديث يدلُّ على أنَّ الصور ممنوعةٌ، ثم جاء: «إلَّا ما كان رَقْمًا في ثوب»[٢]، فخُصَّ من جملة الصور، ثم ثبتت الكراهيةُ فيه بقوله عليه الصلاة والسلام لعائشةَ في الثوب [المصوَّر]: «أَخِّريه عنّي، فإنِّي كلَّما رأيته ذكرتُ الدنيا». ثم بِهَتْكِهِ الثوبَ المصوَّرَ على عائشةَ مَنَعَ منه، ثم بقَطْعِها له وسادتين حتى تغيَّرت الصورةُ وخرجت عن هيئتها، بان[٣] جواز ذلك إذا لم تكن الصورةُ فيه متَّصلةَ الهيئة، ولو كان متَّصلةَ الهيئةِ لم يَجز؛ لقولها في النُّمرُقة المصوَّرة: اشتريتُها لك لتقعد عليها وتَوَسَّدَها، فمنع منه، وتوعَّد عليه. وتبيَّن بحديث الصلاة إلى الصور أنَّ ذلك جائزٌ في الرَّقْم في الثوب ثم نَسَخَه المنعُ منه. فهكذا استقرَّ الأمر فيه، والله أعلم؛ قاله ابن العربيّ[٤].

السادسة: روى مسلم عن عائشةَ قالت: كان لنا سِتْرٌ فيه تمثالُ طائرٍ، وكان الداخِلُ إذا دخل استقبله، فقال رسول الله ﷺ: «حوِّلي هذا، فإنِّي كلَّما دخلتُ فرأيته ذكرتُ الدنيا». قالت: وكانت لنا قَطِيفةٌ كنَّا نقولُ: عَلَمُها حرير، فكنَّا نَلْبَسُها[٥].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٢ .

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٦٣٤٥)، والبخاري (٣٢٢٦)، ومسلم (٢١٠٦) عن أبي طلحة الأنصاري ﷺ وأخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٦٦ ، وأحمد (١٥٩٧٩)، والترمذي (١٧٥٠)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٢١٢ عن سهل بن حنيف ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. والرَّقْم: النقش والوشي. النهاية (رقم). والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٠ .

(٣) في (د) و(م): فإن.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٠ ، وما بين حاصرتين منه. وقول عائشة رضي الله عنها في النُّمرقة المصورة: اشتريتها لك...، قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦٠٩٠)، والبخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧): (٩٦) عن عائشة رضي الله عنها. والنُّمرقة: الوسادة، وهي بضم النون والراء وبكسرهما، جمعها: نمارق. النهاية (نمرق). وسيأتي تخريج ما ذكر من أحاديث في المسألة التالية.

(٥) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٨٨)، وهو عند أحمد (٢٤٢١٨).

وعنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا مستترةٌ[١] بِقِرامٍ فيه صورةٌ، فتلوَّنَ وجهُه، ثم تناول الستر فهتكه، ثم قال: «إنَّ من أشدِّ الناس عذاباً يومَ القيامة الذين يُشَبِّهونَ بخلقِ الله عزَّ وجلَّ»[٢].

وعنها: أنه كان لها ثوبٌ فيه تصاويرُ ممدودٌ إلى سَهْوةٍ، فكان النبيُّ ﷺ يصلِّي إليه فقال: «أخِّريه عني» قالت: فأخَّرتُه، فجعلتُه وسادتين[٣].

قال بعض العلماء: ويمكن أن يكون تهتيكُه عليه الصلاة والسلام الثوبَ وأَمْرُه بتأخيره وَرَعًا؛ لأنَّ محلَّ النبوَّةِ والرسالةِ الكمالُ. فتأمَّلْه.

السابعة: قال المزنيُّ عن الشافعيِّ: إنْ دُعي رجلٌ إلى عُرسٍ، فرأى صورةً ذاتَ رُوحٍ، أو صوراً ذات أرواح، لم يدخل إن كانت منصوبةً. وإن كانت تُوطَأُ فلا بأس، وإن كانت صورُ الشجر [فلا بأس]. ولم يختلفوا أنَّ التصاوير في الستور المعلَّقةِ مكروهةٌ غيرُ محرَّمةٍ. وكذلك عندهم ما كان خرطاً أو نقشاً في البناء[٤].

واستثنى بعضُهم ما كان رَقْماً في ثوبٍ؛ لحديث سهل بن حُنيف[٥].

قلت: لعن رسول الله ﷺ المصوِّرين ولم يستثن[٦]. وقولُه: «إنَّ أصحاب هذه الصور يعذَّبون يومَ القيامة، ويقال لهم: أَحيُوا ما خَلَقتُم»[٧] ولم يَسْتَثْنِ؛ وفي الترمذيِّ

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٤/٨٨ : في معظم النسخ: متسترةٌ، وفي بعضها: مستترة، أي: متخذة ستراً.

(٢) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٩١)، وهو عند أحمد (٢٥٦٣١)، والبخاري (٥٩٥٤) و(٦١٠٩).
والقِرام: الستر الرقيق. النهاية (قرم).

(٣) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٩٣)، وهو عند أحمد (٢٥٣٩٢) وفيهما: فجعلته وسائد. والسهوة: بيت صغير يشبه المَخْدَع، وقيل: هي شِبْهُ الطَّاقِ يُجعل فيه الشيء، وقيل: شبه الخزانة الصغيرة. المفهم ٥/٤٢٦ .

(٤) التمهيد ١/٣٠٢ ، وما سلف بن حاصرتين منه.

(٥) سلف في بداية المسألة الخامسة.

(٦) سلف ص٢٢٣ من هذا الجزء.

(٧) أخرجه أحمد (٢٦٠٩٠)، والبخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧): (٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلفت قطعة منه في المسألة الخامسة.

عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عُنُقٌ من النار يومَ القيامة له عينان تُبصران، وأُذنان تسمعان، ولسانٌ ينطقُ يقول: إنِّي وُكِّلتُ بثلاثٍ: بكلِّ جبارٍ عنيد، وبكلِّ مَن دعا مع الله إلهاً آخرَ وبالمصوِّرين» قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح[(١)]؛ وفي البخاريِّ ومسلمٍ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون»[(٢)]: يدلُّ على المنع من تصوير شيءٍ، أيِّ شيءٍ كان. وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النحل: ٦٠] على ما تقدَّم بيانُه فاعْلَمْه.

الثامنة: وقد استُثْنِيَ من هذا الباب لُعَبُ البنات، لِمَا ثبت عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ تزوَّجها وهي بنتُ سبعِ سنين، وزُفَّتْ إليه وهي بنتُ تسعٍ ولُعَبُها معها، ومات عنها وهي بنتُ ثمان عشرةَ سنةً. وعنها أيضاً قالت: كنتُ ألعبُ بالبنات عند النبيِّ ﷺ، وكان لي صواحبُ يلعبنَ معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمِعن منه، فيُسَرِّبُهنَّ إليَّ فيلعبن معي. خرَّجهما مسلم[(٣)]. قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك، وحاجةِ البنات حتى يتدرَّبنَ على تربية أولادهنّ. ثم إنه لا بقاءَ لذلك، وكذلك ما يُصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاءَ له، فرُخِّص في ذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾[(٤)] قال ابنُ عرفة: الجواب[(٥)] جمعُ الجابية، وهي

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٧٤)، وهو عند أحمد (٨٤٣٠). قوله: عُنُق، أي: طائفة وجانب من النار. الترغيب والترهيب ٣/٦٢٨ .

(٢) صحيح البخاري (٥٩٥٠)، وصحيح مسلم (٢١٠٩)، وهو عند أحمد (٣٥٥٨).

(٣) في صحيحه (١٤٢٢): (٧١)، و(٢٤٤٠). والحديث الثاني عند أحمد (٢٤٢٩٨)، والبخاري (٦١٣٠). قولها: ينقمعن، أي: ينقبضن ويستَتِرْن حياءً من النبي ﷺ وهيبة له. وقولها: يُسَرِّبُهنّ، أي: يُرسلهن ويؤنسهنَّ حتى يزول عنهنَّ ما كان أصابهنَّ.

(٤) في (ظ): كالجوابي، وهي قراءة ابن كثير من السبعة وصلاً ووقفاً، وأثبت الياء في الوصل ورش وأبو عمرو. السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٢ .

(٥) في (م): الجوابي.

حُفيرةٌ كالحوض. وقال مجاهد: كحياض الإبل[١]. وقال ابن القاسم عن مالك: كالجَوْبَة من الأرض[٢]، والمعنى متقارب، وكان يقعد على الجَفْنَة الواحدة ألفُ رجل.

النّحّاس[٣]: «وجِفَانٍ كالجَوابي» الأَوْلَى أن تكون بالياء، ومَن حَذَفَ الياء قال: سبيلُ الألف واللامِ أن تدخل على النكرة فلا يغيِّرها عن حالها، فلمَّا كان يقال: جوابٍ، ودخلت الألف واللام؛ أُقرَّ على حاله، فحذف[٤] الياء. وواحدُ الجوابي جابية، وهي القِدرُ العظيمة، والحوضُ العظيم الكبير الذي يُجْبَى فيه الشيءُ، أي: يجمع، ومنه: جَبَيْتُ الخَراجَ، وجَبَيتُ الجراد، أي: جعلت[٥] الكساءَ فجمعته فيه. إلّا أنَّ لَيْثًا روى عن مجاهد قال: الجَوابي جمعُ جَوبة. والجَوبةُ: الحفرةُ الكبيرة تكون في الجبل [يجتمع] فيها ماء المطر.

وقال الكسائيُّ: جَبَوْتُ الماءَ في الحوض وجَبَيْتُه، أي: جمعتُه، والجابية: الحوضُ الذي يُجبى فيه الماء للإبل، قال:

تَروحُ على آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ ... كجابيةِ الشيخِ العراقيِّ تَفْهَقُ[٦]

ويروى أيضاً:

نَفَى الذمَّ عن آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ ... كجابيةِ السَّيحِ ... ...

ذكره النَّحّاس[٧].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٣ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٠ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٦ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في إعراب القرآن: بحذف.

(٥) في (ظ): بسطت.

(٦) البيت للأعشى ميمون بن قيس، وسلف عجزه ٨/ ٤٥١ ، وذكره بهذه الرواية الطبري ١٩/ ٢٣٢ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٢ ، وهو في الديوان ص ٢٧٥ برواية: نفى الذم عن آل المحلق... ، وستأتي. قوله تفهقُ، أي: تمتلئ.

(٧) في معاني القرآن ٥/ ٣٩٩ . والسَّيح: الماء الجاري على وجه الأرض، أما رواية: الشيخ، فيقال: =

قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ قال سعيد بن جُبير: هي قدورُ النحاس تكون بفارس. وقال الضحَّاك: هي قدورٌ تُعمل من الجبال[١]. غيرُه: قد نُحِتَتْ من الجبال الصُّمِّ ممَّا عَمِلَتْ له الشياطين، أَثَافِيها[٢] منها منحوتةٌ هكذا من الجبال.

ومعنى «رَاسِيَاتٍ»: ثوابت، لا تُحملُ ولا تحرَّك لعِظَمها. قال ابن العربي[٣]: وكذلك كانت قدورُ عبد الله بنِ جُدعان، يُصعَدُ إليها في الجاهلية بسُلَّم، وعنها عبَّر طرفةُ بن العبد بقوله:

كالجَوَابي لاتَني مُتْرَعَةً لِقِرَى الأَضْيافِ أو للمحتَضِرْ[٤]

قال ابن العربيّ: ورأيتُ برباطِ أبي سعيد قدورَ الصوفيةِ على نحوِ ذلك، فإنَّهم يطبخون جميعاً، ويأكلون جميعاً من غير استئثارِ واحدٍ منهم على أحد.

قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوٓا ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ قد مضى معنى الشكرِ في «البقرة»[٥] وغيرها. وروي أنَّ النبيَّ ﷺ صعد المنبر فتلا هذه الآيةَ ثم قال: «ثلاثٌ مَن أُوتِيهنَّ فقد أوتيَ مثلَ ما أوتي آلُ داود» قال: فقلنا: ما هنّ؟ فقال: «العدلُ في الرضا والغضب، والقَصْدُ في الفقر والغنى، وخشيةُ اللهِ في السرِّ والعَلَانية». خرجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة[٦].

وروي أنَّ داودَ عليه السلام قال: «يا ربّ، كيف أُطيقُ شكركَ على نعمك،

= أراد كسرى، ويقال: أراد شيخاً من فلاحي سواد العراق غير معين. المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ ، وينظر ما سلف ٨/ ٤٥١ .

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٦ ، وفيه: ... تعمل من حجارة الجبال.

(٢) جمع أُثْفِيَّة، وهي الحجر يوضع عليه القدر. القاموس (ثفي).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٠ ، وما قبله منه.

(٤) ديوان طرفة ص ٥٦ ، والخزانة ٩/ ٣٧٩ ، وفيه: لاتني، أي: لا تفتر ولا تزال، والقِرى: القيام بالضيف، والمحتضر: النازل على الماء.

(٥) ٢/ ١٠٤ وما بعدها.

(٦) نوادر الأصول ص ١٣٠ .

وإلهامي وقدرتي على شكرك نعمةٌ لك» فقال: «يا داودُ، الآن عَرَفْتني»[١]. وقد مضى هذا المعنى في سورة إبراهيم[٢]، وأنَّ الشُّكرَ حقيقتُه: الاعترافُ بالنعمة للمنعِم، واستعمالُها في طاعته. والكُفْرانُ: استعمالُها في المعصية. وقليلٌ مَن يفعلُ ذلك؛ لأنَّ الخير أقلُّ من الشرّ، والطاعة أقلُّ من المعصية، بحسَبِ سابقِ التقدير[٣].

وقال مجاهد: لمَّا قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ قال داودُ لسليمانَ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد ذكر الشكر فاكْفِني صلاةَ النهارِ أَكْفِكَ صلاةَ الليل، قال: لا أَقْدِرُ، قال: فاكفني؛ قال الفاريابيُّ: أراه قال: إلى صلاة الظهر. قال: نعم، فكفاه[٤].

وقال الزُّهريُّ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي: قولوا: الحمدُ لله[٥].

و«شُكْرًا» نصب على جهة المفعول، أي: اعملوا عملاً هو الشكر. وكأنَّ الصلاة والصيامَ والعباداتِ كلَّها هي في نفسها الشكرُ إذ سدَّت مَسَدَّه[٦]، ويبيِّنُ هذا قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وهو المرادُ بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. وقد قال سفيان بن عُيَيْنَةَ في تأويل قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ [لقمان: ١٤]: أنَّ المرادَ بالشكر الصلواتُ الخمس[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠، وأورده بنحوه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (١١).

(٢) ١٢/ ١٠٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠١، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٨ وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠، وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون نَصْبُه على الحال، أي: اعملوا بالطاعات في حال شكر منكم لله على هذه النعم.

(٧) سلف عند تفسير الآية (١٤) من سورة لقمان.

وفي «صحيح» مسلم[١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقومُ من الليل حتى تَفَطَّرَ قدماه، فقالت له عائشةُ رضي الله عنها: أتصنعُ هذا وقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم من ذَنْبِكَ وما تأخَّر؟ فقال: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا». انفرد بإخراجه مسلم[٢].

فظاهِرُ القرآنِ والسنَّةِ أنَّ الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصارِ على عمل اللسان، فالشكرُ بالأفعال عملُ الأركان، والشكر بالأقوال عملُ اللسان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ يَحتَمِلُ أن يكون مخاطبةً لآلِ داود، ويحتمل أن يكون مخاطبةً لمحمدٍ ﷺ[٣]؛ قال ابن عطية: وعلى كلِّ وجهٍ ففيه تنبيهٌ وتحريض. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً يقول: اللهمَّ اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردتُ قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. فقال عمر ﷺ: كلُّ الناسِ أَعْلَمُ منك يا عمر[٤]!.

وروي أنَّ سليمانَ عليه السلام كان يأكل الشعير، ويُطْعِم أهلَه الخُشْكارَ، ويُطعم المساكين الدَّرْمَك[٥]. وقد قيل: إنه كان يأكل الرماد ويَتَوَسَّدُه، والأولُ أصحّ، إذ الرمادُ ليس بقُوت.

ورويَ أنه ما شبع قَطُّ، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف إنْ شبعتُ أن أَنسى الجياع[٦]. وهذا من الشكر ومن القليل، فتأمَّلْه، والله أعلم.

---

(١) برقم (٢٨٢٠).

(٢) كذا قال المصنف، وقد أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، وهو عند أحمد (٢٤٨٤٤).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ (والكلام منه): لآل محمد ﷺ.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٢٢.

(٥) قطعة من رسالة مطولة للحسن البصري أرسلها إلى عمر بن عبد العزيز، وقد أخرجها الفسوي في المعرفة والتاريخ ٣/ ٣٣٨ - ٣٤٤. والخُشْكار: الخبز الأسمر غير النقي. والدَّرْمَك: الدقيق الأبيض. المعجم الوسيط (خشكر) و(درمك).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فلمَّا حَكَمْنا على سليمانَ بالموت حتى صار كالأمرِ المفروغِ منه ووقع به الموتُ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ وذلك أنه كان متَّكِئًا على المِنْسأة ـ وهي العصا بلسان الحَبَشةِ في قول السُّدّي[1]. وقيل: هي بلغة اليمن؛ ذكره القشيريُّ ـ فمات كذلك وبقي خافيَ الحال إلى أن سقط ميتاً لانكسار العصا؛ لأكلِ الأَرَضَةِ إياها، فعُلم موتُه بذلك، فكانت الأَرَضَةُ دالَّةً على موته، أي: سبباً لظهورِ موته. وكان سأل الله تعالى ألَّا يعلموا بموته حتى تمضيَ عليه سنة.

واختلفوا في سبب سؤاله لذلك على قولين:

أحدهما: ما قاله قتادة وغيره، قال: كانت الجنُّ تدَّعي عِلْمَ الغيب، فلمَّا مات سليمان عليه السلام وخفي موتُه عليهم «تبينت الإنس أن الجن لو كانوا[2] يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين». ابن مسعود: أقام حولاً والجنُّ تعملُ بين يديه، حتى أكلت الأَرَضَةُ مِنْسَأَتَهُ فسقط[3]. ويُروى أنه لمَّا سقط لم يُعلم منذ [كم] مات، فوُضِعت الأَرَضَةُ على العصا، فأكلت منها يوماً وليلةً، ثم حَسَبوا على ذلك، فوجدوه قد مات منذُ سنة[4].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٨.

(٢) في (خ) و(د) و(م): تبينت الجن أن لو كانوا. والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٢٤٢ - ٢٤٣، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٠ وفيهما: ... فلما خر تبينت الجن، وفي بعض القراءة: فلما خرَّ تبينت الإنس أن الجن لو كانوا ...، وهي قراءة شاذة كما سيرد.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٣.

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٢٤٢، وعرائس المجالس ص ٣٢٩ - ٣٣٠، وما سلف بين حاصرتين منهما.

وقيل: كان رؤساء الجنِّ سبعةً، وكانوا مُنْقادِينَ لسليمان عليه السلام، وكان داودُ عليه السلام أسَّس بيت المقدس، فلمَّا مات أوصى إلى سليمانَ في إتمامِ مسجدِ بيتِ المقدس، فأمر سليمانُ الجنَّ به، فلمَّا دنت وفاتُه قال لأهله: لا تُخبروهم بموتي حتى يُتموا بناءَ المسجد، وكان قد بقي لإتمامه سنة[١].

وفي الخبر: أنَّ ملَك الموت كان صديقه، فسأله عن آية موته فقال: أن تخرج من موضع سجودك شجرةٌ يقال لها: الخروب[٢]، فلم يكن يومٌ يصبح فيه إلَّا تَنبتُ في بيت المقدس شجرةٌ فيسألُها: ما اسمُك؟ فتقول الشجرةُ: اسمي كذا وكذا، فيقول: ولأيِّ شيءٍ أنت؟ فتقول: لكذا وكذا، فيأمر بها فتُقْطَع، ويَغرِسُها في بستان له، ويأمر بكَتْبِ منَافِعها ومَضَارِّها واسمِها وما تَصْلُحُ له في الطبِّ، فبينما هو يصلِّي ذاتَ يومٍ إذ رأى شجرةً نبتت بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروبة[٣]، قال: ولأيِّ شيء أنت؟ قالت: لخرابِ هذا المسجد، فقال سليمان: ما كانَ الله ليخربه وأنا حيٌّ، أنتِ التي على وَجْهِكِ هلاكي وهلاكُ بيتِ المقدس! فنزعها وغرسها في حائطه، ثم قال: اللهمَّ عَمِّ عن الجنِّ موتي حتى تعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيب. وكانت الجنُّ تُخبِرُ الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غدٍ. ثم لبس كَفَنَه وتحنَّط، ودخل المحرابَ وقام يصلِّي، واتكأ على عصاه على كرسيِّه، فمات ولم تعلم الجنُّ إلى أن مضت سنةٌ، وتمَّ بناءُ المسجد[٤].

---

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤١، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٤.

(٢) في (م): الخرنوبة.

(٣) في (م): الخرنوبة.

(٤) أخرجه من قوله: فلم يكن يوم يصبح فيه ....، الطبري ١٩/ ٢٤١ عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تُلُقِّي من علماء أهل الكتاب وهي وقف لا يصدَّق منها إلا ما وافق الحق، ولا يكذَّب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

قال أبو جعفر النحَّاس: وهذا أحسنُ ما قيل في الآية[١]، ويدلُّ على صحته الحديثُ المرفوع؛ روى إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «كان نبيُّ اللّهِ سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلَّى رأى شجرةً نابتةً بين يديه، فيسألُها: ما اسمُك؟ فإن كانت لغرسٍ غُرست، وإن كانت لدواءٍ كُتبت، فبينما هو يصلِّي ذاتَ يومٍ إذا شجرةٌ نابِتةٌ بين يديه، فقال: ما اسمك؟ قالت: الخرنوب[٢]؛ فقال: لأيِّ شيءٍ أنتِ؟ فقالت: لخرابِ هذا البيت، فقال: اللَّهُمَّ عَمِّ عن الجنِّ موتي حتى تعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيب. فنَحَتَها عصاً، فتوكَّأ عليها حولاً وهم لا يعلمون، فسقطت، فعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيبَ، فنظروا مقدارَ ذلك فوجدوه سنة[٣]».

وفي قراءةِ ابن مسعود وابن عباس: «تَبيَّنَت الإنْسُ أنْ لو كان الجنُّ يَعلمون الغَيبَ»[٤].

وقرأ يعقوبُ في رواية رُوَيْس: ﴿تُبُيِّنَتِ الجنُّ﴾ غير مسمَّى الفاعلِ[٥]. ونافع

---

(١) قال النحاس هذا الكلام في معاني القرآن ٥/ ٤٠٣ عقب قول قتادة: كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون الغيب، فلما مات سليمان ولم تعلم به الجن، تَبَيَّنَت الجنُّ للإنس أنهم لا يعلمون الغيب. وقد سلف قريباً.

(٢) في (ظ): الخروب، وفي (م): الخرنوبة.

(٣) أخرجه البزار (٢٣٥٥ - كشف)، والطبري ١٩/ ٢٤٠ من طريق إبراهيم بن طهمان به. وأخرجه البزار (٢٣٥٦) من طريق سفيان بن عيينة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه موقوفاً.
قال البزار: لا نعلم أسنده إلا إبراهيم، وقد رواه جماعة عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً.
قلنا: وأخرجه الحسين المروزي في زياداته على الزهد لابن المبارك (١٠٧٢) من طريق سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً أيضاً. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والأقرب أن يكون موقوفاً.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٥ ، وإعراب القرآن له ٣/ ٣٣٨ . وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٨٨ بلفظ: «تبيَّنتِ الإنسُ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيب».

(٥) النشر ٢/ ٣٥٠ .

وأبو عمرو: ﴿تأكلُ مِنْساتَه﴾ بألفٍ بين السين والتاء من غير همز. والباقون بهمزةٍ مفتوحةٍ موضعَ الألف، لغتان، إلَّا أنَّ ابن ذَكْوان أَسْكَنَ الهمزةَ تخفيفاً[١].

قال الشاعر في ترك الهمزة:

إذا دَبَبْتَ على المِنْساةِ من كِبَرٍ   فقد تَباعَدَ عنكَ اللَّهْوُ والغَزَلُ[٢]

وقال آخر فَهمَزَ وفتح:

ضربنا بمِنْسَأةٍ وَجْهَهُ   فصار بذاك مهيناً ذليلاً[٣]

وقال آخر:

أَمِنْ أَجْلِ حَبْلٍ لا أباكَ ضربتَه   بمنسأةٍ قد جَرَّ حبلُكَ أحْبُلَا[٤]

وقال آخر فسكَّن همزها:

وقائمٍ قد قام من تُكَأَتِهْ   كقومةِ الشيخِ إلى مِنْسَأْتِهْ[٥]

وأصلُها: من نَسَأْتُ الغنمَ، أي: زَجَرتُها وسُقْتُها، فسمِّيت العصا بذلك لأنه يُزجر بها الشيءُ ويساق، وقال طَرفَة:

أمُونٍ كألواح الإران نَسَأْتُها   على لاحِبٍ كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ[٦]

---

(١) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠. ولم يذكر ابن مجاهد ابن ذكوان. وقال الداني: وحمزة إذا وقف جعلها بين بين على أصله.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، وتفسير الطبري ١٩/ ٢٣٩، والمحتسب ٢/ ١٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١١.

(٣) ذكره الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٢١، وفيه: ضربت، بدل: ضربنا.

(٤) البيت لأبي طالب كما في المنمق لابن حبيب ص ١٤٢، والأوائل للعسكري ١/ ٥٤، والبيان والتبيين ٣/ ٣٠، وهو دون نسبة في مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، والمنصف لابن جني ٢/ ٥٩، ولفظ المصنف موافق لما في مجاز القرآن، وفي باقي المصادر اختلافٌ يسير.

(٥) ذكر أبو عمرو الداني في التيسير ص ١٨٠ برواية:

صريعِ خمرٍ قام من وَكَأَتِهْ   كقومةِ الشيخ ...

(٦) ديوان طرفة ص ٢٢. قوله: أمونٍ، أي: يُؤْمَن عِثارها، ويعني ناقته. والإران: تابوت يحمل فيه الميت، شبَّهها بألواح الإران لشدتها. نسأتها: ضربتها بالمنسأة، وهي العصا، ويروى: نَصَأْتُها، وهما واحد. =

فسكَّن هَمْزَها. قال النحاس[١]: واشتقاقُها يدلُّ على أنَّها مهموزةٌ؛ لأنَّها مشتقةٌ من نَسَأْتُه، أي: أخَّرته ودفعته، فقيل لها: مِنْسأة؛ لأنها يُدفع بها الشيءُ ويؤخَّر، وقال مجاهدٌ وعكرمةُ: هي العصا. فَمَن[٢] قرأ: «مِنْساتَه» أبدل من الهمزة ألفًا، فإن قيل: البدلُ من الهمزة قبيحٌ جدًّا، وإنَّما يجوز في الشعر على بُعْدٍ وشذوذ، وأبو عمرو ابن العلاء لا يغيبُ عنه مثلُ هذا لا سيما وأهلُ المدينة على هذه القراءة. فالجوابُ على هذا: أنَّ العربَ استعملتْ في هذه الكلمةِ البدلَ ونَطَقوا بها هكذا، كما يقع البدلُ في غير هذا ولا يقاسُ عليه، حتى قال أبو عمرو: ولستُ أدري ممن هو[٣]، إلَّا أنَّها غيرُ مهموزة؛ لأنَّ ما كان مهموزاً فقد يُتركُ همزُه، وما لم يكن مهموزاً لم يَجُزْ همزُه بوجه.

المهدوِيُّ: ومَن قرأ بهمزةٍ ساكنةٍ فهو شاذٌّ بعيد؛ لأنَّ هاءَ التأنيثِ لا يكونُ ما قَبْلَها إلَّا متحرِّكاً أو ألفاً، لكنَّه يجوزُ أن يكون مِمَّا سُكِّنَ من المفتوح اسْتِخْفافاً، ويجوز أن يكون لَمَّا أبدل الهمزةَ ألفاً على غير قياسٍ، قَلَبَ الألفَ همزةً كما قَلَبوها في قولهم: العَأْلَم والخأتم،

وروي عن سعيد بن جبير: «مِن» مفصولة «سَأْتِه» مهموزة مكسورة التاء[٤]؛ فقيل: إنَّه مِن سِئَةِ القوسِ في لغة مَن همزها، وقد روي همزُ سِيَةِ القوسِ عن رؤبة. قال

= واللاحب: الطريق الذي قد أُثِّر فيه، وهو بمعنى ملحوب، ويجوز أن يكون على بابه، كأنه يَلحب أخفاف الإبل، أي يؤثر فيها. والبرجد: كساء مخطط. شرح المعلقات للنحاس ١/ ٦٠ ، وللتبريزي ص٨١ .

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٧ .

(٢) في النسخ: ثم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٣) في إعراب القرآن: مم هي.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٦ ، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢١ دون نسبة. ويجوز فيها فتح السين وكسرها، مثل: الضَّعَة والضِّعة، ومعناها: من طرف عصاه. ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٧ . والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٢.

الجوهريُّ(١): سِيَةُ القوس ما عُطِفَ من طرفيها، والجمع سِيَات، والهاءُ[في الواحد] عِوَضٌ من الواو، والنسبةُ إليها سِيَويّ، قال أبو عبيدة: كان رؤبةُ يهمزُ سِيَةَ القوس، وسائر العرب لا يهمزونها.

وفي دابة الأرض قولان: أحدهما: أنَّها الأَرَضَة؛ قاله ابن عباس ومجاهدٌ وغيرهما. وقد قرئ: «دابةُ الأَرَضِ» بفتح الراء، وهو واحدُ الأَرَضة؛ ذكره الماورديّ(٢). الثاني: أنَّها دابةٌ تأكل العيدانَ.

قال الجوهريّ(٣): والأَرَضَةُ ـ بالتحريك ـ: دُوَيبَّةٌ تأكلُ الخشب؛ يقال: أَرِضَت الخشبةُ تُؤرَضُ أَرْضاً ـ بالتسكين ـ فهي مأروضةٌ: إذا أكلتها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ قال الزجّاج(٤): أي: تبيَّنت الجنُّ موتَه. وقال غيره: المعنى: تبيَّن أمرُ الجنِّ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]. وفي التفسير بالأسانيد الصِّحاح عن ابن عباس قال: أقام سليمانُ بن داودَ عليهما الصلاة والسلام حولاً لا يُعلم بموته وهو متكئٌ على عصاه، والجنُّ منصرفةٌ فيما كان أمَرَها به، ثم سقط بعد حول [وقرأ ابن عباس:] «فلمَّا خَرَّ تبيَّنت الإنسُ أنْ لو كان الجنُّ يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين» وهذه القراءةُ من ابن عباس على جهة التفسير(٥).

وفي الخبر: أنَّ الجنَّ شكرت ذلك للأَرَضَة، فأينما كانت يأتونها بالماء، قال

---

(١) في الصحاح: (سيا)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٤٤١ والقول الثاني بعده منه أيضاً. وقوله: وهو واحد الأرضة، خطأ. والصواب: وهو جمع الأرضة، كما ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١١ . وقول ابن عباس ومجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٣) في الصحاح (أرض).

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٧ - ٣٣٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

السُّدِّيُّ: والطينِ، ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب، فإنَّه مما يأتيها به الشياطين شكراً، وقالت: لو كنتِ تأكلين الطعامَ والشرابَ لأتيناك بهما[١].

و«أنْ» في موضع رفعٍ على البدل من الجنِّ، والتقدير: تبيَّن أمرُ الجنِّ، فحذف المضاف، أي: تبيَّن وظَهَر للإنس وانكشف لهم أمرُ الجنِّ أنَّهم لا يعلمون الغيب. وهذا بدلُ الاشتمال. ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ على تقدير حذف اللام[٢]. و«لَبِثُوا»: أقاموا. و«الْعَذَابِ الْمُهِينِ»: السُّخْرة والحمل والبنيان وغير ذلك.

وعمِّر سليمان ثلاثاً وخمسين سنةً، ومدَّةُ ملكِه أربعون سنة، فملك وهو ابنُ ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً، وابتدأ في بنيان بيتِ المقدس وهو ابنُ سَبْعَ عَشْرَةَ سنة[٣]. وقال السُّدِّيّ وغيره: كان عُمر سليمان سبعاً وستِّين سنة، ومَلَكَ وهو ابنُ سبع عشرةَ سنة، وابتدأ في بنيان بيت المقدس وهو ابنُ عشرين سنةً، وكان ملكه خمسين سنة.

وحكيَ أنَّ سليمان عليه السلام ابتدأ بنيانَ بيتِ المَقْدِسِ في السنة الرابعة من ملكه، وقرَّب بعد فراغه منه اثني عَشَرَ ألفَ ثورٍ، ومئةً وعشرين ألفَ شاة، واتخذ اليومَ الذي فرغ فيه من بنائه عيداً، وقام على الصخرة رافعاً يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال: اللهمَّ أنت وهبتَ لي هذا السلطانَ وقوَّيتني على بناء هذا المسجد، اللهمَّ فأَوْزِعْنِي شُكْرَك على ما أنعمتَ عليَّ، وتوفَّني على مِلَّتك، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتني، اللهمَّ إنِّي اسألك لمَن دخل هذا المسجد خمسَ خصال: لا يدخله مذنبٌ دخل للتوبة إلَّا غفرتَ له وتبتَ عليه، ولا خائفٌ إلا أَمَّنته، ولا سقيمٌ إلَّا شَفَيْتَه، ولا فقيرٌ إلا أغنيتَه. والخامس: ألَّا تصرفَ نظرك عمَّن دخله حتى يخرج منه، إلَّا مَن أراد إلحادًا أو ظلماً، يا ربَّ العالمين؛ ذكره الماورديّ[٤].

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٢٤٢، وعرائس المجالس ص ٣٣٠، والنكت والعيون ٤/ ٤٤١. والنكارة في الخبر ظاهرة.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٥.

(٣) عرائس المجالس ص ٣٣٠.

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٤٤٢.

قلت: وهذا أصحُّ ممَّا تقدَّم أنه لم يفرغ بناؤه إلَّا بعد موته بسنة، والدليلُ على صحة هذا ما خرَّجه النسائيُّ وغيره بإسنادٍ صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ سليمانَ بن داود لمَّا بنَى بيتَ المقدسِ سأل الله تعالى خِلَالاً ثلاثةً: حُكْمًا يصادفُ حكمه، فأُوتيَه، وسأل الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأُوتيَه، وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجدَ ألَّا يأتيه أحدٌ لا يَنْهَزُه إلَّا الصلاةُ فيه أن يخرج من خطيئته كيومَ وَلَدَتْهُ أمُّه». وقد ذَكَرنا هذا الحديثَ في «آل عمران»[١] وذَكَرْنا بناءَه في «سبحان»[٢].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مساكنهم آية﴾ قرأ نافع وغيره بالصَّرْفِ والتنوين على أنه اسمُ حَيٍّ، وهو في الأصل اسمُ رجلٍ، جاء بذلك التوقيفُ عن النبيِّ ﷺ[٣].

روى الترمِذيُّ قال: حدَّثنا أبو كُريب وعبد بن حُميد قالا: حدَّثنا أبو أسامة، عن الحسن بن الحكم النَّخَعيِّ قال: حدَّثنا أبو سَبْرَةَ النّخعيُّ، عن فَروةَ بن مُسيك المُراديِّ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: يا رسول الله، أَلَا أقاتلُ مَن أَدْبَرَ من قومي بمن أَقْبَلَ منهم؟ فَأَذِنَ لي في قتالهم وأمَّرني، فلمَّا خرجتُ من عنده سأل عنِّي: «ما فَعَلَ الغُطَيفيُّ»؟ فأُخبِر أنِّي قد سِرتُ، قال: فأرسل في أثري فردَّني، فأتيتُه وهو في نَفَرٍ من أصحابه، فقال: «ادعُ القومَ، فَمَن أَسْلَمَ منهم فاقْبَلْ منه، ومَن لم يُسْلِم فلا تَعْجَل حتى أُحْدِثَ إليك». قال: وأنزل في «سبأ» ما أُنزل، فقال رجل: يا رسول الله، وما

---

(١) ٥/ ٢٠٧ ، وهو في سنن النسائي (المجتبى) ٢/ ٣٤ . قوله: لا ينهزه، أي: لا يدفعه. وقوله: حكماً يصادف حكمه، أي: يوافق حكم الله تعالى، والمراد التوفيق للصواب في الاجتهاد. قاله السندي.

(٢) ١٣/ ١٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٨ ، وقرأ بالصرف والتنوين نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص ١٦٧ .

سبأٌ؟ أرضٌ أو امرأةٌ؟ قال: «ليس بأرضٍ ولا بامرأةٍ، ولكنه رجلٌ ولَد عشرةً من العرب، فتَيامَنَ منهم ستةٌ وتَشاءَمَ منهم أربعةٌ، فأمَّا الذين تَشاءموا فلَخْمٌ وجُذامٌ وغَسَّانُ وعاملةُ. وأمَّا الذين تَيامَنوا فالأَزْدُ والأَشْعرِيُّون وحِمْيرٌ وكِنْدةُ ومَذْحِجٌ وأنمارٌ» فقال رجل: يا رسولَ الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خَثْعَمٌ وبَجِيلةٌ». ورويَ هذا عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب(١).

وقرأ ابن كثير(٢) وأبو عمرو: «لِسَبَأَ» بغيرِ صَرْفٍ، جعله اسماً للقبيلة، وهو اختيارُ أبي عبيد، واستدلَّ على أنه اسمُ قبيلةٍ بأنَّ بعده: «في مساكنهم»؛ النحاس(٣): ولو كان كما قال: لَكان: في مساكنها. وقد مضى في «النمل» زيادةُ بيانٍ لهذا المعنى(٤). وقال الشاعر في الصَّرْف:

الـواردون وتَـيْـمٌ فـي ذُرى سـبـأٍ قد عضَّ أعناقَهَمْ جِلْدُ الجواميسِ(٥)

وقال آخر في غير الصرف:

مـن سَـبَـأَ الـحـاضـريـن مـأرِبَ إذ يَـبْـنُـون مـن دون سَـيْـلِـه الـعَـرِمـا(٦)

وقرأ قُنْبُل وأبو حَيْوَةَ والجَحْدَريُّ: «لِسَبَأْ»؛ بإسكان الهمزة(٧).

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٢)، وهو عند أحمد (٢٤٠٠٩/ ٨٩)، وأخرجه مختصراً أبو داود (٣٩٨٨).
قوله: فتيامن، أي: أخذوا ناحية اليمن وسكنوا بها. وقوله: تشاءم، أي: قصدوا جهة الشام. تحفة الأحوذي ٩/ ٨٩ . والغُطَيْفي نسبة إلى غطيف، وهو بطن من مُراد. الأنساب للسمعاني ٩/ ١٦٣ . وحديث ابن عباس أخرجه أحمد (٢٨٩٨).

(٢) في رواية البزي. السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص ١٦٧ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٨ ، وما قبله منه.

(٤) عند تفسير الآية (٢٢) منها.

(٥) البيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ١/ ١٣٠ برواية:

تـدعـوك تـيـم وتـيـم فـي قـرى سـبـأٍ قد عض أعناقهم جلد الجواميس

والبيت برواية المصنف في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٨ .

(٦) البيت للنابغة الجعدي أو أمية بن أبي الصلت، كما في سيرة ابن هشام ١/ ١٤ ، وطبقات الفحول ١/ ١٢٦ . وهو في ديوان النابغة الجعدي ص ١٣٤ برواية: أو سبأ ...

(٧) السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص ١٦٧ عن قنبل.

﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ قراءةُ العامَّةِ على الجمع[١]، وهي اختيارُ أبي عبيدٍ وأبي حاتم؛ لأنَّ لهم مساكنُ كثيرةٌ وليس بمسكنٍ واحد.

وقرأ إبراهيم وحمزةُ وحفصٌ: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ موحَّداً، إلَّا أنَّهم فتحوا الكاف[٢]. وقرأ يحيى والأعمشُ والكسائيُّ موحَّداً كذلك، إلَّا أنَّهم كَسَروا الكاف[٣].

قال النحاس[٤]: ومساكنُ في هذا أَبْيَنُ؛ لأنه يجمع اللفظَ والمعنى، فإذا قلت: «مسكنهم» كان فيه تقديران: أحدهما: أن يكون واحداً يؤدِّي عن الجمع. والآخر: أن يكون مصدراً لا يثنَّى ولا يُجمع، كما قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة:٧]. فجاء بالسمع موحَّدًا. وكذا: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر:٥٥]. و«مَسْكِن» مثل مسجد، خارجٌ عن القياس، ولا يوجد مثلُه إلَّا سماعاً.

﴿ءَايَةٌ﴾ اسمُ كان، أي: علامةٌ دالَّة على قدرة الله تعالى على أنَّ لهم خالقاً خَلَقَهم، وأنَّ كلَّ الخلائقِ لو اجتمعوا على أن يُخرجوا من الخشبة ثمرةً لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناسِ الثمار وألوانها وطُعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدلُّ على أنَّها لا تكون إلَّا من عالِمٍ قادِر.

﴿جَنَّتَانِ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من «آية»، ويجوز أن يكون خبرَ ابتداءٍ محذوفٍ، فيوقَفُ على هذا الوجه على «آية» وليس بتمام[٥]. قال الزجَّاج[٦]: أي: الآيةُ جَنَّتان،

---

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠.

(٢) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠ عن حمزة وحفص. وإبراهيم هو النخعي، وذكرها عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٩.

(٣) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠ عن الكسائي. وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩ عن يحيى (وهو ابن وثاب) والأعمش.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٩.

(٥) وهو وقف حسن كما ذكر الأشموني في منار الهدى في بيان الوقف والابتدا ص ٢٢٦.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٨.

فجنتان رفع لأنه خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ. وقال الفرَّاء: رُفع تفسيراً للآية[١]، ويجوز أن تنصب «آية» على أنَّها خبرُ كان، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضاً في غير القرآن[٢].

قال عبد الرحمن بن زيد: إنَّ الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنَّهم لم يَرَوا فيها بعوضةً قطُّ، ولا ذباباً ولا بُرغُوثاً ولا قملةً ولا عقرباً ولا حيةً، ولا غيرَها من الهوامّ، وإذا جاءهم الرَّكْبُ في ثيابهم القملُ والدوابُّ، فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب[٣].

وقيل: إنَّ الآية هي الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها مِكْتَلٌ، فيمتلئُ من أنواع الفواكه من غير أن تمسَّها بيدها؛ قاله قتادة[٤].

وروي أنَّ الجنتين كانتا بين جبلين باليمن. قال سفيان: وُجد فيهما قصران مكتوبٌ على أحدهما: نحن بنينا سَلْحِين[٥] في سبعين خريفاً دائبين، وعلى الآخر مكتوبٌ: نحن بَنَينا صِرْواح، مَقِيل ومَراح، فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادي والأخرى عن شماله.

قال القشيريُّ: ولم يُرِدْ جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يَمنةً ويَسرةً، أي:

---

(١) أي على البدل منها، كما ذكره عنه الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٢٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٨ .

(٣) أخرجه مطولاً الطبري ١٩/ ٢٤٧ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ ، والطبري ٩/ ٢٤٧ . والمِكْتل: الزَّبيل الكبير، قيل: إنه يسع خمسة عشر صاعاً، كأن فيه كتلاً من التمر. النهاية (كتل).

(٥) في (د): سايحين، وفي (خ) و(ظ): سالحين، وسقط هذا الموضع من (ز). ووقع في مطبوع النكت والعيون ٤/ ٤٤٣ (والكلام منه): سالمين. والمثبت من (م) وهو موافق لما ذكره ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٢٣٥ وقال: سلحين بفتح أوله وسكون ثانيه ثم حاء مهملة مكسورة ... ، حصن عظيم بأرض اليمن.

كانت بلادهم ذاتَ بساتين وأشجارٍ وثمار، تستتر الناس بظلالها.

﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: قيل لهم: كلوا، ولم يكن ثَمَّ أمرٌ، ولكنَّهم تمكَّنوا من تلك النعم. وقيل: أي قالت الرسل لهم: قد أباح الله تعالى لكم ذلك، أي: أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة. ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: من ثمار الجنتين ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ يعني على ما رزقكم.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ هذا كلامٌ مستأنَفٌ، أي: هذه بلدةٌ طيبةٌ، أي: كثيرةُ الثمار. وقيل: غيرُ سَبْخةٍ. وقيل: طيبةٌ ليس فيها هوامٌّ لطيبِ هوائها. قال مجاهد: هي صنعاء[(١)].

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: والمنعِمُ بها عليكم ربٌّ غفورٌ يَسْتُر ذنوبَكم، فجمع لهم بين مغفرةِ ذنوبهم وطيبِ بلدِهم، ولم يجمع ذلك لجميع خَلْقِه. وقيل: إنَّما ذكر المغفرة مشيراً إلى أنَّ الرزق قد يكون فيه حرام. وقد مضى القول في هذا في أوّل «البقرة»[(٢)]. وقيل: إنَّما امتَنَّ عليهم بعَفْوِه عن عذابِ الاستئصالِ بتكذيب مَن كذَّبوه من سالِفِ الأنبياء، إلى أن استداموا الإصرارَ فاستؤصِلوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ يعني عن أمره واتِّباعِ رسله بعد أن كانوا مسلمين. قال السُّدِّيُّ ووهبٌ: بعث إلى أهل سبأ ثلاثةَ عَشَرَ نبيًّا فكذَّبوهم. قال القُشيرِيُّ: وكان لهم رئيس يلقَّب بالحمار، وكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم. وقيل: كان له ولدٌ فمات، فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر، ولهذا يقال: أَكْفَرُ مِن حِمار. وقال الجوهريّ[(٣)]: وقولُهم: أَكْفَرُ من حِمار، هو رجلٌ من عادٍ؛

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤٤ .

(٢) ١/ ٢٧٢ .

(٣) في الصحاح (حمر).

مات له أولادٌ، فكفر كفراً عظيماً، فلا يمرُّ بأرضه أحدٌ إلَّا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلَّا قتله.

ثم لمَّا سال السيلُ بجنَّتيهم تفرَّقوا في البلاد، على ما يأتي بيانُه، ولهذا قيل في المثل: «تفرَّقوا أيادي سَبَا»[١]. وقيل: الأوْسُ والخزرجُ منهم. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ والعرِمُ فيما روي عن ابن عباس: السَّدُّ[٢]، فالتقدير: سَيلَ السَّدِّ العَرِم. وقال عطاء: العَرِمُ اسمُ الوادي[٣].

قتادة: العرمُ وادي سبأ؛ كانت تجتمع إليه مَسَايلُ من الأودية، قيل: من البحر وأوديةِ اليمن، فردَموا رَدْمًا بين جبلين، وجعلوا في ذلك الرَّدْمِ ثلاثةَ أبوابٍ؛ بعضُها فوقَ بعضٍ، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قَدْرِ حاجاتهم؛ فأَخْصَبوا وكَثُرت أموالُهم، فلمَّا كذَّبوا الرسل سلَّط الله عليهم الفأر فنقب الردم[٤].

قال وَهْب: كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخرِّبُ سدَّهم فأرةٌ، فلم يتركوا فُرجةً بين صخرتين إلَّا ربطوا إلى جانبها هرَّةً، فلمَّا جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرةٌ حمراءُ إلى بعض تلك الهِرَرِ فساوَرَتْها حتى استأخرتْ عن الصخرة، ثم وثبت ودخلت في الفرجة التي كانت عندها، ونقبت السَّدَّ حتى أَوْهَنته للسيل وهم لا يدرون، فلمَّا جاء السيل دخل تلك الخللَ حتى بلغ السدَّ، وفاض الماء على أموالهم، فغرَّقها ودفن بيوتَهم[٥].

وقال الزجَّاج[٦]: العَرِمُ اسمُ الجُرَذ الذي نَقَبَ السِّكْرَ عليهم، وهو الذي يقال له:

---

(١) أي: تفرَّقوا تفرُّقاً لا اجتماع بعده. مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٧٥ . وسيأتي ص٣٠٢ من هذا الجزء.

(٢) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٥١ عن مجاهد.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٦ .

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٢٥١ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٩١ دون نسبة .

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٢ - ٢٥٣ . والخبر من الإسرائيليات.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٨ .

الخُلد ـ وقاله قتادةُ أيضًا[١] ـ فنُسب السيلُ إليه لأنه بسببه. وقد قال ابن الأعرابيِّ أيضاً: العَرِم من أسماء الفأر[٢].

وقال مجاهد وابن أبي نَجيح: العَرِمُ ماءٌ أحمرُ أرسله الله تعالى في السَّدِّ، فشقَّه وهدمه[٣].

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ العَرِمَ المطرُ الشديد. وقيل: العَرْم بسكون الراء. وعن الضحَّاك كانوا في الفترة بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام[٤].

وقال عمرو بن شُرَحْبيل: العَرِمُ المُسَنَّاة[٥]. وقاله الجوهريُّ[٦]؛ قال: ولا واحدَ لها من لفظها، ويقال: واحدُها عَرِمة.

وقال محمد بن يزيد: العَرِم كلُّ شيء حاجزٍ بين شيئين، وهو الذي يسمَّى: السِّكْر، وهو جَمعُ عَرِمة. النحَّاس[٧]: وما يجتمع من مطرٍ بين جبلين وفي وجهه مُسَنَّاةٌ فهو العَرِم، والمُسَنَّاةُ هي التي يسمِّيها أهلُ مصرَ الجسر[٨]، فكانوا يفتحونها إذا

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٣.

(٢) تهذيب اللغة ٢/ ٣٩١.

(٣) علقه البخاري كما في الفتح ٨/ ٥٣٥ عن مجاهد بأطول منه، ووصله الفريابي كما في تغليق التعليق ٤/ ٢٨٨ من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وتتمته: وحَفَرَ الوادي، فارتفعتا عن الجَنْبَتَيْنِ، وغاب عنهما الماء، فيبستا، ولم يكن الماء الأحمر من السدّ، ولكن كان عذاباً أرسله الله عليهم من حيث شاء. اهـ. وذكر الحافظ ابن حجر عن القاضي عياض أنه في رواية: فَبَثَقَهُ، بدل: فشقَّه؛ قال: وهو الوجه، تقول: بثقتُ النهر: إذا كسرتَه لتصرفه عن مجراه.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٥؛ إلا أنه ذكر قول ابن عباس دون نسبة، وذكره دون نسبة كذلك النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٧، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٤. وأخرج الطبري ١٩/ ٢٥٢ عن ابن عباس قال: سيل العرم: الشديد.

(٥) علقه البخاري أيضاً كما في الفتح ٨/ ٥٣٥. قال الحافظ: قال ابن التين: المراد بالمسناة ما يبنى في عرض الوادي ليرتفع السيل ويفيض على الأرض.

(٦) في الصحاح (عرم).

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٨، وما قبله منه، وقول محمد بن يزيد بنحوه في الكامل ٣/ ١٢١٤.

(٨) في (د) و(ظ): الحبس. والحِبس: حجارة أو خشب تبنى في مجرى الماء لتحبسه، كي يشرب القوم ويسقوا أموالهم. اللسان (حبس).

شاؤوا، فإذا رَوِيَتْ جنَّتاهم سدُّوها.

قال الهَرَوِيُّ: المُسَنَّاة: الضفيرة تُبنَى للسيل تردُّه، سمِّيت مسنَّاةً لأن فيها مفاتحُ الماء، ورُوي أنَّ العَرِمَ سدٌّ بَنَتْه بِلْقِيسُ صاحبةُ سليمانَ عليه الصلاة والسلام، وهو المسنَّاةُ بلغة حِمير، بَنَتْه بالصَّخْر والقارِ، وجعلت له أبواباً ثلاثةً بعضُها فوق بعض، وهو مشتقٌّ من العَرامة وهي الشدَّة، ومنه: رجلٌ عارم، أي: شديد. وعَرَمْتُ العظمَ أعْرِمُه وأعرُمه عَرْماً: إذا عَرَقْته[1]، وكذلك عَرَمت الإبلُ الشجرَ، أي: نالت منه. والعُرام بالضم: العُرَاق من العَظْمِ والشجر. وتعرَّمتُ العَظْمَ: تَعرَّقته. وصبيٌّ عارِمٌ بَيِّنُ العُرام ـ بالضم ـ أي: شَرِس. وقد عَرَم يَعْرُم ويَعْرِم عَرَامةً ـ بالفتح ـ، والعَرِم: العارم؛ عن الجوهريّ[2].

قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ وقرأ أبو عمرو: ﴿أُكُلِ خَمْطٍ﴾ بغير تنوينٍ مضافاً[3]. قال أهلُ التفسير والخليلُ: الخَمْطُ: الأراك[4]. الجوهري[5]: الخَمْطُ ضَرْبٌ من الأراك له حَمْلٌ يؤكل. وقال أبو عبيدة[6]: هو كلُّ شجرٍ ذي شوكٍ فيه مرارةٌ. الزجاج[7]: كلُّ نبتٍ فيه مرارةٌ لا يمكنُ أكلُه.

المبرِّد: الخمطُ: كلُّ ما تغيَّر إلى ما لا يُشتَهَى، واللبنُ خَمْطٌ إذا حَمُض. والأوْلى عنده في القراءة: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بالتنوين على أنه نعتٌ لـ «أُكُلٍ»، أو بَدَلٌ منه؛ لأنَّ الأُكُلَ هو الخمطُ بعينه عنده. فأمَّا الإضافةُ فبابُ جوازِها أن يكون تقديرُها:

---

(١) عرق العظم: أكل ما عليه من اللحم. القاموس (عرق).

(٢) في الصحاح (عرم).

(٣) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩.

(٥) في الصحاح (خمط).

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٤٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٨.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٩.

ذواتي أُكُلِ حموضةٍ، أو أُكُلِ مرارة[1]. وقال الأخفش: والإضافةُ أحسنُ في كلام العرب، نحو قولهم: ثوبُ خَزٍّ[2].

والخمط [من] اللبن: الحامض. وذكر أبو عبيد: أنَّ اللبن إذا ذهب عنه حلاوةُ الحلَبِ ولم يتغيَّر طعمُه فهو سامِط، وإن أخذ شيئاً من الريح فهو خامِطٌ وخَمِيط، فإن أخذ شيئاً من طعمٍ فهو مُمَحَّل، فإذا كان فيه طعمُ الحلاوة فهو قُوهة[3].

وتَخمَّط الفحل: هَدَر. وتَخمَّط فلانٌ، أي: تغضَّب وتكبَّر. وتخمَّط البحر، أي: الْتَطَم. وخَمَطْتُ الشاةَ أَخْمِطُها خَمْطًا: إذا نزعتَ جلدَها وشويتَها، فهي [خَميطٌ، فإن نزعتَ شعرها وشويتَها فهي] سَميطٌ. والخَمْطة: الخمرُ التي قد أَخذتْ رِيح الإدراك كريحِ التُّفاح ولم تُدْرِك بعدُ. ويقال: هي الحامِضة؛ قاله الجوهريُّ[4]. وقال القُتَبيُّ في «أدب الكاتب»: يقال للحامضة: خَمْطة، ويقال: الخَمْطةُ التي قد أخذت شيئًا من الريح، وأنشد:

عُقَارٌ كماءِ النِّيْءِ ليستْ بخَمْطَةٍ ولا خَلَّةٍ يَكْوي الشُّروبَ شِهابُها[5]

﴿وَأَثْلٍ﴾ قال الفرَّاء: هو شبيهٌ بالطَّرْفاء، إلَّا أنه أعظمُ منه طولاً[6]، ومنه اتُّخذ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٠ .

(٢) الحجة للفارسي ٦/ ١٥ .

(٣) في النسخ عدا (ظ): فوهة، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في الغريب المصنف لأبي عبيد ١/ ٩٥ ، والصحاح (خمط)، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه. قال صاحب اللسان (قوه): ورواه الليث: فُوهة بالفاء، وهو تصحيف. اهـ. والقُوهة: اللبن إذا تغير طعمه قليلاً وفيه حلاوة الحلب. الصحاح (قوه).

(٤) في الصحاح (خمط)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) أدب الكاتب ص ١٦٧ ، والبيت لأبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ص ٧٢ . يقول: هي في لون ماء اللحم النَّيء، وليست كالخمطة التي لم تدرك بعد، ولا كالخَلَّة التي جاوزت القِدر حتى كادت تصبح خلًّا. اللسان (خلل). وقال شارح الديوان: قوله: يكوي الشُّروب، يقول: لها مضٌّ شديد مثل النار. والشروب: النَّدامَى.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩ .

مِنبَرُ النبيِّ ﷺ(١). وللأَثْل أصولٌ غليظةٌ يتَّخذُ منه الأبواب، وورقُه كورق الطَّرْفاء، الواحدةُ: أَثْلَة، والجمع: أَثلات.

وقال الحسن: الأَثْلُ: الخشب. قتادة: هو ضَرْبٌ من الخشب يشبه الطَّرْفاءَ رأيتُه بفَيْد(٢). وقيل: هو السَّمُر(٣).

وقال أبو عبيدة: هو شجر النُّضَار(٤). النُّضار: الذهب. والنُّضار: خشبٌ يعمل منه قِصَاعٌ، ومنه: قَدَحٌ نُضَار(٥).

﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ قال الفَرَّاء: هو السَّمُر؛ ذكره النحاس(٦). وقال الأزهريُّ(٧): السِّدْر من الشجر سِدران: بَرِّيٌّ لا يُنتفع به ولا يصلح وَرَقُه للغَسُول، وله ثمرٌ عَفِصٌ لا يؤكل، وهو الذي يسمَّى الضَّال. والثاني: سِدْرٌ ينبتُ على الماء وثمرُه النَّبْق، وورقُه غَسولٌ يشبه شجر العُنَّاب.

قال قتادة: بينما شجرُ القوم من خيرِ شجرٍ إذ صيَّره الله تعالى من شرِّ الشجر بأعمالهم(٨). فأهلك أشجارهم المثمرة وأَنبتَ بدلها الأراك والطَّرْفاء والسِّدْر.

القُشَيْريُّ: وأشجارُ البوادي لا تسمَّى جنةً وبستاناً، ولكنْ لمَّا وقعت الثانيةُ في

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٠) مختصراً، والبخاري (٣٧٧)، ومسلم (٣٤٤) مطولاً من حديث سهل بن سعد ﷺ. ولفظه عنه أحمد: كان من أثل الغابة، يعني منبر النبيِّ ﷺ. ووقع عند مسلم: ... من طَرْفاءِ الغابة.

(٢) فيد: بليدةٌ في نصف طريق مكة من الكوفة. معجم البلدان ٤/ ٢٨٢.

(٣) جمع سَمُرة بضم الميم: من شجر الطَّلح. اللسان (سمر).

(٤) النُّضَار: أَثْلٌ وَرْسيُّ اللون بغور الحجاز. المعجم الوسيط (نضر).

(٥) من قوله: النُّضار الذهب، إلى هذا الموضع ليس في (د) و(ظ). وقوله: قدح نُضار، قال الجوهري في الصحاح (نضر): يضاف ولا يضاف.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩.

(٧) في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٥٣.

(٨) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٨.

مُقابَلةِ الأولى أطلق لفظ الجنة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]. ويَحتمِلُ أن يرجع قولُه: «قَلِيلٍ» إلى جملةِ ما ذُكر من الخَمْط والأَثْل والسِّدْر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ أي: هذا التبديلُ جزاءُ كُفرِهم. وموضعُ «ذلك» نصبٌ، أي: جزيناهم ذلك بكفرهم. ﴿وهل يُجَازَى إلَّا الكَفُورُ﴾ قراءةُ العامة: «يُجَازَى» بياءٍ مضمومة وزايٍ مفتوحة، «الكَفورُ» رفعًا على ما لم يُسمَّ فاعلُه. وقرأ يعقوبُ وحَفْصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: «نُجازِي» بالنون وكسرِ الزاي، «الكفورَ» بالنصب[(١)]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالا: لأنَّ قبله: «جَزَيناهم» ولم يقل: جُوزُوا. النحاس[(٢)]: والأمرُ في هذا واسعٌ، والمعنى فيه بيِّن، ولو قال قائل: خَلَقَ الله تعالى آدمَ ﷺ من طين، وقال آخر: خُلق آدمُ من طين، لكان المعنى واحداً.

مسألة: في هذه الآيةِ سؤالٌ ليس في هذه السورة أشدُّ منه، وهو أن يقال: لم خصَّ الله تعالى المجازاةَ بالكَفور، ولم يذكر أصحابَ المعاصي؟ فتكلَّم العلماء في هذا؛ فقال قومٌ: ليس يُجازَى بهذا الجزاء الذي هو الاصطلامُ والإهلاك إلَّا مَن كفر[(٣)]. وقال مجاهد: يجازَى بمعنى: يعاقَب[(٤)]، وذلك أن المؤمن يكفِّر الله تعالى عنه سيئاته، والكافر يجازَى بكلِّ سوءِ عَمِلَه؛ فالمؤمنُ يُجْزَى ولا يُجازَى لأنه يثاب. وقال طاوس: هو المناقشةُ في الحساب[(٥)]، وأمَّا المؤمنُ فلا يناقش الحساب.

وقال قُطْرُب خلافَ هذا، فجعلها في أهل المعاصي غير الكفار، وقال: المعنى:

---

(١) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٠، وقوله: الاصطلام، أي: الاستئصال. الصحاح (صلم).

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٩.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٩.

على مَن كَفَر بالنعم وعَمِلَ بالكبائر. النحاس[١]: وأَوْلَى ما قيل في هذه الآيةِ وأَجَلُّ ما رُويَ فيها: أنَّ الحسن قال: مِثْلاً بِمِثْلٍ. وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن حُوسِبَ هَلَك» فقلتُ: يا نبيَّ الله، فأين قولُه جلّ وعزّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]؟ قال: «إنَّما ذلك العَرْضُ، ومَن نُوقِشَ الحسابَ هَلَكَ»[٢]. وهذا إسنادٌ صحيح، وشَرْحُه: أنَّ الكافر يُكافأ على أعماله ويحاسَبُ عليها ويحبط ما عَمِلَ من خير؛ ويبيِّن هذا قولُه تعالى في الأوّل: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ وفي الثاني: ﴿وهل يُجَازَى إِلَّا الكَفُورُ﴾ ومعنى «يُجَازَى»: يكافأ بكلِّ عَمَلٍ عَمِله، ومعنى «جَزَيْنَاهم»: وفَّيناهم، فهذا حقيقةُ اللغة، وإن كان «جازَى» يقع بمعنى «جَزَى» مَجازاً[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قال الحسن: يعني بين اليمن والشام[٤]. والقُرَى التي بورك فيها: الشامُ والأُرْدُنُّ وفِلَسْطين. والبركة: قيل: إنَّها كانت أربعةَ آلافٍ وسبعَ مئة قريةٍ؛ بورك فيها بالشجر والثمر والماء. ويَحتَمِلُ أن يكون: بارَكْنا فيها بكثرة العدد[٥].

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قال ابن عباس: يريد بين المدينة والشام[٦]. وقال قتادة: معنى «ظَاهِرَةً»: متَّصلةً على الطريق، يغدون فيَقِيلون في قرية، ويروحون فيبيتون في قرية[٧].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠ ، وما قبله منه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٠٠)، والبخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١ .

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤١٠ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٤٤ .

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٦٢ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ .

وقيل: كان على كلِّ مِيلٍ قريةٌ بسوق، وهو سببُ أَمْنِ الطريق.

قال الحسن: كانت المرأة تخرج ومعها مِغْزَلُها وعلى رأسها مِكْتَلُها، ثم تَلْتهي بمغزلها فلا تأتي بيتَها حتى يمتلئ مِكْتَلها من كلِّ الثمار، فكان ما بين الشام واليمن كذلك[١].

وقيل: «ظَاهِرَةً» أي: مرتفعةً؛ قاله المبرِّد[٢]. وقيل: إنما قيل لها: «ظَاهِرَةً» لظهورها، أي: إذا خرجْتَ عن هذه ظَهَرتْ لك الأخرى، فكانت قرًى ظاهِرةً، أي: معروفة، يقال: هذا أمرٌ ظاهِر، أي: معروف.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلنا السيرَ بين قُراهم وبين القرى التي باركنا فيها سَيْرًا مقدَّراً من منزلٍ إلى منزلٍ، ومن قريةٍ إلى قرية. الفراء[٣] أي: جعلنا بين كلِّ قريتين نصفَ يوم، حتى يكون المقيلُ في قرية والمبيتُ في قرية أخرى. وإنَّما يبالغ الإنسان في السير لعُدْمِ الزادِ والماء ولخوف الطريق، فإذا وجد الزادَ والأمنَ لم يحمل على نفسه المشقَّةَ ونزل أينما أراد.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ أي: وقلنا لهم: سيروا فيها، أي: في هذه المسافة، فهو أمرُ تمكين، أي: كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين، فهو أمرٌ بمعنى الخبر، وفيه إضمارُ القول.

﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ ظَرْفان ﴿ءَامِنِينَ﴾ نصب على الحال. وقال: «لياليَ وأيَّامًا» بلفظِ النكرة تنبيهاً على قِصَر أسفارهم، أي: كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه. قال قتادةُ: كانوا يسيرون غيرَ خائفين ولا جِيَاعٍ ولا ظِماءٍ[٤]. وكانوا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٣٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٦٢ ، دون قوله: فكان بين الشام واليمن كذلك.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢٥٩ . وقوله: الفراء، ليس في (د) و(م).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤١١ ، وأخرجه مطولاً عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ .

يسيرون مسيرةَ أربعةِ أشهرٍ في أمانٍ لا يحرِّكُ بعضُهم بعضاً، ولو لقي الرجلُ قاتِلَ أبيه لم يحرِّكه[١].

قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ لمَّا بَطِروا وطغَوْا وسئموا الراحةَ ولم يصبروا على العافية، تمنَّوْا طولَ الأسفارِ والكَدْحَ في المعيشة، كقول بني إسرائيل: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا﴾ الآية [البقرة: ٦١]. وكالنضر بن الحارث حين قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فأجابه الله تبارك وتعالى، وقُتل يومَ بدرٍ بالسيف صَبْرًا. فكذلك هؤلاء تبدَّدوا في الدنيا ومُزِّقوا كلَّ مُمَزَّق، وجُعل بينهم وبين الشام فَلَواتٍ ومَفَاوِزَ يركبون فيها الرَّوَاحلَ ويتزوَّدون الأَزْوادَ.

وقراءةُ العامَّةِ: ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على أنه نداءٌ مضاف، وهو منصوبٌ لأنه مفعولٌ به؛ لأنَّ معناه: ناديْتُ ودعَوْت[٢]. ﴿بَٰعِدۡ﴾ سألوا المباعَدةَ في أسفارهم. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ محيْصِنٍ وهشامٌ عن ابن عامر: ﴿رَبَّنَا﴾ كذلك على الدعاء ﴿بعِّد﴾ من التبعيد[٣]. النحاس[٤]: وباعِدْ وبعِّدْ واحدٌ في المعنى، كما تقول: قارِبْ وقَرِّبْ.

وقرأ أبو صالح ومحمد ابن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب، ويُروى عن ابن عباس: ﴿رَبُّنا﴾ رفعاً ﴿باعَدَ﴾ بفتح العين والدال على الخبر[٥]،

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٤٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٢ .

(٣) السبعة ص ٥٢٩ ، والتيسير ص ١٨١ عن ابن كثير وأبي عمرو وهشام.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٢ .

(٥) النشر ٢/ ٣٥٠ عن يعقوب، وهو من العشرة. والمحتسب ٢/ ١٨٩ عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية وأبي صالح ويعقوب وأبي رجاء وسلام والحسن ـ بخلاف ـ وابن أبي ليلى والكلبي.

تقديره: لقد باعَدَ ربُّنا بين أسفارنا، كأنَّ الله تعالى يقول: قَرَّبْنا لهم أسفارَهم فقالوا أَشَرًا وَبَطَرًا: لقد بُوعِدَتْ علينا أسفارُنا. واختار هذه القراءةَ أبو حاتم قال: لأنَّهم ما طلبوا التبعيدَ إنَّما طلبوا أقربَ من ذلك القربِ بَطَرًا وعُجْبًا مع كفرهم.

وقرأ يحيى بن يَعْمر وعيسى بن عمر؛ وتُروى عن ابن عباس: «ربُّنا بَعَّدَ بينَ أسفارِنَا» بشدِّ العين من غير ألف، وفسَّرها ابن عباس قال: شَكَوْا أنَّ ربَّهم باعَدَ بين أسفارهم[١].

وقراءةُ سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصريِّ: «ربَّنا بَعُدَ بَيْنُ أسفارِنا»، «رَبَّنَا» نداءٌ مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: «بَعُدْ بينُ أَسْفَارِنَا»، ورُفع «بينُ» بالفعل، أي: بعُدَ ما يتَّصلُ بأسفارنا[٢].

وروى الفرَّاء وأبو إسحاقَ قراءةً سادسةً مثلَ التي قبلَها في ضمِّ العين إلَّا أنَّك تنصبُ «بينَ» على أنه ظرفٌ، وتقديره في العربية: بَعُدَ سيرُنا بينَ أسفارِنا. النحاس[٣]: وهذه القراءاتُ إذا اختلفت معانيها لم يَجُزْ أن يقال: إحداها أجودُ من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكنْ خبَّر عنهم أنهم دَعَوْا ربَّهم أن يبعِّد بين أسفارهم بَطَرًا وَأَشَرًا، وخبَّر عنهم أنهم لمَّا فعل ذلك بهم خبَّروا به وشَكَوْا، كما قال ابن عباس.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: بكفرهم ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ أي: يُتحدَّث بأخبارهم، وتقديرُه في العربية: ذوي أحاديث .﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ أي: لمَّا لَحِقهم ما لَحِقَهُم تَفرَّقوا وتَمزَّقوا. قال الشعبيُّ: فلحقت الأنصارُ بيَثْرِب، وغسَّان بالشام، والأَسْدُ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤٢، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٨٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤٢، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٨٩.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٢ - ٣٤٣، وما قبله منه. والقراءة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩ - ٣٦٠، وللزجاج ٤/ ٢٥٠. (وهو أبو إسحاق).

بعُمَان، وخُزاعةُ بتِهامة[١]، وكانت العرب تضربُ بهم المثلَ فتقول: تفرَّقوا أيدي سبا، وأيادي سبا، أي: مذاهبَ سبأ وطرقَها[٢].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصبَّار: الذي يصبرُ عن المعاصي، وهو تكثيرُ صابرٍ، تمدح بهذا الاسم. فإنْ أردتَ أنه صَبَر عن المعصية لم يُستعمل فيه إلَّا صبَّار عن كذا. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه؛ وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ فيه أربعُ قراءات: قرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر، ويروى عن مجاهد: ﴿ولقد صَدَقَ عليهم﴾ بالتخفيف ﴿إِبْلِيسُ﴾ بالرفع ﴿ظَنَّهُۥ﴾ بالنصب[٤]، أي: في ظنِّه. قال الزجَّاج: وهو على المصدر، أي: صَدَقَ عليهم ظنًّا ظنَّه إذ صَدَق في ظنِّه[٥]. فنُصب على المصدر أو على الظَّرف.

وقال أبو عليّ: «ظنَّه» نصب لأنه مفعولٌ به، أي: صَدَق الظنَّ الذي ظنَّه؛ إذ قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] وقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢][٦]. ويجوزُ تعديةُ الصدق إلى المفعول به؛ ويقال: صَدَقَ الحديثَ، أي: في الحديث.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ والطبري ١٩/ ٢٦٧، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤١٠، وسلف ٢٩٢ من هذا الجزء.

(٣) ٢/ ٦٥ و١٠٤.

(٤) السبعة ص ٥٢٩، والتيسير ص ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥١ - ٢٥٢، وفيه: وصدق في ظنه، بدل: إذ صدق ...، والمعنى على هذا التأويل: أنه ظن بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه، فوجدهم كذلك. حجة القراءات لابن زنجلة ص٥٨٩.

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٢٠.

وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثَّاب والأعمش وعاصم وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿صَدَّقَ﴾ بالتشديد ﴿ظَنَّهُۥ﴾ بالنصب(١) بوقوع الفعل عليه. قال مجاهد: ظنَّ ظنًّا، فكان كما ظنَّ، فصدَّق ظنَّه(٢).

وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهجهاج: «صَدَقَ عليهم» بالتخفيف «إبليسَ» بالنصب «ظنُّه» بالرفع. قال أبو حاتم: لا وجهَ لهذه القراءةِ عندي، والله تعالى أعلم. وقد أجاز هذه القراءةَ الفرَّاءُ، وذكرها الزجاج، وجَعَلَ الظنَّ فاعلَ «صَدَق» و«إبليسَ» مفعولاً به، والمعنى: أنَّ إبليس سوَّل له ظنُّه فيهم شيئاً، فصدَق ظنُّه، فكأنه قال: ولقد صدَق عليهم ظنُّ إبليسَ(٣).

و«على» متعلِّقةٌ بـ«صدق»، كما تقول: صدقتُ عليك فيما ظَنَنْتُهُ بك، ولا تتعلَّق بالظنِّ لاستحالة تقدُّم شيءٍ من الصلة على الموصول(٤).

والقراءةُ الرابعة: «ولقد صَدَقَ عليهم إبليسُ ظنُّه» برفعِ إبليس والظنّ، مع التخفيف في «صَدَقَ» على أن يكون «ظنُّه» بدلاً من «إبليس»، وهو بدلُ الاشتمال(٥).

ثم قيل: هذا في أهل سبأ، أي: كَفَروا وغيَّروا وبدَّلوا بعد أن كانوا مسلمين، إلَّا قوماً منهم آمنوا برسلهم. وقيل: هذا عامٌّ، أي: صدق إبليسُ ظنَّه على الناس كلِّهم إلَّا مَن أطاع الله تعالى؛ قاله مجاهد(٦).

وقال الحسن: لمَّا أُهبط آدمُ عليه السلام من الجنة ومعه حوَّاءُ وهبط إبليس، قال

---

(١) السبعة ص ٥٢٩، والتيسير ص ١٨١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣، وأخرج الطبري ١٩/ ٢٧٠ قول مجاهد بلفظ: ظنَّ ظنًّا، فاتَّبعوا ظنَّه.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٠، وللزجاج ٤/ ٢٥٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٩١ عن أبي الهجهاج والزهري.

(٤) المحتسب ٢/ ١٩١.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٧، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٩.

(٦) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٥.

إبليس: أمَا إذ أَصَبْتُ من الأبوين ما أَصَبْتُ فالذرِّيةُ أضعفُ وأَضْعفُ! فكان ذلك ظنًّا من إبليس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾[١].

وقال ابن عباس: إنَّ إبليس قال: خُلقتُ من نارٍ، وخُلق آدمُ من طينٍ، والنارُ تُحرِقُ كلَّ شيءٍ ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] فصدَّق ظنَّه عليهم[٢].

وقال زيد بن أسلمَ: إنَّ إبليس قال: يا ربّ، أرأيتَ هؤلاء الذين كرَّمتهم وشرَّفتهم وفضَّلتهم عليَّ، لا تَجدُ أكثرهم شاكرين، ظنًّا منه، فصدَّق عليه إبليس ظنَّه[٣].

وقال الكلبيُّ: إنَّه ظنَّ أنَّه إنْ أَغْواهُم أجابوه، وإن أضلَّهم أطاعوه، فصدق ظنه[٤].

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ قال الحسن: ما ضَرَبَهم بسوطٍ ولا بِعصاً، وإنَّما ظنَّ ظنًّا، فكان كما ظنَّ بوسوسته[٥].

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نصب على الاستثناء، وفيه قولان: أحدُهما: أنه يراد به بعضُ المؤمنين؛ لأنَّ كثيرًا من المؤمنينَ مَن يُذْنبُ وينقادُ لإبليسَ في بعض المعاصي، أي: ما سَلِمَ من المؤمنين أيضًا إلَّا فريقٌ، وهو المعنيُّ[٦] بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]. فأمَّا ابنُ عباسٍ فعنه أنه قال: هم المؤمنون كلُّهم[٧]، فـ «من» على هذا للتبيين لا للتبعيض.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧، وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧، وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٤.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٢٧٠.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٤، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠، والطبري ١٩/ ٢٧١.

(٦) في (ظ): وهم المعنيون.

(٧) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٤.

فإن قيل: كيف عَلِمَ إبليسُ صِدْقَ ظنِّه وهو لا يَعْلَمُ الغيبَ؟

قيل له: لمَّا نَفَذَ له في آدمَ ما نَفَذَ، غَلَبَ على ظنِّه أنه يَنْفُذُ له مثلُ ذلك في ذرِّيَّته، وقد وقع له تحقيقُ ما ظنّ.

وجوابٌ آخَرُ: وهو ما[1] أجيبَ به من قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] فأُعطيَ القوةَ والاستطاعة، فظنَّ أنَّه يملكهم كلَّهم بذلك، فلمَّا رأى أنه تاب على آدمَ، وأنه سيكون له نسلٌ يتبعونه إلى الجنة، وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] علم[2] أنَّ له تَبَعًا ولآدمَ تبعًا، فظنَّ أنَّ تَبَعَه أكثرُ من تَبَع آدم؛ لمَا وُضع في يديه من سلطان الشهوات، ووضعت الشهواتُ في أجواف الآدميين، فخرج على ما ظنَّ حيث نفخ فيهم وزيَّن في أعينهم تلك الشهوات، ومدَّهم إليها بالأماني والخدائع، فصدق عليهم الظن الذي ظنَّه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: لم يَقْهَرْهم إبليسُ على الكفر، وإنَّما كان منه الدعاءُ والتزيين. والسلطان: القوة، وقيل: الحُجَّة، أي: لم تكن له حُجَّةٌ يَستَتْبِعُهُم بها، وإنَّما اتَّبعوه بشهوةٍ وتقليدٍ وهَوَى نَفْسٍ، لا عن حجةٍ ودليل.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يريد علمَ الشهادة الذي يقع به الثوابُ والعقاب، فأمَّا الغيبُ فقد عَلِمَه تبارك وتعالى. ومذهبُ الفرَّاء[3] أنْ يكون المعنى: إلَّا لنعلم ذلك عندكم، كما قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [فصلت: ٤٧] أي: على قولكم[4] وعندكم.

(١) قبلها في (د) و(ظ): أن.

(٢) في النسخ الخطية: فعلم، والمثبت من (م).

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٠ - ٣٦١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٤.

(٤) في (ظ): زعمكم.

وليس قولُه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ جوابَ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ في ظاهره، إنَّما هو محمولٌ على المعنى، أي: وما جعلنا له عليهم سلطاناً إلّا لنَعْلَمَ، فالاستثناء مُنْقَطِعٌ، أي: لا سلطانَ له عليهم ولكنَّا ابتليناهم بوسوسته لنَعْلَم، فـ«إلّا» بمعنى لكنْ.

وقيل: هو متَّصلٌ، أي: ما كان له عليهم من سلطانٍ، غيرَ أنَّا سلَّطناه عليهم ليتمَّ الابتلاء.

وقيل: «كان» زائدة، أي: ومالَه عليهم من سلطان، كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: أنتم خيرُ أمَّة.

وقيل: لمَّا اتَّصل طرفٌ منه بقصةِ سبأ قال: وما كان لإبليسَ على أولئك الكفار من سلطان.

وقيل: وما كان له في قضائنا السابقِ سلطانٌ عليهم.

وقيل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: إلَّا لنُظْهِر[1]، وهو كما تقول: النارُ تُحرِقُ الحطبَ، فيقول آخر: لا بل الحطبُ يُحرق النار. فيقول الأول: تعالَ حتى نجرِّب النارَ والحطب لنَعْلَم أيهما يُحرِقُ صاحبه، أي: لنُظهِر ذلك، وإن كان معلوماً لهم ذلك.

وقيل: إلّا لتعلموا أنتم. وقيل[2]: أي: ليعلم أولياؤنا والملائكةُ، كقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣] أي: يحاربون أولياءَ الله ورسوله.

وقيل: أي: لنميز، كقوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[3] وغيرها.

وقرأ الزُّهريُّ: «إلّا لِيُعْلَمَ»، على ما لم يسمَّ فاعلُه[4].

---

(١) في (ظ): ليظهر (في الموضعين).

(٢) قبلها في (د): وقيل أي ليعلم على ما لم يسم فاعله. وهي قراءة كما سيرد.

(٣) ٢/ ٤٣٨ .

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٢ ، والمحتسب ٢/ ١٢١ ، والكشاف ٣/ ٢٨٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧ .

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: إنه عالمٌ بكلِّ شيء. وقيل: يحفظ كلَّ شيء على العبد حتى يجازيَه عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي مضى ذِكْرُهُ من أمر داودَ وسليمانَ وقصةِ سبأ من آثارِ قُدْرَتي، فقُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين: هل عند شُرَكائِكم قدرةٌ على شيءٍ من ذلك. وهذا خطابُ توبيخٍ، وفيه إضمارٌ، أي: ادعوا الذين زعمتُم أنَّهم آلهةٌ لكم من دون الله لِتَنْفعَكم، أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم، فإنهم لا يملكون ذلك[1]، و﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: ما لله مِن هؤلاء مِن مُعينٍ على خَلْقِ شيء، بل الله المنفردُ بالإيجاد، فهو الذي يُعبَد، وعبادةُ غيرِه مُحال.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ أي: شفاعةُ الملائكةِ وغيرِهم ﴿عِندَهُۥٓ﴾ أي: عندَ الله ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ قراءةُ العامة: ﴿أَذِنَ﴾ بفتح الهمزة؛ لذكر الله تعالى أولاً. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيّ: ﴿أُذِنَ﴾ بضمِّ الهمزةِ على ما لم يسمَّ فاعلُه[2]. والآذِنُ هو الله تعالى. و«مَن» يجوز أن ترجع إلى الشافِعِينَ، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: جُلِّي[3] عن قلوبهم الفزعُ. قُطْرُب:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٥.

(٢) السبعة ص ٥٢٩، والتيسير ص ١٨١.

(٣) في (د) و(م): خلي، ولفظة: الفزع (الآتية) ليست في (ظ).

أُخرجَ ما فيها من الخوف. مجاهد: كُشِفَ عن قلوبهم الغطاءُ يومَ القيامة[١]. أي: إنَّ الشفاعة لا تكون من أحدٍ من هؤلاء المعبودِينَ من دون الله، من الملائكة والأنبياء والأصنام، إلَّا أنَّ الله تعالى يأذنُ للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غايةِ الفزع من الله، كما قال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

والمعنى: أنه إذا أَذِنَ لهم في الشفاعة ووَرَدَ عليهم كلامُ الله فَزِعوا؛ لِمَا يقترن بتلك الحالِ من الأمر الهائل والخوفِ أن يقع في تنفيذ ما أَذِنَ لهم فيه تقصيرٌ، فإذا سُرِّيَ عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يُوْرِدون عليهم الوحيَ بالإذن: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: ماذا أمر الله به؟ فيقولون لهم: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ وهو أنْ أَذِنَ لكم في الشفاعة للمؤمنين ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فله أن يحكُم في عباده بما يريد. ثم يجوز أن يكون هذا إذناً لهم في الدنيا في شفاعة أقوام، ويجوز أن يكون في الآخرة.

وفي الكلام إضمارٌ، أي: ولا تنفع الشفاعةُ عنده إلَّا لمن أَذِنَ له، ففَزِعَ لِمَا ورد عليه من الإذن تهيُّبًا لكلامِ الله تعالى، حتى إذا ذهب الفزعُ عن قلوبهم أجاب بالانقياد.

وقيل: هذا الفزعُ يكون اليومَ للملائكة في كلِّ أمرٍ يأمرُ به الربُّ تعالى، أي: لا تنفع الشفاعةُ إلَّا مِن الملائكة الذين هم اليومَ فَزِعون مُطيعون لِله تعالى، دون الجماداتِ والشياطين. وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا قضى الله في السماء أمرًا ضربت الملائكة بأجنحتها خَضَعانًا لقوله، كأنها[٢] سلسلةٌ على صَفْوانٍ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحقَّ وهو العليُّ الكبير، قال: والشياطينُ بعضُهم فوقَ بعض» قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[٣].

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٤٨ ، وأخرج قول ابن عباس ومجاهد الطبري ١٩/٢٧٥ .

(٢) في (ظ): كأنه، وهو موافق لرواية البخاري على ما يأتي.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٢٣)، وأخرجه البخاري (٤٨٠٠) مطولاً. قوله: خضعاناً بفتحتين، وفي رواية: =

وقال النوَّاس بن سمعان: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله إذا أراد أن يُوحيَ بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذت السماوات منه رَجْفةٌ ـ أو [قال:] رِعْدةٌ ـ شديدةٌ خوفاً من الله تعالى، فإذا سمع أهلُ السماوات ذلك صَعِقوا، وخَرُّوا لله تعالى سُجَّدًا، فيكونُ أولَ مَن يَرْفَعُ رأسَه جبريل، فيكلِّمه الله تعالى ويقول له من وحْيه ما أراد، ثم يمرُّ جبريل بالملائكة، كلَّما مرَّ بسماءٍ سأله ملائكتُها: ماذا قال ربُّنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحقَّ وهو العليُّ الكبير، قال: فيقولُ كلُّهم كما قال جبريلُ فينتهي جبريلُ بالوحي حيث أَمَرَه الله تعالى»(١).

وذكر البيهقيُّ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال: كان لكلِّ قبيلٍ من الجنِّ مقعدٌ من السماء يستمعون منه الوحي، وكان إذا نزل الوحيُ سُمع له صوتٌ كإمرارِ السلسلةِ على الصَّفْوان، فلا ينزل على أهل سماءٍ إلَّا صَعِقوا، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العليُّ الكبير، ثم يقول: يكون العامَ كذا ويكون كذا. فتسمعه الجنُّ فيخبرون به الكهنة فتقول الكهنةُ للناس: يكون العامَ كذا وكذا، فيجدونه كذلك، فلمَّا بعث الله محمداً ﷺ دُحروا بالشُّهب، فقالت العرب حين لم تُخْبِرهم الجنُّ بذلك: هَلَكَ مَن في السماء، فجعل صاحب الإبل يَنحرُ كلَّ يومٍ بعيراً، وصاحبُ البقر ينحر كلَّ يومٍ بقرةً، وصاحبُ الغنم ينحر كلَّ يومٍ شاةً، حتى أسرعوا في أموالهم، فقالت ثَقيف وكانت أَعْقَلَ العرب: أيها الناس، أَمْسِكوا على أموالكم، فإنَّه لم يَمُتْ مَن في السماء، وإنَّ هذا ليس بانتثار، ألستُم تَرَوْنَ

= بضم أوله وسكون ثانيه، وهو مصدر بمعنى خاضعين. قوله: كأنه (وهي رواية البخاري)، أي: الصوت المسموع مثل جر السلسلة من الحديد، على الصفوان الذي هو الحجر الأملس. ينظر الفتح ٨/ ٥٣٨، وتحفة الأحوذي ٩/ ٩٠.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٥١٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص ١٤٤، والطبري ١٩/ ٢٧٨، والآجري في الشريعة ص ٢٩٤، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٣٥)، وما بين حاصرتين من المصادر. وفي إسناده نعيم بن حماد، قال الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ كثيراً. وذكر أبو زرعة الدمشقي في تاريخه ١/ ٦٢١ أنه عرض هذا الحديث على عبد الرحمن بن إبراهيم (وهو دحيم) فقال: لا أصل له.

مَعالِمَكم من النجوم كما هي، والشمسَ والقمرَ والليلَ والنهار؟! قال: فقال إبليس: لقد حدث اليومَ في الأرض حَدَث، فائْتوني مِن تربةِ كلِّ أرضٍ، فأَتَوْه بها فجعل يَشَمُّها، فلمَّا شمَّ تربةَ مكةَ قال: مِن ها هنا جاء الحَدَث، فنصتوا فإذا رسولُ الله ﷺ قد بُعث[(١)]. وقد مضى هذا المعنى مرفوعاً مختصراً في سورة الحجر[(٢)]، ومضى القولُ أيضاً في رَمْيِهم بالشهب وإحراقِهم بها، ويأتي في سورة الجنِّ[(٣)] بيانُ ذلك إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنَّما يفزعون من قيام الساعة.

وقال الكلبيُّ وكعب: كان بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام فَتْرةٌ، خمسُ مئةٍ وخمسون سنةً لا يَجيءُ فيها الرسل، فلمَّا بعث الله تعالى محمداً ﷺ كلَّم الله تعالى جبريلَ بالرسالة، فلمَّا سمعت الملائكةُ الكلامَ ظنُّوا أنَّها الساعةُ قد قامت، فصَعِقوا ممَّا سمعوا، فلمَّا انحدر جبريلُ عليه السلام جعل يمرُّ بكلِّ سماءٍ فيكشفُ عنهم، فيرفعون رؤوسَهم ويقول بعضُهم لبعضٍ: ماذا قال ربكم؟ فلم يَدْروا ما قال، ولكنهم قالوا: قال الحقَّ وهو العليُّ الكبير، وذلك أنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام عند أهل السماوات من أشراط الساعة[(٤)].

وقال الضحاك: إنَّ الملائكةَ المعقِّباتِ الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الربُّ تبارك وتعالى، فإذا انحدروا سُمع لهم صوتٌ شديدٌ، فيحسبُ الذين هم أسفلُ من الملائكة أنه من أمر الساعة، فَيَخِرُّون سُجَّداً ويصعقون،

---

(١) لم نقف عليه عند البيهقي، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٥٢٦ - ٥٢٧ ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٣٦ وعزاه للبيهقي وابن أبي شيبة وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل. وهو من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعطاء بن السائب اختلط، وفي سماع حماد بن سلمة منه قبل الاختلاط أو بعده خلاف.

(٢) ١٢/ ١٩٠ .

(٣) عند تفسير الآية (٩) منها.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧ عن مقاتل والكلبي والسدي.

حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة[١].

وهذا تنبيهٌ من الله تعالى وإخبارٌ أنَّ الملائكة مع اصطفائهم ورِفْعَتِهِم لا يُمكِنُهم[٢] أنْ يَشْفَعوا لأحدٍ حتى يؤذنَ لهم، فإذا أُذن لهم وسَمعوا صَعِقوا وكانت هذه حالُهم، فكيف تشفع الأصنامُ، أو كيف تؤمِّلون أنتم الشفاعةَ ولا تعترفون بالقيامة.

وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كُشفَ الفزع عن قلوب المشركين عند[٣] نزول الموت، إقامةً للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحقَّ وهو العليُّ الكبير، فأَقرُّوا حين لا ينفعهم الإقرار[٤]، أي: قالوا: قال الحق.

وقراءةُ العامة: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾. وقرأ ابن عباس: ﴿فَزَّعَ عن قلوبهم﴾ مسمَّى الفاعل[٥]، وفاعلُه ضميرٌ يَرجِعُ إلى اسم الله تعالى. ومَن بناه للمفعول فالجارُّ والمجرورُ في موضعِ رفعٍ، والفعلُ في المعنى لله تبارك وتعالى. والمعنى في القراءتين: أُزيل الفزعُ عن قلوبِهِم، حَسْبَمَا تقدَّم بيانُه[٦]. ومثله: أَشْكَاه: إذا أَزالَ عنه ما يشكُوه.

وقرأ الحسن: «فُزِع» مثلَ قراءةِ العامة، إلَّا أنه خفَّفَ الزاي، والجارُّ والمجرورُ

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٨١ بنحوه من طريق الضحاك عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) في (م): لا يمكن.

(٣) قبلها في (د) و(ظ) و(م): قال الحسن ومجاهد وابن زيد في الآخرة، وسقط هذا الموضع من (خ) و(ز)، والمثبت من تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧، والكلام منه.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧ - ٥٥٨، إلا أنه لم يذكر مجاهداً، وأخرجه عن ابن زيد الطبري ١٩/ ٢٨١. ولم نقف عليه عن مجاهد.

(٥) قرأ: «فزَّع» بفتح الفاء والزاي ابن عامر من السبعة، والباقون بضم الفاء وكسر الزاي. السبعة ص٥٣٠، والتيسير ص ١٨١. وذكرها عن ابن عباس النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٥ وزاد نسبتها لابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد.

(٦) ص٣٠٧-٣٠٨ من هذا الجزء.

في موضع رفعٍ أيضاً، وهو كقولك: انْصُرِفَ عن كذا إلى كذا. وكذا معنى «فُرِغَ» بالراء والغَيْنِ المعجَمَةِ والتخفيفِ غير مسمَّى الفاعل، رُويت عن الحسن أيضاً وقتادة[١]. وعنهما أيضًا «فرَغَ» بالراء والغين المعجمة مسمَّى الفاعل، والمعنى: فَرَغَ الله تعالى قلوبَهم، أي: كَشَفَ عنها، أي: فَرغَها من الفزع والخوف، وإلى ذلك يَرجعُ البناء للمفعول على هذه القراءة. وعن الحسن أيضاً «فرّغ» بالتشديد[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لمَّا ذَكر أنَّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرةٍ ممَّا يَقدِرُ عليه الربُّ، قرَّر ذلك فقال: قُلْ يا محمدُ للمشركين: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مَن يخلقُ لكم هذه الأرزاقَ الكائنةَ من السماوات، أي: عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع. «وَالْأَرْضِ» أي: الخارجة من الأرض، عن الماء والنبات. أي: لا يمكنُهم أن يقولوا: هذا فِعْلُ آلهتنا. فيقولون: لا ندري. فقل: إنَّ الله يفعل ذلك، الذي يعلم ما في نفوسكم. وإن قالوا: اللهُ يرزقنا، فقد تقرَّرت الحجة بأنه الذي ينبغي أن يُعبد.

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا على وجهِ الإنصاف في الحُجَّة، كما يقول القائل: أحدُنا كاذب، وهو يعلم أنه صادقٌ، وأنَّ صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمرٍ واحد، بل على أمرين متضادَّين، وأحدُ الفريقين مهتدٍ وهو نحن، والآخَرُ ضالٌّ وهو أنتم. فكذَّبهم بأَحْسَنَ من تصريح التكذيب، والمعنى: أنتم الضالُّون حين أشركتُم بالذي يرزقكم من السماوات والأرض.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩١ - ١٩٢.

(٢) يعني بضم الفاء وبفتحها، ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٥ - ٣٤٦، والمحتسب ٢/ ١٩١-١٩٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٩، والدر المصون ٩/ ١٨٢.

«أو إياكم» معطوفٌ على اسم «إنَّ»، ولو عُطِفَ على الموضع لكان: «أو أنتم» ويكون «لَعَلَى هُدًى» للأول لا غير. وإذا قلت: «أو إِيَّاكُمْ» كان للثاني أوْلى، وحَذَفْتَ من الأول، ويجوز أن يكون للأول، وهو اختيارُ المبرِّد. قال: ومعناه معنى قولِ المستَبْصِرِ لصاحبه على صحة الوعيدِ والاستظهارِ بالحجة الواضحة: أحدُنا كاذب، وقد عرف المعنى، كما تقول: أنا أَفْعَلُ كذا وتَفْعَلُ أنت كذا وأحدُنا مخطئ، وقد عرف أنه هو المخطئ، وهكذا: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

و«أو» عند البَصْريين على بابها وليست للشك، لكنَّها على ما تستعملُه العرب في مثل هذا إذا لم يُرِدِ المخبِرُ أنْ يبين وهو عالمٌ بالمعنى. وقال أبو عبيدةَ والفرَّاءُ: هي بمعنى الواو، وتقديره: وإنا على هدى وإياكم في ضلال مبين[2]، وقال جرير:

أثعلبةَ الفوارسَ أو رياحاً ... عدلْتَ بهم طُهَيَّةَ والرِّبابا[3]

يعني: أثعلبة ورياحاً. وقال آخر:

فلمَّا اشتدَّ أمرُ الحربِ فينا ... تأمَّلْنا رياحاً أو رِزاما[4]

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ أي: اكتسَبْنا ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ نحن أيضاً

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٤٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٢، ونقله الفراء عن المفسرين وقال: وهو في المعنى كذلك، غير أن العربية على غير ذلك؛ لا تكون أو بمنزلة الواو. وكذلك قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٣، قال: وهذا في اللغة غير جائز، ولكنه في التفسير يؤول إلى هذا المعنى. قال الفراء: والمعنى في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾: إنا لضالون أو مهتدون، وإنكم لضالون أو مهتدون، وهو يعلم أن رسوله المهتدي، وأن غيره الضال. وهذا كما تقول للرجل: إن أحدنا لكاذب، فكذبته تكذيباً غير مكشوف.

(٣) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٨١٤، والكتاب ١/ ١٠٢ و٣/ ١٨٣، ومجاز القرآن ٢/ ١٤٨، والخزانة ١١/ ٦٩. ووقع فيها جميعاً: والخِشَابا، بدل: والربابا. قال البغدادي: أي: عدلتَ هاتين القبيلتين بهاتين القبيلتين!.

(٤) لم نقف عليه.

﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنَّما أقصدُ بما أدعوكم إليه الخيرَ لكم، لا أنَّه ينالُني ضررُ كُفْرِكم، وهذا كما قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] واللهُ مُجازي الجميع. فهذه آيةُ مُهادَنَةٍ ومُتارَكَةٍ، وهي منسوخةٌ بالسيف. وقيل: نزل هذا قبل آيةِ السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يريد يومَ القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقضي، فيثيبُ المهتدي ويعاقب الضالَّ ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ أي: القاضي بالحقِّ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال الخَلْق. وهذا كلُّه منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِىَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِىَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يكون «أَروني» هنا من رؤية القلب، فيكون «شركاءَ» المفعولَ الثالث، أي: عرِّفوني هذه الأصنامَ والأوثانَ التي جعلتموها شركاءَ لِلهِ عز وجل، هل شارَكَتْ في خَلْقِ شيء، فبيِّنوا ما هو؟ وإلَّا فَلِمَ تَعبُدونها؟ ويجوز أن يكونَ من رؤية البصر، فيكونُ «شركاءَ» حالاً[1].

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم. وقيل: إنَّ «كلَّا» ردٌّ لجوابهم المحذوفِ، كأنه قال: أَروني الذين ألحقتُم به شركاء. قالوا: هي الأصنامُ. فقال: كلَّا، أي: ليس له شركاء ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: وما أرسلناك

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٧.

إِلَّا للناس كافةً، أي: عامَّةً، ففي الكلام تقديمٌ وتأخير. وقال الزجَّاج: أي: وما أرسلناك إلَّا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ[١]. والكافةُ بمعنى الجامع.

وقيل: معناه: كافًّا للناس، تَكفُّهم عمَّا هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام. والهاءُ للمبالغة. وقيل: أي: إلَّا ذا كافَّةٍ. فحذف المضاف، أي: ذا منعٍ للناس من أن يَشِذُّوا عن تبليغك، أو ذا منعٍ لهم من الكفر، ومنه: كفَّ الثوبَ؛ لأنَّه ضمَّ طرفيه.

﴿بَشِيرًا﴾ أي: بالجنة لمَن أطاع. ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لِمَن كَفر. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما عندَ الله، وهم المشركون، وكانوا في ذلك الوقتِ أكثرَ من المؤمنين عدداً.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يعني موعدكم لنا بقيام الساعة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. فقال الله تعالى: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ فلا يغرَّنَّكم تأخيرُه. والميعادُ: الميقات. ويعني بهذا الميعادِ وقتَ البعث. وقيل: وقتَ حضورِ الموت، أي: لكم قبلَ يومِ القيامة وقتٌ معيَّنٌ تموتون فيه، فتعلمون حقيقةَ قولي.

وقيل: أراد بهذا اليوم يومَ بدر؛ لأنَّ ذلك اليومَ كان ميعادَ عذابِهم في الدنيا في حُكْمِ الله تعالى.

وأجاز النحويون: «ميعادُ يومٌ» على أن يكون «ميعادٌ» ابتداءً، و«يومٌ» بدلاً منه، والخبر: «لكم». وأجازوا «ميعادٌ يوماً» يكون ظرفاً، وتكون الهاء في «عنه» ترجع إلى «يوم». ولا يصح: «ميعادُ يومَ لا تستأخرون» بغير تنوين وإضافة «يومَ» إلى ما بعده؛ إذا قدَّرتَ الهاء عائدةً على اليوم؛ لأنَّ ذلك يكون من إضافة الشيء إلى نفسه من أَجْلِ الهاء التي في الجملة. ويجوز ذلك على أن تكون الهاءُ للميعاد لا لليوم[٢].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٤، وتعقبه أبو حيان في البحر ٧/ ٢٨١ بأنَّ «كفَّ» ليس بمحفوظ أنَّ معناه: جمع. والمحفوظ في معناه: منع، والمعنى: إلا مانعاً لهم من الكفر. وينظر الدر المصون ٩/ ١٨٥.

(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٨، وقال السمين في الدر =

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يريد كفارَ قريش ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال سعيدٌ عن قتادة: «ولا بالذي بين يديه» من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام[1]. وقيل: من [أمر] الآخرة. وقال ابن جُريج: قائلُ ذلك أبو جهل بن هشام[2].

وقيل: إنَّ أهلَ الكتاب قالوا للمشركين: صفةُ محمدٍ في كتابنا فَسَلُوه، فلمَّا سألوه فوافَقَ ما قال أهلُ الكتاب، قال المشركون: لن نؤمنَ بهذا القرآنِ ولا بالذي قبلَه من التوراة والإنجيل، بل نكفرُ بالجميع، وكانوا قبل ذلك يراجعون أهلَ الكتاب ويَحتجُّون بقولهم، فظَهر بهذا تَناقضُهم وقلةُ عِلْمِهم.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم في مآلهم[3]، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمدُ ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محبوسون في موقف الحساب، يتراجعون الكلامَ فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أَخِلَّاءَ متناصِرين. وجوابُ «لو» محذوفٌ، أي: لرأيتَ أمراً هائلاً فظيعاً.

= المصون ٩/ ١٨٩ : نصُّوا على أن الظرف إذا أضيف إلى جملة لم يَعُد منها إليه ضمير إلا في ضرورة. وقد قرئ بجميع ما سلف من وجوه. ينظر الكشاف ٣/ ٢٩٠ ، والبحر ٧/ ٢٨٢ .

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥١ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): فيما لهم.

ثم ذَكَر أيَّ شيءٍ يرجع من القول بينهم فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ في الدنيا من الكافرين ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم القادةُ والرؤساء: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أغْوَيْتُمونا وأَضْلَلْتُمونا. واللغةُ الفصيحة: «لولا أنتم»، ومن العرب مَن يقول: «لولاكم» حكاها سيبويه؛ تكون «لولا» تَخْفضُ المضمَرَ، ويرتفع المُظْهَرُ بعدها بالابتداء ويُحذف خبره. ومحمد بن يزيد يقول: لا يجوزُ «لولاكم»؛ لأنَّ المضمَر عَقيبُ المُظْهَرِ، فلمَّا كان المظهرُ مرفوعاً بالإجماع، وجب أن يكون المضمَرُ أيضاً مرفوعاً[1].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ هو استفهامٌ بمعنى الإنكار، أي: ما رَدَدْناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم. ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين مصرِّين على الكفر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ المكرُ أصلُه في كلام العرب: الاحتيالُ والخديعة. وقد مَكَرَ به يَمكُرُ، فهو ماكر ومَكَّار. قال الأخفش[2]: هو على تقدير: هذا مَكْرُ الليل والنهار. قال النحاس[3]: والمعنى ـ والله أعلم ـ: بل مكرُكم في الليل والنهار، أي: مُسارَّتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حَمَلَنا على هذا.

وقال سفيان الثوري: بل عملُكم في الليل والنهار. قتادة: بل مكرُكم بالليل والنهار صدَّنا[4]. فأُضيفَ المكر إليهما لوقوعه فيهما، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ﴾ [نوح: ٤]، فأضاف الأَجَلَ إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ﴾ [الأعراف: ٣٤] إذ كان الأجل لهم. وهذا من قَبِيلِ قولك: ليلُه قائمٌ ونهارُه صائم. قال المبرِّد: أي: بل مكرُكم الليل والنهار، كما تقول العرب: نهارُه

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨ . وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٧٣ .
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٣ .
(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩ .
(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٢ ، دون قوله: صدنا.

صائمٌ وليلُه قائمٌ، وأنشد لجرير:

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ... ونمتِ وما ليلُ المَطِيِّ بنائمِ(١)

وأنشد سيبويه:

فنام ليلي وتجلَّى همِّي(٢)

أي: نمتُ فيه. ونظيره: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ [يونس: ٦٧].

وقرأ قتادة: «بل مَكْرٌ الليلَ والنهارَ» بتنوين «مكر» ونصبِ «الليلَ والنهار»، والتقدير: بل مكرٌ كائنٌ في الليل والنهار، فحذف(٣).

وقرأ سعيد بن جبير: «بل مَكَرُّ» بفتح الكاف وشدِّ الراء بمعنى الكرور، وارتفاعُه بالابتداء والخبرُ محذوفٌ. ويجوز أن يرتفع بفعلٍ مُضْمَرٍ دلَّ عليه: «أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ»، كأنَّهم لمَّا قالوا لهم: أنحن صددناكم عن الهدى؟! قالوا: بل صدَّنا مَكَرُّ الليلِ والنهار(٤).

وروي عن سعيد بن جبير: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قال: مرّ الليل والنهار عليهم فغفلوا(٥). وقيل: غرَّهم(٦) طولُ السلامة فيهما كقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) ديوان جرير بشرح ابن حبيب ٢/ ٩٩٣، وسلف ١١/ ٢٠، وهو في الكتاب ١/ ١٦٠، والمقتضب ٤/ ٣٣١ وفيه قول المبرد بنحوه، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٩ وعنه نقل المصنف.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٩، ولم نقف عليه في الكتاب، والرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٤٢، والمقتضب ٤/ ٣٣١.

(٣) المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤. قال ابن جني: وإن شئت علقتهما بنفس «مكر»، كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤-١٥].

(٤) المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤. قال ابن جني: المَكَرُّ والكرور: اختلاف الأوقات. وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٢، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩.

(٦) قوله: غرَّهم، من (ظ).

وقرأ راشد: «بل مَكرَّ الليل والنهار» بالنصب، كما تقول: رأيته مَقْدَمَ الحاجِّ، وإنَّما يجوز هذا فيما يُعرفُ؛ ولو قلتَ: رأيتُه مَقْدَمَ زيد، لم يَجز؛ ذكره النحاس[١].

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: أشباهاً وأمثالاً ونُظَراءَ. قال محمد بن يزيد: ندُّ فلانٍ فلان[٢]؟، أي: مثلُه. ويقال: نَدِيد، وأنشد:

أَتَـيْـمـاً تـجـعـلـون إلـيَّ نِـدًّا ... ومـا تَـيْـمٌ لـذي حَـسَـبٍ نَـديـدُ[٣]

وقد مضى هذا في «البقرة»[٤].

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي: أَظْهَرُوها، وهو من الأضداد؛ يكون بمعنى الإخفاءِ والإبداء؛ قال امرؤ القيس:

تـجـاوزتُ أَحْـراسـاً وأهـوالَ مَـعْـشَـرٍ ... عَـلـيَّ حِـرَاصٍ لـو يُـسِـرُّون مَـقْـتَـلِـي[٥]

ويروى: «يُشِرُّون»[٦].

وقيل: «وأَسَرُّوا النَّدامَةَ» أي: تَبَيَّنت الندامةُ في أسرار وجوههم. وقيل: الندامةُ لا تظهر، وإنَّما تكون في القلب، وإنَّما يظهر ما يتولَّد عنها[٧]، حَسْبَمَا تقدَّم بيانُه في سورة يونس، وآل عمران[٨].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩ - ٣٥٠ ، وقراءة راشد في المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤ ، والبحر ٧/ ٢٨٣ . قال أبو حيان: وراشد هذا من التابعين، ممن صحح المصاحف بأمر الحجاج. اهـ. وهو ابن نجيح الحِمَّانيُّ، أبو محمد البصري. التهذيب ١/ ٥٨٤ . وقد سلف ذكره ١/ ١٠٤ (حاشية).

(٢) في (م): فلان ند فلان.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣١ ، وسلف ١١/ ٣٣٦ .

(٤) ١/ ٣٤٧ .

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٣ ، وفيه: يُشِرُّون، بدل: يسرُّون، وهما روايتان كما سيرد. ووقع في (م): حراصاً، وهو موافق لما في شرح المعلقات للنحاس ١/ ١٧ وللتبريزي ص ٣٧ ، وهو فيهما برواية:

تـجـاوزت أحـراسـاً إلـيـهـا ومـعـشـراً ... عـلـيَّ حـراصـاً لـو يُـشِـرُّون مـقـتـلـي

(٦) وهي رواية الديوان كما سلف، قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ١٧ : مَن روى: يُسِرُّون، فيجوز أن يكون معناه عنده: يكتمون، ويجوز معناه: يظهرون. أما يُشِرُّون فمعناه يظهرون لا غير.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٠ .

(٨) سلف في سورة الأعراف ٩/ ٣٣٥ ، وسورة يونس ١١/ ٨ ، ولم نقف عليه في سورة آل عمران.

وقيل: إظهارُهم الندامةَ قولُهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢].

وقيل: أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها؛ كما قال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ٣].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الأغلالُ جمعُ غُلٍّ، يقال: في رقبته غُلٌّ من حديد. ومنه قيل للمرأة السيئةِ الخُلُق: غُلٌّ قَمِلٌ، وأصلُه: أنَّ الغُلَّ كان يكون من قِدٍّ(١) وعليه شعرٌ فيَقْمَلُ. وغَلَلتُ يده إلى عنقه، وقد غُلَّ فهو مغلول، يقال: ماله أُلَّ وغُلَّ(٢). والغُلُّ أيضاً والغُلَّة: حرارةُ العطش، وكذلك الغليل؛ يقال منه: غُلَّ الرجلُ يُغَلُّ غَلَلًا فهو مغلول، على ما لم يسمَّ فاعله؛ عن الجوهريّ(٣).

أي: جُعلت الجوامعُ في أعناق التابعين والمتبوعين. قيل: مِن غيرِ هؤلاء الفريقين. وقيل: يرجع «الذين كَفَرُوا» إليهم.

وقيل: تم الكلامُ عند قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ﴾ بعد ذلك في أعناق سائر الكفار. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا؟

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ قال قتادة: أي:

---

(١) القِدُّ هو السَّيْرُ يُقَدُّ من جلدٍ غير مدبوغ، القاموس (قدد).

(٢) أُلَّ: دُفع في قفاه، وغُلَّ: وُضع الغُلُّ في يديه وعنقه، وهذا دعاء عليه. معجم متن اللغة (أل) و(غل).

(٣) في الصحاح: (غلل).

أغنياؤها ورؤساؤها وجبابِرَتُها وقادةُ الشرِّ للرسل: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[١].

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ أي: فُضِّلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربُّكم راضياً بما نحن عليه من الدِّين والفضل لم يخوِّلنا ذلك. ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأنَّ مَن أَحْسَنَ إليه فلا يُعذِّبه. فردَّ الله عليهم قولَهم وما احتجُّوا به من الغِنَى فقال لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يوسِّعه ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ أي: يقتِّر، أي: إنّ الله هو الذي يُفاضِلُ بين عبادِه في الأرزاق امتحاناً لهم، فلا يدلُّ شيءٌ من ذلك على ما في العواقب، فَسَعَةُ الرزق في الدنيا لا تدلُّ على سعادة الآخرة، فلا تظنُّوا أموالَكم وأولادكم تُغني عنكم غدًا شيئًا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هذا؛ لأنَّهم لا يتأمَّلون.

ثم قال تأكيداً: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ قال مجاهد: أي: قُرْبَى. والزُّلْفةُ: القُرْبة[٢].

وقال الأخفش[٣]: أي: إزلافاً، وهو اسمُ المصدر، فيكون موضعُ «قُرْبَى» نصبًا، كأنه قال: بالتي تقرِّبكم عندنا تقريباً.

وزعم الفراء أنَّ «التي» تكون للأموال والأولاد جميعاً. وله قولٌ آخرُ ـ وهو مذهبُ أبي إسحاقَ الزجّاج ـ يكون المعنى: وما أموالُكم بالتي تقرِّبكم عندنا زُلْفى، ولا أولادكم بالتي تقرِّبكم عندنا زُلْفى، ثم حذفَ خبر الأولِ لدلالة الثاني عليه، وأنشد الفراء:

نحن بما عندنا وأنتَ بما عندك راضٍ والرأيُ مختلِفُ[٤]

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٥٢، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٧. وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٦.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥١ وعنه نقل المصنف قول الفراء والزجاج، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٥. وسلف البيت ١٠/ ١٨٨.

ويجوز في غير القرآن: باللَّتين وباللَّاتي وباللَّواتي وباللَّذَيْنِ، وبالَّذينَ للأولاد خاصة[١].

أي: لا تَزيدُكم الأموالُ عندنا رِفعةً ودرجةً، ولا تقرِّبكم تقريباً.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى: إلَّا من آمَنَ وعَمِلَ صالحاً فلن يَضُرَّه مالُه وولدُه في الدنيا[٢]. وروى ليثٌ عن طاوسٍ أنه كان يقول: اللهمَّ ارزقني الإيمانَ والعمل، وجنِّبني المالَ والولد، فإنِّي سمعتُ فيما أوْحيتَ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[٣].

قلت: قولُ طاوسٍ فيه نظر، والمعنى والله أعلم: وجنِّبني المالَ والولدَ المُطْغِيَيْن، أو اللَّذَينِ لا خيرَ فيهما، فأمَّا المالُ الصالح والولدُ الصالح للرجل الصالحِ فنِعْمَ هذا! وقد مضى هذا في «آل عمران، ومريم، والفرقان»[٤].

و«مَن» في موضعِ نصبٍ على الاستثناء المنقطع، أي: لكنْ مَن آمَنَ وعمل صالحاً فإيمانُه وعملُه يقرِّبانِه منِّي. وزعم الزجَّاج أنه في موضع نصبٍ بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التي في «تقرِّبكم». النحاس: وهذا القولُ غلطٌ؛ لأنَّ الكافَ والميمَ للمخاطَب، فلا يجوزُ البدلُ، ولو جاز هذا لجاز: رأيتُك زيداً. وقولُ أبي إسحاقَ هذا هو قولُ الفرَّاء، إلَّا أنَّ الفراء لا يقول: بدل، لأنَّه ليس من لفظِ الكوفيين، ولكنَّ قولَه يَؤولُ إلى ذلك، وزعم أنَّ مثله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩] يكون منصوباً عنده بـ «ينفع». وأجاز الفرَّاء أن يكون «مَن» في موضع رفعٍ بمعنى: ما هو إلَّا مَن آمَنَ، كذا قال: ولستُ أحصِّلُ معناه[٥].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢ ، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٥ .

(٢) أخرج نحوه الطبري ١٩/ ٢٩٧ عن ابن زيد، ولم نقف عليه عن سعيد بن جبير.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٣ ، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٨ .

(٤) ٥/ ١١٠ و١٣/ ٤١٤ و١٥/ ٤٨٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢ ، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٣ .

﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ يعني قولَه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠] فالضِّعْفُ: الزيادة، أي: لهم جزاءُ التضعيف. وهو من باب إضافةِ المصدرِ إلى المفعول. وقيل: لهم جزاءُ الأضعاف، فالضِّعفُ في معنى الجمع. وإضافةُ الضعفِ إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نَفْسِه، نحو: حقّ اليقين، وصلاة الأُولى. أي: لهم الجزاءُ المضعَّف؛ للواحد عشرةٌ إلى ما يُريد اللهُ من الزِّيادة.

وبهذه الآية استدلَّ مَن فضَّل الغِنَى على الفقر. وقال محمد بن كعب: إنَّ المؤمن إذا كان غنيًّا تقيًّا آتاه الله أجْرَه مرَّتين بهذه الآية[١]. ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

قراءةُ العامةِ: «جَزَاءُ الضِّعْفِ» بالإضافة. وقرأ الزُّهرِيُّ ويعقوبُ ونصر بن عاصم: «جزاءً» منوَّناً منصوباً «الضعفُ» رفعاً[٢]، أي: فأولئك لهم الضِّعفُ جزاءً، على التقديم والتأخير. «وَجَزَاءٌ الضِّعْفَ» على أن يجازَوا الضعفَ. و«جزاءٌ الضِّعفُ» مرفوعان، الضِّعفُ بدل من جزاء[٣].

وقَرأ الجمهور أيضاً: ﴿فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾ على الجمع، وهو اختيارُ أبي عبيد؛ لقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ [العنكبوت: ٥٨]. الزمخشريُّ: وقرئ «في الغرفات» بضمِّ الراء وفَتْحِها وسكونها[٤].

وقرأ الأعمش ويحيى بن وَثَّاب وحمزةُ وخلف: ﴿في الغرفة﴾ على التوحيد[٥]؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥]. والغرفةُ قد يُرادُ بها اسمُ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٥٣.

(٢) النشر ٢/ ٣٥١. و«جزاءً» في هذه القراءة منصوب على الحال، كما ذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٢٨٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٢. وقراءة: «جزاءٌ الضعفُ» ـ برفعهما ـ ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢ عن قتادة. وقراءة: «جزاءٌ» بالرفع والتنوين «الضعفَ» بالنصب ذكرها الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٤٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٢، والقراءة بفتح الراء وسكونها في القراءات الشاذة ص ١٢٢.

(٥) السبعة ص ٥٣٠، والتيسير ص ١٨١ عن حمزة. وأما قراءة خلف المشهورة عنه فكقراءة الجمهور.

الجمعِ واسم الجنس. قال ابن عباس: هي غرفٌ من ياقوتٍ وزبرجد ودُرٍّ. وقد مضى بيانُ ذلك[١].

﴿ءَامِنُونَ﴾ أي: من العذاب والموت والأسقام والأحزان. ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في إبطال أدلَّتِنا وحُجَجنا وكتابنا. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: معانِدين، يحسبون أنَّهم يفوتوننا بأنفسهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: في جهنَّم؛ تُحضِرُهم الزبانيةُ فيها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ كرَّر تأكيدًا. ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المغترِّين بالأموال والأولاد: إنَّ الله يوسِّع على مَن يشاء ويضيِّق على مَن يشاء، فلا تغترُّوا بالأموال والأولاد، بل أنْفِقوها في طاعة الله، فإنَّ ما أنفقتُم في طاعة الله فهو يُخْلِفُه. وفيه إضمارٌ، أي: فهو يُخْلِفُه عليكم؛ يقال: أَخْلَفَ له وأَخْلَفَ عليه، أي: يعطيكم خَلَفَه وبَدَلَه، وذلك البَدَلُ إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن يومٍ يصبحُ العبادُ فيه إلَّا ومَلَكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، و[يقول الآخَر: اللهم] أعطِ مُمْسِكاً تَلفاً»[٢].

وفيه أيضاً عن أبي هريرةَ، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله قال لي: أَنفِقْ أُنْفِقْ عليك...» الحديث[٣]. وهذه إشارةٌ إلى الخَلَف في الدنيا بِمثْلِ المنفَق فيها إذا كانت

---

(١) ينظر ١٠/ ٢٩٩ و١٥/ ٤٩١ . وخبر ابن عباس سيأتي عند تفسير الآية (٢٠) من سورة الزمر.

(٢) صحيح مسلم (١٠١٠)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٨٠٥٤)، والبخاري (١٤٤٢).

(٣) صحيح مسلم (٩٩٣)، وهو عند أحمد (٧٢٩٨)، والبخاري (٤٦٨٤).

النفقةُ في طاعة الله. وقد لا يكون الخَلَفُ في الدنيا، فيكون كالدعاء ـ كما تقدَّم[١] ـ سواءً في الإجابة أو التكفير أو الادِّخار، والادِّخارُ ها هنا مثله في الأجر[٢].

مسألة: روى الدَّارقُطْنيُّ وأبو أحمد بنُ عَدِيٍّ عن عبد الحميد الهلاليِّ، عن محمد ابن المُنْكَدِر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ معروفٍ صدقةٌ، وما أنْفقَ الرجلُ على نفسه وأهله كُتب له صدقة، وما وَقَى به الرجلُ عِرضَه فهو صدقةٌ، وما أَنْفقَ الرجل من نفقةٍ فعَلَى الله خَلَفُها، إلَّا ما كان من نفقةٍ في بنيانٍ أو معصية». قال عبد الحميد: قلتُ لابن المنكدر: ما «وَقَى الرجلُ عِرضَه»؟ قال: يعطي الشاعرَ وذا اللسان[٣]. عبد الحميد وثَّقه ابن معين[٤].

قلت: أمَّا ما أنفق في معصيةٍ فلا خلافَ أنه غيرُ مثابٍ عليه ولا مخلوفٍ له. وأمَّا البنيانُ فما كان منه ضروريًّا يُكِنُّ الإنسانَ ويحفظُه، فذلك مخلوفٌ عليه ومأجورٌ ببنيانه، وذلك لِحفْظِ[٥] بنيته وسترِ عورته؛ قال ﷺ: «ليس لابن آدمَ حقٌّ في سِوى هذه الخصالِ: بيتٍ يسكنُه، وثوبٍ يوارِي عورتَه، وجِلْفِ الخبز، والماء»[٦]. وقد مضى هذا المعنى في «الأعراف» مستوفًى[٧].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لمَّا كان يقال في الإنسان: إنَّه يَرْزُقُ عيالَه، والأمير جندَه، قال: «وهو خيرُ الرَّازِقينَ» والرزاقُ من الخَلْقِ يَرزقُ، لكنَّ ذلك من

---

(١) ٣/ ١٨٠ .

(٢) في (ظ): الآخرة، وكذلك وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٩٢ ، والكلام فيه بنحوه.

(٣) سنن الدارقطني (٢٨٩٥)، والكامل ٥/ ١٩٥٩. وسلف ٩/ ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٤) الكامل ٥/ ١٩٥٨ ، وعبد الحميد هو ابن الحسن الهلالي، وقال فيه أبو حاتم: شيخ، وضعفه ابن المديني وأبو زرعة والدارقطني. ميزان الاعتدال ٢/ ٥٣٩ .

(٥) في (د) و(م): وكذلك كحفظ، وفي (خ): وذلك كحفظ.

(٦) أخرجه أحمد (٤٤٠)، والترمذي (٢٣٤١) من حديث عثمان ﷺ، وهو حديث لا يصح كما سلف الكلام ٥/ ٥٧ . قوله: جلف الخبز، أي: وحدَه ليس معه إدام، أو: الخبز الغليظ اليابس.

(٧) ٩/ ٢٦٧ - ٢٦٩ .

مالٍ يُملك عليهم ثم ينقطع، والله تعالى يَرزقُ من خزائنَ لا تفنَى ولا تتناهَى. ومَن أَخرجَ من العدم إلى الوجود فهو الرَّازقُ على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ويوم نَحشرهم جميعاً﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [الآية: ٣١] أي: لو تَراهم في هذه الحالةِ لرأيتَ أمراً فظيعاً. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ هو وأمته. ثم قال: ولو تراهم أيضاً يومَ نَحْشرُهم جميعاً، العابِدِينَ والمعبودينَ، أي: نجمعهم للحساب ﴿ثُمَّ نَقُولُ[1] لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾. قال سعيد عن قتادة: هذا استفهامٌ، كقوله عزَّ وجلَّ لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] قال النحاس[2]: فالمعنى: أنَّ الملائكةَ صلواتُ الله عليهم إذا أكْذَبَتْهم؛ كان في ذلك تبكيتٌ لهم، فهو استفهامُ توبيخٍ للعابِدِين.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: أنت ربُّنا الذي نَتولَّاه ونطيعُه ونعبدُه ونُخْلِصُ في العبادة له. ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: يُطيعون إبليسَ وأعوانَه. وفي التفاسير[3]: أنَّ حَيًّا يقال لهم: بنو مُلَيح من خُزاعةَ؛ كانوا يعبدون الجنَّ، ويزعمون أنَّ الجنَّ تتراءى لهم، وأنَّهم ملائكةٌ، وأنَّهم بناتُ الله، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

---

(١) قرأ حفص: «يحشرهم» و«يقول» بالياء، والباقون بالنون، وهو ما وقع في النسخ. السبعة ص ٥٣٠، والتيسير ص١٠٧.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٤، وما قبله منه. وقول قتادة قبله أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٣) في (ظ): وفي التفسير.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا﴾ أي: شفاعةً ونَجاةً ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: عذاباً وهَلاكاً. وقيل: أي: لا تملك الملائكةُ دفعَ ضرٍّ عن عابِدِيهم، فحذف المضاف. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يجوزُ أن يقول الله لهم أو الملائكة: ذوقوا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني القرآن ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ﴾ يَعنون محمداً ﷺ ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ أي: أَسْلافُكم من الآلهة التي كانوا يعبدونها. ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يعنون القرآن، أي: ما هو إلَّا كذبٌ مُخْتلَق. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فتارةً قالوا: سحرٌ، وتارةً قالوا: إفك. ويحتمل أن يكون منهم مَنْ قال: سحر، ومنهم مَن قال: إفك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: لم يقرؤوا في كتابٍ أُوتُوه بطلانَ ما جئتَ به، ولا سَمِعوه من رسولٍ بُعث إليهم، كما قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١]. فليس لتكذيبهم وجهٌ يُتَشَبَّثُ به ولا شبهةٌ يُتَعَلَّقُ بها[1] كما يقول أهلُ الكتاب ـ وإنْ كانوا مُبطِلينَ ـ : نحن أهلُ كتابٍ وشرائعَ

(١) في (ظ): وجه متشبث به ولا شبهة متعلقٌ بها، وفي الكشاف ٣/ ٢٩٣ (والكلام منه): وجه متشبث ولا شبهة متعلق.

ومُستَنِدون إلى رسلٍ من رسل الله.

ثم توعَّدَهم على تكذيبهم بقوله الحقّ: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: كذَّب قبلَهم أقوامٌ كانوا أشدَّ من هؤلاء بطشًا، وأكثرَ أموالاً وأولاداً، وأوسعَ عيشاً، فَأَهْلَكْتُهم؛ كثمودَ وعادٍ. ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: ما بلغ أهلُ مكةَ مِعْشارَ ما آتينا تلك الأمم. والمِعْشارُ والعُشْر سواء، لغتان. وقيل: المِعْشارُ عُشْرُ العُشْرِ[١]. الجوهريّ[٢]: ومِعْشارُ الشيءِ عُشْرُه، ولا يقولون هذا في شيءٍ سوى العُشْرِ.

وقيل: ما بلغ الذين مِن قَبْلِهم مِعْشارَ شُكْرِ ما أعطيناهم؛ حكاه النقَّاش. وقيل: ما أعطَى الله تعالى مَن قبلهم مِعْشارَ ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان. قال ابن عباس: فليس أمةٌ أعلمَ من أمته، ولا كتابٌ أبينَ من كتابه[٣].

وقيل: المِعْشارُ هو عُشْرُ العشير، والعشيرُ هو عُشْرُ العُشْرِ، فيكون جزءًا من ألفِ جزء. الماورديُّ[٤]: وهو الأَظْهَرُ؛ لأنَّ المراد به المبالغةُ في التقليل.

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: عقابي في الأمم، وفيه محذوفٌ وتقديرُه: فأهلكناهم فكيف كان نكيري.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ تَمَّمَ الحُجَّةَ على المشركين، أي: قُلْ لهم يا محمدُ: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ أي: أذكِّرُكم وأحذِّركم سوءَ عاقبةِ ما أنتم فيه. ﴿بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ أي: بكلمةٍ واحدة مشتملةٍ على جميع الكلام، تقتضي نَفْيَ الشِّرْكِ وإثباتَ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ .

(٢) في الصحاح (عشر).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ ، وما قبله منه.

الإله. قال مجاهد: هي لا إله إلا الله[١]، وهذا قولُ ابن عباس والسُّدِّي[٢]. وعن مجاهد أيضاً: بطاعة الله[٣]. وقيل: بالقرآن؛ لأنه يجمع كلَّ المواعظ[٤].

وقيل: تقديرهُ: بخصلةٍ واحدةٍ، ثم بيَّنها بقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ فتكون «أنْ» في موضعِ خفضٍ على البَدَلِ من «وَاحِدَةٍ»، أو في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ، أي: هي أنْ تقوموا. ومذهبُ الزجَّاج[٥] أنَّها في موضعِ نصبٍ بمعنى: لأنْ تقوموا.

وهذا القيامُ معناه: القيامُ إلى طلبِ الحقِّ، لا القيامُ الذي هو ضدُّ القعود، وهو كما يقال: قام فلانٌ بأمر كذا. أي: لوجه الله والتقرُّب إليه. وكما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء:١٢٧].

﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: وُحدانًا ومُجتَمِعين؛ قاله السُّدِّيّ. وقيل: منفردًا برأيه ومُشاوِرًا لغيره، وهذا قولٌ مأثور. وقال القُتَبيُّ: مناظِرًا مع غيره ومفكِّرا في نفسه[٦]، وكلُّه متقارب.

ويحتمل رابعاً: أنَّ المَثْنَى عملُ النهار، والفُرادى عملُ الليل؛ لأنه في النهار مُعَانٌ، وفي الليل وحيد؛ قاله الماوَرْديّ[٧].

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ ، وأخرجه الفريابي وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ عن السدي، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٠٤ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٤ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٤٥٦ ، وقول ابن قتيبة بنحوه في تفسير غريب القرآن ص ٣٥٨ . ووقع في (ظ): ومتفكراً مع نفسه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٦ .

وقيل: إنَّما قال: «مَثْنَى وَفُرَادَى» لأنَّ الذهنَ حجةُ اللهِ على العباد، وهو العقلُ، فأَوْفرُهم عقلاً أوفرُهم حظًّا من الله، فإذا كانوا فُرادى كانت فكرةً واحدة، وإذا كانوا مَثْنَى تَقابَلَ الذهنان، فتراءى من العلم لهما ما أُضْعِفَ على الانفراد، والله أعلم.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍۚ﴾ الوقفُ عند أبي حاتم وابنِ الأنباريِّ على: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾[1].

وقيل: ليس هو بوقفٍ؛ لأنَّ المعنى: ثم تتفكَّروا: هل جرَّبتم على صاحبكم كذباً، أو رأيتم فيه جِنَّةً، أو في أحواله من فسادٍ، أو اخْتَلَفَ إلى أحدٍ ممَّن يدَّعي العلمَ بالسحر، أو تعلَّم الأقاصيصَ وقرأ الكتب، أو عَرَفتُموه بالطمع في أموالكم، أو تَقْدِرون على معارضته في سورةٍ واحدة؟ فإذا عرفتُم بهذا الفِكر صدقَه، فما بالُ هذه المعاندة؟!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وفي «صحيح» مسلم عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت هذه الآية: «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقرَبِينَ. ورَهْطَكَ مِنهم المُخْلِصين» خرج رسول الله ﷺ حتى صعِد الصَّفا فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: مَن هذا الذي يَهْتِفُ؟! قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبدِ منافٍ، يا بني عبدِ المطَّلبِ» فاجتَمَعوا إليه فقال: «أرأيتُم لو أَخْبَرْتكم أنَّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتُم مُصَدِّقيَّ؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: «فإنِّي نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد». قال: فقال أبو لهب: تَبًّا لك! أمَا جمعتَنا إلَّا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقد تَبَّ﴾ كذا قرأ الأعمش إلى آخِرِ السورة[2].

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤٧، وذكره عن أبي حاتم ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥.

(٢) صحيح مسلم (٢٠٨)، وهو عند أحمد (٢٨٠١)، والبخاري (٤٩٧١). قوله: ورهطك منهم المخلصين، قال أبو العباس في المفهم ٧/ ٣٨٤: ظاهر هذا أنه كان قرآناً يُتلى، وأنه نُسخ؛ إذ لم يثبت نَقْلُه في المصحف، ولا تَواتَر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: جُعْلٍ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: ذلك الجُعْلُ لكم إنْ كنتُ سألتُكموه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: رقيبٌ وعالمٌ وحاضِرٌ لأعمالي وأعمالكم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ، فهو يجازي الجميع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يبيِّن الحجةَ ويُظْهِرُها. قال قتادة: بالحقِّ: بالوحي. وعنه: الحقُّ القرآن[١]. وقال ابن عباس: أي: يقذفُ الباطلَ بالحقِّ علامُ الغيوبِ[٢].

وقرأ عيسى بن عمر: «عَلَّامَ الغيوب»[٣] على أنه بدلٌ، أي: قُلْ: إنَّ ربِّي علَّامَ الغيوبِ يقذفُ بالحقِّ. قال الزجاج[٤]: والرفعُ من وجهين: على الموضع؛ لأنَّ الموضعَ موضعُ رفعٍ، أو على البدل ممَّا في «يقذف». قال النحَّاس: وفي الرفع وجهان آخران: يكون خبراً بعد خبر، ويكون على إضمارِ مبتدأ. وزعم الفرَّاء أن الرفع في مثل هذا أكثرُ في كلام العرب إذا أتى بعد خبر «إنَّ»، ومثلُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤][٥].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٠٧ بلفظ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالوحي ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ. قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن. وسيرد في الآية التي بعدها.

(٢) ذكره الرازي ٢٥/ ٢٧٠ دون نسبة، وربطه بقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨]

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٢ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٥٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٤ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٤ .

وقرئ: «الغيوبُ» بالحركات الثلاث، فالغُيوب كالبيوت، والغَيوب كالصَّيود[١]، وهو الأمرُ الذي غاب وخَفِيَ جدًّا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ قال سعيد عن قتادة: يريد القرآن. النحاس[٢]: والتقديرُ: جاء صاحبُ الحقِّ، أي: الكتاب الذي فيه البراهينُ والحُجج. ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قال قتادة: الشيطان، أي: ما يخلقُ الشيطانُ أحداً[٣] ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾، فـ «ما» نَفيٌ. ويجوز أن يكون استفهاماً بمعنى: أيّ شيء، أي: جاء الحقُّ؛ فأيُّ شيءٍ بقي للباطل حتى يُعيدَه ويُبْدِئَه، أي: فلم يَبْقَ منه شيءٌ، كقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٨] أي: لا ترى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ وذلك أنَّ الكفار قالوا: تركتَ دينَ آبائِكَ فضَلَلْتَ. فقال له: قل يا محمد: إنْ ضللتُ ـ كما تزعمون ـ فإنَّما أَضِلُّ على نفسي. وقراءةُ العامَّة «ضَلَلْتُ» بفتح اللام. وقرأ يحيى بن وَثَّاب وغيره: «قُلْ إِنْ ضَلِلتُ» بكسر اللام وفتح الضادِ من «أَضَلُّ»[٤]. والضلالُ والضلالةُ ضدُّ الرشاد، وقد

---

(١) في (ظ): فالغيوب بالرفع والخفض كالبُيوت والبِيوت والعُيون والعِيون وبالنصب كالصيود. اهـ. والصَّيود كقَبول: الصياد. القاموس (صاد). ووقع في (م): كالصبور، وهو موافق لما في مطبوع الكشاف ٣/ ٢٩٥ ، والكلام منه.

وقرأ بكسر الغين حيث وقع حمزةُ وأبو بكر، والباقون بضمها. السبعة ص١٧٨-١٧٩ ، والتيسير ص١٠١ ، والنشر ٢/ ٢٢٦ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٥ ، وما قبله منه، وأخرج الخبر عن قتادة الطبري ١٩/ ١٠٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ١٠٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦ .

ضَلَلْتُ ـ بفتح اللام ـ أضِلُّ بكسر الضاد؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فهذه لغةُ نجدٍ، وهي الفصيحة. وأهلُ العالية يقولون: «ضَلِلتُ» بالكسر «أَضِلُّ»[1]. أي: إثمُ ضلالتي على نفسي. ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ من الحكمة والبيان ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: سميعٌ ممَّن دعاه قريبُ الإجابة. وقيل: وجهُ النَّظْمِ: قُلْ إنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ويبيِّنُ الحُجَّةَ، وضلالُ مَن ضلَّ لا يُبْطِلُ الحُجَّة، ولو ضَلَلْتُ لأَضْرَرْتُ بنفسي، لا أنَّه يُبْطِلُ حجةَ الله، وإذا اهتديتُ فذلك فَضْلُ الله؛ إذ ثبَّتني على الحُجَّة، إنَّه سمِيع قرِيب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ ذكر أحوالَ الكفار في وقت[2] يُضْطَرُّون فيه إلى معرفة الحقِّ. والمعنى: لو ترى إذ فزعوا في الدنيا عند نزولِ الموت أو غيرِهِ من بأس الله تعالى بهم؛ روي معناه عن ابن عباس[3].

الحسن: هو فَزَعُهم في القبور من الصيحة[4]. وعنه: أنَّ ذلك الفزعَ إنَّما هو إذا خرجوا من قبورهم[5]. وقاله قتادة[6].

وقال ابن معقل: إذا عاينوا عقابَ اللهِ يومَ القيامة[7].

---

(١) بالكسر أيضاً كما في مختار الصحاح (ضلل)، والكلام من الصحاح (ضلل).

(٢) بعدها في النسخ عدا (ظ): ما، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٠٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٥٨.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٣، والطبري ١٩/ ٣١٢. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦: وهذا أرجح الأقوال عندي.

(٦) كذا ذكر المصنف، والذي أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٣ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أي: في الدنيا حين رأوا بأس الله. وأخرجه عنه الطبري ١٩/ ٣١٢ - ٣١٣، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠.

(٧) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣١٣.

السُّدِّيُّ: هو فَزَعُهم يومَ بدرٍ حين ضُربت أعناقُهم بسيوفِ الملائكة، فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة[١].

سعيد بن جُبير: هو الجيشُ الذي يُخسَفُ بهم في البيداء، فيبقى منهم رجلٌ، فيخبرُ الناس بما لقي أصحابه فيفزعون، فهذا هو فَزَعُهم[٢].

﴿فَلَا فَوْتَ﴾: فلا نجاةَ؛ قاله ابن عباس[٣]. مجاهد: فلا مَهْرَب[٤].

﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: من القبور. وقيل: من حيث كانوا، فهم من الله قريبٌ لا يَعْزُبون عنه ولا يفوتونه.

وقال ابن عباس: نزلت في ثمانين ألفاً يغزون في آخِرِ الزمان الكعبةَ لِيَخْرِبوها، فَلمّا يدخلون[٥] البيداءَ يُخْسفُ بهم، فهو الأخذُ من مكانٍ قريب.

قلت: وفي هذا المعنى خبرٌ مرفوعٌ عن حذيفةَ ـ وقد ذكرناه في كتاب «التذكِرة»[٦] ـ قال: قال رسول الله ﷺ؛ وذَكَر فتنةً تكون بين أهلِ المشرقِ والمغرب: «فبينما هم كذلك، إذ خرج عليهم السُّفيانيُّ من الوادي اليابس في فَوْرِه ذلك، حتى يَنْزِلَ دمشق، فيبعث جيشين؛ جيشاً إلى المشرق، وجيشاً إلى المدينة، فيسير الجيش نحو المَشْرِقِ حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعةِ الخبيثة ـ يعني مدينةَ بغداد ـ قال: فيقتلون أكثرَ من ثلاثةِ آلافٍ، ويفتضُّون أكثرَ من مئة امرأةٍ، ويقتلون بها ثلاثَ مئةِ كَبْشٍ من وَلَدِ العباس[٧]، ثم يخرجون متوجِّهين إلى الشام، فتخرج رايةُ هدًى من

---

(١) النكت والعيون ٤/٤٥٨ ، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/٤٥٨ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣١٠ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/٤٥٨ .

(٥) في (خ) و(م) وكما يدخلون. وفي (د): فلا يدخلون، والمثبت من (ظ). ووقع في الكشاف ٣/٢٩٦ (والخبر فيه بنحوه): فإذا دخلوا البيداء خسف بهم.

(٦) ص٦٠٩ .

(٧) في (ظ): بني إسماعيل، بدل: ولد العباس.

الكوفة، فتلحَقُ ذلك الجيشَ منها على ليلتين، فيقتلونهم لا يُفْلِتُ منهم مُخْبِرٌ ويَسْتَنقِذون ما في أيديهم من السَّبْي والغنائم، ويَحُلُّ جيشه الثاني بالمدينة، فينتبهونها ثلاثةَ أيامٍ ولياليها، ثم يخرجون متوجِّهين إلى مكةَ، حتى إذا كانوا بالبيداءِ بعث الله جبريل عليه السلام، فيقول: يا جبريلُ، اذهب فأَبِدْهم، فيضربها برجله ضربةً يَخسفُ الله بهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾. فلا يبقى منهم إلَّا رجلان؛ أحدُهما بشيرٌ والآخَرُ نذيرٌ، وهما من جُهَيْنة». ولذلك جاء القول: وعند جُهينةَ الخبرُ اليقين(١).

وقيل: «أُخِذُوا مِن مكانٍ قريبٍ» أي: قُبِضَتْ أرواحُهم في أماكنها، فلم يُمْكِنْهم الفرارُ من الموت، وهذا على قولِ مَن يقولُ: هذا الفزعُ عند النَّزْع.

ويحتمل(٢) أن يكون هذا من الفزع الذي هو بمعنى الإجابة؛ يقال: فَزِع الرجلُ، أي: أجاب الصَّارخَ الذي يستغيثُ به إذا نزل به خوفٌ. ومنه الخبرُ إذ قال للأنصار: «إنكم لتَقِلُّون عند الطَّمَعِ، وتَكْثُرون عند الفزع»(٣).

ومَن قال: أراد الخسفَ أو القتلَ في الدنيا كيومِ بدرٍ قال: أُخذوا في الدنيا قبل أن يؤخَذوا في الآخرة. ومَن قال: هو فزعُ يومِ القيامة قال: أُخذوا من بطن الأرض إلى ظَهْرِها. وقيل: «أُخِذُوا مِن مكانٍ قريبٍ»: من جهنَّم فأُلقوا فيها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن. وقال مجاهدٌ: بالله عزَّ وجلَّ. الحسن: بالبعث. قتادةُ: بالرسول ﷺ(٤). ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال ابن

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٠ - ٣١١ . وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن هذا الحديث موضوع.

(٢) في (ظ): ويجوز.

(٣) سلف ٦/ ٤٠٩ .

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ ، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٤ .

عباس والضحاك: التناوشُ: الرَّجعة، أي: يطلبون الرجعةَ إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات من ذلك[(١)]! ومنه قول الشاعر:

تـمـنّـى أن تـؤوبَ إلـيَّ مَـيٌّ ... ولـيـس إلـى تَـنـاوُشِـهـا سـبـيـلُ[(٢)]

وقال السُّدِّي: هي التوبة[(٣)]، أي: طلبوها وقد بَعُدت؛ لأنه إنَّما تُقْبَلُ التوبةُ في الدنيا. وقيل: التناوشُ: التناول؛ قال ابن السِّكِّيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته: ناشَه يَنُوشُه نَوْشاً، وأنشد:

فـهـي تـنـوشُ الـحـوضَ نَـوْشًـا مِـن عَـلَا ... نَـوْشًـا بـه تَـقْـطَـعُ أَجْـوازَ الـفَـلا[(٤)]

أي: تتناول ماءَ الحوض من فوق، وتشرب شربًا كثيرًا، وتقطعُ بذلك الشُّرْبِ فَلَواتٍ، فلا تحتاج إلى ماءٍ آخَرَ. قال[(٥)]: ومنه المناوشةُ في القتال، وذلك إذا تَدانَى الفريقان. ورجلٌ نَوُوشٌ، أي: ذو بطش. والتناوشُ: التَّناولُ، والانتياشُ مثلُه. قال الراجز:

كـانـت تَـنـوشُ الـعَـنَـقَ انـتـيـاشـا[(٦)]

---

(١) أخرجه عنهما بنحوه الطبري ١٩/ ٣١٧ و٣١٩ . وذكره بهذا اللفظ عن ابن عباس الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧ . ووقع في (ظ): تؤوب إليه، وفي المحرر الوجيز: تؤوب إليك.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ .

(٤) إصلاح المنطق ص ٤٧٩ ، والصحاح (نوش)، والكلام منه. وهما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥ - ٣١٦ ، والمنصف لابن جني ١/ ١٢٤ ، والاقتضاب ص ٤٢٧ ، والخزانة ٩/ ٤٣٧ ، وذكر سيبويه في الكتاب ٣/ ٤٥٣ البيت الأول. قال البطليوسي: لا أعلم لمن هذا الرجز. وقال البغدادي: وهذا من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعلم قائلها، وقال ابن بري: هذا الرجز لغيلان ابن حريث الرَّبَعي، ولم أقف على خبر لغيلان. اهـ. والضمير في قوله: فهي، للإبل. اللسان (نوش).

(٥) يعني ابن السكيت، وكلامه في إصلاح المنطق ص ٤٧٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (نوش)، وما قبله منه.

(٦) الصحاح واللسان (نوش)، وهو فيهما برواية: باتت تنوش ....، والعَنَق: ضَرْبٌ من سير الدابة والإبل. الصحاح (عنق).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ يقول: أنَّى لهم تَنَاولُ الإيمانِ في الآخرة وقد كفروا به في الدنيا[١].

وقرأ أبو عمرو والكِسائيُّ والأعمشُ وحمزة: ﴿وأنَّى لهم التناؤش﴾ بالهمز[٢]. النحاس[٣]: وأبو عبيدةَ يستبعدُ هذه القراءة؛ لأنَّ «التناؤش» بالهمز: البُعْدُ، فكيف يكون: وأنَّى لهم البعدُ من مكان بعيد. قال أبو جعفر: والقراءةُ جائزةٌ حسنة، ولها وجهان في كلام العرب، ولا يُتَناوَلُ بها هذا المتناوَلُ[٤] البعيد. فأحدُ الوجهين أن يكون الأصلُ غيرَ مهموز، ثم هُمزت الواو لأنَّ الحركة فيها خَفِيَّة[٥]، وذلك كثيرٌ في كلام العرب. وفي المصحَفِ الذي نقلته الجماعةُ عن الجماعة: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ١١]، والأصلُ: «وُقِّتت»؛ لأنه مشتقٌّ من الوقت. ويقال في جمع دار: أَدْؤُر[٦].

والوجهُ الآخَر ذكره أبو إسحاق؛ قال: يكون مشتقًّا من النئيش، وهو الحركةُ في إبطاء، أي: من أين لهم الحركةُ فيما قد بَعُد[٧]. يقال: نَأَشْتُ الشيء: أخذته من بُعْدٍ، والنئيشُ: الشيءُ البطيء. قال الجوهريُّ[٨]: التناؤشُ ـ بالهمز ـ: التأخُّر والتباعُد. وقد نَأَشْتُ الأمر أَنَأَشُه نأشاً: أَخَّرته، فانْتَأَشَ. ويقال: فَعَلَه نئيشًا، أي: أخيراً. قال الشاعر:

---

(١) الصحاح (نوش).

(٢) وقرأ بها أيضاً عاصم في رواية أبي بكر السبعة ص٥٣٠ ، والتيسير ص١٨١ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٦ .

(٤) في (م): ولا يتأول بها هذا المتأول، وفي (ظ): ولا يتناول بهذا هذا التأويل.

(٥) في (ظ): خفيفة.

(٦) قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٩ : وكلُّ واوٍ مضمومةٍ ضمتُها لازمة؛ إن شئت أبدلْتَ منها همزة، وإن شئت لم تُبْدِل.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٦ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٩ .

(٨) في الصحاح (نأش).

تمنَّى نئيشًا أن يكون أطاعني ... وقد حَدَثَتْ بعدَ الأمور أمورُ[(١)]

وقال آخر:

قعدتَ زماناً عن طِلابِكَ للعُلا ... وجئتَ نئيشًا بعدَ ما فاتَكَ الخبرُ[(٢)]

وقال الفرَّاء: الهمزُ وتَرْكُ الهمزِ في التناؤش مُتقارِبٌ، مثل: ذِمْتُ الرجلَ وذأَمْته، أي: عبته.

﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: من الآخرة. وروى أبو إسحاق عن التميميِّ عن ابن عباس: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾ قال: الردّ، سألوه وليس بحينِ ردٍّ[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ﴾ أي: بالله عزَّ وجلَّ. وقيل: بمحمد ﷺ ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني في الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ العرب تقولُ لكلِّ مَن تكلَّم بما لا يَحُقُّه[(٤)]: هو يقذفُ ويرجُمُ بالغيب. ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ على جهة التمثيل لمن يَرْجُم ولا يُصيب[(٥)]، أي: يرمون بالظنِّ فيقولون: لا بعثَ ولا نشورَ ولا جنةَ ولا نار، رَجْمًا منهم بالظنِّ؛ قاله قتادة[(٦)].

وقيل: «يقذفون» أي: يرمون في القرآن فيقولون: سحرٌ وشعرٌ وأساطيرُ الأولين. وقيل: في محمد، فيقولون: ساحرٌ شاعرٌ كاهنٌ مجنون. ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: إنَّ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥، والصحاح (نأش)، ونسبه البصري في الحماسة ٢/ ٣٧، والزمخشري في المستقصى ١/ ٣٠٢، وصاحب اللسان (نأش) لنَهْشَل بن حَرِّيّ.

(٢) في (خ) و(د): الخير، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وتهذيب اللغة ١١/ ٤١٧، واللسان (نوش).

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٧، وسلف بنحوه عن ابن عباس والضحاك.

(٤) في (ظ): يحققه، وحقَّ الأمرَ يَحُقُّه وأَحقَّه: كان منه على يقين. اللسان (حقق).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٦.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٢٠.

الله بَعَّد لهم أنْ يعلموا صِدْقَ محمد ﷺ. وقيل: أراد البُعْدَ عن القلب، أي: من مكان بعيدٍ عن قلوبهم.

وقرأ مجاهد: «ويُقْذَفون بالغيب» غير مسمَّى الفاعل، أي: يُرمَون به[١]. وقيل: يَقْذِفُ به إليهم مَن يُغويهم ويُضِلُّهم.

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قيل: حِيل بينهم وبين النجاةِ من العذاب. وقيل: حِيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم. ومذهبُ قتادةَ أنَّ المعنى: أنهم كانوا يشتهون لمَّا رأوا العذاب أنْ يُقبَل منهم أن يُطيعوا الله جلَّ وعزَّ، وينتهوا إلى ما يأمرهم به الله، فحِيلَ بينهم وبين ذلك؛ لأنَّ ذلك إنَّما كان في الدنيا وقد زالت في ذلك الوقت. والأصلُ: «حُوِل»، فقُلبت حركةُ الواو على الحاء فانقلبت ياءً، ثم حُذفت حركتُها لثقلها[٢].

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ الأشياعُ جمع شِيَع، وشِيَع جمعُ شِيعَة. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: بمَن مضى من القرون السالفة الكافرة. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ﴾ من أمر الرسل والبعث والجنة والنار. وقيل: في الدين والتوحيد، والمعنى الواحد.

﴿مُّرِيبٍۭ﴾ أي: يُستَرابُ به، يقال: أرابَ الرجلُ، أي: صار ذا ريبة، فهو مُريب. ومَن قال: هو من الرَّيْب ـ الذي هو الشَّكُّ والتهمة ـ قال: يقال: شكٌّ مريب، كما يقال: عَجَبٌ عجيب، وشِعْرٌ شاعر، في التأكيد.

خُتمت السورة، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٧. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧: معناه: ويرجمهم الوحي بما يكرهون من السماء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٧، وقول قتادة أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٢٢.

سُورَةُ سَبَإٍ

مَكِّيَّةٌ، وقيل: إلا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ...﴾ الآيةَ، وآيُها خمسٌ وأربعونَ(١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا ونعمةً، فله الحَمدُ في الدُّنيا لكمالِ قُدرَتِه وعلى تمامِ نِعمَتِه ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنَّ ما في الآخرةِ أيضًا كذلك.

وليسَ هذا من عطفِ المقيَّدِ على المطلَقِ، فإنَّ الوصفَ بما يدلُّ على أنَّه المنعِمُ بالنِّعَمِ الدُّنيويَّةِ قيَّد الحمدَ بها(٢)، وتقديمُ الصِّلَةِ للاختصاصِ، فإنَّ النِّعَمَ

---

(١) كذا في نسخة الطبلاوي، وفي بقية النسخ: «وقال الذين أوتوا العلم»، وهو سهو، والصواب: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، وقوله: «وآيها خمسٌ وأربعون» سهوٌ أيضًا، والصواب: أربعٌ وخمسون، انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٠٩)، وفيه: وهي خمسون وخمس آيات في الشّاميِّ، وأربع في عدد الباقين، اختلافها آية ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ عدها الشامي ولم يعدها الباقون. ونبه الخفاجي والقونوي على هذين الموضعين. انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (١٥/ ٤٣٨).

(٢) قوله: قوله: «وليس هذا»؛ أي: قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ «من عطف المقيد»: وهو هنا (له الحمد في الآخرة) «على المطلق» وهو هنا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ «فإن الوصف»؛ أي: وهو ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «يدل على أنه المنعم بالنعم الدنيوية، فقيَّد الحمد بها» كما أشار إليه بقوله قبلُ: (فله الحمد في الدنيا)، فصار قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخره حمداً مقيَّداً بنعم الدنيا، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ حمداً مقيداً بنعم الآخرة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٩٣).

الدُّنيويَّـةَ قـد تكـونُ بوسـاطةِ مَن يَسـتحِقُّ الحمـدَ لأجلِهـا ولا كذلك نعـمُ الآخرةِ.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكمَ أمورَ الدَّارينِ ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطنِ الأشياءِ.

(٢) ـ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالغيـثِ ينفُـذُ فـي موضـعٍ وينـبعُ فـي آخـرَ، وكالكنـوزِ والدَّفائـنِ والأمـواتِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيـوانِ والنَّبـاتِ والفِلـزَّاتِ ومـاءِ العُيونِ.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالمَلائكةِ والكتبِ والمقاديرِ والأرزاقِ والأنداءِ والصَّواعقِ ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكةِ وأعمالِ العبادِ والأبخرَةِ والأدخِنَةِ.

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ للمُفرِّطينَ في شكرِ نِعمَتِه مع كثرتِها، أو: في الآخرةِ مع ما له مِن سَوابِقِ هذه النِّعَمِ الفائتةِ للحصرِ.

(٣) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ إنكارًا لِمَجيئِها، أو استبطاءً استهزاءً بالوَعدِ به.

﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامِهم وإثباتٌ لِمَا نَفَوْه ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ تكريرٌ لإيجابِه مؤكَّدًا بالقسَمِ مقرَّرًا بوصفِ المقسَمِ به بصفاتٍ تقرِّرُ إمكانَه وتنفي استبعادَهُ على ما مرَّ غيرَ مَرَّةٍ.

وقـرأ حمزَةُ والكِسـائيُّ: ﴿عَلَّامِ الغَيْبِ﴾ للمبالغـةِ، ونافعٌ وابنُ عامـرٍ ورُوَيسٌ: ﴿عالِـمُ الغيـبِ﴾ بالرَّفعِ[1] على أنَّـه خبرُ مَحـذوفٍ، أو مبتدأٌ خبرُه:

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقرأ الكِسائيُّ: ﴿لا يَعْزِبُ﴾ بالكسرِ[2].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٢٢)، و«النشر» (٢/ ٣٤٩).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٢٢).

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ جملةٌ مُؤكِّدَةٌ لنَفْيِ العُزوبِ، ورَفعُهُما بالابتداءِ، ويؤيِّدُه القراءةُ بالفتحِ على نفيِ الجنسِ(١)، ولا يجوزُ عَطْفُ المرفوعِ على ﴿مِثۡقَالُ﴾ والمفتوحِ على ﴿ذَرَّةٖ﴾ بأنَّه فتحٌ في موضعِ الجرِّ لامتناعِ الصَّرفِ؛ لأنَّ الاستثناءَ يمنعُهُ، اللهمَّ إلَّا إذا جُعِلَ الضَّميرُ في ﴿عَنۡهُ﴾ للغيبِ، وجُعِلَ المثبتُ في اللوحِ خارجًا عنه لظُهورِه على المطالعينَ له، فيكونُ المعنى: لا ينفصِلُ عن الغَيْبِ شيءٌ إلا مسطورًا في اللوحِ.

(٤) ـ ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ عِلَّةٌ لقولِه: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ وبيانٌ لِمَا يقتضي إتيانَها(٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لا تعبَ فيه ولا مَنَّ عليه.

(٥) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالإبطالِ وتزهيدِ النَّاسِ فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مُسابقينَ كَيْ يَفوتُونا.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿مُعَجِّزِينَ﴾(٣)؛ أي: مُثبِّطينَ عن الإيمانِ مَن أرادَه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ﴾: من سيِّئِ العذابِ ﴿أليمٍ﴾: مؤلمٍ، ورفعَهُ ابنُ كثيرٍ ويَعقوبُ وحَفصٌ(٤).

---

(١) بالرفع قراءة الجمهور، وبالفتح نسبت للأعمش وقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «إثباتها». قال الخفاجي: قولُه: (بيان لما يقتضي إتيانها) بالمُثنَّاةِ الفوقيَّة والنُّون؛ لأنَّ المُقتضى لمجيءِ السَّاعَة جزاء المُحسِن والمسيء، ووقعَ في بعضِ النُّسخ: (إثباتها) بالمُثلَّثةِ والمُوحَّدَةِ بعدها والمُثنَّاةِ الفوقيَّة، والمعنى: أنَّ الجزاء مُقتضٍ لإثباتِ الأشياء في علمِهِ أو في اللَّوحِ فيكونُ مُرتبطًا بجُملَةِ ما قبلَه، والأولى أولى. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٨٠)، و«النشر» (٢/ ٣٤٩).

(٦) ـ ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾: ويعلمَ أولو العلمِ مِن الصَّحابةِ ومَن شايَعَهُم من الأمَّةِ، أو مِن مُسلِمِي أهلِ الكتابِ ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: القرآنَ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾.

ومَن رفعَ (الحق)[1] جعلَ ﴿هُوَ﴾ ضميرًا مُبتدأً و(الحقُّ) خبرَه، والجملَةَ ثانيَ مَفعولَيْ (يَرَى)، وهو مرفوعٌ مُستأنَفٌ للاستشهادِ بأولي العلمِ على الجَهَلةِ السَّاعينَ في الآياتِ.

وقيل: منصوبٌ مَعطوفٌ على ﴿لِيَجْزِىَ﴾؛ أي: وليعلمَ أولو العلمِ عندَ مجيءِ السَّاعةِ أنَّه الحقُّ عيانًا كما عَلِمُوه الآنَ بُرهَانًا.

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الذي هو التَّوحيدُ والتَّدرُّعُ بلباسِ التَّقْوَى.

(٧) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ قال بَعضُهم لبعضٍ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون: محمدًا عليه السَّلامُ ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾: يحدِّثُكُم بأعجبِ الأعاجيبِ[2]:

﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: إنَّكُم تُنشَؤونَ خلقًا جديدًا بعدَ أن تُمَزَّقَ أجسادُكُم كلَّ تَمزيقٍ وتفريقٍ بحيثُ تَصيرُ تُرابًا، وتقديمُ الظَّرفِ للدَّلالةِ على البعدِ والمبالغةِ فيه، وعامِلُهُ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما بعدَهُ، فإنَّ ما قبلَه لم يُقارِنْه وما بعدَه مُضافٌ إليه أو محجوبٌ بينَهُ وبينَه بـ(إنَّ).

و﴿مُمَزَّقٍ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مَكانًا بمعنى: إذا مُزِّقْتُم وذهبَتْ بكم السُّيولُ كلَّ مَذهبٍ وطُرِحْتُم[3] كلَّ مَطْرَحٍ.

---

(١) أي: (الحقُّ)، حكاها أبو معاذ، ونسبت لابن أبي عبلة، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«البحر» (١٧/ ٣٩٤).

(٢) في نسخة الخيالي: «العجائب».

(٣) في نسخة الفاروقي: «فطرحته». وفي نسخة التفتازاني والخيالي: «وطرحته»، والمثبت من نسخة الطبلاوي. قال الخفاجي: وقولُه: (طرحته) أي: المذهب، وفي نسخَةٍ: (طرحتكم) وهيَ أظهر. انظر: «حاشية الخفاجي».

و﴿جَدِيدٍ﴾ بمعنى فاعلٍ مِن جَدَّ؛ كحَدِيدٍ مِن حَدَّ، وقيل: بمعنى مفعولٍ مِن جَدَّ النَّسَّاجُ الثَّوبَ: إذا قطعَه.

(٨) ـ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾: جنونٌ يوهمهُ ذلك ويُلقيهِ على لسانِه.

واستُدِلَّ بجَعلِهم إيَّاه قسيمَ الافتراءِ غيرَ مُعتقِدينَ صِدقَهُ على أنَّ بينَ الصِّدقِ والكَذبِ واسطةً، وهو: كلُّ خبرٍ لا يَكونُ عن بَصيرةٍ بالمخبَرِ عنه، وضعفُهُ بيِّنٌ؛ لأنَّ[١] الافتراءَ أخصُّ مِن الكَذبِ.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ رَدٌّ مِن اللهِ عليهم ترديدَهُم، وإثباتٌ لهم ما هو أفظَعُ مِن القِسْمَيْنِ، وهو الضَّلالُ البعيدُ عن الصَّوابِ بحيثُ لا يُرْجَى الخلاصُ منه، وما هو مُؤدَّاهُ من العذابِ، وجَعْلُه رسيلًا[٢] له في الوُقوعِ

---

(١) في نسخة الفاروقي: «من حيث إن»، وفي نسخة التفتازاني: «حيث إن».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «وسيلاً»، وكذا وقعت عند الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٤٩٧)، وعليه شرح ـ بما ليس بظاهر ـ مستدلًا بعبارة «الكشاف» على أن اللفظ فيه بالواو، مع أن الذي في «الكشاف» (٧/ ١١٥): «رسيلاً» بالراء، ولم نقع في نسخه الخطية على غيره، وعليه شرح الطيبي عبارة «الكشاف» وشراح البيضاوي عبارة البيضاوي، ولم يذكروا فيه خلافاً ولا فرق نسخ.

فنقل الطيبي عن «أساس البلاغة» قوله: يقال: هو رَسيلُك في الغناء، أي: يُباريك في إرسالِك، ومن المجاز تقول: القَبيحُ سوءُ الذِّكرِ رَسيلُه، وسوءُ العاقبةِ زَميلُه.

وقال الشهاب: قوله: «وجعله رسيلاً له»؛ أي: قريناً له في الوقوع لأنّ الاقتران في النظم يناسب الاقتران في الوقوع. ونحوه قال القونوي وغيره من الشراح.

قال شيخ زاده: أي: جعل العذاب تابعاً مقارناً للضلال حيث عطف أحدهما على الآخر بالواو المؤذنة بالاجتماع في الوقوع.

وقال ابن التمجيد: رسيل الرجل: الذي يراسله في نضال أو غيره، استعير للمقارن؛ أي: جعل العذاب مقترناً للضلال في الوقوع، والحال أن العذاب إنما هو في الآخرة والضلال في الدنيا؛ =

ومقدَّمًا عليهِ في اللفظِ للمبالغَةِ[1] في استحقاقِهِم له، والبعدُ في الأصلِ صِفَةُ الضَّالِّ، ووصفُ الضَّلالِ به على الإسنادِ المجازيِّ.

(٩) ـ ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ تذكيرٌ بما يعاينونَهُ ممَّا يدلُّ على كمالِ قُدرَةِ اللهِ وما يحتملُ فيه[2]؛ إزاحةً لاستحالَتِهِم الإحياءَ حتى جَعلوهُ افتراءً وهزءًا، وتهديدًا عليها، والمعنى: أعَمُوا فلم ينظرُوا إلى ما أحاطَ بجَوانبِهِم مِن السَّماءِ والأرضِ ولم يتفكَّرُوا: أهُمْ أشَدُّ خلقًا أم هي؟ وإنَّا إنْ نشَأْ نخسِفْ بهم أو نُسقِط عليهم كسفًا لتكذيبِهِم بالآياتِ بعدَ ظُهورِ البيِّنَاتِ.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿يَشَأْ﴾، و﴿يَخْسِفْ﴾ و﴿يُسْقِطْ﴾ بالياءِ[3]؛ لقولِه: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾، وحفصٌ: ﴿كِسَفًا﴾ بالتَّحريكِ[4].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ النَّظرِ والفِكرِ فيهما وما يَدُلَّانِ عليه ﴿لَآيَةً﴾: لدلالةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾: راجعٍ إلى ربِّهِ، فإنَّه يكونُ كثيرَ التَّأمُّلِ في أمرِه.

(١٠) ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾؛ أي: على سائرِ الأنبياءِ، وهو ما ذُكرَ بعدُ، أو: على سائرِ النَّاسِ، فيندرجُ فيه النبوَّةُ والكتابُ والملكُ والصَّوتُ الحَسَنُ.

= إشعاراً بأن الضلال لما كان العذاب من لوازمه فكأنهما في الحقيقة مقترنان في الوجود في وقت واحد. انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٥١٠)، و«حاشية الخفاجي»، و«حاشية ابن التمجيد» و«حاشية القونوي» (١٥/ ٢٥٦)، و«حاشية شيخ زاده» (٦/ ٦٧٨).

(١) في نسخة الفاروقي: «مبالغة».

(٢) أي: في كمال قدرة الله تعالى. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٤٩٧).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

(٤) وقراءة الباقين بإسكان السين، انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾: رجِّعِي معه التَّسبيحَ، أو النَّوحةَ على الذَّنبِ، وذلك: إمَّا بخَلْقِ صَوْتٍ مثلِ صوتِه فيها، أو بحملِها إيَّاه على التَّسبيحِ إذا تأمَّلَ ما فيها.

أو: سيري معه حيثُ سارَ.

وقرئ: (أُوْبي)[1] من الأَوْبِ؛ أي: ارجِعِي في التَّسبيحِ كلَّما رَجَعَ فيه.

وهو بدلٌ مِن ﴿فَضْلًا﴾ أو مِن ﴿ءَاتَيْنَا﴾، بإضمارِ (قولَنا) أو (قُلْنا)[2].

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطفٌ على محلِّ الجبالِ، ويؤيِّدُه القراءةُ بالرَّفعِ[3] عطفًا على لفظِها تشبيهًا للحركةِ البنائيَّةِ العارضةِ بحركةِ الإعرابِ[4]، أو على ﴿فَضْلًا﴾، أو مفعولٌ معهُ لـ﴿أَوِّبِي﴾، وعلى هذا يجوزُ أن يكون الرَّفعُ بالعَطفِ على ضَميرِه، وكانَ الأَصلُ[5]: ولقَدْ آتينا داودَ مِنَّا فضلًا تأويبَ الجبالِ والطَّيرِ، فبدَّلَ به هذا النَّظمَ لِمَا فيه من الفَخامَةِ والدَّلالةِ على عظمةِ شأنِهِ وكبرياءِ سُلطانِه، حيثُ جعلَ الجبالَ والطُّيورَ كالعُقَلاءِ المُنقادينَ لأمرِهِ في نفاذِ مَشيئَتِه فيها.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾: جعلناهُ في يدِه كالشَّمعِ يُصرِّفُهُ كيفَ يَشاءُ مِن غيرِ إحماءٍ وطَرْقٍ، بإلانَتِه أو بقوَّتِه.

(١١) ـ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أمرناهُ أنِ اعمَلْ، و﴿أَنِ﴾ مُفسِّرَةٌ أو مَصدريَّةٌ ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾: دروعًا واسعاتٍ، وقُرِئَ: (صابغاتٍ)[6].

---

(١) نسبت لابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٢) أي: هو بدلٌ مِن ﴿فَضْلًا﴾ بإضمار: قولَنا؛ أي: ولقد آتينا دوادَ مِنّا قَوْلَنا: ﴿يَٰجِبَالُ﴾، أو مِن ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بإضمار: قلنا؛ أي: ولقد قُلنا: يا جبالُ. انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٥١٦).

(٣) وهي قراءة الأعرج وعبد الوارث عن أبي عمرو كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٤) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «بالحركة الإعرابية».

(٥) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «وكان أصل النظم».

(٦) دون نسبة في «الكشاف» (٧/ ١٢١)، و«البحر» (١٧/ ٤٠٤). وهي لغة: إبدال السين صاداً للغين =

وهو أوَّلُ مَن اتَّخذَها(١).

﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾: وقدِّرْ في نَسجِها بحيثُ يتناسَبُ حَلَقُها، أو قدِّرْ مَساميرَها فلا تَجْعَلْها دِقَاقًا فتَقْلَق(٢)، ولا غِلَاظاً فتَخْرِق.

ورُدَّ بأنْ دُروعَهُ لم تكُن مُسمَّرةً، ويؤيِّده قولُه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ الضَّميرُ فيه لداودَ وأهلِه ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأُجازِيكُم عليه.

(١٢) - ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: وسَخَّرْنا له الرِّيحَ، وقرأ أبو بكرٍ: ﴿الرِّيحُ﴾ بالرَّفعِ(٣)؛ أي: ولسليمانَ الرِّيحُ مُسخَّرةً، وقرئ: ﴿الرِّيَاحُ﴾(٤).

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: جَرْيُها بالغَداةِ مسيرةُ شَهرٍ وبالعَشِيِّ كذلك، وقُرِئَ: (غُدْوَتُها... ورَوْحَتُها)(٥).

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾: النُّحاسِ المُذاب، أسالَه لَهُ مِن معدنِه فنبعَ منه نبوعَ الماءِ مِن الينبوعِ، ولذلك سمَّاهُ عَينًا وكان ذلك باليمنِ.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، و﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حالٌ متقدِّمَةٌ، أو جملةٌ مِن مُبتدأٍ وخبرٍ.

= بعدها. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٦٨)، عند قوله: (وأصبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة).

(١) وكانت قبل ذلك صفائح. رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٨٨٠)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٢٣)، عن قتادة.

(٢) في هامش نسخة الفاروقي: «فتقلق؛ أي: فتضطرب. سعدي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

(٤) أي: بالرفع أيضاً، وهي قراءة أبي جعفر، انظر: «النشر» (٢/ ٢٢٣).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٠٩)، و«البحر» (١٧/ ٤٠٦)، عن أبي حيوة.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾: بأمره ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا﴾: ومَن يعدِلْ منهم عمَّا أَمَرْناه مِن طاعةِ سُلَيْمانَ، وقُرِئَ: (يُزَغ)[1] من أزاغه.

﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: عذابِ الآخرةِ.

(١٣) ـ ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾: قصورًا حصينةً ومساكنَ شريفةً، سُمِّيَت به لأنَّها يذبُّ عنها ويُحاربُ عليها.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾: وصورًا وتماثيلَ للمَلائكَةِ والأنبياءِ على ما اعتادوا مِن العباداتِ ليَراهَا النَّاسُ فيعبدُوا نحوَ عِبادَتِهم[2]،..........................

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢) عن بعضهم.

(٢) هذا القول ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية عن ابن عباس، ولم أقف عليه عن ابن عباس وحاشاه أن يذهب لمثل هذا، لكن ذكره أكثر المفسرين في تفاسيرهم دون عزو، منهم الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٥٦)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٨٩)، وتاج القراء الكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ٩٢٨)، والزمخشري في «الكشاف» (٧/ ١٢٤)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٩١).

وهو قول مردود لا دليل عليه من الشرع ولا خبر فيه يعتمد عليه، بل هو مخالف لشرعنا ولشرع مَن قبلنا، فكيف يرضى شرع نبي من أنبياء الله بصنع تماثيل للأنبياء والصالحين لأجل الاقتداء، مع أن هذا هو نفسه سبب ضلال كثير من الناس والأمم كما بين الله سبحانه لنا في سورة نوح، وكما روى البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثانُ التي كانت في قومِ نوحٍ في العرب بعدُ، أما وَدٌّ كانت لكَلْبٍ بدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وأما سُوَاعٌ كانت لهُذَيلٍ، وأما يغوثُ فكانت لمُرادٍ، ثُم لبني غُطَيْفٍ بالجَوف، عند سبإ، وأما يَعُوقُ فكانت لهَمْدانَ، وأمَّا نَسْرٌ فكانت لحِمْيَرَ لآل ذي الكَلاعِ، أسماءُ رجال صالحين من قوم نوح، فلما هَلَكوا أَوْحى الشيطانُ إلى قومهم أنِ انْصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبدْ، حتى إذا هَلَكَ أولئك وتَنَسَّخ العلمُ عُبدت.

فإن قال قائل: فما هو المقصود بالتماثيل إذاً؟ فنقول: قد قيل فيها أقوال أخر، منها أنها كانت =

وحرمَةُ التَّصاويرِ شرعٌ مُجدَّدٌ(١).

رُوِيَ أنَّهُم عَمِلُوا أَسدَيْنِ في أسفلِ كُرسيِّهِ ونَسْرَينِ فوقَه، فإذا أرادَ أن يصعدَ بسطَ الأسدانِ له ذِراعَيْهِما، وإذا قعدَ أظلَّهُ النَّسرانِ بأَجنِحَتِهِما.

﴿وَجِفَانٍ﴾: وصِحَافٍ ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: كالحياضِ الكبارِ، جمعُ جابِيَةٍ مِن الجبايةِ، وهي مِن الصِّفاتِ الغالبةِ كالدَّابَّةِ.

= لغير الحيوان، ومنها ما ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٩٢) عن الضحاك: أنها كانت كالطَّواويس والعِقْبان والنُّسور على كرسيِّه ودرجات سريره لكي يَهابَها من أراد الدُّنُوَّ منه.

وقد كان العلامة الشعراوي من القلة الذين أنكروا القول بما تقدم من تفسير التماثيل، وذكر فيها معنًى حسناً لعله لم يسبق إليه، فقال في «تفسيره» (١٥/ ٩٦١٤): أما التماثيل فهي معروفة، والموقف منها واضح منذ زمن إبراهيم عليه السلام حينما كسَّرها ونهى عن عبادتها، وهذا يردُّ قول مَنْ قال بأن التماثيل كانت حلالاً، ثم فُتِن الناس فيها فعبدوها من دون الله فَحرِّمت، إذن: كيف نخرج من هذا الموقف؟ وكيف يمتنُّ الله على نبيه سليمان أن سخر له من يعملون التماثيل وهي مُحرَّمة؟

نقول: كانوا يصنعون له التماثيل لا لغرض التعظيم والعبادة، إنما على هيئة الإهانة والتحقير، كأن يجعلوها على هيئة رجل جبار، أو أسد أضخم يحمل جزءاً من القصر أو شرفةً من شرفاته، أو يُصوِّرونها تحمل مائدة الطعام... إلخ؛ أي: أنها ليست على سبيل التقديس.

وقال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٢/ ١٦٢): والتمثالُ هو الصورةُ المُمَثِّلةُ، أي: المُجَسِّمةُ مِثلَ شيءٍ من الأجسامِ فكان النَّحَّاتون يعملون لسليمانَ صورًا مختلفةً كصورٍ موهومةٍ للملائكة وللحيوان مثلَ الأسود، فقد كان كرسيُّ سليمان محفوفًا بتماثيل أسودٍ أربعةَ عشرَ كما وُصف في الإصحاح العاشر مِن سِفرِ الملوك الأولِ، وكان قد جعل جابيةً عظيمةً من نحاسٍ مصقولٍ مرفوعةً على اثنتي عشرةَ صورةَ ثور من نحاس.

(١) أي أنها لم تكن إذ ذاك اتخاذها محرماً، ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» عند هذه الآية، عن أبي العالية، وقال الإمام أبو منصور الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٤٣٣) في توجيه اتخاذ التماثيل: أو أن تكون تماثيل لا رأس لها، نحو: الأواني والكيزان ونحوها، اهـ.

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾: ثابتاتٍ على الأثافيِّ لا تنزلُ عنها لعِظَمِها.

﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكايةٌ لِمَا قيلَ لهم، و﴿شُكْرًا﴾ نصبٌ على العلَّةِ؛ أي: اعمَلُوا له واعبدوهُ شُكْرًا، أو المصدرِ لأنَّ العملَ له شكرٌ، أو الوصفِ له[1]، أو الحالِ، أو المفعولِ به.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾: المتوفِّرُ على أداءِ الشُّكرِ بقَلْبِه ولسانِه وجوارحِه أكثرَ أوقاتِه، ومع ذلك لا يوفِّي حقَّهُ لأنَّ توفيقَهُ للشُّكرِ نعمةٌ تَسْتَدعِي شُكْرًا آخرَ لا إلى نهايةٍ، ولذلك قيل: الشَّكورُ مَن يَرَى عَجْزَه عن الشُّكرِ[2].

(١٤) ـ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: على سليمانَ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾: ما دلَّ الجنَّ، وقيل: آلَهُ ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الأَرَضةُ، أُضيفَت إلى فعلِها.

وقُرِئَ بفَتحِ الرَّاءِ[3] وهو تأثُّرُ الخشبةِ مِن فعلِها؛ يقال: أَرَضَتِ الأَرَضَةُ الخَشبَةَ أَرْضًا، فأَرِضَتْ أَرَضًا، مثل: أَكَلَتِ القَوادِحُ الأسنانَ أَكْلًا فأَكِلَتْ أَكَلًا.

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾: عصاهُ، مِن نَسَأْتُ البعيرَ: إذا طردتَه، لأنَّها يُطرَدُ بها.

وقُـرِئَ بفتـحِ الميمِ وتخفيـفِ الهمزةِ قلبًا وحذفًـا[4] على غيرِ قيـاسٍ، إذ القياسُ إخراجُهـا بينَ بينَ.

---

(١) قوله: «أو الوصف له»؛ أي: للمصدر؛ أي: اعملوا عملًا شكراً. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٠٠).

(٢) نسبه أبو حفص النسفي في «التيسير» عند هذه الآية لبسام بن عبد الله الصيرفي، أبي الحسن الكوفي من رجال «التهذيب».

(٣) أي: (الأَرَض)، وهي عند ابن خالويه جمع أَرَضة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، ونسبها للواقدي.

(٤) أي: بقلبها ألفاً، أو بحذفها بالكلية، كلاهما مع فتح الميم، ذكرهما في «البحر» (١٧/ ٤١٤)، والقراءة بفتح الميم وقلب الهمزة ألفاً ذكرها ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤١٢) عن حمزة. وهي خلاف المشهور عنه، وسيأتي اختلاف القراء السبعة فيها.

و: (مِنْسَاءَتَه) على مِفْعَالَةٍ[1] كمِيضَاءَةٍ في مِيضَأَةٍ.

و: (مِن سَأَتِه)[2]؛ أي: طرفِ عصاهُ، مُشتَقًّا[3] مِن سَأَةِ القوسِ، وفيه لغتانِ كمَا في قَحَةٍ وقِحَةٍ.

وقرأ نافعٌ وأبو عمرٍو: ﴿مِنساتَه﴾ بألفٍ ساكنةٍ بدلاً من الهمزة، وابنُ ذَكْوانَ بهمزةٍ ساكنةٍ، وحمزةُ إذا وَقَفَ جَعَلَها بينَ بينَ[4].

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾: عَلِمَت الجِنُّ بعدَ التباسِ الأمرِ عَلَيهِم ﴿أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾: أنَّهُم لو كانوا يعلمونَ الغيبَ كمَا يزعمونَ لعَلِمُوا موتَه حيثما وقعَ، فلم يلبثوا بعدَهُ حولًا في تسخيرِهِ إلى أَنْ خرَّ.

أو: ظهَرَتِ الجنُّ، و﴿أَن﴾ بما في حَيِّزِه بدلٌ منهُ[5]؛ أي: ظهرَ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمونَ الغيب ما لَبِثُوا في العذابِ.

وذلك أن داودَ أَسَّسَ بيتَ المقدسِ في موضعِ فُسطاطِ مُوسى عليهِمَا السَّلامُ، فماتَ قبلَ تَمامِه، فوصَّى به إلى سليمانَ، فاستعملَ الجنَّ فيه، فلم يتمَّ بعدُ إذ دنا أجلُهُ، وأُعلِمَ به فأرادَ أَنْ يُعمِّيَ عليهم موتَه ليُتمُّوهُ، فدعاهم فبَنَوْا عليه صَرْحًا من قواريرَ ليسَ له بابٌ، فقامَ يُصَلِّي مُتَّكِئًا على عصاهُ فقبضَ روحَهُ وهو مُتَّكِئٌ عليها، فبقي كذلك حتى أكلَتْها الأرضَةُ فخرَّ، ثم فتحُوا عنه وأرادوا أن يعرفوا وقتَ موتِه

---

(١) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٢٩)، و«البحر» (١٧/ ٤١٤).

(٢) نسبت لعمرو بن ثابت عن سعيد بن جبير، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٨٦)، و«البحر» (١٧/ ٤١٤).

(٣) في نسخة الفاروقي: «مستعار».

(٤) والباقون بهمزة مفتوحة، وجميعهم اتفقوا على كسر الميم. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٠).

(٥) قوله: «و﴿أَن﴾ بما في حيزه بدل منه»؛ أي: من ﴿ٱلْجِنُّ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٠١).

فوضعُوا الأرضةَ على العصا فأكلَتْ يومًا وليلةً مقدارًا، فحَسَبُوا على ذلك فوجدوهُ قد ماتَ منذُ سنةٍ[١]، وكانَ عمرهُ ثلاثًا وخمسينَ سنةً، ومَلَكَ وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً، وابتدأَ عمارةَ بيتِ المقدسِ لأربعٍ مَضَيْنَ مِن مُلكِهِ[٢].

(١٥) ـ ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٍ﴾: لأولادِ سَبأ بنِ يَشْجبَ بنِ يَعْربَ بنِ قحطانَ، ومَنَعَ الصَّرفَ عنه ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو[٣] لأنَّه صارَ اسمَ القبيلَةِ، وعن ابنِ كثيرٍ قلبُ هَمزَتِه ألفًا، ولعلَّهُ أخرجَهُ بينَ بينَ فلَمْ يُؤَدِّهِ الرَّاوِي كما وجبَ[٤].

﴿في مسَاكنِهم﴾: في مواضعِ سُكناهُم وهي باليَمنِ يقالُ لها: مَأرِب، بينَها وبينَ صنعاءَ مسيرةُ ثلاثٍ[٥].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٤١) من طريق السُّدِّي في حديث ذكره عن أبي مالك عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، قال ابن كثير بعد ذكر هذا الخبر في «تفسيره» عند هذه الآية: وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تُلُقِّي من علماء أهل الكتاب، وهي وَقْفٌ لا يصدق منها إلا ما وافق الحق، ولا يُكذب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٦٥)، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٩٩) عن محمد بن إسحاق عن الزهري وغيره.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٤) قال الخفاجي في «حاشيته»: لم يذكر هذه القراءة في «النشر»، لكنه نقل عن عقيل تسكينها بنية الوقف، فإن صحت هذه الرواية فلا مانع من حملها على ظاهرها، فإن الهمزة إذا سكنت يطَّرد قلبها من جنس حركة ما قبلها، وهذا أحسن من توهيم الراوي، فإن مبنى الروايات ونقلها على التحقيق، وقد ذكر المعرب أنه رواية عن أبي عمرو، والمروي عن ابن كثير القصر والتنوين، وإنما حمله على ما ذكر لأنه القياس في الهمزة المتحركة.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٢٤٢) عن قتادة.

وقرأ حمزةُ وحفصٌ بالإفرادِ والفتحِ، والكِسائيُّ بالكسرِ[١] حَمْلًا على ما شذَّ مِن القياسِ كالمَسجِدِ والمَطْلِعِ.

﴿ءَايَةٌ﴾: علامةٌ دالَّةٌ على وجودِ الصَّانعِ المختارِ، وأنَّه قادرٌ على ما يشاءُ مِن الأُمورِ العجيبَةِ مُجازٍ للمُحسِنِ والمسيءِ، معاضِدةٌ للبُرهانِ السَّابقِ كما في قِصَّتَيْ داودَ وسُلَيمانَ عليهِمَا السَّلامُ.

﴿جَنَّتَانِ﴾ بدلٌ مِن ﴿ءَايَةٌ﴾ أو خبرُ مَحذوفٍ تقديرُه: الآيةُ جنَّتانِ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[٢] على المدحِ.

والمرادُ: جماعتانِ مِن البَساتينِ.

﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾: جماعةٌ عن يمينِ بَلَدِهم وجماعةٌ عن شمالِه، كلُّ واحدَةٍ مِنْها في تَقارُبِها وتضايُقِها[٣] كأنَّه جنَّةٌ واحدةٌ، أو بُستانا كلِّ رَجُلٍ مِنْهُم عن يمينِ مَسكَنِه وعن شمالِه.

﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ حكايةٌ لِمَا قال لهم نبيُّهم أو لسانُ الحال، أو دلالةٌ بأنهم كانوا أحقَّاءَ بأن يقالَ لهم ذلك.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئنافٌ للدلالةِ على مُوجِبِ الشُّكرِ؛ أي: هذه البلدةُ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٢) نسبت لابن أبي عبلة، انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤١٣)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٤٢٠).

(٣) وقوله: «وتضايقها» بالقاف؛ أي: واتصالها، فإنه كما يُطلق التفسحُ على الانفصال كقوله: ﴿تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: ١١] يطلق الضيق على الاتصال لأنه لازم معناه. وضبط بالفاء وهو بمعنى القاف؛ أي: تنضم إليها وتتصل بها حتى تكون في حكم شيء واحد وإن تباينت حدودها وملاكها. انظر: «حاشية الخفاجي». وفي نسخة ذكرها الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٥٠٢): «تضامها»، والمعنى في الكل متقارب.

التي فيهَا رِزقُكُم بلدةٌ طَيِّبَةٌ، وربُّكُم الذي رزقكُمْ وطلبَ شُكرَكُم ربٌّ غفورٌ فرَطاتِ مَن يَشكُره، وقُرئَ الكلُّ بالنَّصبِ[١] على المدحِ.

قيل: كانَت أخصبَ البلادِ وأطيبَهَا لم يَكُن فيها عاهَةٌ ولا هامَةٌ.

(١٦) ـ ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾ عن الشُّكرِ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾: سيلَ الأمرِ العَرِمِ؛ أي: الصَّعبِ، مِن عَرِمَ الرَّجُلُ فهو عارِمٌ وعَرِمٌ: إذا شَرِسَ خُلُقُه وصَعُبَ.

أو: المطرِ الشَّديدِ[٢].

أو: الجُرَذِ، أضافَ إليه السيلَ لأنَّه نقَبَ عليهم سِكْرًا ضربَتْه لهم بلقيسُ فحقنَتْ به ماءَ الشِّحْرِ[٣]، وتركَتْ فيه ثُقْبًا على مقدارِ ما يحتاجونَ إليه.

أو: المسنَّاةِ التي عُقدَتْ سِكْرًا، على أنه جمعُ عَرِمَةٍ وهي الحجارةُ المَركومَةُ[٤].

وقيل: اسمُ وادٍ جاءَ السَّيلُ مِنْ قِبَلِه.

وكان ذلك بينَ عِيسى ومُحمَّدٍ عليهِمَا السَّلامُ.

---

(١) نسبت ليعقوب في غير المشهور عنه، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٢).

(٢) قوله: «أو المطر» بالجرّ عطف على «الأمر». انظر: «حاشية الخفاجي». وعنه سننقل ما سيأتي من شرح.

(٣) قوله: «أو الجُرذِ» بضم الجيم وفتح الراء المهملة والذال المعجمة: نوع من الفئران، قيل: إنه أعمى، ويسمى الخلد أيضاً، وقوله: «أضاف إليه..» إشارة إلى أنّ الإضافة لأدنى ملابسة، و«السكر» بفتح السين وكسرها وسكون الكاف: الجسر والسد على الماء، و«ضربته» بمعنى: صنعته وبنته، و«حقنت» بمعنى: حبست وجمعت، و«الشّحر» بكسر الشين المعجمة وقد تفتح وسكون الحاء المهملة: واد بين عُمان وعدن من أرض اليمن، وفيه مساكن سبأ، ويطلق على الوادي ومجرى الماء مطلقاً.

(٤) قوله: «أو المسناة التي عقدت سكراً» هذا تفسير آخر للعرم، قيل: هي ما يبنى ليردّ ماء السيل عن البساتين، و«المركومة» بمعنى الموضوع بعضها فوق بعض لتكون سداً.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾: ثمرٍ بَشِعٍ، فإنَّ الخَمْطَ كلُّ نبتٍ أَخَذَ طَعْمًا مِن مرارةٍ، وقيل: الأَراكُ، أو كلُّ شجرٍ لا شوكَ له، والتَّقديرُ: أُكلِ أُكلِ خَمْطٍ،

فحُذِفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ إليه مُقامَهُ في كونِه بدلًا أو عطفَ بيانٍ.

﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفانِ على ﴿أُكُلٍ﴾ لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإنَّ الأثلَ هو الطرفاءُ[1]، ولا ثمرَ له.

وقُرِئا بالنَّصبِ[2] عطفًا على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾.

ووصفُ السِّدرِ بالقلةِ فإنَّ جَناه وهو النَّبقُ ممَّا يَطِيبُ أَكْلُه، ولذلك يُغرسُ في البساتين.

وتسميةُ البدلِ جنتين للمُشاكلَةِ والتَّهكُّم.

وقرأ أبو عَمرٍو: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلِ﴾ بغيرِ تنوينِ اللامِ، وقرأ الحِرْمِيَّانِ بتَخفيفِ ﴿أُكْل﴾[3].

(١٧) - ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا﴾: بكُفرانِهم النِّعمةَ، أو: بكُفرِهم بالرُّسُلِ، إذ رُوِيَ أنَّه بُعِثَ إليهم ثلاثةَ عشرَ نَبِيًّا فكذَّبُوهم، وتَقديمُ المفعولِ للتَّعظيمِ لا للتَّخصيصِ.

﴿وهل يُجازَى إلا الكَفورُ﴾: وهَلْ يُجازَى بمثلِ ما فَعَلْنَا بهم إلا البَليغُ في الكُفرانِ، أو الكُفرِ.

---

(١) الطرفاء بالمد: شجر لا ثمر له، وهو نوع من الأثل.

(٢) أي: (وأثلًا وشيئًا)، نسبت للفضل بن إبراهيم، انظر: «المختصر شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

وقـرأ حمـزَةُ والكِسـائيُّ ويعقـوبُ وحَفـصٌ: ﴿نُجَزِيٓ﴾ بالنُّـونِ، و﴿ٱلْكَفُورَ﴾ بالنَّصـبِ(١).

(١٨) ـ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتَّوسِـعَةِ على أهلِها، وهي قُـرَى الشَّـامِ ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾: مُتواصلـةً يظهَـرُ بعضُها لبَعـضٍ، أو: راكبةً متـنَ الطَّريقِ ظاهرةً لأبناءِ السَّـبيلِ.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ بحيثُ يَقيلُ الغادي في قريةٍ ويبيتُ الرَّائحُ في قريةٍ إلى أَنْ يَبلُغَ الشَّامَ.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ على إرادةِ القولِ بلِسانِ الحالِ أو المقالِ ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾: مَـتى شِئتُم مِن ليلٍ أو نَهارٍ ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا يختلِفُ الأمنُ فيها باختلافِ الأوقاتِ.

أو: سيروا آمنينَ وإن طالَت مُدَّةُ سَفرِكُم فيها.

أو: سيروا فيها لياليَ أعمارِكُم وأيامَها لا تَلقَوْنَ فيها إلا الأمنَ.

(١٩) ـ ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أَشِرُوا النِّعمةَ ومَلُّوا العافيةَ كبني إسرائيلَ، فسَأَلُوا اللهَ أَنْ يجعلَ بينَهُم وبينَ الشَّامِ مَفاوِزَ ليَتطاوَلُوا فيها على الفُقَراءِ بركوبِ الرَّواحلِ وتَزوُّدِ الأزوادِ، فأَجابَهُم اللهُ تعالى بتَخريبِ القُرَى المُتوسِّطَةِ.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وأبو عمرٍو وهشام: ﴿بَعِّدْ﴾(٢)، ويعقوبُ: ﴿رَبُّنَا باعَدَ﴾(٣).

بلَفظِ الخبرِ على أنَّه شَكوى مِنْهم لبُعدِ سَفَرِهم؛ إفراطًا في التَّرفُّهِ وعدمِ الاعتدادِ بما أَنعمَ اللهُ عليهِم فيه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٣) انظر: «المبسوط» لابن مهران (ص: ٣٦٢)، وهي رواية عنه.

ومثلُه قراءَةُ مَن قرأ: (رَبَّنا بَعُد) أو: (بُعِّد) على النِّداءِ وإسنادِ الفعلِ إلى (بينُ)[(١)].

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيثُ بَطِرُوا النِّعمةَ أو لم[(٢)] يَعتَدُّوا بها.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدَّثُ النَّاسُ بهم تَعجُّبًا وضَرْبَ مَثَلٍ فيقولونَ: (تَفرَّقُوا أَيدِي سَبَا)[(٣)] ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ففرَّقناهم غايةَ التَّفريقِ حتَّى لَحِقَ غسَّانُ مِنهُم بالشَّامِ، وأَنْمارُ بيَثْرِبَ، وجُذَامُ بتِهامَةَ، والأَزْدُ بعُمَانَ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: فيما ذكرَ ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصِي ﴿شَكُورٍ﴾ على النِّعَمِ.

(٢٠) ـ ﴿ولَقَد صَدَقَ علَيْهِم إبليسُ ظَنَّهُ﴾؛ أي: صَدَقَ في ظَنِّهِ، أو صَدَقَ بظَنٍّ ظنَّه، مثلَ: فعَلْتَه جهدَكَ، ويجوزُ أن يُعَدَّى الفعلُ إليه بنَفسِه كمَا في (صَدَقَ وعدَهُ)

لأنَّه نوعٌ مِن القَوْلِ، وشدَّدَه الكوفِيُّونَ[(٤)] بمعنى: حقَّقَ ظَنَّهُ، أو: وجدَهُ صادِقًا.

---

(١) أي: (ربَّنا بَعُد بَيْنُ أَسفارِنَا) و: (بُعِّد بينُ أَسفارِنَا) على النداء وإسنادِ الفِعْل إلى (بَيْنُ) ورَفْعِه به. ذكرهما دون نسبة الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ١٤٠)، ونسبت الأولى لسعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري، وابن يعمر، ومحمد بن السميفع، وغيرهم، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٨٩).

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «ولم». قال الخفاجي: وقولُه: (أو لم يعتدوا بها) بالعطفِ بـ«أو» كما في أكثرِ النُّسخ على وجوهِ الخبريَّة والقُرَّاءات الأخيرَة، وكذا على العطفِ بالواوِ على ما في بعضِها. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «مجمع الأمثال» (١/ ٢٧٥)، و«المستقصى» (٢/ ٨٨).

(٤) وهم عاصم وحمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

وقُرِئَ بنَصبِ (إبليسَ) ورفعِ الظَّنِّ مع التَّشديدِ[1] بمَعنى: وجدَهُ ظنُّه صادقًا، والتَّخفيفِ[2] بمعنى: قالَ له ظنُّهُ الصِّدقَ حين خيَّله إغواءَهُم[3].

وبرفعِهما والتَّخفيفِ[4] على الإبدالِ.

وذلك إما ظنُّه بالسَّبأ حينَ رأَى انهِمَاكَهُم في الشَّهواتِ، أو ببَنِي آدمَ حينَ رَأَى أباهُم النَّبيَّ ضعيفَ العَزْمِ، أو ما ركِّبَ فيهم مِن الشَّهوَةِ والغضبِ، أو سمعَ مِن الملائكةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] فقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [الحجر: ٣٩].

﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: إلا فريقًا هم المؤمنونَ لم يتَّبعوهُ، وتقليلُهُم بالإضافةِ إلى الكُفَّارِ، أو: إلَّا فريقًا من فرقِ المُؤمنينَ لم يتَّبعوهُ في العصيانِ وهم المخلِصونَ.

(٢١) ـ ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم﴾: على المتَّبِعِين ﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾: تسلُّطٍ واستيلاءٍ بالوَسْوَسَةِ والاستغواءِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٤١).

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩١) عن الزهري وأبي الهجهاج الأعرابي، ونسبها في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤١٧) لبلال بن أبي بردة.

(٣) قوله: «خيله إغواءهم» بنصب «إغواءهم» على الحذف والإيصال، وفاعله ضمير الظن؛ أي: خيل له إغواءهم. أو برفعه على الفاعلية. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٤١) دون نسبة، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢) عن عبد الوارث عن أبي عمرو. ولم يقيد ابن خالويه (صدق) بتشديد ولا تخفيف، لكن ذكر الآلوسي في «روح المعاني» (٢٢/ ٨٥) أن ظاهر قول الزمخشري بعدها: «ولو قرئ بالتَّشديد معَ رفعهمَا» أنه لم يقرأ أحد بذلك.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾: إلا ليتعلَّقَ عِلمُنا بذلك تعلُّقًا يترتَّبُ عليه الجزاءُ، أو ليتميَّزَ المؤمنُ مِن الشَّاكِّ، أو ليؤمنَ مَن قدَّرَ إيمانَه ويشكَّ مَن قدَّرَ ضلالَهُ.

والمرادُ مِن حُصولِ العلمِ: حصولُ مُتعلِّقِه مُبالغَةً، وفي نظمِ الصِّلَتينِ نكتةٌ لا تَخْفَى.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾: مُحافِظٌ، والزِّنَتانِ مُتَآخِيَتانِ.

(٢٢) ـ ﴿قُلِ﴾ للمُشركينَ: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾؛ أي: زَعَمْتُموهُم آلهةً، وهُمَا مَفعولَا (زَعَم) حُذِفَ الأوَّلُ لِطولِ الموصول بصِلَتِه، والثَّاني لقيامِ صِفَتِه ـ وهي ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ ـ مَقامَه، ولا يجوزُ أَنْ يكونَ هو مفعولَهُ الثَّانيَ لأنَّه لا يلتَئِمُ مع الضَّميرِ كلامًا، ولا ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأنَّهم لا يزعُمونَه ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ والمعنى: ادعوهُم فيما يُهِمُّكُم مِن جَلبِ نَفعٍ أو دفعِ ضرٍّ لعَلَّهُم يستجيبونَ لَكُم إن صحَّ دعواكم، ثمَّ أجابَ عنهم إشعارًا بتعيُّنِ الجوابِ وأنَّه لا يقبلُ المُكابرةَ فقال:

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ في أمرٍ مّا، وذكرُهُما للعُمومِ العُرْفِيِّ، أو لأنَّ آلهتَهُم بعضُها سَماوِيَّةٌ كالملائكةِ والكواكبِ، وبعضُهَا أَرضِيَّةٌ كالأصنامِ، أو لأنَّ الأسبابَ القَريبَةَ للشرِّ والخيرِ سماويَّةٌ وأرضيَّةٌ، والجملةُ استئنافٌ ببيانِ حالِهِم.

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾: مِن شركةٍ لا خَلْقًا ولا مُلْكًا ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ يُعِينُه على تَدبيرِ أمرِهِما.

(٢٣) ـ ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ فلا تَنفَعُهم شفاعةٌ أيضًا كما يزعمونَ؛ إذ لا تنفعُ الشَّفاعَةُ عندَ اللهِ ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾: أَذِنَ له أن يَشْفعَ، أو أذِنَ أَنْ يُشْفَعَ لهُ لعلوِّ

شأنِه، ولم يثبُت ذلك، واللامُ على الأوَّلِ كاللامِ في قولِك: الكَرَمُ لزيدٍ، وعلى الثَّاني كاللامِ في: جئتُك لزيدٍ.

وقرأ أبو عمرٍو وحمزةُ والكِسائيُّ بضمِّ الهمزَةِ[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ غايةٌ لِمَفهومِ الكلامِ مِن أَنَّ ثَمَّ توقُّفاً وانتظاراً للإذنِ؛ أي: يَتربَّصونَ فَزِعينَ حتَّى إذا كُشفَ الفزعُ عن قلوبِ الشَّافعينَ والمشفوعِ لهم بالإذنِ.

وقيل: الضَّميرُ للمَلائِكَةِ وقد تقدَّمَ ذِكرُهُم ضِمْنًا.

وقرأ ابنُ عامرٍ ويَعقوبُ: ﴿فَزَّعَ﴾ على البناءِ للفاعلِ[2]، وقُرِئَ: (فُرِّغَ)[3]؛ أي: نُفِيَ الوجَلُ، مِن فَرَغَ الزَّادُ: إذا فَنِيَ.

﴿قَالُوا﴾ قال بعضُهُم لبعضٍ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشَّفاعةِ؟

﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ قالوا: قالَ القولَ، وهو الإذنُ بالشَّفاعةِ لِمَن ارتضَى وهُم المؤمنونَ، وقُرِئَ بالرَّفعِ[4]؛ أي: مقولُه الحَقُّ.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذو العلُوِّ والكبرياءِ ليس لِملَكٍ أو نبيٍّ أن يتكلَّمَ ذلك اليومَ إلَّا بإذنه.

---

(١) في نسخة الفاروقي بدل «بضم الهمزة»: «أذن على البناء للمفعول»، انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦١)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٢) عن الحسن، و«البحر» (١٧/ ٤٤١) عنه وعن ابن عمر وقتادة وغيرهم.

(٤) نسبها الهذلي في «الكامل» (ص: ٦٢٣)، وأبو حيان في «البحر» (١٧/ ٤٤٣)، لابن أبي عبلة، وأجازها نحواً لا قراءة: الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٢) فقال: ولو قرئ: (الْحَقُّ) بالرفع ـ أي: هو الحق ـ كان صوابًا، وتابعه الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٥٣).

(٢٤) ـ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريدُ بهِ تقريرَ قولِه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواهُ، وفيهِ إشعارٌ بأنَّهم إن سكتُوا أو تلعثَمُوا في الجوابِ مخافةَ الإلزامِ فهُمْ مُقِرُّونَ به بقُلوبِهم.

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: وإنَّ أحدُ الفَريقَيْنِ مِن الموحِّدِينِ المتوحِّدَ بالرِّزقِ والقدرةِ الذَّاتيَّةِ بالعبادةِ والمشركينَ به الجمادَ النَّازلَ في أدنى المراتبِ الإمكانيَّةِ= لعَلى أحدِ الأَمرينِ مِن الهُدَى والضَّلالِ المُبِيْنَينِ[1]، وهو بعدَما تقدَّمَ مِن التَّقريرِ البَليغِ الدَّالِّ على مَن هو على الهُدى ومَن هو في الضَّلالِ أبلَغُ من التَّصريحِ؛ لأنَّه في صورةِ الإنصافِ المُسكِتِ[2] للخصمِ المشاغبِ، ونظيرُهُ قولُ حسَّان:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ[3]

وقيل: إنَّه على اللفِّ، وفيه نظرٌ.

واختلافُ الحرفينِ لأنَّ الهاديَ كمَنْ صَعِدَ مَنارًا ينظرُ الأشياءَ ويتطلَّعُ عليها، أو رَكِبَ جوادًا يركضُه حيثُ يشاءُ، والضَّالَّ كأنَّه مُنغَمِسٌ في ظلامٍ مُرتبِكٌ فيه لا يَرى شيئًا، أو محبوسٌ في مَطْمورَةٍ لا يستطيعُ أَنْ يَتفَصَّى مِنْها.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «والضلال الواضح».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «المبكت». قال الخفاجي: وقولُه: (أبلغ من التَّصريحِ) لأنَّهُ في صورَةِ الإنصات المسكت؛ أي: الَّذي يسكت الخصم لانقطاعِ حجته، وفي نسخَةٍ: (المبكت) وهوَ بمعناهُ والمشاغب بالغينِ المُعْجمَةِ من الشغب، وهوَ الخصام وتهييج الشرّ، وهذا فن من فنون البلاغَة يُسمَّى الكلام المنصف.

(٣) انظر: «ديوان حسان» (ص: ٩).

(٢٥) ـ ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ هذا أدخَلُ في الإنصافِ وأبلغُ في الإخباتِ، حيثُ أسندَ الإجرامَ إلى أنفُسِهِم والعملَ إلى المُخاطبينَ.

(٢٦) ـ ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يومَ القيامَةِ ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾: يحكمُ ويفصِلُ بأن يُدخِلَ المحقِّينَ الجنَّةَ والمُبطلينَ النَّارَ.

﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ﴾: الحاكمُ الفصلُ في القضايا المنغلِقَةِ ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما يَنبَغي أن يُقضَى به.

(٢٧) ـ ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ لأرى بأَيِّ صِفَةٍ أَلحَقْتُموهُم باللهِ في استحقاقِ العِبادةِ، وهو استِفسارٌ عن شُبهَتِهِم بعدَ إلزامِ الحُجَّةِ عليهم زيادةً في تَبكيتِهِم.

﴿ كَلَّا ﴾ ردعٌ لَهُم عن المشاركَةِ بعدَ إبطالِ المُقايَسةِ ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾: الموصوفُ بالغلبَةِ وكمالِ القُدرَةِ والحِكمَةِ، وهؤلاءِ الملحقونَ به مُتَّسمةٌ بالذِّلَّةِ متأَبِّيَةٌ عن قَبولِ العلمِ والقُدرَةِ رأسًا، والضَّميرُ للهِ أو للشَّأنِ.

(٢٨) ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾: إلَّا إرسالةً عامَّةً لهم، مِن الكفِّ؛ فإنَّها إذا عمَّتْهم فقدْ كفَّتْهُم أَنْ يخرجَ مِنْها أحدٌ مِنْهُم، أو: إلَّا جامعًا لهم في الإبلاغِ فهيَ حالٌ من الكافِ، والتَّاءُ للمُبالغَةِ، ولا يجوزُ جَعلُها حالًا من (النَّاسِ) على المُختارِ.

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيَحمِلُهُم جهلُهم على مُخالفَتِكَ.

(٢٩) ـ ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ مِن فَرْطِ جَهْلِهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ يعنونَ: المبشرَ به والمنذرَ عنه، أو الموعودَ بقولِه: ﴿ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يُخاطبونَ به رسولَ اللهِ والمؤمنينَ.

(٣٠) - ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾: وعدُ يوم أو: زمانُ وعدٍ، وإضافتُه إلى اليومِ للتَّبيينِ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرئَ على البَدلِ[١]، وقُرئَ: (يوماً)[٢] بإضمارِ: أَعْنِي.

﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ إذا فاجَأَكُم، وهوَ جوابُ تهديدٍ جاءَ مُطابقًا لِمَا قصدُوهُ بسُؤالِهم مِن التَّعنُّتِ والإنكارِ.

(٣١) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ولا بما تقدَّمَه من الكتبِ الدَّالَّةِ على البعثِ.

وقيل: إنَّ كُفَّارَ مكَّةَ سألوا أهلَ الكتابِ عن الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ، فأخبروهُم أَنَّهُم يجدونَ نعتَهُ في كتبِهِم، فغَضِبُوا وقالوا ذلك[٣].

وقيل: (الذي بينَ يديه): يومُ القيامَةِ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: في موضعِ المُحاسبةِ ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾: يتحاوَرُونَ ويتراجعونَ القولَ.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ يقولُ الأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ للرُّؤساءِ: ﴿لَوْلَآ

---

(١) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٥١)، وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٢) نحواً فقال: ولو قرئت: «ميعادٌ يومٌ» لجاز.

(٢) أي: (ميعادٌ يوماً)، نسبها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣) لليزيدي، والهذلي في «الكامل» (ص: ٦٢٣) لابن أبي عبلة، وأبو حيان في «البحر» (١٧/ ٤٤٩) لهما.

(٣) ذكر الإمام أبو منصور في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٨٥) هذه القصة في تفسير قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وأبو الليث السمرقندي في «بحر العلوم» (٢/ ٦١١)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٦٦)، والواحدي في «الوجيز» (ص: ٨٢٠) عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾.

أَنتُمْ﴾: لـولا إِضلالُكُـم وصَدُّكُم إيَّانا عـن الإيمانِ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتِّباعِ الرَّسـولِ عليهِ السَّـلامُ.

(٣٢) ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أنكَـرُوا أنَّهـم كانـوا صادِّينَ لهـم عن الإيمانِ، وأثبَتُـوا أنَّهم هم الذيـن صَـدُّوا أنفُسَـهُم[١] حيـثُ أعرَضُوا عـن الهُـدَى وآثَـرُوا التَّقليدَ عليـه، ولذلك بَنَوا الإنـكارَ على الاسـمِ.

(٣٣) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إضـرابٌ عـن إضرابِهم؛ أي: لم يَكُن إجرامُنا هو الصادَّ، بل مَكرُكُم لنا دائبًا ليلًا ونهارًا حتى أَغَرْتُم علينا رأيَنا[٢].

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ والعاطفُ يَعْطِفُه على كلامِهم الأوَّلِ، وإضافةُ المكرِ إلى الظَّرفِ على الاتِّساعِ.

وقُرِئَ: (مكرَ الليل) بالنَّصبِ على المصدرِ[٣].

و: (مكرٌ الليلَ) بالتَّنوينِ ونصبِ الظَّرفِ[٤]، و: (مكرّ الليل) مِن الكرورِ[٥].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بأنفسهم».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «أغريتم علينا رأينا»، والمثبت من بقية النسخ، قال الخفاجي: «أغرتم علينا رأينا» كذا وقع في النسخ، والظاهر: غيرتم علينا رأينا، وكونُه من الإغارَة وهيَ الغارَة على العدوِّ لنهب وقتل أُريدَ بِهِ غلبتم علينا في رأينا علاج بعض المرض. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) لم أجدها. وقال الخفاجي: قولُه: (وقُرِئَ مكر اللَّيل... إلخ) نصبه على المصدرِية بفعل مُقدَّر تقديره مكرتم ظاهر، إلَّا أنَّه قيلَ: إنَّه لم يُرَ النَّصبُ في شيءٍ مِن الكتبِ إلَّا مع التَّشديد، فكأنَّه سهو. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩٣) عن قتادة.

(٥) نسبت برفع (مكرٌّ) لسعيد بن جبير وأبي رزين وجعفر بن محمد، وبنصبه لابن جبير أيضاً وطلحة =

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾: وأَضْمَرَ الفريقَانِ النَّدامةَ على الضَّلالِ والإضلالِ وأخفاها كلٌّ عن صاحبِه مخافةَ التَّعييرِ، أو: أظهَرُوها فإنَّه مِن الأضدادِ، إذ الهمزةُ تَصْلحُ للإثباتِ والسَّلبِ كما في: أَشْكَيْتُه[1].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: في أعناقِهم، فجاءَ بالظَّاهرِ تنويهًا بذمِّهم وإشعارًا بموجِبِ أغلالِهم.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لا يُفعلُ بهم إلا ما يُفعلُ بالأُجَراءِ على أعمالِهم، وتعديَةُ (يجزي) إمَّا لتَضمينِ معنى: يَقضي، أو لنزعِ الخافضِ.

(٣٤) - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ تسليةٌ لرَسولِ اللهِ ﷺ ممَّا مُنيَ بهِ مِن قومِه، وتخصيصُ المُتنعِّمينَ بالتَّكذيبِ لأنَّ الدَّاعِيَ المُعظَمَ إلى التكبُّرِ والمفاخرةِ بزخارِفِ الدُّنيَا الانهماكُ[2] في الشَّهواتِ والاستهانةُ بمَنْ لم يحظَ مِنْها، ولذلك ضمُّوا التَّهكُّمَ والمفاخرةَ إلى التَّكذيبِ فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على مقابلةِ الجمعِ بالجَمعِ.

= وراشد الذي نظر في مصاحف الحجاج. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٣)، و«البحر» (١٧/ ٤٥٣). قال أبو حيان: وراشد هذا من التابعين ممن صحح المصاحف بأمر الحجاج.

(١) قوله: «في أشكيته»؛ أي: كما تصلح الهمزة في (أشكيته) للإثبات والسلب، فتقول: أشكيتُه إذا أثبتَّ له الشكاية، أو أزلتَها عنه. انظر: «حاشية القونوي» (١٥/ ٥١٩)، و«حاشية شيخ زاده» (٦/ ٧٠٥).

(٢) في نسخة الفاروقي: «لأنَّ الدَّاعِيَ المعظَمَ إليه التكبُّر والمفاخرة بزخارِفِ الدُّنيَا والانهماك». قال الخفاجي: وقولُه: (الانهماك في الشَّهوات) خبر إنَّ؛ أي: المنهمك هوَ المتنعم فيلزمُهُ التكبر والمفاخرَة المؤدّيان إلى التَّكذيب، وفي بعضِ النُّسخ: (المفاخرةُ) بلا واو على أنَّهُ الخبر، (والانهماك) بالواوِ عطف عليها ومآله للأوَّلِ، وفي بعضِها: (لأنَّ الدَّاعيَ المعظم إليهِ التكبرُ والمفاخرة) على أنَّهُ الخبر (والانهماكُ) بالواوِ عطفًا عليه، وهي أظهر وأكثر. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣٥) ـ ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ فنحنُ أولى بما تدَّعونه إنْ أمكنَ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إمَّا لأنَّ العذابَ لا يكونُ، أو لأنَّه كرَّمنا بذلك فلا يهينُنا بالعذابِ.

(٣٦) ـ ﴿قُلْ﴾ رَدًّا[1] لحُسبانِهم: ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ولذلك يختلفُ فيه الأشخاصُ المتماثلةُ في الخصائصِ والصِّفاتِ، ولو كان ذلك لكرامةٍ وهوانٍ يُوْجِبانه لم يكُن بمَشيئتِه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنونَ أنَّ كثرةَ الأموالِ والأولادِ للشَّرفِ والكرامةِ، وكثيرًا ما يكونُ للاستدراجِ كما قال:

(٣٧) ـ ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾: قربةً، و(التي) إمَّا لأنَّ المرادَ: وما جماعةُ الأموالِ والأولادِ، أو لأنَّها صِفَةُ مَحذوفةٍ كالتَّقوى والخَصلَةِ.

وقُرِئَ: (بالذي)؛ أي: بالشَّيءِ الذي يُقرِّبُكُم[2].

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناءٌ مِن مَفعولِ ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾؛ أي: الأموالُ والأولادُ لا تُقرِّبُ أحدًا إلا المؤمنَ الصَّالحَ الذي يُنفِقُ مالَهُ في سبيلِ اللهِ، ويُعلِّمُ ولدَهُ الخيرَ، ويُربِّيهِ على الصَّلاحِ.

أو مِن ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ على حذفِ المُضافِ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾: أن يجازَوا الضِّعفَ إلى عشرٍ فما فوقَه، والإضافةُ إضافَةُ المصدرِ إلى المفعولِ، وقُرِئَ بالإعمالِ على الأصلِ[3].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «ردًّا»، قال الخفاجي: قولُه: «ردٌّ لحسبانهم»، وفي نسخَةٍ: «ردًّا» بالنَّصبِ على أنَّهُ مفعولٌ له؛ أي: ردا لما ظنُّوه من أنَّهم أولى بما يدعونه وأنَّهُم لا يعذبون لكثرَة أموالهم وأولادهم الدَّالَّة على كرامتهم عند اللهِ تعالى. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٥٦)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٤٥٧)، دون نسبة.

(٣) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٥٧) دون نسبة، وأجازها نحواً لا قراءة الفراء في «معاني القرآن» =

وعن يعقوبَ رَفعُهُما على إبدالِ (الضِّعْفُ)[1]، ونصبُ الجَزاءِ[2] على التَّمييزِ، أو المصدرِ لفعلِه الذي دلَّ عليه ﴿لَهُمْ﴾.

﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ مِن المَكارِه.

وقُرِئَ بفَتحِ الرَّاءِ وسُكونِها، وقرأَ حمزَةُ: ﴿في الغُرْفَةِ﴾[3] على إرادةِ الجنسِ.

(٣٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالرَّدِّ والطَّعنِ فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: سابقينَ لأَنبيائِنا[4]، أو ظانِّينَ أنَّهُم يَفُوتونَنا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

(٣٩) ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾: يوسِّعُ عليهِ تارَةً ويضيِّقُ عليه أخرى، فهذا في شَخصٍ واحدٍ باعتبارِ وَقتَيْنِ، وما سبقَ في شَخصينِ فلا تكريرَ.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ عِوَضًا إمَّا عاجلًا أو آجلًا ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنَّ غيرَهُ وسطٌ في إيصالِ رزقِه لا حقيقةَ لرازقيَّتِه.

= (٢/ ٣٦٤) فقال: لو نصبتَ بالتنوين الذي في الجزاء كان صوابًا، وتابعه الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٥٣) فقال: ويجوز: (فأُولَئِكَ لهم جزاءٌ الضِعْفَ) على نصب (الضعْف) المعنى: فأُولَئِكَ لهم أنْ نُجَازِيَهم الضعْفَ.

(١) أي: (جزاءٌ الضِّعْفُ)، و(الضِّعْفُ) بدَلٌ مِن (جَزاءٌ). نسبت لقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٤٥٨).

(٢) أي: ﴿جزاءَ الضعفُ﴾ بنصب الجزاء ورفع الضعف، رواية رويس عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥١).

(٣) والباقون بالجمع وضم الراء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٨١). وبالجمع وسكون الراء قرأ الحسن والأعمش ومحمد بن كعب كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣). وبالجمع وفتح الراء ذكرها ابن خالويه عن بعضهم ولم يسمه.

(٤) في نسخة الفاروقي: «لآياتنا».

(٤٠) ـ ﴿ويومَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ المستكبرينَ والمُستضعفينَ ﴿ثمَّ نقولُ للملائكةِ أهؤلاءِ إيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدون﴾ تقريعًا للمُشركينَ وتبكيتًا لهم، وإقناطًا لهم عمَّا يتوقَّعونَ من شَفاعَتِهِم، وتخصيصُ المَلائكةِ لأنَّهُم أشرفُ شُركائِهِم والصَّالحونَ للخطابِ مِنهم، ولأنَّ عبادَتَهم مبدأُ الشِّركِ وأصلُه. وقرأَ حَفْصٌ بالياءِ فيهِمَا[1].

(٤١) ـ ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾: أنتَ الذي نُواليهِ مِن دونِهم لا مُوالاةَ بينَنا وبينَهُم، كأنَّهُم بيَّنُوا بذلك براءتَهم مِن الرِّضَا بعِبادَتِهم، ثمَّ أضرَبُوا عن ذلك ونفَوا أنَّهُم عَبَدُوهم على الحقيقةِ بقولِهم: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ ﴾؛ أي: الشَّياطينَ حيثُ أطاعوهُم في عبادةِ غيرِ اللهِ.

وقيل: كانوا يَتمثَّلونَ لهم ويخيِّلونَ إليهِم أنَّهُم الملائكةُ فيعبدونَهُم.

﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ الضَّميرُ الأوَّلُ للإنسِ أو للمُشركينَ والأكثرُ بمعنى الكلِّ، والثَّاني للجنِّ.

(٤٢) ـ ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ نَّفۡعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ إذِ الأمرُ فيه كلُّه له؛ لأنَّ الدَّارَ دارُ جزاءٍ وهو المُجازي وحدَه.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾ مُبيِّنٌ للمقصودِ مِن تَمهيدِه.

(٤٣) ـ ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ ﴾ يعنونَ: مُحمَّدًا عليه السَّلامُ.

﴿إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ فيستَتْبِعَكُمْ بما يَستبدعُه.

﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ ﴾ يعني القُرآنَ ﴿إِلَّآ إِفۡكٞ ﴾ لعدمِ مُطابقةِ ما فيه الواقعَ ﴿مُّفۡتَرٗى ﴾ بإضافَتِه إلى اللهِ سُبحانَه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾: لأمرِ النبوَّةِ، أو الإسلامِ، أو القرآنِ، والأوَّلُ باعتبارِ معناه وهذا باعتبارِ لَفظِهِ وإعجازِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: ظاهرٌ سحريَّتُه.

وفي تكريرِ الفعلِ، والتَّصريحِ بذكرِ الكفرَةِ، وما في اللامَينِ[1] مِن الإشارةِ إلى القائلِينَ والمقولِ فيه[2]، وما في ﴿لَمَّا﴾ مِن المُبادَهَةِ إلى البتِّ تمهيدًا للقولِ[3]= إنكارٌ عظيمٌ له وتعجيبٌ بليغٌ منه.

(٤٤) ـ ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ وفيها دليلٌ على صِحَّةِ الإشراكِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يَدعوهُم إليه وينذرُهُم على تركِه، وقد بانَ مِن قبلُ أَنْ لا وجهَ له فمِن أينَ وقعَ لَهُم هذه الشُّبهَةُ؟ وهذا في غايةِ التَّجهيلِ لَهُم والتَّسفيهِ لِرَأيِهم، ثمَّ هَدَّدَهُم فقال:

(٤٥) ـ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذبوا ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: وما بلغَ هؤلاء عُشرَ ما آتينا أولئكَ مِن القوَّةِ وطولِ العمرِ وكثرة المالِ، أو: ما بلغَ أولئكَ عُشرَ ما آتينا هؤلاءِ مِن البيناتِ والهُدى.

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فحينَ كذَّبُوا رسُلِي جاءَهُم إنكاري بالتَّدميرِ فكيفَ كان نكيري لهم؟ فليحذَرْ هؤلاءِ مِن مثلِه.

ولا تكريرَ في (كذَّب) لأنَّ الأوَّلَ للتَّكثيرِ والثَّاني للتَّكذيبِ، أو الأوَّلُ مُطلَقٌ والثَّاني مُقيَّدٌ ولذلك عطفَ عليه بالفاءِ.

(٤٦) ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾: أُرشدُكُم وأنصَحُ لَكُم بخَصلَةٍ واحدَةٍ هي ما دلَّ عليه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ وهو القيامُ مِن مجلسِ رسولِ اللهِ ﷺ، أو الانتصابُ

---

(١) قوله: «وما في اللامين»؛ أي: لامي (الذين) و(الحق). انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥١٥).

(٢) في نسخة التفتازاني: «فيهم».

(٣) في نسخة الفاروقي: «إلى البت بهذا القول».

في الأمرِ خالصًا لوجهِ الله مُعرِضًا عن المراءِ والتَّقليدِ ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾: مُتفرِّقين اثنَيْنِ اثنَيْنِ وواحدًا واحدًا؛ فإنَّ الازدحامَ يشوِّشُ الخاطرَ ويخلطُ القولَ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ في أمرِ مُحمَّدٍ وما جاءَ به لتَعْلَمُوا حقيقتَهُ.

ومَحلُّهُ الجرُّ على البدلِ أو البيانِ[1]، أو الرَّفعُ أو النَّصبُ، بإضمارِ (هو) أو (أَعْني).

﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ فتَعْلَمُوا: ما بهِ جنونٌ يحملُه على ذلك، أو استئنافٌ[2] منبهٌ لهم على أنَّ ما عرَفُوا مِن رَجاحَةِ عقلِه كافٍ في تَرجُّحِ صدقِهِ، فإنَّه لا يَدَعُه أن يَتصدَّى لادِّعاءِ أمرٍ خطيرٍ وخَطْبٍ عظيمٍ مِن غيرِ تحقُّقٍ ووُثوقٍ ببُرهانٍ، فيُفْتَضَحُ على رُؤوسِ الأشهادِ ويُسْلِمُ[3] نفسَهُ إلى الهلاكِ، فكيفَ وقد انضمَّ إليه مُعجِزَاتٌ كثيرةٌ؟

وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميَّةٌ، والمعنى: ثمَّ تَتفكَّرُوا أيُّ شيءٍ به مِن آثارِ الجُنونِ؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: قُدَّامَه لأنَّه مَبعوثٌ في نَسَمِ السَّاعةِ[4].

---

(١) قوله: «ومحله»؛ أي: ﴿أَن تَقُومُوا۟﴾ «الجر على البدل»؛ أي: من (واحدةٍ)، «أو البيان»؛ أي: أو عطف بيان لها، و﴿تَتَفَكَّرُوا۟﴾ عطف على ﴿تَقُومُوا۟﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥١٦).

(٢) قوله: «أو استئناف» عطفٌ من حيث المعنى على «فتعلموا»، والمعنى: ثم تتفكروا فتعلموا ما به جنون، أو استئناف تنبيهاً على أن ما عرفوا... إلى آخره، فالاستئناف واقع على ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥١٧).

ويؤيده قول الزمخشري: (فإن قلتَ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ بمَ يَتعلَّق؟ قلتُ: يجوز أن يكُونَ كلاماً مُستأنفاً تَنْبيهاً من اللهِ عزَّ وجلَّ على طريقَةِ النَّظر في أَمْر رسُول الله، ويجوز أن يكُونَ المَعنى: ثُمَّ تتَفكَّرُوا فتَعْلَمُوا ما بصَاحبكُم من جِنَّةٍ). قلت: وقد عكس المصنف ترتيب الزمخشري لهذين الوجهين.

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «ويلقي».

(٤) إشارة إلى حديث: «بُعِثْتُ في نَسَم السَّاعةِ»، رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (١٧٧٣) من طريق أبي جبيرة بن الضحاك، عن أشياخ من الأنصار. =

(٤٧) ـ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾: أيَّ شيءٍ سألتُكم مِن أجرٍ على الرِّسالةِ ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾، والمرادُ نفيُ السُّؤالِ كأنَّه جعلَ التَّنبِّيَ مُستلزِمًا لأحدِ الأمرينِ: إمَّا الجنونُ، وإما توقُّعُ نفعٍ دُنيويٍّ عليه؛ لأنَّه: إمَّا أن يكونَ لغرضٍ أو لغيرِه، وأيًّا مَّا كانَ يلزمُ أحدُهما، ثمَّ نفى كُلًّا منهُما.

وقيل: (ما) مَوصولةٌ مرادٌ بها ما سألَهُم بقولِه: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]، وبقوله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] واتِّخاذُ السَّبيلِ يَنفعُهُم وقُرباهُ قُرباهُم.

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: مُطَّلِعٌ يَعلَمُ صِدقِي وخُلوصَ نِيَّتِي.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر بإسكانِ الياءِ[1].

(٤٨) ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾: يُلقيهِ ويُنزلُه على مَن يَجتَبيهِ مِن عِبادِه، أو يرمي به الباطلَ فيَدمَغُه، أو يرمي بهِ إلى أقطارِ الآفاقِ فيكونُ وعدًا بإظهارِ الإسلامِ وإفشائِه.

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ صِفةٌ مَحمولَةٌ على محلِّ ﴿إِنَّ﴾ واسمِها، أو بدلٌ مِن المستكنِّ في ﴿يَقْذِفُ﴾، أو خبرٌ ثانٍ، أو خبرُ مَحذوفٍ.

= ورواه البزار (٣٢١٥ ـ كشف)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦١) من طريق أبي جبيرة بن الضحاك، عن النبيِّ ﷺ، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١/ ٢٢٨): ورجاله رجال الصحيح غير شبل ـ أو شبيل ـ بن عوف، وهو ثقة.

وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٩): أخرجه البزار بسند حسن من حديث أبي جبيرة بن الضحاك الأنصاري.

قلت: وأبو جبيرة مختلف في صحبته. انظر: «الإصابة» (٧/ ٥٤).

قال ابن الأثير في «النهاية» (مادة: نسم): والنَّسَمُ جمع: نسمَة، وهي النَّفسُ وَالروحُ؛ أي: بُعِثت فِي ذِي أَرْوَاحٍ خلقهم اللهُ تعالى قبل اقترابَ السَّاعَةِ.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣١)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

وقُرِئَ بالنَّصبِ[١] صِفَةً لـ﴿رَبِّي﴾ أو مُقدَّرًا بـ(أعني).

وقرأ حمزَةُ وأبو بكرٍ: ﴿الغِيوب﴾ بالكسرِ كالبِيُوتِ، وبالضَّمِّ كالعُشورِ[٢]، وقُرِئَ بالفَتحِ[٣] كالصَّيُودِ[٤] على أنَّه مُبالغَةُ غائبٍ.

(٤٩) ـ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الإسلامُ ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾: وزهقَ الباطلُ؛ أي: الشِّركُ بحيثُ لم يبقَ لَهُ أثرٌ، مَأخوذٌ مِن هَلاكِ الحيِّ فإنَّه إذا هلكَ لم يبقَ لهُ إبداءٌ ولا إعادةٌ، قال:

أَقْفَـرَ مِـن أَهْلِـهِ عَـبِيـدُ فَاليَوْمَ لَا يُبْـدِي وَلَا يُعِيـدُ[٥]

وقيل: الباطِلُ إبليسُ أو الصَّنمُ، والمعنى: لا يُنشِئُ خَلْقًا ولا يُعيدُه، أو لا يُبدِئُ خَيْرًا لأهلِه ولا يُعيدُ. وقيل: (ما) استفهاميَّةٌ مُنتصبَةٌ بما بعدَه.

(٥٠) ـ ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحقِّ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾: فإنَّ وَبالَ ضَلالي علَيْها لأنَّه بسبَبِها؛ إذ هيَ الجاهِلَةُ بالذَّاتِ والأمَّارةُ بالسُّوءِ، وبهذا الاعتبارِ قابلَ الشَّرطيَّةَ بقولِه:

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ ـ قرأ نافعٌ وأبو عمرٍو بفتحِ الياءِ[٦] ـ فإنَّ الاهتِداءَ بهِدايَتِه وتَوفيقِه.

---

(١) نسبت لعيسى وابن أبي إسحاق، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣).

(٢) بالضم قرأ الباقون، انظر: «السبعة» (ص: ١٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٠١).

(٣) ذكرها أبو حيان في «البحر» (١٧/ ٤٧٣) دون نسبة، وهي قراءة شاذة.

(٤) انظر: «الكشاف» (٧/ ١٦٦)، و«البحر» (١٧/ ٤٧٣)، دون نسبة، وقوله: «كالصَّيود»، كقَبُولٍ: الصَّيَّادُ، يقال: كلبٌ صَيُودٌ، وصَقْرٌ صَيُودٌ، وكذلك الأنثى، والجمع: صُيُدٌ. انظر: «التاج» (مادة: صيد). وهو على هذا ـ أي: الفتح ـ مفرد، ويراد به المبالغة كما سيذكر.

(٥) انظر: «ديوان عبيد بن الأبرص» (ص: ٤٥)، و«الأغاني» للأصفهاني (٢٢/ ٨٨).

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣١)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ يُدرِكُ قولَ كُلِّ ضَالٍّ ومُهتَدٍ وفعلَه وإن أخفاهُ.

(٥١) ـ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾ عندَ المَوتِ، أو البعثِ، أو يومَ بدرٍ، وجوابُ (لو) مَحذوفٌ مثل: لرأيتَ فظيعًا.

﴿فَلَا فَوۡتَ﴾: فلا يَفوتونَ اللهَ بهَرَبٍ أو تَحصُّنٍ[١].

﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾: مِن ظهرِ الأرضِ إلى بَطنِها، أو مِن الموقفِ إلى النَّارِ، أو مِن صَحراءِ بَدرٍ إلى القليبِ، والعطفُ على ﴿فَزِعُواْ﴾ أو (لا فوت)، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (وأَخْذٌ)[٢] عطفًا عَلى محلِّه؛ أي: فلا فوتَ هُناكَ وهناكَ أخذٌ.

(٥٢) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: بمُحمَّدٍ عليهِ السَّلامُ، وقد مرَّ ذِكرُهُ في قولِه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾: ومِن أينَ لَهُم أَنْ يَتـناوَلُوا الإيمانَ تَناوُلًا سَهْلًا ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ فإنَّه في حيِّزِ التَّكليفِ وقد بَعُدَ عَنْهُم، وهو تمثيلُ حالِهم في الاستخلاصِ بالإيمانِ بعدَما فاتَ عَنْهُم وبَعُدَ عَنْهُم أوانُه بحالِ مَن يُريدُ أَنْ يَتناولَ الشَّيءَ مِن غَلْوةٍ[٣] تَناوُلَه مِن ذراعٍ في الاستحالَةِ.

وقرأ أبو عمرٍو والكوفِيُّونَ غيرَ حَفصٍ بالهمزِ على قلبِ الواوِ لضَمَّتِها[٤]، أو أنَّه مِن نَأَشْتُ الشَّيءَ: إذا طلَبْتُه، قالَ رُؤبَةُ:

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بحصن».

(٢) نسبت لعبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه ولطلحة بن مصرف، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٩٦).

(٣) قوله: «مِن غَلْوة»، هي مِقدارُ رمية، وهو مثال للبعد، كما أن الذراع مثال للقرب، انظر: «حاشية الخفاجي»، وعبارة «الكشاف»: مُثِّلَتْ حَالُهم بحالِ مَن يُرِيْد أن يتناوَل الشَّيءَ من غَلْوَةٍ كما يتَناوَله الآخرُ من قِيْسِ ذراعٍ تَناوُلاً سَهْلاً لا تعَبَ فيه.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

أَقْحَمَنِـي جَـارُ أَبِـي الخَامُوشِ إِلَيْـكَ نَـأْشَ القَـدَرِ النَّـؤُوشِ[١]

أو مِن نَأَشْتُ: إذا تَأَخَّرْتَ، ومنهُ قولُه:

تَمَنَّـى نَئِيشًـا أَنْ يَكُـونَ أَطَاعَنِي وَقَدْ حَدَثَتْ بَعْدَ الأُمُـورِ أُمُورُ[٢]

فيكونُ بمَعْنَى التَّنَاوُلِ مِن بُعْدٍ.

(٥٣) ـ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ﴾: بمُحمَّدٍ أو بالعَذابِ ﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قبلِ ذلك أوانَ التَّكليفِ.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾: ويرجمونَ بالظَّنِّ ويَتكلَّمُونَ بمَا لم يَظْهَرْ لَهُم في الرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ مِن المطاعنِ، أو في العذابِ مِن البتِّ على نَفيِهِ.

﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾: مِن جانبٍ بَعيدٍ من أمرِه، وهو الشُّبَه التي تَمحَّلُوها في أمرِ الرَّسولِ وحالِ الآخرَةِ كما حكاهُ مِن قبلُ، ولعلَّهُ تَمثيلٌ لحالِهم في ذلك بحالِ مَن يرمي شَيئًا لا يراهُ مِن مَكانٍ بعيدٍ لا مجالَ للظَّنِّ في لُحوقِه[٣].

وقرئ: (ويُقْذَفُونَ)[٤] على أنَّ الشَّيطانَ يُلقي إليهم ويُلقِّنُهم ذلك.

والعطفُ على ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ على حكايةِ الحالِ الماضيَةِ، أو على ﴿قالوا﴾ فيكونُ تَمثيلًا لحالِهم بحالِ القاذفِ في تَحصيلِ ما ضيَّعُوهُ مِن الإيمانِ في الدُّنيا.

---

(١) انظر: «ديوان رؤبة» (ص: ٧٧).

(٢) البيت لنهشل بن حريٍّ كما في «الألفاظ» لابن السكيت (ص: ٢٠٣)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦)، و«المستقصى» للمؤلف (١/ ٣٠٢). ودون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦٥)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٨٩)، و«غريب الحديث» للحربي (٢/ ٨٨٣)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٣١٤).

(٣) في نسخة الفاروقي: «في وقوعه».

(٤) نسبت لمجاهد، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٧).

(٥٤) ـ ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ مِن نَفعِ الإيمانِ والنَّجاةِ به مِن النَّارِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ والكِسائيُّ بإشمامِ الضَّمِّ للحاءِ[١].

﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ بأشباهِهِم مِن كفرةِ الأُمَمِ الدَّارجةِ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ مُوْقِعٍ في الرِّيبةِ، أو: ذي ريبةٍ، منقولٌ مِن المشكِّكِ أو الشَّاكِّ نُعِتَ به الشَّكُّ للمُبالغَةِ.

عن رسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرَأَ سُورةَ سبأٍ لم يبقَ رَسولٌ ولا نبيٌّ إلَّا كانَ لَه يوم القيامةِ رفيقًا ومُصافِحًا»[٢].

***

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٨١).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٧) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

سورة سبأ(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الآية، هذه السورة مكية، وقيل: فيها غير مكّي. وسبب نزولها(٢) أن

---

(١) مكية وهي أربع وخمسون آية.

(٢) انظر القرطبي ١٤ : ٢٦٠.

أبا سفيان قال لكفار قريش لمّا سمعوا ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب]: محمد يتوّعدنا بالعذاب بعد أن نموت ويخوّفنا بالبعث، واللّات والعزّى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نُبعث. فقال الله تعالى: قل يا محمد ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن][1] وباقي السورة تهديد لهم وتخويف. ومن ذكر هذا السبب ظهرت المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها.

و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ مستغرق لجميع المحامد كلها. ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ظاهره[2] الاستغراق، ولما كانت نعم الآخرة مُخبَراً بها غير مرئيّة لنا[3] في الدنيا، ذكرها لتقاس نعمها بنعم الدنيا قياس الغائب على الشاهد، وإن اختلفتا في الفضيلة والديمومة.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: من المياه. ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أي: من النبات. ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي: من المطر وغير ذلك. ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي: من أعمال الخلق.

و«بلى» جواب للنفي السابق من قولهم «لا تأتينا الساعة» أي: بلى لتأتينكم. وأتبع القَسَمَ بقوله «عالم الغيب» وما بعده، ليُعلم أنّ إتيانها من الغيب الذي انفرد به تعالى. وجاء القسم بقوله «وربي» مضافاً إلى الرسول عليه السلام ليدلّ على شدة القسم، إذ لم يأت به في الاسم المشترك بينه وبين من أنكر الساعة وهو لفظ الله.

(١) وانظر الآية ٣ من سبأ.

(٢) ق: ظاهر.

(٣) ق: لما.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ هم قريش، قال بعضهم لبعض على سبيل التعجب والاستهزاء، كما يقول الرجل لمن يريد [٤٥٥/أ] أن يعجّبه: هل أدلّك على قصة غريبة نادرة.

لمّا كان البعث عندهم من المحال، جعلوا من يُخبر عن وقوعه في حيّز من يُتعجّب منه، وأتوا باسمه عليه السلام [نكرة] في قولهم ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ واسمه أشهر علم في قريش بل في الدنيا، وإخباره بالبعث أشهر خبر، لأنهم أخرجوا ذلك مخرج الاستهزاء والتحلّي[1] ببعض الأحاجي المعمولة للتّلهي والتّعمية، فلذلك نكروا اسمه.

و«إذا» الشرطية مختلف في العامل فيها وقد بيّناه في شرح التسهيل بأن الصحيح أن يعمل فيها فعل الشرط كسائر أدوات الشرط، والجملة الشرطية يحتمل أن تكون معمولة «لينبّئكم» لأنه في معنى: يقول لكم إذا مزّقتم كل ممزّق: تُبعثون، ثم أكّد ذلك بقوله ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾. ويحتمل أن يكون «إنكم لفي خلق جديد» معمولاً لـ«ينبّئكم» و«ينبّئكم» معلّق. ولولا اللام في خبر إنّ لكانت مفتوحة. والجملة سدّت مسدّ المفعولين، والجملة الشرطية على هذا التقدير اعتراض. وقد منع قوم التعليق في باب اعلم والصحيح جوازه، وقال الشاعر[2]: [من الطويل]

حَـذارِ فقـد نُبِّئْـتُ أَنَّـك للّـذي ستُجزى بما تسعى فتسعد أو تشقى

و«مُمزَّق» [مصدر] جاء على زنة اسم المفعول على القياس في اسم المصدر من كل فعل زائد على الثلاثة.

---

(١) ق: والتحكّي.

(٢) البيت من شواهد الهمع ٢: ٢٤٩ غير منسوب.

والظاهر أن قوله ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ من قولهم بعضهم لبعض، أي: أهو مُفْتَرٍ على الله كذباً فيما يَنسب إليه من أمر البعث، أم به جنون يوهمه ذلك، ويلقيه على لسانه. عادلوا بين الافتراء والجنون، لأن هذا القول عندهم إنما يصدر عن أحد هذين، لأنه إن كان يعتقد خلاف ما أنبأ به فهو مفترٍ، وإن كان لا يعتقده فهو مجنون.

وأضرب تعالى عن مقالتهم والمعنى: ليس الرسول عليه السلام كما نسبتم إليه بل أنتم في عذاب النار أو في عذاب الدنيا بما تكابدونه من إبطال الشرع وهو يُحقّ، وإطفاء نور الله وهو يُتِمّ.

ولما كان الكلام في البعث قال ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ فرتّب العذاب على إنكار البعث. وتقدّم الكلام[1] في وصف الضّلال بالبعد وهو من أوصاف المحال استعير للمعنى. ومعنى بُعده أنه لا ينقضي خبره المتلبّس به.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة.

﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: حيثما تصرفوا، فالسماء والأرض قد أحاطتا بهم لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما، ولا يخرجوا عن ملكوت الله فيهما.

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما فعلنا بقارون.

﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما فعلنا بأصحاب الظُّلة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما، وما يدلّان عليه من قدرة الله تعالى. [٤٥٥/ب] ﴿لَءَايَةً﴾ لعلامة ودلالة. ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربّه مطيع له، لأن المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله تعالى

(١) انظر تفسير الآية ١٨ من إبراهيم.

على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾
أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾
وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن
يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟
ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ
مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ
ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ الآية، ومناسبة قصة داود وسليمان عليهما السلام لما قبلهما هي أن أولئك الكفار أنكروا البعث لاستحالته عندهم، فأُخبروا بوقوع ما هو مستحيل في العادة ممّا لا يمكنهم إنكاره؛ إذ طفحت ببعضه أخبارهم و[نطقت به] شعراؤهم على ما يأتي ذكره من تأويب الجبال والطير مع داود، وإلانة الحديد وهو الجرم المستعصي، وتسخير الريح لسليمان وإسالة النحاس له كما ألان الحديد لأبيه[1]، وتسخير الجنّ فيما شاء من الأعمال الشاقّة وغير ذلك.

﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: سبّحي معه، قاله ابن عباس.

وقرىء: والطّيرَ، بالنصب عطفاً على موضع «يا جبال». وبالرفع عطفاً على لفظ «يا جبال». وإلانة الحديد قال ابن عباس: حتى صار كالشمع.

---

(١) ق: لابنه.

وروي أن دواد عليه السلام كان يتنكر[1] فيسأل الناس عن حاله، فعرض له ملك في صورة إنسان فسأله فقال: نعم العبد لولا خُلّة فيه. فقال: وما هي؟. قال: يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده لتمّت فضائله. فدعا الله تعالى أن يعلّمه صنعة ويسهّلها عليه، فعلّمه صنعة الدّروع وألان له الحديد فأثرى. وكان ينفق ثلث المال في مصالح المسلمين.

﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ قال ابن زيد: هو في قدر الحلقة أي: لا يعملها صغيرة فتضعف فلا يقوى الدّرع على الدفاع، ولا كبيرة فيُنال لابسها من خلالها.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أبدله من الخيل الرّيح تجري بأمره.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ الظاهر أنه جعله [أي: النحاس، له] في معدنه عيناً تسيل كعيون الماء دلالة على نبوّته[2] عليه السلام، يستعملها فيما يريد.

وعن ابن عباس: أُجريت له ثلاثة أيام بلياليهنّ وكانت بأرض اليمن. قال مجاهد: سالت من صنعاء. ولم يُذَبِ النّحاس فيما روي لأحدٍ قبله وكان لا يذوب قبل ذلك.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بأمر ربّه لقوله ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومن يعدل عن أمرنا الذي أمرنا به من طاعة سليمان.

وقرىء: يَزِغْ، مضارع زاغ. وقرىء بالضم من أزاغ، أي: ومن يُمِلْ.

و«عذاب السعير» عذاب الآخرة. قاله ابن عباس.

---

(١) ق: بينكن.

(٢) ق: بيوته.

والمحاريب، قال مجاهد: المساجد. والتماثيل: الصور. والجفان: جمع جفنة وهي معروفة[١]. والجوابي: الحياض العضام واحدها جابية لأنه يُجبى فيها الماء أي: يجتمع، قال الأعشى[٢]: [من الطويل]

نَفى الذَّمَّ عن آل المحلَّق جَفْنَةٌ كجابية السَّيْحِ العراقيّ تفهَقُ

والراسيات: الثابتات[٣] على الأثافي[٤] فلا تُنقل ولا تحمل لعظمها. وقُدّمت [٤٥٦/أ] المحاريب على التماثيل لأن النقوش تكون في الأبنية. وقدّم الجفان على القدور مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل، والطبخ قبل الأكل؛ لمّا بيّن الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذي يُمَدّ في تلك الدّور، وأشار إلى الجفان، لأنها تكون فيها، والقدور لا تكون فيها ولا تحضر[٥] هناك ولهذا قال «راسيات». ولمّا بيّن حال الجفان سرى الذهن إلى عظمة ما يُطبخ فيها فذكر القدور للمناسبة. وذكر في حق داود اشتغاله بآلة الحرب لاحتياجه إلى قتال أعدائه، وفي حقّ سليمان المحاريب والتماثيل لأنه كان ملكاً ابن ملك، قد وطّد[٦] له أبوه الملك، أي: مهّده له، فكانت حاله حالة سلم إذ لم يكن أحد يقدر على محاربته.

---

(١) الجفنة كالقصعة.

(٢) ديوانه ص٢٦١.

(٣) ق: الدائبات.

(٤) الأثافيّ: (وتخفف): الأحجار الثلاثة التي توضع عليها القدر وتوقد بينها النار.

(٥) ق: يحضر.

(٦) ق: أطرا.

وقال عقب[١] ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾: «اعملوا صالحاً»[٢]، وعقب ما يعمله الجن: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ عقب كل جملة[٣] بما يناسبها. وروي أن مصلى آل داود لم يَخْلُ قطّ من قائم يصلّي ليلاً أو نهاراً، وكانوا يتناوبونه.

وكان سليمان عليه السلام يأكل الشعير، ويطعم أهله الخشكار، والمساكين الدّرمك[٤]. وما شبع قطّ، وقيل له في ذلك فقال: إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع. و﴿ٱلشَّكُورُ﴾ صيغة مبالغة وأريد به الجنس.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: أنفذنا عليه ما قضينا عليه في الأزل من الموت، وأخرجناه إلى حيّز الوجود. والضمير في «دلهم» عائد على الجن الذين كانوا يعملون له. وكان سليمان قد أمر الجنّ ببناء صرح له، فبنوه له ودخل فيه مختلياً، ليصفو له يوم واحد من الدهر من الكدر. فدخل عليه شاب فقال له: كيف دخلت من غير استئذان؟. فقال: إنما دخلت بإذن. قال: ومن أذن لك؟. قال: ربّ هذا الصّرح. فعلم سليمان عليه السلام أنه ملك الموت، أتى لقبض روحه. فقال سليمان: سبحان الله! هذا اليوم الذي طلبتُ فيه الصفاء. فقال له: طلبتَ ما لم يُخلق. فاستوثق[٥] من الاتّكاء على العصا فقبض روحه. وبقيت الجنّ تعمل على عادتها. وكان سليمان قصد تعمية موته، لأنه كان قد بقي من تمام بناء المسجد عمل سنة، فسأل الله تعالى تمامها على يد الإنس والجن. وكان يخلو بنفسه الشهرين والثلاثة،

---

(١) ق: عقب ذلك.

(٢) وفي ق: صالحات.

(٣) ق: عقب ذلك جملة.

(٤) الخشكار: الخبز الأسمر غير النقي. والدّرمك كجعفر الدقيق الأبيض.

(٥) ق: فاستؤنف.

فكانوا يقولون إنه يتحنّث أي: يعبد ربّه.

وقيل إن ملك الموت أعلمه أنه بقي من حياته ساعة، فدعا الجن فبنوا الصرح، وقام يصلي متكئاً على عصاه، فقبض روحه وهو متكيء عليها.

وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه، فلا ينظر أحد منهم إليه في صلاته إلا احترق. فمرّ واحد منهم، فلم يسمع صوته، ثم رجع فلم يسلم، فنظر فإذا هو خرّ ميتاً. وكان عمره ثلاثاً[1] وخمسين سنة [٤٥٦/ب] ملك بعد موت أبيه وهو ابن ثلاث عشرة سنة. وكان أبوه قد أسّس بنيان المسجد موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمّه، ووصّى به إلى ابنه فأمر الشياطين بإتمامه، ومات قبل تمامه.

و﴿ دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي سوسة الخشب وهي الأرضة وقيل غير ذلك. والمنسأة: العصا وكانت فيما رووا من خرّوب، وذلك أنه كان يتعبّد في بيت المقدس، فتنبت له في محرابه كل سنة شجرة تخبره بمنافعها، فيأمر فتقلع، وتصرف في منافعها، وتغرس لتتناسل[2]. فلما قرب موته نبتت له شجرة، وسألها فقالت: أنا الخروب خرجت لخراب ملكك. فعرف أنه حضر أجله، فاستعدّ واتّخذ منها عصا، واستدعى بزاد سنة والجن تتوهّم أنه يتغذى بالليل.

﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾ على وزن مفعلة كمطرقة وهي العصا، سمّيت بذلك لأنها يُنسأ بها الأشياء أي: تؤخّر.

وقرىء: منسأته، بهمزة مفتوحة بعد السين. وبإبدالها ألفاً على غير قياس، وبإسكانها على غير قياس، والأصل فتحها لأنها لام الكلمة.

---

(١) ق: ثلاث.

(٢) ق: ويغرس ليتناسل.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ الضمير [عائد] على سليمان عليه السلام، أي: سقط عن العصا ميتاً. وقرىء: تَبَيَّنت، مبنيًّا للفاعل. وتُبُيِّنت، ومبنيًّا للمفعول. و«أن» هي المخففة من الثقيلة ينسبك منها مصدر، أي: تبينت الجن جهلها أي: جهل الجن. والمعنى أن الجنّ لو كانت تعلم الغيب، ما خفي عليها موت سليمان عليه السلام، وقد ظهر أنه خفي عليها بدوامها في الخدمة والضّعة.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ
رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ
وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ
جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي
بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ
مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ
فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن
يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ[(١)] ءَايَةٌ جَنَّتَانِ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان، بيّن حال الكافرين بأنعمه بقصة سبأ، موعظةً لقريش وتحذيراً وتنبيهاً لما جرى لمن كفر أنعم الله تعالى. وتقدّم الكلام في سبأ في النّمل[(٢)]. ولمّا ملكت بلقيس اقتتل قومها على ماء واديهم فتركت ملكها وسكنت قصرها. وراودوها على أن ترجع فأبت فقالوا: لَتَرْجِعِنَّ أو لنقتلنّك. فقالت لهم: لا عقول لكم ولا تطيعوني. فقالوا:

(١) ق: مساكنهم.

(٢) انظر تفسير الآية ٢٢ وما بعدها من النّمل.

نطيعك، فرجعت إلى واديهم. وكانوا إذا أُمطروا أتاهم السيل من مسيرة ثلاثة أيام، فأمرت به فسدّ ما بين الجبلين بمُسَنَّاةٍ[١] بالصخر والقار وحبست الماء من وراء السدّ، وجعلت له أبواباً بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة فيها اثنا[٢] عشر مخرجاً على عدّةِ أنهارهم. وكان الماء يخرج لهم بالسّوية إلى أن كان من شأنها مع سليمان عليه السلام ما سبق ذكره في النمل.

وقرىء: مساكنهم جمعاً ومفرداً، بفتح الكاف وكسرها.

﴿ءَايَةٌ﴾ أي: علامة دالّة على الله تعالى وعلى قدرته ووجوب شكره. وخبر «كان» «لسبأ»، و«آية»[٣] اسمها. و«في مساكنهم» متعلق بما تعلق به «لسبأ» [٤٥٧/أ] والتقدير: لقد كانت آية كائنة لسبأ في مساكنهم. «جنتان» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي جنتان.

[قال ابن عطية: «جنتان»] مبتدأ، وخبره «عن يمين[٤] وشمال» انتهى.

لا يظهر ذلك، لأنه نكرة لا مسوّغ للابتداء بها إلا إن اعتقد أن ثَمَّ صفة محذوفة، أي: جنتان لهم أو عظيمتان عن يمين وشمال. وعلى تقدير ذلك يبقى الكلام [مفلتاً] مما قبله.

و﴿جَنَّتَانِ﴾ جماعتان من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها. وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامّها كأنها جنة واحدة.

(١) المسنّاة: ضفيرة تبنى للسيل لتردّ الماء.

(٢) ق: اثني عشر.

(٣) ق: وانه.

(٤) ق: وخبر في يمين.

قال ابن زيد: لا يوجد فيها برغوث ولا بعوض ولا عقرب، ولا تقمل ثيابهم ولا تعيا دوابّهم. وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها المِكْتل(١)، فيمتلىء ثمراً من غير أن تتناول بيدها شيئاً.

﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ قول الله لهم على ألسنة الأنبياء المبعوثين إليهم. وفيه إشارة إلى تكميل النّعمة عليهم حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ على ما أنعم به عليكم.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: كريمة التربة حسنة الهواء سليمة من الهوامّ والمضارّ(٢).

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ لا عقاب على التّمتع بنعمه في الدنيا ولا عذاب في الآخرة.

﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ عمّا جاء به إليهم أنبياؤهم، وكانوا ثلاثة عشر نبيًّا دعوهم إلى الله، وذكّروهم نعمه، فكذّبوهم وقالوا: ما نعرف لله نعمة. فسلّط الله عليهم الجرذ، فأراً أعمى توالد فيه، ويسمّى الخُلْد(٣)، فخرقه شيئاً بعد شيء، وأرسل سيلاً في ذلك الوادي، فحمل ذلك السّد.

فروي أنه كان من العظم وكثرة الماء بحيث ملأ ما بين الجبلين، وحمل الجنات وكثيراً من الناس ممّن لم يمكنهم الفرار. وروي أنه لما خُرق السّد، كان ذلك سبب يبس الجنّات فهلكت بهذا.

---

(١) المكتل: شبه الزّنبيل.

(٢) ق: والمضاف.

(٣) ق: الجلد.

وقال ابن عباس: «العَرِم» الشديد، فاحتمل أن يكون صفة للسيل، أضيف الموصوف إلى صفته والتقدير: السّيل العرم، أو صفة لموصوف محذوف أي: سيل المطر الشديد الذي كان عنه السيل، أو سيل الجرذ العرم، فالعرم صفة للجرذ. وقيل: العرم اسم الجرذ بنفسه وأضيف السيل إليه لكونه كان السبب في خراب السّد الذي حمله السّيل، والإضافة تكون بأدنى ملابسة.

ولمّا غرق من غرق منهم، ونجا من نجا، تفرّقوا وتمزّقوا حتى ضربت العرب المثل بهم فقالوا: تفرقوا أيادي سبأ وأيدي سبأ[1]. قيل: والأوس والخزرج منهم.

وعن ابن عباس: كان سيل ذلك الوادي يصل إلى مكّة ويُنتفع به، وكان سيل العرم في ملك ذي الاذعار بن حسان في الفترة التي بين عيسى عليه السلام ونبيّنا محمد [٤٥٧/ ب] ﷺ.

ودخلت الباء في بـ«جنتيهم» على الزّائل. وانتصب ما كان بدلاً وهو قوله «جنتين» على المعهود في لسان العرب. ويسمّى هذا المعوّض «جنّتين» على سبيل المقابلة؛ لأن ما كان فيه خمط واثل وسدر لا يسمّى جنّة، لأنها أشجار لا يكاد يُنتفع بها. وجاءت تثنية ذات على الأفصح في ردّ عينها في التّثنية فقال ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ كما جاء ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ [الرحمن].

وقرىء: أُكُلِ خَمْطٍ، بالإضافة على حذف مضاف، أي: ثمر خمط.

وقرىء بالتنوين، و«خمط» بدلاً من «أكل». وقرىء بالنصب خمطاً، ونصب ما بعدها بدلاً من قوله «جنّتين».

---

(١) انظر المستقصى ٢: ٨٨.

قال أبو عبيدة: الخمط كل شجرة مرّة ذات شوك. والأثل: شجر وهو ضرب من الطّرْفاء[١]. والسّدر، قال الفراء: هو السمر، وقال الأزهري: السّدر سدران: سدر لا يُنتفع به ولا يصلح ورقة للغَسول وله ثمرة عَفِصَة[٢] لا تؤكل وهو الذي يسمّى الضّال. وسدر ينبت[٣] على الماء وثمره النّبْق وورقه غَسول[٤]، يشبه شجر العنّاب.

«ذلك» إشارة إلى إرسال السيل وتبديل الجنّتين. و«ما» مصدرية، والباء سببية.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ﴾ أي: بذلك الجزاء إلا الكفور.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، جاءت هذه الجملة بعد قوله «وبَدّلناهُم»؛ وذلك أنه لما ذكر ما أنعم به عليهم من جنّتيهم، وذكر تبديلهما بالخمط والأثل والسدر - ذكر ما أنعم به عليهم من اتّصال قراهم، وذكر تبديلها بالمفاوز والبراري. وصف تعالى حالهم قبل مجيء السيل، وهي أنه - مع ما كان منحهم من الجنّتين والنّعمة الخاصّة بهم - كان قد أصلح لهم البلاد المتّصلة بهم، وعمرها، وجعلهم أربابها[٥]، وقدّر السّير بأن قرّب بعضها من بعض.

قال ابن عطية: حتى كان المسافر من مأرب إلى الشام يبيت في قرية ويقيل في أخرى ولا يحتاج إلى حمل زاد.

(١) الواحدة طَرَفة، وبه سُمّي طرفة بن العبد.

(٢) عفصة: فيها تقبُّض.

(٣) ق: نبتت.

(٤) ق: الغسول.

(٥) ق: أرباباً.

و﴿ٱلْقُرَى﴾ المدن.

[﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾] قال الزمخشري(١): [وقلنا لهم سيروا] ولاقول ثمَّ، ولكنهم لمّا مُكّنوا من السّير، وسُوّيت لهم أسبابه، فكأنهم أُمروا بذلك، وأُذن لهم فيه انتهى.

دخول الفاء في قوله: فكأنهم، لا يجوز، والصواب: كأنهم(٢) لأنه خبر لكنّهم.

وقرىء: ربَّنا، على النداء. باعِدْ، فعل من باعَدَ. وبَعِّدْ فعل أمر من بَعَّدَ. وقرىء: ربُّنا، بالرفع على الابتداء: باعَدَ، فعلاً ماضياً في موضع الخبر.

﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بتكذيب الرسل.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: عظاتٍ وعبراً(٣) يُتحدّث بهم ويُتمثّل.

﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: تعريفاً اتّخذه الناس مثلاً مضروباً، وقال كثيّر عزّة(٤): [من الطويل]

أيادي سبا يا عزَّ ما كنت بعدكم فلم يَحْلُ للعينين بعدكِ منظرُ

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: في قصص هؤلاء. «لآيات» أي: علامات. «لكل صبار» عن المعاصي وعلى الطاعات. «شكور» للنعم.

---

(١) الكشاف ٣: ٢٨٦.

(٢) ق: كأنه. وهي في الكشاف: كأنهم، بلا فاء.

(٣) ق: وعبر.

(٤) ديوانه ص٣٢٨.

والظاهر أن الضمير في «عليهم» عائد على ما[1] قبله من أهل سبأ. وقيل: هو لبني آدم. وقرىء: صدّق، بشدّ الدّال، وانتصب «ظنه» على أنه مفعول به «لصدّق»، والمعنى، وجد ظنّه صادقاً، أي: ظنّ شيئاً فوقع ما ظنّ.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ ﴾ أي: لإبليس. «عليهم من سلطان» أي: من تسلّط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء. وعلّل التسلّط بالعلم والمراد ما تعلّق به العلم وهي تميّز المؤمن بالآخرة من الشاكّ فيها.

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ قُلِ [ٱدْعُوا۟] ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية، «قل» أمر لمحمد ﷺ، أي: قل للمشركين. «ادعوا الذين زعمتم» وهم معبوداتهم من الملائكة والأصنام. وهو أمر بدعاء، هو تعجيز وإقامة حجّة. وروي أن ذلك نزل عند الجوع الذي أصاب قريشاً، أي: ادعوهم ليكشفوا عنكم ما حلّ بكم، والتجئوا

(١) ق: من.

إليهم فيما يعنّ لكم. وزعم من الأفعال التي تتعدى إلى اثنين، إذا كانت اعتقادية، والمفعول الأول هو الضمير المحذوف العائد على «الذين»، والثاني محذوف أيضاً لدلالة المعنى عليه، ونابت صفته منابه، التقدير: الذين زعمتموهم آلهةً من دونه، لا يملكون ملك أحقر الأشياء، وهو مثقال ذره. ثم نفى الشركة، ثم نفى الإعانة بقوله «من ظهير» وهو المعين.

ولما كان من العرب من يعبد الملائكة، لتشفع له، نفى أن شفاعتهم تنفع. والنفي منسحب على الشفاعة، أي: لا شفاعة لهم فتنفع.

﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ استثناء مفرّغ فالمستثنى منه محذوف تقديره: ولاتنفع الشفاعة لأحد إلاّ لمن أذن الله له.

﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عطية: تظاهرت الأحاديث[1] عن رسول الله ﷺ أن قوله «حتى إذا فزّع» إنما هي في الملائكة، إذا سمعت الوحي إلىٰ جبريل عليه السلام، وبالأمر يأمر الله تعالى به، سمعت كجّر سلسلة الحديد على الصفوان فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة.

﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ الآية، خطاب للكفّار وسؤال لهم عمّن يرزقهم. وأمره[2] تعالى أن يجيب عاجلاً بقوله «قل الله» إذ [قد يصدر] منهم العناد فلا يقولون[3]: الله، ولا يمكن أن يقولوا آلهتهم.

وقوله «وإنا» الضمير عائد للمؤمنين. «أو إياكم» ضمير الكفّار. «لعلى

(١) انظر مثلاً البخاري ٤: ١٨٠٤.

(٢) ق: وأمر.

(٣) ق: فقد لا يقولون.

هدى» راجع للمومنين. «أو في ضلال» راجع للكفار. وأورد ذلك[1] بـ«أو» التي تقتضي الترديد بين شيئين، وإن كان في العقل التمييز بين الشيئين. ومعلوم أن المؤمن لا يتساوى مع الكافر، ومما يشبه هذا قول الشاعر[2]:

[من الوافر]

فأيّي ما وأيّك كان شرّاً ... فسيق إلى المقادة في هوان

فردّد بينه وبين مخاطبه في الشر، ومعلوم عنده أن صاحبه هو[٤٥٨/ب] الشّر.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ أطلق على عمل المؤمن إجراماً باعتقاد الكافر فيه ذلك.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: يوم القيامة. ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي: يحكم. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل، فيدخل المؤمنين الجنة والكفار النار.

و«الفتاح» و«العليم» صيغتا[3] مبالغة وهذا فيه تهديد وتوبيخ.

«إلا كافة» قيل: هو حال من الضمير في «أرسلناك» والهاء للمبالغة كقولهم: علاّمة، للرجل كثير العلم. والمعنى: إلا جامعاً للناس في الإبلاغ. وقيل: فيه تقديم وتأخير والتقدير: إلا للناس كافة، ومعناها جميعاً، فيكون حالاً من الناس. ومعناها التأكيد، كأنه قيل: للناس كلهم.

قال الزمخشري[4]: «إلا كافة للناس» أي: إلا إرساله عامة لهم محيطة

---

(١) ق: لك.

(٢) لم أجده.

(٣) ق: صفتا.

(٤) الكشاف ٣: ٢٩٠.

بهم، لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. قال: ومن جعله حالاً من المجرور متقدّماً عليه فقد أخطأ، لأنّ تقدم[١] حال المجرور عليه في الإحالة[٢] بمنزلة تقدّم المجرور على الجار. وكم ترى ممّن يرتكب هذا الخطأ ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى، لأنه لا يستوي له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثاني، فلا بدّ له من ارتكاب الخطأين انتهى.

أما قوله: كافة بمعنى عامة، فالمنقول عن النحويين أنها لا تكون إلا حالاً، ولم يُتصرّف فيها بغير ذلك، فجَعْلها صفة لمصدر محذوف خروج عما نقلوا. ولا يُحفظ أيضاً استعمالها صفة لموصوف محذوف.

وأما قول الزمخشري: ومن جعله حالاً إلى آخره، فذلك مختلف فيه؛ ذهب الأكثرون إلى أن ذلك لايجوز، وذهب أبو علي وابن كيسان وابن برهان ومن معاصرينا ابن مالك، إلى أنه يجوز[٣] وهو الصحيح. ومن أمثلة أبي عليّ: زيدٌ خيرَ ما يكون خيرٌ منك، التقدير: زيد خيرٌ منك خيرَ ما يكون. فجعل «خيرَ ما يكون» حالاً من الكاف في منك وقدّمها عليه. وقال الشاعر[٤]:

[من الطويل]

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً ... فمطلبها كهلاً عليه شديد

أي فمطلبها عليه كهلاً شديد. وقال آخر[٥]: [من الطويل]

تسلّيتُ طرّاً عنكمُ بعد بينِكم ... بذكراكمُ حتى كأنكمُ عندي

---

(١) ق: يقدم.

(٢) ق: الإحاطة.

(٣) ق: لا يجوز.

(٤) البيت للمعلوط السعدي في شرح ديوان الحماسة ٣: ١١٤٨.

(٥) البيت في المقاصد النحوية ٣: ١٦٠ غير منسوب.

أي تسلّيت عنكم طرّاً أي: جميعاً. وقد جاء تقديم الحال على صاحبه المجرور وعلى ما يتعلّق به، ومن ذلك قول الشاعر[(١)]: [من الكامل]

مشغوفةً بك قد شُغفتُ وإنما حُمَّ[(٢)] الفراق فما إليك سبيلُ

وقال [آخر][(٣)]: [من الخفيف]

غافلاً تعرض المنيّة للمرء فيُدعى ولات حينَ إباءِ

أي: شُغفتُ بك مشغوفةً، وتعرض المنية للمرء غافلاً.

وإذا جاز تقديمها على المجرور والعامل، فتقديمها عليه دون العامل أجوز.

وقول الزمخشري: وكم ترى ممّن يرتكب هذا الخطأ إلى آخر كلامه، تشنيع، لأن قائل ذلك [٤٥٩/أ] لا يحتاج إلى أن يتأول اللام بمعنى إلى. وأرسل يتعدى باللام كقوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۝٧٩﴾ [النساء] ولو تأوّل اللام بمعنى إلى لم يكن ذلك خطأ لأن اللام قد جاءت بمعنى إلى، وإلى جاءت بمعنى اللام. وأرسل، مما جاء متعدّياً بهما إلى المجرور.

والظاهر أن الميعاد اسم على وزن مفعال، استعمل بمعنى المصدر أي: قل لكم وقوع يوم ونحوه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ

(١) البيت في المقاصد النحوية ٣: ١٦٢ غير منسوب.

(٢) ق: حتم.

(٣) البيت أيضاً في المقاصد النحوية ٣: ١٦١ غير منسوب

ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم
مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ
تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا
ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم مشركوا قريش ومن جرى مجراهم. والمشهور أن ﴿بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ التوراة والأنجيل، وما تقدّم من الكتب الإلهية.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أخبر عن حالهم في صيغة التعجب منها. و«ترى» في معنى رأيت لإعمالها في الظرف الماضي. ومفعول «ترى» محذوف أي: حالَ الظالمين إذ هم موقوفون. وجواب «لو» محذوف أي: لرأيت لهم حالة منكرة من ذلّهم وتحاورهم[1] وتجادلهم حيث لا ينفعهم شيء من ذلك.

ثم فسّر ذلك الرجوع والجدل بأن الأتباع - وهم الذين استُضعفوا - قالوا لرؤسائهم على جهة التّذنيب والتّوبيخ وردّ اللائمة عليهم ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ أي: أنتم أغويتمونا وأمرتمونا بالكفر. فقال لهم رؤساؤهم ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ﴾ فأتوا بالاسم بعد أداة الاستفهام إنكاراً لأن يكونوا هم[2] الذين صدّوهم، بل صددتم من قبل أنفسكم وباختياركم، كأنهم قالوا: أنحن أجبرناكم[3] وحُلْنا بينكم وبين الذكر بعد أن صمّمتم على الدخول في الإيمان، بل أنتم منعتم أنفسكم حظّها، وآثرتم الضلال على الهدى، فكنتم

(١) وتجاورهم.

(٢) ق: لا أن يكون هم.

(٣) ق: أخبرناكم.

مجرمين كافرين باختياركم لا بقولنا وتسويلنا.

ولمّا أنكر رؤساؤهم أنهم السبب في كفرهم، وأثبتوا بقولهم «بل كنتم مجرمين» أن كفرهم هو من قبل أنفسهم، قابلوا إضراباً بإضراب، فقال الأتباع «بل مكر الليل والنهار» أي: ما كان إجرامنا من جهتنا، بل مكركم لنا دائماً ومخادعتكم لنا ليلاً ونهاراً، إذ تأمروننا ونحن أتباع لا نقدر على مخالفتكم، مطيعون لكم باستيلائكم علينا بالكفر بالله واتّخاذ الأنداد.

وأضيف المكر[١] إلى الليل والنهار، واتُّسع في الظرفين، فهما في موضع نصب على المفعول به على السّعة، أو في موضع رفع على الإسناد المجازي كما قالوا: ليل نائم. والأولى أن يرتفع «مكر» على الفاعلية، أي: بل صدّنا مكركم بالليل والنهار.

«إذ» معمول «لِمَكْر». «وأسروا» الضمير عائد للجميع وهم الظالمون الموقوفون. «وأسرُّوا» تقدّم الكلام عليه[٢]. و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ هم الذين سبقت منهم المحاورة. وجَعْل الأغلال إشارة إلى كيفية العذاب، قطعوا بأنهم واقعون فيه.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ استفهام معناه النفي، ولذلك دخلت «إلا» بعد النفي.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ

(١) ق: المكرر.

(٢) انظر تفسير الآية ٥٤ من يونس.

أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ الآية هذه تسلية لرسول الله صلى الله [٤٥٩/ب] عليه وسلم ممّا مُني به من قومه قريش من الكفر والافتخار بالأموال والأولاد، وأن ما ذكروا من ذلك هو عادة المترفين مع أنبيائهم، فلا يهمنّك أمرهم. «من نذير» عامّ، أي: ينذرهم بعذاب الله تعالى إن لم يوحّدوه.

و﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ جملة حالية. ونصّ على المترفين لأنهم أول المكذّبين للرسل لِمَا شُغلوا به من زخرف الدنيا، بخلاف الفقراء، فإنهم خالون من مستلذات الدنيا. و«بما» متعلّق بـ«كافرون». و«ربه» متعلق بـ«أرسلتم». و«ما» عامّة فيما جاءت به النُّذُر من طلب الإيمان بالله تعالى وإفراده[١] بالعبادة، والإخبار بأنهم رسله إليهم والبعث والجزاء على الأعمال.

والظاهر أن الضمير في «قالوا» عائد على المترفين: وقيل: عائد على قريش، ويدل عليه ما بعده من الخطاب في قوله ﴿بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ]. والظاهر[٢] أن هذا الموصول أريد به الأموال والأولاد.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ الظاهر أنه استثناء منقطع، وهو منصوب على الاستثناء، أي: لكن من آمن وعمل صالحاً، فإيمانه وعمله يقرّبانه.

---

(١) ق: وانفراده.

(٢) ق: الظاهر.

وقال الزّجاج: «إلا من آمن» هو بدل من الكاف والميم في «تقرّبكم».

وقال النحاس: هذا غلط، لأن الكاف والميم للمخاطب، فلا يجوز البدل، ولو جاز هذا لجاز: رأيتك زيداً. وقول أبي إسحاق هذا هو قول الفراء انتهى.

ومذهب الأخفش والكوفيين أنه يجوز أن يبدل [من] ضمير المخاطب والمتكلم، لكن البدل في الآية لا يصحّ. ألا ترى أنه لا يصح تفريغ الفعل الواقع صلة لما بعد إلا، لو قلت: ما زيد بالذي يضرب إلا خالداً لم يصحّ. وتخيّل الزجاج أن الصلة وإن كانت من حيث المعنى منفيّة أنه يجوز البدل. وليس بجائز إلا فيما يصحّ التفريغ [له].

قال الزمخشري[1]: «إلا من» استثناء من «كُم» في «تقربكم»، والمعنى أن الأموال لا تقرّب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرّب أحداً إلا من علّمهم الخير، وفقّههم في الدين، ورشّحهم للصلاح والطاعة انتهى.

اتّبع الزّجاج في ذلك، وهو لا يجوز كما ذكرنا. لا يجوز: ما زيد بالذي يخرج إلا أخوه، ولا: ما زيد بالذي يضرب إلا عَمْراً، ولا ما زيد بالذي يمر إلا ببكر. والتركيب الذي ركّبه الزمخشري من قوله: لا تقرّب أحداً إلا المؤمن، غير موافق للتركيب القرآني، ففي الذي ركّبه يجوز ما قال، وفي لفظ القرآن لا يجوز.

وأجاز الفراء[2] أن يكون «مَن» في موضع رفع، وتقدير الكلام عنده: ما

(١) الكشاف ٣: ٢٩٢.

(٢) انظر معاني القرآن ٢: ٣٦٣.

هذا[١] المقرّب إلا من آمن انتهى.

وقوله كلام لا يتحصل منه معنى، كأنه كان نائماً حين قال ذلك!!.

وقرىء: جزاءُ، مضافاً إلى الضعف، ومعناه: يجزيهم الله الضعف، أي: يضاعف لهم الحسنات. وقرىء: جزاءٌ، منوّناً. الضِّعفُ [٤٦٠/أ] بالرفع، فالضّعف بدل.

﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: في العلالي.

ولمّا ذكر جزاء من آمن، ذكر عقاب من كفر، ليظهر تفاوت ما بين الشيئين.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ[٢]﴾ تقدم الكلام عليه[٣].

ومعنى ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: يأتي بالخلف والعوض منه وكان لفظ «من عباده» مشعراً بالمؤمنين، وكذلك الخطاب في «وما أنفقتم» فقصد هنا رزق المؤمنين. فليس مساق «قل إن ربي يبسط» مساق ما قيل للكفار، بل مساق الوعظ والتّزهيد في الدنيا، والحضّ على النّفقة في طاعة الله تعالى وإخلاف ما أنفق إما منجزاً في الدنيا وإما مؤجّلاً في الآخرة، وهو مشروط بقصد وجه الله تعالى.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى

(١) ق: ماهو المقرب.

(٢) ق: سعوا.

(٣) انظر تفسير الآية ٥١ من الحج.

كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ [(١)] جَمِيعًا ﴾ أي: المكذبين من تقدّم ومن تأخّر. وخطاب الملائكة تقريع للكفّار، وقد علم تعالى أن الملائكة منزّهون بُرَآءُ ممّا وجّه عليهم من السؤال، وإنما ذلك على طريق توقيف الكفار على سوء ما ارتكبوه، من عبادة غير الله تعالى، وأن من عبدوه متبرىء منهم. و«أهؤلاء» مبتدأ، وخبره «كانوا يعبدون»، و«إياكم» مفعول «يعبدون» لمّا تقدّم انفصل. وإنما قُدّم لأنه أبلغ في الخطاب، ولكون «يعبدون» فاصلة [فلو أتى بالضمير متصلاً كان التركيب: يعبدونكم، ولم يكن فاصلة]. واستُدلّ بتقديم هذا المعمول على جواز تقديم خبر كان عليها إذا كان جملة.

ولما أجابوا الله تعالى، بدؤوا بتنزيهه وبراءته من كل سوء كما قال عيسى عليه السلام[(٢)]، ثم انتسبوا إلى موالاته دون أولئك الكفرة، أي: أنت وليّنا إذ لا موالاة بيننا وبينهم.

وفي قولهم ﴿ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴾ إشعار أنهم ما عبدوهم[(٣)]، وإن لم

---

(١) ق: نحشرهم.

(٢) ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة].

(٣) ق: عبدوه.

يصرّح به، ولكن الإضراب ببل يدلّ عليه، وذلك لأن المعبود إذا لم يكن راضياً بعبادة عابده مريداً لها، لم يكن ذلك العابد عابداً له حقيقة، فلذلك قالوا «بل كانوا يعبدون الجن» لأن أفعالهم القبيحة هي من وسوسة الشياطين وإغوائهم ومراداتهم، فهم عابدون لهم حقيقة، إذ الشياطين راضون بتلك الأفعال.

والإشارة بقوله ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ إلى تالي الآيات المفهوم من قوله ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾ وهو رسول الله ﷺ. وحكى تعالى مطاعِنَهم عند تلاوة القرآن عليهم، فبدؤوا أولاً بالطعن في التّالي بأنه يقدح في معبودات آلهتكم، ثم ثانياً فيما جاء به الرسول عليه السلام من القرآن بأنه كذب مختلق من عنده، وليس من عند الله تعالى، وثالثاً بأن ما جاء به سحر واضح لما اشتمل على ما يوجب الاستمالة وتأثير النفوس له وإجابته. فطعنوا في الرسول عليه السلام وفيما جاء به وفي وصفه. ويحتمل أن يكون ذلك صدر من مجموعهم، ويحتمل أن يكون كل جملة منها قالها [٤٦٠/ب] قوم غير من قال الجملة الأخرى.

وفي قولهم ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ دليل على أنه حين جاءهم، لم يفكّروا فيه، بل بادهوه بالإنكار ونسبته إلى السحر. ولم يكتفوا بقولهم إنه سحر حتى وصفوه بأنه واضح لمن يتأمّله. وقيل: إنكار القرآن والمعجزة كان متّفقاً عليه من المشركين وأهل الكتاب، فقال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ على وجه العموم.

﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ الآية، «وما آتيناهم» [أي] أهل مكة. «من كتب» من عندنا فيعلموا[1] بدراستها بطلان ما جئت به.

---

(١) ق: فيعلمون.

ومعنى «قبلك» أي: ما أرسلنا من نذير شافههم بشيء، ولا باشر[١] أهل عصرهم ولا من قَرُب من آبائهم، وقد كانت النذارة في العالم وفي العرب مع شعيب وغيره. ودعوة الله قائمة لا تخلو الأرض من داعٍ إليه.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ توعُّدٌ لهم[٢] بمن تقدّمهم من الأمم وما آل إليه أمرهم، وتسلية لرسول الله ﷺ بأن عادتهم في التكذيب عادة الأمم السابقة، وسيحلّ بهم ما حلّ بأولئك.

والظاهر أن الضميرين في «بلغوا» وفي «آتيناهم» عائدان على «الذين من قبلهم» ليتناسقا مع قوله «فكذبوا» أي: ما بلغوا في شكر النعمة وجزاء المنّة معشار ما آتيناهم من النعم والإحسان إليهم. وحين كذّبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتّدمير والاستئصال، ولم يُغْنِ عنهم ما كانوا فيه من القوة.

والمعشار: مفعال من العشر. ولم يُبْنَ على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المرباع، ومعناهما العشر والرّبع، وقال قوم: المعشار عُشْر العُشْر.

﴿۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ
مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا
سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ
رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلۡ
إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ
قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ

---

(١) ق: يباشر.

(٢) ق: تعالى عدلهم.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّۢ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾ .

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ﴾ قال السدّي: هي لا إلا إلا الله، وقيل غير ذلك. والمعنى: إنما أعظكم بواحدة، فيها إصابتكم الحق، وخلاصكم، وهي أن تقوموا لوجه الله تعالى متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً.

قال الزمخشري[1]: «بواحدة» بخصلة واحدة وهو فسّرها بقوله «أن تقوموا» على أنه عطف بيان لها انتهى.

هذا لا يجوز لأنّ «بواحدة» نكرة، و«أن تقوموا» معرفة لتقديره: قيامكم لله. وعطف البيان فيه مذهبان: أحدهما أنه يشترط فيه أن يكون معرفة من معرفة، وهو مذهب البصريين، والثاني أنه يتبع ما قبله في التعريف والتنكير، وهو مذهب الكوفيين. وأمّا التّخالف فلم يذهب إليه ذاهب إنما هو وهم من قائله.

وقد ردّ النحويون على الزمخشري في قوله إن «مقام إبراهيم» عطف بيان من قوله «آيات بينات»[2] وذلك لأجل التّخالف فكذلك هذا.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ﴾ أي: في[3] أمر محمد ﷺ وما جاء به.

وإنما قال ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ لأن الجماعة يكون مع [٤٦١/أ] اجتماعها تشويش الخاطر والمنع من الفكر وتخليط الكلام والتعصّب للمذاهب.

(١) الكشاف ٣: ٢٩٤.

(٢) الآية ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۝٩٧﴾ [آل عمران].

(٣) ق: أي زائد في.

وانتصب «مثنى وفرادى» على الحال. وقدّم «مثنى» لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة، فإذا انقدح الحق بين الاثنين، فكّر كلّ واحد بعد ذلك فيزيد بصيرة. وقال الشاعر[1]: [من الطويل]

إذا اجتمعوا جاؤوا بِكلّ غريبةٍ فيزداد بعض القوم من بعضهم علما

«ثم تتفكروا» عطف على «أن تقوموا» والفكرة هنا في حال رسول الله ﷺ، وفيما نسبوه إليه، فإن الفكرة تهدي غالباً إلى الصواب.

والوقف عند أبي حاتم عند قوله «ثم تتفكروا»، و«ما يصاحبكم من جنة» نفي مستأنف. والذي يظهر أن الفعل معلّق عن الجملة المنفيّة، فهو في موضع نصب على إسقاط في.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ فيه التبرّؤ من طلب الدنيا ومن طلب الأجر على النور الذي أتى به، والتوكّل على الله والأجر [عنده]. واحتملت «ما» أن تكون موصولة مبتدأ، والعائد من الصلة محذوف تقديره: سألتكموه، و«فهو لكم» الخبر، ودخلت الفاء لتضمّن المبتدأ معنى الشرط. واحتملت أن تكون «ما» شرطية مفعولة بـ«سألتكم»، و«فهو لكم» جملة هي جواب الشرط.

والظاهر أن «بالحق» هو المفعول، فالحق هو المقذوف به.

قال الزمخشري[2]: رَفْع «علاّمُ» محمول على محل إنّ واسمها، أو على المستكنّ في «يقذف»، أو هو خبر مبتدأ محذوف انتهى.

---

(١) لم أجده.

(٢) الكشاف ٣: ٢٩٥.

أما الحمل على محلّ إنّ واسمها فهو [غير] مذهب سيبويه، فليس بصحيح عند أصحابنا على ما قررناه في كتب النحو. وأما قوله: على المستكنّ في «يقذف» فلم يبيّن وجه حمله، وكأنه يريد أنه بدل من ضمير «يقذف».

ولمّا ذكر تعالى أنه ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ بصيغة المضارع، أخبر أن الحق قد جاء، وهو القرآن والوحي، وبطل ما سواه من الأديان، فلم يَبْقَ لغير الإسلام ثبات، لا في بدءٍ ولا في عاقبة، فلا يُخاف على الإسلام ما يبطله.

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ ثَمّ محذوف تقديره: فاهتدائي، وهو مبتدأ خبره «فيما يوحي إلي ربي» أي: كائن بما يوحي. و«ما» مصدرية أي: بإيحاء ربّي. أو موصولة بمعنى الذي، و«يوحي» صلته والضمير محذوف تقديره: يوحيه.

والظاهر أن قوله ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أنه وقت البعث وقيام الساعة. وعبّر بـ«فزعوا» و«أُخذوا» و«قالوا» و«حيل» بلفظ الماضي لتحقّق وقوعه بالخبر الصادق.

وقال ابن عباس والضحّاك: هذا في عذاب الدنيا.

ومفعول «ترى»[١] محذوف أي: ولو ترى الكفار إذ فزعوا.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: لا يفوتون الله تعالى، ولا مهرب لهم عمّا [٤٦١/ب] يريده بهم.

﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: من مساكنهم.

والضمير في «به» عائد على الله تعالى. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ قال ابن

(١) ق: يرى.

عباس: الرجوع إلى الدنيا، وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في الدنيا.

مثّل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بُعْد كما يتناوله الآخر من قرب. وقرىء: التناوش، بالواو، وبهمزةٍ بَدَلَها.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ﴾ الضمير في «به» عائد على ما عاد عليه «آمنّا به»، والجملة حالية.

و﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل نزول العذاب.

وقرىء: ويقذفون، مبنيًّا للفاعل حكاية حال متقدّمة، قال الحسن: قولهم لا جنّة ولا نار.

«بعيد» أي: من جهة بعيدة لأنّ نسبته إلى شيء من ذلك أبعد الأشياء.

وقرأ مجاهد وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو: ويُقذفون، مبنيًّا للمفعول، معناه يُرمون بالغيب من حيث لا يعلمون، ومعناه يجازون على سوء أعمالهم.

﴿وَحِيلَ﴾ هو مبني للمفعول، وقبل البناء كان حالَ، وهو فعل لا يتعدّى، وقال الشاعر[1]: [من الطويل]

وقد حال همٌّ دون ذلك شاغلٌ مكان الشَّغافِ تبتغيه الأصابعُ

فعلى هذا يكون المُقام مقام الفاعل ضميرَ المصدر المفهوم من قوله «حيل» كأنه قيل: وحيل هو، أي: الحول. والذي يشتهون: الرجوع إلى الدنيا.

(١) البيت للنابغة في ديوانه ص٤٥.

قاله ابن عباس. ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ أي: بأشباههم من كفرة الأمم، أي: حيل بينهم وبين مشتهياتهم.

و﴿مِّن قَبْلُ﴾ يصحّ أن يكون متعلّقا بـ«أشياعهم» أي: من اتّصف بصفاتهم من قبل، أي: في الزّمان الأول، ويترجّح بأنّ ما يُفعل بجميعهم إنما هو في وقت واحد. ويصحّ أن يكون متعلّقاً بـ«فُعل» إذا كانت الحيلولة في الدنيا.

[مفردات سورة سبأ]

المَزْقُ: خَرْقُ الشيء، يُقال منه: ثَوبٌ مَمْزُوق ومَزِيق ومُتَمَزِّق ومُمَزَّق: إذا صار قِطَعاً بالياً، ومنه قولُ المُمَزَّق العَبْديّ:

فإنْ كنتُ مأكولاً فكُنْ خيرَ آكِلٍ   وإلَّا فأدْرِكْني ولمَّا أُمَزَّقِ[1]

السَّابِغات: الدُّروع، وأصله الوصفُ بالسُّبوغ، وهو التَّمام والكمالُ، وغَلب على الدُّروع فصار كالأَبْطَح، وقال الشاعر:

عليها أُسودٌ ضارياتٌ لَبوسُهم   سَوابغُ بِيضٌ لا يُخَرِّقُها النَّبْلُ[2]

السَّرْدُ: إتْباعُ الشَّيء بالشيء من جِنْسه، قال الشَّمَّاخ:

فَظَلَّتْ تِباعاً[3] خَيْلُنا في بيوتكم   كما تابَعَتْ سَرْدَ العِنانِ الخَوارِزُ[4]

ويُقال للدِّرْع: مَسْرودة؛ لأنه تُوبع فيها الحَلَق بالحَلَق، قال الشاعر[5]:

---

(١) البيت في الأصمعيات ١٦٦ من قصيدة له، وتخريجها ثمة.

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وسلف في تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنبياء.

(٣) في هامش (د٢): سراعاً، وهي رواية في البيت، وكذا ذكرها الآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ٣٥.

(٤) البيت في تفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٥، والآلوسي، وعجزه في غريب القرآن لابن قتيبة ٣٥٤، وغريب الحديث له ٢/ ٤٥٣، وأساس البلاغة (سرد)، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨.

ورواية صدره في الديوان ١٩٤: شككن بأحساء الذناب على هدى، وفي جمهرة أشعار العرب ٢/ ٨٣٤:

ركبن الذنابى فاتبعن به الهدى

(٥) هو أبو ذؤيب الهذلي، وسلف البيت في تفسير كلمة قضى من قوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ الآية (١١٧) من سورة البقرة.

وعليهما مَسْرُودتانِ قَضاهما داوُد أو صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ

ويُقال لصانع ذلك: سَرَّاد وزَرَّاد، تُبدَل من السين الزَّاي، كما قالوا: سِراط وزِراط، ويُقال للإشْفَى: مِسْرَد ومِسْراد، وسرَد القرآن؛ إذا حَدَرَ فيه، والكلامَ: إذا تابَعه مُستعجِلاً فيه.

أسال: من سالَ الوادي والدَّمع: جَرى بسرعةٍ ما فيه من الماء والدَّمع.

القِطْر: النُّحاس، وقيل: الفِلِزُّ: النُّحاسُ والحديدُ وما جَرى مُجراه.

الجِفان: جَمعُ جَفْنَة، وهي معروفة.

الجَوابي: الحِياضُ العِظام، واحدُها جابية؛ لأنه يُجْبى فيها الماء أي: يُجمَع، قال الشاعر:

بجِفَانٍ تَعْتَري نادِيَنَا من سَدِيفٍ حين هاجَ الصِّنَّبِرْ
كالجَوابي لا تَنِي مُتْرَعَةً لِقِرى الأضيافِ أو للمُحْتَضِر(١)

وقال الأعشى:

نَفى الذَّمَّ عن آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ كجَابِيَةِ الشَّيْخِ العِراقيِّ تَفْهَقُ(٢)

وقال الأفْوَه الأَوْدِيّ:

(١) البيتان لطرفة بن العبد، وهما في ديوانه ٦٦ بشرح الأعلم الشنتمري، قال: تعتري: تُلم به وتأتيه. النادي: مجلس القوم ومتحدَّثهم. السديف: قطع السنام. الصنبر: أشد ما يكون من البرد. الجوابي: جمع جابية، وهي الحوض العظيم يُجبى فيه الماء، شبه الجفان بها في سعتها وعظمتها. المترعة: المملوءة. لا تني: لا تفتر. القرى: القيام بالضيف. المحتضر: النازل على الماء.

(٢) ديوان الأعشى ٢/ ٧٧ (بتحقيق الرضواني)، والكامل ٩، وأمالي القالي ٢/ ٢٩٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٠، والخزانة ٧/ ١٦٥. تفهق: تمتلئ.
قال ابن عطية: ويروى السيح بالسين من غير نقط وبالحاء من غير نقط أيضاً، وهو الماء الجاري على وجه الأرض، ويروى بالشين والخاء منقوطين، فيقال: أراد كسرى، ويقال: أراد شيخاً من فلاحي سواد العراق غير معين، وذلك أنه لضعفه يدخر الماء في جابية فهي تفهق أبداً، فشبهت الجفنة بها لعظمها، وانظر كلام المبرد والبغدادي.

وقُدورٍ كالرُّبا راسِيَةٍ وجِفانٍ كالجَوابي مُتْرَعَهْ[١]

القِدْرُ: إناءٌ يُطْبَخ فيه من فخَّار أو غيره، وهو على شكلٍ مَخْصوص.

المِنْسَأة: العَصا، تُهمز ولا تُهمز، ووزْنُها مِفْعَلَة، من نَسَأْتُ أي: أخَّرْتُ وطَرَدْتُ، ويقال: مِنْساءة بالمَدِّ والهَمْز على وزن مِفْعَالَة، كما قالوا مِيْضَأة ومِيْضاءة، وقال الشاعر:

ضَرَبْنا بِمِنْسَاءَةٍ وَجْهَه فصار بذاك مَهِيناً ذَلِيلا[٢]

وقال آخر:

إذا دَبَبْتَ على المِنْسَاةِ من هَرَمٍ فقد تباعَدَ عنك اللَّهْوُ والغَزَلُ[٣]

وقياسُ تخفيفِ هَمْزتها أن يكون بَيْنَ بين، وأمَّا إبدالُها ألفاً أو حذفُها فغيرُ قياسٍ.

العَرِم: إمَّا صِفةٌ للسَّيل أُضيف فيه الموصوفُ إلى صِفته، كقولهم: مَسْجدُ الجامعِ، وإمَّا اسمٌ لشيء، ويأتي القول فيه في تفسير المُرَكَّبات.

الخَمْطُ: قال أبو عبيدة: كلُّ شَجرةٍ مُرَّةٍ ذات شَوك[٤].

وقال ابن الأعرابيّ: الخَمْطُ: ثَمَرُ شَجَرةٍ على صورةِ الخَشْخاشِ لا يُنْتَفَعُ به[٥].

وقال القُتَبيّ: يقال للحُماضَة: خَمْطَة[٦].

---

(١) ديوان الأفوه ٣٩٦ (ضمن شعراء مذحج)، والدر المصون ٩/ ١٦٢، وروح المعاني ٢٢/ ٤٦، ورواية الديوان: كالزبى، قال محققه: الزبى: جمع زبية، وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده، وأصلها الرابية لا يعلوها الماء.

(٢) تفسير الثعلبي ٥/ ١٥٠، والقرطبي ١٧/ ٢٨٣، والآلوسي ٢٢/ ٥١، وعندهم: بمنسأة.

(٣) البيت دون نسبة في مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، وغريب القرآن لابن قتيبة ٣٥٥، والبيان والتبيين ٣/ ٣١، وتفسير الطبري ١٩/ ٢٣٩، والمحتسب ٢/ ١٨٧، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٥٠، والماوردي ٤/ ٤٤١، والقرطبي ١٧/ ٢٨٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١١، واللسان (نسأ).

(٤) انظر مجاز القرآن ٢/ ١٤٧.

(٥) تهذيب اللغة ٧/ ٢٦٠.

(٦) كذا في النسخ، وفي أدب الكاتب لابن قتيبة ١٦٧، وعنه معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٨، والهداية لمكي ٩/ ٥٩١١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٩٥: يقال للحامضة خمطة.

وقال أبو عُبيد: اللَّبَنُ إذا أخَذَ شيئاً من الرِّيح فهو خامِط[١] وخَمِيط.

وتَخَمَّط الفَحْلُ: هَدَرَ، والرَّجُلُ: تَغَضَّب وتَكَبَّر، والخَمْرُ[٢]: أخَذَت ريحَ الإدْراكِ كرائحةِ التُّفَّاح ولم تُدْرِك بَعْد، ويقال: هي الخامِطَة. قاله الجوهريّ.

الأَثْل: شَجَرٌ، وهو ضَرْبٌ من الطَّرْفاء. قاله أبو حَنيفة اللُّغَويّ في كتاب «النبات» له[٣]، ويأتي ما قال فيه المفسِّرون.

السِّدْر: قال الفرَّاء: هو السَّمُر[٤]. وقال الأزهريّ: السِّدْرُ سِدْران: سِدْرٌ لا يُنْتَفَعُ به، ولا يَصْلُح وَرَقُه للغسول، وله ثَمرةٌ عَفِصَةٌ لا تؤكَل، وهو الذي يُسَمَّى الضَّال، وسِدْرٌ يَنْبُتُ على الماء، وثَمَرُه النَّبِق، وَرَقُه غَسولٌ يُشْبه وَرَقَ شَجَرِ العُنَّاب[٥].

التَّناوُش: تَناولٌ سَهْلٌ لشيءٍ قَريب، يُقال: ناشَه يَنُوشُهُ وتَناوَشَه القومُ، وتَناوَشُوا في الحَرْب: ناشَ بعضُهم بعضاً بالسِّلاح[٦]. وقال الرَّاجز:

فَهْي تَنوش الحَوْضَ نَوْشاً من عَلا
نَوْشاً به تَقْطَعُ أجْوازَ الفَلا[٧]

---

(١) في النسخ (أ ح د٢ ز٢ ع يه): حامض، والمثبت من المطبوع، والصحاح (خمط)، والغريب المصنف لأبي عبيد ١/ ٩٥، وتهذيب اللغة ٧/ ٢٦٠، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٩٥، واللسان (خمط)، ووقع فيه النقل عن أبي عبيدة وهو تحريف.

(٢) في الصحاح (خمط): والخَمْطَةُ: الخمر، وكذا نقل عنه القرطبي ١٧/ ٢٩٥.

(٣) لم نقف عليه في مطبوع كتاب النبات، ونقله عنه ابن عطية في المحرر ٤/ ٤١٤.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٣٥٩.

(٥) تهذيب اللغة ١٢/ ٣٥٣، وعنه القرطبي ١٧/ ٢٩٦.

(٦) الكشاف ٣/ ٢٩٦.

(٧) نسب الرجز أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٥٠، وابن بري في التنبيه والإيضاح ٢/ ٣٢٧-٣٢٨، وابن منظور في اللسان (نوش) إلى غيلان بن حريث، ونسبه ابن منظور في اللسان (علا) إلى أبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ٤٦٢-٤٦٣ (مجمع اللغة).
والرجز دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وكتاب سيبويه ٣/ ٤٥٣، وإصلاح المنطق ٤٣٢، وغريب الحديث للحربي ٨٨٤، وأدب الكاتب ٥٠٣، والكامل ٣/ ١٤٣٣، ومجالس ثعلب ٥٨٧، والصحاح (نوش)، وتهذيب اللغة ١١/ ٤١٧، والزاهر ١/ ٢٤٣، =

وأمَّا بالهَمْز فقال الفرَّاء: من نَأَشْتُ أي: تَأَخَّرْتُ، قال الشاعر:

تَمنَّى نَئيشاً أنْ يكونَ أطاعَني وقد حَدَثَتْ بعدَ الأمورِ أُمورُ[1]

وقال آخر:

وجِئتَ نَئيشاً بعدَما فاتَكَ الخَبَرْ[2]

نئيشاً: أخيراً.

* * *

سورة سبأ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ

= وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥-٣١٦، والثعلبي ٥/ ١٦٥، والماوردي ٤/ ٤٥٩، والقرطبي ١٧/ ٣٣٦، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٢٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦، وخزانة الأدب ٩/ ٤٣٧.

قال ابن بري: قوله: فهي؛ الضمير للإبل، وتنوش الحوض: تتناول ماءه، وقوله: من علا، أي: من فوق، يريد أنها عالية الأجسام طوال الأعناق، وذلك النوش الذي تناله هو الذي يعينها على قطع الفلوات، والأجواز: جمع جَوْز، وهو الوسط.

(١) نسبه الزمخشري في المستقصى ١/ ٣٠٢، والبصري في الحماسة ٨٦٦، وابن بري في التنبيه والإيضاح ٢/ ٣٢٥، وابن منظور في اللسان (نأش) لنهشل بن حَرّي، والبيت دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥، والثعلبي ٥/ ١٦٥، والقرطبي ١٧/ ٣٣٨، وغريب الحديث للحربي ٨٨٣، والزاهر ١/ ٢٤٤، والصحاح (نأش)، وتهذيب اللغة ١١/ ٤١٧، والكشاف ٣/ ٢٩٦. نئيشاً: أخيراً، والضمير للمولى في قوله في البيت قبله:

ومولى عصاني واستبد برأيه كما لم يُطع فيما أشار قصيرُ

(٢) صدره كما في تفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٨: قعدتَ زماناً عن طلابك للعُلا

وعجزه دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وغريب الحديث للحربي ٨٨٣، وتهذيب اللغة ١١/ ٤١٧، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٦٥، واللسان (نوش).

ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

هذه السُّورة قال في «التَّحرير»: مكِّيةٌ بإجماعهم. وقال ابن عطية: مكيَّة إلا قوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [سبأ: ٦]، فقالت فرقة: مدنيَّةٌ فيمَن أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سَلام وأشباهِه(١). انتهى.

وسببُ نزولها: أنَّ أبا سُفيان قال لكُفَّار مكَّةَ لمَّا سَمعوا: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]: محمدٌ يَتوَعَّدُنا بالعَذابِ بعد أنْ نموت، ويُخَوِّفُنا بالبَعْث، واللَّاتِ والعُزَّى لا تأتينا السَّاعةُ أبداً ولا نُبعَث، فقال الله: «قُل» يا محمد «بلى وربِّي» لَتُبْعَثُنَّ. قاله مُقاتل(٢).

وباقي السُّورة تَهديدٌ لهم وتخويف.

ومِن ذِكْر هذا السَّبب ظَهَرت المُناسبةُ بين هذه السُّورة والتي قبلَها.

«الحمدُ لله» مُسْتَغرِقٌ لجميع المَحامد. «وله الحَمْدُ في الآخرة» ظاهرُه الاستغراق.

ولمّا كانت نِعَمُ الآخرةِ مُخْبَراً بها غيرَ مَرْئيَّةٍ لنا في الدُّنيا ذَكرها لِيُقاسَ نِعَمُها بنِعَمِ الدُّنيا قِياسَ الغائب على الشَّاهد وإن اختَلَفتا في الفَضيلة والدَّيمومة.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٤.
(٢) ذكره ابن عطية ٤/ ٤٠٥، والقرطبي ١٧/ ٢٥٣ دون نسبة.

وقيل: أل فيه للعَهْد، والإشارةُ إلى قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَنٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ١٠]، أو إلى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤][(١)].

وقال الزمخشري: الفَرْقُ بين الحَمْدَيْن: وجوبُ الحَمْدِ في الدنيا؛ لأنه على نِعْمةٍ مُتَفَضَّلٍ بها، وهو الطريقُ إلى تحصيلِ نِعْمةِ الآخرة وهي الثَّواب، وحَمْدُ الآخرةِ ليس بواجب؛ لأنه على نِعمةٍ واجِبةِ الإيصال إلى مُسْتَحِقِّها، إنما هو تَتمَّةُ[(٢)] سُرورِ المؤمنين، وتكمِلَةُ اغتباطِهم يَلْتَذُّون به. انتهى. وفيه بعضُ تلخيص.

«يَعلم ما يَلِجُ في الأرض» من المياه. وقال الكلبي: من الأموات والدَّفائن، «وما يَخرج منها» من النَّبات. وقال الكلبي: من جَواهر المَعادن «وما يَنزلُ من السَّماء» من المَطَر والثَّلْج والبَرَد والصَّاعِقَة والرِّزْق والمَلَك «وما يَعْرُجُ فيها» من أعمال الخَلْق. وقال الكلبي: وما يَنزل وما يَعْرُجُ من الملائكة. وقيل: من الأقضية والأحوال والأدعية والأعمال. وقيل: من الإنْعام والعَطاء[(٣)].

وقرأ عليّ والسُّلَميّ: «وما يُنَزِّلُ» بضمِّ الياء وفتح النُّون وشدِّ الزاي، أي: الله تعالى[(٤)].

و«بلى» جوابٌ للنَّفي السَّابق من قولهم: «لا تأتينا السَّاعةُ» أي: بلى لَتَأتيَنّكم.

وقرأ الجمهور: «لَتأتيَنَّكم» بتاء التَّأنيث، أي: الساعةُ التي أنكرتُم مَجيئَها.

وقرأ طَلْق عن أشياخه بياء الغَيْبة[(٥)]، أي: لَيَأتيَنّكم البَعْثُ؛ لأن مَقصودَهم من نفي السَّاعة أنهم لا يُبْعَثون.

وقال الزمخشري: أو على معنى السَّاعة أي: اليوم، أو على إسناده إلى الله

---

(١) في (يه): تتميم، وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٤.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٨.
(٣) انظر النكت والعيون ٤/ ٤٣٢.
(٤) ذكرها عن السلمي ابن عطية في المحرر ٤/ ٤٠٤، وفي مختصر في الشواذ ١٢١، والكشاف ٣/ ٢٧٩، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٣ أن قراءة علي: ننزل بالنون والتشديد.
(٥) مختصر في الشواذ ١٢١، والمحتسب ٢/ ١٨٦، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٤٤-٢٤٥.

على معنى: لَيَأتينّكم أمرُ عالمِ الغَيْب، كقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، أي: أمرُه[١].

ويَبْعُد أنْ يكونَ ضميرَ السَّاعة؛ لأنه مَذهوبٌ به مَذْهَبَ التَّذكير لا يكون إلا في الشّعر نحو قوله:

ولا أرضَ أبْــقَــلَ إبْــقــالَــهــا[٢]

ثم أكّد الجوابَ بالقَسَم على البَعْث، وأتْبَعَ القَسَمَ بقوله: «عالمِ الغيبِ» وبما بعده ليُعْلَم أنَّ إتْيانها من الغَيب الذي تفرَّد به تعالى.

وجاء القسَم بقوله: «وربّي» مُضافاً إلى الرَّسول ليَدُلّ على شِدَّة القسم؛ إذْ لم يأتِ به في الاسم المُشتَرَك بينه وبين مَن أنكر السَّاعةَ وهو لَفظُ الله.

وقرأ نافع وابنُ عامر ورُوَيْس وسَلّام والجَحْدَريّ وقَعْنَب: «عالمُ» بالرَّفع[٣] على إضْمار هو، وجَوَّز الحَوْفيُّ وأبو البَقاء أن يكون مبتدأً والخبر «لا يَعْزُب»[٤]. وقال الحَوْفيّ: أو خَبرُه محذوف، أي: عالمُ الغيب هو[٥].

وباقي السبعة: «عالمِ» بالجرّ. قال ابن عطية وأبو البقاء: وذلك على البَدَل، وأجاز أبو البقاء أن تكون صِفَةً[٦]، ويعني أن «عالمِ الغيب» يجوز أن يتعرَّف، وكذا كُلُّ ما أُضيف إلى معرفةٍ مما كان لا يَتعرَّف بذلك يجوز أن يَتعرَّف؛ إلا إضافة الصِّفة المُشَبَّهة، فلا تتعرَّف بإضافة، ذكر ذلك سيبويه في كتابه[٧]، وقلَّ مَن يَعرفه.

(١) في الكشاف ٣/ ٢٧٩: ووجه من قرأ بالياء أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم، أو يسند إلى عالم الغيب، أي: ليأتينكم أمره كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾.
(٢) صدره: فلا مُزنةٌ وَدَقَت وَدْقَها، وهو لعامر بن جوين الطائي كما في المذكر والمؤنث للمبرد ١٠٢، والكامل ٨٤١، وسلف في تفسير الآية (١٤) من سورة الإسراء.
(٣) السبعة ٥٢٦، والتيسير ١٨٠ عن نافع وابن عامر، والنشر ٢/ ٣٤٩ عنهما وعن رويس.
(٤) إملاء ما منّ به الرحمن ٢/ ١٩٥.
(٥) ذكرهما الآلوسي ٢٢/ ١٢-١٣، والسمين في الدر ٩/ ١٤٨ وقال: وفيه بُعد.
(٦) الإملاء ٢/ ١٩٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٥.
(٧) الكتاب ١/ ٤٢٥.

وقرأ ابن وَثّاب والأعمش وحمزة والكسائي: «عَلَّامِ» على المُبالَغة والخَفْض[١].

وتقدّمت قراءة «يَعْزُبُ» في «يونس»[٢].

وقرأ الجمهور: «ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ» برفع الرَّاءين، واحتمل أن يكون معطوفاً على «مِثْقالُ»، وأن يكون مبتدأ والخبر في قوله: «إلا في كتاب». وعلى الاحتمال الأوّل يكون «إلا في كتابٍ مُبين» توكيداً لما تضمَّن النفيُ في قوله: «لا يَعْزُبُ» وتقديره: لكنَّه في كتاب مُبين، وهو كنايةٌ عن ضَبطِ الشيء والتَّحَفُّظ به، فكأنه في كتاب وليس ثمَّ حقيقةُ كتاب. وعلى التَّخريج الأوّل يكون الكتاب هو اللوحُ المَحْفوظ.

وقرأ الأعمش وقتادة بفتح الرَّاءين[٣]. قال ابن عطية: عطفاً على «ذَرَّة» ورُويت عن أبي عمرو، وعَزاها أيضاً إلى نافع[٤].

ولا يتعيَّن ما قال، بل تكون «لا» لنَفْي الجِنْس وهو مبتدأ، أعني مَجموعَ لا وما بُني معها على مذهب سيبويه[٥]، والخبر: «إلا في كتابٍ مُبين» وهو من عطف الجُمَل، لا من عطف المُفردات كما قال ابن عطيَّة.

وقال الزمخشري جواباً لسؤال مَن قال: هلّا جاز عطفُ «ولا أصغرُ» على «مِثْقالُ» وعطفُ «ولا أصغرَ» على «ذَرَّةٍ»؟ قلت[٦]: يأبى ذلك حرفُ الاستثناء؛

---

(١) السبعة ٥٢٦، والتيسير ١٧٩، والنشر ٢/ ٣٤٩، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٣٩.

(٢) في الآية (٦١) منها.

(٣) مختصر في الشواذ ١٢١، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٥، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٥، وزاد المسير ٦/ ٤٣٣ ونسبها إلى ابن السميفع والنخعي والأعمش.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٥. وذكر ابن غلبون في التذكرة ٢/ ٦٢١ أن حسيناً الجعفي روى عن أبي عمرو أنه نصبهما. اهـ. وأما قراءة نافع وأبي عمرو المشهورة عنهما فهي كقراءة الجمهور بالرفع.

(٥) الكتاب ٢/ ٢٧٥.

(٦) لفظ الزمخشري ٣/ ٢٧٩-٢٨٠: فإن قلت: هل يصح عطف المرفوع على مثقال ذرة كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرة وأصغر وأكبر، وزيادة لا لتأكيد النفي، وعطف المفتوح علي

إلا إذا جعلتَ الضميرَ في «عنه» للغيب، وجعلتَ الغيبَ اسماً للخَفِيَّات قبل أن تُكتَبَ في اللَّوح؛ لأن إثباتَها في اللوح نوعٌ من البُروزِ عن الحِجاب، على معنى أنه لا يَنْفَصلُ عن الغيبِ شيءٌ ولا يَزِلُّ عنه إلا مَسطوراً في اللّوح. انتهى.

ولا يُحتاج إلى هذا التأويل إذا جَعلْنا الكتابَ المُبين ليس اللوحَ المَحفوظ.

وقرأ زيد بن عليّ: «ولا أصغرِ من ذلك ولا أكبرِ» بخَفْض الرَّاءين بالكَسْر[1]. كأنه نَوى مُضافاً إليه محذوفاً، التقدير: ولا أصغرِه ولا أكبرِه، و«من ذلك» ليس متعلّقاً بأفْعَل، بل هو تَبْيينٌ؛ لأنه لما حذف المضاف إليه أُبهم لفظاً، فبيَّنه بقوله: «من ذلك» أي: أعني من ذلك. وقد جاءت من مع كون أفعَل التَّفضيل مُضافاً في قول الشاعر:

نحن بغَرْسِ الوَدِيِّ أعْلَمُنا ... منَّا برَكْضِ الجِيادِ في السَّدَفِ[2]

وخُرِّج على أنه أراد: أعلمُ مِنَّا، فأضاف ناوياً اطِّراحَ المُضاف إليه، فاحتَملتْ قراءةُ زيدٍ هذا التَّوجيهَ الآخَر: أنه لمّا أضاف أصغرَ وأكبرَ إلى مضاف إليه نوى اطِّراحه، فأتى بمن الدَّاخلة على المفضّل عليه، وأبقى أصغر وأكبر على إعرابهما حالةَ الإضافة. وهذا كلُّه توجيهُ شُذوذ.

وناسَبَ وَصْفُه تعالى بعالِم الغَيب، وأنه لا يَفوتُ علمَه شيءٌ من الخَفِيَّات، فانْدَرَجَ في ذلك وقتُ قيامِ السَّاعة، وصار ذلك دليلاً على صِحَّةِ ما أقسَم عليه؛ لأنَّ

= ذرة بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا مثقال أصغرَ من ذلك ولا أكبر؟ قلت. وانظر الدر المصون ٩/ ١٤٩.

(١) ذكرها السمين في الدر ٩/ ١٤٩، والآلوسي ٢٢/ ١٦.

(٢) البيت في أمثال أبي عبيد ١٤١، والفاخر ٧١، والصحاح (سدف)، وتهذيب اللغة ١٢/ ٤٣٣، وجمهرة الأمثال ٢/ ٣٣١، والمستقصى ٢/ ٣٧١، ومجمع الأمثال ١/ ٩٤، وفصل المقال ٢١٠، واللسان (سدف)، وشرح شواهد المغني للسيوطي ٨٤٥ منسوباً إلى سعد القرقرة، ونسبه ابن عصفور في الضرائر ٢٨٣ إلى قيس بن الخطيم، وهو في زيادات ديوانه ٢٣٦، ونسبه صاحب اللسان (ودى) إلى الأنصاري، وهو دون نسبة في غريب الحديث لابن سلام ٥/ ٢٢٨، ومقاييس اللغة ٣/ ١٤٨، ومغني اللبيب (٨١١)، وشرح أبياته للبغدادي ٦/ ٣٣٥، والخزانة ٩/ ٢١٩. الودي: صغار النخل. السدف: الظلمة والضوء، أضداد، وروي عند بعضهم: السلف، وهي الأرض.

مَن كان عالماً بجميع الأشياء كُلِّها وجُزئها، وكانت قُدرتُهُ تامَّةً كان قادراً على إعادةِ ما فَنِيَ، وجمعِ الأرواح والأشباح.

قيل: وقوله: «مِثْقالُ ذَرَّةٍ في السَّماوات» إشارةٌ إلى علمِهِ بالأرواح «ولا في الأرض» إشارةٌ إلى علمه بالأشباح، وكما أبْرَزَهما من العَدَم إلى الوجود أوَّلاً فكذلك يُعيدُهما ثانياً.

وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف تكون ـ يعني اليمين ـ مُصَحِّحةً لما أنكروه؟ قلت: هذا لو اقتصر على اليمين ولم يُتْبعها بالحُجَّةِ القاطعة وهو قوله: «لِيَجْزي» فقد وَضع الله في العقول، ورَكَّب في الغَرائز وجوبَ الجَزاء، وأنَّ المُحْسِنَ لا بُدَّ له من ثَواب، والمُسيءَ لا بُدَّ له من عقاب[١]. انتهى. وفي السُّؤال بعضُ اختصار، وفيه دَسيسةُ الاعتزال.

والظَّاهر أن قوله: «لِيَجْزيَ» مُتعلّقٌ بقوله: «لا يَعْزُب» وقيل: بقوله: «لَتَأْتِيَنَّكم» وقيل: بالعامل في «كتابٍ مُبين» أي: إلا مُسْتَقِرٌّ في كتابٍ مُبين لِيَجْزيَ[٢].

وقرأ الجمهور: «مُعاجِزين» مُخفَّفاً. وابن كثير وأبو عمرو والجَحْدَريّ وأبو السَّمَّال مُثَقَّلاً[٣]. وتقدَّم في «الحجّ» [الآية: ٥١] أي: مُعجزينَ قدرة الله في زَعْمِهم.

وقال ابن الزُّبير: معناه: مُثَبِّطِين عن الإيمان مَن أرادَه، مُدْخِلين عليه العَجْزَ في نَشاطه، وهذا هو سَعْيُهم في الآيات، أي: في شأن الآيات.

وقال قتادة: مُسابِقين، يَحسَبون أنهم يَفوتوننا. وقال عكرمة: مُراغِمين. وقال ابن زيد: مُجاهِدين في إبْطالِها[٤].

وقرأ ابن كثير وحَفْص وابن أبي عَبْلَة: «أليم» هنا وفي «الجاثية» بالرَّفع صفةً

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٩.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٥.
(٣) السبعة ٤٣٩، والتيسير ١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٥، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٥.
(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٢١٣، والثعلبي ٥/ ١٣٩، والماوردي ٤/ ٤٣٣، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٩٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٥.

للعَذاب. وباقي السَّبعة بالجرِّ صفةً للرِّجز[١]. والرِّجْزُ: العذابُ السيِّئ.

والظَّاهر أن قوله: «والذين سَعَوا» مبتدأ، والخبر في الجملة الثانية وهي «أولئك». وقيل: هو منصوبٌ عطفاً على «الذين آمنوا» أي: وليَجْزيَ الذين سَعَوا.

واحتمل أن تكون الجملتان المُصَدَّرتان بـ «أولئك» هما نَفْسُ الثَّواب والعقاب، واحتمل أن تكونا مُستأنفَتَين، والثَّوابُ والعقاب غير ما تَضَمَّنتا مما هو أعظم، كرضا الله عن المؤمن دائماً، وسَخَطه على الكافر دائماً.

والظاهر أن قوله: «ويَرى» استئنافُ إخبارٍ عمَّن أُوتي العلم، أي: يَعلمون القرآنَ المُنْزَل عليك هو الحقّ.

وقيل: «ويَرى» منصوبٌ عطفاً على «ليَجْزيَ» وقاله الطبريّ والثَّعلبيّ[٢].

وتقدَّم الخلاف في الذين أوتوا العلم في ذكر المكان الذي نزلت فيه هذه السورة.

وقال الزمخشري: أي: وليَعلَمَ أولو العلم عند مَجيءِ السَّاعة أنه الحقُّ علماً لا يُزادُ عليه في الإيقان، ويَحتجُّوا به على الذين كَذّبوا وتَولَّوا. ويجوز أن يُريد: وليَعلَم مَن لم يؤمن من الأحْبار أنه هو الحقّ، فيزدادوا حَسْرةً وغَمًّا. انتهى.

وإنما قال: عند مجيء الساعة لأنه عَلَّق «ليَجْزي» بقوله: «لَتَأتيَنَّكم»[٣] فبنى التّخريج على ذلك.

وقرأ الجمهور: «الحقَّ» بالنصب مفعولاً ثانياً لـ «يَرى» و«هو» فَصْل.

وابن أبي عَبْلَة بالرَّفع[٤]، جعل «هو» مبتدأً، و«الحَقُّ» خبرَه، والجملة في

---

(١) السبعة ٥٢٦، والتيسير ١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩ وهي قراءة يعقوب من العشرة. ولم نقف على قراءة ابن أبي عبلة.
(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٢١٣، والثعلبي ٥/ ١٣٩، وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٥.
(٣) هنا ينتهي الخرم في نسخة (د٣) المشار إليه في تفسير الآية (٥٢) من سورة الأحزاب.
(٤) ذكرها السمين في الدر المصون ٩/ ١٥٣، والآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٨، وذكر ابن خالويه في مختصر في الشواذ ١٢١ أن أبا مُعاذ حكى هذه القراءة.

موضع المفعول الثاني لـ «يرى»، وهي لغةُ تميم، يجعلون ما هو فَصْلٌ عند غيرهم مبتدأً. قاله أبو عُمر الجَرْميّ[١].

والظَّاهر أن الفاعل بـ «يَهْدي» هو ضمير «الذي أُنزِل إليك» وهو القرآن، وهو استئنافُ إخبارٍ.

وقيل: هو في موضع الحالِ على إضمار: وهو يَهدي.

ويجوز أنْ يكون معطوفاً على «الحقِّ» عطفَ الفعل على الاسم، كقوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك: ١٩] أي: وقابضاتٍ، كما عُطف الاسمُ على الفعل في قوله:

فألْفَيْتُه يوماً يُبيرُ عَدُوَّه وبحرَ عَطاءٍ يَستخِفُّ المَعابِرا[٢]

عطف: وبحرَ على يُبير.

وقيل: الفاعل بـ«يَهدي» ضميرٌ عائدٌ على الله. وفيه بُعد.

«وقال الذين كفروا» هم قُريش، قال بعضُهم لبعض على جِهةِ التَّعجُّب[٣] والاستهزاء، كما يقول الرجل لمَن يُريد أنْ يُعَجِّبَه: هل أدُلُّك على قصَّةٍ غَريبةٍ نادِرةٍ؟!

لما كان البَعْثُ عندهم من المُحال جَعلوا مَن يُخبر عن وقوعه في حَيِّز مَن يُتَعَجَّب منه، وأتَوا باسمه عليه السَّلام نَكرةً في قولهم: «هل نَدُلُّكم على رَجُلٍ» - وكان اسمُه أشهرَ عَلَم في قريش بل في الدُّنيا، وإخبارُه بالبعثِ أشهرَ خبرٍ - لأنهم أخرجوا ذلك مَخرجَ الاستهزاء والتَّحلِّي ببعض الأحاجي المعمولة للتَّلَهِّي والتَّعمِية؛ فلذلك نَكَّروا اسمَه.

---

(١) انظر التذييل والتكميل في شرح التسهيل لأبي حيان ٢/ ٣٠٢-٣٠٣.

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ١٣٤ (بشرح ابن السكيت)، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١/ ٢٤٩، ولابن أبي الربيع ٢/ ١٠٢٠، والمقاصد الشافية للشاطبي ٥/ ١٨٩.
يبير عدوه: يهلكهم، والمعابر: السفن التي يعبر فيها، يقول: يستخف ذلك البحر السفن لكثرة مائه. قاله شارح الديوان.

(٣) في (يه): التعجيب. وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٦.

وقرأ الجمهور: «يُنَبِّئُكُم» بالهمز. وزيد بن عَليّ بإبدال الهمزة ياءً مَحْضَةً[١]. وحكى عنه الزمخشري: «يُنْبِئُكم»[٢] بالهمز من أَنْبَأ.

و«إذا» جوابُها محذوف تقديرُهُ: تُبعثون، وحُذف لدلالة ما بَعدَه عليه، وهو العامل في «إذا» على قول الجمهور. وقال الزجَّاج ذلك، وقال أيضاً هو والنَّحّاس: العامل «مُزِّقتُم»، قال ابن عطية: وهو خطأ وإفسادٌ للمعنى[٣]. انتهى.

وليس بخَطأ ولا إفسادٍ للمعنى، وإذا الشَّرطيَّة مُخْتَلَفٌ في العامل فيها، وقد بَيَّنا في ما كتبناه في «شرح التَّسهيل» أنَّ الصَّحيح أنْ يَعملَ فيها فعلُ الشَّرط كسائر أدوات الشَّرط[٤].

والجملة الشَّرطيةُ يحتمل أن تكون معمولةً لـ «يُنَبِّئكم» لأنه في معنى: يقول لكم إذا مُزِّقْتُم كلَّ مُمَزَّقٍ: تُبْعَثون. ثم أكَّد ذلك بقوله: «إنَّكم لفي خَلْقٍ جَديد».

ويحتمل أن يكون «إنكم لفي خلقٍ جديد» مَعمولاً لـ «يُنَبِّئكُم»، و«يُنَبِّئكم» مُعَلَّقٌ، ولولا اللام في خبر «إنَّ» لكانت مفتوحةً، فالجملة سدَّت مَسَدَّ المفعولَين، والجملةُ الشرطيَّةُ على هذا التقدير اعتراضٌ. وقد منع قوم التَّعليق في باب أعْلَم، والصَّحيح جَوازُه، قال الشاعر:

حَذارِ فقد نُبِّئْتُ إنكَ للذي ... ستُجْزَى بما تَسعى فتَسْعَدُ أو تَشْقى[٥]

و«مُمَزَّق» مَصْدر جاء على زِنَةِ اسمِ المفعول على القياس في اسم المَصْدر من كلِّ فِعلٍ زائدٍ على الثَّلاثة، كقوله:

---

(١) ذكرها السمين ٩/ ١٥٥، والآلوسي ٢٢/ ٢١.

(٢) الكشاف ٢/الورقة ١٩٤، ووقع في مطبوعه ٣/ ٢٨٠: ينبيكم. وانظر الدر المصون ٩/ ١٥٥.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/٢٤١، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٣٣، والمحرر الوجيز ٤/٤٠٦.

(٤) التذييل والتكميل في شرح التسهيل ٧/ ٣١٥، وارتشاف الضرب ١٤١١. قال السمين في الدر المصون ٩/ ١٥٤ بعد ذكر كلامه: لكن الجمهور على خلافه.

(٥) البيت في شرح التسهيل لابن مالك ٢/ ١٠٣، والتذييل والتكميل ٦/ ١٦٠ لأبي حيان دون نسبة.

ألــم تــعـلَــم مُــسَــرَّحِــيَ الــقَــوافــي فــلا عِــيًّــا بــهــنَّ ولا اجــتِــلابــا[1]

أي: تَسْرِيحي القَوافي.

وأجاز الزمخشريّ أن يكون ظرفَ مكان، أي: إذا مُزِّقْتُم في كلِّ مكانٍ من القبور وبُطونِ الطَّير والسِّباعِ، وما ذَهَبت به السُّيولُ كلَّ مَذْهَب، وما تَسْفيْه الرِّياح فَطَرَحَتْه كلَّ مَطْرَح[2]. انتهى.

و«جَديد» عند البَصْريِّين بمعنى فاعل، تقول: جَدَّ فهو جادٌّ وجَديد، وبمعنى مفعول عند الكوفيّين، من جَدَّه إذا قَطَعه.

والظاهر أن قولَه: «أفْتَرى» من قولهم بعضِهم لبعض، أي: أهو مُفْتَرٍ على الله كَذِباً فيما يَنْسُبُ إليه من أمرِ البَعْثِ، أم به جُنونٌ يُوهِمُه ذلك ويُلقيه على لسانه؟! عادَلوا بين الافتراء والجنون؛ لأن هذا القولَ عندهم إنما يَصْدُر عن أحدِ هذين، لأنه إنْ كان يَعتقد خلافَ ما أنْبَأ به فهو مُفْتَرٍ، وإنْ كان لا يَعْتقده فهو مجنون.

ويحتمل أن يكون من كلام السَّامع المُجيب لمَنْ قال: «هل نَدُلّكم» رَدَّد بين الشَّيئين ولم يَجْزم بأحدِهما حيث جَوَّز هذا وجوز هذا، ولم يجزم بأنه افتِراءٌ مَحْضٌ احتِرازاً من أنْ يَنْسُب الكذبَ لعاقلٍ نِسْبةً قَطعيَّةً؛ إذ العاقلُ حتى الكافر لا يَرضى بالكذب لا من نفسه ولا من غيره، وأضْرَبَ تعالى عن مَقالتهم. والمعنى: ليس الرَّسولُ كما نَسَبتُم إليه، بل أنتم في عَذابِ النار، أو في عذاب الدُّنيا بما تُكابِدونَه من إبْطال الشَّرع وهو مُحَقّ، وإطفاءِ نور الله وهو مُتَمّ.

ولما كان الكلامُ في البَعْث قال: «بل الذين لا يؤمنون بالآخرة» فرَتَّب العذابَ على إنكارِ البعث.

---

(١) البيت لجرير، وهو في الكتاب ١/ ٢٣٣، ٣٣٦، والكامل ٢٦١، والمقتضب ١/ ٧٥ و٢/ ١٢١، والكشاف ٣/ ٢٨٠، وأمالي ابن الشجري ١/ ٦٢، وروايته في الديوان ٢/ ٦٥١ (بشرح ابن حبيب):

ألــم تُــخْــبَــر بــمَــسْــرَحــي الــقــوافــي

(٢) الكشاف ٣/ ٢٨٠-٢٨١.

وتقدَّم الكلامُ في وَصْفِ الضَّلال بالبُعْد[١]، وهو من أوصاف المُحال استُعير للمعنى، ومعنى بُعْدِه أنه لا تَنقضي حَيْرَةُ المُتَلَبِّس[٢] به.

«أفلم يَرَوْا» أي: هؤلاء الكفَّار الذين لا يؤمنون بالآخرة «إلى ما بين أيديهم» أي: حيثما تَصَرَّفوا فالسَّماءُ والأرضُ قد أحاطتا بهم، لا يَقْدِرون[٣] أن يَنْفُذوا من أقطارهما، ولا يخرجوا عن مَلَكوت الله فيهما.

وقال الزمخشري: أَعَمُوا فلم يَنظروا؟[٤] جَعل بين الفاء والهمزة فعلاً ماضياً يصحُّ العطفُ عليه، وهو خلافُ ما ذَهب إليه النحويُّون من أنه لا مَحْذوفَ بينهما، وأنَّ الفاء للعَطْفِ على ما قبلَ همزة الاستفهام، وأنَّ التقدير: فألَمْ، لكنْ همزةُ الاستفهام لمّا كان لها الصَّدرُ قُدِّمَتْ، وقد رَجع الزمخشريُّ إلى مذهب النحويّين في ذلك، وقد رَدَدْنا عليه هذا المذهبَ فيما كتبناه في «شرح التَّسهيل»[٥].

وَقَفَهم تعالى على قُدرته الباهرة، وحَذَّرهم إحاطتَها بهم على سبيلِ الإهلاكِ لهم، وكأن ثمَّ حالاً محذوفةً، أي: أفلا يرون إلى ما يُحيط بهم من سماءٍ وأرضٍ مَقْهوراً تحت قُدرتنا نتصَرَّف فيه كما نُريد؟

«إنْ نَشَأ نَخْسِفْ بهم الأرضَ» كما فعلْنا بقارون «أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السَّماء» كما فعلْنا بأصحاب الظُّلَّة. أو: «أفلم يَرَوا إلى ما بين أيديهم وما خلْفَهم» مُحيطاً بهم وهم مقهورون تحته «إنْ نَشَأ».

«إنَّ في ذلك» النَّظَرِ إلى السَّماء والأرض، والفكرِ فيهما، وما يَدُلّان عليه من قُدرة الله «لآيةً» لَعَلامَةً ودِلالةً «لكلِّ عبدٍ مُنيب» راجعٍ إلى ربِّه، مطيعٍ له. قال مجاهد: مُخْبِت. وقال الضحَّاك: مستقيم. وقال أبو رَوْق: مُخلص في التوحيد. وقال قتادة: مُقبل إلى ربه بقلبه؛ لأن المُنيب لا يَخْلو من النَّظَر في آيات الله على

---

(١) في الكلام على الآية (٦٠) من سورة النساء وما تضمنته من ألوان البلاغة وذلك بعد نهاية الآية (٧٣) من سورة النساء.
(٢) في (أ ع د٢ ز٢): الملتبس، والمثبت من (يه).
(٣) في (ز٢): لا يستطيعون.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٨١.
(٥) لعله في القسم الذي لم يطبع منه.

أنه قادرٌ على كلِّ شيءٍ من البعث ومن عقاب مَنْ يكفُر به[١].

وقرأ الجمهور: «إنْ نَشَأْ نَخْسِفْ، نُسْقِطْ» بالنون في الثلاثة.

وحمزة والكسائي وابن وَثَّاب وعيسى والأعمش وابن مُصَرِّف بالياء فيهنّ.

وأدغم الكسائي الفاء في الباء في «يَخْسف بهم»[٢].

قال أبو علي: وذلك لا يجوز لأن الباء أضعفُ في الصَّوت من الفاء فلا تُدْغَم فيها، وإن كانت الباءُ تُدْغَم في الفاء نحو: اضْرِبْ فلاناً، وهذا كما تُدْغَم الباء في الميم كقولك: اضْرِبْ مالكاً، ولا تُدغَم الميم في الباء كقولك: اضْمُمْ بكْراً؛ لأن الباء انْحطَّت عن الميم بفَقْدِ الغُنَّة التي في الميم[٣].

وقال الزمخشري: وقرأ الكسائي: «يَخْسِف بهم» بالإدغام، وليست بقويّة[٤]. انتهى.

والقراءةُ سُنَّةٌ مُتَّبَعَة، ويوجد فيها الفصيحُ والأفْصَح، وكلُّ ذلك من تيسيره تعالى القرآنَ للذِّكر، فلا التِفاتَ إلى قول أبي عليّ ولا الزمخشريّ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

ومُناسبةُ قصَّةِ داودَ وسُليمان عليهما السَّلام لما قبلَها هي أن أولئك الكُفَّار

(١) انظر النكت والعيون ٤/ ٤٣٥، والكشاف ٣/ ٢٨١.

(٢) السبعة ٥٢٧، والتيسير ١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٤٠، والقرطبي ١٧/ ٢٥٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٦.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧ وعنه نقل كلام أبي علي، وانظر الحجة ٦/ ٨-٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨١.

أنكروا البَعْثَ لاستحالتِه عندهم، فأُخبروا بوقوع ما هو مُستحيلٌ في العادَةِ مما لا يُمكنُهم إنكارُهُ؛ إذْ طَفَحَت ببعضه أخبارُهم وأشعارُهم[١] على ما يأتي ذكرُهُ إنْ شاء الله من تأويبِ الجبالِ والطَّير مع داود، وإلانةِ الحديد وهو الجِرْم المستعصي، وتَسْخيرِ الرِّيح لسُليمان، وإسالةِ النُّحاس له كما ألانَ الحديدَ لأبيه، وتسخيرِ الجنِّ فيما شاء من الأعمال الشَّاقَّة.

وقيل: لمّا ذَكر مَن يُنيبُ من عباده ذَكَر من جُملتهم داود، كما قال: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، وبَيَّن ما آتاه الله على إنابته فقال: «ولقد آتينا داودَ منّا فَضْلاً»[٢].

وقيل: ذَكَرَ نعمتَه على داود وسليمان عليهما السلام احتجاجاً على ما مَنَح محمداً ﷺ، أي: لا تستَبْعِدوا هذا، فقد تَفَضَّلْنا على عَبيدنا قديماً بكذا وكذا، فلما فَرَغَ التمثيلُ لمحمد عليه السَّلام رجعَ التمثيلُ لهم بسَبأ وما كان من هَلاكهم بالكُفْرِ والعُتُوِّ. انتهى[٣].

والفضْلُ الذي أُوتي داود: الزَّبور. أو العَدلُ في القضاء. أو الثِّقةُ بالله. أو تَسخيرُ الجبالِ والطَّيرِ، وتَليينُ الحديد. أقوال[٤].

«يا جبالُ» هو على إضمار القول، إمَّا مَصدراً، أي: قولَنا: يا جبالُ، فيكون بدلاً من «فَضْلاً»، وإمَّا فعلاً، أي: قُلْنا، فيكون بدلاً من «آتينا»، وإما على الاستئناف، أي: قُلْنا: يا جبال[٥].

وجَعَلَ الجبالَ مُنَزَّلَةً مَنْزِلَةَ العُقلاء الذين إذا أمرَهم أطاعوا وأذْعنوا، وإذا دعاهم سَمعوا وأجابوا إشعاراً بأنه ما من حَيَوان وجَمادٍ، وناطقٍ وصامتٍ إلا وهو مُنقادٌ

(١) في النسخ والمطبوع: وشعراؤهم، والمثبت من روح المعاني ٢٢/ ٢٩ فقد نقل عن أبي حيان.
(٢) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٤٥.
(٣) من المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧.
(٤) انظرها في تفسير الماوردي ٤/ ٤٣٥، والقرطبي ١٧/ ٢٦٠.
(٥) في روح المعاني ٢٢/ ٣٢: وجوز أبو حيان الاستئناف وليس بذاك.

لمَشِيئته، غيرُ مُمْتَنِعٍ على إرادته، ودِلالةً على عِزَّة الرُّبوبيَّةِ وكبرياء الإلاهيَّةِ، حيث نادى الجبالَ وأمَرها[١].

وقرأ الجمهور: «أوِّبي» مضاعف[٢] آبَ يؤوب، ومعناه: سَبِّحي معه. قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد.

وقال مُؤرِّج وأبو مَيْسَرة: «أَوِّبي»: سَبِّحي بلُغةِ الحَبَشة[٣]، أي: يُسَبِّحُ هو وتُرَجِّع هي معه التَّسبيح، أي: تَرُدُّه بالذِّكر، وضُعِّف الفعل للمُبالغة. قاله ابن عطية[٤].

ويظهر أنَّ التَّضعيف للتَّعديَةِ وليس للمُبالغةِ؛ إذْ أصله آبَ، وهو لازمٌ بمعنى رَجَع اللازم، فعُدِّي[٥] بالتَّضْعيف، إذْ شَرحوه بقولهم: رَجِّعي معه التَّسبيح[٦].

قال الزمخشري: ومعنى تَسبيح الجبال أن الله يَخلقُ فيها تسبيحاً كما خلَق الكلامَ في الشَّجَرة، فيُسْمَع منها ما يُسْمَع من المُسَبِّح مُعْجِزَةً لداود.

وقيل: كان يَنوحُ على ذَنْبه بتَرْجيعٍ وتَحْزين، وكانت الجبالُ تُسْعِدُهُ على نَوْحِهِ بأصدائها، والطَّيرُ بأصواتها[٧]. انتهى.

وقولُهُ: كما خلقَ الكلامَ في الشجرة؛ يعني أن الذي سَمع موسى هو ممَّا خَلَقه الله في الشجرة من الكلام، لا أنه كلامُ الله حقيقةً، وهو مذهب المعتزلة.

وأمَّا قولُهُ: تُسْعِدُه أي: الجبالُ على نوحه بأصدائها فليس بشيء؛ لأن الصَّدى ليس بصوتِ الجبال حقيقةً، والله تعالى نادى الجبالَ وأمَرَها بأن تُؤَوِّب معه، والصَّدى لا تُؤمَر الجبال بأنْ تفعلَه؛ إذْ ليس فِعلاً لها، وإنما هو من آثارِ صوتِ المُتَكلِّم على ما يَقوم عليه البُرْهان.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨١.
(٢) في (يه): مضعف.
(٣) قال ابن عطية: وهذا ضعيف غير معروف.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧، وانظر الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٢٢٠-٢٢١، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٩٥، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٤٠، والماوردي ٤/ ٤٣٥، والقرطبي ١٧/ ٢٦١.
(٥) في (يه): يعدى.
(٦) قال السمين في الدر ٩/ ١٥٨ بعد نقل كلامه: ولا دليل، لأنه تفسير معنى.
(٧) الكشاف ٣/ ٢٨١.

وقال الحسن: معنى «أوِّبي معه»: سِيري معه أين سار[١].

والتَّأويبُ: سَيْرُ النَّهار، كأنَّ الإنسانَ يَسيرُ الليل، ثم يُرَجِّع السَّيرَ بالنَّهار، أي: يُرَدِّدُه، وقال تَميم بن مُقْبِل[٢]:

لَحِقْنا بحيٍّ أَوَّبوا السَّيْرَ بعدما ... دَفَعْنا شُعاعَ الشَّمسِ والطَّرْفُ يَجْنَحُ

وقال آخر[٣]:

يَومانِ يومُ مُقاماتٍ وأنْدِيَةٍ ... ويومُ سَيْرٍ إلى الأعداء تَأْويبِ

وقيل: «أوِّبي»: تَصَرَّفي معه على ما يَتَصَرَّف فيه، فكان إذا قرأ الزَّبور صَوَّتَت الجبالُ معه، وأَصْغَت إليه الطَّيرُ، فكأنها فَعَلَت ما فَعل[٤].

وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق: «أُوْبِي»[٥] أمراً من آبَ، أي: ارْجِعي معه في التَّسبيح أو في السَّير على القولَين.

وأَمْرُ الجبالِ كأمرِ الواحدةِ المؤنَّثةِ؛ لأن جَمْعَ ما لا يَعقِلُ يجوز فيه ذلك، ومنه: «يا خيلَ الله ارْكَبي»[٦]، ومنه: ﴿مَئَارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨][٧]، وقد جاء ذلك في جَمْع ما يَعْقِلُ من المؤنَّث، قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٣٥.

(٢) هو تميم بن أُبيّ بن مقبل، والبيت له في ذيل ديوانه ٣٦٠، وتفسير غريب القرآن ٣٥٣، والأنواء ١٤٠ كلاهما لابن قتيبة، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٤٠، والقرطبي ١٧/ ٢٦١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧.
ونسبه صاحب منتهى الطلب ٦/ ٤٦ للراعي النميري، وهو في ديوانه ٣٩ من قصيدة عدتها (٤٦) بيتاً.

(٣) هو سلامة بن جندل، والبيت في ديوانه ٩٢، والمفضليات ١٢٠، ومجاز القرآن ٢/ ١٠ و١٤٢، وتفسير الطبري ١٩/ ٢١٩، والثعلبي ٤/ ٤٢٩، والماوردي ٤/ ٤٣٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧، وزاد المسير ٦/ ٤٩٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ١١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٦١.

(٥) مختصر في الشواذ ١٢١، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٩٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٦١.

(٦) سلف في تفسير الآية (٧٠) من سورة يوسف.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧.

تَـرَكْـنـا الـخَـيـلَ والـنَّـعَـمَ الـمُـفَـدَّى وقُـلْـنـا لـلـنِّـسـاءِ بـهـا أَقِـيـمـي[١]

لكن هذا قليل.

وقرأ الجمهور: «والطَّيرَ» بالنَّصْب عطفاً على موضع «يا جبالُ». قاله سيبويه[٢].

وقال أبو عمرو: بإضمار فعلٍ تقديرُهُ: وسَخَّرْنا له الطَّيرَ[٣].

وقال الكسائي: عطفاً على «فَضْلاً» أي: وتَسبيحَ الطَّيرِ.

وقال الزجاج: نَصَبه على أنه مفعولٌ معه[٤]. انتهى.

وهذا لا يجوز لأن قبلَه معه، ولا يقتضي الفعل اثنين من المفعول معه إلا على البَدَل أو العطف، فكما لا يجوز: جاء زيدٌ مع عمرو مع زينب إلا بالعطف، كذلك هذا.

وقرأ السُّلَمي وابن هُرْمُز وأبو يحيى وأبو نَوْفَل ويعقوب وابن أبي عَبْلَة وجماعةٌ من أهل المدينة وعاصم في رواية: «والطَّيرُ» بالرَّفع[٥] عطفاً على لفظ «يا جبال». وقيل: عطفاً على الضَّمير في «أَوِّبي» وسَوَّغ ذلك الفصلُ بالظَّرْف. وقيل: رفعاً بالابتداء والخبر محذوف، أي: والطَّيرُ تُؤَوِّبُ.

«وألَنَّا له الحديدَ» قال ابن عباس وقتادة: صار كالشَّمْع. وقال الحسن: كالعَجين، وكان يَعملُه من غير نار. وقال السُّدِّي: كالطِّين المَبْلول والعَجين والشَّمع؛ يُصَرِّفه كيف شاء من غير نارٍ ولا ضَرْبِ مِطْرَقة. وقيل: أُعطي قُوَّةً يُلَيِّن بها الحديدَ.

---

(١) سلف في تفسير الآية (٦٦) من سورة النحل.

(٢) نقل سيبويه ٢/ ١٨٦ هذا القول عن الخليل.

(٣) نقله عنه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٤٣.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٣. وانظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧، وزاد المسير ٦/ ٤٣٦، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٢.

(٥) الكتاب ٢/ ١٨٧، ومختصر في الشواذ ١٢١، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٤، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧، وزاد المسير ٦/ ٤٣٦، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٢.

قال ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٤٩: وانفرد ابن مهران عن هبة الله بن جعفر عن أصحابه عن روح برفع الراء من (والطير)، وهي رواية زيد عن يعقوب، ووردت عن عاصم وأبي عمرو.

وقال مقاتل: كان يَفْرَغ من الدِّرع في بعضِ يومٍ أو في بعض ليلٍ ثمنُها ألفُ درهم، وكان داود يَتَنكَّر فيَسألُ الناس عن حاله، فعَرضَ له مَلَكٌ في صورة إنسان، فسأله فقال: نِعْمَ العبدُ لولا خَلَّةٌ فيه، فقال: وما هي؟ قال: يَرْتَزق من بيت المال، ولو أكلَ من عَمَل يده تمَّت فضائلُهُ، فدعا الله أنْ يُعَلِّمَه صَنعةً ويُسَهِّلها عليه، فعَلَّمه صَنعةَ الدُّروع، وألان له الحديد فأثرى، وكان يُنفِقُ ثُلُثَ المال في مصالح المسلمين[1].

وأن في «أن اعملْ» مصدريَّة، وهي على إسقاط حرف الجرّ، أي: ألَنَّاه لعَمَلِ سابغات.

وأجاز الحَوْفيُّ وغيره أن تكون مُفَسِّرة، ولا يَصحُّ لأن من شرطها أن يتقدَّمَها معنى القول، و«أَلَنَّا» ليس فيه معنى القول.

وقدَّر بعضهم قبلَها فعلاً محذوفاً حتى يصحَّ أنْ تكون مُفَسِّرة، وتقديره: وأمَرْناه أنِ اعمل، أي: اعمل، ولا ضَرورةَ تدعو إلى هذا المحذوف.

وقُرِئ: «صابغات» بالصَّاد بدلاً من السِّين[2]، وتقدَّم أنها لغةٌ في قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ [لقمان: ٢٠].

«وقَدِّر في السَّرْد» قال ابن زيد: هو في قَدْر الحَلْقة، أي: لا تَعْمَلْها صغيرةً فتَضْعُف، فلا تَقْوى الدِّرْع على الدِّفاع، ولا كبيرةً فيُنالَ لابِسُها من خلالها[3].

وقال ابن عباس: هو في المِسْمار لا يَرِقُّ فيَسْلَس، ولا يَغْلُظ فيَفْصِم، بالفاء وبالقاف[4].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٤، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٤١، وعرائس المجالس ٢٨١، وتفسير الماوردي ٤/ ٤٣٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧-٤٠٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٨٢.

(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٢٢٣-٢٢٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٤، وعلقه البخاري (فتح الباري ٦/ ٤٥٣) عن مجاهد، وأخرجه عن مجاهد الطبري ١٩/ ٢٢٥، ٢٢٦، وذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٤، ومعاني القرآن ٥/ ٣٩٨، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٣٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٤٣٦.

=

وروى قتادة أن الدُّروعَ كانت قبلُ صَفائح فكانت ثِقالاً، وهو أوَّلُ مَن صَنَع الدِّرْعَ حَلَقاً[(١)].

والظّاهر أن الأمرَ في قوله: «اعملوا» لداود ولآل داود وإنْ لم يَجْرِ لهم ذِكر. ويجوز أنْ يكون أمراً لداود شَرَّفه الله بأنْ خاطبه خِطابَ الجَمْع.

«ولسليمانَ الرِّيحَ» قال الحسن: عَقَر سليمانُ الخيلَ أَسَفاً على ما فَوَّتَتْه[(٢)] من صَلاةِ العَصْر، فأبْدَلَه الله خيراً منها وأسْرَع الرِّيْحَ تجري بأمْرِهِ.

وقرأ الجمهور: «الرِّيْحَ» بالنَّصْب، أي: ولسليمانَ سَخَّرْنا الرِّيح. وأبو بكر بالرَّفع[(٣)] على الابتداء، والخبرُ في المجرور، ويكون «الريحُ» على حذف مُضاف، أي: تَسْخيرُ الرِّيح، أو على إضْمار الخبر، أي: الرِّيْحُ مُسَخَّرَةٌ.

وقرأ الحسن وأبو حَيْوَة وخالد بن إلياس: «الرِّياح» بالرفع جَمْعاً[(٤)].

قال قتادة: كانت تقطع به في الغُدُوِّ إلى قُرْب الزَّوال مَسيرةَ شهرٍ، وفي الرَّواح من بعد الزَّوال إلى الغُروب مَسيرةَ شهرٍ.

وقال الحسن: يَخْرج[(٥)] من مُسْتَقرِّه بالشام يريد تَدْمُر التي بَنَتْها الجنُّ بالصُّفَّاح والعَمَد، فيَقيل في إصْطَخْر، ويَروح منها فيَبيتُ في كابُل من أرض خُراسان.

والغُدُوُّ ليس الشَّهرَ، فهو على حذفِ مُضاف أي: جَرْيُ غُدُوِّها، أي: جَرْيُها

= قال ابن حجر: قوله: فيسلس: بفتح اللام، ومعناه فيخرج من الثقب برفق، أو يصير متحركاً فيلين عند الخروج، والفصم بالفاء: القطع من غير إبانة.

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٢٢٤، والماوردي ٤/ ٤٣٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٤.

(٢) في (ز٢): فوت، والمثبت من النسخ والمطبوع، وهو موافق لما في المحرر ٤/ ٤٠٨.

(٣) السبعة ٥٢٧، والتيسير ١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩.

(٤) مختصر في الشواذ ١٢١ عن أبي حيوة، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨ عن الحسن، ولم نقف على قراءة خالد بن إلياس، وقرأ بالجمع أيضاً أبو جعفر من العشرة فيما ذكر ابن الجزري في النشر ٢/ ٢٢٣، ٤٣٩.

(٥) في (أ ح د٢ ز٢ ع) والمطبوع: فخرج، والمثبت من (د٣ يه)، وقول الحسن وقتادة في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨ وفيه: كان يخرج. وأخرجهما الطبري ١٩/ ٢٢٧، ٢٢٨.

في الغدوِّ مَسيرةَ شَهرٍ، وجَرْيُ[١] رَواحِها، أي: جَرْيُها في الرَّواح مَسيرةَ شهرٍ.

وأخبر هنا عن الغُدُوِّ وعن الرَّواح بالزَّمان، وهو شهر، ويعني شهراً واحداً كاملاً، ونَصْبُ شهرٍ جائزٌ، ولكنه لم يُقرأ به فيما أعْلَم.

وقرأ ابنُ أبي عَبْلَة: «غَدْوَتُها، ورَوْحَتُها» على وزن فَعْلَة وهي للمَرَّة الواحدة من غَدا وراح[٢].

وقال وَهْب: كان مُسْتَقَرُّ سليمان عليه السلام بتَدْمر، وكانت الجنُّ قد بَنَتْها له بالصُّفَّاح والعَمَد، والرُّخام الأبيض والأشقر[٣]، وفيه يقول النابغة:

إلا سليمانَ إذْ قال الإلهُ له ... قُمْ في البَرِيَّةِ فاحْدُدْها عن الفَنَدِ
وخَيِّس الجِنَّ إني قد أذِنْتُ لهم ... يَبنون تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ[٤]

ووجدتُ أبياتاً مَنْقورةً في صخرةٍ بأرض كَسْكَر أنشأهنَّ بعضُ[٥] أصحاب سليمان عليه السلام وهي:

ونحنُ ولا حَوْلٌ سوى حَوْلِ ربِّنا ... نَروحُ من الأوطانِ من أرضِ تَدْمُرِ
إذا نحنُ رُحْنا كان رَيْثُ رَواحِنا ... مَسيرةَ شَهْرٍ والغُدُوُّ لآخَرِ
أناسٌ أعزَّ الله طَوْعاً نُفوسَهم ... بنَصْرِ ابنِ داودَ النبيِّ المُطَهَّرِ
لهم في مَعالي الدِّينِ فَضْلٌ ورِفْعَةٌ ... وإنْ نُسِبوا يوماً فمن خيرِ مَعْشَرِ
متى تُرْكَبُ الرِّيحُ المُطيعةُ أسْرَعَتْ ... مُبادِرةً عن شهرِها[٦] لم تُقَصِّرِ

---

(١) هنا ينتهي الخرم في نسخة (ت) المشار إليه في الآية (٥١) من سورة الأحزاب.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٩.
(٣) في عرائس المجالس ٣٠٤، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٤٢، والقرطبي ١٧/ ٢٦٧: والأصفر.
(٤) ديوان النابغة ١٣ (بشرح ابن السكيت)، وعرائس المجالس، وتفسير الثعلبي والقرطبي.
وسلف الأول منهما في شرح مفردات الآية (٩٤) من سورة يوسف، وسلف الثاني في شرح مفردات الآية (٢) من سورة الرعد. قوله: واحددها: امنعها وردّ عنها، والفند: خطأ الرأي والصنيع، وخيس الجن: ذلّل، والصفاح: الحجارة العراض الرقاق.
(٥) في المطبوع: يشكر شاهدة لبعض. والقول والأبيات الآتية في عرائس المجالس ٣٠٥، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٤٣، والقرطبي ١٧/ ٢٦٨.
(٦) في المطبوع: وإن ركبوا. . . يسرها.

تُظِلُّهمُ طَيْرٌ صفوفٌ عليهمُ متى رَفْرَفَتْ من فوقهم لم تُنَشَّرِ[(١)]

انتهى ما حكاه وَهْب.

«وأَسَلْنا له عَيْنَ القِطْر» الظَّاهر أنه جعلَه في مَعْدِنه عَيْناً تسيلُ كعُيونِ الماء دِلالةً على نُبُوَّته، قال قتادة: يَسْتَعمِلُها فيما يُريد.

وعن ابن عباس ومجاهد والسدي: أُجْرِيت له ثلاثةَ أيامٍ بلَياليهنّ، وكانت بأرض اليمن.

قال مجاهد: سالت من صَنْعاء، ولم يَذُبِ النُّحاس فيما رُوي لأحدٍ قبلَه، وكان لا يَذوب.

وقالت فرقة: المعنى: أذَبْنَا له النُّحاس على نحوِ ما كان الحديدُ يَلين لداود عليه السلام، قالوا: وكانت الأعمالُ تتأتّى منه لسليمان، وهو باردٌ دون نار، و«عَيْنَ» بمعنى الذّات، وقالوا: لم يَلِنْ ولا ذابَ لأحدٍ قبله[(٢)].

وقال الزمخشري: أراد بها مَعْدِنَ النُّحاس[(٣)]، أساله كما ألانَ الحديدَ لداود، فنَبع كما يَنْبُع الماء من العين؛ فلذلك سمَّاه عَيْنَ القِطْر باسمِ ما آلَ إليه، كما قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٣٦]. انتهى.

ويحتمل «مَنْ يَعْمَل» أنْ يكون في موضع نَصْب، أي: وسَخَّرْنا من الجنِّ مَنْ يَعمل، وأن يكون في موضع رَفْعٍ على الابتداء وخبره في الجار والمجرور قبله.

«بإذْن ربِّه» أي: بأمر ربّه؛ لقوله: «ومَنْ يَزِغْ منهم عن أمْرِنا».

وقرأ الجمهور: «ومَنْ يَزِغْ» مضارع زاغ، أي: ومَن يَعْدِل عن أمرِنا الذي أمَرْناه به من طاعةِ سُليمان.

---

(١) يعني لم تُفَرَّق، ووقع في المطبوع: تنشر، وفي عرائس المجالس: تفتر، وفي تفسير الثعلبي والقرطبي: تنفر.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٩، وانظر تفسير الطبري ١٩/ ٢٢٨-٢٢٩، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٩٨، وتفسير الماوردي ٤/ ٤٣٧، والقرطبي ١٧/ ٢٦٨.

(٣) في الكشاف ٣/ ٢٨٢: فإن قلت: ماذا أراد بعين القطر؟ قلت: أراد بها معدن النحاس.

وقرئ: «يُزِغ» بضمِّ الياء من أزاغ، أي: ومَنْ يُمِل ويَصْرِف نفسَه عن أمرِنا[١].

و«عذابِ السَّعير» عذاب الآخرة. قاله ابن عباس.

وقال السُّدي: كان معه مَلَكٌ بيده سَوْطٌ من نار، كلما استَعْصَى عليه ضَرَبَه من حيث لا يراه الجِنّيّ[٢].

ولبعض الباطِنيَّة أو مَن يُشبههم تحريفٌ في هذه الجُمَل: أن تسبيحَ الجبال هو من نوع قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وأنَّ تسخير الرِّيح هو أنه راضَ الخَيْلَ وهي كالرِّيح، وأن «غُدُوُّها شَهْرٌ» يكون فَرْسَخاً؛ لأن مَن يخرج للتَّفَرُّج لا يسير في غالب الأمر أكثرَ من فَرْسَخ، وإلانةُ الحديد وإسالةُ القِطْر: هو استخراج ذَوْبِهما بالنَّار، واستعمالُ الآلاتِ منهما، «ومن الجنّ» هم ناسٌ من بني آدم أقوياء، شُبِّهوا بهم في قُواهم. وهذا تأويلٌ فاسد، وخروجٌ بالجملة عمَّا يقولُهُ أهلُ التفسير في الآية، وتَعجيزٌ للقُدْرة الإلهيَّة، نَعوذ بالله من ذلك.

والمَحاريب: قال مجاهد: المَساجد، سُمِّيت باسم بعضها تَجَوُّزاً. وقال عطية: القصور. وقال قتادة كليهما. وقال ابن زيد: مَساكن. وقيل: ما يُصْعَد إليه بالدَّرَج كالغُرَف[٣].

والتّماثيل: الصُّوَر، وكانت لغير الحيوان. وقال الضَّحاك: كانت تماثيلَ حَيوان، وكان عملُها جائزاً في ذلك الشَّرْع[٤].

وقال الزمخشري: هي صُورُ الملائكةِ والنَّبيِّين والصَّالحين، كانت تُعمل في المساجد من نُحاس وصُفْرٍ وزُجاجٍ ورُخام؛ ليراها النّاسُ فيَعْبدوا نحوَ عبادتهم،

---

(١) ذكرها ابن خالويه ١٢١، والزمخشري ٣/ ٢٨٢ دون نسبة.

(٢) تفسير الثعلبي ٥/ ١٤٣، والماوردي ٤/ ٤٣٨، والقرطبي ١٧/ ٢٦٩، والكشاف ٣/ ٢٨٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٩، وزاد المسير ٦/ ٤٣٩.

(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٢٣٠، ٢٣١، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٩٨-٣٩٩، وتفسير الماوردي ٤/ ٤٣٨، والكشاف ٣/ ٢٨٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٩، وزاد المسير ٦/ ٤٣٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٩.

وهذا مما يجوز أن تختلفَ فيه الشَّرائع لأنه ليس من مُقبِّحات العقل، كالظُّلم والكذب. وعن أبي العالية: لم يكن اتِّخاذُ الصُّوَر إذْ ذاك مُحَرَّماً، أو تُصَوَّرُ[1] مَحْذُوفةَ الرؤوس[2]. انتهى وفيه بعضُ حَذْفٍ.

وقيل: التماثيل: طِلَّسْمات، فيَعْمَلُ تمثالاً للتِّمساح أو للذُّباب أو للبَعوض، ويأمُرُ أنْ لا يُتَجاوَز ذلك المُمَثَّل به ما دام ذلك التِّمثال[3].

والتَّصويرُ حَرامٌ في شريعتنا، وقد ورد تَشْديد الوَعيد على المُصَوِّرين، ولبعض العلماء استثناءٌ في شيءٍ منها. وفي حديث سَهْل بن حُنَيْف: لَعَن المُصَوِّرين ولم يَسْتَثْنِ عليه الصَّلاة والسَّلام[4].

وحكى مكّي في «الهداية» أن قوماً أجازوا التصوير. وحكاه النَّحاس عن قوم، واحتجُّوا بقوله: «وتماثيل»، قال ابن عطية: وما أحفظ من أئمّة العلم مَن يُجَوِّزُه[5].

وقرئ «كالجَوابي» بياء وهو الأصل، وبحذفها اجتزاءً بالكسرة وإجراءً للألف[6]

---

(١) في المطبوع: أو صوراً.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٨٢.
(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٧١.
(٤) كذا ورد هذا السياق في النسخ (أ ت ح د٢ د٣ ز٢ ع يه) والمطبوع، وصوابه ما في تفسير القرطبي ١٧/ ٢٧٤ فإنه بعد أن تكلم على حكم التصوير قال: واستثنى بعضهم ما كان رَقْماً في ثوب لحديث سهل بن حنيف. قلت [يعني القرطبي]: لعن رسول الله ﷺ المصورين ولم يستثْنِ. اهـ.
قلت: وحديث سهل بن حنيف الذي أشار إليه القرطبي أخرجه أحمد (١٥٩٧٩)، والترمذي (١٧٥٠) ضمن قصة مع أبي طلحة الأنصاري وفيه: قال سهل: أو لم يقل: «إلا ما كان رَقْماً في ثوب»؟ قال: بلى، ولكنه أطيب لنفسي.
وقوله: لعن رسول الله ﷺ المصورين ولم يستثن، أخرج أحمد (١٨٧٥٦)، والبخاري (٥٣٤٧) من حديث أبي جحيفة قال: لعن النبي ﷺ الواشمة والمستوشمة... ولعن المصورين.
(٥) الهداية ٩/ ٥٨٩٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٩، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٧٢.
(٦) في المطبوع: وقرئ كالجواب بلا ياء وهو الأصل اجتزاء بالكسرة وإجراء الألف.

واللام مجرى ما عاقبها وهو التنوين، فكما يُحذف مع التّنوين يُحذف مع ما عاقَبَه وهو أل[١].

والرَّاسِيات: الثَّابتات على الأثافي فلا تُنْقَل ولا تُحْمَل لِعِظَمِها.

وقُدِّمت المَحاريبُ على التَّماثيل لأنَّ النُّقوشَ تكون في الأبنية، وقَدَّم الجِفانَ على القُدور مع أنَّ القدورَ آلةُ الطَّبخ، والجِفان آلةُ الأكل، والطَّبْخُ قبل الأكل؛ لما بين الأبنيةِ المَلَكيَّة، وأراد بيانَ عَظَمةِ السِّماط الذي يُمَدُّ في تلك الدُّور، وأشار إلى الجِفان لأنها تكون فيها، والقُدور لا تكون فيها ولا تُحْضَر هناك، ولهذا قال راسيات. ولمَّا بيَّن حالَ الجِفانِ سَرى الذِّهنُ إلى عَظَمَة ما يُطْبَخُ فيه، فذَكر القُدورَ للمُناسبة، وذكر في حقِّ داود اشتغالَه بآلة الحَرْب لاحتياجه إلى قتال الأعداء، وفي حقِّ سُليمان المَحاريب والتماثيل لأنه كان مَلِكاً ابنَ مَلِك، قد أطَّدَ له أبوه المُلْك، فكانت حاله حالة سلم، إذْ لم يكن أحدٌ يَقْدِرُ على مُحارَبَته، وقال عَقِب «أن اعْمَلْ سابِغات»: «واعملوا صالحاً» وعَقِب ما يَعْمَلُهُ الجنّ: «اعملوا آلَ داودَ شُكراً» إشارةً إلى أن الإنسان لا يَسْتَغْرِق في الدُّنيا، ولا يَلْتَفِتُ إلى زَخارفها، وأنه يجب أن يَعْملَ صالحاً[٢].

«اعملوا آل داود» أي: وقيل لهم: اعملوا، ومفعول «اعملوا» محذوف، أي: اعملوا الطَّاعات وواظِبوا عليها شُكراً لربِّكم على ما أنعم به عليكم.

فقيل: انتصب «شُكراً» على الحال، وقيل: مفعول من أجله، وقيل: مفعول به باعملوا، أي: اعملوا عملاً هو الشُّكر، كأن الصَّلاةَ والصِّيامَ والعبادات كلها في أنفُسِها هي الشُّكر إذْ سَدَّت مَسَدَّه. وقيل: على المَصْدر لتضمين اعملوا اشكروا بالعمل لله شُكراً.

ورُوي أن مُصَلَّى آلِ داود لم يَخْلُ قطُّ من قائمٍ يُصلِّي ليلاً ونهاراً، وكانوا يتناوبونه[٣].

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بغير ياء في الوصل والوقف، وقرأ ابن كثير بياء فيهما، وقرأ أبو عمرو وورش بغير ياء في الوقف وياء في الوصل. انظر السبعة ٥٢٧، والتيسير ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٠.

(٢) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٤٨-٢٤٩.

(٣) أخرجه الثعلبي ٥/ ١٤٨ من قول ثابت، وذكره الزمخشري ٣/ ٢٨٣، وابن عطية ٤/ ٤١٠.

وكان سُليمان عليه السلام يأكل الشَّعير، ويُطعم أهْلَه الخُشْكار[١]، والمساكين الدَّرْمَك[٢]، وما شَبع قط، وقيل له في ذلك فقال: أخاف إنْ شَبعتُ أنْ أنسى الجِياع.

و«الشَّكور» صِفَةُ مُبالَغة وأُريد به الجِنس. قال ابن عباس: الشَّكور: مَن يَشْكُر على أحواله كلِّها. وقال السُّدي: مَن يَشْكُر على الشُّكر. وقيل: مَن يَرى عَجْزَه عن الشُّكر[٣].

وهذه الجُملة تحتمل أنْ تكون خِطاباً لآل داود وهو الظَّاهر، وأنْ تكون خطاباً للرسول ﷺ، وفيها تنبيهٌ وتحريضٌ على الشُّكْر[٤].

«فلمَّا قَضَينا عليه الموتَ» أي: أنْفَذْنا عليه ما قضَينا عليه في الأَزَل من الموت، وأخرَجْناه إلى حَيِّز الوجود[٥].

وجواب لمَّا النَّفي الموجب، وهذا يدلُّ على أن لمَّا حرفٌ لا ظرف، خلافاً لمَنْ زعم ذلك؛ لأنه لو كان ظرفاً لكان الجوابُ هو العاملَ وما دخلت عليه وهي نافية، ولا يعمل ما بعدها فيما قبلها[٦]. وقد مضى لنا نظير هذا في «يوسف» في قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الآية ٦٨].

والضَّمير في «دَلَّهم» عائدٌ على الجنِّ الذين كانوا يَعملون له، وكان سليمان قد أمر الجنَّ ببناء صَرْحٍ له، فبَنَوه له، ودخله مُخْتَلياً ليَصْفُوَ له يومٌ من الدَّهر من الكَدَر، فدخل عليه شابٌّ، فقال له: كيف دخلتَ عليَّ من غير إذْن؟ فقال:

(١) في (أ ت ح د٢ ز٢ ع): الخشكنان، والمثبت من (د٣ يه) والمطبوع، وهو كذلك في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٧٩، والخشكار: الخبز الأسمر غير النقي، فارسي، وأما الخشكنان فهو: خبزة تصنع من خالص دقيق الحنطة، وتملأ بالسكر واللوز أو الفستق وتقلى، فارسي. المعجم الوسيط.
(٢) الدرمك: الدقيق الأبيض. المعجم الوسيط.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٨٣.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠.
(٥) ذكره الآلوسي ٢٢/ ٤٩ ثم قال: وفيه تكلُّف.
(٦) انظر ارتشاف الضرب ١٨٩٦-١٨٩٧، ومغني اللبيب ٣٦٩.

إنما دخلتُ بإذْن، قال: ومَن أذِن لك؟ قال: ربُّ هذا الصَّرْحِ، فعلم أنه مَلَك الموت أتى يَقْبِض رُوحَه، فقال: سُبحان الله! هذا اليوم الذي طلبتُ فيه الصَّفاء، فقال له: طلبتَ ما لم يُخلَق، فاستوثَقَ من الاتِّكاء على عصاه، فقَبضَ روحَه، وبقيت الجنُّ تعمل على عادتها.

وكان سليمان قَصَدَ تَعْمِيةَ موته لأنه كان بَقِي من تَمام بناء المسجد عَملُ سنَة، فسأل الله تمامَها على يد الإنْسِ والجنّ، وكان يَخْلو بنفسه الشَّهرَين والثلاثة، فكانوا يقولون: إنه يَتَحَنَّث.

وقيل: إن مَلَك الموت أعْلَمه أنه بَقي من حياته ساعة، فدعا الشياطين فبَنَوا له الصَّرْحَ، وقام يُصَلِّي مُتَّكئاً على عصاه، فقَبَضَ روحَه وهو مُتَّكئٌ عليها، وكانت الشياطين تجتمعُ حولَ مِحْرابه، فلا يَنظُر أحدٌ منهم إليه في صلاته إلا احترق، فمرَّ واحدٌ منهم فلم يَسْمع صوتَه، ثم رجع فلم يسمع، فنظر فإذا هو قد خَرَّ مَيْتاً.

وكان عُمره ثلاثاً وخمسين سنة، مَلَك بعد موت أبيه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان أبوه قد أسَّس بُنيان المسجد موضعَ فُسْطاطِ موسى، فمات قبل أن يُتِمَّه، ووَصّى به إلى ابنه، فأمر الشَّياطين بإتمامه، ومات قبل تَمامه(١).

و«دابَّة الأرضِ» هي سُوسَةُ الخَشَب، وهي الأَرَضَة.

وقيل: ليست سُوسَةَ الخَشَب؛ لأن السُّوسَةَ ليست من دَوابِّ الأرض، بل هذه حَيَوان من الأرض شأنُه أنْ يأكُلَ الخَشَب، وذلك موجود.

وقالت فرقةٌ منها أبو حاتم: الأرض هنا مَصْدر أرَضَت الأبوابُ والخَشَبُ: أكَلَتها الأَرَضَة، فكأنه قال: دابَّةُ الأكلِ الذي هو بتلك الصُّورة(٢).

وإذا كان الأرض مَصْدراً كان فِعله: أَرَضَت الدَّابَّةُ الخَشَبَ تأرِضُه أرَضاً فأرِض بكسر الراء، نحو جَدَعْتُ أنفَه فَجَدِعَ.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٩/ ٢٤٣، والثعلبي ٥/ ١٤٨-١٥٠، والقرطبي ١٧/ ٢٨٦، وعرائس المجالس ٣٢٩-٣٣٠، والكشاف ٣/ ٢٨٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤١١.

ويُقَوِّي[١] أنه مصدر لفَعَل المفتوح العين قراءةُ ابن عباس والعبَّاس بن الفَضْل: «الأرَض» بفتح الرَّاء[٢]؛ لأن مَصْدَر فَعِل المُطاوع لفَعَل يكون على فَعَل، نحو جَدِع أنْفُه جَدَعاً، وأكِلَت الأسنانُ أكَلاً، مُطاوِع أكَلَت القَوادِحُ الأسنانَ أكْلاً[٣].

وقيل: الأرَض بفتح الرَّاء جمع أرَضَة، وهو من إضافةِ العامِّ إلى الخاصِّ؛ لأن الدابَّةَ أعمُّ من الأرَض.

وقراءة الجمهور بسكون الرَّاء، فالمُتَبادَر أنَّها الأرْض المعروفة. وتقدَّم أنَّه مصدرٌ لأرَضَت الدَّابَّةُ الخَشَب.

و«تأكُلُ» حال أي: آكلةً مِنْسَأتَه، وهي حالٌ مُصاحِبة.

وتقدَّم أن المِنْسَأةَ هي العصا[٤]. وكانت فيما روَوْا من خَرُّوب، وذلك أنه كان يَتَعَبَّد في بيت المقدس، فتَنْبُت له في مِحْرابه كلَّ سنة شجرةٌ تُخبره بمنافعها، فيأمرُ فتُقْلَع وتُصْرَف في منافعها، وتُغْرَس لتَتَناسَل، فلمَّا قَرُبَ موتُه نَبَتَت شجرةٌ، وسألها فقالت: أنا الخَرُّوب خرجْتُ لخَراب مُلْكِكَ، فعَرَف أنه حَضَر أجَلُهُ فاستَعَدَّ، واتَّخذ منها عصا، واستَدْعى بزادِ سَنَة، والجنُّ تَتَوهَّم أنه يَتَغَذَّى بالليل.

ورُوي أن سليمان كان في قُبَّةٍ، وأوصى بعضَ أهله بكِتْمانِ مَوْته عن الإنس والجنِّ سَنةً ليَتمَّ البناءُ الذي بُدئ به في زمن داود، فلمّا مضى لموته سنة خَرَّ عن العصا، ونُظِر إلى مقدارِ ما تأكُلُه الأرَضة يوماً، وقيس عليه، فعُلم أنها أكلت العصا منذ سَنة[٥].

---

(١) في المطبوع: ويقال، وفي (ت ح د٢ ع): ويقول، وفي (أ ز٢): وتقول، وكل ذلك تصحيف، والمثبت من (د٣ يه).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤١١، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٤٤١ إلى أبي المتوكل وأبي الجوزاء وعاصم الجحدري، ونسبها ابن خالويه في مختصر في الشواذ ١٢١ إلى الواقدي، وهي بلا نسبة في النكت والعيون ٤/ ٤٤١، والكشاف ٣/ ٢٨٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٨٥.

(٣) قوله: القوادح الأسنان أكلاً؛ ليس في المطبوع، والقوادح جمع قادحة، سوسة تدب في الأسنان والشجر والخشب.

(٤) تقدم في مفردات هذه السورة.

(٥) انظر خبر شجرة الخروب في: تفسير الطبري ١٩/ ٢٤٠-٢٤٢، ومعاني القرآن للنحاس =

وقرأ نافع وأبو عمرو وجماعة «مِنْساتَه» بألف، وأصلُه: مِنْسَأَتَه، أُبدلت الهمزة ألفاً بدلاً غيرَ قياسيّ.

وقال أبو عمرو: أنا لا أهمزها لأنّي لا أعرف لها اشتقاقاً، فإنْ كانت مما لا تُهمز فقد احتَطْتُ، وإن كانت تُهْمَز فقد يجوز لي ترك الهمز فيما يُهْمَز[1].

وقرأ ابن ذَكْوان وجماعة منهم بكّار والوليدان ابنُ عتبة وابنُ مسلم: «مِنْسَأْتَه» بهمزة ساكنة[2]، وهو من تسكين المُتحرّك[3] تخفيفاً وليس بقياس، وضَعَّف النُّحاةُ هذه القراءة؛ لأنه يَلْزَمُ فيها أن يكون ما قبل تاء التأنيث ساكناً غير ألف، وقيل: قياسُها التَّخفيف بَيْنَ بين والرَّاوي لم يَضْبِط.

وأنشد هارون بن موسى الأخفَش الدِّمشقي شاهداً على سكون هذه الهمزة[4] قول الراجز:

صَرِيعُ خَمْرٍ قام من وَكَأْتِه كقَوْمَةِ الشَّيخِ إلى مِنْسَأْتِه[5]

وقرأ باقي السَّبعة بالهمزة مفتوحة.

وقرئ بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلباً وحَذْفاً، وعلى وزن مِفْعالَة «مِنْساءة»[6].

وقرأت فرقةٌ منهم عَمرو بن ثابت عن ابن جُبَيْر: «مِن» مفصولة حرف جر «سَأَتِه» بجرِّ التَّاء[7].

= ٥/ ٤٠٤، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٤٨، وعرائس المجالس ٣٢٨، والنكت والعيون ٤/ ٤٤٠-٤٤١، والكشاف ٣/ ٢٨٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٨١، ٢٨٢.

(١) السبعة ٥٢٧، والتيسير ١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١١.

(٢) التيسير ١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠، وذكر ابن خالويه في مختصر في الشواذ ١٢١ أن ابن عامر قرأ بها في رواية عنه، ولم نقف على قراءة بكار والوليدين.

(٣) في النسخ والمطبوع خلا (يه د٣): التحريك، والمثبت منهما. وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٤١٢.

(٤) في النسخ والمطبوع خلا (يه د٣): القراءة، والمثبت منهما، وانظر الدر المصون ٩/ ١٦٥، وروح المعاني ٢٢/ ٥٢.

(٥) التيسير ١٨٠، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٠، ورواية صدره عند القرطبي: وقائم قد قام من تكأته.

(٦) الكشاف ٣/ ٢٨٣.

(٧) المحتسب ٢/ ١٨٦، ومختصر في الشواذ ١٢١، والمحرر ٤/ ٤١٢، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٨٤.

قيل: ومعناه: من عصاه، يُقال لها: سَأَةُ القَوْس وسِئَتُها معاً، وهي يَدُها العُليا والسُّفْلى، سُمِّيت العصاة بسَأةِ القَوْس على الاستعارة، ولا سيّما إنْ صحَّ النَّقْل أنه اتَّخذها من شَجَر الخَرُّوب قُبَيْل موته، فتكون حين اتَّكأ عليها[١] - وهي كما قُطعت من شجرة خَضراء ـ قد اعْوَجَّت حتى صارت كالقَوْس، ألا ترى أنك إذا اتَّكأْتَ على غُصنٍ أخْضَرَ كيف يَعْوَجُّ حتى يكاد يلتقي طَرَفاه، وفيها لغتان: سَأة وسِئة، كما يقال: قَحَة وقِحَة[٢]، والمحذوف من سَأة وسِئة [: لامُها][٣].

«فلمَّا خَرَّ» أي: سَقَط عن العصا مَيْتاً.

والظاهر أن الضَّمير في «خرَّ» عائدٌ على سليمان. وقيل: إنه لم يَمُت إلا في سَفَرٍ[٤] مُضطجعاً، ولكنه كان في بيتٍ مَبْنِيٍّ عليه، وأكلت الأرَضَةُ عَتَبَةَ الباب، حتى خَرَّ الباب، فعُلِمَ مَوتُه[٥].

وقال ابن عباس: مات في مُتَعَبَّدِه على فراشه وقد أغلق البابَ على نفسه، فأكلت الأرَضَةُ المِنْسَأة، أي: عَتَبَةَ الباب، فلمَّا خَرَّ؛ أي: الباب[٦]. انتهى.

وهذا فيه ضَعْفٌ؛ لأنه لو كانت المِنْسَأةُ هي العَتَبة وعاد الضَّميرُ عليها لكان التركيب: فلما خَرَّت بتاء التأنيث، ولا يجيءُ حَذْفُ مثل هذه التاء إلا في ضرورة الشِّعر، ولا يكون من تذكير المعنى على معنى العُوْد لأنه قليل[٧].

وقرأ الجمهور: «تَبَيَّنَت» مَبنيًّا للفاعل. فاحتمل أن يكون من تَبَيَّن بمعنى بان، أي: ظهر وتَجلَّى، فالجنُّ[٨] فاعل، وأنْ وما بعدها بدلٌ من الجنّ، كما تقول: تَبَيَّن زيدٌ جَهْلُهُ، أي: ظهر جَهْلُ زيد، فالمعنى: ظهر للناس جَهْلُ الجنِّ علمَ الغيب، وأنَّ ما ادَّعَوه من ذلك ليس بصحيح.

---

(١) في النسخ: عليه، والمثبت من المطبوع.
(٢) في المطبوع: قحاة.
(٣) ما بين معكوفين من المحتسب ٢/ ١٨٧، والدر المصون ٩/ ١٦٦.
(٤) في المطبوع: لم يمت إلى أن وجد في سفر.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٢.
(٦) النكت والعيون ٤/ ٤٤٢.
(٧) قال الآلوسي ٢٢/ ٥٩ عقب إيراده: فالظاهر عدم صحة الرواية عن الحبر ـ يعني ابن عباس.
(٨) في المطبوع: ظهرت الجن والجن.

واحتمل أن يكون من تَبَيَّن بمعنى عَلِم وأدْرَكَ، والجنُّ هنا خَدَمُ الجنِّ وضَعَفَتُهم «أنْ لو كانوا» أي: لو كان رؤساؤهم وكبارُهم يعلمون. قاله قتادة[١].

وقال الزمخشري: أو عَلم المُدَّعون علمَ الغيب منهم عَجْزَهم، وأنهم لا يعلمون الغيبَ؛ وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم، وإنما أُريد التَّهَكُّم بهم، كما يُتَهَكَّم بمُدَّعي الباطلِ إذا دَحَضَت حُجَّتُهُ، وظَهر إبْطالُهُ؛ كقولك: هل تَبَيَّنْتَ أنك مُبْطِل؛ وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك مُتَبَيِّناً. انتهى[٢].

ومجيء تَبَيَّن بمعنى بان وظَهر لازماً، وبمعنى عَلم متعدِّياً موجودٌ في كلام العرب، قال الشاعر:

تَبَيَّنَ لي أنَّ القَماءةَ ذِلَّةٌ ... وأنَّ أعِزَّاءَ الرِّجالِ طِيالُها[٣]

وقال آخر:

أفاطِمُ إنّي مَيِّتٌ فَتَبَيَّني ... ولا تَجْزَعي كلُّ الأنامِ تَموتُ[٤]

أي: فَتَبَيَّني ذلك، أي: اعْلَميه.

وقال ابن عطية: ذهب سيبويه إلى أن «أنْ» لا موضعَ لها من الإعراب؛ إنما هي مؤذِنَةٌ بجواب ما تَنَزَّل[٥] منزلةَ القَسَم من الفعل الذي معناه التحقيق واليقين؛ لأن هذه الأفعال التي هي: تحقَّقْتُ وتيقَّنْتُ وعلمتُ ونحوها تحلُّ محلَّ القَسَم فـ «ما لَبِثوا» جوابُ القَسَم لا جواب لو، وعلى الأقوال الأُوَل جواب لو.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٨٣.
(٣) سلف في تفسير الآية (٢٤٧) من سورة البقرة.
(٤) البيت في الدر المصون ٩/ ١٦٨، وروح المعاني ٢٢/ ٥٤ كما ذكره أبو حيان.
ونسبه أبو زيد الأنصاري في النوادر ٣٨٥ لعبد قيس بن خفاف البرجمي، وهو بلا نسبة في معاني القرآن للفراء ١/ ١٨٥، والزاهر ١/ ١٢٩، وأمثال أبي عبيد ٣٣٥، وجمهرة الأمثال ٢/ ١٥٧، ومجمع الأمثال ٢/ ١٣٣، ونسبه الزمخشري في المستقصى ٢/ ٢٢٦ إلى امرئ القيس، وليس في ديوانه.
ورواية البيت عند جميعهم: أفاطم إني هالك... كل النساء يئيم.
(٥) في المطبوع: موزونة نحوان ما ينزل!؟

وفي كتاب النَّحَّاس إشارةٌ إلى أنه يُقرأ «تَبيَّنت الجنَّ» بنصب الجنّ، أي: تبيَّنَتِ الإنسُ الجنَّ، والمعنى: أن الجنَّ لو كانت تعلم الغيبَ ما خَفيَ عليها موتُ سليمان، وقد ظهر أنه خَفِي عليها بدوامها في الخِدمة والصَّنْعَةِ[(١)] وهو مَيِّت[(٢)].

وقرأ ابن عباس ـ فيما ذكر ابن خالويه ـ ويعقوب بخلافٍ عنه: «تُبيِّنَت» مَبنيًّا للمفعول[(٣)].

وعن ابن عباس وأُبيّ وابن مسعود وعليّ بن الحسين والضحَّاك قراءات في هذا الموضع مُخالِفةٌ لسَواد المُصحف ولما رُوي عنهم، ذكرها المفسِّرون، أضرَبْتُ عن ذكرها صَفْحاً على عادتنا في تَرْك نقلِ الشَّاذ الذي يُخالف السَّواد مخالفةً كثيرة[(٤)].

* * *

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

لـمَّا ذكر تعالى حالَ الشاكرين لنِعَمِه بذكر داود وسليمان، بَيَّن حالَ الكافرين بأنْعُمه بقصَّةِ سبأ، موعظةً لقريش، وتحذيراً وتنبيهاً على ما جرى لمَن كَفر أنْعُمَ[(٥)] الله.

---

(١) في (ت) والمطبوع: والضعة، وفي (أ): والصفة، والمثبت من (ح د٢ د٣ ز٢ ع يه)، وفي المحرر الوجيز: في الخدمة الصعبة.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٢، وكتاب سيبويه ٣/ ١٠٧-١٠٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٧.

(٣) مختصر في الشواذ ١٢١، والنشر ٢/ ٣٥٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٢، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٨٢ وهي رواية رويس عن يعقوب.

(٤) انظر هذه القراءات في المحتسب ٢/ ١٨٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٢.

(٥) في (يه): بأنعم.

وتقدَّم الكلامُ في سبأ في «النَّمل»[١].

ولـمَّا مَلَكت بلقيس اقتتل قومُها على ماء واديهم، فتركتْ مُلكها وسكنتْ قصْرَها، وراودوها على أنْ ترجعَ فأبتْ، فقالوا: لتَرْجِعِنَّ أو لنَقْتُلَنَّك، فقالت لهم: لا عُقولَ لكم ولا تطيعوني، فقالوا: نُطيعُك، فرجعت إلى واديهم، وكانوا إذا مُطروا أتاهم السَّيلُ من مَسيرة ثلاثة أيام، فأمَرت به، فسُدَّ ما بين الجبلَين بمُسَنَّاة بالصَّخر والقار، وحبَست الماءَ من وراء السَّدِّ، وجَعلت له أبواباً بعضُها فوق بعض، وبنَتْ من دونه بِرْكةً فيها اثنا عشَر مَخْرجاً على عِدَّة أنهارهم، فكان الماء يَخْرج لهم بالسَّويَّة[٢] إلى أنْ كان من شأنها مع سليمان عليه السَّلام ما سبق ذكرُهُ في سورة النَّمل.

وقيل: الذي بنى لهم السَّدَّ هو حِمْيَر أبو القبائل اليَمنيَّة[٣].

وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم[٤].

وقيل: كان لهم رئيسٌ يُلَقَّب بالحمار، وكان في الفترة، فمات ولدُهُ، فرفع رأسَه إلى السماء فبَزَق وكَفَرَ؛ ولهذا يُقال في المَثَل: أكفرُ من حمار[٥]، ويُقال: تَرَكَه جَوْفَ حِمار، أي: كوادي حمار[٦] لمَّا سالَ بهم السَّيلُ.

وقرأ الجمهور: «في مَساكِنهم» جَمْعاً. والنَّخَعي وحمزة وحفص مُفرداً بفتح الكاف. والكسائي مُفرداً بكسرها، وهي قراءة الأعمش وعَلْقمة[٧].

---

(١) في تفسير الآية (٢٢) منها.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٢٥٠، والثعلبي ٥/ ١٥٢-١٥٣، وزاد المسير ٦/ ٤٤٣-٤٤٤.

(٣) في (د٣): اليمانية، وهما بمعنى. والقول في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٣.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٥.

(٥) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٩١. وانظر المثل في الدرة الفاخرة ٢/ ٣٦٧، وجمهرة الأمثال ٢/ ١٧٧، ومجمع الأمثال ٢/ ١٦٨، والمستقصى ١/ ٢٩٥.

(٦) قال المفضل بن سلمة في الفاخر ١٥: والوادي بلغة أهل اليمن يقال له الجوف، وانظر مجمع الأمثال ١/ ١٣٥.

(٧) السبعة ٥٢٨، والتيسير ١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٥٢، والقرطبي ١٧/ ٢٨٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٣.

قال أبو الحسن[١]: كسْرُ الكاف لغةٌ فاشِيَة، وهي لغةُ الناس اليوم، والفتح لغةُ الحجاز وهي اليوم قليلة. وقال الفرَّاء[٢]: هي لغةٌ يمانيَّةٌ فصيحة.

فمَن قرأ بالجمع فظاهر؛ لأن كلَّ أحدٍ له مَسْكِن، ومَن أفرد فينبغي أن يُحمَل على المصدر، أي: في سُكناهم حتى لا يكون مُفرداً يُراد به الجمع؛ لأن سيبويه يرى ذلك ضرورةً نحو:

كُلُوا في بعضِ بَطْنِكم تَعِفُّوا[٣]

يريد: بطونكم، وقوله:

قد عَضَّ أعناقَهم جِلْدُ الجَواميسِ[٤]

أي: جُلود.

«آية» أي: عَلامة دالَّة على الله، وعلى قُدرته وإحسانِهِ، ووجوب شُكره. أو جَعل قصَّتهما لا أنفسهما آيةً؛ إذْ أعْرَضَ أهلُهما عن شكر الله عليهما، فخَرَّبَهما وأبدلهم عنهما الخَمْطَ والأَثْل عِبْرةً لهم[٥].

و«جَنَّتان» خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هي جنَّتان. قاله الزجَّاج. أو بدل، قال معناه الفرَّاء قال: رُفع لأنه تفسيرٌ لآية. وقاله مكّيّ وغيرُه، وضَعَّفه ابنُ عطيَّة، ولم يذكر جِهةَ تضعيفه.

وقال: «جنَّتان» ابتداء وخبره في قوله: «عن يمينٍ وشِمال»[٦]. انتهى.

(١) الأخفش، ونقل كلامه الفارسي في الحجة ٦/ ١٤.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٥٧.
(٣) الكتاب ١/ ٢١٠، وتمام البيت: فإن زمانكم زمنٌ خميصُ، وسلف في تفسير الآية العاشرة من سورة النساء.
(٤) صدره: الواردون وتَيْمٌ في ذُرى سبأ، وهو لجرير، وسلف في تفسير الآية (٢٢) من سورة النمل.
(٥) في المطبوع: جعل قصتهم لأنفسهم... أهلها... عليهم فخربهم وأبدلهم عنها... ثمرة لهم. وانظر الكشاف ٣/ ٢٨٤.
(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٢٤٨، وللفراء ٢/ ٣٥٨، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٠٦، والهداية ٩/ ٥٩٠٦ كلاهما لمكي، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٣.

ولا يَظهر لأنه نكرةٌ لا مُسَوِّغ للابتداء بها؛ إلا إن اعتُقد أنَّ ثَمَّ صفةٌ محذوفة، أي: جَنَّتان لهم، أو عظيمتان لهم عن يمينٍ وشِمال، وعلى تقدير ذلك يبقى الكلامُ مُفْلَتاً مما قبلَه.

وقرأ ابن أبي عَبْلَة: «جَنَّتَين» بالنَّصب[١] على أن «آية» اسم كان، وجَنَّتين الخبر.

قيل: ووَجْهُ كونِ الجنَّتَين آية نباتُ الخَمْطِ والأَثْل والسِّدْر مكانَ الأشجارِ المُثْمرة. قال قتادة: كانت بساتينُهم ذات أشجارٍ وثمارٍ تَسْتَتر الناسُ بظِلالها، ولم يُرِد جَنَّتَيْن ثِنْتَين، بل أراد من الجِهَتَين يمنةً ويَسْرةً. انتهى[٢].

وقال الزمخشري: وإنما أراد جماعتَين من البساتين؛ جماعةً عن يمين بلدتهم وأخرى عن شمالها، وكلُّ واحدةٍ من الجماعتَين في تقارُبها وتضامِّها كأنها جنةٌ واحدة، كما تكون بلادُ الرِّيف العامرةِ وبساتينها. أو أراد بُستانَي كلِّ رجلٍ منهم عن يمين مَسْكِنه وشماله، كما قال: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: ٣٢][٣]. انتهى.

قال ابن زيد: لا يوجد فيها بُرْغوثٌ ولا بَعوضٌ ولا عَقْرب، ولا تَقْمُل ثيابُهم، ولا تعيا دَوابُّهم[٤]. وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسِها المِكْتَل، فيمتلئ ثماراً من غير أن تتناولَ بيدها شيئاً[٥].

ورُوي نحو هذا عن عبد الرحمن بن عوف وابن عباس[٦].

«كُلوا من رِزْقِ ربِّكم» قولُ الله لهم على ألسنةِ الأنبياء المبعوثين إليهم. ورُوي

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٣.
(٢) نسب هذا القول القرطبي ١٧/ ٢٩٠-٢٩١ إلى القشيري.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٨٤.
(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٤٧، وذكره الثعلبي ٥/ ١٥٢، والماوردي ٤/ ٤٤٣-٤٤٤، والقرطبي ١٧/ ٢٩٠.
(٥) قوله: وكانت المرأة... هو من كلام قتادة أخرجه عنه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠، والطبري ١٩/ ٢٤٧، وذكره عنه الماوردي ٤/ ٤٤٤، والقرطبي ١٧/ ٢٩٠.
(٦) ذكره عن ابن عوف ابن عطية في المحرر ٤/ ٤١٤، وعن ابن عباس الزمخشري ٣/ ٢٨٥.

ذلك مع الإيمان بالله[١]. أو قولُ لسانِ الحالِ لهم لمَّا رأوا نِعَماً كثيرة وأرزاقاً مَبْسوطة. وفيه إشارة إلى تكميل النِّعمة عليهم؛ حيث لم يمنعْهم من أكل ثمارها خوفٌ ولا مَرضٌ.

«واشْكُروا له» على ما أنعم به عليكم «بَلْدَةٌ طَيِّبة» أي: كريمةُ التُّربةِ، حَسَنةُ الهواء، رَغْدَةُ النِّعَم، سَليمةٌ من الهوامِّ والمَضارِّ «وربٌّ غَفورٌ» لا عِقابَ على التمتُّعِ بنِعَمِه في الدنيا، ولا عذابَ في الآخرة، فهذه لَذَّةٌ كاملةٌ خاليةٌ عن المفاسِدِ العاجلةِ والمآليَّةِ.

وقرأ رُوَيْس بنصب الأربعة[٢].

قال أحمد بن يحيى: اسكنوا بلدةً طيِّبَةً، واعبدوا ربًّا غَفوراً[٣]. وقال الزمخشري: منصوبٌ على المَدْح.

ولمَّا ذكر تعالى ما كان من جانبه من الإحسان إليهم ذَكر ما كان من جانبهم في مقابلته فقال: «فأعْرَضوا» أي: عما جاء به إليهم أنبياؤهم، وكانوا ثلاثة عشر نبيًّا، دعوهم إلى الله تعالى وذَكَّروهم نِعَمَه، فكذَّبوهم وقالوا: ما نعرف لله نعمةً، فبَيَّن كيفيَّةَ الانتقام منهم، كما قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، فسَلَّط الله عليه الجُرَذ - فأراً أعمى توالَدَ فيه، ويُسَمَّى الخُلْد - وخَرَّقه شيئاً بعد شيء، وأرسل سيلاً في ذلك الوادي فحمل ذلك السَّدَّ.

فروي أنه كان من العِظَم وكثرةِ الماء بحيث ملأ ما بين الجبلَين، وحمل الجَنَّات وكثيراً من الناس ممَّن لم يُمكنْه الفِرار.

ورُوي أنه لما خَرَق السَّدَّ كان ذلك سببَ يُبْسِ الجَنَّات، فهَلَكت بهذا الوَجْه.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٤: وروي أن هذه المقالة من الأمر بالأكل والشرب والتوقيف على طيب البلدة وغفران الرب مع الإيمان به هو من قيل الأنبياء لهم.

(٢) مختصر في الشواذ ١٢١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٤.

(٣) نقل كلام أحمد بن يحيى ثعلب: ابنُ خالويه في مختصر في الشواذ ١٢١، والزمخشري ٣/ ٢٨٥، وما سيأتي من كلامه فيه.

وقال المُغيرة بن حَكيم وأبو مَيْسَرة: العَرِم في لغة اليمن جمع عَرْمَة، وهي كلُّ ما بُني أو سُنِّم ليُمْسِكَ الماء[١].

وقال ابن جُبَير: العَرِم: المُسَنَّاة بلسان الحَبَشة. وقال الأخفش: هو عربيّ[٢].

ويقال لذلك البناء بلُغة الحِجاز: المُسَنَّاة كأنها الجُسور والسِّداد، ومن هذا المعنى قول الأعشى:

وفي ذاك للمُؤتَسي أُسْوَةٌ ومأرِبُ عَفَّى عليه العَرِمْ
رُخامٌ بَنَتْه لهم حِمْيَرٌ إذا جاشَ دُفَّاعُه لم يَرِمْ
فأروى الزُّروعَ وأشْجارَها على سَعَةٍ ماؤه إذْ قُسِمْ
فصاروا أياديَ لا يَقْدِرو نَ منه على شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمْ[٣]

وقال آخر:

مِن سَبَأَ الحاضِرينَ مَأرِبَ إذْ يَبْنُونَ من دون سَيْلِهِ العَرِما[٤]

وقال ابن عباس وقتادة والضحَّاك: العَرِم اسمُ وادي ذلك الماء بعينه الذي كان السدُّ بُني له[٥]. انتهى.

ويُمكن أن يُسمَّى الوادي بذلك البِناء لمُجاورَته له، فصار عَلَماً عليه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٤، وانظر تفسير الطبري ١٩/ ٢٥٠.
(٢) قول ابن جبير والأخفش ليس في (د٣ يه).
(٣) ديوان الأعشى ١٨١-١٨٣ (تحقيق الرضواني)، والحور العين ٣٥٣، والأول والثاني في مجاز القرآن ٢/ ١٤٦، وتفسير الطبري ١٩/ ٢٤٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٤، وسمط اللآلي ١٩.
(٤) في المطبوع: من سبأ للحاضرين مارب إذا بنوا من دونه سيل العرم.
وهذا تصحيف شنيع للبيت. وقد اختلف في نسبته إلى النابغة الجعدي وأمية بن أبي الصلت، انظر ديوان النابغة ١٣٤، وديوان أمية ٤٩٠ (تحقيق السطلي) وتخريجه في ص٥٩٨، وطبقات فحول الشعراء ١٢٦، والبيت دون نسبة في الكتاب ٣/ ٢٥٣، ومجاز القرآن ٢/ ١٤٧، وغريب القرآن لابن قتيبة ٣٥٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٤.
(٥) في المطبوع: اسم وان... بني به، وانظر تفسير الطبري ١٩/ ٢٤٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٤.

وقال ابن عباس أيضاً: العَرِم: الشَّديد[١].

فاحتَمل أن يكون صفةً للسَّيل، أُضيف فيه الموصوفُ إلى صفته، والتقدير: السَّيلَ العَرِمَ، أو صفةً لموصوفٍ محذوف، أي: سَيْلَ المَطَرِ الشَّديد الذي كان عنه السَّيْلُ، أو سيلَ الجُرَذِ العَرِمِ، فالعَرِم صِفةٌ للجُرَذ.

وقيل: العَرِم اسمُ الجُرَذِ بنفسه[٢]، وأُضيف السَّيلُ إليه لكونه كان السَّببَ في خَراب السَّدِّ الذي حَملَه السَّيلُ، والإضافةُ تكون بأدنى مُلابَسَة.

وقرأ عُروة[٣] بن الوَرْد فيما حكى ابن خالويه: «العَرْم» بإسكان الراء تخفيفُ العَرِم، كقولهم في الكَبِد: الكَبْد.

ولمَّا غَرِق مَن غَرِق منهم ونَجا مَنْ نجا تفرَّقوا وتمزَّقوا، حتى ضَرَبت العربُ بهم المَثَل فقالوا: تفرَّقوا أيْدِي سَبا وأيادي سَبا. قيل: والأوسُ والخَزْرَج منهم[٤].

وعن ابن عباس: كان سَيْلُ ذلك الوادي يَصلُ إلى مكة ويُنْتَفَعُ به[٥]. وكان سَيْلُ العَرِمِ في مُلك ذي الأذْعار بن حسَّان في الفترة بين عيسى ونبيِّنا صلى الله عليهما وسلم. انتهى.

ودخلت الباء في «بجَنَّتَيْهم» على الزَّائل، وانتصب ما كان بدلاً وهو قوله: «جَنَّتين» على المَعْهود في لسان العرب، وإن كان كثيرٌ ممَّن[٦] ينتمي للعلم يَفْهَمُ العَكْس، حتى قال بعضهم: ولو أبدل ضاداً بظَاءٍ[٧] لم تصحَّ صلاتُهُ، وهو خطأ،

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٢.
(٢) قال ابن عطية ٤/ ٤١٤: وهذا ضعيف.
(٣) في (أ ت ح د٢ ز٢ ع) وأصل روح المعاني ومطبوعه: عزرة، والمثبت من (د٣ يه) وهو موافق لما في مختصر في الشواذ لابن خالويه ١٢١ وطبعة مؤسسة الرسالة من روح المعاني ٢٢/ ٦٥.
(٤) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٩٢، والمثل في: مجمع الأمثال ١/ ٢٧٥، والمستقصى ٢/ ٨٨، والكشاف ٣/ ٢٨٦. وسلف في تفسير الآية (٢٢) من سورة النمل.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٤.
(٦) في المطبوع: كثيراً لمن.
(٧) **يعني في آية الفاتحة: ولا الضالين.**

ولسانُ العرب: ولو أبدل ظاءً بضاد. وقد تكلَّمنا على ذلك في «البقرة» في قوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الآية: ١٠٨].

وسُمِّي هذا المُعَوَّض جَنَّتَين على سبيل المقابَلَة؛ لأنَّ ما كان فيه خَمْطٌ وأَثْلٌ وسِدْرٌ لا يُسمَّى جَنَّة؛ لأنها أشجارٌ لا يكاد يُنْتَفَعُ بها.

وجاءت تثنيةُ ذاتٍ على الأفصح في رَدِّ عينها في التَّثنية فقال: «ذَواتَي أُكُلٍ» كما جاء: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨]، ويجوز أن لا تُرَدّ فتقول: ذاتا، كذا على لفظِ ذات.

وتقدَّم ذكرُ الخِلاف في ضمِّ كاف «أُكُلٍ» وسكونها[١].

وقرأ الجمهور: «أُكُلٍ» مُنَوَّناً.

والأُكُل: الثَّمر المأكول؛ فخَرَّجه الزمخشري على أنه على حذف مضاف، أي: أُكُلِ خَمْطٍ[٢]، قال: أو وُصِف الأكُلُ بالخَمْط، كأنه قيل: ذَواتَي أُكُلٍ بَشِعٍ[٣]. انتهى.

والوصف بالأسماء لا يَطَّرِد، وإنْ كان قد جاء منه شيءٌ نحو قولهم: مررتُ بقاعٍ عَرْفَجٍ كُلِّه[٤].

وقال أبو علي: البَدَل في هذا لا يَحْسُن؛ لأن الخَمْطَ ليس بالأُكُلِ نفسه[٥]. انتهى.

وهو جائزٌ على ما قاله الزمخشري؛ لأن البدَلَ حقيقةً هو ذلك المحذوف، فلما حُذف أُعرب ما قام مقامَه بإعرابه.

قال أبو علي: والصِّفةُ أيضاً كذلك ـ يُريد: لا تَحْسُن ـ لأن الخَمْطَ اسمٌ

---

(١) في تفسير الآية (٢٦٥) من سورة البقرة.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٨٥: ذواتي أكلٍ أكلِ خمط، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

(٣) في المطبوع: شبع.

(٤) القاع: الأرض المستوية المطمئنة عما يحيط بها من الجبال والآكام، تنصبُّ إليها مياه الأمطار فتمسكها، ثم تنبت العشب، والعرفج: نبات سهلي.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٥ وعنه نقل كلام أبي علي، وانظر الحجة ٦/ ١٥.

لا صفة، وأحسنُ ما فيه عطفُ البيان، كأنه بيَّن أن الأُكُل هذه الشَّجرة ومنها[١]. انتهى.

وهذا لا يجوز على مذهب البصريّين، إذْ شرطُ عطفِ البيان أنْ يكون معرفةً وما قبله معرفة، ولا يُجيز ذلك في النَّكرة من النكرة إلا الكوفيون، فأبو علي أخَذَ بقولهم في هذه المسألة[٢].

وقرأ أبو عمرو: «أُكُلِ خَمْطٍ» بالإضافة[٣]، أي: ثَمرِ خَمْطٍ.

وقرئ: «وأَثْلاً وشيئاً» بالنَّصب، حكاه الفضل بن إبراهيم عطفاً على «جَنَّتين»[٤].

و«قليلٍ» صفةٌ لـ «سِدْر» وقَلَّله لأنه كان أحسَنَ أشجاره وأكرمَ ما بُدِّلوا. قاله الحسن[٥].

و«ذلك» إشارةٌ إلى ما أجراه عليهم من تخريب بِلادهم، وإغراقِ أكثرهم، وتمزيقهم في البلاد، وإبدالِهم بالأشجار الكثيرةِ الفواكهِ الطيِّبةِ المُسْتَلَذَّةِ الخَمْطَ والأَثْلَ والسِّدْرَ.

ثمَّ ذكر سببَ ذلك وهو كُفرُهم بالله وإنكارُ نعمه «وهل يُجازى» أي: بذلك العقاب «إلا الكَفور» أي: المُبالِغ في الكُفر يُجازى بمثلِ فعله قَدْراً بقَدْر، وأما المؤمن فجزاؤه بتفضُّلٍ وتضعيف.

وقرأ الجمهور بضمِّ الياء وفتح الزاي «الكفورُ» رفعاً، وحمزة والكسائي بالنون وكسر الزاي «الكفورَ» نصباً[٦].

وقرأ مُسلم بن جُندب: «يُجزى» مُرَتَّباً[٧] للمفعول «الكفورُ» رفعاً.

---

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) انظر ارتشاف الضرب ٤/ ١٩٤٣.

(٣) السبعة ٥٢٨، والتيسير ١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٤) مختصر في الشواذ ١٢١، وذكرها الزمخشري ٣/ ٢٨٥ دون نسبة.

(٥) ذكره عنه الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٥.

(٦) وهي قراءة يعقوب وخلف وحفص، انظر السبعة ٥٢٨، والتيسير ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٧) في (ح) والمطبوع: مبنياً، والمثبت من (أ ت د٣ د٢ ز٢ ع يه)، وقراءة مسلم في مختصر في الشواذ ١٢١، والمحتسب ٢/ ١٨٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٥.

وأكثرُ ما يُستَعمل الجزاءُ في الخَيْر والمُجازاة في الشرّ، لكنْ في تَقْييدِهما قد يقعُ كلُّ واحدٍ منهما موقعَ الآخَر.

«وجَعَلْنا بينهم وبين القُرى التي باركنا فيها قُرًى ظاهرة» جاءت هذه الجملة بعد قوله: «وبَدَّلْناهم» وذلك أنه لمَّا ذَكر ما أنعمَ به عليهم من جَنَّتَيهم، وذكر تبديلَها بالخَمْطِ والأَثْلِ والسِّدْرِ ذكر ما كان أنعم به عليهم من اتِّصال قُراهم، وذكر تبديلَها بالمَفاوز والبَراري.

وقولُهُ: «وجَعَلْنا» وصفَ تعالى حالَهم قبلَ مجيءِ السَّيْل، وهي أنه مع ما كان مَنَحهم من الجنَّتَين والنِّعمة الخاصَّة بهم كان قد أصْلَحَ لهم البلادَ المُتَّصِلة بهم، وعَمَرها، وجَعلَهم أربابَها، وقَدَّرَ السَّيرَ بأنْ قَرَّب القُرى بعضَها من بعض. قال ابن عطية: حتى كان المُسافرُ من مَأرِبَ إلى الشَّام يَبيت في قريةٍ ويَقيلُ في أُخرى، ولا يحتاجُ إلى حَمْلِ زاد.

و«القُرى» المدن، ويقال للمُجْتَمع الصَّغير أيضاً قَرْية. والقُرى التي بُورك فيها هي بلاد الشام بإجماع من المُفسِّرين، والقُرى الظَّاهرة هي التي بين الشأم ومأرِب، وهي الصِّغار التي هي البَوادي[1]. انتهى.

وما ذكره من أن القُرى التي بُورك فيها هي قرى الشام بإجماع ليس كما ذكر، قال مجاهد: هي السَّرَوات[2]. وقال وَهْب: قُرى صَنْعاء. وقال ابن جُبير: قُرى مأرب. وقال ابن عباس: قُرى بيتِ المقدس، وبَرَكَتُها كَثْرةُ أشجارها أو ثمارها.

ووصف قُرى بـ «ظاهرة» قال قتادة: مُتَّصلة على الطريق، يَغْدون فيَقيلون في قرية، ويَروحون فيَبيتون في قرية. قيل: كان على كل ميلٍ قريةٌ بسوق، وهو سببُ أمْنِ الطَّريق.

وقال المبرد: «ظاهرة» مُرتفعة، أي: في الآكام والظِّراب وهي أشرف القُرى.

وقيل: «ظاهرة» إذا خرجْتَ من هذه ظَهرَتْ لك الأخرى.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٥.

(٢) في (أ): السراوية، وفي (ز٢): السرا، وفي المطبوع: السراوى، والمثبت من (د٣ يه).

وقيل: «ظاهرة» معروفة، يقال: هذا أمرٌ ظاهر، أي: معروف. وقيل: ظاهرة: عامِرَة[١].

وقال ابن عطية: والذي يَظهر لي أنَّ معنى «ظاهِرة» خارجة عن المُدن، فهي عبارةٌ عن القُرى الصِّغار التي هي في ظَواهر المدن، فكأنه فَصل بِهذه الصِّفة بين القُرى الصِّغار وبين القُرى المُطْلَقة التي هي المُدن، وظَواهر المُدن ما خرج عنها في الفَيافي والفُحوص، ومنه قولُهم: نزَلْنا بظاهرِ فُلانة، أي: خارِجاً عنها. وقوله: «ظاهرة» نَظيرُ تَسْمِيةِ الناس إياها بالبادية والضَّاحية، ومن هذا قول الشاعر:

فلو شَهِدَتْني من قُريشٍ عِصابةٌ قريشِ البِطاحِ لا قريشِ الظَّواهِرِ[٢]

يعني الخارجينَ من بَطْحاءِ مكَّة. وفي الحديث: وجاء أهل الضَّواحي يَشْكون الغَرَق[٣].

«وقَدَّرنا فيها السَّيْرَ» قد ذُكر أن الغادي يَقيل في قرية والرَّائح في أخرى إلى أنْ يصلَ إلى مَقصودِهِ آمناً من عدوٍّ وجوعٍ وعَطَشٍ وآفاتِ المُسافر. قال الضحاك: مَقاديرَ المَراحل، كانت القُرى على مَقاديرها. وقال الكلبي: مَقاديرَ المَقيل والمَبيت. وقال القُتَبي: بين كلِّ قريةٍ وقرية مِقدارٌ واحدٌ معلوم. وقيل: بين كلِّ قريتَين نصفُ يوم. وهذه أقوال متقاربة[٤].

---

(١) انظر الأقوال السالفة في: تفسير الطبري ١٩/ ٢٦١-٢٦٢، ومعاني القرآن ٥/ ٤١٠، وإعراب القرآن ٣/ ٣٤١ كلاهما للنحاس، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٥٤، والماوردي ٤/ ٤٤٤ و٤٤٥، والقرطبي ١٧/ ٢٩٨-٢٩٩، وزاد المسير ٦/ ٤٤٨.

(٢) البيت لذكوان مولى عمر بن الخطاب في قصة له مع الضحاك بن قيس، انظر طبقات ابن سعد ١/ ٥٣، ومروج الذهب ١/ ١٠٦، وأنساب الأشراف ٩/ ٣٠٦، ومعجم البلدان (بطاح) ١/ ٤٤٤، وتاريخ دمشق ٧/ ٣٢٢، والوافي بالوفيات ١٤/ ٤١.
وهو بلا نسبة في مقاييس اللغة ١/ ٢٦١ و٣/ ٤٧٢، وجمهرة اللغة ١/ ٢٢٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، واللسان، والتاج (بطح).

(٣) في المطبوع: يسكنون الغرف (؟!)، وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، وقوله: وجاء أهل الضواحي يشكون الغرق؛ قطعة من حديث الاستسقاء، ذكره بهذا اللفظ ابن هشام في سيرته ١/ ٢٨٠.

(٤) انظر غريب القرآن لابن قتيبة ٣٥٦، والنكت والعيون ٤/ ٤٤٥.

والظَّاهر أن قوله: «سيروا» أمرٌ حقيقةً على لسان أنبيائهم، وقال الزمخشري: ولا قولَ ثَمَّ، ولكنهم لمَّا مُكِّنوا من السَّير، وسُوِّيَت لهم أسبابُه؛ فكأنهم أُمروا بذلك، وأُذِن لهم فيه[١]. انتهى.

ودخول الفاء في قوله: فكأنهم لا يجوز، والصَّواب: كأنهم؛ لأنه خبر لكنهم.

وقال قتادة: كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان، ولو وجد الرجلُ قاتلَ أبيْه لم يُهِجْه، وكان المُسافرُ لا يأخذ زاداً ولا سِقاءً ممَّا بَسَط الله لهم من النِّعَم[٢].

وقال الزمخشري: سيروا فيها إنْ شئتُم بالليل، وإنْ شئتُم بالنَّهار، فإن الأمنَ فيها لا يَختلف باختلاف الأوقات. أو سيروا فيها آمِنينَ لا تخافون وإنْ تطاوَلَت مُدَّةُ أسفارِكم فيها، وامتدَّت أياماً ولياليَ. أو سيروا فيها ليالِيَكم وأيَّامَكم مُدَّةَ أعمارِكم، فإنكم في كلِّ حينٍ وزمان لا تَلْقَون فيها إلا الأمْنَ[٣]. انتهى.

وقدَّم الليالي لأنَّها مَظِنَّةُ الخوفِ من مُغتال[٤]، ومَنَّ عليهم بالأمن حتى ساوى الليلُ النهارَ في ذلك.

ولمَّا طالت بهم مدَّةُ النِّعمة بَطِروا، ومَلُّوا العافية، وطلبوا استبدالَ الذي هو أدنى بالذي هو خير كما فعلت بنو إسرائيل، وقالوا: لو كان جَنْيُ ثمرِنا أبعدَ كان أشهى وأغلى قيمةً، فتمنَّوا أن يجعلَ الله بينهم وبين الشام مَفاوِزَ ليَركبوا الرَّواحلَ فيها، ويَتَزوَّدوا الأزوادَ، فقالوا: «ربَّنا باعِد بين أسْفارِنا».

وقرأ جمهور السَّبعة: «ربَّنا» بالنَّصب على النِّداء «باعِد» طَلَب. وابن كثير وأبو عمرو وهشام كذلك إلا أنهم شدَّدوا العين[٥].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠، والطبري ١٩/ ٢٦٣-٢٦٤.

(٣) في المطبوع: إلا آمنين، والمثبت من النسخ، والكلام في الكشاف ٣/ ٢٨٦.

(٤) في المطبوع: لمن قال، بدل: من مغتال.

(٥) السبعة ٥٢٩، والتيسير ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

وقرأ ابن عباس وابن الحنفيَّة وعمرو بن فائد وابن يَعْمر: «ربُّنا» رفعاً «بَعَّد» فعلاً ماضياً مُشَدَّد العين[١].

وابن عباس أيضاً وابن الحنفية أيضاً وأبو رَجاء والحسن ويعقوب وأبو حاتم وزيد بن عليّ وابن يَعْمَر أيضاً وأبو صالح وابن أبي ليلى والكلبي ومحمد بن علي وسلّام وأبو حَيْوة كذلك إلا أنه بألف بين الباء والعين[٢].

وسعيد بن أبي الحسن أخو الحسن وابن الحنفية أيضاً وسفيان بن حسين وابن السَّمَيْفَع: «ربَّنا» بالنَّصب «بَعُدَ» بضمّ العين فعلاً ماضياً «بينَ» بالنَّصب، إلا سعيداً منهم فضمَّ نون «بينُ» جعله فاعلاً[٣]، ومَن نَصب فالفاعل ضميرٌ يعود على السَّيْر، أي: بَعُدَ السَّيْرُ بينَ أسفارنا.

فمَن نصب «ربَّنا» جعله نداءً، فإنْ جاء بعده طَلَبٌ كان ذلك أَشَراً منهم وبَطَراً، وإن جاء بعده فعلٌ ماضٍ[٤] كان ذلك شكوى مما حَلَّ بهم من بُعْدِ الأسفار التي طلبوها أولاً.

ومَنْ رفع «ربُّنا» فلا يكون الفعل إلا ماضياً، وهي جملةٌ خَبريَّةٌ فيها شكوى بعضِهم إلى بعض مما حلَّ بهم من بُعْدِ الأسفار.

ومن قرأ «باعِد» أو «بَعّد» بالألف أو التشديد فـ «بينَ» مفعول به لأنهما فعلان مُتعدِّيان، وليس «بين» ظرفاً، ألا ترى إلى قراءة مَن رفعه كيف جعله اسماً فكذلك إذا نصَب[٥].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٨٩، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠١.

(٢) النشر ٢/ ٣٥٠، والمحتسب ٢/ ١٨٩، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٢، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٥٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، وزاد المسير ٦/ ٤٤٩، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٠.

(٣) مختصر في الشواذ ١٢١، والمحتسب ٢/ ١٨٩، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، وزاد المسير ٦/ ٤٤٩، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠١.

(٤) في المطبوع: جاء بعد فعلاً ماضياً. وهذا خطأ.

(٥) قال السمين في الدر المصون ٩/ ١٧٦: إقراره على ظرفيته أولى ويكون المفعول محذوفاً...

وقُرئ: «بُوعد» مبنيًا للمفعول[١].

وقرأ ابن يَعْمَر: «بين سَفَرِنا» مُفرداً[٢]، والجمهور بالجمع.

«وظَلموا أنفُسَهم» عطفٌ على «فقالوا». وقال الكلبي: هو حال، أي: وقد ظلموا أنفُسَهم بتكذيب الرُّسُل.

«فَجَعَلْناهم أحاديثَ» أي: عِظاتٍ وعِبَراً يُتَحَدَّث بهم ويُتَمَثَّل. وقيل: لم يَبْقَ منهم إلا الحَديثُ، ولو بقي منهم طائفةٌ لم يكونوا أحاديث.

«ومَزَّقناهم كلَّ مُمَزَّق» أي: تفريقاً اتَّخذه الناسُ مَثَلاً مَضروباً، قال كُثَيِّر:

أيادي سَبا يا عَزَّ ما كنتُ بَعدَكم فلم يَحْلَ للعَينين بعدَكِ مَنْظَرُ[٣]

وقال قتادة: مَزَّقْناهم بالتَّباعُد. وقال ابن سَلام: جَعَلْناهم تُراباً تَذْرُوه الرِّياح[٤].

وقال الزمخشري: لحق غسَّان بالشام، وأنْمار بيَثْرِب، وجُذَام بتِهامَة، والأزْد بعُمان[٥].

وفي «التحرير»: وقع منهم قُضاعَةُ بمكة، وأسد بالبحرين، وخُزاعة بتِهامة.

وفي الحديث: إن سَبأ أبو عَشَرة قبائل، فلما جاء السَّيل على مأرِب ـ وهو

---

(١) في المطبوع: وقرئ بعد مبنياً للمفعول. وهذا خطأ وتصحيف، وذكر ابن خالويه في مختصر في الشواذ ١٢١ أن أبا معاذ حكى هذه القراءة وأجازها، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٤٩ إلى عاصم الجحدري وأبي عمران الجوني.
(٢) مختصر في الشواذ ١٢١.
(٣) البيت في ديوان كثير ٣٢٨ (تحقيق عباس)، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥١، والمقصور والممدود للقالي ٢٧٤، والكشاف ٣/ ٢٨٦، والمغني ٢٨٥، وشرح أبياته للبغدادي ٥/ ١٥٩.
(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٤٦.
(٥) الكشاف ٣/ ٢٨٦، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠، والطبري ١٩/ ٢٦٦-٢٦٧ من قول الشعبي ولفظه: أما غسان فقد لحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان. وهو كذلك في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٥٤، والماوردي ٤/ ٤٤٦، والقرطبي ١٧/ ٣٠١-٣٠٢.

اسم بلدهم ـ تيامن منها ستَّةُ قبائل؛ أي: تبدَّدَت في بلاد اليمن: كِنْدة والأَزْد وأشْعَر[١] ومَذْحِج وأنْمار التي منها بَجيلة وخَثْعَم، وطائفة قيل لها: حِمْيَر، بقي عليها اسمُ الأب الأول، وتشاءمت أربعة: لَخْم وجُذام وغَسَّان وخُزاعَة نزلت تِهامة، ومن هذه المتشائمة أولادُ قَيْلَة وهم الأوس والخَزْرَج، ومنها عامِلَة وغير ذلك[٢].

«إن في ذلك لآية» أي: في قَصَص هؤلاء «لَآية» أي: عَلامة «لكلِّ صَبَّارٍ» عن المعاصي وعلى الطاعات «شَكور» للنِّعَم.

والظاهر أن الضَّمير في «عليهم» عائدٌ على مَن قبلَه من أهل سَبأ، وقيل: هو لبني آدم[٣].

وقرأ ابن عباس وقتادة وطلحة والأعمش وزيد بن عليّ والكوفيُّون: «صَدَّق» بتشديد الدَّال[٤].

وانتصب «ظَنَّه» على أنه مفعول به بصَدَّق، والمعنى: وَجَد ظَنَّه صادقاً، أي: ظنَّ شيئاً فوقع ما ظَنَّ.

وقرأ باقي السَّبعة بالتخفيف. فانتصب «ظَنَّه» على المصدر، أي: يظنُّ ظَنًّا، أو على إسقاط الحرف، أي: في ظنِّه، أو على المفعول به نحو قولهم: أخطأتُ ظَنِّي وأصبتُ ظنِّي، وظنُّه هذا كان حين قال: لَأُضِلَّنَّهم ولَأُغْوِيَنَّهم[٥]، وهذا إنما قاله ظَنًّا منه فصَدَقَ هذا الظَّنُّ.

وقرأ زيد بن علي والزهري وجعفر بن محمد وأبو الجَهْجاه الأعرابيّ من

---

(١) في المطبوع: والسفر، تحريف.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، وأخرجه أحمد (٢٤٠٠٩/ ٨٧)، والترمذي (٣٥٠١)، والطبري ١٩/ ٢٤٥، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٧٩) من حديث فروة بن مُسيك الغطيفي.
(٣) تفسير الثعلبي ٥/ ١٥٥، والقرطبي ١٧/ ٣٠٣، وزاد المسير ٦/ ٤٥٠.
(٤) السبعة ٥٢٩، والتيسير ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠، وتفسير الطبري ١٩/ ٢٧٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٥٥، والقرطبي ١٧/ ٣٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧.
(٥) إشارة إلى الآيتين (٣٩) من سورة الحجر، و(١١٩) من سورة النساء.

فصحاء العرب وبلال بن أبي بُرْدة[١] بنصب «إبليسَ» ورفع «ظَنُّه»[٢] أسند الفعلَ إلى «ظَنّه» لأنه ظنَّ ظنًّا فصار ظنُّه في الناس صادقاً، كأنه صَدَّقه ظَنُّه ولم يُكَذِّبْه.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «إبليسُ ظَنُّه» برفعهما[٣]، فظنُّه بدلٌ من إبليس بدل اشتمال.

«فاتَّبعوه» أي: في الكُفر «إلا فريقاً» هم المؤمنون، و«من» لبيان الجنس، ولا يمكن أن تكون للتَّبعيض لاقتضاء ذلك أنَّ فريقاً من المؤمنين اتَّبعوا إبليس، وفي قوله: «إلا فريقاً» تقليلٌ لأن المؤمنين بالإضافة إلى الكُفَّار قليل، كما قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

«وما كان له» أي: لإبليسَ «عليهم من سُلطان» أي: من تَسَلُّطٍ واستيلاء بالوَسْوَسة والاسْتِغْواء[٤]، ولا حُجَّة إلا لحِكْمةٍ بَيِّنة؛ وهي تميُّز المؤمن بالآخرة من الشَّاكِّ فيها، وعَلَّل التَّسليطَ بالعلم والمُراد ما تعلَّق به العلم. قاله الزمخشري.

وقال ابن عطية[٥]: «إلا لنَعلَم» موجوداً؛ لأن العلم به مُتَقَدِّمٌ أوَّلاً. انتهى.

وقال معناه ابن قتيبة قال: لنَعلَمَ حادثاً كما عَلِمناه[٦] قبلَ حُدوثه.

وقال قتادة: ليَعلمَ الله به المؤمنَ من الكافر علماً ظاهراً يَستحقُّ به العقابَ والثَّواب.

وقيل: ليَعْلَم أولياؤنا وحِزْبُنا.

---

(١) في (أ ح د٢ ز٢ ع) والمطبوع: برزة، وفي (د٣): سعيد بدل برزة، والمثبت من (ت يه)، وهو موافق لما في المحرر الوجيز.

(٢) مختصر في الشواذ ١٢١، وإعراب القرآن ٣/ ٣٤٣، ومعاني القرآن ٥/ ٤١٣ كلاهما للنحاس، والمحتسب ٢/ ١٩١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٣ وعند جميعهم: وأبو الهجهاج.

(٣) مختصر في الشواذ ١٢١.

(٤) في المطبوع: والاستواء، وانظر الكلام في الكشاف ٣/ ٢٨٦.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٧.

(٦) في (يه): علمنا به. وانظر تأويل مشكل القرآن ٢٤٠.

وقال الحسن: والله ما كان له سَوْطٌ ولا سَيفٌ، ولكنه استَمالهم فمالوا بتَزْيينه[١]. انتهى. كما قال تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقرأ الزُّهري «إلا لِيُعْلَم» بضمِّ الياء وفتح اللام مبنيًّا للمفعول[٢].

وقال ابن خالويه: «إلا ليَعلَم مَن يؤمن» بالياء: الزُّهريّ[٣].

«وربُّك على كل شيء حَفيظ» إمَّا للمُبالَغة عَدل إليها عن حافِظ، وإمَّا بمعنى مُحافِظ، كجَليس وخليط. والحِفْظُ يتضمَّنُ العلمَ والقُدرة؛ لأن مَن جَهِل الشيءَ وعَجَز لا يُمكنه حِفْظٌ.

❋ ❋ ❋

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ
أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾
۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ
كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل
لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ
بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ
إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ

(١) انظر الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٢٧١، والثعلبي ٥/ ١٥٥، والقرطبي ١٧/ ٣٠٤، ٣٠٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧، وزاد المسير ٦/ ٤٥٠.

(٢) المحتسب ٢/ ١٩١، وزاد المسير ٦/ ٤٥٠، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٦.

(٣) مختصر في الشواذ ١٢٢. وكلمة: الزهري، ليست في المطبوع.

﴿٣٣ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٣٣﴾.

لمَّا بَيَّن حالَ الشَّاكرين وحالَ الكافرين، وذَكَّر قريشاً ومَن لم يؤمن بمَن مضى؛ عاد إلى خطابهم فقال: «قُلْ» يا محمد للمشركين الذين ضُرب لهم المَثَلُ بقصَّة سَبأ المعروفةِ عندهم بالنقل في أخبارهم وأشعارهم: «ادْعُوا الذين زَعَمْتُم» وهم مَعْبوداتهم من الملائكة والأصنام، وهو أمرٌ بدُعاءٍ هو تعجيزٌ وإقامةُ حُجّة.

ورُوي أن ذلك نزل عند الجوع الذي أصاب قريشاً[1]، أي: ادْعُوهم ليَكشِفوا عنكم ما حلَّ بكم، والتجؤوا إليهم فيما يَعِنُّ لكم.

وزعم من الأفعال التي تتعدَّى إلى اثنين إذا كانت اعتقاديَّة، والمفعول الأول هو الضمير المحذوف العائد على «الذين»، والثاني محذوف أيضاً لدلالة المعنى، ونابت صفتُهُ مَنابَه، التقدير: الذين زعمتموهم آلهةً من دونه، وحَسَّنَ حذفَ الثاني قيامُ صفته مقامَه، ولولا ذلك ما حَسُن؛ إذ في حذف أحد مفعولَي ظنَّ وأخواتها اختصاراً خلافٌ، منع ذلك ابن مَلَكون، وأجازه الجمهور[2]، وهو مع ذلك قليل. ولا يجوز أن يكون الثاني «من دونه»؛ لأنه لا يَستقلُّ كلاماً، لو قلت: هم من دونه لم يصحّ، ولا الجملة من قوله: «لا يَملكون مثقالَ ذَرَّةٍ» لأنه لو كانت هذه النِّسبةُ مَزْعومةً لهم لكانوا مُعتَرِفين بالحقّ قائلين له، وكان ذلك توحيداً منهم، وأن آلهتَهم ومَعبوداتهم لا يَملكون شيئاً باعترافهم.

ثم أخبر عن آلهتهم أنهم «لا يَملكون مثقالَ ذَرَّةٍ» وهو أحْقَرُ الأشياء، وإذا انتفى مُلكُ الأحقرِ عنهم فمُلكُ الأعظم أولى.

ثم ذكر مَقرَّ ذلك المثقال وهو السَّماوات والأرض، ثم أخبر أنهم ما لهم في السَّماوات ولا في الأرض من شِركة، فنفى نَوْعَي الملك الاستبداد والشَّرِكة.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٧.
(٢) انظر التذييل والتكميل ٦/ ١٤، وارتشاف الضرب ٤/ ٢٠٩٨.

ثم نفى الإعانةَ منهم له تعالى في شيءٍ ممّا أنشأ بقوله: «وما له منهم من ظَهِيْر» فبيَّن عَجْزَ مَعْبوداتهم من جميع الجهات.

ولمّا كان من العرب مَن يعبدُ الملائكة لتشفَعَ له نفى أنَّ شفاعتهم تنفع، والنَّفيُ مُنْسحِبٌ على الشفاعة، أي: لا شفاعةَ لهم فتَنْفعُ، وليس المعنى أنهم يَشفعون ولا تنفع شفاعتُهم، إذْ لا تقع من معبوداتهم شفاعةٌ أصلاً، لأن عابديهم كُفَّار، فإنْ كان المعبودون أصناماً أو كفَّاراً كفرعون فسَلْبُ الشَّفاعةِ عنهم ظاهر، وإنْ كانوا ملائكةً أو غيرَهم ممَّن عُبِد كعيسى عليه السلام فشفاعتُهم إذا وُجِدت تكون لمؤمن.

و«إلا لمَن أُذِن له» استثناء مُفَرَّغ، فالمُستثنى منه محذوف تقديره: ولا تَنفع الشفاعةُ لأحدٍ إلا لمَن أُذِن له.

واحتمل قوله: لأحدٍ أن يكون مَشْفوعاً له وهو الظَّاهر، فيكون قولُهُ: «إلا لمَن أُذن له» أي: إلا المَشْفوع أُذِن لأجله أن يُشْفَع فيه، والشَّافع ليس بمذكور، إنما دلَّ عليه المعنى.

واحتمل أن يكون شافعاً، فيكون قوله: «إلا لمَن أُذِن له» بمعنى إلا لشافع أُذِن له أنْ يَشفعَ، والمشفوع ليس بمذكور، إنما دلَّ عليه المعنى، وعلى هذا الاحتمال تكون اللام في «أذن له» لام التَّبليغ لا لام العِلَّة.

وقال الزمخشري: تقول: الشَّفاعةُ لزيد، على معنى أنه الشَّافع، كما تقول: الكَرَمُ لزيد، وعلى معنى أنه المَشْفوع له، كما تقول: القيامُ لزيد. فاحتمل قولُهُ: «ولا تَنفعُ الشَّفاعةُ عنده إلا لمَن أُذِن له» أن يكون على أحدِ هذين الوجهين؛ أي: لا تَنفعُ الشَّفاعةُ إلا كائنةً لمَن أُذِن له من الشَّافعين ومُطلقةً له، أو: لا تنفع الشَّفاعةُ إلا كائنةً لمَنْ أُذِن له، أي: لشفيعه. أو هي اللَّامُ الثانية في قولك: أُذِن لزيد لعمرو، أي: لأجله، فكأنه قيل: إلا لمَن وقع الإذنُ للشَّفيع لأجله، وهذا وَجْهٌ لطيف وهو الوَجْه، وهذا تكذيبٌ لقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨][(١)]. انتهى.

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٧.

فجعَل «إلا لمَن أُذن له» استثناءً مُفَرَّغاً من الأحوال؛ ولذلك قدَّره: إلا كائنةً، وعلى ما قرَّرناه استثناءٌ من الذَّوات.

وقال أبو عبد الله الرَّازي: المَذاهبُ المُفْضِيةُ إلى الشِّرك أربعة: قائل: إن الله خلقَ السَّماوات، وجعل الأرضَ والأرضيَّات في حُكمها، ونحن من جُملة الأرضيَّات فنعبدُ الكواكبَ والملائكةَ السَّماوية، وهم إلهنا[1] والله إلهُهم، فأبطل بقوله: «لا يَملكون» في السَّماوات كما اعترَفْتُم، ولا في الأرض خلافَ ما زَعمتُم.

وقائل: السَّماوات من الله استبداداً، والأرضيَّات منه بواسطة الكواكب؛ فإنه تعالى خلق العَناصرَ والتَّركيبات التي فيها باتِّصالات وحركات وطَوالع، فجعلوا مع الله شُركاءَ في الأرض، والأوَّلون جعلوا الأرضَ لغيره، فأبطل بقوله: «وما لهم فيهما من شِرْك» أي: الأرضُ كالسَّماء لله لا لغيره، ولا لغيره فيهما نَصيبٌ.

وقائل: التَّركيباتُ والحوادثُ من الله، لكن فَوَّض ذلك إلى الكواكب، وفعلُ المأذون يُنْسَب إلى الآذِن ويُسْلَب عن المأذون له فيه، جَعلوا السَّماوات مُعِينةً لله، فأبطل بقوله: «وما له منهم من ظَهير».

وقائل: نَعبدُ الأصنامَ التي هي صُوَر الملائكة ليَشْفعوا لنا، فأبطل بقوله: «ولا تنفعُ الشَّفاعةُ» الجملة.

و«أل» في «الشَّفاعةُ» الظَّاهرُ أنها للعموم، أي: شفاعةُ جميعِ الخلق، وقيل: للعَهْد، أي: شفاعةُ الملائكة التي زَعموها شُركاء وشُفعاء. انتهى وفيه بعضُ تلخيص[2].

وقال أبو البقاء: اللام في: «لمَن أُذن له» يجوز أنْ تتعلَّق بالشَّفاعة؛ لأنك تقول: شَفَعتُ له، وأنْ تَتعلَّق[3] بـ«تنفع». انتهى. وهذا فيه قِلَّة؛ لأن المفعولَ متأخِّر، فدُخول اللام عليه قليلٌ.

---

(١) في (د٣ يه): الأنبياء، تحريف، وفي التفسير الكبير ٢٥/ ٢٥٤: آلهتنا.
(٢) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٥٤-٢٥٥، وقوله: وأل في الشفاعة.. إلى آخر النص لم أقف عليه في تفسيره.
(٣) في المطبوع: تقول: أشفعت له وأنت تعلق، وانظر إملاء ما منّ به الرحمن ١/ ١٩٧.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: «أُذِن» بضمِّ الهمزة، وباقي السبعة بفتحها[١]، أي: أَذِن الله له.

والظاهر أن الضمير في قوله: «عن قلوبهم» عائدٌ على ما عادت عليه الضمائر التي للغَيبة في قوله: «لا يملكون» وفي «ومالهم، وماله منهم» وهم الملائكة الذين دَعَوْهم آلهةً[٢] وشُفعاء، ويكون التقدير: إلا لمَن أُذِن له منهم.

و«حتى» تدلُّ على الغاية، وليس في الكلام ما يدلُّ[٣] على أن حتى غايةٌ له؛ فقال ابن عطية: في الكلام حذفٌ يدلُّ عليه الظاهر، كأنه قال: ولا هم شُفَعاء كما تُحِبُّون أنتم، بل هم عَبَدةٌ أو مُسْلِمون[٤] أبداً يعني: مُنْقادون حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم.

قال: وتظاهرت الأحاديثُ عن رسول الله ﷺ أن قولَه: «حتى إذا فُزِّع عن قُلوبهم» إنما هي في الملائكة إذا سَمعت الوحيَ إلى جبريل، وبالأمر يأمرُ الله به، سَمعتْ كجرِّ سِلسلةِ الحديد على الصَّفْوان، فتَفْزَعُ عند ذلك تعظيماً وهيبةً، وقيل: خوفَ أنْ تقومَ السَّاعة، فإذا فُزِّع ذلك عن قلوبهم، أي: أُطِير الفَزَعُ عنها وكُشِف، يقول بعضُهم لبعض ولجبريل: ماذا قال ربُّكم؟ فيقول المسؤولون: قال الحقَّ وهو العليُّ الكبير[٥].

وبهذا المعنى من ذِكْر الملائكة في صدر الآيات تتَّسق هذه الآية على الأُولى. ومَن لم يَشْعر أن الملائكةَ مُشارٌ إليهم من أوَّل قوله: «الذين زَعَمْتُم» لم تتَّصل له هذه الآية بما قبلَها، فلذلك اضطربَ المفسِّرون في تفسيرها، حتى قال بعضهم: في

---

(١) السبعة ٥٢٩، والتيسير ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠ وهي قراءة خلف من العشرة.
(٢) في (يه): آلهتهم.
(٣) في المطبوع: الكلام غاية.
(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٨: كما تحسبون... مستسلمون.
(٥) انظر ما أخرج البخاري (٤٧٠١) و(٤٨٠٠)، والترمذي (٣٢٢٣)، وابن ماجه (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأبو داود (٤٧٣٨) من حديث ابن مسعود ﷺ، وابن أبي عاصم في السنة (٥١٥)، وابن خزيمة في التوحيد ١٤٤، والطبري ١٩/ ٢٨٧، والثعلبي ٥/ ١٥٦ من حديث النواس بن سمعان ﷺ.

الكُفَّار بعد حُلولِ الموت، ففُزِّع عن قلوبهم بفقْدِ الحياة، فرَأَوا الحقيقةَ، وزالَ فزَعُهم مما يُقال لهم في حياتهم، فيُقال لهم حينئذٍ: ماذا قال ربُّكم؟ فيقولون: قال الحقَّ، يُقِرُّون حين لا يَنْفَعهم الإقْرار. وقالت فرقة: الآية في جميع العالَم، وقوله: «حتى إذا» يريد في الآخرة[1].

والتأويل الأولُ في الملائكة هو الصَّحيح، وهو الذي تظاهرت به الأحاديثُ، وهذان بعيدان[2]. انتهى.

وإذا كان الضَّمير في «عن قلوبهم» لا يعودُ على «الذين زَعَمْتم» كان عائداً على مَن عاد عليه الضَّمير في قوله: «ولقد صَدَّق عليهم إبليسُ ظَنَّه فاتَّبعوه»، ويكون الضمير في «عليهم» عائداً على جميع الكُفَّار، ويكون «حتى» غاية لقوله: «فاتَّبعوه» ويكون التَّفْزيعُ حالةَ مُفارقةِ الحياة، أو يُجْعَل اتِّباعُهم إياه مُسْتَصْحباً لهم إلى يوم القيامة مَجازاً، والجملةُ بعدُ من قوله: «قُل ادْعوا» اعتراضيَّة بين المُغَيَّا والغاية.

قال ابن زيد: أَقَرُّوا بالله حين لم يَنْفَعْهم الإقرار[3]. فالمعنى: فَزَّع الشَّيطانُ عن قلوبهم، وفارقَهم ما كان يُضلُّهم[4] به «قالوا: ماذا قال ربُّكم».

وقال الحسن: وإنما يُقال للمشركين: «ماذا قال ربُّكم» أي: على لسان الأنبياء، فأقرُّوا حين لا يَنْفَع[5].

وقيل: «حتى» غاية مُتعلِّقة بقوله: «زعمتم» أي: زَعَمتُم الكفرَ إلى غاية التَّفْزيع، ثم تركتُم ما زعمتُم وقلتم: قال الحقَّ. انتهى. فيكون في الكلام التفاتٌ من خِطابٍ في «زعمتم» إلى غَيبة في «فُزِّع عن قلوبهم».

---

(١) انظر القولين في تفسير الطبري ١٩/ ٢٨١، والثعلبي ٥/ ١٥٧، والماوردي ٤/ ٤٤٨، والقرطبي ١٧/ ٣١١، وزاد المسير ٦/ ٤٥٣-٤٥٤.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٨.
(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٨١.
(٤) في المطبوع: يطلبهم.
(٥) لم نقف عليه.

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فإذا أُذِن لمَن أُذِن أنْ يَشْفَع فَزَّعَتْه الشَّفاعةُ»(١).

فعلى هذا يكون التقدير: إلا لمَن أُذِن له، فإذا أُذِن فَزِع ودام فَزَعُه(٢)، حتى إذا أُزيل التَّفْزيع عن قلوبهم قال بعضُ الشَّافعين من الملائكة لبعض الملائكة: ماذا قال ربُّكم في قَبول شَفاعتنا؟ فيُجيب بعضهم لبعض: «قال» أي: الله «الحقَّ» أي: القولَ الحقَّ وهو قَبولُ شفاعتهم؛ إذْ كان تعالى أَذِن لهم في ذلك ولا يأذن إلا وهو مُريدٌ لقَبول الشَّفاعة.

وقال الزمخشري: فإن قلت: بمَ اتَّصل قولُهُ: «حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم» ولأيِّ شيءٍ وقعتْ حتى غايةً؟ قلت: بما فُهم من هذا الكلام من أنَّ ثمَّ انتظاراً للإذن وتوقُّفاً وتمهُّلاً وفَزَعاً من الرَّاجين للشَّفاعة والشُّفَعاء، هل يؤذن لهم أو لا يؤذن، وأنه لا يُطلَق الإذنُ إلا بعد مَليٍّ من الزمان وطُولٍ من التَّرَبُّص، ومثل هذه الحال دلَّ عليه قوله عز من قائل: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٧-٣٨]، كأنه قيل: يَتَربَّصون ويتوقَّفون مليًّا فَزِعين وَهِلين، «حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم» أي: كُشِف الفَزَعُ من قلوب الشَّافعين والمشفوعِ لهم بكلمةٍ يتكلَّم بها ربُّ العزَّةِ في إطلاق الإذن؛ تباشروا بذلك، وسأل بعضُهم بعضاً «ماذا قال ربكم قالوا»: قال الحقَّ، أي: القولَ الحقَّ وهو الإذنُ بالشَّفاعة لمَن ارتضى(٣). انتهى.

وتلخَّص من هذا أن حتى غائية إما لمَنْطوق وهو «زَعَمْتُم» ويكون الضمير في «عن قلوبهم» التفاتاً وهو للكفار، أو هو «فاتَّبَعوه» وفيه تناسُقُ الضَّمائر لغائب، والفصلُ بالاعتراض، والضَّمير أيضاً للكفار، والضمير في «قالوا» للملائكة، وضمير الخطاب في «ربُّكم» والغائب في «قالوا» الثانية للكُفَّار، وإمَّا لمحذوف.

فما قَدَّره ابن عطية لا يصحُّ أن يُغَيَّا؛ لأن ما بعد الغاية مخالفٌ لما قبلَها، وهم عَبَدَةٌ منقادون دائماً، لا يَنفكُّون عن ذلك لا إذا فُزِّع عن قلوبهم، ولا إذا لم يُفَزَّع،

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٨، قال ابن حجر في تخريجه: لم أجده.
(٢) في المطبوع: وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: فإذا أذن فزع ودام فزعه.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٨٧-٢٨٨.

وحَمْلُ ذلك على الملائكةِ حالَ الوحي لا يُناسب الآية، وكونُ النبيِّ ﷺ في قصَّة الوحي قال: «فإذا جاءهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم» لا يدلُّ على أن هذه الآية في الملائكة حالةَ تكَلُّمِ الله بالوحي، والحديث رواه ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا تكلَّم الله عز وجل بالوَحْي سمع أهلُ السماء صَلْصَلَةً كجَرِّ السِّلسلة على الصَّفا، فيُصْعَقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريلُ عليه السلام، فإذا جاءهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربُّك؟ قال: فيقول: الحقَّ، فيُنادون: الحقَّ الحقَّ»[١].

وما قدَّره الزمخشري يَحتمل، إلا أن فيه تخصيصَ «الذين زَعَمْتُم من دونه» بالملائكة، والذين عَبَدوهم ملائكة[٢] وغيرهم، وتخصيصَ مَن أَذِن له بالملائكة أيضاً، والمأذون لهم في الشفاعة الملائكة وغيرهم، ألا ترى إلى ما حَكى رسول الله ﷺ في الشفاعة في قوله عزَّ وجلّ؟[٣]

وقرأ الجمهور: «فُزِّع» مُشدَّداً من الفَزَع مبنيًّا للمفعول، أي: أُطير الفَزَعُ عن قلوبهم، وفَعَّل تأتي لمعانٍ منها الإزالة وهذا منه، نحو: قَرَّدْتُ البعيرَ؛ أزلتُ القُرَادَ عنه.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وطلحة وأبو المُتَوكِّل النَّاجي وابن السَّمَيفع وابن عامر: «فَزَّع» مبنيًّا للفاعل من الفَزَع أيضاً[٤]، والضَّمير الفاعل في فَزَّع إنْ كان الضَّميرُ في «عن قلوبهم» للملائكة فهو الله، وإنْ كان للكفَّار فالضمير لمُغْوِيهم.

وقرأ الحسن «فُزِع» من الفَزَع بتخفيف الزَّاي مبنيًّا للمفعول[٥]، و«عن قلوبهم» في موضع رفعٍ به، كقولك: انْطُلِق بزيد.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣٨).
(٢) في (د٣): بالملائكة، وهما بمعنى.
(٣) بعدها في النسخ بياض قدر سطر، غير (يه).
(٤) السبعة ٥٣٠، والتيسير ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥١ وهي قراءة يعقوب من العشرة، ومعاني القرآن ٥/ ٤١٥، وإعراب القرآن ٣/ ٣٤٥ كلاهما للنحاس، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٨، وزاد المسير ٦/ ٤٥٢، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١١.
(٥) المحتسب ٢/ ١٩١، والكشاف ٣/ ٢٨٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١١.

وقرأ الحسن أيضاً وأبو المتوكّل أيضاً وقتادة ومجاهد: «فَرَّغ» مشدَّداً مبنيًّا للفاعل من الفَراغ[١].

وقرأ الحسن أيضاً كذلك إلا أنَّه خفَّف الرَّاء[٢].

وقرأ عبد الله بن عمر والحسن أيضاً وأيُّوب السّختيانيّ وقتادة أيضاً وأبو مِجْلَز: «فُرِّغَ» من الفَراغِ، مُشدَّد الرَّاء مبنيًّا للمفعول[٣].

وقرأ ابن مسعود وعيسى: «افْرُنْقِعَ عن قلوبهم»[٤] بمعنى: انكَشَف عنها، وقيل: تَفَرَّق.

وقال الزمخشري: والكلمةُ مُرَكَّبةٌ من حروف المُفارَقة مع زيادة العين، كما رُكِّب اقْمَطَرَّ من حروف القَمْطِ مع زيادة الرَّاء[٥]. انتهى.

فإنْ عَنى الزمخشري أن العين من حروف الزّيادة وكذلك الراء ـ وهو ظاهرُ كلامه ـ فليس بصحيح؛ لأن العين والرَّاء ليستا من حروف الزيادة، وإنْ عَنى أن الكلمة فيها حروف ما ذكروا زائداً إلى ذلك العين والراء، والمادَّةُ فَرْقَع وقَمْطَر؛ فهو صحيح، ولولا إيْهام ما قاله الزمخشري في هذه الكلمة لم أذكر هذه القراءة لمُخالفتها سَوادَ المصحف.

وقالوا أيضاً في قوله تعالى: «حتى إذا فُزِّع» أقوالاً غير ما سبق؛ قال كعب: إذا تكلَّم الله عز وجل بلا كيف ضَربت الملائكةُ بأجنحتها وخَرَّتْ فَزَعاً، قالوا فيما بينهم: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: الحقَّ، أي: مَقولةَ الحقِّ.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩١، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٩، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٩، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٢.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦١، وتفسير الطبري ١٩/ ٢٨٢، ومختصر في الشواذ ١٢٢، وإعراب القرآن ٣/ ٣٤٥، ومعاني القرآن ٥/ ٤١٦ كلاهما للنحاس، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٣، والمحتسب ٢/ ١٩٢، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٥٥، والقرطبي ١٧/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٨-٤١٩، وزاد المسير ٦/ ٤٥٢.

(٤) مختصر في الشواذ ١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٢، والكشاف ٣/ ٢٨٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٩.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٨٨.

وقيل: إذا دعاهم إسرافيلُ من قُبورهم قالوا مُجيبين: «ماذا» وهو من الفَزَع الذي هو الدُّعاء والاستصراخ، كما قال زهير:

إذا فَزِعوا طاروا إلى مُسْتَغيثِهم طِوالَ الرِّماحِ لا ضِعافٌ ولا عُزْلُ[1]

وقيل: هو فَزَعُ ملائكة أدنى السَّماوات عند نزول المُدَبِّرات إلى الأرض.

وقيل: لمَّا كانت الفترةُ بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلَّم، وبعث الله محمداً، أنزل الله جبريلَ بالوَحْي، فظَنَّت الملائكةُ أنه قد نزل شيءٌ من أمر السَّاعة، فصَعِقوا لذلك، فجعل جبريلُ يمرُّ بكلِّ سماءٍ، ويَكشف عنهم الفَزَعَ، ويُخبرهم أنه الوَحْي. قاله قتادة ومقاتل وابن السائب.

وقيل: الملائكة المُعَقِّبات الذين يَختلفون إلى أهل الأرض ويكتبون أعمالَهم، إذا أرسلَهم الله فانحدروا سُمِع لهم صوتٌ شديدٌ، فيَحْسَب الذين هم أسفلَ منهم من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيَخِرُّون سُجَّداً يُصْعَقون. رواه الضحاك عن ابن مسعود[2].

وهذه الأقوال والتي قبلها لا تكاد تُلائم ألفاظَ القرآن، فالله أسألُ أنْ يَرْزُقنا فَهْمَ كتابه.

وأقرَبُها عندي أن يكون الضَّمير في «قلوبهم» عائداً على مَن عاد عليه «اتَّبعوه، وعليهم، وممَّن هو منها في شكّ» وتكون الجملة بعد ذلك اعتراضاً، وقوله: «قالوا» أي: الملائكة لأولئك المتَّبعين الشَّاكِّين يسألونهم سؤالَ توبيخ: «ماذا قال ربُّكم» على لسان مَن بُعث إليكم بعد أن كُشِف الغِطاءُ عن قلوبهم؟ فيُقِرُّون إذْ ذاك أنَّ الذي قاله وجاءت به أنبياؤه هو الحقّ، لا الباطل الذي كنَّا فيه من اتِّباع إبليسَ وشَكِّنا في البعث.

و«ماذا» يحتمل أن تكون منصوبةً بـ «قال» أي: أيُّ شيء قال ربُّكم؟ وأنْ تكون في موضع رفع على أن ذا موصولة، أي: ما الذي قال ربكم، وذا خبره، ومعمول «قال» ضميرٌ محذوف عائدٌ على الموصول.

---

(١) ديوان زهير ١٠٢ (بشرح ثعلب)، وتفسير الماوردي ٤/٤٤٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٩/٢٨١، والثعلبي ٥/١٥٧، والقرطبي ١٧/٣١٠، وزاد المسير ٦/٤٥٣.

وقرأ ابن أبي عَبْلَة: «قالوا الحقُّ» برفع الحق خبر مبتدأ[١]، أي: مَقُولُه الحقّ.

«وهو العَليُّ الكبير» تنزيهٌ منهم له تعالى وتمجيدٌ.

ثم رَجع إلى خطاب الكفَّار فسألهم عمَّن يَرْزُقهم، مُحتجًّا عليهم بأن رازقَهم هو الله؛ إذْ لا يُمكن أن يقولوا إن آلهتَهم ترزُقهم وتسألهم[٢] أنهم لا يَملكون مثقالَ ذَرَّةٍ في السَّماوات ولا في الأرض، وأمره بأنْ يتولَّى الإجابةَ والإقرارَ عنهم بقوله: «قل الله» لأنهم قد لا يُجيبون حبًّا في العِناد، وإيثاراً للشِّرك. ومعلومٌ أنه لا جوابَ لهم ولا لأحدٍ إلا بأنْ يقول: هو الله.

«وإنَّا» أي: الموحِّدين الرَّازق العابديه «أو إيَّاكم» المشركين العابدين الأصنامَ والجَمادات «لَعلَى هُدًى» أي: طريقةٍ مُستقيمة «أو في» حَيْرةٍ واضحةٍ بَيِّنةٍ. والمعنى أن أحدَ الفريقَين منَّا ومنكم لعلى أحد الأمرين من الهُدى والضَّلال.

أخرج الكلامَ مَخرجَ الشكِّ والاحتمال، ومعلومٌ أن مَنْ عبد الله ووحَّدَه هو على الهُدى، وأن مَن عبد غيرَه من جَمادٍ أو غيرِه في ضَلال.

وهذه الجملة تضمَّنت الإنصافَ واللُّطفَ في الدَّعوة إلى الله، وقد عَلم مَن سَمعها أنها جُملةُ إنصاف، والرَّدُّ بالتَّوريةِ والتَّعريض أبلغُ من الرَّدِّ بالتَّصريح، ونحوَه قولُ العرب: أخزى الله الكاذبَ منّي ومنك، يقول ذاك مَن تَيَقَّن أن صاحبَه هو الكاذب، ونظيرُهُ قول الشاعر:

فأيِّي ما وأيُّك كان شرًّا ... فسِيقَ إلى المَقادَةِ في هَوانِ

وقال حسان:

أتهجوه ولستَ له بكُفْءٍ ... فشَرُّكُما لخيرِكما الفِداءُ[٣]

وهذا النوع يُسمَّى في علم البيان استدراجَ المخاطَب، يَذْكُر له أمراً يُسَلِّمه وإنْ كان بخلاف ما يُذكر حتى يُصغي إلى ما يلقيه إليه، إذْ لو بدأ به بما يَكره لم يُصْغِ،

---

(١) ذكرها دون نسبة الفراء ٢/ ٣٦٢، والزجاج ٤/ ٢٥٣، والنحاس ٣/ ٣٤٦، والزمخشري ٣/ ٢٨٨.

(٢) كذا في المطبوع، وفي (أ، ح): ويتسالهم، وفي (د٢ ز٢ يه ع د٣): ويتسالهم، وهي غير واضحة في (ت)، ولم أتبين معناها.

(٣) سلف البيتان في تفسير الآية (١٣٥) من سورة الأنعام.

ولا يزال يَنْقُله من حالٍ إلى حال حتى يَتبيَّن له الحقُّ ويَقبَلُه. وهُنا لما سَمعوا التَّردادَ بينه وبينهم ظَهر لهم أنه غيرُ جازمٍ أن الحقَّ معه، فقال لهم بطريق الاستدلال: آلهتُكم لا تملك مثقالَ ذَرَّة، ولا تنفع ولا تَضُرُّ لأنها جماد، وهم يعلمون ذلك، فتَحقَّقوا أنَّ الرَّازقَ لهم والنَّافعَ والضَّارَّ هو الله سبحانه.

وقيل: معنى الجملة استِنْقاصُ المشركين والاستهزاءُ بهم، وقد تَبَيَّنوا أن آلهتَهم لا ترزقهم شيئاً، ولا تنفعُ ولا تضرُّ، فأراد الله من نبيِّه وأمره أن يُوَبِّخَهم ويَسْتَنْقِصَهم، ويُكَذِّبَهم بقولٍ غير مكشوف؛ إذْ كان ذلك أبلغ في استنقاصهم، كقولك: إن أحدَنا لَكاذبٌ، وقد علمتَ أن مَن خاطبْتَ هو الكاذب، ولكنك وَبَّخْتَه بلفظٍ غيرِ مكشوف.

و«أو» هنا على مَوضوعها لكونها لأحد الشَّيئين أو الأشياء، وخبر «إنا أو إيَّاكم» هو «لعلى هُدى أو في ضلالٍ مُبين» ولا يحتاج إلى تقدير حذف إذ المعنى إنَّ أحدَنا لفي أحد هذين، كقولك: زيد أو عمرو في القصر أو في المسجد؛ لا يحتاج هذا إلى تقدير حذف إذْ معناه: أحد هذين في أحد هذين.

وقيل: الخبر محذوف، فقيل: خبر الأول، والتقدير: وإنَّا لعلى هُدى أو في ضَلالٍ مُبين، فحذف لدلالة خبر ما بعده عليه، فـ «لعلى هُدى أو في ضلال مُبين» المثبت خبر عن «أو إيَّاكم» إذْ هو على تقدير: إنَّ، ولكنها لما حُذفت انفصل الضَّمير. وقيل: خبر الثاني، والتَّقدير: أو إياكم لعلى هُدى أو في ضلالٍ مُبين، وحُذف لدلالة خبر الأوَّل عليه، وهو هذا المُثْبَت «لعلى هُدى أو في ضلال مبين» ولا حاجةَ لهذا التَّقدير من الحَذْف، لو كان ما بعد أو غير معطوفٍ بها نحو: زيد أو عمرو قائمٌ كان يحتاج إلى هذا التقدير، وأمَّا مع ما يَصْلُح أنْ يكون خبراً لأنَّ؛ لأنَّ اسمَها عُطف عليه بأو والخبر معطوف بأو فلا يحتاج إليه.

وذهب أبو عُبيدة إلى أنَّ «أو» بمعنى الواو[١]، فيكون من باب اللفِّ والنَّشر، والتقدير: وإنا لعلى هُدى وإيَّاكم في ضلالٍ مُبين، فأخبر عن كلٍّ بما ناسَبه. ولا حاجةَ إلى إخراج «أو» عن موضوعها.

---

(١) مجاز القرآن ٢/١٤٨.

وجاء في الهُدى بـ «على» لأنَّ صاحبه ذو استعلاء وتمَكُّنٍ مما هو عليه، يتصرَّف حيث شاء، وجاء في الضَّلال بـ «في» لأنه مُنْغَمِسٌ في حيرة مُرْتَبِكٌ فيها، لا يَدري أينَ يَتوجَّه.

«قلْ لا تُسألون عمَّا أجْرَمْنا» هذا أدْخَلُ في الإنصاف، وأبْلَغُ من الأوَّل، وأكثر تَلَطُّفاً واستدراجاً؛ حيث سَمَّى فعلَه جُرْماً كما يزعمون مع أنه مُثابٌ مَشْكور، وسَمَّى فعلَهم عَملاً مع أنه مَزْجورٌ عنه مَحْظُور.

وقد يُراد بـ «أجْرَمْنا» نسبة ذلك إلى المؤمنين دون الرسول؛ وذلك ما لا يكاد يَخْلو المؤمنُ منه من الصَّغائر، والذي تَعْمَلون هو الكفر، وما دونه من المعاصي الكبائر.

قيل: وهذه الآية مَنْسُوخةٌ بآية السَّيف[(١)].

«قلْ يَجْمع بيننا ربُّنا» أي: يومَ القيامة «ثم يَفْتَح» أي: يَحْكُم «بالحقِّ» بالعَدْل فيُدخِلُ المؤمنين الجنَّة، والكفَّارَ النَّار.

«وهو الفَتَّاح» الحاكم الفاصِلُ «العَليم» بأعمال العِباد، والفَتَّاح والعَليم صِفَتا مُبالغة، وهذا فيه تهديدٌ وتوبيخ؛ تقول لمَن نَصَحْتَه وخَوَّفتَه فلم يَقبل: سترى سوء عاقبةِ الأمرِ.

وقرأ عيسى: «الفاتحُ» اسم فاعل[(٢)]، والجمهور «الفَتَّاح».

«قلْ أَرونيَ الذين أَلْحَقْتُم به شُركاء» الظَّاهر أن أرى هنا بمعنى أعْلَم، فيتعدَّى إلى ثلاثة: الضمير للمُتكلّم هو الأول، و«الذين» الثاني، و«شُرَكاء» الثالث، أي: أروني بالحُجَّة والدَّليل كيف وَجْهُ الشَّرِكة، وهل يَمْلِكون مِثْقالَ ذَرَّة أو يَرْزُقونكم؟.

وقيل: هي رؤية بَصَر، و«شُرَكاء» نصب على الحال من الضَّمير المحذوف في «ألحقتم» إذْ تقديرُهُ: ألحقتموهم به في حال كونهم[(٣)] شُركاءَ له.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٩، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٤، وردّ ذلك ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٤٥٥.

(٢) مختصر في الشواذ ١٢٢.

(٣) في النسخ والمطبوع خلا (يه د٣): توهمه، والمثبت منهما، وانظر الدر المصون ٩/ ١٨٤.

قال ابن عطية: وهذا ضعيف لأن استدعاءَ رؤيةِ العين في هذا لا غَناءَ له[١]. انتهى.

وقال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى قوله: «أروني» وكان يراهم ويعرفهم؟

قلت: أراد بذلك أن يُرِيَهم الخطأَ العظيم في إلحاقِ الشُّرَكاء بالله، وأنْ يُقايسَ على أعينهم بينه وبين أصنامهم؛ ليُطلِعَهم على إحالةِ القياس إليه والإشراكِ به، و«كلَّا» رَدْعٌ لهم عن مذهبهم بعد ما كَسَره بإبطالِ المُقايسة؛ كما قال إبراهيم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧] بعدما حَجَّهم، وقد نَبَّه على تفاحُشِ غَلَطهم، وأنْ لم يَقْدُروا الله حَقَّ قَدْرِه بقوله: «هو الله العزيزُ الحكيم» كأنه قال: أين الذين ألحقتُم به شُرَكاء من هذه الصفات؟! وهو راجع إلى الله وحده، أو هو ضمير الشَّأن كما في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. انتهى[٢].

وقول ابن عطية: لأن استدعاء رؤية العين في هذا لا غَناء له، أي: لا نَفْعَ له؛ ليس بجيِّد، بل في ذلك تَبْكيتٌ لهم وتوبيخ، ولا يريد حقيقةَ الأمر، بل المعنى: إن الذين هم شُرَكاءُ لله على زَعْمكم هم ممَّن إن أَرَيْتموهم افتَضَحْتُم؛ لأنهم خَشَبٌ وحَجَر وغير ذلك من الجَماد، كما تقول للرجل الخَسيسِ الأصلِ: اذْكُر لي أباك الذي قايَسْتَ به فلاناً الشَّريفَ، ولا تُريد حقيقةَ الذِّكر، وإنما أردْتَ تَبْكيتَه، وأنه إنْ ذكر أباه افتَضَح.

و«كافّة» اسم فاعل من كَفَّ، وقيل: مصدر كالعاقِبَة والعافِية، فيكون على حذف مُضاف، أي: إلا ذا كافّة، أي: ذا كَفٍّ للناس، أي: مَنْعٍ لهم من الكفر، أو ذا مَنْعٍ من أن يَشُذُّوا عن تَبْليغِك.

وإذا كان اسم فاعل فقال الزجَّاج وغيرُهُ: هو حالٌ من الكاف في «أرْسَلْناك» والمعنى: إلا جامعاً للناس في الإبلاغ[٣]، والكافَّة بمعنى الجامع، والهاء فيه للمُبالغة كهي في عَلَّامة وراوية.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٨٩-٢٩٠.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٤، وعنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٧، والزمخشري ٣/ ٢٩٠، والقرطبي ١٧/ ٣١٥.

وقال الزمخشري: إلا إِرْسَالةً عامَّةً لهم مُحيطةً بهم؛ لأنها إذا شَمِلَتْهم فقد كَفَّتْهم أن يَخرُجَ منها أحدٌ منهم.

قال: ومَن جعله حالاً من المجرور مُتقدِّماً عليه فقد أخطأ؛ لأن تقدُّمَ حالِ المجرور عليه في الإحالَة بمنزلة تقدُّم المجرور على الجار، وكم ترى ممَّن يَرتكب هذا الخطأ ثم لا يَقْنَع به حتَّى يَضُمَّ إليه أن يجعلَ اللام بمعنى إلى؛ لأنه لا يستوي له الخطأُ الأوَّل إلا بالخطأ الثاني فلا بُدَّ له من ارتكاب الخطأين[1]. انتهى.

أمَّا «كافَّة» بمعنى عامَّة فالمنقول عن النّحويّين أنها لا تكون إلا حالاً، ولم يُتَصَرَّف فيها بغير ذلك، فجَعْلُها صفةً لمصدرٍ محذوف خروجٌ عما نَقَلوا، ولا يُحفظ أيضاً استعمالُها صفةً لموصوفٍ محذوف.

وأما قول الزجَّاج إن «كافَّةً» بمعنى جامعاً والهاء فيه للمبالغة؛ فإن اللغة لا تُساعِدُ على ذلك؛ لأن كفَّ ليس بمحفوظ أن معناه جَمَع.

وأمَّا قولُ الزمخشري: ومَن جَعَله حالاً... إلى آخره؛ فذلك مُخْتَلَفٌ فيه، ذهب الأكثرون إلى أنَّ ذلك لا يجوز، وذهب أبو علي وابن كَيْسان وابن بَرْهان، ومن مُعاصِرينا ابنُ مالك إلى أنه يجوز، وهو الصَّحيح[2]، ومن أمثلة أبي علي: زيدٌ خيرَ ما تكون خيرٌ منك، التقدير: زيدٌ خيرٌ منك خيرَ ما تكون، فجعل خيرَ ما تكون حالاً من الكاف في منك، وقدَّمها عليه، وقال الشاعر:

إذا المرءُ أعْيَتْه المروءةُ ناشئاً فمَطْلَبُها كَهْلاً عليه شَديدُ[3]

أي: فمَطْلَبُها عليه كَهْلاً شديدُ. وقال آخر:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٠.

(٢) انظر أمالي ابن الشجري ٣/ ١٥-١٦، وشرح الكافية للرضي ٢/ ٦٧ (المكتبة التوفيقية)، وشرح التسهيل ٢/ ٣٣٧، وشرح الكافية الشافية ٢/ ٧٤٤، وشرح اللمع لابن برهان ١/ ١٣٧، وشرح ابن عقيل ١/ ٦٤١، وارتشاف الضرب ١٥٧٩.

(٣) نسب البيت إلى رجل من بني قُرَيْع، وللمَعْلوط بن بُدَيْل القُرَيْعي، وللمُخَبَّل السَّعدي، ولسُوَيد بن خَذّاق، ولعبد الرحمن بن حسان، انظر حماسة أبي تمام ١١٤٨ (بشرح المرزوقي)، و٣/ ٨٨ (بشرح التبريزي)، وعيون الأخبار ١/ ٢٤٦-٢٤٧، والحماسة البصرية ٩٣٨، والمنتخب المنسوب إلى الثعالبي ١/ ٢٥٣، وشرح الشافية الكافية ٢/ ٧٤٦، وخزانة الأدب ٣/ ٢١٩.

تَسَلَّيْتُ طُرًّا عنكمُ بعدَ بَيْنِكم بذِكْراكُمُ حتى كأنَّكمُ عندي

أي: تَسَلَّيْتُ عنكم طُرًّا، أي: جميعاً.

وقد جاء تقديمُ الحالِ على صاحبها المجرور، وعلى ما يتعلَّق به، ومن ذلك قولُ الشاعر:

مَشْغوفَةً بك قد شُغِفْت وإنما حُتِمَ الفِراقُ فما إليك سَبيلُ[1]

وقال آخر:

غافِلاً تَعْرِضُ المنيَّةُ للمَرْ ءِ فيُدْعَى ولاتَ حينَ إباءِ[2]

أي: شُغِفَت بك مَشْغوفةً، وتعرِضُ المَنِيَّةُ للمرء غافِلاً.

وإذا جاز تقديمُها على المجرور والعامل فتقديمُها عليه دون العامل أجْوَز.

وعلى أن «كافَّة» حالٌ من الناس حَمَله ابن عطية وقال: قُدِّمَت للاهتمام[3]. والمنقول عن ابن عباس قولُهُ: أي: إلى العَرَب والعَجَم وسائر الأُمم، وتقديره: إلى الناس كافَّة. انتهى[4].

وقول الزمخشري: وكم تَرى ممَّن يرتكبُ هذا الخطأ... إلى آخر كلامه تَشْنيعٌ، لأن قائلَ ذلك لا يحتاجُ إلى أنْ يتأوَّلَ اللام بمعنى إلى، لأن أرسل يَتعدَّى بإلى ويتعدَّى باللام، كقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]. ولو تأوَّل اللام بمعنى إلى لم يكن ذلك خطأً؛ لأن اللامَ قد جاءت بمعنى إلى، وإلى قد جاءت بمعنى اللام، وأرسل مما جاء مُتعدِّياً بهما إلى المجرور.

ثمَّ حكى تعالى مقالَتَهم في الاستهزاء بالبَعْث، واستعجالِهم على سبيل التَّكذيب، ولم يُجابوا بتَعْيين الزَّمان إذْ ذاك مما انْفَرد تعالى بعلمه، بل أُجيبوا بأنَّ

(١) البيت والذي قبله في شرح التسهيل لابن مالك ٢/ ٣٣٨، ٣٣٩.
(٢) شرح التسهيل ٢/ ٣٣٨، وشرح الكافية الشافية ٢/ ٧٤٦، وشرح عمدة الحافظ ١/ ٣١٤ جميعها لابن مالك.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٠.
(٤) من قوله: والمنقول عن ابن عباس... إلى هنا لم نقف عليه في مطبوع المحرر الوجيز.

ما وُعدوا به لا بُدَّ من وقوعه؛ وهو ميعادُ يوم القيامة. وتقدَّم الكلامُ على مثل هذه الجملة[١].

ويجوز أنْ يكونَ سؤالُهم عما وُعدوا به من العذابِ في الدُّنيا، واستَعْجَلوا به استهزاءً منهم.

وقال أبو عُبيدة: الوَعْدُ والوعيد والميعادُ بمعنى[٢].

وقال الجمهور: الوَعْدُ في الخير والوَعيد في الشرِّ، والمِيعاد يقعُ لهذا ولهذا[٣].

والظاهر أن الميعاد اسمٌ على وزن مِفْعال استُعمل بمعنى المَصْدر، أي: قل: لكم وُقوعُ وَعْدِ يومٍ ونَجْزُه.

وقال الزمخشري: الميعادُ ظَرْفُ الوَعْدِ من مكانٍ أو زمان، وهو هاهُنا الزمان، والدَّليل عليه قراءةُ مَن قرأ: «ميعادٌ يومٌ» فأبدل منه اليوم[٤]. انتهى.

ولا يتعيَّن ما قال؛ إذْ يكون بَدَلاً على تقدير محذوف، أي: قل لكم ميعادٌ ميعادُ يومٍ، فلمَّا حُذف أُعرب ما قام مقامه بإعرابه.

وقرأ الجمهور: «ميعادُ يومٍ» بالإضافة.

ولما جعل الزمخشري الميعادَ ظَرْفَ زمانٍ قال: أما الإضافة فإضافةُ تبيين، كما تقول: سَحْقُ ثوبٍ وبَعيرُ سانيةٍ[٥].

وقرأ ابن أبي عَبْلَة واليزيدي: «ميعادٌ يوماً» بتنوينهما[٦].

قال الزمخشري: وأمَّا نصبُ اليوم فعلى التَّعظيم بإضمار فعلٍ تقديرُهُ: لكم

(١) في تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.
(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٤٩.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٠.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٠، وذكر القراءة الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٢ دون نسبة.
(٥) السحق: الثوب البالي، وإضافته للبيان، والسانية: البعير الذي يسقى عليه الماء.
(٦) مختصر في الشواذ ١٢٢، وذكرها الفراء ٢/ ٣٦٢، والزمخشري ٣/ ٢٩٠، وانظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨.

ميعادٌ، أعني يوماً، وأريد يوماً من صِفته كيتَ وكيت، ويجوز أن يكون الرَّفعُ على هذا، أعني: التعظيم[١]. انتهى.

لما جَعَل الميعادَ ظرفَ زمانٍ خرج النَّصب والرَّفع على ذلك.

ويجوز أن يكون انتصابُهُ على الظَّرف على حذف مُضاف، أي: إنجازُ وعدٍ يوماً من صفته كيتَ وكيتَ.

وقرأ عيسى: «ميعادٌ» مُنَوَّناً «يومَ» بالنصب من غير تنوين مضافاً إلى الجملة[٢]. فاحتمل تخريجُ الزمخشري على التعظيم، واحتمل تخريجُنا على الظَّرف على حذف مضاف، أي: إنجازُ وَعْدٍ يومَ كذا.

وجاء هذا الجوابُ على طريق التَّهديد مُطابقاً لمجيْءِ السؤالِ على سبيل الإنكارِ والتَّعَنُّت، وأنهم مُرْصَدون بيومٍ يُفاجئهم فلا يستطيعون تأخُّراً عنه ولا تقدُّماً عليه.

واليوم: يومُ القيامة، وهو السَّابق إلى الذِّهن، أو يوم مَجيْءِ أجَلِهم عند حُضور مَنيَّتهم، أو يوم بدر. أقوال[٣].

و«لن نؤمن بهذا القرآن» يعني الذي تضمَّن التَّوحيدَ والرسالةَ والبعثَ المتقدِّم ذكرُها فيه.

«ولا بالذي بين يديه» هو ما نُزِّل من كُتُب الله المبشِّرة برسول الله، يُروى أن كُفَّارَ مكَة سألوا أهلَ الكتاب، فأخبروهم أنهم يَجدون صفةَ رسول الله ﷺ في كتبهم، فأغضَبهم ذلك، وقَرَنوا إلى القرآن ما تَقَدَّمَه من كتب الله في الكُفْر[٤]. ويكون الذين كفروا مُشْركي قريش ومَن جَرى مَجْراهم.

والمشهور أن «الذي بين يديه» التوراةُ والإنجيل، وما تقدَّم من الكُتب، وهو مرويٌّ عن ابن جُرَيج. وقالت فرقةٌ: «الذي بين يديه» هي القيامة. قال ابن عطية:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٠، وفي المطبوع: ويجوز أن يكون انتصابه على حذف مضاف ويجوز أن يكون الرفع على هذا للتعظيم.
(٢) مختصر في الشواذ ١٢٢ (وفيه تصحيف)، وانظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨.
(٣) تفسير الماوردي ٤/ ٤٥١، وزاد المسير ٦/ ٤٥٦، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٥.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٠.

وهذا خطأٌ، قائلُه لم يفهم أمرَ بينِ اليَدِ في اللغة، وأنه المُتقدِّمُ في الزَّمان، وقد بَيَّنَّاه فيما تقدَّم[١]. انتهى.

«ولو ترى إذِ الظَّالمون» أخْبَرَ عن حالهم في صِيغة[٢] التَّعَجُّب منها. وترى في معنى رأيتَ لإعمالها في الظَّرف الماضي، ومفعول ترى محذوف، أي: حالَ الظَّالمين إذْ هم مَوقوفون.

وجواب لو محذوف، أي: لرأيتَ لهم حالاً[٣] مُنْكَرَةً من ذُلِّهم وتَخاذُلِهم وتَحاوُرِهم؛ حيث لا يَنْفعُهم شيءٌ من ذلك.

ثم فَسَّر ذلك الرُّجوع والجَدَل بأنَّ الأتباع - وهم «الذين استُضْعِفوا»- قالوا لرؤسائهم على جهةِ التَّذْنيب والتوبيخ ورَدِّ اللَّائِمةِ عليهم: «لولا أنتم لكنَّا مؤمنين» أي: أنتم أغويْتُمونا وأمرْتمونا بالكُفر.

وأتى الضميرُ بعد «لولا» ضميرَ رفعٍ على الأفصح. وحكى الأئمة سيبويه والخليل وغيرُهما مَجيئه بضميرِ الجرِّ نحوَ: لولاكم، وإنكار المبرِّد ذلك لا يُلْتَفَتُ إليه[٤].

ولمَّا كان مَقاماً استوى فيه المَرْؤوس والرَّئيس بدأ الأتباعُ بتوبيخ مُضِلِّيهم إذْ زالت عنهم رئاستُهم، ولم يُمكنْهم أن يُنكروا أنهم[٥] ما جاءهم رسولٌ، بل هم مُقِرُّون، ألا ترى إلى قول المَتْبوعين: «بعد إذْ جاءكم»؟ فالجميع مُقِرُّون بأنَّ الذِّكرَ قد جاءهم.

فقال لهم رؤساؤهم: «أنحن صَدَدْناكم؟» فأتَوا بالاسم بعد أداة الاستفهام إنكاراً لأنْ يكونوا هم الذين صَدُّوهم، بل صَدَدْتُم من قِبَل أنفسكم وباختياركم،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢١، وانظر تفسير الطبري ١٩/ ٢٨٩، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨، والنكت والعيون ٤/ ٤٥١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٦، والكشاف ٣/ ٢٩٠.
(٢) في المطبوع: صفة.
(٣) في (د٣ يه): حالة، وهما بمعنى.
(٤) انظر الكتاب ٢/ ٣٧٣، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ١١٨، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٧٦، ٢/ ٥١٢، والإنصاف ٥٤٨ (الخانجي)، والكامل ١٢٧٧، والمقتضب ٣/ ٧٣.
(٥) في (د٣ يه): أنه.

كأنهم قالوا: أنحن أجْبَرناكم وحُلْنا بينكم وبين الذِّكر بعد أنْ صَمَّمْتُم على الدُّخول في الإيمان؟! بل أنتم منعتُم أنفُسَكم حظَّها، وآثَرْتُم الضَّلالَ[1] على الهُدى، فكنتم مُجرِمين كافرين باختياركم، لا لِقولنا وتَسْويلنا.

ولما أنكر رؤساؤهم أنهم السَّببُ في كُفْرهم، وأثبتوا بقولهم: «بل كنتم مُجرمين» أنَّ كُفْرَهم هو من قِبَل أنفُسهم؛ قابلوا إضْراباً بإضراب، فقال الأتباع: «بلْ مَكْرُ اللَّيلِ والنَّهار» أي: ما كان إجْرامُنا من جِهتِنا، بل مَكْرُكم لنا دائماً، ومُخادَعَتُكم لنا ليلاً ونهاراً «إذْ تأمُروننا» ونحن أتْباعٌ لا نَقْدِرُ على مُخالَفتِكم، مُطيعون لكم لاستيلائكم[2] علينا بالكُفر بالله، واتِّخاذِ الأنْداد.

وأُضيف المَكْرُ إلى الليل والنهار؛ اتّسع في الظَّرفَين، فهما في مَوْضعِ نصْبٍ على المفعول به على السَّعَةِ، أو في موضع رفعٍ على الإسناد المَجازيّ، كما قالوا: ليلٌ نائم.

والأوْلى عندي أن يرتفع «مَكْرُ» على الفاعليَّة، أي: بلْ صَدَّنا مَكرُكم بالليل والنَّهار، ونظيرُهُ قولُ القائل: أنا ضربتُ زيداً، بل ضربه عمرو، بل ضربه غُلامُك، والأحسن[3] في التَّقدير أن يكون المعنى: بل ضَربه غُلامُك.

وقيل: يجوز أن يكون مبتدأً وخبراً، أي: سببُ كُفْرِنا مَكْرُكم، أو مَكْرُكم سببُ كُفْرِنا.

وقرأ قتادة ويحيى بن يَعْمَر: «بل مَكْرٌ» بالتنوين «الليلَ والنَّهارَ» نصبٌ على الظَّرف[4].

وقرأ سعيد بن جُبير وجعفر بن محمد وأبو رَزين وابن يَعْمر أيضاً بفتح الكاف

---

(١) في المطبوع: وباختياركم بعد أداة الاستفهام كأنهم قالوا... بعد أن هممتم على الدخول.. وآثرتم الضلالة. وانظر الكشاف ٣/ ٢٩٠-٢٩١.

(٢) في (د٣ يه): بالاستيلاء بكم، والمثبت من سائر النسخ.

(٣) في (د٣ يه): فالأحسن، وهما سواء.

(٤) مختصر في الشواذ ١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢١، وزاد المسير ٦/ ٤٥٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٨.

وشذَّ الراء مرفوعة مضافة[١]، ومعناه: كُرورُ الليل والنهار واختلافُهما، ومعناها الإحالةُ على طول الأمَل، والاغترارُ بالأيام مع أمر هؤلاء الرؤساء بالكفر بالله.

وقرأ ابن جُبير أيضاً وطلحة وراشد القارئ ـ وراشد هذا من التَّابعين ممَّن صَحَّح المصاحفَ بأمر الحجَّاج ـ كذلك، إلا أنهم نَصبوا الرَّاء على الظَّرف[٢]، وناصبُه فعلٌ مُضْمَر، أي: صَدَدْتمونا مَكَرَّ الليل والنَّهار، أي: في مَكَرِّهما، ومعناه دائماً.

وقال صاحب «اللَّوامح» يجوز أن ينتصب بـ «إذْ تأمروننا» أي: إذْ تأمروننا مَكَرَّ الليلِ والنهار. انتهى.

وهذا وَهْم، لأن ما بعد «إذْ» لا يعمل فيما قبلها.

وقال الزمخشري: بل يكون الإغواءُ مَكَرّاً دائباً لا يَفترون عنه[٣]. انتهى.

وجاء «قال الذين استكبروا» بغير واو لأنه جوابٌ لكلام المُسْتَضعَفين فاستؤنف، وعطف «وقال الذين استُضعِفوا» على ما سبق من كلامهم. والضَّمير في «وأسَرُّوا» للجميع المُسْتكبِرين والمُسْتضعَفين، وهم الظَّالمون المَوْقوفون.

وتقدَّم الكلامُ في «وأسَرُّوا النَّدامَةَ لمَّا رَأَوُا العذاب» في سورة يونس[٤].

والنَّدامة من المعاني القلبيَّة فلا تَظْهَر، إنما يَظْهر ما يدلُّ عليها، وما يدلُّ عليها غيرُها. وقيل: هو من الأضداد[٥].

---

(١) مختصر في الشواذ ١٢٢، ومعاني القرآن ٥/ ٤١٩، وإعراب القرآن ٣٤٩ كلاهما للنحاس، والمحتسب ٢/ ١٩٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٨.

(٢) مختصر في الشواذ ١٢٢، ومعاني القرآن ٥/ ٤١٩، وإعرابه ٣/ ٣٤٩، والمحتسب ٢/ ١٩٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٩، وزاد ابن الجوزي ٦/ ٤٥٨ نسبتها إلى أبي الجوزاء وعاصم الجحدري.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩١ وفيه: تكرون الإغواء... تفترون عنه.

(٤) في الآية (٥٤) منها.

(٥) يعني فعل أسروا بمعنى أظهروا، انظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٠، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٦٠، والكشاف ٣/ ٢٩١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٩، والأضداد لابن الأنباري ٤٥، ولأبي الطيب اللغوي ٢٢٨.

وقال ابن عطية هنا: لم يَثْبُت قطُّ في لغة أنَّ أسرَّ من الأضداد[١].

ونَدامةُ الذين استكبروا على ضَلالهم في أنفسهم وإضلالِهم غيرَهم، ونَدامةُ الذين استُضعِفوا على ضَلالهم واتِّباعهم المُضِلِّين.

«وجَعَلْنا الأغلالَ في أعناق الذين كفروا» الظَّاهر عموم الذين كفروا، فيَدخل فيه المستكبِرون والمُسْتَضعَفون؛ لأن من الكفار مَن لا يكون له أتباع تُراجِعُهُ القولَ في الآخرة، ولا يكون أيضاً تابعاً لرئيسٍ له كافر، كالغلام الذي قتلَه الخَضِر.

وقيل: «الذين كفروا» هم الذين سَبقت منهم المُحاوَرَة، وجعلُ الأغلالِ إشارةٌ إلى كيفيَّةِ العذاب، قَطَعوا بأنهم واقعون فيه فتركوا التَّنَدُّم.

«هل يُجْزَون» معناه النَّفي، ولذلك دخلت إلا بعد النَّفْي.

* * *

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟
نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ
ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ
يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا
مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ
إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾.

«وما أرسلنا» الآية، هذه تَسْليةٌ لرسول الله ﷺ مما مُني به من قومه قُريش من

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢١.

الكُفْر، والافتخار بالأموال والأولاد، وأنَّ ما ذكروا من ذلك هو عادةُ المُتْرَفِين مع أنبيائهم، فلا يَهُمَّنَّك أمرُهم.

و«من نذير» عامٌّ، أي: تُنذرهم بعذاب الله إن لم يُوَحِّدوه.

و«قال مُتْرَفوها» جملةٌ حاليَّة. ونصَّ على المُتْرَفين لأنهم أولُ المكذِّبين للرُّسُل؛ لما شُغلوا به من زخرفة الدُّنيا، وما غَلب على عقولهم منها، فقلوبُهم أبداً مَشْغولةٌ مُنْهَمِكة، بخلاف الفُقراء فإنهم خالون من مُسْتَلَذَّات الدُّنيا، فقلوبُهم أقْبَلُ للخير، ولذلك هم أتباعُ الأنبياء كما جاء في حديث هِرَقْل(١).

و«بما» مُتعلِّق بـ «كافرون» و«به» متعلّق بـ «أُرْسِلْتم» و«ما» عامَّةٌ في ما جاءت به النُّذُر من طَلَب الإيمان بالله، وإفرادِه بالعبادة، والإخبارِ بأنهم رُسُله إليهم، والبعث والجزاء على الأعمال.

والظاهر أن الضَّمير في «وقالوا» عائدٌ على المُتْرَفين. وقيل: عائدٌ على قريش، ويدلُّ عليه ما بعدَه من الخطاب في قوله: «قل» لأن مَن تَقَدَّم من المُتْرَفين الهالِكين لا يُخاطَبون، فلا يقول إلا الموجودون، وقوله: «وما أموالُكم ولا أولادُكم».

واحتجُّوا على رِضى الله عنهم بإحسانه تعالى إليهم، فلو لم نَكْرُم عليه ما وسَّع علينا، وأما أنتم فلِهَوانِكم عليه حَرَمكم أيها التَّابعون للرُّسل.

ثم نَفَوا أن يُعَذَّبوا نفياً عامَّاً؛ لأنَّ الأنبياء قد يُنذِرون بعذابٍ عاجلٍ في الدُّنيا، وآجِلٍ في الآخرة، فنَفَوا هم جميعَ ذلك، فإمَّا أن يكونوا مُنْكِرين للآخرة فقد نَفَوا تعذيبهم فيها، لأنها إذا لم تكن فلا يكون فيها عذاب، وإمَّا أن يكونوا مُقِرِّين بها حقيقةً أو على سبيل الفَرْض، فيقولون: كما أنعم علينا في الدُّنيا يُنعم علينا في الآخرة، قاسوا حالةَ الآخرة على حالةِ الدُّنيا قياساً فاسداً، فأبطل الله ذلك بأنَّ الرزقَ فَضْلٌ منه يَقسمُه كما يشاء لمَن يشاء، فقد يُوَسّع على العاصي ويُضَيِّق على

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس ﷺ، وفيه أن هرقل سأل أبا سفيان عن النبي ﷺ، ثم قال: وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

الطَّائع، وقد يُوسِّع على الطائع ويُضَيِّق على العاصي، وقد يُوَسِّع عليهما، وقد يُضيِّق عليهما، والوجود شاهدٌ بذلك، فلا تُقاس التَّوسِعَةُ في الآخرة على التَّوسِعَةِ في الدنيا لأن ذلك في الآخرة إنما هو على الأعمال الصَّالحة.

وقرأ الأعمش: «ويُقَدِّر»[1] في الموضعين مُشَدَّداً، والجمهور مُخفَّفاً. ومعناه: ويُضَيِّق مقابل يَبْسُط.

«ولكنَّ أكثرَ الناسِ» مثلَ هؤلاء الكَفَرة؛ لا يعلمون أن الرِّزقَ مَعْذوقٌ بالمشيئة، وليس دليلاً على الرِّضى.

ثمّ أخبر تعالى أن أموالَهم وأولادَهم التي افتخروا بها ليست بمُقَرِّبةٍ من الله، وإنّما يُقَرِّب الإيمانُ والعملُ الصَّالح.

وقرأ الجمهور: «بالتي» وجَمْعُ التكسير من العُقلاء وغيرهم يجوز أن يُعامَلَ معاملةَ الواحدة المؤنَّثة.

وقال الزمخشري: ويجوز أن تكون «التي» هي التَّقوى، وهي المُقَرِّبة عند الله زُلْفى وحدَها، أي: ليست أموالكم بتلك الموضوعة للتقريب[2]. انتهى.

فجعل «التي» نَعتاً لموصوفٍ محذوف وهي التَّقوى، ولا حاجةَ إلى تقدير هذا الموصوف[3].

والظاهر أن التي راجعٌ إلى الأموال والأولاد. قاله الفرَّاء[4].

وقال أيضاً هو والزجَّاج: حُذف من الأوّل لدلالة الثاني عليه، والتقدير: وما أموالُكم بالتي تُقَرِّبُكم عندنا زُلْفى، ولا أولادُكم بالتي تُقَرِّبُكم عندنا زُلْفى[5]. انتهى.

---

(١) ذكرها دون نسبة الزمخشري ٣/ ٢٩٢، وابن عطية ٤/ ٤٢٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٢.

(٣) قال السمين في الدر المصون ٩/ ١٩٣ بعد أن ذكره: والحاجة إليه بالنسبة إلى المعنى الذي ذكره داعية.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٢.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٣، وللزجاج ٤/ ٢٥٥.

ولا حاجةَ لتقدير هذا المحذوف؛ إذْ يَصحُّ أن يكون التي لمجموع الأموال والأولاد.

وقرأ الحسن: «باللاتي» جمعاً[١]، وهو أيضاً راجعٌ للأموال[٢] والأولاد.

وقُرئ «بالذي» أي: بالشيء الذي[٣].

و«زُلْفى» مَصدر كالقُرْبى، وانتصابُه على المَصدريَّة من المعنى، أي: يُقَرِّبكم قُرْبى.

وقرأ الضحّاك: «زُلَفاً» بفتح اللام وتنوين الفاء جمع زُلْفَة، وهي القُرْبَة[٤].

«إلا مَن آمَن» الظَّاهر أنه استثناءٌ مُنقطِع، وهو منصوبٌ على الاستثناء، أي: لكنْ مَن آمَن وعَمِل صالحاً فإيمانُه وعملُه يقَرِّبانه.

وقال الزَّجَّاج: هو بدلٌ من الكاف والميم في «تُقَرِّبُكم».

وقال النحَّاس: وهذا غَلَط؛ لأن الكاف والميم للمُخاطَب، فلا يجوز البدَل، ولو جاز هذا لجاز: رأيتُك زيداً، وقولُ أبي إسحاق هذا هو قولُ الفرَّاء[٥]. انتهى.

ومذهب الأخفش والكوفيين أنه يجوز أن يُبْدَل من ضمير المخاطَب والمتكلِّم[٦]، لكن البَدَلُ في الآية لا يَصحّ، ألا ترى أنه لا يصحُّ تفريغُ الفعل الواقع صلةً لما بعد إلا؛ لو قلت: ما زيدٌ بالذي يضرب إلا خالداً، لم يصحّ. وتَخَيَّل الزجاج أنَّ الصِّلة وإنْ كانت من حيث المعنى منفيَّة أنه يجوز البَدَل، وليس بجائزٍ إلا فيما يصحُّ التَّفريغُ له.

---

(١) مختصر في الشواذ ١٢٢ (وفيه تصحيف)، والكشاف ٣/ ٢٩٢، وزاد المسير ٦/ ٤٦٠ وزاد نسبتها إلى أبي بن كعب وأبي الجوزاء.

(٢) في (ز٢): إلى الأموال.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٢.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٥، وللفراء ٢/ ٣٦٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٢٢.

(٦) انظر ارتشاف الضرب ص١٩٦٥.

وقد اتَّبعه الزمخشري فقال: «إلا مَن آمن» استثناءٌ من كم في «تُقَرِّبُكم» والمعنى: أن الأموالَ لا تُقَرِّب أحداً إلا المؤمنَ الصَّالح الذي يُنْفِقُها في سبيل الله، والأولادُ لا تُقَرِّب أحداً إلا مَن عَلَّمهم الخير، وفَقَّهَهُم في الدِّين، ورَشَّحهم للصَّلاح والطَّاعة[١]. انتهى.

وهو لا يجوز كما ذكرْنا، لا يجوز: ما زيدٌ بالذي يخرج إلا أخوه، ولا: ما زيدٌ بالذي يَضرب إلا عَمْراً، ولا: ما زيدٌ بالذي يَمرُّ إلا ببَكْر، والتركيب الذي ركَّبه الزمخشري من قوله: لا تُقَرِّب أحداً إلا المؤمن؛ غيرُ موافق للتَّركيب القرآني، ففي الذي ركَّبه يجوز ما قال، وفي لفظ القرآن لا يجوز[٢].

وأجاز الفَرَّاء أن تكون «مَن» في موضع رَفْع، وتقديرُ الكلام عنده: ما هو المقرِّب إلا مَن آمن[٣]. انتهى.

وقولهُ كلامٌ لا يتحصَّل منه معنى، كأنه كان نائماً حين قال ذلك.

وقرأ الجمهور: «جزاءُ الضِّعْفِ» على الإضافة، أُضيف فيه المَصْدر إلى المفعول.

وقَدَّره الزمخشري مبنيًّا للمفعول الذي لم يُسمَّ فاعلُه فقال: أنْ يُجازَوا الضِّعفَ[٤].

والمصدر في كونه يُبْنى للمفعول الذي لم يسمَّ فاعلُه فيه خِلاف، والصَّحيحُ المنعُ، ويُقدَّر هنا: أن يُجازيهم الله الضِّعفَ، أي: يُضاعف لهم حَسناتهم؛ الحسنةُ بعشرِ أمثالها وبأكثر إلى سبع مئة لمَن يشاء.

وقرأ قتادة: «جزاءٌ الضِّعفُ» برفعهما[٥]، فالضِّعف بدل. ويعقوب في

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٢.
(٢) انظر رد السمين عليه في الدر المصون ٩/ ١٩٤.
(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٣، قال النحاس ٣/ ٣٥٢: ولست أحصّل معناه.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٢.
(٥) مختصر في الشواذ ١٢٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، وزاد المسير ٦/ ٤٦١ وزاد نسبتها إلى أبي الجوزاء وأبي عمران الجوني.

رواية بنصب «جَزاءً» ورفع «الضِّعفُ». وحكى هذه القراءة الدَّاني عن قتادة[١]، وانتصب جزاءً على الحال، كقولك: في الدار قائماً زيد.

وقرأ الجمهور: «في الغُرُفات» جمعاً مَضمومَ الرَّاء.

والحسن وعاصم بخلاف عنه والأعمش ومحمد بن كعب بإسكانها[٢]. وبعض القُرَّاء بفتحها[٣].

وابن وَثَّاب والأعمش أيضاً وطلحة وحمزة وخَلَف في اختياره: «في الغُرْفَة» على التَّوحيد ساكنة الرَّاء[٤]. وابن وثَّاب أيضاً بضمِّها[٥] على التَّوحيد.

ولمَّا ذَكر جَزاءَ مَن آمن ذكر عقابَ مَن كفر ليُظْهر تباينَ الجزاءين. وتقدَّم تفسيرُ نَظيرِ هذه الكَلِم[٦].

ولمَّا كان افتخارُهم بكثرةِ الأموال والأولاد وأُخبروا أن ذلك جارٍ على ما شاء الله كَرَّر ذلك المعنى تأكيداً أن ذلك جارٍ على ما شاء الله، لا أن ذلك على حسب الاستحقاق ولا التَّكرِمة ولا الهوان.

ومعنى «فهو يُخْلِفُه» أي: يأتي بالخَلَف والعِوَض منه، وكأن لفظ «من عباده»

---

(١) هي رواية رويس عن يعقوب كما في النشر ٢/ ٣٥١، وقرأ بها أيضاً سعيد بن جبير، والزهري، ونصر بن عاصم، وأبو المتوكل، انظر مختصر في الشواذ ١٢٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢ ـ وذكر حكاية الداني ـ وزاد المسير ٦/ ٤٦١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٢٣، والثعلبي ٥/ ١٦١.

(٢) قراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجمهور، وانظر مختصر في الشواذ ١٢٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، وزاد المسير ٦/ ٤٦١ وزاد نسبتها إلى أبي المتوكل.

(٣) قرأ بفتحها أبو الجوزاء وابن يعمر فيما ذكر ابن الجوزي ٦/ ٤٦١.

(٤) السبعة ٥٣٠، والتيسير ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥١، ومختصر في الشواذ ١٢٢، وإعراب القرآن ٣/ ٣٥٣، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٦١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، وزاد المسير ٦/ ٤٦١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٢٣، وقراءة خلف المشهورة عنه كقراءة الجمهور.

(٥) في المطبوع: وحمزة وأطلق في اختياره... بفتحها (؟!). وذكر قراءة ابن وثاب هذه السمين في الدر ٩/ ١٩٦، والآلوسي ٢٢/ ١٢٠.

(٦) في تفسير الآية (٥١) من سورة الحج.

مُشْعِرةٌ بالمؤمنين، وكذلك الخطاب في «وما أنفقتم» يقصد[1] هنا رزق المؤمنين، فليس مَساق: «قل إن ربِّي يَبْسُط الرِّزْق» مَساقَ ما قيل للكُفَّار، بل مساق الوَعْظ والتَّزهيد في الدنيا، والحضِّ على النَّفَقة في طاعة الله، وإخلاف ما أنفق إما مُنَجَّزاً في الدنيا، وإما مُؤَجَّلاً في الآخرة، وهو مَشْروط بقَصْد وجه الله.

وقال مجاهد: مَن كان عنده من هذا المال ما يُقيمه فلْيَقْتَصِد فإن الرِّزق مَقْسوم، ولعلَّ ما قُسم له قليلٌ، وهو يُنفق نفقةَ المُوَسَّع عليه، فيُنفقُ جميعَ ما في يده، ثم يبقى طولَ عُمره في فقرٍ، ولا يتأوَّلَنَّ «وما أنفقتُم من شيءٍ فهو يُخْلِفُهُ» هذا في الآخرة[2]. ومعنى الآية: ما كان من خَلَفٍ فهو منه.

وجاء «الرَّازقين» جمعاً وإنْ كان الرَّازق حقيقةً هو الله وحده؛ لأنهُ يُقال: فلانٌ[3] يَرْزُق عِيالَه، والأميرُ جُندَه، والسَّيِّد عبدَه، فالرَّازقون جمعٌ بهذا الاعتبار، لكنْ أولئك يَرْزقون مما رَزقهم الله ومَلَّكهم فيه التَّصَرُّف، والله تعالى يَرزق من خزائنَ لا تَفْنى، ومن إخراجٍ من عَدَمٍ إلى وجود.

«ويومَ نَحْشُرهم جميعاً» أي: المُكَذِّبين مَن تَقَدَّم ومَن تأخَّر.

وقرأ الجمهور: «نَحشُرهم، ثم نقول» بالنون فيهما، وحَفْص بالياء[4]، وتقدَّمت في «الأنعام»[5].

وخطابُ الملائكة تَقْريعٌ للكُفَّار، وقد علم تعالى أن الملائكةَ مُنَزَّهون بُرآء مما وُجِّه عليهم[6] من السُّؤال، وإنما ذلك على طريق توقيفِ الكفار على سوء[7] ما ارتكبوه من عبادة غيرِ الله، وأن مَن عَبدوه مُتَبرِّئٌ منهم.

---

(١) في (يه): فقصد.
(٢) ذكره الثعلبي ٥/ ١٦١، والزمخشري ٣/ ٢٩٢.
(٣) في (أ ز٢) والمطبوع: الرجل، بدل: فلان، وهما سواء.
(٤) السبعة ٥٣٠، والتيسير ١٠٧، والنشر ٢/ ٢٥٧ وهي قراءة يعقوب من العشرة، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٣.
(٥) في تفسير الآية (٢٢) منها.
(٦) في (يه): إليهم، وانظر الكشاف ٣/ ٢٩٣.
(٧) في المطبوع: الكفار وقد علم سوء.

و«هؤلاء» مبتدأ وخبره «كانوا يعبدون» و«إيَّاكم» مفعول يعبدون، لمَّا تقدَّم انفصل، وإنما قُدِّم لأنه أبْلَغُ في الخطاب ولكون «يعبدون» فاصلة، فلو أتى بالضمير متَّصلاً[١] كان التركيب: يعبدونكم، ولم تكن فاصلة.

واستُدِلَّ بتقديم هذا المعمول على جواز تقديم خبر كان عليها إذا كان جملةً، وهي مسألةُ خِلاف، أجاز ذلك ابن السَّرَّاج، ومَنع ذلك قومٌ من النحويين، وكذلك منعوا توسُّطَه إذا كان جُملةً. وقال ابن السرَّاج: القياسُ جوازُ ذلك ولم يُسْمَع[٢].

ووجهُ الدَّلالة من الآية أن تقديمَ المعمولِ مُؤذِنٌ بتقديم العامل، فكما جاز تقديمُ «إياكم» جاز تقديم «يعبدون»، وهذه القاعدة ليست مُطَّرِدَة، والأولى منعُ ذلك إلى أن يَدُلَّ على جَوازه سماعٌ من العرب.

ولمَّا أجابوا الله بدؤوا بتَنْزيهه وبراءته من كلِّ سُوء؛ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦]. ثم انتسبوا إلى موالاته دون أولئك الكَفَرة، أي: أنت وَليُّنا إذْ لا مُوالاةَ بيننا وبينهم.

وفي قولهم: «بل كانوا يعبدون الجنَّ» إشْعارٌ أنهم ما عبدوهم[٣] وإنْ لم يُصَرَّح به، لكن الإضرابُ ببلْ يدلُّ عليه، وذلك لأن المَعْبودَ إذا لم يكن راضياً بعبادة عابده، مُريداً لها؛ لم يكن ذلك العابدُ عابداً له حقيقةً، فلذلك قالوا: «بل كانوا يعبدون الجنَّ» لأن أفعالَهم القبيحةَ هي من وَسْوَسة الشَّياطين وإغوائهم ومُراداتهم، فهم عابدون[٤] لهم حقيقةً؛ إذ الشياطين[٥] راضون تلك الأفعال.

(١) في النسخ والمطبوع خلا (يه د٣): منفصلاً، وهو خطأ، والمثبت منهما.
(٢) انظر الأصول في النحو لابن السراج ١/ ٨٨، ٨٩، وارتشاف الضرب ١١٧٢، وشرح التسهيل لابن مالك ١/ ٣٥٥. قال السمين في الدر المصون ٩/ ١٩٧ عقبه: قد تقدَّم في قوله: ﴿مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ﴾ [الأعراف: ١٣٧] ونحوه أنه يجوز أن يكون من تقديم الخبر وأن لا يكون.
(٣) في المطبوع: إشعار لهم بما عبدوه.
(٤) في (ت): ومراده ايهم لهم.
(٥) في (ت): لأن الشياطين، ووقع قبلها في المطبوع: فلذلك قالوا بل كانوا يعبدون الجن، وهو تكرار للسطر قبله.

وقيل: صوَّرت لهم الشَّياطينُ صُوَر قومٍ من الجنّ وقالوا: هذه صُوَرُ الملائكة فاعبُدوها.

وقيل: كانوا يَدْخلون في أجْوافِ الأصنام إذا عُبِدت، فيُعْبَدون بعبادتها[١].

وقال ابن عطية: لم تَنْفِ الملائكةُ عبادةَ البشَر إيَّاها، وإنما قَرَّرت أنها لم يكن لها في ذلك مُشاركة، وعبادةُ البشرِ الجنَّ هي فيما نعرفه[٢] بطاعتهم إيَّاهم، وسماعهم من وَسْوَستهم وإغوائهم، فهذا نوعٌ من العبادة، وقد يجوز أن يكون في الأُمم الكافرة مَن عَبد الجنَّ، وفي القُرآن آياتٌ يَظهر منها أن الجنَّ عُبدت في سورة الأنعام وغيرِها[٣]. انتهى.

وإذا كانوا[٤] قد عَبدوا الجنَّ فما وَجْهُ قولهم: «أكثرُهم بهم مؤمنون» ولم يقولوا: جميعُهم وقد أخبروا أنهم كانوا يَعبدون الجنَّ؟ والجواب أنهم لم يَدَّعوا الإحاطةَ؛ إذ قد يكون في الكفَّار مَن لم يُطْلِع الله الملائكةَ عليهم، أو أنهم حَكَموا على الأكثر بإيمانهم بالجنّ، لأن الإيمانَ من عملِ القلب، فلم يذكروا الاطِّلاعَ على جميع أعمالِ قلوبهم؛ لأن ذلك لله تعالى[٥].

ومعنى «مؤمنون»: مُصَدِّقون أنهم مَعْبودوهم. وقيل: مُصَدِّقون أنهم بناتُ الله وأنهم ملائكة ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨][٦].

وأمَّا مَن قال بأن الأكثر بمعنى الجَميع فلا يَرِد عليه شيء، لكنه ليس موضوع اللغة.

«فاليومَ» هو يومُ القيامة، والخطاب في «بعضكم» قيل: للملائكة لأنهم المخاطَبون في قوله: «أهؤلاء إيَّاكم» ويكون ذلك تَبْكيتاً للكفَّار حيث[٧] بَيّن لهم أنَّ مَن

---

(١) ذكرهما الزمخشري ٣/ ٢٩٣.

(٢) في المطبوع: يقرون، وفي (ت): نعرفهم.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٣-٤٢٤، وآية سورة الأنعام التي أشار إليها هي: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [١٠٠].

(٤) في (أ ز٢) والمطبوع: هم، والمثبت من (ت د٣ يه).

(٥) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/ ٢٦٥.

(٦) انظر تفسير القرطبي ١٧/ ٣٢٦.

(٧) في (أ ز٢) والمطبوع: حين، وفي (د٣): بحيث، والمثبت من (ت يه).

عَبدوه لا يَنفع ولا يَضُرُّ، ويؤيِّده: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولأن بعده: «ونقولُ للذين ظَلَموا»، ولو كان الخطابُ للكُفَّار لكان التَّركيب: فذوقوا.

وقيل: الخطاب للكُفَّار لأن ذكرَ اليوم يدلُّ على حُضورهم، ويكون قوله: «ونقول» تأكيداً لبيان حالهم في الظُّلم.

وقيل: هو خطابٌ من الله لمَن عَبد ولمن عُبِد.

وقوله: «نَفْعاً» قيل: بالشَّفاعة «ولا ضَرًّا» بالتَّعذيب[١].

وقيل هنا: «التي كنتم بها تُكذِّبون» وفي «السّجدة»: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الآية: ٢٠]، مع أنهم يُكَذِّبون بكلٍّ منهما، أي: من العذاب ومن النار؛ لأنهم هنا لم يكونوا مُلْتَبِسين بالعذاب، بل ذلك أوَّلَ ما رأوا النار إذْ جاء عَقيب الحَشْر، فوُصِفت لهم النَّار بأنها هي التي كنتم تُكذِّبون بها. وأمَّا الذي في «السجدة» فهم مُلابِسو العذاب، مُتَرَدِّدون فيه لقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الآية: ٢٠] فوَصف لهم العذابَ الذي هم مُباشِروه، وهو العذابُ المؤبَّد الذي أنكروه[٢].

والإشارةُ بقوله: «ما هذا إلا رجلٌ» إلى تالي الآيات المفهوم[٣] من قوله: «وإذا تُتْلى» وهو رسول الله ﷺ.

وحكى تعالى مَطاعنَهم عند تلاوةِ القرآن عليهم، فبدؤوا أوَّلاً بالطَّعن في التالي بأنه يَقْدَحُ في مَعْبودات آلهتكم، ثمَّ ثانياً فيما جاء به الرَّسول من القرآن بأنه كَذِبٌ مُخْتَلَقٌ من عنده، وليس من عند الله، وثالثاً بأنَّ ما جاء به سِحْرٌ واضحٌ لِما اشتملَ على ما يوجب الاستمالةَ وتأثيرَ النُّفوس له وإجابتَه، فطعنوا في الرسول، وفيما جاء به، وفي وَصْفه.

واحتمل أن يكون ذلك صَدَر من مجموعهم، واحتمل أن تكون كلُّ جملةٍ منها قالها[٤] قومٌ غير مَن قال الجملةَ الأُخرى.

---

(١) تفسير الثعلبي ٥/ ١٦٣، وزاد المسير ٦/ ٤٦٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٢٧.
(٢) من قوله: والخطاب في بعضكم... إلى هنا مختصر من تفسير الرازي ٢٥/ ٢٦٥-٢٦٦.
(٣) في (يه): المفهومة.
(٤) في (د٣ يه): قاله.

وفي قوله: «لمَّا جاءهم» دليلٌ على أنه حين جاءهم لم يُفكِّروا فيه، بل بادَهوه(١) بالإنكار ونسبتِهِ إلى السِّحر، ولم يَكتفوا بقولهم: إنه سِحْر حتى وَصفوه بأنه واضحٌ لمَن يتأمَّلُه.

وقيل: إنكارُ القرآن والمُعْجزةِ كان مُتَّفقاً عليه من المشركين وأهلِ الكتاب، فقال تعالى: «وقال الذين كفروا للحقِّ» على وجه العُموم(٢).

❁ ❁ ❁

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

«وما آتيناهم» أهلَ مكَّة «من كُتُبٍ» قال السُّدي: من عندنا فيَعلموا بدراستها بُطلانَ ما جئتَ به.

وقال ابن زيد: فيَقضوا أن الشِّرك جائز، وهو كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

وقال قتادة: ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبيَّاً قبل محمد ﷺ(٣).

---

(١) في (أ ت) والمطبوع: بادروه، وهما بمعنى.

(٢) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٦٧.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٩/ ٣٠٢، والماوردي ٤/ ٤٥٥، وزاد المسير ٦/ ٤٦٣-٤٦٤.

والمعنى: من أين كَذَّبوا ولم يأتهم كتابٌ ولا نذيرٌ بذلك؟

وقيل: وَصَفهم بأنهم قومٌ أُميُّون أهلُ جاهليَّة، لا مِلَّةَ لهم، وليس لهم عَهْدٌ بإنزال كتاب، ولا بعثةِ رسول، كما قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١] فليس لتكذيبهم وَجْهُ مُتَثَبِّت، ولا شُبْهةُ مُتَعَلَّق كما يقولُ أهلُ الكتاب ـ وإنْ كانوا مُبْطلين: نحن أهلُ كُتب[(١)] وشَرائع، ومُستندون إلى رُسلٌ من رُسُلِ الله[(٢)].

وقيل: المعنى أنهم يقولون بآرائهم في كتاب الله؛ يقول بعضُهم: سِحر، وبعضهم: افتراء، ولا يَستندون فيه إلى أثارَةٍ من علم، ولا إلى خَبرِ مَن يُقْبَلُ خَبَرُه، فإنَّا ما آتيناهم كُتباً يَدْرسونها، ولا أرْسَلنا إليهم نذيراً فيُمكنهم أن يدَّعوا أن أقوالَهم تستندُ[(٣)] إلى أمره.

وقرأ الجمهور: «يَدْرُسونها» مضارع دَرَس مُخَفَّفاً.

وأبو حَيْوة بفتح الدَّال وشَدِّها وكسر الرَّاء[(٤)]، مضارع ادَّرس افْتَعل من الدَّرْس، ومعناه: تَتَدارَسونها.

وعن أبي حَيْوة أيضاً «يُدَرِّسونها» من التَّدريس[(٥)]، وهو تكرير الدَّرْس، أو من دَرَس الكتابَ مُخفَّفاً، ودَرَّس الكتابَ مُشَدَّداً، التَّضعيف باعتبار الجَمْع.

ومعنى «قبلَك» قال ابن عطية: أي: وما أرْسَلْنا من نذيرٍ يُشافِهُهم بشيء، ولا يُباشرُ أهلَ عصرهم ولا مَن قَرُب من آبائهم، وقد كانت النِّذارةُ في العالَم وفي العرب مع شُعيب وصالح وهود، ودعوةُ الله وتوحيدُه قائمٌ لم تَخْلُ الأرض من داعٍ إليه، وإنما المعنى: من نذيرٍ يختصُّ بهؤلاء الذين بعثناك[(٦)] إليهم، وقد كان عند

---

(١) في (أ ت ز٢): كتاب، وفي المطبوع: الكتاب، والمثبت من (د٣ ي).

(٢) الكشاف ٣/ ٢٦٣-٢٦٤، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٢٧-٣٢٨.

(٣) في (ت ز٤): مستندة، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤.

(٤) مختصر في الشواذ ١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤.

(٥) ذكرها دون نسبة الزمخشري ٣/ ٢٩٤، وانظر الدر المصون ٩/ ١٩٧، وروح المعاني ٢٢/ ١٢٨.

(٦) في المطبوع: بقيت.

العرب كثيرٌ من نِذارة إسماعيل، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]، ولكنْ لم يتجرَّد للنِّذارة وقاتل عليها إلا محمد ﷺ[١]. انتهى.

«وكذَّب الذين من قبلهم» توعُّدٌ لهم بمَن تقدَّمهم من الأُمم، وما آل إليه أمرُهم، وتسليةٌ لرسوله بأن عادتَهم في التكذيب عادةُ الأمم السابقة، وسيحلُّ بهم ما حلَّ بأولئك.

والظَّاهر أن الضَّميرَين في «بلغوا» وفي «آتيناهم» عائدان على الذين من قبلهم ليتناسَقا مع قوله: «فكذَّبوا» أي: ما بلغوا في شُكْر النِّعمة وجزاءِ المِنَّة مِعْشارَ ما آتيناهم من النِّعَم والإحسان إليهم.

وقال ابن عباس وقتادة وابن زيد: الضَّمير في «بَلَغوا» لقريش، وفي «آتيناهم» للأمم الذين من قبلهم، والمعنى: وما بلغ هؤلاء بعضَ ما آتينا أولئك من طول الأعمار، وقُوَّةِ الأجسام، وكثرة الأموال، وحين كَذَّبوا رُسُلي جاءهم إنكاري بالتَّدمير والاستئصال، ولم يُغْنِ عنهم ما كانوا فيه من القوَّة، فكيف يكون حالُ هؤلاء إذا جاءهم العذابُ والهلاك؟

وقيل: الضَّمير في «بلغوا» عائدٌ على «الذين من قبلهم» وفي «آتيناهم» على قريش، وما بلغ الأممُ المتقدِّمةُ مِعْشارَ ما آتينا قُريشاً من الآيات والبيِّنات والنُّور الذي جئتَهم به.

وأورد ابن عطية هذه الأقوال احتمالات، والزمخشري ذكر الثاني، وأبو عبد الله الرّازي اختار الثالث قال: أي الذين من قبلهم ما بلغوا مِعْشارَ ما آتينا قومَ محمَّدٍ من البُرْهان، وذلك لأن كتابَ محمَّدٍ عليه السلام أكملُ من سائر الكُتُب وأوضحُ، ومحمدٌ عليه السلام أفضلُ من جميع الرُّسُل وأفْصَح، وبُرهانُه أوفى، وبيانهُ أشفى، ويؤيِّد ما ذكرنا: «وما آتيناهم من كُتُبٍ يَدْرُسونها» يعني غير القرآن، فلما كان المؤتى في الآية الأولى هو الكتاب حُمل الإيتاء في الآية الثانية على إيتاء الكتاب، فكان أَوْلى[٢]. انتهى.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤، والكشاف ٣/ ٢٩٤، والتفسير الكبير ٢٥/ ٢٦٧، وانظر تفسير =

وعن ابن عباس فليس أُمَّةٌ أعلمَ من أُمَّته، ولا كتابٌ أبينَ من كتابه.

والمِعْشار: مِفْعال من العُشْر، ولم يُبْنَ على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المِرْباع، ومعناهما العُشْر والرُّبْع.

وقال قوم: المِعْشار: عُشْر العُشْر. قال ابن عطية: وهذا ليس بشيء[١]. انتهى.

وقيل: والعُشْر في هذا القول عُشْر العَشَرات[٢]، فيكون جُزءاً من ألف جُزء. قال الماورديّ: وهو الأظهر؛ لأن المرادَ به المبالَغة في التَّقليل[٣].

وقال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى «فكذَّبوا رُسُلي» وهو مُستغنيً عنه بقوله: «وكَذَّب الذين من قبلهم»؟ قلت: لمَّا كان معنى قوله: «وكذب الذين من قبلهم» وفَعل الذين من قبلهم التَّكذيبَ وأقدموا عليه؛ جُعِل تكذيبُ الرُّسُل مُسَبَّباً عنه، ونَظيرهُ أن يقول القائل: أقْدَمَ فلانٌ على الكُفْر فكَفَر بمحمد ﷺ، ويجوز أن يَنْعَطِف على قوله: «ما بلغوا» كقولك: ما بلغ زيدٌ مِعْشارَ فضلِ عمرو فيُفَضَّل عليه. «فكيف كان نَكير» للمُكَذِّبين الأوَّلين، فلْيَحْذَروا من مثله[٤]. انتهى.

و«فكيف» تعظيمٌ للأمر وليست استفهاماً مُجَرَّداً، وفيه تهديدٌ لقريش، أي: أنهم مُعرَّضون لنَكيرٍ مثلِهِ[٥].

والنَّكير: مصدرٌ كالإنكار، وهو من المصادر التي جاءت على وزن فَعيل، والفعل على وزن أفعل، كالنَّذير والعَذير من أنْذَر وأعْذَر، وحُذِفت الياء[٦] من

= الطبري ١٩/ ٣٠٣، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٢٢، وتفسير الماوردي ٤/ ٤٥٥، وزاد المسير ٦/ ٤٦٤.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤.

(٢) في (أ) والمطبوع: المعشرات (؟!).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥، وانظر تفسير القرطبي ١٧/ ٣٢٨.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥.

(٦) في المطبوع: إلى، وهو تحريف.

«نكير»(١) تخفيفاً لأنها آخر آية(٢).

«قل إنَّما أعِظُكم بواحدةٍ» قال مجاهد: هي طاعةُ الله وتوحيدُه، وقال السُّدّي: هي لا إله إلا الله. وقال قتادة: هي أنْ تقوموا(٣).

قال أبو علي: «أنْ تقوموا» في موضعِ خَفْضٍ على البدَل من واحدة(٤).

وقال الزمخشري: «بواحدة» بخَصْلَةٍ واحدة، وهو فَسَّرها بقوله: «أنْ تقوموا» على أنه عطفُ بيانٍ لها(٥). انتهى.

وهذا لا يجوز لأن «بواحدةٍ» نكرة «وأنْ تقوموا» معرفة لتقديره: قيامِكم لله، وعطفُ البيان فيه مذهبان: أحدُهما: أنه يُشْترَط فيه أن يكون معرفةً من معرفة، وهو مذهب البصريين، والثاني: أنه يَتبع ما قبله في التعريف والتنكير، وهو مذهب الكوفيّين. وأما التَّخالُفُ فلم يذهب إليه ذاهب، إنما هو وَهْمٌ من قائله، وقد ردَّ النحويُّون على الزمخشري في قوله إن ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطفُ بيانٍ من قوله: ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وذلك لأجل التَّخالُف، فكذلك هذا(٦).

والظاهر أن القيامَ هنا هو الانتصابُ في الأمر، والنُّهوضُ فيه بالهمَّة، لا القيام الذي يُراد به المُثولُ على القَدَمين(٧)، ويَبْعد أن يُراد به ما جَوَّزه الزمخشري من القيام عن مجلس رسول الله ﷺ وتفرُّقِهم عن مجتمعهم عنده. والمعنى: إنما أَعِظُكم بواحدةٍ منها إصابتُكم الحقَّ وخلاصُكم، وهي أن تقوموا لوجه الله مُتَفَرِّقين اثنين

(١) في (أ ت ز٢): نكيري.
(٢) في المطبوع: أجزأته، وهو تحريف. وانظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، وزاد المسير ٦/ ٤٦٤.
(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٣٠٤، ومعاني القرآن ٥/ ٤٢٢-٤٢٣، وإعراب القرآن ٣/ ٣٥٤ كلاهما للنحاس، والنكت والعيون ٤/ ٤٥٥، وزاد المسير ٦/ ٤٦٤-٤٦٥، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٢٨-٣٢٩.
(٤) ذكره السمين في الدر ٩/ ١٩٩ عن أبي علي الفارسي، وهو قول النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٤، ومعاني القرآن ٥/ ٤٢٢، وذكره ابن عطية ٤/ ٤٢٥ دون نسبة.
(٥) الكشاف ٣/ ٢٩٤.
(٦) انظر شرح التسهيل ٣/ ٣٢٦، وشرح الكافية الشافية ٣/ ١١٩٤، وارتشاف الضرب ١٩٤٣. وقوله: البصريين. . . إلى مذهب الكوفيين، ليس في المطبوع.
(٧) في المطبوع: المقول على القولين (؟!).

اثنين، وواحداً واحداً «ثمَّ تَتفكَّروا» في أمر محمدٍ وما جاء به[١].

وإنما قال: «مَثْنَى وفُرادى» لأن الجماعةَ يكون مع اجتماعهم تشويشُ الخاطر، والمنعُ من الفِكْر، وتخليطُ الكلام، والتعصُّبُ للمذاهب[٢]، وقِلَّةُ الإنصاف؛ كما هو مُشاهَدٌ في الدروس التي يجتمع فيها الجماعةُ فلا يوقف فيها[٣] على تحقيق.

وأمّا الاثنان إذا نظَرا نظرَ إنصافٍ، وعَرَض كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه ما ظَهر له فلا يكادُ الحقُّ أن يَعْدُوهما.

وأمَّا الواحد إذا كان جيِّدَ الفكرِ، صحيحَ النَّظَرِ، عارياً عن التَّعَصُّب[٤]، طالباً للحقِّ؛ فبعيدٌ أن يَعْدُوَه.

وانتصب «مَثْنى وفُرادى» على الحال، وقُدِّم «مَثْنى» لأن طلبَ الحقائق من مُتعاضِدَين في النَّظَر أجْدى من فكرةِ واحدٍ، فإذا انْقَدَح الحقُّ بين الاثنين فَكَّر كلُّ واحدٍ منهما بعد ذلك، فيزيدُ بَصيرةً، وقال الشاعر:

إذا اجتمعوا جاؤوا بكلِّ غَريبةٍ فيَزْدادُ بعضُ القوم من بعضهم عِلْما[٥]

«ثم تَتَفكَّروا» عطفٌ على أنْ «تقوموا»، والفكرة هنا في حالِ رسول الله ﷺ وفيما نسبوه إليه، فإن الفكرةَ تَهدي غالباً إلى الصواب إذا عَرِي صاحبُها عمَّا يُشَوِّشُ النَّظَر.

والوقف عند أبي حاتم عند قوله: «ثمَّ تتفكَّروا» و«ما بصاحبكم من جِنَّة» نفيٌ مستأنَف[٦].

قال ابن عطية: وهو عند سيبويه جوابُ ما يُنَزَّل منزلةَ القَسَم، لأن تفكَّر من

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٤.
(٢) من هنا وقع سقط في (ت).
(٣) في (د٣ ز٢): منها. وهما سواء.
(٤) في (د٣ يه): من التعصب، وكلاهما صحيح.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٠.

الأفعال التي تعطي التحقيق[١] كتَبَيَّن، وتكون الفكرة[٢] على هذا في آياتِ الله والإيمانِ به. انتهى.

واحتمل أن يكون «تتفكَّروا» مُعلَّقاً، والجملةُ المنفيَّةُ في موضع نصب، وهو مَحطُّ التفكُّرِ، أي: ثم تَتفكَّروا في انتفاءِ الجِنَّة عن محمد ﷺ، فإن إثباتَ ذلك لا يصحُّ أن يتَّصفَ به مَن كان أرْجَحَ قريشٍ عقلاً، وأثْقَبَهم[٣] ذهناً، وأصْدَقهم قولاً، وأنْزَهَهم نفْساً، ومَن ظهر على يديه هذا القرآنُ المُعْجِز، فيعلمون بالفكرة أن نسبتَه للجنون لا يمكن، ولا يذهب إلى ذلك عاقل، وأن مَن نَسبه إلى ذلك فهو مُفْتَرٍ كاذِب.

والظَّاهر أن ما للنَّفي كما شرحنا، وقيل: ما استفهام، وهو استفهام لا يُرادُ به حقيقته، بل يؤول معناه إلى النفي، التقدير: أيُّ شيءٍ بصاحبكم من الجُنون؟ أي: ليس به شيءٌ من ذلك.

ولمَّا نفى تعالى عنه الجِنَّة أثبتَ أنه نذيرٌ بين يديْ عذابٍ شديد، أي: هو مُتقدِّمٌ في الزَّمان على العَذاب الذي تُوُعِّدوا به، و«بين يديْ» يُشْعِر بقُرب العَذاب.

«قلْ ما سألتُكم من أجْرٍ» الآية، فيه التبرُّؤ من طلبِ الدُّنيا، وطلبِ الأجر على النّور الذي أتى به، والتوكُّلُ على الله في الأجر[٤].

واحتملت «ما» أنْ تكون موصولةً مبتدأ، والعائد من الصِّلة محذوف تقديره: سألتُكموه، و«فهو لكم» الخبر، ودخلت الفاءُ لتَضَمُّن المبتدأ معنى الشَّرط.

واحتملت أن تكون شَرْطيَّة مفعولة بـ: «سألتكم» و«فهو لكم» جملة هي جواب الشَّرط.

---

(١) في النسخ والمطبوع خلا (يه د٣): التمييز، والمثبت منهما، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، وانظر الدر المصون ٩/ ٢٠٠، وروح المعاني ٢٢/ ١٣٢، وكتاب سيبويه ٣/ ٥٠٤.

(٢) في المطبوع: التفكّر.

(٣) في النسخ والمطبوع خلا (يه د٣): وأثبتهم، والمثبت منهما، وانظر الكشاف ٣/ ٢٩٤.

(٤) في المطبوع: في التبري... على الله فيه، وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥.

وقوله: «ما سألتُكم من أجرٍ فهو لكم» على معنيين: أحدهما: نفيُ مسألة الأجْر، كما يقول الرجل لصاحبه: إن أعطيتني شيئاً فخُذْه، وهو يعلم أنه لم يُعْطِه شيئاً، ولكنه أراد البَتَّ لتعليقه الأخْذَ بما لم يكن، ويؤيِّده: «إنْ أجْريَ إلا على الله»، والثاني أن يريد بالأجر ما في قوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]، وفي قوله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؛ لأن اتِّخاذَ السَّبيل إلى الله نصيبُهم وما فيه نَفْعُهم، وكذلك المودَّة في القَرابة؛ لأن القرابةَ قد انتظَمَتْهُ وإيَّاهم. قاله الزمخشري[1] وفيه بعضُ زيادة.

وقال ابن عباس: الأجْرُ: المَودَّةُ في القُرْبى. وقال قتادة: «فهو لكم» أي: ثَمَرتُه وثَوابُه؛ لأني سألتُكم صِلَةَ الرَّحِم. وقال مقاتل: تَرَكْتُهُ لكم[2].

«وهو على كلِّ شيء شَهيدٌ» مُطَّلعٌ حافظٌ؛ يعلم أني لا أطلبُ أجراً على نُصْحِكم ودُعائكم إليه إلا منه، ولا أطْمَعُ منكم في شيء.

والقَذْفُ: الرَّمْيُ بدَفْعٍ واعتماد، ويُستعارُ لمعنى الإلقاء كقوله: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ [طه: ٣٩]، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦][3].

قال قتادة: يَقْذِف بالوَحْي، وعنه أيضاً: الحقّ القرآن. وقيل: يُلقي الحقَّ إلى أنبيائه. وقيل[4]: «يَقْذِفُ بالحقّ» يُبيِّن الحُجَّةَ ويُظْهِرُها.

وقال ابن القُشيري: يُبيِّن الحُجَّة بحيث لا اعتراضَ عليها؛ لأنه عَلَّامُ الغيوب، فأنا مُسْتَمسكٌ بما يَقذف إليَّ من الحق.

وأصل القَذْفِ: الرَّمْيُ بالسَّهم والحصى والكلام. وقال ابن عباس: يَقذف الباطلَ بالحقّ[5].

(١) في الكشاف ٣/ ٢٩٥.
(٢) انظر النكت والعيون ٤/ ٤٥٦.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٥.
(٤) من قوله: يقذف بالوحي. . . إلى هنا، ليس في المطبوع.
(٥) انظر تفسير الطبري ١٩/ ٣٠٧، والماوردي ٤/ ٤٥٧، والقرطبي ١٧/ ٣٣١، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٢٤، وزاد المسير ٦/ ٤٦٦.

والظاهر أن «بالحقّ» هو المفعول، فالحقّ هو المَقْذوف، ويحتمل أن يكون المَقْذوف محذوفاً، أي: يَقذف، أي: يُلقي ما يُلقي إلى أنبيائه من الوَحْي والشَّرْع بالحقِّ لا بالباطل، فتكون الباء إمَّا للمُصاحَبة، وإمَّا للسَّبب، ويؤيِّدُ هذا الاحتمال كونُ قَذَف مُتعدِّياً بنفسه، فإذا جعلتَ «بالحقّ» هو المفعول كانت الباءُ زائدةً في مَوْضعٍ لا تَطَّردُ زيادَتُها.

وقرأ الجمهور: «عَلَّامُ» بالرَّفْع، فالظَّاهر أنه خبرٌ ثانٍ، وهو ظاهرُ قولِ الزجَّاج، قال: هو رفعٌ لأن تأويلَه: قلْ: ربِّي علامُ الغُيوب[1].

وقال الزمخشري: رفعٌ محمولٌ على محلِّ إن واسمها، أو على المُسْتَكنِّ في «يقذف» أو هو خبرُ مبتدأ محذوف[2]. انتهى.

أمَّا الحَمْلُ على محلِّ إن واسمها فهو غيرُ مذهبِ سيبويه، وليس بصحيح عند أصحابنا على ما قرَّرناه في كتب النّحو[3]. وأمّا قوله: على المُسْتَكنِّ في «يقذف» فلم يُبيِّن وجهَ حَمْلِهِ؛ وكأنه يُريد أنه بدلٌ من ضمير «يقذف».

وقال الكسائي: هو نعتٌ لذلك الضَّمير؛ لأن من مذهبه جوازَ نعتِ المُضْمَر الغائب[4].

وقرأ عيسى وابن أبي إسحاق وزيد بن عليّ وابن أبي عَبْلة وأبو حَيْوَة وحَرْب عن طلحة: «عَلَّامَ» بالنصب[5]، فقال الزمخشري: صفة لربّي. وقال أبو الفضل

(١) الذي في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٧: ومن رفع «علام الغيوب» فعلى وجهين؛ أحدهما أن يكون صفة على موضع «إن ربي» لأن تأويله: قل ربي علام الغيوب يقذف بالحق، وإن مؤكدة، ويجوز الرفع على البدل مما في يقذف. ونقله عن الزجاج النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٤، والقرطبي ١٧/ ٣٣١.
قال النحاس: وفي الرفع وجهان آخران: يكون خبراً بعد خبر، ويكون على إضمار مبتدأ.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٥.
(٣) انظر ارتشاف الضرب ١٢٨٩، والتذييل والتكميل ٥/ ١٨٩ فما قبلها.
(٤) انظر الارتشاف ١٩٣١.
(٥) مختصر في الشواذ ١٢٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣١، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٤٦٦ إلى أبي رجاء.

الرَّازي وابن عطية: بدل، وقال الحَوْفي: بدل أو صفة، وقيل: نصب على المَدْح[١].

وقُرئ «الغيوب» بالحركات الثلاث[٢]، أمَّا الضَّمُّ فجمع غَيْب، وأمَّا الكسر فكذلك استَثْقلوا ضَمَّتين والواو، فكسروا لتَناسُب[٣] الكَسْرِ مع الياء، والضَّمَّةِ التي على الياء مع الواو. وأمَّا الفتح ففَعُول[٤] للمبالغة كالصَّبور، وهو الشيءُ الذي غاب وخَفِيَ جدًّا[٥].

ولما ذكر تعالى أنه «يَقذِفُ بالحقِّ» بصيغة المضارع أخبر أنَّ الحقَّ قد جاء - وهو القرآن والوحْيُ - وبطلَ ما سواه من الأديان، فلم يبقَ لغير الإسلام ثباتٌ لا في بَدْءٍ ولا في عاقِبة، فلا يُخاف على الإسلام ما يُبْطِلُهُ كما قال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقال قتادة: الباطل: الشيطان، لا يَخْلُق شيئاً ولا يَبْعَثُه. وقال الضحاك: الأصنام لا تفعل ذلك.

وقال أبو سليمان: لا يبتدئ الصَّنمُ من عنده كلاماً فيُجاب، ولا يَرُدُّ ما جاء من الحقِّ بحُجَّة. وقيل: الباطل الذي يُضادُّ الحقَّ.

فالمعنى ذهب الباطلُ بمجيءِ الحقِّ فلم يبقَ منه بقيَّة؛ وذلك أن الحيَّ[٦] إذا هَلَك لم يبقَ له إبداءٌ ولا إعادة، فصار قولُهم: لا يُبدِئ ولا يُعيد مَثَلاً في الهلاك، ومنه قول الشاعر:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥.
(٢) في المطبوع: الغيوب بالجر (؟!). ومراده بالحركات الثلاث أي: في الغين، انظر الدر المصون ٩/ ٢٠٢، وروح المعاني ٢٢/ ١٣٥.
(٣) في (أ د٣): ليتناسب.
(٤) في النسخ والمطبوع خلا (د٣): فمفعول، وهو تحريف، والمثبت منها.
(٥) انظر الكشاف ٣/ ٢٩٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٢، والنشر ٢/ ٢٢٦.
(٦) في (ز٢) والمطبوع: الجائي، وهو تحريف.

أقْفَرَ من أهلِهِ[١] عَبيدُ فاليوم لا يُبدي ولا يُعيدُ[٢]

والظاهر أن «ما» نفيٌ، وقيل استفهام ومآلُهُ إلى النَّفي، كأنه قيل: أيُّ شيءٍ يُبدئ الباطلُ - أي: إبليس - ويُعيدُه. قاله الزجَّاج وفرقةٌ معه.

وعن الحسن: لا يُبدئ - أي: إبليس - لأهله خيراً ولا يُعيده، أي: لا يَنْفَعُهم في الدُّنيا والآخرة.

وقيل للشيطان الباطل لأنه صاحبُ الباطل ولأنه هالك، كما قيل له الشيطان من شاط إذا هَلَك.

وقيل: الحقُّ: السَّيف[٣].

وعن ابن مسعود: دخل رسولُ الله ﷺ مكَّةَ وحول الكعبة ثلاث مئة وستُّون صَنماً، فجعل يَطْعَنها بعودِ نَبْعَةٍ[٤] ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[٥].

وقرأ الجمهور: «قلْ إنْ ضَلَلْتُ» بفتح اللام «فإنما أضِلُّ» بكسر الضَّاد.

وقرأ الحسن وابن وَثَّاب وعبد الرحمن المُقرئ بكسر اللام وفتح الضَّاد، وهي لغة تميم، وكسر عبد الرحمن همزة أضِلُّ[٦].

---

(١) في النسخ والمطبوع خلا (د٣ يه): أهيله، والمثبت منهما، وهو موافق لما في المصادر، وإن كان ما فيها يصح أيضاً وزناً.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٥، والبيت لعبيد بن الأبرص، انظر ديوانه ٤٥، والأغاني ٢٢/ ٨٨، والجليس الصالح الكافي ٤/ ١٤٧، وجمهرة الأمثال ١/ ٣٥٩، وثمار القلوب ١/ ٣٥٠، والعمدة لابن رشيق ١/ ٣١٢، وفصل المقال للبكري ٤٤٥، والحور العين ١٢٨، وخزانة الأدب ٢/ ٢١٨.

(٣) انظر الأقوال - من قول قتادة إلى هنا - في تفسير الطبري ١٩/ ٣٠٧، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٨، وللنحاس ٥/ ٤٢٥، وإعراب القرآن ٣/ ٣٥٥، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٦٣-١٦٤، والماوردي ٤/ ٤٥٧، والكشاف ٣/ ٢٩٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦، وزاد المسير ٦/ ٤٦٦، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٢.

(٤) في (أ) والمطبوع: نبقة. والنبع: شجر تتخذ منه القسي. النهاية (نبع).

(٥) الكشاف ٣/ ٢٩٥، وأخرجه الثعلبي ٥/ ١٦٤ وفيه: بعودٍ معه، وهو الأشبه. والحديث أخرجه أحمد (٣٥٨٤)، والبخاري (٢٤٧٨)، ومسلم (١٧٨١) رحمهم الله.

(٦) مختصر في الشواذ ١٢٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٢.

وقال الزمخشري: لغتان نحو: ظَلَلْتُ أَظِلُّ وظَلِلْتُ أَظَلُّ[(١)].

«وإن اهتديتُ فبما يُوحي» أي: فاهتدائي بما يُوحي.

و«ما» يحتمل أنْ تكون بمعنى الذي، أي: فبالذي يوحيه إليَّ ربي، وأنْ تكون مصدريَّة[(٢)]، أي: فبوَحْي ربي. والتَّقابلُ اللَّفظي: وإن اهتديتُ فإنما أهتدي لها، كما قال[(٣)]: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ﴾ مقابل: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ﴾ مقابل ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ [الزمر: ٤١]، أو يقال: فإنما أضِلُّ بنفسي، وأما في الآية فالتقابل معنوي لأن النفس كلُّ ما عليها فهو بها، أي: كلُّ وَبالٍ عليها فهو بسببها إن النَّفْسَ لأمَّارةٌ بالسُّوء، وما لها مما يَنْفَعُها فبهداية ربِّها وتوفيقه، وهذا حكمٌ عامٌّ لكلِّ مُكَلَّف، وأَمرَ رسولَه أن يُسنده إلى نفسه لأنه إذا دخل تحته مع جَلالة مَحَلِّه وسَداد طريقته كان غيرُهُ أولى به. انتهى، وهو من كلام الزمخشري[(٤)].

«إنه سَميعٌ قريبٌ» يُدرِك قولَ كلِّ ضالٍّ ومُهْتدٍ وفعلَه.

والظاهر أن قولَه: «ولو ترى إذْ فزِعوا» أنه وقتُ البَعْثِ وقيامِ السَّاعة. وكثيراً جاء ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، وكلُّ ذلك في يوم القيامة، وعبَّر بـ: «فَزِعوا، وأُخِذوا، وقالوا، وحِيل» بلفظ الماضي لتَحَقُّق وقوعِه بالخبر الصادق[(٥)].

وقال ابن عباس والضحاك: هذا في عَذابِ الدُّنيا. وقال الحسن: في الكُفَّار عند خروجهم من القبور.

وقال مجاهد: يوم القيامة. وقال ابن زيد والسدِّي: في أهل بدرٍ حين ضُرِبت أعناقُهم، فلم يستطيعوا فراراً من العَذاب، ولا رُجوعاً إلى التوبة.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٥.
(٢) من قوله: فاهتدائي. . . إلى هنا، ليس في المطبوع.
(٣) هنا ينتهي السقط المشار إليه في (ت) قبل صفحات.
(٤) في الكشاف ٣/ ٢٩٥-٢٩٦.
(٥) انظر الكشاف ٣/ ٢٩٦.

وقال ابن جُبير وابن أبي أَبْزَى[١]: في جيشٍ يغزو الكعبة، فيُخْسَف بهم في بَيْداءَ من الأرض، ولا ينجو إلا رجلٌ من جُهَيْنَة، فيُخْبرُ الناسَ بما نالَ الجيشَ. قالوا: وله قيل: وعند جُهَيْنَةَ الخبرُ اليَقينُ[٢].

وروي في هذا المعنى حديثٌ مُطوَّل عن حُذيفة، وذكر الطبري أنَّه ضعيف السَّنَد، مَكْذوبٌ فيه على رَوَّاد بن الجَرَّاح[٣].

وقال الزمخشري: وعن ابن عباس: نزلت في خَسْف البَيْداء؛ وذلك أن ثمانين ألفاً يَغْزون الكعبةَ ليُخْرِبوها، فإذا دخلوا البَيْداء خُسِف بهم[٤].

وذكر في حديث حذيفة أنه تكون فِتنةٌ بين أهلِ المَشْرِق والمَغْرب، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم السُّفياني من الوادي اليابس في فَوْره ذلك حتى ينزلَ دمشق، فيبعث جيشاً إلى المدينة، فيَنْتَهبونها ثلاثةَ أيام، ثمَّ يخرجون إلى مكَّة، فيأتيهم جبريلُ عليه السلام فيَضْربُها ـ أي الأرض ـ برجله ضَرْبةً، فيَخْسف الله بهم

(١) كذا في النسخ والمطبوع: ابن أبي أبزى، وفي تفسير الثعلبي والمحرر الوجيز: ابن أبزى.
(٢) انظر الأقوال في: تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٣٢، والطبري ١٩/ ٣٠٩-٣١٣، والثعلبي ٥/ ١٦٤، ١٦٥، والماوردي ٤/ ٤٥٨، والقرطبي ١٧/ ٣٣٣-٣٣٤، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٢٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦، وزاد المسير ٦/ ٤٦٧.
والمثل: عند جهينة الخبر اليقين؛ في أمثال أبي عبيد ٢٠١، والفاخر ١٢٦، وجمهرة الأمثال ٢/ ٤٤، وفصل المقال للبكري ٢٩٥، ومجمع الأمثال ٢/ ٣١٩، والمستقصى ٢/ ١٦٩، وله خبر غير ما ذكر هنا.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣١٠-٣١١، ومن طريقه الثعلبي ٥/ ١٦٤-١٦٥، عن عصام بن روَّاد بن الجرّاح، عن أبيه، عن سفيان بن سعيد، عن منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة بن اليمان، عن رسول الله ﷺ.
قال الطبري: حدثنا محمد بن خلف العسقلاني قال: سألت رواد بن الجراح عن الحديث الذي حدث به عنه، عن سفيان الثوري... فقلت له: أخبرني عن هذا الحديث، سمعتَه من سفيان الثوري؟ قال: لا، قلت له: فقرأته عليه؟ قال: لا، قلت له: فقرئ عليه وأنت حاضر؟ قال: لا، قلت له: فما قصته، فما خبره؟ قال: جاءني قوم فقالوا: معنا حديث عجيب ـ أو كلام هذا معناه ـ تقرؤه وتسمعه، قلت لهم: هاتوه، فقرؤوه علي، ثم ذهبوا به فحدثوا به عني، أو كلام هذا معناه.
قلت: وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن الحديث موضوع.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٦.

الأرض، فذلك قوله: «فلا فوتَ» ولا يَنْفَلِتُ منهم إلا رَجُلان من جُهَيْنَة - ولذلك جرى المثل: وعند جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليقينُ - اسمُ أحدِهما بشير يُبَشِّر أهلَ مكة، والآخر نذير ينقلبُ بخَبر السُّفْياني. وقيل لا ينقلب منهم إلا رجلٌ واحد يُسمَّى ناجية من جُهَينة، ينقلبُ وجهُهُ إلى قفاه.

ومفعول «ترى» محذوف، أي: ولو ترى الكفَّار «إذ فَزِعوا فلا فَوتَ» أي: لا يفوتون الله، ولا مَهْرَبَ لهم عمَّا يُريد بهم.

وقال الحسن: فلا فوتَ من صَيْحة النُّشور، وأُخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها. انتهى.

أو من المَوْقف إلى النار إذا بُعثوا. أو من ظَهْر الأرض إلى بَطْنها إذا ماتوا. أو من صَحْراء بدرٍ إلى القَليب. أو من تحت أقدامهم إذا خُسف بهم.

وهذه أقوالٌ مَبنيَّةٌ على تلك الأقوال السابقة في عَوْد الضَّمير في «فَزِعوا».

ووُصِف المكانُ بالقُرب من حيثُ قُدْرةُ الله عليهم، فحيث ما كانوا هو قريب.

وقرأ الجمهور: «فلا فَوتَ» مَبنيًّا على الفتح «وأُخِذوا» فعلاً ماضياً، والظاهر عطفهُ على «فَزِعوا» وقيل: على «فلا فَوتَ» لأن معناه: فلم يفوتوا وأُخِذوا.

وقرأ عبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه وطلحة: «فلا فوتٌ وأَخْذٌ» مصدَرَيْن مُنَوَّنين[١].

وقرأ أُبيّ: «فلا فَوتَ» مَبْنيًّا «وأَخْذٌ» مصدراً مُنوَّناً[٢].

ومَن رفع «وأَخْذٌ» فخبرُ مبتدأ، أي: وحالُهـ أَخْذٌ، أو مبتدأ، أي: وهناك أَخْذٌ.

وقال الزمخشري: وقُرئ: «وأَخْذٌ» وهو معطوفٌ على محلِّ «لا فَوتَ» ومعناه: فلا فوتَ هناك وهناك أَخْذٌ[٣] انتهى.

---

(١) مختصر في الشواذ ١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٦.

(٢) ذكرها السمين في الدر ٩/ ٢٠٣، والآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٣٩، ونسبها ابن خالويه ١٢٢، وابن عطية ٤/ ٤٢٦ إلى طلحة بن مصرف.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٦.

كأنه يقول: لا فوتَ مجموعٌ، لا والمَبْنِيُّ معها في موضع مبتدأ، وخبره هناك، فكذلك «وأخذٌ» مبتدأ، وخبره هناك، فهو من عطف الجُمل، وإنْ كانت إحداهما تضمَّنت النَّفيَ، والأخرى تضمَّنت الإيجاب.

والضَّمير في «به» عائدٌ على الله. قاله مجاهد. أي: يقولون ذلك عندما يَروْن العَذاب. وقال الحسن: على البعث. وقال مقاتل: على القرآن. وقيل: على العَذاب.

وقال الزمخشري وغيره: على الرسول لمُرور ذِكرهِ في قوله: «ما بصاحبكم من جِنَّة»[1].

«وأنَّى لهم التَّناوُشُ» قال ابن عباس: التَّناوُش: الرُّجوع إلى الدُّنيا، وأنشد ابن الأنباريّ:

تمنَّى أنْ تؤوبَ إليَّ مَيٌّ وليس إلى تناوُشِها سَبيلُ[2]

أي: تتمنَّى. وهذا تمثيلٌ لطَلَبهم ما لا يكون، وهو أنْ يَنْفَعَهم إيمانُهم في ذلك الوقت كما ينفعُ المؤمنين إيمانهم في الدنيا، مَثَّل حالَهم بحال مَن يُريدُ أنْ يتناولَ الشَّيء من بُعْد؛ كما يتناولُهُ الآخرُ من قُرْب[3].

وقرأ الجمهور: «التَّناوشُ» بالواو. وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وأبو بكر بالهمز[4].

ويجوز أنْ يكونا مادَّتين: إحداهما النون والواو والشين، والأخرى النون والهمزة والشين، وتقدَّم شَرْحُهما في المفردات.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٩/ ٣١٤، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٢٧، والنكت والعيون ٤/ ٤٥٩، والكشاف ٣/ ٢٩٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦، وزاد المسير ٦/ ٤٦٩، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٥-٣٣٦.

(٢) الزاهر لابن الأنباري ١/ ٣٥١، والنكت والعيون ٤/ ٤٥٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٦.

(٣) انظر الكشاف ٣/ ٢٩٦.

(٤) السبعة ٥٣٠، والتيسير ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥١، وهي قراءة خلف من العشرة.

ويجوز أن يكون أصلُ الهمزة الواو على ما قاله الزجَّاج، وتبعه الزمخشري وابن عطية والحَوْفي وأبو البقاء.

قال الزجَّاج: كلُّ واوٍ مضمومة ضمةً لازمة فأنت فيها بالخيار إنْ شئتَ هَمَزْتَها[١]، وإنْ شئتَ تركْتَ هَمْزها[٢]، تقول: ثلاث أدْوُر بلا همز وأدْؤُر بالهمز، قال: والمعنى: من أين[٣] لهم تناولُ ما طلَبوه من التوبة بعد فواتِ وقتِها؛ لأنها إنما تُقْبَل في الدُّنيا، وقد ذهبت الدنيا فصارت على بُعدٍ من الآخرة، وذلك قوله تعالى: «من مكانٍ بعيد»[٤].

وقال الزمخشري: هُمزت الواوُ المضمومةُ كما هُمزت في أُجوه وأَدْؤُر[٥].

وقال ابن عطية: وأمَّا التَّناؤش بالهَمْز فيحتملُ أن يكون من التَّناوُش، وهُمزت الواو لما كانت مضمومةً ضَمَّة لازمة، كما قالوا: أُقِّتَت[٦].

وقال الحَوْفي: ومَن هَمز احتمل وجهان؛ أحدهما: أنْ يكون من النَّأْشِ، وهو الحركةُ في إبْطاء، ويحتمل[٧] أن يكون من ناش يَنوش، هُمزت الواو لانضمامها، كما هُمزت أُقِّتَت وأَدْؤُر.

وقال أبو البقاء: ويُقرأ بالهمز من أجل ضمَّة الواو، وقيل: هي أصل من نَأَشَه[٨]. انتهى.

وما ذكروه من أن الواو إذا كانت مَضمومةً ضمَّة لازمة يجوز أن تُبدل همزة ليس

---

(١) في (أ ز٢) والمطبوع: إن شئت تثبت همزتها.
(٢) في النسخ والمطبوع خلا (د٣): همزتها، والمثبت منها.
(٣) في المطبوع: أنى.
(٤) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٩، وانظر الكشف والبيان للثعلبي ٥/ ١٦٥، وزاد المسير ٦/ ٤٦٩-٤٧٠.
(٥) الكشاف ٣/ ٢٩٦.
(٦) في المطبوع: أفتيت، هنا وفيما يأتي، وهو تصحيف، وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦-٤٢٧.
(٧) في النسخ والمطبوع خلا (يه) ويجوز، والمثبت منها، وهما سواء.
(٨) إملاء ما منّ به الرحمن ٢/ ١٩٩.

على إطلاقه، بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كانت مُدْغماً فيها؛ نحو تَعَوُّد وتَعَوُّذ مصدرَين، ولا إذا صَحَّت في الفعل نحو: تَرَهْوَكَ تَرَهْوُكاً وتعاونَ تعاوُناً، ولم يُسمع همزتين من ذلك فلا يجوز، والتَّناوُش مثل التَّعاون، فلا يجوز همزُه لأن واوَه قد صحَّت في الفعل إذ تقول: تناوَشَ[1].

«وقد كفروا به» الضَّمير في «به» عائدٌ على ما عاد عليه «آمنَّا به» على الأقوال، والجملة حاليَّة، و«من قَبْل» أي: من قبل نُزول العَذاب.

وقرأ الجمهور: «وَيقْذِفون» مبنيّاً للفاعل، حكاية حالٍ مُتقدِّمة.

قال الحسن: قولهم: لا جَنَّة ولا نار، وزاد قتادة: ولا بَعْث.

وقال ابن زيد: طاعِنين في القرآن بقولهم: أساطيرُ الأوَّلين.

وقال مجاهد: في الرسول ﷺ بقولهم: شاعِرٌ وساحِرٌ وكاهِنٌ[2].

«من مكانٍ بعيدٍ» أي: من جهة بعيدة؛ لأن نسبتَه إلى شيءٍ من ذلك من أبعدِ الأشياء.

قال الزمخشري: وهذا تكلُّمٌ بالغيب والأمرِ الخفي؛ لأنهم لم يُشاهدوا منه سحراً ولا شعراً ولا كذباً، وقد أتَوا بهذا الغيب من جهةٍ بعيدةٍ من حاله؛ لأن أبعدَ شيءٍ مما جاء به الشِّعرُ والسِّحرُ، وأبعدَ شيءٍ من عادته التي عُرِفت بينهم وجُرِّبت الكذِبُ والزُّور[3]. انتهى.

وقيل: هو مستأنَف، أي: يتلَفَّظون بكلمة الإيمان حين لا ينفعُ نَفْساً إيمانُها، فمُثِّلَت حالُهم في طلبهم تحصيلَ ما عَطَّلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم: آمنَّا في الآخرة ـ وذلك مَطْلَبٌ مُسْتَبْعَد ـ بمَن يَقذِفُ شيئاً من مكانٍ بعيدٍ لا مجال للظَّنِّ[4]

(١) نقله عن أبي حيان: السمين في الدر ٩/ ٢٠٤، والآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٤١.
(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٢٢٠، والثعلبي ٥/ ١٦٥، والماوردي ٤/ ٤٦٠، والقرطبي ١٧/ ٣٣٨-٣٣٩، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٣٠-٤٣١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧، وزاد المسير ٦/ ٤٧٠.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٦
(٤) في النسخ والمطبوع خلا (د٣): للنظر، والمثبت منها، وهو موافق لما في الكشاف مخطوطاً ومطبوعاً، والمصنف ينقل عنه، وروح المعاني ٢٢/ ١٤٣.

في لُحوقه حيث يُريد أن يَقعَ فيه لكونه غائباً عنه بعيداً، والغيبُ الشيءُ الغائب.

وقرأ مجاهد وأبو حَيْوَة ومَحْبوب عن أبي عمرو: «ويُقْذَفون» مبنيًّا للمفعول(١).

قال مجاهد: ويَرْجُمهم الوحيُ بما يَكرهون من السَّماء(٢).

وقال أبو الفضل الرَّازي: يُرمَون بالغيب من حيث لا يعلمون، ومعناه: يُجازَون بسُوءِ أعمالهم، ولا عِلمَ لهم بمأتاه، إمَّا في حالِ تعَذُّر التوبةِ عند مُعاينة الموت، وإمَّا في الآخرة.

وقال الزمخشري: أي: يأتيهم به - يعني بالغَيْب - شياطينُهم، ويُلَقِّنونهم إياه(٣).

وقيل: يُرْمَون في النَّار. وقيل: هو مَثَل؛ لأنَّ مَن يُنادى من مكانٍ بعيد لا يَسمع، أي: هم لا يَعْقِلون ولا يَسْمعون.

«وحِيلَ بينهم» قال الحَوْفي: قام الظَّرْف مقامَ اسم ما لم يُسمَّ فاعلُهُ(٤). انتهى.

ولو كان على ما ذَكر لكان مرفوعاً «بينهم» كقراءة مَن قرأ «لقد تَقَطَّع بَيْنُكم» [الأنعام: ٩٤](٥) في أحد المعنيَين، لا يُقال لما أُضيف إلى مبنيّ وهو الضَّمير: بُني، فهو في موضع رَفعٍ وإنْ كان مبنيًّا، كما قال بعضهم في قوله:

وإذْ مــا مــثــلَــهــم بَــشَــرُ(٦)

أنه في موضع(٧) رفع لإضافته إلى الضَّمير وإن كان مفتوحاً لأنه قولٌ فاسد يجوز أن تقول: مَرَرْتُ بغُلامَكَ وقام غُلامَك بالفتح، وهذا لا يقوله أحدٌ، والبناء لأجل

(١) مختصر في الشواذ ١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٩ عن مجاهد فحسب.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٦.

(٤) نقله عنه السمين ٩/ ٢٠٧، والآلوسي ٢٢/ ١٤٤.

(٥) سلف ذكر من قرأ بالرفع، وانظر النشر ٢/ ٢٦٠.

(٦) وتمامه: فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم * إذ هم قريش، وهو للفرزدق، ديوانه ٢٢٣.

(٧) في المطبوع: مثلهم يشير إلى أنه في موضع (؟!).

الإضافة إلى المَبْنيّ ليس مُطلقاً، بل له مواضعُ أُحْكِمَت في النّحو.

وما يقول قائلٌ ذلك في قول الشاعر:

وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنَّزَوانِ[1]

فإنه نَصَبَ بين وهي مُضافة إلى مُعرب، وإنما يُخَرَّج ما وَرد من نحو هذا على أن القائمَ مقامَ الفاعلِ هو ضميرُ المصدر الدَّالّ عليه حِيل، كأنه قيل: حِيل هو، أي: الحول، ولكونه أُضْمِر لم يكن مصدراً مؤكّداً، فجاز أن يُقام مقامَ الفاعل، وعلى ذلك يُخَرَّج قول الشاعر:

وقالت متى يُبْخَلْ عليك ويُعْتَلَلْ يَسُؤْكَ[2] وإنْ يُكْشَف غَرامُكَ تَدْرَبِ

أي: ويُعْتَلَل هو، أي: الاعتلال.

والذي يَشْتهون: الرُّجوع إلى الدُّنيا. قاله ابن عباس. أو الأهل والمال والولد. قاله مجاهد. أو الإيمان. قاله الحسن. أو طاعة الله. قاله قتادة. أو التوبة. قاله السّديّ. أو بين الجيش وتَخْريب الكعبة. أو بين المؤمنين. أو بين النَّجاة من العذاب. أو بين نَعيم الدنيا ولَذّتها، قاله مجاهد أيضاً[3].

«كما فُعِل بأشْياعِهم» أي: بأشباهِهم من كَفَرَةِ الأُمم، أي: حِيل بينهم وبين مُشْتَهياتهم.

و«من قَبْل» يَصِحُّ أنْ يكونُ مُتعلّقاً بأشياعهم، أي: مَن اتَّصف بصِفتهم من قبلُ، أي: في الزّمان الأوّل، ويترجَّح بأن ما يُفعَل بجميعهم إنما هو في وقتٍ واحد.

(١) صدره: أهم بأمر الحزم لو أستطيعه، وهو لصخر بن عمرو بن الشريد أخو الخنساء، والبيت من قصيدة في الأصمعيات ١٤٦.

(٢) في المطبوع: بسوء (تحريف)، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ٣٦٨/١ (بشرح السكري).

(٣) انظر الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٣٢١-٣٢٣، ومعاني القرآن ٥/ ٤٣١، وإعراب القرآن ٣/ ٣٥٧ كلاهما للنحاس، والنكت والعيون ٤/ ٤٦٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧، وزاد المسير ٦/ ٤٧٠-٤٧١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٩. ومن قوله: قاله مجاهد... إلى: أو التوبة، ليس في المطبوع.

ويصحُّ أنْ يكون مُتعلّقاً بـ «فُعِلَ» إذا كانت الحَيْلُولةُ في الدُّنيا[١].

وقال الضَّحّاك: أشْياعُهم: أصحاب الفيل[٢]، يعني أشياع قريش، وكأنه أخرجه مخرج التمثيل. وأما التَّخصيص فلا دليلَ عليه.

«إنهم كانوا في شَكٍّ مُريب» يعني: في الدنيا، و«مُريب» اسم فاعل من أرابَ الرجلُ: أتى بريْبَةٍ ودخل فيها، وأرَبْتُ الرَّجلَ: أوقعتُه في رِيبة.

ونسبة الإرابة إلى الشَّكّ مَجازٌ. قال الزمخشري: إلا أن بينهما فَرْقاً؛ وهو أن المُريب من المتعدّي منقولٌ ممَّن يصحُّ أن يكون مُريباً من الأعيان إلى المعنى، ومن اللازم منقولٌ من صاحب الشَّكِّ إلى الشك، كما تقول: شِعرٌ شاعر[٣]. انتهى، وفيه بعض تبيين.

قيل: ويجوز أنْ يكون أرْدَفَه على الشكِّ، وهما بمعنى، لتَناسُقِ آخرِ الآية بالتي قبلها «من مكانٍ قريب» كما تقول: عَجَبٌ عَجيب، وشتاءٌ شاتٍ، وليلةٌ لَيْلاء.

وقال ابن عطية: الشكُّ المُريب أقوى ما يكون من الشكِّ وأشَدّه إظلاماً[٤].

❁ ❁ ❁

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾،

من أول سورة فاطر

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧.
(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٦٠، وزاد المسير ٦/ ٤٧١.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٧.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧.

(٣٤) سورة سبأ مكية
وآياتها أربع وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ
مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره، كما قال تعالى: ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾، ثم قال تعالى: ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى، وقوله تعالى: ﴿وهو الحكيم﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ﴿الخبير﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء، وقال الزهري: خبير بخلقه حكيم بأمره، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾ أي يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته ﴿وما ينزل من السماء﴾ أي من قطر ورزق، ﴿وما يعرج فيها﴾ أي من الأعمال الصالحة وغير ذلك، ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة ﴿الغفور﴾ عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى
صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس، وهي قوله تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾، والثانية هذه: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾، والثالثة في سورة التغابن وهي قوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾، فقال تعالى: ﴿قل بلى وربي لتأتينكم﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ قال مجاهد وقتادة: ﴿لا يعزب عنه﴾ لا يغيب عنه، أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم. ثم بيَّن حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله ﴿أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾ أي لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾. وقال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾؟ وقوله تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾، ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ العزيز هو المنيع الجناب الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله جلَّ وعلا.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

هذا إخبار من الله عزَّ وجلَّ عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك، ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق﴾ أي تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق، ﴿إنكم﴾ أي بعد هذا الحال ﴿لفي خلق جديد﴾ أي تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك؟ ﴿أفترى على الله كذباً أم به جنة﴾؟ قال الله عزَّ وجلَّ راداً عليهم: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿في العذاب﴾ أي الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى، ﴿والضلال

البعيد﴾ من الحق في الدنيا، ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض، ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾، أي حيثما توجهوا وذهبوا، فالسماء مطلة عليهم والأرض تحتهم، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ۝ والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ قال قتادة: إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك أو من بين يديك أو من خلفك رأيت السماء والأرض، وقوله تعالى: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا، ثم قال: ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾، قال قتادة: ﴿منيب﴾ تائب، وعنه: المنيب المقبل إلى الله تعالى، أي إن في النظر إلى خلق السماوات والأرض، لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجَّاع إلى الله، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد، لأن من قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها، وأطوالها وأعراضها إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى﴾، وقال تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود». ومعنى قوله تعالى: ﴿أوبي﴾ أي سبحي[1]، والتأويب في اللغة الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها، وقوله تعالى: ﴿وألنا له الحديد﴾ قال الحسن البصري وقتادة: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، ولهذا قال تعالى: ﴿أن اعمل سابغات﴾ وهي الدروع، قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح، وقال ابن شوذب: كان داود عليه السلام يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم، ألفين له ولأهله وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري[2]، ﴿وقدّر في السرد﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع، قال مجاهد ﴿وقدر في السرد﴾ لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة، ولا تغلظه فيقصمها واجعله بقدر، وقال الحكم بن عيينة: لا تغلظه فيقصم ولا تدقه فيقلق، وقال ابن عباس: السرد حلق الحديد. وقال بعضهم: يقال درع مسرودة إذا كانت مسمورة الحلق، واستشهد بقول الشاعر

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن شوذب.

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر عن وهب بن منبه أن داود عليه السلام كان يخرج متنكراً، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته وعدله عليه السلام. قال وهب: حتى بعث الله تعالى ملَكاً في صورة رجل فلقيه داود عليه الصلاة والسلام، فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً، قال: ما هي؟ قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين يعني بيت المال، فعند ذلك نصب داود عليه السلام إلى ربه عزَّ وجلَّ في الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغني به ويغني به عياله فألان الله عزَّ وجلَّ له الحديد وعلمه صنعة الدروع فعمل الدروع وهو أول من عملها، فقال الله تعالى: ﴿أن اعمل سابغات وقدر في السرد﴾ يعني مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدرع فإذا ارتفع من عمله درع باعها فتصدق بثلثها واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها، وقال: إن الله تعالى أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت، إنه كان إذا قرأ الزبور تجتمع الوحوش إليه حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته عليه السلام، وكان شديد الاجتهاد، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكان قد أعطي سبعين مزماراً في حلقه، وقوله تعالى: ﴿واعملوا صالحاً﴾ أي في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿إني بما تعملون بصير﴾ أي مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم لا يخفى عليّ من ذلك شيء.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على (داود) عطف بذكر ما أعطى ابنه (سليمان) عليهما الصلاة والسلام، من تسخير الريح له تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر، قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدى بها، ويذهب رائحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع، وقوله تعالى: ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد: القطر النحاس، قال قتادة: وكانت باليمن فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام، قال السدي: وإنما أسيلت له ثلاثة أيام، وقوله تعالى: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾ أي وسخرنا له الجن يعملون بين يديه ﴿بإذن ربه﴾ أي بقدره وتسخيره لهم بمشيئته، ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ أي ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نذقه من عذاب السعير﴾ وهو الحريق، وقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل﴾ أما المحاريب فهي البناء الحسن وهو أشرف شيء في المسكن وصدره، وقال مجاهد: المحاريب بنيان دون القصور، وقال الضحاك: هي المساجد، وقال قتادة: هي القصور والمساجد، وقال ابن زيد: هي المساكن، وأما التماثيل، فقال الضحاك والسدي: التماثيل الصور، قال مجاهد:

وكانت من نحاس، وقال قتادة: من طين وزجاج. وقوله تعالى: ﴿وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾ الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء، قال الأعشى:

تروح عـلى آل المحلـق جفنـة كجابية الشيخ العراقي تفهـق

وقال ابن عباس ﴿كالجواب﴾ كالحياض[1]، والقدور الراسيات أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها، وقال عكرمة: أثافيها منها، وقوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ أي وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا، قال السلمي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عزَّ وجلَّ شكر، وأفضل الشكر الحمد[2]. وقال القرظي: الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً، قال ابن أبي حاتم عن ثابت البناني قال: كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فغمرتهم هذه الآية ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة دلود، كان ينام نصف الليـل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى». وقد روي عن جابر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «قالت أم سليمان بن داود عليهم السلام لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة»[3]. وقال فضيل في قوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ قال: داود يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: «الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني»، وقوله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ إخبار عن الواقع.

* فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عمّى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه وهي منسأته مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض وهي (الأرضة) ضعفت وسقط إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك[4]. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال سليمان عليه السلام لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني، فأتاه فقال: يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير، وليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه، قال: فدخل عليه ملك الموت فقبض

---

(١) وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم.

(٢) رواه ابن جرير عن أبي عبد الرحمن السلمي.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه.

(٤) ذكر عند تفسير هذه الآية أخبار غريبة من الإسرائيليات ضربنا صفحاً عنها.

روحه وهو متكيء على عصاه، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت، قال: والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي. قال: فبعث الله عزَّ وجلَّ دابة الأرض، قال: والدابة تأكل العيدان يقال لها: القادح، فدخلت فيها فأكلتها، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر ميتاً، فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته﴾ قال أصبغ: بلغني أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخر، وذكر غير واحد من السلف نحواً من هذا، والله أعلم.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر، كما سيأتي قريباً، روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن وعلة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: «بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان»[1]، قال علماء النسب: اسم سبأ (عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان) وإنما سمي سبأ، لأنه أول من سبأ في العرب، ومعنى قوله ﷺ: «كان رجلاً من العرب» يعني من سلالة الخليل عليه السلام، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ مر بنفر من أسلم ينتضلون فقال: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً»[2]، فأسلم قبيلة من (الأنصار) والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد حين بعث الله عزَّ وجلَّ عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم غسان بماء نزلوا عليه قريب من المشلل، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إما سألت فإنا معشر نجب ... الأزد نسبتنا والماء غسان

ومعنى قوله ﷺ: «ولد له عشرة» أي كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب، ومعنى قوله ﷺ: «فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة» أي بعد ما أرسل

(١) رواه الإمام أحمد وابن جرير والترمذي وقال: حسن غريب، قال ابن كثير: ورواه ابن عبد البر عن تميم الداري مرفوعاً فذكر مثله فقوي هذا الحديث وحسن.

(٢) أخرجه البخاري.

الله تعالى عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقادم، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً، حتى ارتفع الماء، وحكم على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف، أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل - وهو الذي تخترف فيه الثمار - فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه، من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف، لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب[1]. ويذكر أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج، وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية﴾ ثم فسرها بقوله عزَّ وجلَّ ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك، ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾ أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد، وقوله تعالى: ﴿فأعرضوا﴾ أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾ قال السدي: أرسل الله عزَّ وجلَّ إليهم اثني عشر ألف نبي والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾ المراد بالعرم المياه، وقيل: الوادي، وقيل: الماء الغزير. وذكر غير واحد منهم ابن عباس وقتادة والضحاك: أن الله عزَّ وجلَّ لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها الجرذ، نقبته، وانساب الماء في أسفل الوادي، وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو الأراك وأكلة البربر (وأثل) هو الطرفاء، وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء، وقيل: هو السمر والله أعلم، وقوله: ﴿وشيء من سدر قليل﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر، قال ﴿وشيء من سدر قليل﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾ أي عاقبناهم بكفرهم، قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور. وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور، وقال ابن أبي حاتم عن ابن خيرة وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة، قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصه إياها[2]

(١) مأرب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف هذا السد بسد مأرب.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم.

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمراً، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء، وقال مجاهد والحسن: هي قرى الشام، يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة، وقال ابن عباس: القرى التي باركنا فيها بيت المقدس، وعنه: هي قرى عربية بين المدينة والشام ﴿ قرى ظاهرة ﴾ أي بينة واضحة يعرفها المسافرون، يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى، ولهذا قال تعالى: ﴿ وقدرنا فيها السير ﴾ أي جعلنا بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿ سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً، ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ وذلك أنهم بطروا هذه النعمة، وأحبوا مفاوز ومهامه، يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في المخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ﴿ من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ﴾ مع أنهم كانوا في عيش رغيد، في مَنٍّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة، قال تعالى: ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾، وقال تعالى في حق هؤلاء ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ أي بكفرهم، ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس، وسمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد ههنا وههنا، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ، وتفرقوا شذر مذر، قال الشعبي :أما غسان فلحقوا بعمان فرقهم الله كل ممزق بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان فرقهم الله كل ممزق[1].

وقوله تعالى: ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أي إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام، لعبرة لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم، روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى امرأته»[2]، وهذا الحديث له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير عن الشعبي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه النسائي وهو حديث عزيز من رواية عمر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنهما.

رضي الله عنه: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»، قال قتادة ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال: ﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه﴾، قال ابن عباس: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾، وقال ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ والآيات في هذا كثيرة، وقال الحسن البصري: لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما، وقال: إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف، وكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾، فقال عند ذلك إبليس: لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح، أعده وأمنيه وأخدعه، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما لم يغرغر بالموت، ولا يدعوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرت له[1]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما كان له عليهم من سلطان﴾ قال ابن عباس: أي من حجة، وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأماني، دعاهم إليها فأجابوه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ أي إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة والحساب والجزاء، فيحسن عبادة ربه عزَّ وجلَّ في الدنيا ممن هو منها في شك، وقوله تعالى: ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ أي ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

بيّن تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ أي من الآلهة التي عبدت من دونه، ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾، كما قال تعالى: ﴿والذين يدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾، وقوله تعالى: ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾ أي لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل

(١) رواه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري.

الشركة ﴿وما له منهم من ظهير﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من معين يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه، قال قتادة في قوله عزَّ وجلَّ ﴿وما له منهم من ظهير﴾ من عون يعينه بشيء، ثم قال تعالى: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه، لا يجترىء أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء، إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾؟ وقال جلَّ وعلا: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾، وقال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله تعالى، أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم، قال: «فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن. ثم يقال يا محمد ارفع رأسك، وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع» الحديث بتمامه. وقوله تعالى: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق﴾، وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة. وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، قال ابن مسعود ﴿فزّع عن قلوبهم﴾ أي زال الفزع عنها، وقال ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق﴾ يقول: خلي عن قلوبهم، فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿قالوا الحق﴾ أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿وهو العلي الكبير﴾.

وقال آخرون: بل معنى قوله تعالى: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ يعني المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة، إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم: الحق، وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا، قال مجاهد ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ كشف عنها الغطاء يوم القيامة، وقال الحسن ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ يعني ما فيها من الشك والتكذيب، وقال ابن أسلم ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ يعني ما فيها من الشك قال فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ قال: وهذا في بني آدم – هذا عند الموت – أقروا حين لا ينفعهم الإقرار؛ وقد اختار ابن جرير القول الأول أن الضمير عائد على (الملائكة) وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار، قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه عن سفيان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض – ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه – فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فيصدّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[1]. وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال، قال رسول

(١) أخرجه البخاري ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

الله ﷺ: «إذا أراد الله تبارك وتعالى أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السماوات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة من خوف الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه (جبريل) عليه الصلاة والسلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة، كلما مر بسماء سماء يسأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل، فيقول عليه السلام: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض»[1]

* قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى مقرراً تفرده بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره، وقوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ أي واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى، ولهذا قال: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ قال قتادة قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين، والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إنَّ أحد الفريقين لمهتد. وقال عكرمة: معناها إنا نحن لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين، وقوله تعالى: ﴿قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ معناه التبري منهم أي لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا كما قال تعالى: ﴿فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾، وقوله تعالى: ﴿قل يجمع بيننا ربنا﴾ أي يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾ أي يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وهو الفتاح العليم﴾ أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾ أي أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً، (كلا) أي ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عديل، ولهذا قال تعالى: ﴿بل هو الله﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له، ﴿العزيز الحكيم﴾ أي ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء، وغلبت كل شيء، (الحكيم) في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن خزيمة عن النواس بن سمعان مرفوعاً.

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ أي إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تبارك وتعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾، قال محمد ابن كعب: يعني إلى الناس عامة، وقال قتادة: أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عزَّ وجلَّ، وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا: يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء؟ قال رضي الله عنه إن الله تعالى قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ وقال للنبي ﷺ: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس، وهذا كما ثبت في الصحيحين، قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1]، وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت إلى الأسود والأحمر» قال مجاهد: يعني الجن والإنس، وقال غيره يعني العرب والعجم، والكل صحيح، ثم قال عزَّ وجلَّ مخبراً عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذه الآية، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ أي لكم ميعاد مؤجل، لا يزاد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود * يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد﴾.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

(١) أخرجاه في الصحيحين عن جابر بن عبد الله مرفوعاً.

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم، وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، وبما أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ قال الله عزَّ وجلَّ متهدداً لهم ومتوعداً ومخبراً عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم، ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا﴾ وهم الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم: ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ أي لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل، وآمنا بما جاءونا به، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾، أي نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بل كنتم مجرمين ۞ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾ أي بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتغرّونا وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين، قال قتادة وابن زيد ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ يقول: بل مكركم بالليل والنهار، ﴿إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شبهاً وأشياء تضلونا بها، ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه، ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي إنما نجازيكم بأعمالكم، كلٌّ بحسبه للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم، ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لهبها، ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب»[1]

۞ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ، وآمراً له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبراً له بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾، وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ۞ قال

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾، وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾، وقال جلَّ وعلا: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾، وقال جلَّ وعلا ههنا: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾ أي نبي أو رسول ﴿إلا قال مترفوها﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة، قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي لا نؤمن به ولا نتبعه، عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل، فكتب إليه إنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبه، فقال: دلني عليه، وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب، قال: فأتى النبي ﷺ فقال: إلامَ تدعو؟ قال: «أدعو إلى كذا وكذا» قال: أشهد أنك رسول الله، قال ﷺ: «وما علمك بذلك؟» قال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾[1]، وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها: وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم، فزعمت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل[2]. وقال تبارك وتعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات؟ بل لا يشعرون﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾، ولهذا قال عزَّ وجلَّ ها هنا: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، ثم قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾ أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمانُ والعمل الصالح ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ أي تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ أي في منازل الجنة العالية ﴿آمنون﴾ من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه.

عن علي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها» فقال أعرابي: لمن هي؟ قال ﷺ: «لمن طيَّب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[3]. ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ أي يسعون في الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته، ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾ أي جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم، وقوله تعالى: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ أي بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه الشيخان.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

كثيراً، ويضيّق على هذا ويقتر عليه رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ أي كما هم متفاوتون في الدنيا هذا فقير مدقع وهذا غني موسع عليه، فكذلك هم في الآخرة، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات، وأطيب الناس في الدنيا، كما قال ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»[1]، وقوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبذل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: «يقول الله تعالى أنفقْ أُنفقْ عليك»، وقال رسول الله ﷺ: «أنفقْ بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»، وعن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض يعض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق»، ثم تلا هذه الآية ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾[2]، وفي الحديث: «شرار الناس يبايعون كل مضطر، ألا إن بيع المضطرين حرام، ألا إن بيع المضطرين حرام، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، إن كان عندك معروف فعد به على أخيك، وإلا فلا تزده هلاكاً إلى هلاكه»[3]، وقال مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه يقرّع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾، وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾، وهكذا تقول الملائكة: ﴿سبحانك﴾ أي تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إلٰه ﴿أنت ولينا من دونهم﴾ أي نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ يعنون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ٭ لعنه الله﴾، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً﴾ أي لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم، من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ وهم المشركون ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الحافظ الموصلي وفي إسناده ضعف.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون العقوبة والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات، يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل، ﴿وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى﴾ يعنون القرآن، ﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا سحر مبين﴾، قال الله تعالى: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير، أو أنزل علينا كتاب، لكنا أهدى من غيرنا، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه، ثم قال تعالى: ﴿وكذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم ﴿وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾، قال ابن عباس: أي من القوة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أكثر منهم وأشد قوة﴾ أي وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله، ولهذا قال: ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي.

* ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾ أي إنما آمركم بواحدة، وهي ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ أي تقوموا قياماً خالصاً لله عزَّ وجلَّ من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً، ﴿ثم تتفكروا﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾، قال البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش فقالوا: مالك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم

(١) هذا معنى ما ذكره مجاهد ومحمد بن كعب والسدي وقتادة وغيرهم، وتفسير الآية بالقيام في الصلاة في جماعة وفرادى بعيد كما ذكر ابن كثير.

أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني » قالوا: بلى ؟ قال ﷺ: « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »، فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾. وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات فقال: « أيها الناس تدرون ما مثلي ومثلكم ؟ » قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم، قال ﷺ: « إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه: أيها الناس أوتيتم، أيها الناس أوتيتم » ثلاث مرات.

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿ ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾، أي لا أريد منكم جعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله عزَّ وجلَّ إليكم، ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾، أي إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ أي عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ﴾، كقوله تعالى: ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ أي يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ قل جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد ﴾ أي جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل واضمحل، كقوله تعالى: ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يطعن الصنم منها ويقرأ: ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾، ﴿ قل جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد ﴾[1]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أي لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة، وزعم قتادة والسدي أن المراد بالباطل ها هنا إبليس أي أنه لا يخلق أحداً ولا يعيده ولا يقدر على ذلك، وهذا وإن كان حقاً، ولكن ليس هو المراد ههنا والله أعلم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي ﴾ أي الخير كله من عند الله وفيما أنزل الله عزَّ وجلَّ، من الوحي والحق المبين، فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه، وقوله تعالى: ﴿ إنه سميع قريب ﴾ أي سميع لأقوال عباده ﴿ قريب ﴾ يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وقد روي في الصحيحين: « إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً ».

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: ولو ترى يا محمد إذا فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿فلا فوت﴾ أي فلا مفر لهم ولا وزر لهم ولا ملجأ ﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ أي لم يمكنوا أن يمعنوا في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة، قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم، وقال مجاهد وقتادة: من تحت أقدامهم، وعن ابن عباس والضحاك: يعني عذابهم في الدنيا، وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني قتلهم يوم بدر، والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلاً بذلك، ﴿وقالوا آمنا به﴾ أي يوم القيامة يقولون آمنا بالله ورسله كما قال تعالى: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ أي وكيف لهم تعاطي الإيمان، وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي (دار الجزاء) لا دار الابتلاء؟ فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، قال مجاهد: ﴿وأنى لهم التناوش﴾ قال: التناول لذلك، وقال الزهري: التناوش تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا، وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد، وقال ابن عباس: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة.

وقوله تعالى: ﴿وقد كفروا به من قبل﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل، ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ يعني بالظن، كما قال تعالى: ﴿رجماً بالغيب﴾ فتارة يقولون شاعر، وتارة يقولون كاهن، وتارة يقولون ساحر، وتارة يقولون مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد، ﴿ويقولون إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ قال قتادة ومجاهد: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار، وقوله تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما: يعني الإيمان، وقال السدي ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾: وهي التوبة، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، وقال مجاهد: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل[1]، والصحيح أنه لا منافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه. وقوله تعالى: ﴿كما فعل بأشياعهم من قبل﴾ أي كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله، تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنهم كانوا في شك مريب﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وريبة فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب، قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

[آخر تفسير سورة سبأ والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب]

(١) وروي نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع بن أنس وهو قول البخاري وجماعة من العلماء.

تفسير سُورة سَبأ

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمدَ المطلق فى الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم فى جميع ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، كما قال : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ [الليل : ١٣] .

ثم قال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ ﴾ ، فهو المعبود [1] أبدا ، المحمود على طول المدى . وقال : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أى : فى أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره ، ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شىء .

وقال مالك عن الزهرى : خبير بخلقه ، حكيم بأمره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أى : يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض ، والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ، ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من قطر ورزق ، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ، ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أى : الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة ، الغفور [2] عن ذنوب [عباده] [3] التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) ﴾ .

---

(١) فى أ : « المحمود » .   (٢) فى ت : « العفو » .   (٣) زيادة من أ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس : ﴿ **وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** ﴾ [يونس : ٥٣] ، والثانية هذه : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** ﴾ ، والثالثة فى التغابن: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن : ٧] ، فقوله : ﴿ **قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ**(١) ﴾ ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره : ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : ﴿ **لا يَعْزُبُ عَنْهُ** ﴾ : لا يغيب عنه ، أى : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شىء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين (٢) تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شىء عليم .

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : ﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** ﴾ أى : سعوا فى الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ، ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ** ﴾ أى : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص : ٢٨] .

وقوله : ﴿ **وَيَرَى** (٣) **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَ** ﴾ : هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذى كانوا قد علموه من كتب الله فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضًا : ﴿ **لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِ** ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ويقال أيضا : ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** ﴾ [يس : ٥٢] ، ﴿ **لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ** ﴾ [الروم : ٥٦]، ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ . العزيز هو : المنيع الجناب (٤) ، الذى لا يُغالب ولا يُمانع ، بل قد قهر كل شىء ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله .

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** (٧) **أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ** (٨) **أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** (٩) ﴾ .

---

(١) فى ت : « ليأتينكم » .
(٢) فى أ : « وإن » .
(٣) فى س : « وترى » .
(٤) فى أ : « الجبار » .

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : تفرقت[1] أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أي : بعد هذا الحال ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك ، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لُبِّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ ؟ قال الله تعالى رادًا عليهم: ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ أي : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ أي : [في] [2] الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله ، ﴿ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ من [3] الحق في الدنيا .

ثم قال منبهًا لهم على قدرته في خلق السموات والأرض ، فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : حيثما [4] توجهوا وذهبوا فالسماء مُظلّة مُظَلَّلة عليهم ، والأرض تحتهم ، كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧ ، ٤٨] .

قال [5] عبد بن حميد : أخبرنا عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ ؟قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ : قال مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ مُّنِيبٍ ﴾ : تائب .

وقال سفيان [6] عن قتادة : المنيب : المقبل إلى [7] الله عز وجل .

أي : إن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى الله ، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها [8] واتساعها ، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم [9] بَلَىٰ ﴾ [يس : ٨١] ، وقال : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

---

(١) في ت : « فرقت » . (٢) زيادة من ت ، أ . (٣) في أ : « عن » .
(٤) في ت ، س : « حيث » . (٥) في ت : « روى » . (٦) في أ : « شيبان » .
(٧) في ت ، أ : « على » . (٨) في ت ، س : « وارتفاعها » .
(٩) في ت ، س ، أ : « على أن يحيى الموتى » ، والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود ، صلوات الله وسلامه عليه ، ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العَدَد والعُدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته [(١)] ، ثم قال « لقد أوتى هذا مِزْمَارًا من مزامير آل داود » .

وقال أبو عثمان النهدى : ما سمعت صوت صَنج ولا بَرْبَط ولا وَتَر أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه [(٢)] .

ومعنى قوله : ﴿ أَوِّبِي ﴾ أى : سبحى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد .

وزعم أبو [(٣)] ميسرة أنه بمعنى سبِّحى بلسان الحبشة . وفى هذا نظر ، فإن التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى فى كتابه « الجُمل » فى باب النداء منه : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أى : سيرى معه بالنهار كله ، والتأويب : سير النهار كله ، والإسآد [(٤)] : سير الليل كله . وهذا لفظه ، وهو غريب جداً لم أجده [(٥)] لغيره ، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ فى اللغة، لكنه بعيد فى معنى الآية هاهنا . والصواب أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أى : رَجِّعى مُسَبِّحة معه ، كما تقدم ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ : قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يُدخلَه نارًا ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ وهى : الدروع . قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح.

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا ابن سَمَاعة ، حدثنا ابن ضَمْرَة [(٦)] ، عن ابن شَوْذَب قال : كان داود ، عليه السلام ، يرفع فى كل يوم درعًا فيبيعها بستة آلاف درهم : ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحُوَّارى .

---

(١) فى ت : « فاستمع رسول الله لقراءته » .
(٢) سبق تخريج الحديث والأثر فى فضائل القرآن .
(٣) فى أ : « ابن » . (٤) فى أ : « والآباد » . (٥) فى أ : « لم أر » ، وفى ت : « لم أره » .
(٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : هذا إرشاد من الله لنبيه داود ، عليه السلام ، فى تعليمه صنعة الدروع.

قال مجاهد فى قوله : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : لا تُدقّ المسمار فَيقلَق فى الحلقة ، ولا تُغَلّظه فيفصمها ، واجعله بقدر .

وقال الحكم بن عُتيبة (١) : لا تُغَلظه فيفصم ، ولا تُدِقّه فيقلَق (٢) . وهكذا روى عن قتادة ، وغير واحد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : السرد : حَلَق (٣) الحديد . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الحلق ، واستشهد بقول الشاعر (٤) :

وَعَلَيهما مَسْرُودَتَان قَضَاهُما « دَاوُد » ، أو صنعَ السَّوابغ « تُبَّعُ »

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود ، عليه السلام ، (٥) من طريق إسحاق بن بشر ـ وفيه كلام ـ عن أبى إلياس ، عن وهب بن مُنَبه ما مضمونه : أن داود ، عليه السلام ، كان يخرج متنكرًا، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته ، فلا يسأل أحدًا إلا أثنى عليه خيرًا فى عبادته وسيرته ومعدلته ، صلوات الله وسلامه عليه . قال وهب : حتى بعث الله ملكا فى صورة رجل ، فلقيه داود فسأله كما كان يسأل غيره ، فقال : هو خير الناس لنفسه ولأمته ، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملا قال : ما هى ؟ قال : يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين ، يعنى : بيت المال ، فعند ذلك نصب داود، عليه السلام ، إلى ربه فى الدعاء أن يعلمه عملا بيده يستغنى به ويغنى به عياله ، فألان له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع ، فعمل الدرع (٦) ، وهو أول من عملها ، فقال الله : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ يعنى : مسامير الحلق ، قال : وكان يعمل الدرع (٧) ، فإذا ارتفع من عمله درع باعها ، فتصدق بثلثها ، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يوما بيوم إلى أن يعمل غيرها . وقال : إن الله أعطى داود شيئًا لم يعطه غيره من حسن الصوت ، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش (٨) حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته . وكان شديد الاجتهاد ، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ فى المزامير ، وكأن (٩) قد أعطى سبعين مزمارًا فى حلقه .

وقوله : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أى : فى الذى أعطاكم الله من النعم ، ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى: مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شىء .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ

---

(١) فى س ، أ : « عيينة » . (٢) فى ت ، أ : « فيفلق » . (٣) فى ت ، س : « هو » .
(٤) هو أبو ذؤيب الهذلى ، والبيت فى اللسان مادة (قضى) .
(٥) تاريخ دمشق (٥ / ٧٠٨ المخطوط) .
(٦ ، ٧) فى ت ، أ : « الدروع » . (٨) فى ت ، س ، أ : « تجتمع الوحوش إليه » . (٩) فى ت ، س : « وكان » .

مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى سليمان (١) ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ، غدوها شهر ورواحها شهر .

قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدّى (٢) بها ، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع .

وقوله : ﴿ **وَأَسَلْنَا** (٣) **لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ** ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراسانى، وقتادة ، والسدى ، ومالك عن زيد بن أسلم ، و (٤) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد : القطر : النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ، عليه السلام .

قال السدى : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله : ﴿ **وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ** ﴾ أى : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أى : بقدره (٥) ، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك . ﴿ **وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا** ﴾ أى : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ **نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ وهو الحريق .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا فقال : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن جبير بن نُفَير (٦) ، عن أبى ثعلبة الخُشَنىّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « الجن على ثلاثة أصناف : صنف له أجنحة يطيرون فى الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون » . رفعه غريب جدًا (٧) .

وقال (٨) أيضا : حدثنا أبى ، حدثنا حَرْمَلَة ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى بكر (٩) بن مُضَر ، عن محمد ، عن ابن أنعم أنه قال : الجن ثلاثة : صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب .

قال بكر بن مضر : ولا أعلم إلا أنه قال : حدثنى أن الإنس ثلاثة (١٠) : صنف يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة . وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وصنف فى صُوَر الناس على قلوب الشياطين.

---

(١) فى ت ، أ : « ما أعطى ابنه سليمان بن داود » وفى س : « ما أعطى ابنه سليمان » . (٢) فى ت : « فيتغذى » .
(٣) فى ت : « واسالنا » . (٤) فى ت : « بن » .
(٥) فى ت ، أ : « أى الإذن القدرى » وفى س : « أى القدرى » . (٦) فى ت : « وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثًا غريبًا بإسناده » .
(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٤٥٦) وصححه ، ووافقه الذهبى ، والطبرانى فى الكبير (٢٢ / ٢١٤) من طريق عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح به ، ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٠٠٧) من طريق ابن وهب عن معاوية بن صالح ، به .
(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « بكير » . (١٠) فى أ : « ثلاثة أصناف » .

وقال أيضا [١] : حدثنا أبى : حدثنا على بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة ـ يعنى: ابن الفضل ـ عن إسماعيل ، عن الحسن [٢] قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان .

وقوله : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ : أما المحاريب فهى البناء الحسن ، وهو أشرف شىء فى المسكن وصدره .

وقال مجاهد : المحاريب بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هى المساجد . وقال قتادة : هى المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هى المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التماثيل : الصور . قال مجاهد :وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ : الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

تَـرُوحُ عَلَى آلِ المُحَـلَّق جَفْـنَـةٌ ... كَجَابِيَةِ الشَّيخِ العِرَاقى تَفْهَق [٣] [٤]

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أى : كالجَوبة من الأرض .

وقال العوفى ، عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك وغيرهم .

والقدور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها [٥] لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما .

وقال عكرمة : أثافيها منها .

وقوله : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ أى : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين .

وشكرًا : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية ، كما قال :

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاء منِّى [٦] ثَلاثةً : ... يدِى ، ولِسَانى ، والضَّمِير المُحَجَّبَا

قال أبو عبد الرحمن الحُبلى [٧] : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير .

وروى هو وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القُرَظى قال : الشكر تقوى الله والعمل الصالح.

---

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم أيضا » . (٢) فى ت : « الحسين » . (٣) فى ت : « بقهق »
(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢ / ٤٩) .
(٥) فى ت ، س ، أ : « أماكنهم » . (٦) فى ت : « عندى » .
(٧) فى هـ ، ت ، س ، أ : « السلمى » والتصويب من الطبرى ٢٢ / ٥٠ ، مستفادا من طبعة الشعب .

وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وقد كان آل داود ، عليه السلام ، كذلك قائمين بشكر الله قولا وعملا .

قال (١) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى بكر ، حدثنا جعفر ـ يعنى : ابن سليمان ـ عن ثابت البُنانى قال : كان داود ، عليه السلام ، قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتى عليهم (٢) ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى ، فغمرتهم هذه الآية: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما. ولا يَفر إذا لاقى » (٣) .

وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سُنَيْد بن داود ، حدثنا يوسف بن محمد بن المُنْكَدِر ، عن أبيه ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قالت أمّ سليمان بن داود لسليمان : يا بنى ، لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرًا يوم القيامة » (٤) .

وروى ابن أبى حاتم عن داود ، عليه السلام ، هاهنا أثرا غريبا مطولا جدا ، وقال أيضًا :

حدثنا أبى ، حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا أبو يزيد (٥) فيض بن إسحاق الرقى (٦) قال : قال فضيل فى قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ . فقال داود : يا رب ، كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك ؟ قال : « الآن شكرتنى حين علمت (٧) أن النعمة (٨) منى » .

وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ : إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ، عليه السلام ، وكيف عَمَّى الله موته على الجانّ المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئًا على عصاه ـ وهى منْسَأته ـ كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وغير واحد ـ مدة طويلة نحوا من سنَة ، فلما أكلتها (٩) دابةُ الأرض ، وهى الأرضة، ضعفت (١٠) وسقط (١١) إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ـ تبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

---

(١) فى ت : « روى » . (٢) فى ت : « لا يأتى عليهن » ، وفى أ : « لا يأتى عليهم » .
(٣) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) .
(٤) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٤٣٣) : « هذا إسناد ضعيف » .
(٥) فى هـ : « زيد » والمثبت من ت ، س ، أ ، والجرح والتعديل ٣ / ٢ / ٨٨ مستفادًا من طبعة الشعب .
(٦) فى أ : « المرى » . (٧) فى ت ، س : « قلت » .
(٨) فى أ : « النعم » . (٩) فى ت : « فلما أكلت العصا » .
(١٠) فى ت ، س ، أ : « فضعفت » . (١١) فى أ : « وسقطت » .

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع غريب ، وفي صحته نظر ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة ، حدثنا إبراهيم بن طَهْمَان ، عن عطاء ، عن السائب ، عن سعيد بن جبير (١) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « كان سليمان نبي الله ، عليه السلام ، إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا . فيقول : لأي شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس غُرِسَتْ ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ . فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأي شيء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت . فقال سليمان : اللهم ، عَمِّ على الجن موتتي (٢) حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . فنحتها عصًا ، فتوكأ عليها حولا ميتا ، والجن تعمل . فأكلتها الأرضة ، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا [حولا] (٣) في العذاب المهين » .

قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال : « فشكرت الجن الأرضة (٤) ، فكانت تأتيها بالماء»(٥).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، من حديث إبراهيم بن طَهْمان ، به . وفي رفعه غرابة ونكارة ، والأقرب أن يكون موقوفًا ، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابات ، وفي بعض حديثه نكارة .

وقال السُّدِّي ، في حديث ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ـــ وعن مُرة الهمداني ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ، قال : كان سليمان يتحرر في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه ، فأدخله في المرة التي توفي فيها ، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة ، فيأتيها فيسألها ، فيقول : ما اسمك ؟ فتقول : اسمي كذا وكذا . فإن كانت لغرس غرسها ، وإن كانت نبْتَ دواء قالت : نَبَتٌّ دواء لكذا وكذا . فيجعلها (٦) كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها : الخرّوبة ، فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . قال : ولأي شيء نَبَتٍّ ؟ قالت : نبت لخراب هذا المسجد . قال سليمان : ما كان الله لِيُخَرِّبه وأنا حي ؟ أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس . فنزعها وغرسها في حائط له ، ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئا على عصاه ، فمات ولا تعلم (٧) به الشياطين ، وهم في ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم. وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كُوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول : ألست جلدا (٨) إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في المحراب إلا احترق . فمر ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق . ونظر إلى سليمان، عليه السلام ، قد سقط ميتا . فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات . ففتحوا (٩) عنه

---

(١) في ت : « رواه ابن جرير بإسناده » .
(٢) في ت : « موتي » .
(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، والطبري .
(٤) في ت ، س ، أ : « للأرضة » .
(٥) تفسير الطبري (٢٢ / ٥١) .
(٦) في ت ، س : « فيجعل الشجرة » .
(٧) في أ : « ولم يعلم » .
(٨) في ت : « جليدا » .
(٩) في هـ ، س : « فتنحوا » .

فأخرجوه . ووَجدوا منسأته ـ وهى : العصا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ؟ فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت منها يوما وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة . وهى فى قراءة ابن مسعود : فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا [١] ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب ، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا فى العذاب يعملون له سنة ، وذلك قول اللّه [٢] عز وجل : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾ . يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين ـ قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ـ قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب ؟ فهو ما تأتيها به الشياطين ، شكراً [٣] لها [٤] .

وهذا الأثر ـ واللّه أعلم ـ إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب ، وهى وَقْفٌ ، لا يصدق منها[٥] إلا ما وافق الحق ، ولا يُكذب منها إلا ما خالف الحق ، والباقى لا يصدق ولا يكذب [٦] .

وقال ابن وهب وأصبغ بن الفرج ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** ﴾ قال : قال سليمان ، عليه السلام ، لملك الموت : إذا أمرتَ بى فأعلمنى . فأتاه فقال : يا سليمان ، قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويعة . فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ، وليس له باب ، فقام يصلي فاتكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت ، فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن يعملون[٧] بين يديه وينظرون إليه ، يحسبون أنه حى . قال : فبعث اللّه ، عز وجل ، دابة الأرض . قال : والدابة تأكل العيدان ـ يقال لها : القادح ـ فدخلت فيها فأكلتْها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت ، وثقل عليها فخر ميتًا ، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** ﴾ . قال أصبغ : بلغنى عن غيره أنها قامت [٨] سنة تأكل منها قبل أن يخر [٩] . وقد ذكر غير واحد من السلف نحواً من هذا ، واللّه أعلم .

﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)** ﴾ .

---

(١) فى ت ، س ، أ : « حولا كاملا » . (٢) فى ت : « قوله » . (٣) فى ت ، س ، أ : « تشكرا » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .
(٥) فى س ، أ : « لا نصدق منه » . (٦) فى ت ، أ : « لا تصدق ولا تكذب » .
(٧) فى ت ، س ، أ : « تعمل » . (٨) فى ت : « أقامت » . (٩) فى أ : « تخر » .

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس ـ صاحبة سليمان ـ منهم (١) ، وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث اللّه إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه (٢) بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء اللّه ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ ، شذر مَذرَ ، كما يأتى تفصيله وبيانه قريبًا إن شاء اللّه تعالى وبه الثقة .

قال الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن عبد اللّه بن هُبَيْرة ، عن عبد الرحمن بن وَعْلة قال : سمعت ابن عباس يقول (٣) : إن رجلًا سأل رسول اللّه ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل (٤) أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد عَشَرة (٥) ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فَمَذْحِجُ ، وكِندَةُ ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار، وحمير . وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان .

ورواه عَبدُ ، عن الحسن بن موسى ، عن ابن لَهيعة ، به (٦) . وهذا إسناد (٧) حسن ، ولم يخرجوه ، [وقد روى من طرق متعددة] (٨) . وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى كتاب «القصد والأمَمْ ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم » ، من حديث ابن لهيعة ، عن علقمة بن وعلة، عن ابن عباس فذكر نحوه . وقد روى نحوه من وجه آخر .

وقال الإمام [أحمد] (٩) أيضًا وعبد بن حميد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو جَنَاب يحيى ابن أبى حيَّة الكلبى ، عن يحيى بن هانئ بن عُرْوَة ، عن فروة بن مُسيك قال : أتيت رسول اللّه ﷺ فقلت : يا رسول اللّه ، أقاتل بمقبل قومى مدبرهم ؟ قال : « نعم ، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم » . فلما وليت دعانى فقال : « لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » . فقلت : يا رسول اللّه ، أرأيت سبأ ؛ أواد هو ، أو رجل (١٠) ، أو ما هو ؟ قال : « [لا] (١١) ، بل رجل من العرب ، ولد له عشرة فَتَيَامَنَ ستة وتشاءم أربعة ، تيامن الأزد ، والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج ، وأنمار الذين يقال لهم : بجيلة وخثعم . وتشاءم لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسَّان » .

وهذا أيضًا إسناد جيد (١٢) وإن كان فيه أبو جَنَاب الكلبى ، وقد تكلموا فيه (١٣) . لكن رواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن العَنْقَزى (١٤) ، عن أسباط بن نصر ، عن يحيى بن هانئ المرادى ، عن عمه أو عن أبيه ـ يشك أسباط ـ قال : قدم فروة بن مُسَيك على رسول اللّه ﷺ ، فذكره (١٥) .

طريق أخرى لهذا الحديث : قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب، حدثنى ابن لهيعة ، عن توبة بن نَمر (١٦) ، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال : كنا عند عبيدة(١٧)

---

(١) فى ت ، س ، أ : « من جملتهم » . (٢) فى أ : « ويشكروا له » .
(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال » . (٤) فى ت ، س : « أرجل » . (٥) فى أ : « ولد له عشرة » .
(٦) المسند (١ / ٣١٦) .
(٧) فى ت : « وإسناده » . (٨) زيادة من ت . (٩) زيادة من ت ، س ، أ .
(١٠) فى أ : « أم جبل » . (١١) زيادة من أ . (١٢) فى أ : « حسن » .
(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٥ / ١٧٨) وليس فى المطبوع من المسند .
(١٤) فى أ : « العبقرى » .
(١٥) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٣) .
(١٦) فى س ، أ : « نمير » . (١٧) فى أ : « عبدة » .

ابن عبد الرحمن بإفريقية فقال يومًا : ما أظن قوما بأرض إلا هم من أهلها . فقال على بن رباح : كلا ، قد حدثنى فلان أن فروة بن مُسَيك الغُطَيفى (١) قدم على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول (٢) الله ، إن سبأ قوم كان لهم عز فى الجاهلية ، وإنى أخشى أن يرتدّوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم ؟ فقال: « ما أمرت فيهم بشىء بعد » . فأنزلت هذه الآية : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ الآيات ، فقال له رجل : يا رسول الله ، ما سبأ ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذى قبله : أن رسول الله ﷺ سُئل عن سبأ: ما هو ؟ أبلد ، أم رجل ، أم امرأة ؟ قال : « بل رجل ، وَلَد عَشَرَة فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة ، أما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير غير ما حلها . وأما الشام : فلخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة » .

فيه غرابة من حيث ذكر [نزول] (٣) الآية بالمدينة ، والسورة مكية كلها ، والله (٤) أعلم .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى الحسن بن الحكم ، حدثنا أبو (٥) سَبْرَة النَّخَعى ، عن فَرْوَة بن مُسَيْك الغُطَيْفى (٦) قال : قال رجل : يا رسول الله ، أخبرنى عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا : فكندة : والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وأنمار » . فقال رجل : ما أنمار؟ قال : « الذين منهم خثعم وبجيلة » .

ورواه الترمذى فى جامعه ، عن أبى كُرَيْب وعبد بن حميد قالا : حدثنا أبو أسامة ، فذكره أبسط من هذا ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (٧) .

وقال أبو عمر بن عبد البر : حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، حدثنا أحمد ابن زهير ، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطى ، حدثنا ابن كثير ـ هو عثمان بن كثير ـ عن الليث ابن سعد ، عن موسى بن على ، عن يزيد بن حصين ، عن تميم الدارى ؛ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ ، فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحَسّن (٨) .

قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ فى العرب ، وكان يقال له : الرائش ؛ لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال : ريشا ورياشا . وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ فى زمانه (٩) المتقدم ، وقال فى ذلك شعرًا :

---

(١) فى أ: « القطيعى » . (٢) فى س ، أ : « يا نبى » (٣) زيادة من أ .
(٤) فى س : « فالله » . (٥) فى أ : « ابن » . (٦) فى أ : « القطيعى » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٢) .
(٨) القصد والأمم ص (٢٠) .
(٩) فى ت ، أ : « الزمان » .

سَيَمْلكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظيمًا نَبىٌّ لا يُرَخّصُ فى الحَرَام
وَيَمْلك بَعْدَه منْهُم مُلُوك يدينون العبادَ بغَير ذام
ويَملك بَعدهم منا مُلُوك يَصير المُلك فينَا باقْتسَام
وَيَمْلك بَعْدَ قَحطَان نَبى تَقى خَبْتَة خير الأنام
وسُمىَ أحْمَدًا يَا لَيْتَ أنى أعَمَّرُ بَعْد مَبْعَثه بعَام
فأعضُده وأحبوه بنَصْرى بكُل مُدَجّج وبكُل رام
متى يَظْهَرْ فكُونُوا نَاصريه وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلغه سَلامى

ذكر ذلك الهمدانى فى كتاب « الإكليل » .

واختلفوا فى قحطان على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث(١) طرائق .

والثانى : أنه من سلالة عَابَر ، وهو هود ، عليه الصلاة والسلام ، واختلفوا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا .

والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام ، واختلفوا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضا . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النَّمرى ، رحمه اللّه ، فى كتابه [المسمى] (٢) : « الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة (٣) » .

ومعنى قوله عليه السلام : « كان رجلا من العرب » يعنى : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل ، عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم ، واللّه أعلم . وفى صحيح البخارى : أن رسول اللّه ﷺ مر بنفر من « أسلَمَ » ينتضلون ، فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا » (٤) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ فى البلاد ، حين بعث اللّه عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما (٥) قيل لهم : غَسَّان بماء نزلوا عليه قيلَ : باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل (٦) ، كما قال حسان بن ثابت :

إمَّا سَألت فَإنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ الأزدُ نسبَتُنَا ، والماء غَسَّانُ (٧)

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » أى : كان (٨) من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع

---

(١) فى أ : « ثلاثة » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى ت : « بالرواة » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٥٠٧) من حديث سلمة ، رضى الله عنه .
(٥) فى ت : « وإن » . (٦) فى ت : « المسلك » وفى أ : « المسكن » .
(٧) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .
(٨) فى ت : « كانوا » .

إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين فى مواضعه من (١) كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيامن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة » أى : بعد ما أرسل اللّه عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها ، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدًا عظيما محكما حتى ارتفع الماء ، وحُكمَ على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذى تخترف (٢) فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَّاف ، لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شىء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شىء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية اللّه بهم ، ليوحدوه ويعبدوه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ ، ثم فسرها بقوله : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أى : من ناحيتى الجبلين والبلدة بين (٣) ذلك ، ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

وقوله : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى : عن توحيد اللّه وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٢ ـ ٢٤]

وقال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن مُنَبِّه : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا .

وقال السُّدِّى : أرسل اللّه إليهم اثنى عشر ألف نبى ، واللّه (٤) أعلم .

وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : قيل : المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادى . وقيل : الجُرَذ . وقيل : الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » . و« سعيد كُرْز » حكى ذلك السهيلى (٥) .

وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، والضحاك ؛ أن اللّه ، عز وجل ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها : « الجُرَذ » نقبته ـ قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير ، وولجت إلى السَّدّ فنقبته ، فانهار عليهم .

---

(١) فى ت : « فى » . (٢) فى ت : « يحترق » . (٣) فى أ : « من » .
(٤) فى ت ، س : « فالله » . (٥) الروض الأنف (١ / ١٥) .

وقال قتادة وغيره : الجُرَذ : هو الخَلْد ، نقبت أسافله حتى إذا ضَعُف ووَهَى ، وجاءت أيام السيول ، صَدَمَ الماءُ البناءَ فسقط ، فانساب الماء فى أسفل (١) الوادى ، وخرّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال ، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وعطاء الخُرَاسانى ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّى : وهو الأراك ، وأكلة البَرير .

﴿ وَأَثْلٍ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : هو الطَّرْفاء .

وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء . وقيل : هو السَّمُر . فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ : لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السّدْر قال : ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ، فهذا الذى صار أمر تَيْنِك (٢) الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسّدْر ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا (٣) وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ أى : عاقبناهم بكفرهم .

قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور .

وقال الحسن البصرى : صدق الله العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور .

وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملى ، حدثنا حجاج ابن محمد ، حدثنا أبو البيداء ، عن هشام بن صالح التغلبى (٤) ، عن ابن خيرة ـ وكان من أصحاب على ، رضى الله عنه ـ قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال (٥) إلا جاءه من يُنَغِّصه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) ﴾ .

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة ، والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث

---

(١) فى ت : « أصل » . (٢) فى ت ، أ : « تلك » . (٣) فى ت : « بكفرهم » وهو خطأ .
(٤) فى ت : « وقال ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « حلالاً » .

إن مسافرهم لا يحتاج إلا حَمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، ويَقيل في قرية ويبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، قال وهب بن منبه : هي قرى بصنعاء . وكذا قال أبو مالك .

وقال مجاهد : والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسُّدِّي ، وابن زيد وغيرهم (١) : يعني : قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : القرى التي باركنا فيها (٢) : بيت المقدس .

وقال العوفي ، عنه أيضا : هي قرى عربية بين المدينة والشام .

﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ أي : بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، يَقيلون في واحدة ، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أي : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ،وقرأ آخرون: « بعد بين أسفارنا»،وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة ـ كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد ـ وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة ؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] . وقال في حق هؤلاء : ﴿وَظَلَمُوا (٣) أَنفُسَهُمْ ﴾ ، أي : بكفرهم ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : جعلناهم حديثا للناس ، وسَمَرًا يتحدثون به من (٤) خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أيدي سبأ » « وأيادي سبأ » و « تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ (٥) » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، سمعت أبي يقول : سمعت (٦) عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ ، قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ [عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ] (٧) ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : وكانت فيهم

---

(١) في ت : « وخلق غيرهما » . (٢) في ت : « هي » . (٣) في ت ، س ، أ : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا » .
(٤) في ت : « في » . (٥) في ت : « ومدر »
(٦) في ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة » . (٧) زيادة من ت ، س ، أ .

كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع ، فأخبروا الكهنة (١) بشيء من أخبار (٢) السماء ، فكان (٣) فيهم رجل كاهن شريف كثير المال ، وإنه خُبِّر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن العذاب قد أظلهم (٤) . فلم يدر كيف يصنع؛ لأنه كان له مال كثير من عقار ، فقال لرجل من بنيه ـ وهو أعزهم أخوالا ـ : إذا كان غدا وأمرتك بأمر فلا تفعل ، فإذا انتهرتك فانتهرنى ، فإذا تناولتك فالطمنى . فقال : يا أبت، لا تفعل ، إن هذا أمر عظيم ، وأمر شديد ، قال : يا بنى ، قد حدث أمر لابد منه . فلم يزل به حتى وافاه على ذلك . فلما أصبحوا واجتمع الناس ، قال : يا بنى ، افعل كذا وكذا . فأبى ، فانتهره أبوه، فأجابه ، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه ، فوثب على أبيه فلطمه ، فقال : ابنى يلطمنى؟ عَلَىّ بالشفرة . قالوا : وما تصنع بالشفرة ؟ قال : أذبحه . قالوا : تذبح ابنك . الطمه أو اصنع ما بدا لك. قال : فأبى ، قال : فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك ، فجاء أخواله فقالوا : خذ منا ما بدا لك . فأبى إلا أن يذبحه . قالوا : فلتموتن قبل أن تذبحه . قال : فإذا كان الحديث هكذا فإنى لا أرى أن أقيم ببلد يحال بينى وبين ولدى (٥) فيه ، اشتروا منى دورى ، اشتروا منى أرضى ، فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره ، فلما صار الثمن فى يده وأحرزه ، قال : أى قوم، إن العذاب قد أظلكم ، وزوال أمركم قد دنا ، فمن أراد منكم دارا جديدا ، وجملا شديدا ، وسفرا بعيدا ، فليلحق بعمان . ومن أراد منكم الخَمْر والخَمير والعَصير ـ وكلمة ، قال (٦) إبراهيم : لم أحفظها ـ فليلحق (٧) ببصْرَى ، ومن أراد الراسخات فى الوحل ، المطعمات فى المحل ، المقيمات فى الضحل ، فليلحق (٨) بيثرب ذات نخل . فأطاعه قومه (٩) ، فخرج أهل عمان إلى عمان . وخرجت غسان إلى بصرى . وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل . قال : فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح ، لا نبغى به بدلا . فأقاموا به ، فسموا لذلك خزاعة ، لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، وتوجه أهل عمان إلى عمان ، وتوجهت غسان إلى بصرى .

هذا أثر غريب عجيب ، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم(١٠) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار فى أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذى كان أول من خرج من بلاد اليمن ، بسبب استشعاره بإرسال العَرِم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن ــ فيما حدثنى أبو زيد الأنصارى ــ : أنه رأى جرذًا يَحفر (١١) فى سد مأرب ، الذى كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم . فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النُّقْلة عن اليمن فكاد (١٢) قومه ، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لَطَم وجهى فيها أصغر ولدى (١٣) . وعرض أمواله ، فقال

---

(١) فى س : « فأخبروا به الكهنة » . (٢) فى أ : « خبر » . (٣) فى س : « وكان » .
(٤) فى أ : « أضلهم » . (٥) فى ت ، س : « ابنى » . (٦) فى ت : « قالها » .
(٧) فى ت : « فيحق » . (٨) فى ت : « فليحق » . (٩) فى س : « قومنا » .
(١٠) فى ت : « كهناتهم » . (١١) فى س : « تحفر » .
(١٢) فى ت ، س : « وكاد » . (١٣) فى ت : « أولادى » .

أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غَضْبَةَ عمرو . فاشتروا منه أمواله ، وانتقل فى ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر . فباعوا أموالهم ، وخرجوا معه فساروا (١) حتى نزلوا بلاد « عك » مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك ، وكانت حربهم سجَالا . ففى ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى :

وَعَكَ بنُ عَدنَانَ الذينَ تَغَلَّبُوا بَغَسَّانَ ، حتى طُرِّدُوا كُلّ مَطْرَد

وهذا البيت من (٢) قصيدة له .

قال : ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلاد ، فنزل آل جَفْنَة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مرّا . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمَان عُمان ، ثم أرسل اللّه على السد السيل فهدمَه ، وفى ذلك أنزل اللّه عز وجل هذه الآيات (٣) .

وقد ذكر السدى قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق ، إلا أنه قال : « فأمر ابن أخيه » ، مكان « ابنه » ، إلى قوله : « فباع ماله وارتحل بأهله ، فتفرقوا » . رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، أخبرنا [سلمة] (٤) ، عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو بن عامر ـ وهو عم القوم ـ كان كاهنًا ، فرأى فى كهانته أن قومه سَيمَزّقون ويباعَدُ بين أسفارهم . فقال لهم : إنى قد علمت أنكم ستمزقون ، فمن كان منكم ذاهَمّ بعيد وجمل شديد ، ومَزَاد جَديد ـ فليلحق بكاس أو كرود . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا هَمّ مُدْن، وأمر دَعْن ، فليلحق بأرض شَنْ . فكانت عوف بن عمرو ، وهم الذين يقال لهم : بارق . ومن كان منكم يريد عيشا آنيا ، وحرما آمنا ، فليلحق بالأرزين . فكانت خزاعة . ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل . فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار . ومن كان منكم يريد خمرا وخَميرا ، وذهبا وحريرا ،وملكا وتأميرا ، فليلحق بكُوثى وبُصرى ، فكانت غسانَ بنو جَفنة (٥) ملوكُ الشام . ومن كان منهم بالعراق .

قال ابن إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفةُ امرأة عمرو ابن عامر ، وكانت كاهنة ، فرأت فى كهانتها ذلك ، فاللّه أعلم أىّ ذلك كان (٦) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن الشعبى : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان ، فمزقهم اللّه كل ممزق . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير .

ثم قال محمد بن إسحاق : حدثنى أبو عبيدة قال : قال الأعشى ـ أعشى بنى قيس بن ثعلبة ـ واسمه : ميمون بن قيس :

---

(١) فى ت : « فسار » . (٢) فى ت ، س : « فى » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .
(٤) زيادة من ت ، والطبرى . (٥) فى ت : « بنو حنيفة » .
(٦) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٩) .

وَفِى ذَاكَ لِلمُؤْتَسِى [١] أُسْوَةٌ ... ومَأربُ عفّى عليها العَرِمْ
رُخَامٍ بَنَتْهُ لَهُمْ حِمْيَرُ ... إذا جاءَ مَوَارُهُ لم يَرِمْ
فَأَرْوَى الزُرُوعَ وَأَعنَابَها ... عَلَى سَعَةٍ مَاؤُهُمْ إذْ [٢] قُسِّم
فَصَارُوا أيَادِى مَا يَقْدِرُو ... نَ مِنْه عَلَى شُرب طِفْل فُطِم [٣]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ــ لعبرةً ودَلالةً لكل عبد صبار [٤] على المصائب ، شكور على النعم .

قال [٥] الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى ، قالا : أخبرنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن العَيْزَار بن حُرَيث عن عمر بن سعد ، عن أبيه ـ هو سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبت من قضاء الله للمؤمن ، إن أصابه خير حَمِدَ ربَّه وشكر، وإن أصابته مصيبة حَمِد ربه وصَبَر ، يؤجر المؤمن فى كل شىء ، حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته» .

وقد رواه النسائى فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى إسحاق السَّبِيعى ، به [٦] ـ وهو حديث عزيز ـ من رواية عمر بن سعد ، عن أبيه . ولكن له شاهد فى الصحيحين من حديث أبى هريرة : «عجبًا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا [٧] ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» [٨] .

قال عبد : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن [٩] قتادة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال: كان مطرِّف يقول : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾ .

لما ذكر [الله] [١٠] تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ .

---

(١) فى ت : « وفى ذلك للمتوسى » . (٢) فى ت : « إذا » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٤) .
(٤) فى ت : « صبار شكور على » . (٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (١ / ١٧٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠٦) .
(٧) فى ت ، س : « خيراً له » .
(٨) لم أجده من حديث أبى هريرة ، وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ، رضى الله عنه .
(٩) فى ت : « وعن » . (١٠) زيادة من ت .

قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال : ﴿ **أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلا** ﴾ [الإسراء : ٦٢]، ثم قال (١) : ﴿ **ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٧] والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الحسن البصرى : لما أهبط اللّه آدم من الجنة ومعه حواء ، هبط (٢) إبليس فَرِحا بما أصاب منهما ، وقال : إذا أصبت من الأبوين ما أصبت ، فالذرية أضعف وأضعف . وكان ذلك ظنًا من إبليس ، فأنزل اللّه عز وجل : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ فقال عند ذلك إبليس : « لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح ، أعدُه (٣) وأُمَنّيه وأخدعه » . فقال اللّه : «وعزتى لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغَرغِر بالموت ، ولا يدعونى إلا أجبته ، ولا يسألنى إلا أعطيته ، ولا يستغفرنى إلا غفرت له » . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ **وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ** ﴾ : قال ابن عباس : أى من حجة .

وقال الحسن البصرى : واللّه ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله : ﴿ **إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ** ﴾ أى : إنما سلطناه عليهم ليظهَر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيُحسنَ عبادة ربه عز وجل فى الدنيا ، ممن هو منها فى شك .

وقوله : ﴿ **وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** ﴾ أى : ومع حفظه ضَلّ من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سَلِم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)** ﴾ .

بيَّن (٤) تعالى أنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ أى : من الآلهة التى عبدت من دونه ﴿ **لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ** ﴾، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ** ﴾ [فاطر : ١٣] .

وقوله : ﴿ **وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ** ﴾ أى : لا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة ، ﴿ **وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ** ﴾ أى : وليس للّه من (٥) هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل

---

(١) فى ت ، س : « وقال » . (٢) فى أ : « أهبط » . (٣) فى ت ، س : « أغره » .
(٤) فى ت ، س ، أ : « يبين » . (٥) فى ت : « فى » .

الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه .

قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ ، من عون يعينه بشىء .

وقال [١] : ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أى : لعظمته [وجلاله] [٢] وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ [وَيَرْضَى] [٣] ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

ولهذا ثبت فى الصحيحين [٤] ، من غير وجه عن رسول الله ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله ـ : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلّهم أن يأتى ربّهم لفصل القضاء ، قال : « فأسجد لله فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسمع [٥] ، وسل تُعطَه واشفع تشفع » الحديث بتمامه .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ . وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى ، سمع أهل السموات كلامه ، أرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ أى :زال الفزع عنها . قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى ، وإبراهيم النَّخعىّ ، والضحاك والحسن ، وقتادة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : جُلِّى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ـ وجاء مرفوعا ـ : « [حَتَّى] [٦] إذَا فرغ» بالغين [٧] المعجمة ، ويرجع إلى الأول .

فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ أى: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا .

قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة.

وقال الحسن : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك ،

---

(١) فى ت : « ثم قال » . (٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من ت ، أ .
(٤) تقدمت أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية : ٧٩ من سورة الإسراء .
(٥) فى س ، أ : « تسمع » . (٦) زيادة من أ . (٧) فى ت : « بالعين » .

قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ، ﴿ **قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾ قال : وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار .

وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة [(١)] . هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار ، ولنذكر منها طرفا يدل على غيره :

قال البخارى عند تفسير هذه الآية الكريمة فى صحيحه : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، سمعت عكْرِمة ، سمعت أبا هُرَيرة [(٢)] يقول : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمرَ فى السماء ، ضربَت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوانَ ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير فيسمعها مُسْتَرِق السمع ، ومسترق السمع ـ هكذا بعضه [(٣)] فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده ـ فَحَرّفها وبَدّد [(٤)] بين أصابعه ـ فيَسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيَها على لسان الساحر[(٥)] أو الكاهن : فَربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذْبَة ، فيقال : أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا : كذا [(٦)] وكذا ؟ فيصدّق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء .

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه . وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة ، به [(٧)] .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، أخبرنا الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ [جالسًا] [(٨)] فى نفر من أصحابه ــ قال عبد الرزاق : « من الأنصار » ــ فَرُمِىَ بنجم فاستنار ، [قال] [(٩)] : « ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يُولَد عظيم ، أو يموت [(١٠)] عظيم ـ قلت للزهرى: أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غُلّظت حين بعث النبى ﷺ ـ قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى ، إذا قضى أمرا سبح حَمَلَةُ العرش [ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه [(١١)] الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يَلُونَ حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش] [(١٢)] : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ؛ حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون .

هكذا رواه الإمام أحمد [(١٣)] . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث صالح بن كَيْسَان ،

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٤) .
(٢) فى ت : « قال البخارى عند تفسيره هذه الآية الكريمة فى صحيحه بإسناده عن أبى هريرة » .
(٣) فى أ : « بعضهم » . (٤) فى أ : « وسدد » .
(٥) فى أ : « الآخر » . (٦) فى أ : « وكذا ، يوم كذا » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٤) .
(٨ ، ٩) زيادة من ت ، س ، والمسند . (١٠) فى ت ، س : « ويموت » .
(١١) فى ت ، س : « السماء » . (١٢) زيادة من ت ، س ، والمسند .
(١٣) المسند (١ / ٢١٨) .

والأوزاعى ، ويونس ومَعْقِل بن عبيد الله [١] ، أربعتهم عن الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس عن رجل من الأنصَار ، به [٢] . ورواه وقال يونس : عن رجال من الأنصار [٣] . وكذا رواه النسائى [٤] فى « التفسير » من حديث الزبيدى ، عن الزهرى ، به [٥] . ورواه الترمذى فيه عن الحُسَين بن حريث ؛ عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار ، رضى الله عنه [٦] ، والله [٧] أعلم .

حديث آخر : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادى ـ والسياق لمحمد بن عوف ـ قالا : حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ عن عبد الرحمن بن يزيد [٨] بن جابر ، عن عبد الله بن أبي زكرياء ، عن رجاء بن حيوة ، عن النواس بن سَمْعان [٩] قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فإذا تكلم أخذت السموات منه [١٠] رجفة ـ أو قال : رعدة ـ شديدة ؛ من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضى به جبريل على الملائكة ، كلما مَرّ بسماء سماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول: قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله من السماء والأرض » .

وكذا رواه ابن جرير وابن خُزَيمة ، عن زكريا بن أبان المصرى ، عن نعيم بن حماد ، به [١١] .

قال ابن أبى حاتم : سمعت أبى يقول : ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم ، رحمه الله .

وقد روى ابن أبى حاتم من حديث العَوفى ، عن ابن عباس ــ وعن قتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ

---

(١) فى س : « بن عبد الله » .
(٢ ، ٣) صحيح مسلم برقم (٢٢٢٩) .
(٤) فى ت : « وكذا رواه النسائى والترمذى » .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٤) .
(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٧٢) .
(٧) فى س : « فالله » . (٨) فى أ : « زيد » .
(٩) فى ت : « حديث آخر رواه ابن جرير بإسناده عن النواس بن سمعان » .
(١٠) فى أ : « منها » .
(١١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٣) والتوحيد لابن خزيمة ص (٩٥) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٥١٥) من طريق محمد بن عوف ، عن نعيم بن حماد ، به .

بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مقررًا تفردَه بالخلق والرزق [١] ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء [٢] والأرض ـ أى : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ـ إلا اللّه ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره .

وقوله : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ : هذا من باب اللف والنشر ، أى : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك باللّه ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين : واللّه ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد .

وقال عِكْرِمة وزياد بن أبى مريم : معناه : إنا نحن لعلى هدى ، وإنكم لفى ضلال مبين .

وقوله : ﴿ **قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ : معناه : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى اللّه وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِن** [٣] **كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس : ٤١] ، وقال : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [سورة الكافرون] .

وقوله : ﴿ **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا** ﴾ أى : يوم القيامة ، يجمع [بين] [٤] الخلائق فى صعيد واحد ، ثم يفتح بيننا بالحق ، أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴾ [الروم : ١٤ ـ ١٦] ؛ ولهذا قال تعالى :﴿ **وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ** ﴾ أى : الحاكم [٥] العادل العالم بحقائق الأمور .

وقوله : ﴿ **قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ** ﴾ أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها للّه أندادا وصيَّرتموها له عدْلا. ﴿ **كَلاَّ** ﴾ أى : ليس له نظير ولا نَديد ، ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال : ﴿ **بَلْ هُوَ اللَّهُ** ﴾ : أى : الواحد الأحد الذى لا شريك له ﴿ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ أى : ذو العزة التى قد قهر

---

(١) فى ت : « بفرضه بالرزق والخلق » . (٢) فى ت ، أ : « السموات » .
(٣) فى هـ ، ت ، س ، أ : « فإن » والصواب ما أثبتناه . (٤) زيادة من ت . (٥) فى ت ، أ : « الحكام » .

بها كل شيء ، وَغَلَبت كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه (١) : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ**(٢) ﴾ : أي : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله (٣) تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١]. ﴿ **بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ أي تبشر (٤) من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار .

﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ ، كقوله (٥) تعالى : ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

قال محمد بن كعب فى قوله : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ** ﴾ يعنى : إلى الناس عامة .

وقال قتادة فى هذه الآية : أرسل الله محمدا ﷺ إلى العرب والعجم ، فأكرمُهم على الله أطوعهم لله عز وجل .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظهرانى ، حدثنا حفص بن عمر العَدَنى ، حدثنا الحكم ـ يعنى : ابن أبان (٦) ـ عن عكْرِمة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ، فيم فضله الله (٧) على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ ، وقال للنبى ﷺ : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ** ﴾ ، فأرسله الله إلى الجن والإنس .

وهذا الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين رَفْعهُ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة » (٨) .

وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » (٩) . قال مجاهد : يعنى : الجن والإنس . وقال غيره : يعنى : العرب والعجم . والكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة : ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ**

---

(١) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٢) فى ت : « للناس بشيراً » . (٣) فى ت ، س : « لقوله » . (٤) فى س : « يبشر » .

(٥) فى ت : « لقوله » . (٦) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٧) فى ت ، س : « فما فضله » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١) .

(٩) وهو قطعة من حديث جابر السابق عند مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) .

صَادِقِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الآية [الشورى : ١٨] .

ثم قال : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أى : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر ، لا يزداد ولا ينتقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ، وقال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٤ ، ١٠٥] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ منهم وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم قادتهم وسادتهم : ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لولا أنتم تصدونا ، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ أى : نحن ما فعلنا بكم [(١)] أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير [(٢)] دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الأنبياء ، لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتَغُرّونا وتُمَنّونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شىء ، فإذا جميع ذلك باطل وكَذِبٌ ومَيْن .

قال قتادة ، وابن زيد [(٣)] : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم : مكرهم بالليل والنهار .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أى نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبَهاً وأشياءَ من

---

(١) فى س ، أ : « بكم ذلك » . (٢) فى ت ، س ، أ : « بغير » . (٣) فى ت ، أ : « ابن زيد بن أسلم » .

المحال ، تضلونا بها ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى : الجميع من السادة والأتباع ، كُلٌّ ندم على ما سَلَف منه .

﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١] ﴾ أى : إنما نجازيكم بأعمالكم [٢] ، كُلٌّ بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء ، حدثنا محمد بن سليمان [٣] بن الأصبهانى ، عن أبى سِنان ضرار بن صُرَد ، عن عبد الله بن أبى الهُذيل [٤] ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن جهنم لما سيق إليها أهلها تَلَقَّاهم لهبها ، ثم لَفَحَتْهُم لفحةً فلم يبق لحم [٥] إلا سقط على العرقوب » [٦] .

وحدثنا [٧] أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا الطيب أبو الحسن ، عن الحسن بن يحيى الخُشَنى قال : ما فى جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد ، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب. قال : فحدثتُه أبا سليمان ـ يعنى : الدارانى ، رحمة الله عليه [٨] ـ فبكى ثم قال : ويحك . فكيف به لو جمع هذا كله عليه ، فجعل القيد فى رجليه ، والغُلّ فى يديه والسلسلة فى عنقه ، ثم أدخل الدار وأدخل المغار ؟ !

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾ .

يقول تعالى مسليا لنبيه ، وآمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبياً فى قرية إلا كذبه [٩] مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ، ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وقال الكبراء من قوم صالح : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا

(١) فى ت ، س : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . (٢) فى أ : « نجازيهم بأعمالهم » . (٣) فى أ : « سليم » .
(٤) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « فلم يبق لهم لحم » .
(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٨) « مجمع البحرين » وأبو نعيم فى الحلية (٤ / ٣٦٣) من طرق عن محمد بن سليمان الأصبهانى ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٩) : « وفيه محمد بن سليمان الأصبهانى وهو ضعيف » .
(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى ت : « رحمه الله » . (٩) فى ت : « إلا كفر به » .

أُرسلَ به مُؤْمنونَ . قَالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذي آمنتم به كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف ٧٥ ، ٧٦] وقال تعالى : ﴿ وكَذَلكَ فَتَنَّا بَعْضَهم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْننا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بالشَّاكرين ﴾ [الأنعام: ٥٣] ؟ وقال : ﴿ وَكَذَلكَ جعلْنا في كُلِّ قَرْيَةٍ أكابر مُجْرِميهَا ليمْكُروا فيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وقال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْل] [1] ﴾ [الإسراء : ١٦]. وقال هاهنا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ أى : نبى أو رسول ﴿ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ ، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة .

قال قتادة : هم جَبَابرتهم وقادتهم ورؤوسهم فى الشر . ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُون ﴾ أى : لا نؤمن به ولا نتبعه .

قال [2] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم ، عن أبى رَزِين قال : كان رجلان شريكان [3] خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث النبى ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله : ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما [4] اتبعه أراذل [5] الناس ومساكينهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلنى عليه ـ قال : وكان يقرأ الكتب ، أو بعض الكتب ـ قال : فأتى النبى ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال: « إلى كذا وكذا » . قال : أشهد أنك رسول الله . قال : « وما علمك بذلك ؟ » قال : إنه لم يبعث نبى إلا اتبعه رُذَالة الناس ومساكينهم . قال : فنزلت هذه الآية [6] : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُون ﴾[الآيات] [7] ، قال : فأرسل إليه النبى ﷺ « إن الله قد أنزل تصديق ما قلت » [8] .

وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل .

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِين ﴾ أى: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم به من مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُون ﴾[المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وقال : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم [9] بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُون ﴾ [التوبة : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيد . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ [المدثر: ١١ ــ ١٧].

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت ، س : « شريكين » .
(٤) فى س : « إلا » . (٥) فى ت ، س : « رذالة » .
(٦) فى ت ، س : « الآيات » . (٧) زيادة من ت ، س .
(٨) ورواه ابن أبي شيبة وابن المنذر كما فى الدر المنثور (٦ / ٧٠٤) ووقع فى الدر : « ابن زيد » بدل : « أبو رزين » .
(٩) فى ت ، س : « أن يعذبهم » .

وقد أخبر اللّه عن صاحب تينك الجنتين : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغنِ عنه شيئا ، بل سُلب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة الدامغة القاطعة ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى** ﴾ أى : ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم .

قال (١) الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا كَثير ، حدثنا جعفر ، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال سول اللّه ﷺ (٢) : « إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . [و] (٣) رواه مسلم وابن ماجة ، من حديث كثير بن هشام، عن جعفر ابن بُرْقَان ، به (٤) .

ولهذا قال : ﴿ **إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ أى : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ **فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا** ﴾ أى : تضاعف (٥) لهم الحسنة بعشرة (٦) أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ﴿ **وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾ أى : فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذر منه .

قال (٧) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء الكندى ، حدثنا القاسم وعلى بن مُسْهِر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن على ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن فى الجنة لَغرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها » . فقال أعرابى : لمن هى ؟ قال : « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، [وصلى بالليل والناس نيام] (٨) » (٩) .

﴿ **وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** ﴾ أى : يسعون فى الصد عن سبيل اللّه ، واتباع الرسل والتصديق بآياته ، ﴿ **أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴾ أى : جميعهم مَجْزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ** ﴾ أى : بحسب ما له فى ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جدًا ، وله فى ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ **انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٢١] أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى

---

(١) فى ت : « كما روى » . (٢) فى ت ، س : « أن رسول الله ﷺ قال » . (٣) زيادة من س .

(٤) المسند (٢ / ٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٤٣) .

(٥) فى س : « يضاعف » . (٦) فى ت ، س ، أ : « بعشر » .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) زيادة من ت ، أ .

(٩) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٨٤) من طريق على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق بأطول منه ، وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، وقد تكلم أهل الحديث فى عبد الرحمن بن إسحاق هذا من قبل حفظه وهو كوفى » . قلت : وله شواهد من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الأشعرى وأبى معانق الأشعرى ، رضى الله عنهم .

مُوَسَّع عليه ، فكذلك هم فى الآخرة : هذا فى الغُرفات فى أعلى الدرجات ، وهذا فى الغَمرَات فى أسفل الدركات . وأطيب الناس فى الدنيا كما قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ورُزق كَفافا، وقَنَّعه الله بما آتاه » . رواه مسلم من حديث ابن عَمْرو [١] .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت فى الحديث [٢] : « يقول الله تعالى : أنْفق [٣] أنْفق عليك » [٤] . وفى الحديث : أن ملكين يَصيحان كل يوم ، يقول أحدهما : « اللهم أعط مُمْسكا تَلَفًا»، ويقول الآخر : « اللهم أعط منفقا خَلَفًا » [٥] وقال رسول الله ﷺ « أنفق بلالا ، ولا تخشَ من ذى العرش إقلالا » [٦] .

وقال [٧] ابن أبى حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس ، حدثنا هُشَيْم عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغنى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعدكم [٨] زمان عضوض ، يعض الموسر على ما فى يده [٩] حذار الإنفاق » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [١٠] .

وقال [١١] الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا روح بن حاتم ، حدثنا هُشَيم ، عن الكوثر بن حكيم، عن مكحول قال : بلغنى عن حذيفة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض ، يعض الموسر على ما فى يديه حذار الإنفاق » ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ، ويَنْهَل شرار الخلق يبايعون كل مضطر ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، [ألا أن بيع المضطرين حرام] [١٢] المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، إن كان عندك معروف ، فَعُد به على أخيك ، وإلا فلا تَزده هلاكا إلى هلاكه » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده ضعف [١٣] .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى يونس الحسن بن يزيد قال : قال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤) .

(٢) فى ت : « فى الصحيح » . (٣) فى أ : « ابن آدم أنفق » .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٦٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٩٩٣) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٤٤٢) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠١٠) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٦) جاء عن جماعة من الصحابة ، فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٤٠) من طريق قيس بن الربيع عن أبى حصين ، عن يحيى ابن وثاب ، عن مسروق عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، وقيس بن الربيع ضعفوه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٤٢)، وأبو يعلى فى مسنده (١٠ / ٤٢٩) وأبو نعيم فى الحلية (٢ / ٢٨٠) عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة ، رضى الله عنه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٥٩) من طريق أبى إسحاق عن مسروق عن بلال ، رضى الله عنه ، وفيه ابن زبالة وهو ضعيف .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى س : « بعدكم هذا زمان » . (٩) فى ت ، س : « يديه » .

(١٠) ذكره السيوطى فى الدر (٦ / ٧٠٧) وقال : « أخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه بسند ضعيف فذكره » .

(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) زيادة من ت ، س .

(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية (١ / ٢٦١) وعزاه لأبى يعلى فى مسنده .

الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التى هى على صور الملائكة ليقربوهم إلى اللّه زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ؟ أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ،وكما يقول لعيسى : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . وهكذا تقول الملائكة : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى : تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ، ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون: الشياطين ؛ لأنهم هم الذين [(١)] يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم [(٢)] ، ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ [(٣)] مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ [(٤)] إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧] . قال الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ أى : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التى ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ، ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ - وهم المشركون - ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ، تقريعا وتوبيخا .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تتلى

---

(١) فى هـ : « الشياطين ثم الذين » والمثبت من ت ، س .

(٢) فى س : « ويضلوهم » .

(٣ ، ٤) فى س : « تدعون » .

عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله (١) ﷺ ، ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ ، يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ـ عليهم وعلى آبائهم لعائن الله ـ ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعنون : القرآن ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أى : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب ، لكنا أهدى من غيرنا ، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه . ثم قال : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم ، ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من القوة فى الدنيا . وكذلك (٢) قال قتادة ، والسدّى ، وابن زيد . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [غافر : ٨٢] ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : كيف كان نكالى وعقابى وانتصارى لرسلى (٣) ؟

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى : إنما آمركم بواحدة ، وهى : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أى : تقوموا قياما خالصًا لله ، من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضا ، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أى : ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ .

هذا معنى ما ذكره مجاهد ، ومحمد بن كعب ، والسُّدِّىّ ، وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية .

فأما الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن خالد ، حدثنا عثمان بن أبى العاتكة ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أعطيت ثلاثا لم يعطهن مَن قبلى ولا فخر : أحلت لى الغنائم ، ولم تحل لمن قبلى ، كانوا قبلى يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبُعثت إلى كل أحمر وأسود ، وكان كل نبى يبعث

---

(١) فى ت : « رسول الله » .
(٢) فى ت ، س : « وكذا » .
(٣) فى ت : « أى فكيف كان عقابى وانتصارى لرسلى » .

إلى قومه ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، أتيمم بالصعيد ، وأصلى حيث أدركتنى الصلاة ، قال الله : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ ، وأعنت بالرعب مسيرة شهر بين يدى » ـ فهو حديث ضعيف الإسناد ، وتفسير الآية بالقيام فى الصلاة فى جماعة وفرادى بعيد ، ولعله مقحم فى الحديث من بعض الرواة ، فإن أصله ثابت فى الصحاح وغيرها (١) ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ : قال (٢) البخارى عندها :

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا محمد بن خَازم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرَّة ، عن سعيد بن جُبَيْر (٣) ، عن ابن عباس قال : صَعدَ النبى ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصبّحكم أو يُمَسّيكم، أما كنتم تصدقونى ؟ » قالوا : بلى . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب: تبا لك ! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد] (٤) .

وقد تقدم عند قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد الله بن بريدة (٥) ، عن أبيه قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس ، تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « إنما مثلى ومثلكم مثلُ قوم خافوا عدوا يأتيهم، فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس ، أوتيتم . أيها الناس ، أوتيتم ـ ثلاث مرات » .

وبهذا الإسناد (٦) قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة جميعًا ، إن كادت لتسبقنى » .

تفرد به الإمام أحمد فى مسنده (٧) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى : لا أريد منكم جُعلا ولا عَطاء على أداء رسالة الله إليكم ، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة الله ، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخبارى عنه بإرساله إياى إليكم ، وما أنتم عليه .

(١) سبق تخريج حديث جابر ، رضى الله عنه ، فى الصحيحين عند تفسير الآية : ٢٨ من هذه السورة .
(٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) .
(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن زيد » . (٦) فى ت « وبإسناده » .
(٧) المسند (٥ / ٣٤٨) .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] . أى : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض .

وقوله : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أى : جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل ، كقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ [فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ] (١) ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يَطعُن الصنم (٢) بسيَة قَوْسه ، ويقرأ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وحده عند هذه الآية ، كلهم من حديث الثورى ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد ، عن أبى مَعْمَر عبد الله بن سَخبَرَةَ ، عن ابن مسعود ، به (٣) .

أى : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وزعم قتادة والسدى : أن المراد بالباطل هاهنا إبليس ، أى : إنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ، ولا يقدر على ذلك . وهذا وإن كان حقًا ولكن ليس هو المراد هاهنا (٤) ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أى : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحى والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ، كما قال عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، لما سئل عن تلك المسألة فى المفوَضة : أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه (٥) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى هاهنا حديث أبي موسى الذى فى الصحيحين [أن رسول الله ﷺ قال] (٦) : «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا (٧) قريبا مجيبا » (٨) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣)

---

(١) زيادة من ت .
(٢) فى ت ، س ، أ : « الصنم منها » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٧٨ ، ٤٢٨٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٨١) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٨) .
(٤) فى ت : « الآية » .
(٥) انظر الأثر فى المسند (١ / ٤٧٧) .
(٦) زيادة من ت ، أ .
(٧) فى أ : « سميعا بصيرا » .
(٨) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٧) وصحيح البخارى برقم (٤٢٠٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤) .

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى : ولو ترى ـ يا محمد ـ إذا فزع هؤلاء المكذبون (١) يوم القيامة ، ﴿ فَلا فَوْتَ ﴾ أى: فلا مفر لهم ، ولا وزر ولا ملجأ ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى : لم يكونوا يمنعون فى الهرب(٢) ، بل أخذوا من أول وهلة .

قال الحسن البصرى : حين خرجوا من قبورهم .

وقال مجاهد ، وعطية العوفى ، وقتادة : من تحت أقدامهم .

وعن ابن عباس والضحاك : يعنى : عذابهم فى الدنيا .

وقال عبد الرحمن بن زيد : يعنى : قتلهم يوم بدر .

والصحيح : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك .

وحكى ابن جرير عن بعضهم قال : إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة فى أيام بنى العباس ، ثم أورد فى ذلك حديثا موضوعا بالكلية . ثم لم ينبه على ذلك ، وهذا أمر عجيب غريب منه .

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أى : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله (٣) ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى : وكيف لهم تعاطى(٤) الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشىء لمن يتناوله من بعيد .

قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ قال : التناول لذلك .

وقال الزهرى : التناوش : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم الدنيا .

وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد .

وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه ، وليس بحين (٥) رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا بالرسل ؟

﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ : قال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ قال: بالظن .

---

(١) فى ت : « المكذبين » . (٢) فى ت : « لم يمكنوا أى يمنعوا عن الهرب » ، وفى س ، أ : « لم يمكنوا أن يمنعوا فى الهرب » .
(٣) فى ت ، أ : « وبرسله » . (٤) فى ت ، س ، أ : « تعاطى عن » . (٥) فى ت ، أ : « وليس هو حين » .

قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب (١) والنشور والمعاد ، ويقولون : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

قال قتادة : يرجمون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ : قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى: الإيمان .

وقال السُّدِّى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ وهى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقال مجاهد : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى [ذلك] (٢) عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا منه .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا أثرًا غريبا [عجيباً] (٣)جدًا ، فلنذكره بطوله فإنه قال : حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حجر السامى (٤) ، حدثنا على بن منصور الأنبارى ، عن الشَرَقِىّ بن قُطَامى ، عن سعد بن طريف ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ إلى آخر الآية ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل فاتحًا ـ أى : فتح الله له مالا ـ فمات فورثه ابن له تافه ـ أى : فاسد ـ فكان يعمل فى مال الله بمعاصى الله . فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه ، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت ، ثم رحل فأتى عينا ثجاجَة فسرَح فيها ماله، وابتنى قصرًا . فبينما هو ذات يوم جالس إذ شمَلَت عليه [ريح] (٥) بامرأة من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجا ـ أى : ريحًا ـ فقالت : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا امرؤ من بنى إسرائيل. قالت : فلك هذا القصر ، وهذا المال ؟ قال : نعم . قالت : فهل لك من زوجة ؟ قال : لا . قالت: فكيف يَهْنيك العيش ولا زوجة لك ؟ قال : قد كان ذلك . فهل لك من بَعل ؟ قالت : لا . قال : فهل لك إلى أن أتزوجك ؟ قالت : إنى امرأة منك على مسيرة ميل ، فإذا كان غد فتزوّد زاد يوم وائتنى ، وإن رأيت فى طريقك هولا فلا يَهُولَنَّكَ . فلما كان من الغد تزود زاد يوم ، وانطلق فانتهى إلى قصر ، فقرع رتاجه ، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجًا ــ أى:ريحًا ــ فقال : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا الإسرائيلى . قال : فما حاجتك ؟ قال : دعتنى صاحبة هذا القصر إلى نفسها . قال : صدقت ، فهل رأيت فى طريقك [هولا ؟] (٦) قال : نعم ، ولولا أنها أخبرتنى أن لا بأس علىّ ، لهالنى الذى رأيت ؛ أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بكلبة فاتحة

---

(١) فى ت ، س ، أ : « بالبعث » . (٢) زيادة من ت . (٣) زيادة من س ، أ .
(٤) فى ت : « الشامى » . (٥ ، ٦) زيادة من ت ، س ، والدر المنثور .

فاها ، ففزعت ، فَوَثَبت فإذا أنا من ورائها ، وإذا جراؤها ينبحن فى بطنها . فقال له الشاب : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقاعد الغلام المشيخة فى مجلسهم ويُبَزّهم حديثهم .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بمائة عنز حُفَّل ، وإذا فيها جَدْى يمصّها ، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئًا ، فتح فاه يلتمس الزيادة . فقال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، ملك يجمع صامت الناس كلّهم ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئًا فتح فاه يلتمس الزيادة.

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بشجر ، فأعجبنى غصن من شجرة منها ناضر ، فأردت قطعه ، فنادتنى شجرة أخرى : « يا عبد اللّه ، منى فخذ » . حتى نادانى الشجر أجمع : « يا عبد اللّه ، منا فخذ » . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقل الرجال ويكثر (١) النساء ، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا برجل قائم على عين ، يغرف لكل إنسان من الماء ، فإذا تَصَدّعوا عنه صَبّ فى جَرّته فلم تَعلَق جَرته من الماء بشىء . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصى اللّه .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بعنز ، وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها ، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها ، وإذا رجل قد أخذ بذَنَبها ، وإذا رجل (٢) قد ركبها ، وإذا رجل يحلبها . فقال: أما العنز فهى الدنيا ، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذى قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقًا ، وأما الذى أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذى ركبها (٣) فقد تركها. وأما الذى يحلبها فبَخٍ [بخ] (٤) ، ذهب ذلك (٥) بها .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، وإذا أنا برجل يمْتح على قَليب ، كلما أخرج (٦) دلوه صبَّه فى الحوض ، فانساب الماء راجعًا إلى القليب . قال : هذا رجل رَدّ اللّه [عليه] (٧) صالح عمله، فلم يقبله .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أن برجل يبذُر بذرًا فيستحصد ، فإذا حنطة طيبة. قال : هذا رجل قبل اللّه صالح عمله ، وأزكاه (٨) له .

قال : ثم أقبلت حتى [إذا] (٩) انفرج بى السبيل ، إذا أنا برجل مستلق على قفاه ، قال : يا عبد اللّه ، ادن منى فخذ بيدى وأقعدنى ، فواللّه ما قعدت منذ خلقنى اللّه فأخذت بيده ، فقام يسعى حتى ما أراه . فقال له الفتى : هذا عمْر الأبعد نَفَد ، أنا ملك الموت وأنا المرأة التى أتتك (١٠) . . . أمرنى اللّه بقبض روح الأبعد فى هذا المكان ، ثم أصيره إلى نار جهنم قال : ففيه نزلت هذه : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ الآية .

---

(١) فى ت : « وتكثر » .
(٢) فى ت ، س ، أ : « راكب » .
(٣) فى ت ، س ، أ : « الذى قد ركبها » .
(٤) زيادة من ت ، س ، أ ، والدر المنثور .
(٥) فى ت ، س ، أ : « ذاك » .
(٦) فى أ : « فلما أن خرج » .
(٧) زيادة من ت ، س ، أ .
(٨) فى أ : « وزكاه » .
(٩) زيادة من ت ، س .
(١٠) فى أ : « أتيتك » .

هذا أثر غريب (١) ، وفى صحته نظر ، وتنزيل [هذه] (٢) الآية عليه وفى حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا ، كما جرى لهذا المغرور المفتون ، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة ، وحيل بينه وبين ما يشتهى .

وقوله : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أى : كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب .

قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

آخر تفسير سورة « سبأ » ، ولله الحمد والمنة

(١) الأثر ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٧١٦) وعزاه لابن أبى حاتم .
(٢) زيادة من ت .

تفسير سورة سبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة؛ أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: **﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾**؛ ولهذا قال هاهنا: **﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾**، أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، كما قال: **﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾**.

ثم قال: **﴿وله الحمد في الآخرة﴾**، فهو المعبود أبدًا، المحمود على طول المدى. وقال: **﴿وهو الحكيم﴾**، أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره، **﴿الخبير﴾** الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء.

وقال مالك عن[١] الزهري: خبير بخلقه، حكيم بأمره؛ ولهذا قال: **﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾**، أي: يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك. عدده وكيفيته وصفاته.

﴿وما ينزل من السماء﴾، أي: من قطر ورزق، **﴿وما يعرج فيها﴾**، أي[٢]: من الأعمال الصالحة وغير ذلك، **﴿وهو الرحيم الغفور﴾**، أي: الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

[١] - سقط من: ز.

[٢] - سقط من: ز.

لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ
أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ
وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ
رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التي[١] لا رابع لهن، مما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في «سورة يونس»: ﴿**ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين**﴾، والثانية هذه: ﴿**وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم**﴾: والثالثة في «التغابن» ﴿**زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير**﴾، فقوله: ﴿**قل بلى وربي لتأتينكم**﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره: ﴿**عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين**﴾.

قال مجاهد وقتادة: ﴿**لا يعزب عنه**﴾، لا يغيب عنه، أي: الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى[٢] عليه منه شيء فالعظام - وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت - فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم.

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله: ﴿**ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا في آياتنا معاجزين[٣]**﴾، أي: سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله، ﴿**أولئك لهم عذاب من رجز أليم**﴾، أي: لينعم السعداء من المؤمنين، ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال: ﴿**لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون**﴾. وقال تعالى: ﴿**أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار**﴾.

وقوله: ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق**﴾، هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها. وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة

---

[١] - في ز: «اللاتي».

[٢] - في ت: «تخفى».

[٣] - في ز: «معجزين».

ومجازاة الأبرار والفجار بالذي[١] كانوا قد علموه من كتب الله في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ،ويقولون يومئذ أيضًا : ﴿**لقد جاءت رسل ربنا بالحق**﴾ ، ويقال أيضًا : ﴿**هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون**﴾ ، ﴿**لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث**﴾ ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد**﴾ - العزيز هو : المنيع الجناب ، الذي لا يُغالب ولا يُمانَع ، بل قد قهر كل شيء ، الحميد في جميع أقواله وأفعاله[٢] وشرعه وقدره ، وهو المحمود في ذلك كله .

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول صلى الله عليه وسلم في[٣] إخباره بذلك : ﴿**وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزقتم كل ممزق**﴾ ، أي : تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب ،وتمزقت كل ممزق : ﴿**إنكم**﴾ ، أي : بعد هذا الحال ﴿**لفي خلق جديد**﴾ ، أي : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك . وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك . أو أنه لم يتعمد لكن لُبّس عليه كما يُلبَّس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿**أفترى على الله كذبًا أم به جنة**﴾ ؟ قال الله تعالى رادًّا عليهم : ﴿**بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد**﴾ ، أي : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه ، بل محمد صلى الله عليه وسلم هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ، ﴿**في العذاب**﴾ ، أي : الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله ، ﴿**والضلال البعيد**﴾ ، من الحق في الدنيا .

ثم قال منبهًا لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض - فقال : ﴿**أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض**﴾ ، أي : حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مُظّلة مظللة عليهم ، والأرض تحتهم ، كما قال : ﴿**والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون * والأرض فرشناها**

---

[١] - في ز : « الذي » .
[٢] - في ز : « وأقواله » .
[٣] - في ز : « و » .

فنعم الماهدون﴾.

قال عبد بن حميد: أخبرنا عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿**أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض**﴾، قال: إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك، أو من بين يديك أو من خلفك، رأيت السماء والأرض.

وقوله: ﴿**إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفًا من السماء**﴾، أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك؛ لظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا.

ثم قال: ﴿**إن في ذلك لآية لكل عبد منيب**﴾، قال معمر، عن قتادة: ﴿**منيب**﴾ تائب.

وقال سفيان عن قتادة: المنيب: المقبل إلى الله عز وجل.

أي: إن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجّاع إلى الله، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد، لأن من قدر على خلق [السماوات في][١] ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿**أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن [يخلق مثلهم][٢] بلى**﴾ وقال: ﴿**لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق[٣] الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود - صلوات الله وسلامه عليه - مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعُدَدَ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات. وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل،

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز: «هذه السماوات و».

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز: «يحيى الموتى». [٣] - سقط من: ز.

فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال: «**لقد أوتي هذا مِزمَارًا من مزامير آل داود**»(١) .

و[١]قال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صَنج ولا بَرْبَط[٢] ولا وَتَر أحسنَ من صوت أبي موسى الأشعري رضي اللّٰه عنه.

ومعنى قوله: ﴿**أوبي معه**﴾، أي: سبحي. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد.

وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سَبّحي بلسان الحبشة. وفي هذا نظر، فإن التأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها.

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في كتابه «**الجُمل**» في باب النداء منه ﴿**يا جبال أوبي معه**﴾، أي: سيري معه بالنهار كله، والتأويب: سير النهار كله، والإسار: سير الليل كله[٣]. وهذا لفظه، وهو غريب جدًّا لم أجده لغيره، وإن كان له مساعدة من حيث[٤] اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية هاهنا. والصواب أن المعنى في قوله تعالى: ﴿**أوبي معه**﴾، أي: رَجّعي مُسَبّحة معه، كما تقدم، واللّٰه أعلم.

وقوله: ﴿**وألنا له الحديد**﴾، قال الحسن البصري، وقتادة، والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يُدخلَه نارًا ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، ولهذا قال: ﴿**أن اعمل سابغات**﴾، وهي: الدروع - قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا ابن[٥] سماعة، حدثنا ابن ضَمرة، عن ابن شوذب؛ قال: كان داود - عليه السلام - يرفع في كل يوم درعًا فيبيعها بستة آلاف درهم: ألفين له ولأهله، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحوارى.

﴿**وقدر في السرد**﴾، هذا إرشاد من اللّٰه لنبيه، داود عليه السلام، في تعليمه صنعة الدروع.

قال مجاهد في قوله: ﴿**وقدر في السرد**﴾: لا تُدِق[٦] المسمار فيَقلَق في الحلقة، ولا تُغَلّظه فيفصمها[٧]، واجعله بقدر.

---

(١) تقدم تخريج الحديث .

---

[١] - سقط من: ز.
[٢] - في ز: «بَرْبَط».
[٣] - سقط من: ز.
[٤] - سقط من: ز.
[٥] - سقط من: خ.
[٦] - في ز: «بدق».
[٧] - في ز: «فيقصهما».

وقال الحكم بن عُتيبة[١]: لا تُغلظه فيفصم[٢]، ولا تدقه فيقلَق. وهكذا روي عن قتادة، وغير واحد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السرد: حَلَقُ[٣] الحديد. وقال بعضهم: يقال: درع مسرودة[٤]: إذا كانت مسمورة الحلق، واستشهد بقول الشاعر:

وَعَليهما مَسْرُودتَان قَضَاهُما[٥] «دَاوُد»، أو صَنَعُ السَّوابغ «تُبَّعُ»

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام(٢) من طريق إسحاق بن بشر[٦] - وفيه كلام - عن أبي إلياس، عن وهب بن مُنَبه ما مضمونه: أن داود عليه السلام كان يخرج متنكرًا، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحدًا إلا أثنى عليه خيرًا في عبادته وسيرته ومعدلته - صلوات الله وسلامه عليه - قال وهب: حتى بعث الله ملكًا في صورة رجل، فلقيه داود فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملًا. [قال: ما هي؟][٧] قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين - يعني بيت المال - فعند ذلك نصب داود عليه السلام إلى ربه في الدعاء أن يعلمه عملًا بيده يستغني به[٨] ويغني به عياله، فألان له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، فعمل الدرع، وهو أول من عملها، فقال الله: ﴿**أن اعمل سابغات وقدر في السرد**﴾، يعني مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدرع، فإذا ارتفع من عمله درع باعها، فتصدق بثلثها، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يومًا[٩] بيوم إلى أن يعمل غيرها. وقال: إن الله أعطى داود شيئًا لم يعطه غيره من حسن الصوت، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته. وكان شديد الاجتهاد، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكان قد أعطي سبعين مزمارًا[١٠] في حلقه.

وقوله: ﴿**واعملوا صالحًا**﴾، أي: في الذى أعطاكم الله من النعم، ﴿**إني بما تعملون بصير**﴾، أي: مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عليّ من ذلك شيء.

---

(٢) تاريخ دمشق (٥/٧٠٨ المخطوط).

---

[١] - في ز: «عيينة».
[٢] - في ز: «فيقصم».
[٣] - في ز: «هو».
[٤] - في ز: «مسرود».
[٥] - في ز: «يضاهما».
[٦] - في ز: «بسر».
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من: ز.
[٨] - سقط من: خ، ز.
[٩] - سقط من: خ، ز.
[١٠] - سقط من: خ، ز.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى سليمان بن داود، من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوها شهر ورواحها شهر.

قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدّى بها، ويذهب [رائحا][١] من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع.

وقوله: ﴿**وأسلنا له عين القطر**﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي، ومالك عن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد: القطر النحاس. قال قتادة: وكانت باليمن، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام.

قال السدي: وإنما أسيلت له ثلاثة أيام.

وقوله: ﴿**ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه**﴾، أي: وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله، أي: بقدره[٢]، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك. ﴿**ومن يزغ منهم عن أمرنا**﴾، أي: ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿**نذقه من عذاب السعير**﴾، وهو الحريق.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثًا غريبًا فقال(٣): [حدثنا أبي][٣]، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نُفَير، عن أبي ثعلبة الخُشَني؛ أن رسول

(٣) ورواه الحاكم في المستدرك (٤٥٦/٢) وصححه، ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير (٢١٤/٢٢) من طريق عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح به، ورواه ابن حبان في صحيحه حديث (٢٠٠٧) من طريق ابن وهب، عن معاوية بن صالح، به.

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من ز.

[٢] - في ز: «القدري».

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من: ز.

الله صلى الله عليه وسلم؛ قال: «**الجن على ثلاثة أصناف: صنف له أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون**». رفعه غريب جدًّا.

وقال أيضًا: حدثنا أبي، حدثنا حرملة، حدثنا ابن وهب، أخبرني بكر بن مضر، عن محمد، عن ابن أنعم؛ أنه قال: الجن ثلاثة: صنف لهم الثواب وعليهم العقاب، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض، وصنف حيات وكلاب.

قال بكر بن مضر: ولا أعلم إلا أنه قال[١]: حدثني أن الإنس ثلاثة: صنف يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة، وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلًا، وصنف في صُور الناس على قلوب الشياطين.

وقال أيضًا: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا سلمة - يعني ابن الفضل - عن إسماعيل، عن الحسن؛ قال: الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنًا فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرًا فهو شيطان.

وقوله: ﴿**يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل**﴾، أما المحاريب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره.

وقال مجاهد: المحاريب بنيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد. وقال قتادة: هي المساجد والقصور. وقال ابن زيد: هي المساكن.

وأما التماثيل فقال عطية العوفي، والضحاك والسدي: التماثيل: الصور. قال مجاهد: وكانت من نحاس. وقال قتادة: من طين وزجاج.

وقوله: ﴿**وجفان كالجواب وقدور راسيات**﴾، الجواب: جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء، كما قال الأعشى ميمون بن قيس:

تَرُوحُ عَلَى آلِ المحلَّقِ جَفْنَةٌ كَجَابِيَةِ الشَّيخِ العِرَاقي تَفْهَقُ

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿**كالجواب**﴾، أي: كالجَوْبة من الأرض.

وقال العوفي، عنه: كالحياض. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، والضحاك وغيرهم.

والقدور الراسيات: أي الثابتات في أماكنها[٢] لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها.

كذا قال مجاهد والضحاك، وغيرهما.

---

[١] - سقط من: ز.

[٢] - في ز: «أماكنهم».

وقال عكرمة : أثافيها منها .

وقوله : ﴿ **اعملوا آل داود شكرًا** ﴾ ، أي : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدنيا والدين .

وشكرًا : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية ، كما قال :

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يدِي ، ولِسَانِي ، وَالضَّمِير المُحَجَّبَا

قال أبو عبد الرحمن الحُبلي[١] : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير .

وروى هو وابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب القرظي ؛ قال : الشكر تقوى الله والعمل الصالح .

وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وقد كان آل داود - عليه السلام - كذلك قائمين بشكر الله قولًا وعملًا .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي بكر ، حدثنا جعفر - يعني ابن سليمان - عن ثابت البُناني ؛ قال : كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة ، فكان لا تأتي[٢] عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي ، فغمرتهم هذه الآية : ﴿ **اعملوا آل داود شكرًا وقليل من عبادي الشكور** ﴾ .

وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أنه قال : « **إن أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا ، ولا يَفِر إذا لاقى** »(٤) .

وقد روى أبو عبد الله بن ماجة من حديث سُنَيد بن داود ، حدثنا يوسف بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **قالت أمّ سليمان بن داود لسليمان : يا بني ؛ لا تكثر النوم بالليل ؛ فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرًا يوم القيامة** »(٥) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التهجد حديث (١١٣١) ، وصحيح مسلم ، كتاب الصيام حديث (١١٥٩).

(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها حديث (١٣٣٢) ، وقال البوصيري في الزوائد (١/ ٤٣٣) : « هذا إسناد ضعيف » .

[١] - في خ ، ز : « السلمي » . [٢] - في ز : « يأتي » .

وروى ابن أبي حاتم عن [عن أبي حاتم][١] داود - عليه السلام - هاهنا أثرًا غريبًا مطولًا جدًّا، وقال أيضًا:

حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى، حدثنا أبو يزيد[٢] قبيصة بن إسحاق الرقي؛ قال: قال فضيل في قوله تعالى: ﴿**اعملوا آل داود شكرًا**﴾. فقال داود: يا رب؛ كيف أشكرك، والشكر نعمة منك؟ قال: «**الآن شكرتني حين علمت[٣] أن النعمة[٤] مني**».

وقوله: ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾، إخبار عن الواقع.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عَمَّى الله موته على الجانّ المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئًا على عصاه - وهي منسَأته - كما قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد - مدة طويلة نحوًا من سنة، فلما أكلتها دابةُ الأرض، وهي الأرضة، ضعفت[٥] وسقط إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك.

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع غريب، وفي صحته نظر.

وقال ابن جرير(٦) : حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن[٦] السائب، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: «**كان سليمان نبي الله - عليه السلام - إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا. فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس غُرِسَتْ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ. فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب. قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت. فقال سليمان: اللهم، عَمِّ علي الجن موتي[٧] حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. فنحتها عصًا، فتوكأ عليها حولًا ميتًا، والجن تعمل. فأكلتها الأرضة، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولًا[٨] في العذاب المهين**».

(٦) تفسير الطبري (٢٢/٧٤).

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من: ت.
[٢] - في خ: «زيد».
[٣] - في ز: «قلت».
[٤] - في خ: «النعم».
[٥] - في ز: «فضعفت».
[٦] - في ت: «عن».
[٧] - في ز: «موتتي».
[٨] - سقط من: ز.

قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك. قال: فشكرت الجن الأرضة، فكانت تأتيها[١] بالماء).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث إبراهيم بن طهمان به. وفي رفعه غرابة ونكارة، والأقرب أن يكون موقوفًا، وعطاء بن أبي مسلم[٢] الخراساني له غرابات، وفي بعض حديثه نكارة.

وقال السدي(٧) ، في حديث ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مُرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؛ قال: كان سليمان يتحرّد(*) في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، يدخل طعامه وشرابه، فأدخله في المرة التي توفي فيها، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة، فيأتيها فيسألها، فيقول: ما اسمك؟ فتقول: اسمي كذا وكذا. فإن كانت لغرس غرسها، وإن كانت نبتت دواء قالت: نَبَتُّ دواء لكذا وكذا. فيجعلها كذلك، حتى نبتت شجرة يقال لها: الخرّوبة، فسألها: ما اسمك؟ فقالت: أنا الخروبة. قال: ولأي شيء نَبَتِّ؟ قالت: نبت لخراب هذا المسجد. قال سليمان: ما كان اللّه ليخرّبه وأنا حي؟ أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس. فنزعها[٣] وغرسها في حائط له، ثم دخل المحراب فقام[٤] يصلى متكئًا على عصاه، فمات ولا تعلم به الشياطين، وهم في ذلك يعملون له، يخافون أن يخرج فيعاقبهم. وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كُوى بين يديه وخلفه، فكان الشيطان الذي يريد أن[٥] يخلع يقول: ألست جلدًا إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في المحراب إلا احترق. فمر ولم يسمع صوت سليمان، ثم رجع فلم يسمع، ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق. ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتًا. فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات، [ففتحوا عليه][٦] فأخرجوه، وَوَجدوا منسأته - وهي: العصا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم مات؟ فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها يومًا وليلة، ثم حسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة. وهي في قراءة ابن مسعود: (فمكثوا يدأبون[٧] له من بعد موته حولًا كاملًا) فأيقن

---

(٧) - أخرجه ابن جرير من طريق السدي (٢٢/٧٥)

(*) أي يعتزل ويتنحّى.

---

[١] - في ز: « تأتيه ».
[٢] - في ز: « سليم ».
[٣] - في خ، ز: « فتزوجها ».
[٤] - في ز: « فدخل ».
[٥] - سقط من: ز.
[٦] - ما بين المعكوفتين في خ، ز: « فتنحوا عنه ».
[٧] - في ز: « بدئون ».

الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب؛ لعلموا بموت سليمان، ولم يلبثوا في العذاب يعملون له سنة، وذلك قول الله عز وجل: ﴿**ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين**﴾، يقول: تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين[١] الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكنا سننقل إليك الماء والطين- قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت- قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب؟ فهو ما تأتيها به الشياطين، شكرًا لها(٨).

وهذا الأثر- والله أعلم- إنما هو مما تلقي من علماء أهل الكتاب، وهي وَقفٌ، لا يصدق منها إلا ما وافق الحق، ولا يكذب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

وقال ابن وهب وأصبغ بن الفرج، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿**ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته**﴾، قال: قال سليمان عليه السلام لملك الموت: إذا أمرتَ بي فأعلمنى. فأتاه فقالَ: يا سليمان؛ قد أمرت بك، قد بقيت لك سويعة؟ فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحًا من قوارير، وليس له[٢] باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه، قال: فدخل عليه ملك الموت، فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه، ولم يصنع ذلك فرارًا من ملك الموت- قال: والجن يعملون بين يديه وينظرون إليه، يحسبون أنه حي. قال: فبعث الله عز وجل دابة الأرض، قال: والدابة تأكل العيدان- يقال لها: القادح- فدخلت فيها فأكلتها، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت، وثقل عليها فخر ميتًا، فلما رأت ذلك الجن انفضوا[٣] وذهبوا، قال: فذلك قوله: ﴿**ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته**﴾.

قال أصبغ: بلغني عن غيره أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخر.

وقد ذكر غير واحد من السلف نحوًا من هذا، [والله أعلم][٤].

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا

---

(٨) تفسير الطبري (٢٢/٧٥ - ٧٦).

---

[١] - في خ، ز: «تشتهين».

[٢] - سقط من: خ.

[٣] - في ز: «انفضت».

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من: ز.

فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها، وكانت التبابعة[١] منهم، وبلقيس صاحبة سليمان منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا[٢] كذلك ما شاء الله، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذرمَذرَ؛ كما يأتي تفصيله وبيانه قريبًا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

قال الإمام أحمد رحمه الله(٩) : حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الله ابن هُبَيرة، عن عبد الرحمن بن وَعلة[٣]؛ قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلًا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ: ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «**بل هو رجل، ولد عَشَرَة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فَمَذْحِجٌ، وكِندَةُ، والأزد، والأشعريون وأنمار، وحمير، وأما الشامية فلخم، وجُذام، وعاملة، وغسّان**».

ورواه عَبد، عن الحسن بن موسى، [عن ابن لهيعة][٤] به. وهذا إسناد حسن، ولم يخرجوه. وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب «**القصد والأمَمُ، بمعرفة أصول**[٥] **أنساب العرب والعجم**»، من حديث ابن لهيعة، عن علقمة بن وعلة، عن ابن عباس فذكر نحوه. وقد روى نحوه من وجه آخر.

وقال الإمام أحمد[٦] أيضًا وعبد بن حميد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أبو جَنَاب يحيى ابن أبي حية[٧] الكلبي، عن يحيى بن هانئ بن عروة، عن فروة بن مُسَيك؛ قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله؛ أقاتل بمقبل قومي مدبرهم؟ قال: «**نعم، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم**». فلما وليت دعاني فقال: «**لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام**». فقلت: يا رسول الله؛ أرأيت سبأ أواد هو، أو رجل، أو[٨] ما هو؟ قال: «**بل رجل من العرب، ولد له عشرة فتَيَامَنَ ستة وتشاءم أربعة، تيامن الأزد، والأشعريون، وحمير، وكندة، ومذحج، وأنمار الذين يقال لهم: بجيلة**[٩]، وخثعم. وتشاءم لخم، وجذام، وعاملة،

(٩) المسند (٣١٦/١).

[١] - في ز: «التتابعة».

[٢] - في ز: «وكانوا».

[٣] - في ز: «وعكة».

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.

[٥] - سقط من: خ، ز.

[٦] - سقط من: ز.

[٧] - بياض في خ، ز.

[٨] - في ز: «أم».

[٩] - في ز: «بجلة».

وغسَّان »(١٠) .

وهذا أيضًا إسناد جيد وإن كان فيه أبو جَنَاب[١] الكلبي ، وقد تكلموا فيه . لكن رواه ابن جرير(١١) عن أبي كريب ، عن العنقزيّ ، عن أسباط بن نصر ، عن يحيى بن هانئ المرادي ، عن عمه أو عن أبيه - يشك أسباط - قال : قدم فروة بن مُسَيك على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، فذكره .

(طريق أخرى لهذا الحديث) ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، حدثني ابن لهيعة ، عن توبة بن نَمر[٢] ، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال : كنا عند عبيدة بن عبد الرحمن بإفريقية فقال يومًا : ما أظن قومًا بأرض إلا هم من أهلها . فقال عليّ بن رباح : كلا ، قد حدثني فلان أن فروة بن مُسَيك الغُطيفي قدم على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فقال : يا رسول اللّٰه ؛ إن سبأ قوم كان لهم عز في الجاهلية ، وإني أخشى أن يرتدّوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم ؟ فقال : « **ما أمرت فيهم بشيء بعد** » . فأنزلت هذه الآية : ﴿ **لقد كان لسبأ في [مسكنهم آية]**[٣] ﴾ الآيات ، فقال له رجل : يا رسول اللّٰه ؛ ما سبأ ؟ فذكر مثل [هذا الحديث الذي][٤] قبله : أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم سُئل عن سبأ : ما هو ؟ أبلد ، أم رجل ، أم امرأة ؟ قال : « **بل رجل ، وَلَد عَشَرَة ، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام أربعة ، أما اليمانيون فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير غير ما حلها . وأما الشام فلخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة** » .

فيه غرابة من حيث[٥] ذكر الآية بالمدينة ، والسورة مكية كلها ، واللّٰه[٦] أعلم .

(طريق أخرى) ، قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثني الحسن بن الحكم ، حدثنا أبو سبرة النخعي ، عن فروة بن مسيك الغطيفي ؛ قال : قال رجل : يا رسول اللّٰه ؛ أخبرني عن[٧] سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « **ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا فكندة ، والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ،وأنمار** » . فقال رجل : ما أنمار ؟ قال : « **الذين منهم خثعم وبجيلة** » .

---

(١٠) مسند الإمام أحمد ، طبعة مؤسسة قرطبة ، حديث (٢٧٨٥٧) ، وهو ساقط من باقي النسخ المطبوعة .
(١١) تفسير الطبري (٧٧/٢٢) .

---

[١] - في ز : « خباب » .
[٢] - في ز : « نمير » .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « مساكنهم » .
[٤] - ما بين المعكوفتين في ز : « حديث » .
[٥] - في ز : « حديث » .
[٦] - في ز : « فالله » .
[٧] - سقط من : ز .

ورواه الترمذي في جامعه(١٢)، عن أبي كريب وعبد بن حميد؛ قالا: حدثنا أبو أسامة... فذكره أبسط من هذا، ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

وقال أبو عمر بن عبد البر: حدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا أحمد ابن زهير، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطى، حدثنا ابن كثير - هو عثمان بن كثير - عن الليث بن سعد، عن موسى بن علي، عن يزيد بن حصين، عن تميم الداري؛ أن رجلًا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن سبأ... فذكر مثله، فقوى[١] هذا الحديث وحسّن.

قال علماء النسب منهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب، وكان يقال له: الرائش؛ لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه، فسمي الرائش، والعرب تسمي المال: ريشًا ورياشًا. وذكروا أنه بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعرًا:

سَيَملكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عظيمًا ... نَبيّ لا يُرَخّصُ في الحَرَام
وَيَمْلكُ بَعْدَه منْهُم مُلُوك ... يدينون العبادَ بغير ذام
ويَملكُ بَعدهم منا مُلُوك ... يَصير المُلك فينَا باقْتسَام[٢]
وَيَمْلكُ بَعْدَ قَحْطَان نَبي ... تَقي خَبْتَة[٣] خير الأنام
وسُمّي أحْمَدًا يَالَيْتَ أني ... أعَمّرُ بَعْدَ مَبْعَثه بِعَام
فأعضُده وأحبُوه بنَصْري ... بكُل مُدَجّج وبكُل رام
متى يَظْهَرْ فَكونُوا نَاصريه ... وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلغُهُ سَلامي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب «**الإكليل**».

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق.

والثاني: أنه من سلالة عَابر، وهو هود عليه الصلاة والسلام، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به[٤] على ثلاث طرائق أيضًا.

---

(١٢) تفسير الطبري (٢٢/٧٦ - ٧٧)، وسنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة سبأ، حديث (٣٢٢٢).

---

[١] - في ز: «تقوى».
[٢] - في ز: «باقتسام».
[٣] - في خ: «حببه».
[٤] - سقط من: ز.

والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليهما السلام - واختلفوا في كيفية[١] اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا .

وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النّمري رحمه اللّه ، في كتابه : « **الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه** » .

ومعنى قوله عليه السلام : « **كان رجلًا من العرب** » ، يعني : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم ، واللّه أعلم .

وفي صحيح البخاري أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مر بنفر من « **أسلَمَ** » ينتضلون ، فقال : « **ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان راميًا** »(١٣) .

فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار[٢] أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد ، حين بعث اللّه عليهم سيل[٣] العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل : لهم : غَسَّان بماء نزلوا عليه ؛ قيلَ : باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل[٤] ، كما قال حسان بن ثابت :

إمَّا سَألت فَإنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ[٥] الأزْدُ نِسْبَتُنَا ، والماء غَسَّانُ

ومعنى قوله : « **ولد له[٦] عشرة من العرب** » ، أي : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه[٧] الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب .

ومعنى قوله : « **فتيامن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة** » ، أي : بعد ما أرسل اللّه عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح[٨] عنها إلى غيرها . وكان من أمرالسد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين ، وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعَمَدَ[٩] ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدًّا عظيمًا محكمًا حتى ارتفع الماء ، ومُحكِمَ على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن . كما ذكره غير واحد من

(١٣) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب : نسبة اليمن إلى إسماعيل حديث (٣٥٠٧) من حديث سلمة، رضي الله عنه .

[١] - سقط من : ز .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « المسلك » .
[٥] - في ز : « نُجُبٌ » .
[٦] - سقط من : ز .
[٧] - سقط من : ز .
[٨] - في خ ، ز : « نزع » .
[٩] - في ز : « فتعمد » .

السلف، منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه[١] من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطّاف، لكثرته ونضجه واستوائه. وكان هذا السد بمأرب: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب.

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تعالى: ﴿**لقد كان لسبأ في مسكنهم**[٢] **آية**﴾، ثم فسرها بقوله: ﴿**جنتان عن يمين وشمال**﴾، أي: من ناحيتَي[٣] الجبلين والبلدة بين ذلك، ﴿**كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور**﴾، أي: غفور لكم إن استمررتم[٤] على التوحيد.

وقوله: ﴿**فأعرضوا**﴾، أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس، كما قال هدهد سليمان: ﴿**وجئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون**﴾.

وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن مُنَبِّه: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيًّا.

وقال السّدّي: أرسل الله إليهم اثني عشر ألف نبي. والله أعلم.

وقوله: ﴿**فأرسلنا عليهم سيل العرم**﴾، قيل المراد بالعرم المياه. وقيل: الوادي. وقيل: الجُرَذ: وقيل الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل: «**مسجد الجامع**» و «**سعيد**[٥] **كرز**»، حكى ذلك السهيلي.

وذكر غير واحد منهم ابن عباس، ووهب بن منبه، وقتادة، والضحاك: أن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها: «**الجُرَذ**» نقبته[٦]. قال وهب بن منبه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير، وولجت إلى السّدّ فنقبته، فانهار عليهم.

وقال قتادة وغيره: الجُرَذ: هو الخَلْد، نقبت أسافله حتى إذا ضَعف ووَهَى، وجاءت أيام

---

[١] - في خ: «علاه».
[٢] - في ز: «مساكنهم».
[٣] - في ز: «ناحية».
[٤] - في ز: «استمريتم».
[٥] - في ز: «معبد».
[٦] - في ز: «نقبت».

السيول، صَدمَ الماءُ البناءَ فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخرّبَ[١] ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله[٢] تعالى: ﴿**وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط**﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، والحسن، وقتادة، والسدي: وهو الأراك، وأُكُلُه البرير.

﴿**وأثل**﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: هو الطَّرْفاء.

وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء. وقيل: هو السَّمرُ. فالله أعلم.

وقوله: ﴿**وشيء من سدر قليل**﴾، لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السّدرُ قال: ﴿**وشيء من سدر قليل**﴾، فهذا الذي صار أمر تَيْنِك[٣] الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل. وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل.

ولهذا قال: ﴿**ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور**﴾؟ أي: عاقبناهم بكفرهم.

قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور.

وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم. لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور.

وقال طاوس: لا يناقش إلا الكفور.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملي، حدثنا حجاج ابن محمد، حدثنا أبو البيداء، عن هشام بن صالح التغلبي[٤]، عن ابن خيرة - وكان من أصحاب علي رضي الله عنه - قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة. قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلالاً إلا جاءه من يُنَغّصه إياها.

فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ

[١] - في ز: «خربت».
[٢] - سقط من: خ، ز.
[٣] - في ز: «تلك».
[٤] - في ز: «التعلبي».

ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حَمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا، ويَقيل في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها**﴾ - قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء. وكذا قال أبو مالك.

وقال مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، ومالك عن زيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن زيد، وغيرهم: يعني قرى الشام. يعنون أنهم كانوا يسيرون من[١] اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة[٢].

وقال العوفي، عن ابن عباس: القرى التي باركنا فيها بيت المقدس.

وقال العوفي، عنه أيضًا: هي قرى عربية بين المدينة والشام.

﴿**قرى ظاهرة**﴾، أي: بينة واضحة، يعرفها المسافرون، يَقيلون في واحدة، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال: ﴿**وقدرنا فيها السير**﴾، أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿**سيروا فيها ليالي وأيامًا آمنين**﴾، أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلًا ونهارًا.

﴿**فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم**﴾ - وقرأ آخرون: ﴿**بَعِّدْ بين أسفارنا**﴾ - وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة - كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد - وأحبُّوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنّ وسلوى وما يشتهون من [مآكل ومشارب][٣] وملابس مرتفعة، ولهذا قال لهم: ﴿**أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله**﴾، وقال تعالى: ﴿**وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها**﴾. وقال تعالى: ﴿و[٤]**ضرب الله مثلًا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس [الجوع والخوف] بما كانوا يصنعون**﴾. وقال في حق هؤلاء: ﴿**وظلموا أنفسهم**﴾، أي: بكفرهم، ﴿**فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق**﴾، أي: جعلناهم حديثًا للناس، وسَمَرًا يتحدثون به من

---

[١] - في ز: «بين».
[٢] - سقط من: ز.
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.
[٤] - سقط من: ز.

خبرهم ،وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء ، تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : « **تفرقوا أيدي سبأ** » « **وأيادي سبأ** » و « **تفرقوا شَذَرَمَذَرَ** » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا إبراهيم بن حبيب ابن الشهيد ، سمعت أبي يقول : سمعت عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ ، قال : ﴿**لقد كان لسبأ في مسكنهم**[١] **آية جنتان**﴾ إلى قوله : ﴿**فأرسلنا عليهم سيل العرم**﴾ : وكانت فيهم كهنة ، وكانت الشياطين يسترقون السمع ، فأخبروا الكهنة بشيء من أخبار السماء ، فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال ، وإنه خُبّر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن العذاب قد أظلهم . فلم يدر كيف يصنع ، لأنه كان له مال كثير من عقار[٢] ، فقال لرجل من بنيه - وهو أعزهم أخوالًا - : إذا كان غدًا وأمرتك بأمر فلا تفعل ، فإذا انتهرتك فانتهرني ، فإذا تناولتك فالطمني . فقال : يا أبت ؛ لا تفعل ، إن هذا أمر عظيم ، وأمر شديد . قال : يا بني ؛ قد حدث أمر لابد منه .

فلم يزل به[٣] حتى وافاه على ذلك . فلما أصبحوا واجتمع الناس ، قال : يا بني ؛ افعل كذا وكذا . فأبى ، فانتهره أبوه ، فأجابه ، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه ، فوثب على أبيه فلطمه ، فقال : ابني يلطمني ؟ . عَلَي بالشفرة ، قالوا : وما تصنع بالشفرة ؟ قال : أذبحه . قالوا : تذبح ابنك ؟! الطمه[٤] أواصنع ما بدا لك . قال : فأبى ، قال : فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم[٥] ذلك ، فجاء أخواله فقالوا : خذ منا ما بدا لك . فأبى إلا أن يذبحه . قالوا : فلتموتن قبل أن تذبحه . قال : فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ولدي فيه ، اشتروا مني دوري ، اشتروا مني أرضي . فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره ، فلما صار الثمن في يده وأحرزه[٦] ، قال : أي قوم ؛ إن العذاب قد أظلكم ، وزوال أمركم قد دنا ، فمن أراد منكم دارًا جديدًا ، وجملًا شديدًا ، وسفرًا بعيدًا ، فليلحق بعمان . ومن أراد منكم الخَمْر والخَمير والعَصير وكلمة ، - قال إبراهيم : لم أحفظها - فليلحق ببصْرَى ، ومن أراد الراسخات في الوحل ، والمطعمات في المحل ، المقيمات في الضحل[٧] ، فليلحق بيثرب ذات نخل . فأطاعه قومه ، فخرج أهل عمان إلى عمان . وخرجت غسان إلى بصرى . وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل . قال : فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح ، لا نبغي به بدلًا . فأقاموا به ، فسموا لذلك خزاعة ؛ لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، وتوجه أهل عمان إلى عمان وتوجهت غسان إلى بصرى .

---

[١] - في ز : « مساكنهم » .
[٢] - في ز : « عقر » .
[٣] - سقط من : خ ، ز .
[٤] - في ز : « للطمة » .
[٥] - في ز : « فأعلموه » .
[٦] - سقط من : خ ، ز .
[٧] - في ز : « الفحل » .

هذا أثر غريب عجيب، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر [عمرو بن][١] عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن، بسبب استشعاره بإرسال العَرِم فقال: وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن- فيما حدثني أبو زيد الأنصاري- أنه رأى جرذًا يَحفِرُ[٢] في سد مأرب، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على النُّقْلة عن اليمن فكاد[٣] قومه، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه، ففعل ابنه ما أمره به، فقال عمرو: لا أقيم ببلد لَطَم وجهي فيها[٤] أصغر ولدي. وعرض أمواله، فقال أشراف من أشراف اليمن: اغتنموا غَضْبَةَ عمرو. فاشتروا منه أمواله. وانتقل في ولده وولد ولده. وقالت الأزد[٥]: لا نتخلف عن عمرو بن عامر. فباعوا أموالهم، وخرجوا [معه فساروا][٦] حتى نزلوا بلاد «**عك**»[٧] مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم عك، وكانت[٨] حربهم سجَالًا. ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمي:

وَعَكّ بنُ عَدنَانَ الذين تَغَلَّبُوا   بَغَسَّانَ، حتى طُرِّدُوا كُلَّ مَطْرَد

وهذا البيت من[٩] قصيدة له.

قال: ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلاد، فنزل[١٠] آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مَرًّا. ونزلت أزد السراة السراة[١١]، ونزلت أزد عُمَان عُمَان، ثم أرسل اللَّه على السد السيل فهدمَه، وفي ذلك أنزل اللَّه -عز وجل- هذه الآيات(١٤)[١٢].

وقد ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو ما[١٣] ذكر محمد بن إسحاق، إلا أنه قال: «**فأمر ابن أخيه**»، مكان «**ابنه**»، إلى قوله: «فباع ماله وارتحل بأهله، فتفرقوا». رواه ابن أبي حاتم.

(١٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٠).

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من: ز.
[٢] - في ز: «تحفر».
[٣] - في ز: «وكاد».
[٤] - في ز: «فيه».
[٥] - في ز: «الأسد».
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من: ز.
[٧] - في خ، ز: «محل».
[٨] - في ز: «فكان».
[٩] - في ز: «في».
[١٠] - في خ، ز: «فتفرق».
[١١] - سقط من: ز.
[١٢] - في ز: «الآية».
[١٣] - في ت: «مما».

وقال ابن جرير(١٥) : حدثنا ابن[١] حميد، أخبرنا سلمة[٢] ، عن ابن إسحاق؛ قال: يزعمون أن عمرو بن عامر، وهو عم القوم كان كاهنًا، فرأى في كهانته أن قومه سَيمزَّقون ويباعَدُ بين أسفارهم. فقال لهم: إني قد[٣] علمت أنكم ستمزقون، فمن كان منكم ذا هَمٍّ بعيد وجمل شديد، ومَزَاد جَديد[٤] - فليلحق بكاس أو كرود. قال: فكانت وادعة بن عمرو. ومن كان منكم ذا هَمٍّ مُدْن، وأمر دَعْن، فليلحق بأرض شَنّ. فكانت عوف بن عمرو، وهم الذين يقال لهم: بارق. ومن كان منكم يريد عيشًا آنيا، وحرمًا آمنًا، فليلحق بالأرزين[٥]. فكانت خزاعة، ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل، والمطعمات في المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل. فكانت الأوس والخزرج، وهماهذان الحيان من الأنصار. ومن كان منكم يريد خمرًا وخَميرا، وذهبًا وحريرًا، وملكا وتأميرًا، فليلحق بكُوثى وبُصرى، فكانت غسان بنو جَفنة ملوك الشام. ومن كان منهم بالعراق.

قال ابن إسحاق: وقد سمعت بعض أهل العلم يقول: إنما قالت[٦] هذه المقالة طريفةُ امرأة عمرو بن عامر، وكانت كاهنة، فرأت في كهانتها ذلك[٧]، فالله أعلم أي ذلك كان.

وقال سعيد، عن قتادة، عن الشعبي: أما غسان فلحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

ثم قال محمد بن إسحاق: حدثني أبو عبيدة؛ قال: قال الأعشى - أعشى بني قيس بن ثعلبة - واسمه: ميمون بن قيس.

وَفي ذَاكَ[٨] لِلمُؤْتَسي[٩] أُسْوَةٌ ... ومَـأربُ عَـفَّـى عـلـيـهـا الـعَـرِمْ
رُخَـام بَـنَـتْـهُ لَـهُـمْ حِـمْـيَـرُ ... إذا جـاءَ مَـوَّارهُ لم يَـرِمْ
فَـأَرْوَى الـزُّرُوعَ وَأعـنَـابَـهـا ... عَـلَـى سَعَـةٍ مَـاؤُهُـمْ إذْ قُـسِـمْ
فَـصَـارُوا أيَـادي مَـا يَـقْـدِرُو ... نَ منه علَىَ شُربِ طِفْلٍ فُطِم(١٦)

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾، أي: إن في هذا الذي حل

(١٥) تفسير الطبري (٨٦/٢٢).

(١٦) السيرة النبوية لابن هشام (١٤/١).

[١] - سقط من: ز.
[٢] - سقط من: خ، ز.
[٣] - سقط من: خ، ز.
[٤] - في ز: «حديد».
[٥] - في ز: «بالأردين».
[٦] - في ز: «قال».
[٧] - سقط من: خ، ز.
[٨] - في ز: «ذلك».
[٩] - في ز: «للمتوسي».

بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام - لعبرةً ودَلالةً لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم.

قال الإمام أحمد(١٧) : حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى، قالا: أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن العَيْزَار بن حُرَيْثٍ عن عمر بن سعد، عن أبيه - هو سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**عجبت من قضاء الله للمؤمن، إن أصابه خير حَمِدَ رَبَّه وشكر، وإن أصابته مصيبة حَمد ربه وصَبَر، يؤجر المؤمن في كل شيء، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته**».

وقد رواه النسائي في «**اليوم والليلة**»، من حديث أبي إسحاق السَّبيعي به وهو حديث عزيز - من رواية عمر بن سعد، عن أبيه. ولكن له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «**عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا، إن أصابته سراء شكر فكان**[١] **خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له؛ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»(١٨).

قال عبد: حدثنا يونس، عن شيبان. عن قتادة ﴿**إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾، قال: كان مطرِّف يقول: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى، وخالف الرشاد والهدى، فقال: ﴿**ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه**﴾.

قال ابن عباس وغيره: هذه الآية[٢] كقوله تعالى إخبارًا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم، ثم قال: ﴿**أرأيتك هذا الذي كرمت علي، لئن أخرتن إلى يوم القيامة، لأحتنكن ذريته**

(١٧) المسند (١/١٧٣)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب: ما يقول إذا أصابته مصيبة، حديث (١٠٩٠٦).

(١٨) لم أجده من حديث أبي هريرة، وقد رواه مسلم في صحيحه حديث (٢٩٩٩) من حديث صهيب، رضي الله عنه. وانظر حديث (١٣٣) من سورة الأعراف، آية (٩٥).

[١] - في ز: «وكان». [٢] - سقط من: ز.

إلا قليلًا﴾، ثم قال: **﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾**... والآيات في هذا كثيرة.

و[١]قال الحسن البصري: لما أهبط اللّه آدم من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فَرِحًا بما أصاب منهما، وقال: إذا أصبت من الأبوين ما أصبت، فالذرية أضعف وأضعف. وكان ذلك ظنًّا من إبليس، فأنزل اللّه عز وجل: **﴿ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين﴾**، فقال عند ذلك إبليس: «**لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح، أعدُه وأُمَنِّيه وأخدعه**». فقال اللّه: «**وعزتي، لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغرغِر بالموت، ولا يدعوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرت له**». رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: **﴿وما كان له عليهم من سلطان﴾** - قال ابن عباس: أي من حجة.

وقال الحسن البصري: واللّه ما ضربهم بعصا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرورا وأماني دعاهم إليها فأجابوه.

وقوله: **﴿إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾**، أي: إنما سلطناه عليهم ليظهرَ أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيُحسنَ عبادة ربه - عز وجل - في الدنيا، ممن هو منها في شك.

وقوله: **﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾**، أي: ومع حفظه ضَلَّ من ضلَّ من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سَلِم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

يبيّن[٢] تعالى أنه الإله[٣] الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: **﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون اللّه﴾**، أي: من الآلهة التي عبدت من دونه [**﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾**، كما قال تبارك وتعالى: **﴿والذين تدعون من دونه﴾**][٤] ما

[١] - سقط من: ز.
[٢] - في ت: «بيّن».
[٣] - سقط من: ز.
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.

يملكون من قطمير﴾ .

وقوله : **﴿وما لهم فيهما من شرك﴾** ، أي : لا يملكون شيئًا استقلالًا ولا على سبيل الشركة ، **﴿وما له منهم من ظهير﴾** ، أي : وليس للَّه من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه .

قال قتادة في قوله : **﴿وما له منهم من ظهير﴾** ، من عون يعينه بشيء .

وقال : **﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾** ، أي : لعظمته وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء ، إلا بعد إذنه له في الشفاعة ، كما قال تعالى : **﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾** ، وقال : **﴿وكم من ملك في السمٰوات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن اللَّه لمن يشاء﴾** ، وقال : **﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾** .

ولهذا ثبت في الصحيحين(١٩) ، من غير وجه عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند اللَّه - أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلّهم أن يأتي ربّهم لفصل القضاء ، قال : « **فأسجد للَّه فيدعني ما شاء اللَّه**[١] **أن يدعني ، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، وقل يُسمع ، وسل تُعطَه ، واشفع تشفع** » ... الحديث بتمامه .

وقوله : **﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾** . وهذا أيضًا مقام رفيع في العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي ، فسمع أهل السماوات كلامه ، أرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿[حتى إذا][٢] **فزع عن قلوبهم﴾** ، أي : زال الفزع عنها ، قال ابن عباس ، وابن عمر ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والشعبي ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك والحسن ، وقتادة في قوله تعالى : **﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾** ، يقول : جُلّي عن قلوبهم . وقرأ بعض السلف - وجاء مرفوعًا - : **﴿حتى إذا فرّغ﴾** بالغين المعجمة ، ويرجع إلى الأول .

فإذا كان كذلك يسأل[٣] بعضهم بعضًا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش الذين[٤] يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : **﴿قالوا الحق﴾** ، أي : أخبروا[٥] بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، **﴿وهو العلي**

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « فإذا » .
[٣] - في ز : « سأل » .
[٤] - في ز : « للذين » .
[٥] - في ز : « خبروا » .

الكبير﴾.

وقال آخرون: بل معنى قوله: **﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾**، يعني المشركين عند الاحتضار، ويوم القيامة حتى إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة، قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم: الحق. وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا.

قال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: **﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾**، كشف عنها الغطاء يوم القيامة.

وقال الحسن: **﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾**، يعني: ما فيها من الشك والتكذيب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: **﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾**، [يعني: ما فيها من الشك،][1] قال: فزع الشيطان عن قلوبهم ومآربهم[2] وأمانيهم وما كان يضلهم، **﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾**، قال: و[3]هذا في بني آدم، هذا عند الموت، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار.

وقد اختار ابن جرير القول الأول(٢٠): أن الضمير عائد على الملائكة. هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفًا يدل على غيره.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه(٢١). حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، سمعت عكرمة، سمعت أبا هُرَيرة يقول: إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: **«إذا قضى الله الأمرَ في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله: كأنه سلسلة على صفوانٍ، فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحقّ، وهو العلي الكبير، فيسمعها مُسْتَرق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحَرّفها وبَدّد بين أصابعه - فيَسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيَها على لسان الساحر[4] أو الكاهن. فربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذْبَة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا**

(١٩) تقدمت أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية: ٧٩ من سورة الإسراء.

(٢٠) تفسير الطبري (٢٢/٩٢).

(٢١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿حتى إذا فزع .... ﴾ حديث (٤٨٠٠)، وسنن أبي داود حديث (٣٩٨٩)، وسنن الترمذي حديث (٣٢٢٣)، وسنن ابن ماجه حديث (١٩٤).

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من: ز.

[٢] - في م: «وفارقهم».

[٣] - سقط من: ز.

[٤] - في خ، ز: «الآخر».

وكذا، كذا وكذا؟ فيصدّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء».

انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه.

وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة، من حديث سفيان بن عيينة به.

حديث آخر، قال الإمام أحمد(٢٢): حدثنا محمد بن جعفر [ثنا معمر][١] وعبد الرزاق أخبرنا معمر، أخبرنا الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس؛ قال: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالسًا[٢] في نفر من أصحابة - قال عبد الرزاق: من الأنصار - فرُمِيَ بنجم فاستنار، قال[٣]: «**ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا في الجاهلية؟**» قالوا: كنا نقول يُولدَ عظيم، أو[٤] يموت عظيم- قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكن غُلّظت حين بعث النبي صلى اللّه عليه وسلم- قال: فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا -تبارك وتعالى، إذا قضى أمرًا سبح حَمَلةُ العرش، [ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه الدنيا، ثم يستخير أهل السماء الذين يَلونَ حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش][٥]: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع فيرمون، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون**».

هكذا[٦] رواه الإمام أحمد. وقد أخرجه مسلم في صحيحه(٢٣)، من حديث صالح بن كيسان، والأوزاعي، ويونس ومعقل بن عبيد[٧] اللّه، أربعتهم عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس عن رجل من الأنصار به. ورواه[٨] وقال يونس: عن رجال من الأنصار.

وكذا رواه النسائي(٢٤) في «**التفسير**» من حديث الزبيدي، عن الزهري به.

---

(٢٢) المسند (١/٢١٨).

(٢٣) - صحيح مسلم، كتاب السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان العراف حديث (٢٢٢٩).

(٢٤) النسائي في السنن الكبرى حديث (١١٢٧٢).

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من ت.

[٢] - سقط من: خ، ز.

[٣] - سقط من: خ، ز.

[٤] - في ز: «و».

[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.

[٦] - في ز: «هذا».

[٧] - في خ، ز: «عبد».

[٨] - سقط من: ز.

ورواه الترمذي فيه(٢٥) عن الحُسَين بن حريث، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عُبَيْد[١] الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار - رضي الله عنه - والله أعلم.

حديث آخر، قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، وأحمد بن منصور بن سيار الرمادي[٢] - والسياق لمحمد بن عوف - قالا: حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا الوليد، هو ابن مسلم، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عبد الله بن أبي زكرياء، عن رجاء بن حيوة، عن النواس بن سمْعان؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السماوات منه[٣] رجفة- أو قال: رعدة شديدة من خوف الله. فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل على الملائكة، كلما مَرّ بسماء سماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال: الحقّ، وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله من السماء والأرض**».

وكذا رواه ابن جرير وابن خُزَيمة(٢٦)، عن زكريا بن أبان المصري، عن نعيم بن حماد به.

قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم رحمه الله.

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العَوفي، عن ابن عباس عن قتادة: أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى. ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا

(٢٥) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة سبأ، عقب حديث رقم (٣٢٢٤).
(٢٦) تفسير الطبري (٢٢/٩٥)، والتوحيد لابن خزيمة ص (٩٥)، ورواه ابن أبي عاصم في السنة حديث (٥١٥) من طريق محمد بن عوف، عن نعيم بن حماد، به.

[١] - في خ، ز: «عبد».
[٢] - في ز: «الزيادي».
[٣] - في ز: «منها».

﴿كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى مُقررًا [تفردَه بالخلق][١] والرزق، وانفراده بالإلهية أيضًا، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء[٢] والأرض - أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع - [إلا اللَّه][٣]، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره.

وقوله: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾، هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك باللَّه؛ ولهذا قال: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾.

قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد صلى اللَّه عليه وسلم للمشركين: واللَّه ما نحن وإياكم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد.

وقال عكرمة، وزياد بن أبي مريم: معناه: إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين.

وقوله: ﴿**قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون**﴾، معناه التبري منهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى اللَّه وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا. كما قال تعالى: ﴿**فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون**﴾. وقال: ﴿**قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين**﴾.

وقوله: ﴿**قل يجمع بيننا ربنا**﴾، أي: يوم القيامة، يجمع الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزى كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. وستعلمون يومئذ لمن [العزة والنصرة] والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿**ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون**﴾؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وهو الفتاح العليم**﴾، أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور.

وقوله: ﴿**قل أروني الذين ألحقتم به شركاء**﴾، أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أندادًا وصَيَّرتموها له عدلًا؟ كلا، أي: ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عديل؛ ولهذا

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز: «تفرد بالحق». [٢] - في ز: «السماوات».

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ ز.

قال: ﴿بل هو الله﴾، أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له العزيز الحكيم، أي: ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وَغَلَبَت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾، أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿قل: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعًا﴾، ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا﴾، ﴿بشيرًا ونذيرًا﴾، أي: [تبشر من][١] أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، كقوله تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾.

قال محمد بن كعب في قوله: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾، يعني إلى الناس عامة.

وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى العرب والعجم، فأكرمُهم على الله أطوعهم لله عز وجل.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن[٢] عمر العدني، حدثنا الحكم - يعني ابن أبان - عن عكرمة؛ قال: سمعت ابن عباس؛ يقول: إن الله فضل محمدًا صلى الله عليه وسلم على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا: يا بن عباس؛ فيم فضله الله على الأنبياء؟ قال: إن الله قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾، فأرسله الله إلى الجن والإنس.

وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثبت في الصحيحين(٢٧) رَفْعهُ عن جابر؛ قال: قال رسول الله

(٢٧) صحيح البخاري، كتاب التيمم حديث (٣٣٥)، وصحيح مسلم، كتاب المساجد، ومواضع الصلاة حديث (٥٢١).

[١] - ما بين المعكوفتين في ز: «بشيرًا لمن». [٢] - في ز: «عن».

صلى الله عليه وسلم: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة**».

وفي الصحيح أيضًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال: «**بعثت إلى الأسود والأحمر**»(٢٨).

قال مجاهد: يعني الجن والإنس. وقال غيره: يعني العرب والعجم. والكل صحيح.

ثم قال تعالى مخبرًا عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**﴾، كما قال تعالى: ﴿**يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق**﴾ ... الآية.

ثم قال: ﴿**قل: لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون**﴾، أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محرر، لا يزداد ولا ينتقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: ﴿**إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر**﴾ وقال ﴿**وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد**﴾.

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٣٣) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٤)

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد؛ ولهذا قال: ﴿**وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه**﴾، قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا، ومخبرًا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: ﴿**يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا**﴾ منهم وهم

(٢٨) وهو قطعة من حديث جابر السابق عند مسلم في صحيحه حديث (٥٢١).

الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾، وهم قادتهم وسادتهم: ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾، أي: لولا أنتم تصدونا لكنا[١] اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به. فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذا جاءكم﴾، أي: نحن ما فعلنا بكم ذلك[٢] أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾، أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلًا ونهارًا، وتَغُرّونا وتُمَنونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكَذِبٌ ومَين[٣].

قال قتادة، وابن زيد: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، يقول: بل[٤] مكرهم بالليل والنهار. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم: مكرهم بالليل والنهار.

﴿إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادًا﴾، أي: نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شُبَهًا وأشياءَ من المحال، تضلونا بها. ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾، أي: الجميع من السادة والأتباع، كُلٌّ نَدم على ما سَلَف منه.

﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾، وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، ﴿هل يجزون إلا ما [كانوا يعملون][٥]﴾، أي: إنما نجازيكم بأعمالكم، كلّ بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم؛ قال: ﴿لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء، حدثنا محمد بن سليمان ابن الأصبهاني، عن أبي سنان ضرار بن صُرد، عن عبد الله بن أبي الهُذَيل، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن جهنم لما سيق إليها أهلها تَلَقَّاهم لهبها، ثم لَفَحتهم[٦] لَفحةً فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب**»(٢٩).

وحدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا الطيب أبو الحسن، عن الحسن بن يحيى الخُشَني؛ قال: ما في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب. قال: فحدثتُه أبا سليمان - يعني الداراني، رحمة الله عليه، فبكى ثم قال: ويحك! فكيف به لو جمع هذا كله عليه، فجعل القيد في رجليه، والغُلّ في يديه، والسلسلة في عنقه،

(٢٩) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط حديث (٢٧٨، ٩٣٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣٦٣/٤) من طرق عن محمد بن سليمان الأصبهاني، به. وقال الهيثمي في المجمع (٣٨٩/١٠): «وفيه محمد بن سليمان الأصبهاني وهو ضعيف».

[١] - سقط من: ز.
[٢] - سقط من: ت.
[٣] - في خ: «مبين».
[٤] - في ت: «بكل».
[٥] - ما بين المعكوفتين في ز: «كنتم تعملون».
[٦] - في ز: «لحقتهم».

ثم أدخل الدار وأدخل المغار[١].

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مسليًا لنبيه، وآمرًا له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبيًّا في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح: ﴿أنؤمن[٢] لك واتبعك الأرذلون﴾، ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾، وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ وقال تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ وقال: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾، وقال: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾.

وقال هاهنا: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾، أي: نبي أو رسول ﴿إلا قال مترفوها﴾، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة.

قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورءوسهم في الشر. ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾، أي: لا نؤمن به ولا نتبعه.

قال ابن أبي حاتم(٣٠): حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا محمد

(٣٠) ورواه ابن أبي شيبة وابن المنذر كما في الدر المنثور (٧٠٤/٦) ووقع في الدر: «ابن زيد» بدل: «أبو رزين».

[١] - في ز: «الغار». [٢] - في ز: «لن نؤمن».

ابن عبد الوهاب، عن سفيان، عن عاصم، عن أبي رزين؛ قال: كان رجلان شريكين[١]، خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بعث النبي صلى اللّٰه عليه وسلم كتب إلى صاحبه يسأله: ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم. قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه - قال: وكان يقرأ الكتب، أو بعض الكتب - قال: فأتى النبي صلى اللّٰه عليه وسلم فقال: إلام تدعو؟ فقال: إلى كذا وكذا. قال: أشهد أنك رسول اللّٰه. قال: «وما علمك بذلك؟» قال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رُذَالة الناس ومساكينهم. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿**وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون**﴾، قال: فأرسل إليه النبي صلى اللّٰه عليه وسلم: إن اللّٰه قد أنزل تصديق ما قلت.

وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، قال فيها: وسألتك: أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم؟ فزعمت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل.

وقوله تعالى إخبارًا عن المترفين المكذبين: ﴿**وقالوا نحن أكثر أموالًا وأولادًا وما نحن بمعذبين**﴾، أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة اللّٰه لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك. قال اللّٰه: ﴿**أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون**﴾. وقال: ﴿**فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد اللّٰه ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون**﴾. وقال تعالى: ﴿**ذرني ومن خلقت وحيدًا وجعلت له مالًا ممدودًا وبنين شهودًا ومَهَّدت له تمهيدًا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدًا سأرهقه صعودًا**﴾.

وقد أخبر اللّٰه عن صاحب تينك الجنتين؛ أنه كان ذا مال وولد وثمر، ثم لم تُغن عنه شيئًا، بل سُلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿**قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة والحجة الدامغة القاطعة ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾.

ثم قال: ﴿**وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى**﴾ أي: ليست هذه دليلًا على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم.

قال الإمام أحمد رحمه اللّٰه(٣١): حدثنا كُثير، حدثنا جعفر، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «**إن اللّٰه لا ينظر إلى**

(٣١) المسند (٥٣٩/٢)، وصحيح مسلم وكتاب البر والصلة، والآداب، حديث (٢٥٦٤)، وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب: القناعة حديث (٤١٤٣).

[١] - في ت: «شريكان».

صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

رواه مسلم وابن ماجة، من حديث كثير بن هشام، عن جعفر بن بُرْقَان[١] به.

ولهذا قال: ﴿**إلا من آمن وعمل صالحًا**﴾، أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمانُ والعمل الصالح، ﴿**فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا**﴾، أي: تضاعف لهم الحسنة بعشر[٢] أمثالها، إلى سبعمائة ضعف. ﴿**وهم في الغرفات آمنون**﴾. [أي: في منازل الجنة العالية آمنون][٣] من كل بأس وخوف وأذىً، ومن كل شر يُحْذر منه.

قال ابن أبي حاتم(٣٢): حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء الكندي، حدثنا القاسم وعلي ابن مُسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي - رضي اللّه عنه - قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**إن في الجنة لَغرفًا ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها**». فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «**لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام**».

﴿**والذين يسعون في آياتنا معاجزين**[٤]﴾، أي: يسعون في الصد عن سبيل اللّه، واتباع الرسل والتصديق بآياته: ﴿**فأولئك في العذاب محضرون**﴾، أي: جميعهم مَجْزيون[٥] بأعمالهم فيها بحسبهم.

وقوله: ﴿**قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له**﴾، أي: بحسب مَالَه في ذلك من الحكمة، [يبسط على هذا من المال كثيرًا، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جدًّا، وله في ذلك من الحكمة][٦] مالا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿**انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً**﴾، أي: كما هم متفاوتون في الدنيا: هذا فقير مدقع، وهذا غنى مُوَسَّع عليه، فكذلك هم في الآخرة: هذا في الغُرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغَمَرات في أسفل الدركات. وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**قد أفلح من أسلم ورُزق كَفَافًا، وقنّعه اللّه بما آتاه**». رواه مسلم من حديث ابن عمرو(٣٣)[٧].

---

(٣٢) ورواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في قول المعروف، حديث (١٩٨٤) من طريق على ابن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق بأطول منه، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، وقد تكلم أهل الحديث في عبد الرحمن بن إسحاق هذا من قبل حفظه وهو كوفى». قلت: وله شواهد من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري، رضي الله عنهم.

(٣٣) صحيح مسلم، كتاب الزكاة حديث (١٠٥٤).

---

[١] - في خ: «رومان» في ز: «رمان».
[٢] - في ت: «بعشرة».
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.
[٤] - في ز: «معجزين».
[٥] - في ز: «مجتزئون».
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ.
[٧] - في ز: «عمر».

وقوله: ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه**﴾، أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: «**يقول الله تعالى: أنفق أُنفِق عليك**»(٣٤). وفي الحديث «أن ملكين يصيحان[١] كل يوم، يقول أحدهما: اللهم أعط ممسكًا تلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط منفقًا خلفًا»(٣٥). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**أنفق بلال**[٢]**، ولا تخش من ذي العرش إقلالًا**»(٣٦).

وقال ابن أبي حاتم ذكر[٣] عن يزيد بن عبد العزيز الفلاس حدثنا هشيم عن الكوثر[٤] بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ألا إن بعدكم زمان عضوض، يعض الموسر على ما في يديه**[٥] **خذار الإنفاق**». ثم تلا هذه الآية: ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين**﴾(٣٧).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي(٣٨): حدثنا روح بن حاتم، حدثنا هُشَيم، عن الكوثر بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض، يعض الموسر على ما في يديه حذار الإنفاق**»، قال الله تعالى: ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**﴾، وَيَنْهَل شرار الخلق يبايعون كل مضطر، ألا إن بيع المضطرين حرام، [ألا إن بيع المضطرين حرام][٦]، المسلم أخو المسلم،

---

(٣٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، حديث (٤٦٨٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة حديث (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة حديث (١٤٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة حديث (١٠١٠) من حديث أبي هريرة، رضي اله عنه.

(٣٦) جاء عن جماعة من الصحابة، فرواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٤٠/١) من طريق قيس بن الربيع، عن أبي حصين، عن يحيى بن وثاب، عن مسروق، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، وقيس بن الربيع ضعفوه. ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٤٢/١)، وأبو يعلى في مسنده (٤٢٩/١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢٨٠/٢) عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه. ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٥٩/١) من طريق أبي إسحاق عن مسروق عن بلال، رضي الله عنه، وفيه ابن زبالة وهو ضعيف.

(٣٧) ذكره السيوطي في الدر (٧٠٧/٦) وقال: «أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف فذكره».

(٣٨) ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٢٦١/١) وعزاه لأبي يعلى في مسنده.

---

[١] - في ت: «يتصيحان».

[٢] - في ت: «بلالًا».

[٣] - سقط من: ت.

[٤] - في ز: «المكوثر».

[٥] - في ت: «يده».

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من: ز.

لا يظلمه ولا يخذله، إن كان عندك معروف، فَعُد به على أخيك، وإلا فلا تزده هلاكًا إلى هلاكه».

هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده ضعف.

وقال سفيان الثوري، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال: قال مجاهد: لا يتأولن[١] أحدكم هذه الآية: ﴿و[٢]ما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾: إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رءوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾، أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ كما قال في سورة الفرقان: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾؟ وكما يقول لعيسى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾.

وهكذا تقول الملائكة: ﴿سبحانك﴾، أي[٣]: تعاليت وتقدستَ عن أن يكون معك إله. ﴿أنت ولينا من دونهم﴾، أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾، يعنون الشياطين [لأنهم هم][٤] الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم[٥]، ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾، كما قال تعالى: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثًا وإن يدعون إلا شيطانًا[٦] مريدًا﴾ قال الله تعالى: ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعًا ولا ضرًّا﴾، أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم

[١] - في ز: «يتناولن».
[٢] - سقط من: ز.
[٣] - في ز: «و».
[٤] - في ز: «ثم».
[٥] - في ز: «يضلوهم».
[٦] - في ز: «شيطان».

وكُربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعًا ولا ضرًا، ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ - وهم المشركون - ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾، أي: يقال لهم ذلك، تقريعًا وتوبيخًا.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً[١] طرية من لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾، يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل - عليهم وعلى آبائهم لعائن الله - ﴿وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى﴾، يعنون القرآن ﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾. قال الله تعالى: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾، أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبيًّا قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب، لكنا أهدى من غيرنا، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه. ثم قال: ﴿وكذب الذين من قبلهم﴾، أي: من الأمم، ﴿وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾ - قال ابن عباس: أي من القوة في الدنيا. وكذلك[٢] قال قتادة، والسدّي وابن زيد. كما قال تعالى: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾، ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة﴾، أي: وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما[٣] كذبوا رسله، ولهذا قال: ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾، أي: كيف كان نكالي وعقابي وانتصاري لرسلي؟.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

---

[١] - في خ، ز: «محضة». [٢] - في ز: «كذا».

[٣] - في ز: «ما».

شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿**إنما أعظكم بواحدة**﴾، أي: إنما آمركم بواحدة، وهي: ﴿**أن تقوموا لله مثنىٰ وفرادىٰ ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة**﴾، أي: تقوموا قيامًا خالصًا لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضا: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضًا، ﴿**ثم تتفكروا**﴾، أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك، ولهذا قال: ﴿**أن تقوموا لله مثنىٰ وفرادىٰ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة**﴾.

هذا معني ما ذكره مجاهد، ومحمد بن كعب، والسدي، وقتادة، وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية. فأما الحديث الذى رواه ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «**أعطيت ثلاثًا لم يعطهن مَن قبلي ولا فخر: أحلت لي الغنائم، ولم تحل لمن قبلي، كانوا قبلي يجمعون غنائمهم فيحرقونها. وبُعثت إلى كل أحمر وأسود، وكان كل نبي يبعث إلى قومه، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، أتيمم بالصعيد، وأصلي حيث أدركتني الصلاة، قال الله: ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾ وأعنت بالرعب مسيرة شهر بين يدي**».

فهو حديث ضعيف الإسناد، وتفسير الآية بالقيام في الصلاة في جماعة وفرادىٰ، بعيد، ولعله مقحم في[١] الحديث من بعض الرواة، فإن أصله ثابت في الصحاح وغيرها(٣٩)، والله أعلم.

وقوله: ﴿**إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد**﴾ - قال البخاري عندها(٤٠):

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن خَازم[٢]، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرّة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: صَعدَ النبي صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم، فقال: يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: أرأيتم لو[٣] أخبرتكم أن العدو يُصَبِّحكم أو يُمَسّيكم، أما كنتم تصدقوني؟ قالوا: بلى؟ قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب

(٣٩) سبق تخريج حديث جابر، رضي الله عنه، في الصحيحين عند تفسير الآية: ٢٨ من هذه السورة.

(٤٠) صحيح البخاري، كتاب التفسير حديث (٤٨٠١).

[١] - في ز: «من».

[٢] - في خ: «محازم»، وفي ز: «حازم».

[٣] - في ز: «إن».

شديد: فقال أبو لهب: تبًا لك! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: **﴿تبت يدا أبي لهب﴾**.

وقد تقدم عند قوله: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾**.

وقال الإمام أحمد(٤١): حدثنا أبو نعيم، حدثنا بشير بن المهاجر، حدثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا فنادى ثلاث مرات فقال: «**أيها الناس تدرون ما مثلي ومثلكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**إنما مثلي ومثلكم مثل قوم**[١] **خافوا عدوًا يأتيهم، فبعثوا رجلًا يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس، أوتيتم. أيها الناس، أوتيتم. ثلاث مرات**».

وبهذا الإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**بعثت أنا والساعة جميعًا، إن كادت لتسبقني**». تفرد به الإمام أحمد في مسنده(٤٢).

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى آمرًا رسوله أن يقول للمشركين: **﴿ما سألتكم من أجر فهو لكم﴾**، أي: لا أريد منكم جعلًا ولا عطاءً على أداء رسالة الله إليكم، ونصحي إياكم، وأمركم بعبادة الله، **﴿إن أجري إلا على الله﴾**، أي: إنما أطلب ثواب ذلك عند الله، **﴿وهو على كل شيء شهيد﴾**، أي: عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم، وما أنتم عليه.

وقوله: **﴿قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب﴾**، كقوله تعالى: **﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾**. أي: يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو

(٤١) المسند (٣٤٨/٥) (٢٣٠٥٤). ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ١٨٨) وعزاه لأحمد وقال: «ورجاله رجال الصحيح».

(٤٢) - المسند (٣٤٨/٥) (٢٣٠٥٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣١١) وقال: «رواه أحمد والبزار؛ إلا أنه قال: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**». وضم أصبعيه السبابة والوسطى، ورجال أحمد رجال الصحيح.

[١] - في ز: «قومًا».

علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض.

وقوله: ﴿**قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد**﴾، أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل، كقوله: ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه**﴾، ولهذا لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يَطعُن الصنم بسيَة قَوْسه، ويقرأ: ﴿**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا**﴾، ﴿**قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد**﴾.

رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وحده عند هذه الآية، كلهم من حديث الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي معمر عبد الله بن سَخْبَرَةَ، عن ابن مسعود به[٤٣].

أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة.

وزعم قتادة والسدي: أن المراد بالباطل هاهنا إبليس، أي: إنه لا يخلق أحدًا ولا يعيده، ولا يقدر على ذلك. وهذا وإن كان حقًا ولكن ليس هو المراد هاهنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿**قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي**﴾، أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزله الله عز وجل من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه، كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لما سئل عن تلك المسألة في المفوّضة: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه[٤٤].

وقوله: ﴿**إنه سميع قريب**﴾، أي: سميع لأقوال عباده، قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وقد روى النسائي هاهنا حديث أبي موسى الذي في الصحيحين: «**إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا مجيبًا**»[٤٥].

وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ

(٤٣) صحيح البخاري، كتاب المظالم حديث (٢٤٧٨)، وكتاب المغازي (٤٢٨٧)، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير حديث (١٧٨١)، وسنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، حديث (٣١٣٨)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، حديث (١١٤٢٨).

(٤٤) انظر الأثر في المسند (٤٧٧/١).

(٤٥) النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير حديث (١١٤٢٧)، وصحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث (٤٢٠٥) وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار حديث (٢٧٠٤).

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾

يقول تعالى: ولو ترى - يا محمد - إذ فَزِع هؤلاء المكذبون يوم القيامة، **﴿فلا فوت﴾**، أي: فلا مفر لهم، ولا وزر ولا ملجأ. **﴿وأخذوا من مكان قريب﴾**، أي: لم يُمكَّنوا أن يُمعِنوا في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة.

قال الحسن البصري: «حين خرجوا من قبورهم».

وقال مجاهد، وعطية العوفي، وقتادة: «من تحت أقدامهم».

وعن ابن عباس والضحاك: «يعني عذابهم في الدنيا».

وقال عبد الرحمن بن زيد: «يعني قتلهم يوم بدر».

والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمىٰ، وإن كان ما ذكر متصلًا[١] بذلك.

وحكى ابن جرير عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش يخسف[٢] بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس. ثم أورد في ذلك حديثًا موضوعًا بالكلية. ثم لم ينبه على ذلك، وهذا أمر عجيب غريب منه.

﴿وقالوا آمنا به﴾، أي: يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وبكتبه ورسله. كما قال تعالى: **﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون﴾**، ولهذا قال تعالى: **﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾**، أي: وكيف لهم [ ][٣] تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار[٤] الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد.

قال مجاهد: **﴿وأنى لهم التناوش﴾**، قال: التناول لذلك.

وقال الزهري: التناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا[٥].

وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد.

---

[١] - في ز: «متصل».

[٢] - في خ: «خسف، وفي ز: «حشف».

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز: «عن».

[٤] - سقط من: ز.

[٥] - سقط من: خ، ز.

وقال ابن عباس: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه، وليس بحين رجعة ولا توبة.

وكذا قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله.

وقوله: ﴿وقد كفروا به من قبل﴾، أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا، وكذبوا الرسل؟.

﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾، قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ويقذفون بالغيب﴾، قال: بالظن.

قلت: كما قال تعالى: ﴿رجمًا بالغيب﴾، فتارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: ساحر. وتارة يقولون مجنون إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد: ﴿ويقولون إن نظن إلا ظنًا وما نحن بمستيقنين﴾.

قال قتادة: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار.

وقوله: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾، قال الحسن البصري، والضحاك، وغيرهما: يعني الإيمان.

وقال السدي: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾، وهي: التوبة. وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقال مجاهد: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ من هذه الدنيا، من مال وزهرة وأهل.

وروي عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن[١] أنس. وهو قول البخاري وجماعة.

والصحيح أنه لا منافاة بين القولين، فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين[٢] ما طلبوه في الآخرة، فمنعوا منه.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا جدًا، فلنذكره بطوله فإنه قال: حدثنا محمد ابن يحيى، حدثنا بشر بن حجر السامي، حدثنا علي بن منصور الأنباري، عن الشَرَقي بن قُطَامي، عن سعد بن طريف، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ إلى آخر الآية، قال: كان رجل من بني إسرائيل فاتحًا أي: فتح الله له مالًا - فمات فورثه ابن له تافه - أي: فاسد - فكان يعمل في مال الله بمعاصي الله. فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت، ثم رحل فأتى عينًا

---

[١] - في خ: «و».

[٢] - في خ: «وهي».

ثجاجة فسرح فيها ماله، وابتنى قصرًا. فبينما هو ذات يوم جالس إذ شَملت عليه ريح[١] بامرأة من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجًا - أي: ريحًا - فقالت: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا امرؤ من بني إسرائيل. قالت: فلك هذا القصر، وهذا المال؟ قال: نعم، قالت: فهل لك من زوجة؟ قال: لا. قالت: فكيف يَهْنيك العيش ولا زوجة لك؟ قال: قد كان ذلك. فهل لك من بَعل؟ قالت: لا. قال: فهل لك إلى أن أتزوجك؟ قالت: إني امرأة منك على مسيرة ميل، فإذا كان غد فتزود زاد يوم وأتني، وإن رأيت في طريقك هولًا فلا يَهُولنَّكَ. فلما كان من الغد تزود زاد يوم، وانطلق فانتهى إلى قصر، فقرع رتاجه، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجًا - أي: ريحًا - فقال: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا الإسرائيلي. قال: فما حاجتك؟ قال: دعتني صاحبة هذا القصر إلى نفسها. قال: صدقت، فهل رأيت في طريقك هولًا[٢]؟ قال: نعم، ولولا أنها أخبرتني أن لا بأس عليَّ لهالني الذي رأيت. [قال: ما رأيت؟][٣] قال: أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذ أنا بكلبة فاتحة فاها، ففزعت، فَوَثَبت فإذا أنا من ورائها، وإذا جراؤها ينبحن في بطنها، فقال له الشاب: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، يقاعد الغلام المشيخة في مجلسهم ويبتزهم[٤] حديثهم.

قال: ثم أقبلت حتى إذا[٥] انفرج بي السبيل، إذا أنا بمائة عنز حُفَّل[٦]، وإذا فيها جدي يمصّها، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئًا، فتح فاه يلتمس الزيادة. فقال[٧]: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، ملك يجمع صامت الناس كلّهم، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئًا فتح فاه يلتمس الزيادة.

قال: ثم أقبلت حتى إذا[٨] انفرج بي السبيل إذا أنا[٩] بشجر، فأعجبني غصن من شجرة منها ناضر، فأردت قطعه، فنادتني شجرة أخرى: «**يا عبد الله، مني فخذ**». حتى ناداني الشجر أجمع: «**يا عبد الله؛ منا فخذ**». قال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، يقل الرجال ويكثر النساء، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن.

قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل قائم على عين، يغرف لكل إنسان من الماء، فإذا تَصدّعوا عنه صَبَّ في جَرَّته فلم تَعلَق جَرَّتُه من الماء بشيء. قال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصي الله.

---

[١] - سقط من: خ.

[٢] - سقط من: خ، ز.

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.

[٤] - في ت: «يبذهم».

[٥] - سقط من: خ، ز.

[٦] - في ز: «جُفَّل».

[٧] - في ز: «قال».

[٨] - سقط من: خ، ز.

[٩] - سقط من: ز.

قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بعنز، وإذا قوم[١] قد أخذوا بقوائمها، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها، وإذا رجل قد أخذ بذنَبها، وإذا رجل قد ركبها، وإذا رجل يحلبها. فقال: أما العنز فهي الدنيا، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها، وأما الذي قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقًا، وأما الذي أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه، وأما الذي[٢] ركبها فقد تركها. وأما الذي يحلبها فَبخٍ بخ، ذهب ذلك بها.

قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، و[٣]إذا أنا برجل يمْتح على قَليب، كلما أخرج دلوه صبّه في الحوض، فانساب الماء راجعًا إلى القليب. قال: هذا رجل رَدّ الله صالح عمله، فلم يقبله.

قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجل يبذُر بذرًا فيستحصد، فإذا حنطة طيبة. قال: هذا رجل قبل الله صالح عمله، وأزكاه له.

قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجل مستلق على قفاه، قال[٤]: يا عبد الله، ادن مني فخذ بيدي وأقعدني، فوالله ما قعدت منذ خلقني الله - عز وجل - فأخذت بيده، فقام يسعى حتى ما أراه. فقال له الفتى: هذا عمر الأبعد نَفَد، أنا[٥] ملك الموت [وأنا المرأة التي أتتك][٦] ... أمرني الله عز وجل بقبض روح الأبعد في هذا المكان، ثم أصيره[٧] إلى نار جهنم. قال: ففيه نزلت هذه: ﴿**وحيل بينهم وبين ما يشتهون**﴾ الآية.

هذا أثر غريب(٤٦)، وفي صحته نظر، وتنزيل الآية عليه وفي حقه بمعنى أن الكفاركلهم يتوفون[٨] وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا، كما جرى لهذا المغرور المفتون، ذهب بطلب[٩] مراده فجاءه الموت فجأة بغتة، وحيل بينه وبين ما يشتهي.

وقوله: ﴿**كما فعل بأشياعهم من قبل**﴾، أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم، ﴿**فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده. وخسر هنالك الكافرون**﴾.

(٤٦) الأثر ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٧١٦) وعزاه لابن أبي حاتم.

[١] - في ت: «بقوم».
[٢] - بعده في خ، ز: «قد».
[٣] - سقط من: ز.
[٤] - في ز: «فقال».
[٥] - سقط من: خ، ز.
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.
[٧] - في ز: «أصبره».
[٨] - في خ: «يتوقفون».
[٩] - في ز: «يطلب».

وقوله: ﴿**إنهم كانوا في شك مريب**﴾، أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب.

قال قتادة: إياكم والشك والريبة! فإنه من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

آخر تفسير سورة سبأ، ولله الحمد والمنة.

☆ ☆ ☆

[٣٥٨ظ] /
سورة سبأ[١]

مكّيّة، وقيل: إلّا قوله تعالى:

﴿وقال ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الآيةَ [سبأ، ٣٤/٦]،[٢] وهي أربع وخمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له تعالى خلقًا ومُلكًا وتصرّفًا، بالإيجاد والإعدام، والإحياءِ والإماتة؛ جميعُ ما وُجد فيهما داخلًا في حقيقتهما، أو خارجًا عنهما متمكّنًا فيهما، فكأنّه قيل: له جميع المخلوقات، كما مرّ في آية الكرسي.[٣] ووصفُه تعالى بذلك لتقرير ما أفاده تعليقُ "الحمد" المعرَّف بـ"لام" الحقيقة بالاسم الجليل مِن اختصاص جميع أفراده به تعالى على ما بُيِّن في فاتحة الفاتحة ببيان تفرّدِه تعالى واستقلالِه بما يوجب ذلك، وكونِ كلِّ ما سواه مِن الموجودات التي مِن جملتها الإنسان تحت ملكوته تعالى ليس لها في حدّ ذاتها استحقاق الوجود فضلًا عمّا عداه مِن صفاتها؛ بل كلّ ذلك نِعم فائضة عليها مِن جهته عزّ وجلّ،[٤] فما هذا شأنه فهو بمَعزِل مِن استحقاق الحمد الذي مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار، فظهر اختصاص جميع أفراده به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بيان لاختصاص الحمد الأخروي به تعالى إثرَ بيان اختصاص الدنيوي به، على أنّ الجارّ متعلِّق إمّا بنفس الحمد،

---

[١] س: السبأ.

[٢] ط س – وقيل: إلّا قوله تعالى: ﴿وقال ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الآيةَ [سبأ، ٣٤/٦].

[٣] البقرة، ٢/٢٥٥.

[٤] س: تعالى.

أو بما تعلّق به الخبر مِن الاستقرار. وإطلاقُه عن ذِكر ما يُشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذِكر كونه في الآخرة عن التعيين كما اكتفي فيما سبق بذِكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذِكر كون الحمد أيضًا فيها؛ بل ليعمّ النعم الأخرويّة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ[1] ٱلْجَنَّةِ﴾ [الزمر، ٣٩/٧٤]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية [فاطر، ٣٥/٣٥]، وما يكون ذريعةً إلى نَيلها مِن النعم الدنيويّة كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف، ٧/٤٣]، أي: لِما جزاؤه هذا مِن الإيمان والعمل الصالح. والفرق بين الحمدَين مع كون نعمتَي الدنيا والآخرة بطريق التفضّل أنّ الأوّل على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذّذ والاغتباط. وقد ورد في الخبر: «أنّهم يُلهمون التسبيح كما يُلهمون النفَس».[2]

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكَم أمور الدين والدنيا ودبّرها حسبما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء / ومكنوناتها. [٣٥٩و]

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ تفصيل لبعض ما يُحيط به علمه مِن الأمور التي نِيطت بها[3] مصالحهم الدنيويّة والدينيّة، أي: يعلم ما يدخل فيها مِن الغَيث والكنوز والدفائن والأموات ونحوها، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها. وقُرِئ: "وَمَا نُنَزِّلُ"[4] بالتشديد و"نون" العظَمة.[5] ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخِرة والأدخِنة. ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ للحامدين على ما ذُكر مِن نِعمه، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرّطين في ذلك بلطفه وكرمه.

---

١ م ط س - ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ.
٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١/١٧١. وهو في صحيح مسلم، ٤/٢١٨٠ (٢٧٣٥)، بلفظ: "كما تُلهمون".
٣ س: به.
٤ ط: وما يُنَزِّل؛ س: وما تُنَزِّل.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلّم جنسَ البشر قاطبةً، لا أنفسَهم أو معاصريهم فقط، كما أرادوا بنفي إتيانها نفيَ وجودِها بالكلّيّة، لا عدمَ حضورها مع تحقّقها في نفس الأمر. وإنّما عبّروا عنه بذلك لأنّهم كانوا يوعَدُون بإتيانها، ولأنّ وجود الأمور الزمانيّة المستقبَلة -لا سيّما أجزاء الزمان- لا يكون إلّا بالإتيان والحضور.

وقيل: هو استبطاء لإتيانها الموعود بطريق الهُزء والسخريّة كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [يونس، ١٠/٤٨].

﴿قُلۡ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم وإثباتٌ لِما نفَوه، على معنى: ليس الأمر إلّا إتيانَها. وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ تأكيد له على أتمّ الوجوه وأكملِها. وقُرئ: "لَيَأْتِيَنَّكُمْ"،[١] على تأويل ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ باليوم أو الوقت.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾... إلخ إمداد للتأكيد، وتسديدٌ له إثرَ تسديد، وكسرٌ لسَورة نكيرهم واستبعادِهم، فإنّ تعقيب القسَم بجلائل نعوت المُقسَم به على الإطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسَم عليه، وقوّةِ ثباته، وصحّته لِما أنّ ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر. ولا ريبَ في أنّ المستشهَد به كلّما كان أجلَّ وأعلى كانت الشهادة آكدَ وأقوى، والمستشهَدُ عليه أحقَّ بالثبوت وأولى، لا سيّما إذا خُصّ بالذِّكر مِن النُّعوت / ما له تعلّق خاصّ بالمقسَم عليه كما نحن فيه، فإنّ وصفه بـ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الذي أشهر أفراده وأدخلُها في الخفاء هو المقسَم عليه تنبيهٌ لهم على علّة الحكم، وكونِه ممّا لا يحوم حوله شائبة ريبٍ ما. [٣٥٩ظ]

وفائدة الأمر بهذه المرتبة مِن اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلًا، فإنّهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وَصمة الكذب فضلًا عن اليمين الفاجرة، وإنّما لم يصدّقوه مكابرةً.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

وقُرئ: "عَلَّامِ الْغَيبِ"،[١] و"عَالِمُ الْغَيبِ"،[٢] و"عَالِمُ الْغُيُوبِ" بالرفع[٣] على المدح.

﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ﴾ أي: لا يبعُد. وقُرئ بكسر "الزاء".[٤] ﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ مِقدارُ أصغر نملة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: كائنةٌ فيهما، ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن مِثقال ذرّة ﴿وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ أي: منه، ورفعُهما على الابتداء، والخبر قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ هو اللوح المحفوظ. والجملة مؤكِّدة لنفي العُزُوب.

وقُرئ: "وَلَا أَصْغَرَ" "وَلَا أَكْبَرَ" بفتح "الراء"[٥] على نفي الجنس. ولا يجوز أن يعطف المرفوع على ﴿مِثۡقَالُ﴾، ولا المفتوحُ على ﴿ذَرَّةٖ﴾ بأنّه فتحٌ في حيّز الجرّ لامتناع الصرف، لِما أنّ الاستثناء يمنعه، إلّا أن يُجعل الضمير في ﴿عَنۡهُ﴾ للغيب، ويُجعل المثبَت في اللوح خارجًا عنه لبروزه للمطالعين له، فيكون المعنى: لا ينفصل عن الغيب شيء إلّا مسطورًا في اللوح.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ علّة لقوله تعالى: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾،[٦] وبيان لِما يقتضي إتيانها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول مِن حيث اتّصافه بما في حيّز الصِّلة، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك الموصوفون بالصفات الجليلة ﴿لَهُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ لِما فرَط منهم مِن بعض فرَطات / قلّما يخلو عنها البشر، ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لا تعبَ فيه ولا مَنَّ عليه. [٣٦٠و]

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ۝٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقَدْح فيها وصدِّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مسابقين كي يفوتونا. وقُرئ: "مُعَجِّزِينَ"،[٧] أي: مثبِّطين عن الإيمان مَن أراده.

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

[٣] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٨/٣.

[٤] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٨٥/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وقتادة والحسين عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

[٦] في الآية السابقة.

[٧] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ آنفًا. و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن رِّجۡزٍ﴾ للبيان. قال قتادة رضي الله عنه: «"الرِّجز" سوء العذاب».[1]

وقوله تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة ﴿عَذَابٌ﴾، أي: أولئك الساعون لهم عذابٌ مِن جِنس سوء العذابِ شديدُ الإيلام. وقُرئ: "أَلِيمٍ" بالجرّ[2] صفةً لـ﴿رِجۡزٍ﴾.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي: يعلم أولو[3] العلم مِن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومَن شايعهم مِن علماء الأمّة، أو مَن آمَن مِن علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابِهما رضي الله تعالى[4] عنهم ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآنَ ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ بالنصب على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿يَرَى﴾، والمفعول الأوّل هو الموصول الثاني، وهو ضمير الفصل. وقُرئ بالرفع[5] على الابتداء والخبر، والجملة هو المفعول الثاني لـ﴿يَرَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى﴾... إلخ مستأنَف مَسوق للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات. وقيل: منصوب عطفًا على ﴿يَجۡزِيَ﴾،[6] أي: ولِيعلمَ أولو[7] العلم عند مجيء الساعة معاينةً أنّه الحقّ حسبما علموه الآن برهانًا، ويحتجّوا به على المكذّبين. وقد جُوِّز أن يراد بـ"أولي العلم" مَن لم يؤمن مِن الأحبار، أي: ليعلموا يومئذ / أنّه هو الحقّ، فيزدادوا حسرةً وغمًّا. [٣٦٠ظ]

﴿وَيَهۡدِيٓ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ عطفَ الفعل على الاسم؛ لأنّه في تأويله، كما في قوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَ﴾ [الملك، ١٩/٦٧]، أي: وقابضاتٍ، كأنّه قيل:

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١٣/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٨/٣.
٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.
٣ م: أولوا.
٤ س – تعالى.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.
٦ سبأ، ٤/٣٤.
٧ م: أولوا.

ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك الحقَّ وهاديًا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ الذي هو التوحيد والتدرُّع بلباس التقوى.

وقيل: مستأنف.[١] وقيل: حال مِن ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ﴾ على إضمار مبتدأ، أي: وهو يهدي، كما في قول مَن قال:

نجوتُ وَأَرْهَنُهم[٢] مالِكًا[٣]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم كفّار قريش، قالوا مخاطِبًا بعضُهم لبعضٍ: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ يعنون به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما قصدوا بالتنكير الطَّنْزَ[٤] والسخرية، قاتلَهم الله تعالى.

﴿يُنَبِّئُكُمۡ﴾ أي: يحدّثكم بعَجَبٍ عُجابٍ. وقُرِئ: "يُنْبِئُكُمْ"[٥] مِن "الإنباء". ﴿إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: إذا مُتُّم ومُزِّقَت أجسادكم كلَّ تمزيق، وفُرِّقَت كلَّ تفريق بحيث صِرتم ترابًا ورُفاتًا؛ ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ أي: مستقرّون فيه. عُدِل إليه عن الجملة الفعليّة الدالّة على الحدوث -مثل: تُبعَثون، أو تُخلقون خلقًا جديدًا- للإشباع في الاستبعاد والتعجيب، وكذلك تقديم الظرف، والعاملُ فيه ما دلَّ عليه المذكور لا نفسُه، لِما أنّ ما بعد "إنَّ" لا يعمل فيما قبلها. و﴿جَدِيدٍ﴾ "فَعيل" بمعنى "فاعل"، مِن "جَدَّ" فهو "جَديد"، و"قَلَّ" فهو "قَليل". وقيل: بمعنى "مفعول"، مِن "جَدَّ النَّسّاجُ الثوبَ" إذا قطَعَه، ثمّ شاع.

---

١ السياق: ﴿وَيَهۡدِيٓ﴾ عطف... وقيل: مستأنف...

٢ هو في م "وَأَرْهَنُهم" بضمّ "النون". وفي لسان العرب لابن منظور، «رهن»: «قال ثعلب: الرواة كلّهم على "أرهنتُهم" إلّا الأصمعي، فإنّه رواه "وَأَرهَنَهم مالِكًا" على أنّه عطف بفعل مستقبَل على فعل ماضٍ».

٣ صدره:

فلمّا خشيتُ أظافيرهم

لعبد الله بن همّام السَّلولي في الصحاح للجوهري، «رهن». ولهمّام بن مرّة في لسان العرب لابن منظور، «رهن».

٤ الطَّنْزُ: السُّخرية. الصحاح للجوهري، «طنز».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ⑧﴾

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما قاله ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه. والاستدلال بهذا الترديد على أنّ بين الصدق والكذب واسطةً هو ما لا يكون مِن الإخبار عن بصيرةٍ بيّنُ الفساد، لظهور كون الافتراء أخصَّ مِن الكذب.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ جواب مِن جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على طريقة الاستفهام بالإضراب عن شِقَّيه، وإبطالِهما، وإثباتِ قسم ثالث كاشفٍ عن حقيقة الحال، ناعٍ عليهم سوءَ حالهم، وابتلاءِهم بما قالوا في حقّه عليه السلام، كأنّه قيل: ليس الأمر كما زعموا؛ بل هم في كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والإدراك الذي هو الجنون حقيقةً، وفيما يؤدّي إليه ذلك / مِن العذاب، ولذلك يقولون ما يقولون. [٣٦١و]

وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبِعه للمسارعة إلى بيان ما يَسوءهم ويَفُتُّ في أعضادهم، والإشعارِ بغاية سرعة ترتّبه عليه، كأنّه يُسابقه فيَسبقه. ووصفُ الضلال بالبُعد الذي هو وصف الضالّ للمبالغة. ووضعُ الموصول موضعَ ضميرهم للتنبيه بما في حيّز الصِّلة على أنّ علّةَ ما ارتكبوه واجترءوا عليه مِن الشناعة الفظيعة كفرُهم بالآخرة وما فيها مِن فنون العقاب، ولولاه لَما فعلوا ذلك خوفًا مِن غائلته.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑨ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ⑩﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئناف مَسوق لتهويل ما اجترءوا عليه مِن تكذيب آيات الله تعالى، واستعظامِ ما قالوا في حقّه عليه السلام، وأنّه مِن العظائم الموجِبة لنزول أشدّ العقاب، وحلولِ أفظع العذاب مِن غير رَيثٍ وتأخير. و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ﴾... إلخ بيان لِما ينبئ عنه ذِكر إحاطتهما بهم مِن المحذور المتوقَّع مِن جهتهما. وفيه تنبيه على أنّه لم يبقَ مِن أسباب وقوعه إلّا تعلّقُ المشيئة به، أي: أَفَعلوا ما فعلوا مِن المنكَر الهائل المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم مِن جميع جوانبهم بحيث لا مفرَّ لَهم عنه ولا محيصَ؟ إن نَشَأْ جَزيًا على موجَب جناياتهم ﴿نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كما خسفناها بقارون، ﴿أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا﴾ أي: قِطَعًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة، لاستيجابهم[1] ذلك بما ارتكبوه مِن الجرائم.

وقيل: هو تذكير بما يعاينون ممّا يدلّ على كمال قدرته وما يحتمل فيه إزاحةً لاستحالتهم البعثَ حتّى جعلوه افتراء وهزؤًا وتهديدًا عليها، والمعنى: أَعَمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم مِن السماء والأرض، ولم يتفكّروا أهُم أشدّ خلقًا أم هي؟ وإن نشأ نَخسف بهم الأرض، أو نسقط عليهم كسفًا، لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البيّنات، فتأمّل، وكُن على الحقّ المُبين.

وقُرئ: "يَخسِفْ"، و"يُسقِطْ" بـ"الياء"،[2] لقوله تعالى: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾،[3] و"كِسْفًا" بسكون "السين".[4]

[٣٦١ظ] / ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن السماء والأرض مِن حيث إحاطتهما بالناظر مِن جميع الجوانب، أو فيما تُلي مِن الوحي الناطق بما ذكر ﴿لَأٓيَةٗ﴾ واضحةً ﴿لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ شأنه الإنابةُ إلى ربّه، فإنّه إذا تأمّل فيهما أو في الوحي المذكور ينزَجر عن تعاطي القبائح، وينيب إليه تعالى.

وفيه حثّ بليغ على التوبة والإنابة، وقد أُكِّد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾ أي: آتيناه لِحُسن إنابته وصحّةِ توبته فضلًا على سائر الأنبياء عليهم السلام، أي: نوعًا مِن الفضل، وهو ما ذُكِر بَعدُ، فإنّه معجزة خاصّة به عليه السلام، أو على سائر الناس، فيندرج فيه النبوّة والكتاب والملك والصوت الحسن،

---

[1] س: لاستيحابهم.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

[3] في الآية السابقة.

[4] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٩.

فتنكيره للتفخيم. و﴿مِنَّا﴾ لتأكيد فخامته الذاتيّة بفخامته الإضافيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ[1] مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف، ١٨/٦٥]. وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفس مترقِّبةً له، فإذا وردها يتمكّن عندها فضلَ تمكّن.

﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ مِن "التأويب"، أي: رجّعي معه التسبيحَ، أو النَّوحةَ على الذنب، وذلك إمّا بأن يخلقَ الله تعالى فيها صوتًا مثلَ صوته، كما خلق الكلام في الشجرة، أو بأن يتمثّل له ذلك. وقُرئ: "أُوبِي"[2] مِن "الأَوْب"، أي: ارجِعي معه في التسبيح كلّما رجَع فيه.

وكان كلّما سبّح عليه السلام يُسمَع مِن الجبال ما يُسمَع مِن المسبِّح معجزةً له عليه السلام. وقيل: كان ينوح على ذنْبه بتَرجيعٍ وتَحزين، وكانت الجبالُ تُسعِده على نَوحه بأصدائها، والطيرُ بأصواتها.

وهو بدل مِن ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بإضمار "قلنا"، أو مِن ﴿فَضْلًا﴾ بإضمار "قولَنا".

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿فَضْلًا﴾، / بمعنى: وسخّرنا له الطير؛ لأنّ [٣٦٢و] إيتاءها إيّاه عليه السلام تسخيرُها له، فلا حاجةَ إلى إضماره، كما نُقل عن الكسائي، ولا إلى تقدير مضافٍ، أي: تسبيحَ الطير، كما نقل عنه في روايةٍ.[3] وقيل: عطفًا على محلّ "الجبال"،[4] وفيه مِن التكلّف لفظًا ومعنى ما لا يخفى. وقُرئ بالرفع[5] عطفًا على لفظها تشبيهًا للحركة البنائيّة العارضة بالحركة الإعرابيّة. وقد جُوِّز انتصابه على أنّه مفعول معه، والأوّل هو الوجه.

وفي تنزيل الجبال والطير منزلةَ العقلاء المطيعين لأمره تعالى المذعنين لحكمه المشعرِ بأنّه ما مِن حيَوان وجماد وصامت وناطق إلّا وهو منقاد لمشيئته

---

١ م ط س: وآتيناه.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة وابن أبي عبلة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٣ انظر: التبيان لأبي البقاء، ٢/١٠٦٤.

٤ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٨١؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٤٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وابن أبي عبلة ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

غيرُ ممتنع على إرادته مِن الفخامة المُعرِبة عن غاية[١] عظَمة شأنه تعالى وكمالِ كبرياء سلطانه ما لا يخفى على أولي الألباب.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: جعلناه ليّنًا في نفسه -كالشمع- يصرّفه في يده كيف يشاء مِن غير إحماءٍ بنار، ولا ضربٍ بمِطرقة، أو جعلناه بالنسبة إلى قوّته التي آتيناها إيّاه ليّنًا -كالشمع- بالنسبة إلى سائر القوى البشريّة.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أمرناه أنِ اعمل، على أنّ ﴿أَنْ﴾ مصدريّة حُذف عنها "الباء"، وفي حملِها على المفسِّرة تكلّف لا يخفى. ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ واسعاتٍ. وقُرئ: "صَابِغَاتٍ"،[٢] وهي الدُّروع الواسعة الضافية، وهو عليه السلام أوّل مَن اتّخذها، وكانت قبلُ صفائحَ.

قالوا: كان عليه السلام حين مَلَك على بني إسرائيل يخرج متنكّرًا فيسألُ الناس: ما تقولون في داود؟ فيُثنُون عليه، فقيّض الله تعالى له مَلَكًا في صورة آدميّ، فسأله على عادته، فقال: نِعمَ الرجل لولا خَصلةٌ فيه، فَرِيعَ داودُ، فسأله عنها، فقال: لولا أنّه يُطعِم عيالَه مِن بيت المال، فعند ذلك سأل ربّه أن يُسَبِّب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلّمه تعالى صنعةَ الدُّروع. وقيل: كان يبيع الدِّرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدّق على الفقراء.

[٣٦٢ظ] / ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ "السَّرْد" نسجُ الدُّروع، أي: اقتصِد في نسجها بحيث تتناسَبُ حَلَقُها. وقيل: قدِّر مساميرَها، فلا تعملها دِقاقًا ولا غِلاظًا.[٣] ورُدّ بأنّ دُروعه عليه السلام لم تكن مسمَّرة كما ينبئ عنه إلانةُ الحديد.

وقيل: معنى ﴿قَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: لا تصرِف جميع أوقاتك إليه؛ بل مقدار ما يحصل به القوت، وأمّا الباقي فاصرِفه إلى العبادة. وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ عُمِّم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه السلام ولأهله. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب الامتثال به.

---

١ س: عاية.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٣ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٤٣.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخرنا له الريح. وقُرئ برفع ﴿ٱلرِّيحَ﴾،[١] أي: ولسليمان الريحُ مسخَّرة. وقُرئ: "الرِّيَاحَ".[٢]

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: جَرْيُها بالغداةِ مسيرةُ شهر، وجَرْيها بالعشيّ كذلك. والجملة إمّا مستأنَفة أو حال مِن ﴿ٱلرِّيحَ﴾. وقُرئ: "غُدْوَتُهَا" و"رَوْحَتُهَا".[٣] وعن الحسن رحمه الله تعالى:[٤] «كان يغدو -أي: مِن دمشق- فيَقيلُ بإصْطَخْرَ، ثمّ يروح، فيكون رَواحه بِكابُلَ».[٥] وقيل: كان يتغدّى بالرَّيّ، ويتعشّى بسَمرقند.

ويُحكَى أنّ بعضهم رأى مكتوبًا في منزل بناحية دجلة، كتبه بعض أصحاب سليمان عليه السلام: «نحن نزَلناه وما بَنيناه، ومبنيًّا وجدناه، غدَونا مِن إصْطَخْرَ فَقِلْناه، ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله تعالى».[٦]

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: النُّحاس المذاب، أساله مِن معدِنه، كما ألانَ الحديد لداود عليهما السلام، فنبع منه نبوعَ الماء مِن الينبوع، ولذلك سمّي عينًا، وكان ذلك باليمن. وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيّام.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إمّا جملة مِن مبتدأ وخبر، أو ﴿مَن يَعْمَلُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، و﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حال متقدّمة. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره تعالى، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومَن يَعدِلْ / منهم عمّا أمرناه به مِن طاعة سليمان. وقُرئ: "يُزَغْ"[٧] على البناء للمفعول، مِن "أزاغه". [٣٦٣و]

---

١ قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٢ قرأ بها أبو جعفر المدني. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٤ ط س - تعالى.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٧٣/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٢/٣.

٦ عن وهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ٢٢٧/١٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧٣/٨.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢٨/٨.

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: عذابِ النار في الآخرة. ورُوِي[١] عن السدّي رحمه الله: «كان معه ملَك بيده سَوط مِن نار، كلّما استعصى عليه ضربه مِن حيث لا يراه الجنّي».[٢]

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ تفصيل لِما ذُكر مِن عملهم. وقوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾... إلخ بيان لـ﴿مَا يَشَآءُ﴾، أي: مِن قصور حصينة، ومساكنَ شريفةٍ، سُمِّيت بذلك لأنّها يُذَبّ عنها ويُحارَب عليها. وقيل: هي المساجد.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وصورِ الملائكة والأنبياء عليهم السلام على ما اعتادوه، فإنّها كانت تُعملُ حينئذ في المساجد ليراها الناس، ويعبدوا مثلَ عباداتهم، وحُرمةُ التصاوير شرعٌ جديد. ورُوي أنّهم عملوا أسَدَين في أسفل كرسيّه، ونَسرَين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسَط الأسدان ذراعَيهما، وإذا قعَدَ أظلّه النسران بأجنحتهما.

﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع "جَفْنة"، وهي الصَّحفة، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ كالحِياض الكِبار، جمع "جابِية"، مِن "الجِباية"، لاجتماع الماء فيها، وهي مِن الصفات الغالبة، كـ"الدابّة". وقُرئ بإثبات "الياء".[٣] قيل: كان يقعد على الجَفنة ألف رجل.

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتاتٍ على الأثافي، لا تنزل عنها لعِظَمها.

﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكاية لِما قيل لهم. و﴿شُكْرًا﴾ نصب على أنّه مفعول له، أو مصدر لـ﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾؛ لأنّ العمل للمنعِم شكر له، أو لفعله المحذوف، أي: اشكروا شكرًا، أو حال، أي: شاكرين، أو مفعول به، أي: اعملوا شكرًا.

[٣٦٣ظ] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي: المتوفِّر على أداء الشكر بقلبه / ولسانه وجوارحه أكثرَ أوقاته، ومع ذلك لا يوفّي حقّه؛ لأنّ التوفيق للشكر نعمة

---

١ ط س: روي.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢٨/٨.

٣ أثبتَها أبو عمرو وورش عن نافع وصلًا، وابن كثير ويعقوب وصلًا ووقفًا. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

تستدعي شكرًا آخر لا إلى نهاية، ولذلك قيل: "الشُّكور" مَن يرى عجزَه عن الشكر. ورُوي أنّه عليه السلام جَزَّأَ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة مِن الساعات إلّا وإنسان مِن آل داود قائم يصلّي.[١]

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان عليه السلام ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي: الجنَّ أو آلَه ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأرَضةُ، أُضيفت إلى فِعلها. وقُرئ بفتح "الراء"،[٢] وهو تأثّر الخشبة مِن فعلها، يقال: "أرَضَتِ الأرَضةُ الخشبةَ أرْضًا، فأَرِضَتْ أرَضًا"، مثل: "أكَلَت القَوادِحُ[٣] أسنانَه أكْلًا، فأَكِلَتْ أكَلًا".

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي: عصاه، مِن "نَسأْتُ البعيرَ" إذا طردتَه؛ لأنّها يُطرَد بها ما يُطرَد. وقُرئ: "مِنْسَاتَهُ" بـ"ألِف" ساكنة بدلًا مِن "الهمزة"،[٤] وبـ"همزة" ساكنةٍ،[٥] وبإخراجها بينَ بينَ عند الوقف،[٦] و"مِنْسَاءَتَهُ" على "مِفْعَالةٍ"،[٧] كَـ"مِيضاءة" في "مِيضَأَةٍ"، و"مِنْ سَأَتِهِ"،[٨] أي: مِن طرَف عصاه، مِنْ "سِأَةِ القَوسِ"، وفيه لغتان كما في "قِحَةٍ"[٩] بالكسر والفتح. وقُرئ: "أَكَلَتْ مِنْسَأَتَهُ".[١٠]

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ مِن "تَبيّنتُ الشيءَ" إذا علمتَه بعد التباسه عليك، أي: علمَت الجنُّ علمًا بيّنًا بعد التباس الأمر عليهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٨٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٣.

٢ أي: "الأرَضِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والعبّاس بن الفضل. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٠.

٣ القوادح: جمع القادحة، وهي الدودة التي تأكل السنّ والشجر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «قدح».

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

٥ قرأ بها ابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٦ قرأ بها حمزة الزيّات. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٣٧.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٠.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٩ يقال: وَقُحَ الحافِر وقاحَةً ووُقوحةً وقِحة وقَحةً، أي: صَلُبَ. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «وقح».

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢/١٨٨.

﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي: أنّهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لَعلموا موته عليه السلام حينما وقع، فلم يلبثوا بعده حَولًا في تسخيره إلى أن خرّ.

أو مِن "تَبيَّنَ الشيءُ" إذا ظهَر وتجلّى، أي: ظهرت الجنّ، و﴿أَنْ﴾ مع ما في حيّزها بدل اشتمال مِن ﴿ٱلْجِنُّ﴾، أي: ظهر أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون / الغيبَ... إلخ. [٣٦٤و]

وقُرئ: "تُبُيِّنَتِ الْجِنُّ"[١] على البناء للمفعول على أنّ المُتَبيَّنَ في الحقيقة هو ﴿أَن﴾ مع ما في صلتِها؛ لأنّه بدل. وقُرئ: "تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ"،[٢] والضمير في ﴿كَانُواْ﴾ لـ﴿ٱلْجِنِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾.[٣] وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ".[٤]

رُوي أنّ داود عليه السلام[٥] أسّس بنيان بيت المقدس في موضع فسطاط موسى، فتوفّي قبل تمامه، فوصّى به إلى سليمان عليهم السلام، فاستعمل فيه الجنّ والشياطين، فباشَروه حتّى إذا حانَ أجله وعلِم به سأل ربّه أن يُعمِّيَ عليهم موتَه حتّى يفرغوا منه، ولِتبطل دعواهم عِلمَ الغيب، فدعاهم فبنَوا عليه صرحًا مِن قوارير ليس له باب، فقام يصلّي متّكئًا على عصاه، فقُبِض روحُه وهو متّكئ عليها، فبقي كذلك وهم فيما أُمِرُوا به مِن الأعمال حتّى أَكَلَت الأَرَضة عصاه فخَرّ ميّتًا، وكانت الشياطينُ تجتمع حولَ مِحرابه أينما صلّى عليه السلام، فلم يكن ينظر إليه شيطان في صلاته إلّا احترق، فمرّ به يومًا شيطان فنظر، فإذا سليمان عليه السلام قد خرّ ميّتًا، ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلَتها الأَرَضة، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأَرَضة على العصا، فأكلت منها في يومٍ وليلة مقدارًا، فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنةٍ، وكان عمره عليه السلام ثلاثًا وخمسين سنةً، مَلَك وهو ابن ثلاث عشرةَ سنةً، وبقي في مُلكه أربعين سنةً، وابتدأ بناءَ بيت المَقدس لأربعٍ مَضين مِن مُلكه.[٦]

---

[١] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعلي بن الحسين والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

[٣] سبأ، ١٢/٣٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

[٥] م - عليه السلام.

[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ٨١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٤/٣.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بيان لإخبار بعض الكافرين بنِعم الله تعالى إثرَ بيان أحوال الشاكرين لها، أي: لأولاد سبأ بنِ يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان. وقُرئ بمنع الصرف[١] على أنّه اسم القبيلة. وقُرئ بقَلب "الهمزة" "ألِفًا"،[٢] ولعلّه إخراج لها بينَ بينَ.

﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ وقُرئ بكسر "الكاف"،[٣] كـ"المسجِد". وقُرئ بلفظ الجمع،[٤] / أي: مواضع سُكناهم، وهي باليمن، يقال لها:[٥] مأرِب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليالٍ. [٣٦٤ظ]

﴿ءَايَةٌ﴾ دالّة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كلّ ما يشاء مِن الأمور البديعة، المُجازِي للمحسِن والمُسيء، معاضِدةً للبرهان السابق، كما في قصّتَي داود وسليمان عليهما السلام.

﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل مِن ﴿ءَايَةٌ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي جنّتان، وفيه معنى المدح، ويؤيّده قراءة النصب[٦] على المدح. والمراد بهما جماعتان مِن البساتين.

﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعة عن يمين بلدِهم، وجماعة عن شماله، كلُّ واحدة مِن تَينِكَ الجماعتين في تقاربهما وتضامِّهما كأنّهما جَنّة واحدة، أو بستان كلّ رجل منهم عن يمين مَسكنه وعن شماله.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لِما قيل لهم على لسان نبيِّهم تكميلًا للنعمة، وتذكيرًا لِحُقوقها، أو لِما نطق به لسانُ الحال، أو بيانٌ لكونهم أحقّاءَ بأن يقال لهم ذلك.

---

١ أي: "لِسَبَأَ". قرأ بها أبو عمرو والبزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٧.

٢ أي: "لِسَبَا". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن حبيب عن اليزيدي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٢٦. وقرأ بذلك حمزة الزيّات عند الوقف. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٣٠.

٣ قرأ بها الكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٤ أي: "مَسَاكِنِهِمْ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٥ ط س: له.

٦ أي: "جَنَّتَيْنِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٤. وقال في توجيهها: «على أنّ ﴿ءَايَةٌ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾، و"جنتين" الخبر».

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئناف مبيِّن لِما يوجب الشكرَ المأمور به، أي: بلدتكم بلدة طيِّبة، وربّكم الذي رزقكم ما فيها مِن الطيّبات وطلَب منكم الشكرَ ربٌّ غفور لِفَرطات مَن يشكره. وقُرئَ الكلّ بالنصب[١] على المدح.

قيل: كان أطيبَ البلاد هواءً وأخصبَها، وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المِكتل، فتعمل بيدَيها، وتسير فيما بين الأشجار، فيمتلئ المِكتل ممّا يتساقط فيه مِن الثمار، ولم يكن فيه مِن مؤذيات الهوامّ شيء.[٢]

﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ عن الشكر بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه. قيل: أرسل إليهم ثلاثة عشر نبيًّا فدَعَوهم إلى الله تعالى، وذكّروهم بنِعَمِه، وأنذروهم عقابَه، فكذّبوهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي: سيلَ الأمرِ العَرِم، أي: الصعب، مِن "عَرِمَ الرجلُ، فهو عارِم، وعَرِمٌ"، إذا شَرِسَ خُلُقه وصَعُب، أو المطرِ الشديدِ. وقيل: ﴿ٱلْعَرِمِ﴾ جمع "عَرِمة"، وهي الحجارة المَركومة. وقيل: هو السِّكْر[٣] الذي يحبِس الماء. وقيل: هو اسم للبناء يُجعل سَدًّا.

[٣٦٥و] / وقيل: هو البناء الرَّصين الذي بَنَتْها المِلكة بِلقيسَ بين الجبلَين بالصخر والقار، وحقَنَت به ماء العيون والأمطار، وتركَت فيها خروقًا على ما يحتاجون إليه في سقيهم. وقيل: ﴿ٱلْعَرِمِ﴾ الجُرَذ الذي نقَب عليهم ذلك السدّ، وهو الفأر الأعمى الذي يقال له: الخُلْد، سلّطه الله تعالى على سدّهم، فنَقَبه، فغرَّق بلادهم. وقيل: ﴿ٱلْعَرِمِ﴾ اسم الوادي.

وقرئ:[٤] "الْعَرْمِ" بسكون "الراء".[٥]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن وزير عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

٢ تفسير ابن أبي حاتم، ٣١٦٥/١٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٥/٣.

٣ السكر -بفتح "السين" وكسرها وسكون "الكاف" ثم "راء" مهملة-: الجِسر والسّدّ على الماء. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٩٦/٧.

٤ س: وقيل.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عروة بن الورد. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

قالوا: كان ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى والنبيّ صلّى الله عليهما وسلّم.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي: أذهبنا جنتيهم وآتينا بدلهما ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي: ثمرٍ بَشِعٍ، فإنّ "الخَمْط" كلّ نَبْتٍ أخذ طعمًا مِن مرارة حتّى لا يُمكن أكله. وقيل: هو الحامِض والمرُّ مِن كلّ شيء.

وقيل: هو ثمرةُ شجرةٍ يقال لها: "فَسْوةُ الضَّبُع" على صورة الخَشخاش، لا يُنتفَع بها. وقيل: هو الأراك، أو كلّ شجر ذي شوك. والتقدير: "أُكُلٍ أُكُلِ خَمْطٍ"، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه.

وقُرئ: "أُكُلِ خَمْطٍ" بالإضافة،[١] وبتخفيف ﴿أُكُلٍ﴾.[٢]

﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفان على ﴿أُكُلٍ﴾، لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإنّ "الأَثْل" هو الطَّرفاء. وقيل: شجر يُشبهه أعظَمُ منه لا ثمرَ له. وقُرئ: "وَأَثْلًا وَشَيْئًا"،[٣] عطفًا على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾.

قيل: وصف "السِّدر" بالقِلّة لِما أنّ جَناه -وهو "النَّبِق"- ممّا يَطيب أكلُه، ولذلك يُغرس في البساتين. والصحيح أنّ "السِّدر" صنفان؛ صنف يُؤكل مِن ثمره، ويُنتفع بورَقه لغَسل اليد، وصنف له ثمرة عَفْصة لا تُؤكل أصلًا، ولا يُنتفع بورَقه، وهو "الضالّ"، والمراد ههنا هو الثاني حتمًا. وقال قَتادةُ: «كان شجرهم خيرَ الشجر، فصيّره الله تعالى مِن شرّ الشجر بأعمالهم».[٤] وتسميةُ البدل ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلة والتهكّم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر قوله تعالى: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ أو إلى ما ذُكر مِن التبديل، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد رُتبته في الفظاعة. ومحلّه على الأوّل النصب

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

٢ أي: "أُكْلٍ" بسكون "الكاف". قرأ بها نافع وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، حكاها الفضل بن إبراهيم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

٤ جامع البيان للطبري، ٢٥٨/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨٤/٨.

على أنّه مصدر مؤكِّد للفعل المذكور، وعلى الثاني النصب على أنّه مفعول ثانٍ
[٣٦٥ظ] له، أي: ذلكَ الجزاءَ الفظيعَ جزيناهم / لا جزاءً آخر، أو ذلك التبديلَ جزيناهم لا غيرَه.

﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ بسبب كُفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضِدَّها، أو بسبب كفرهم بالرسل.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي: وما نُجازي هذا الجزاءَ إلّا المبالِغ في الكفران أو الكفر. وقُرئ: "يُجَازِي"[١] على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجلّ. و"هَلْ يُجَازَى" على البناءِ للمفعول ورفعِ ﴿ٱلْكَفُورَ﴾،[٢] و"هَلْ يُجْزَى"[٣] على البناء للمفعول أيضًا.

وهذا بيانُ ما أوتوا مِن النِّعم الحاضرة في مساكنهم، وما فَعلوا بها مِن الكفران، وما فُعِل بهم مِن الجزاء.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ حكايةٌ لِما أوتوا مِن النِّعم البادية في مسائرهم ومتاجرهم، وما فَعلوا بها مِن الكُفران، وما حاق بهم بسبب ذلك، تكملةً لقصّتهم، وبيانًا لعاقبتهم، وإنّما لم يُذكر الكلّ معًا لِما في التثنية والتكرير مِن زيادة تنبيه وتذكيرٍ.

وهو عطفٌ على ﴿كَانَ لِسَبَإٍ﴾،[٤] لا على ما بعده مِن الجمل الناطقة بأفعالهم، أو بأجزيتها، أي: وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم مِن فنون النِّعم بينهم -أي: بين بلادهم- وبين القرى الشاميّة التي باركنا فيها للعالمين ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وابن وثّاب والنخعي. المحتسب لابن جنّي، ١٨٩/٢.
٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مسلم بن جُندب. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.
٤ سبأ، ١٥/٣٤.

متواصلةً يُرى بعضُها مِن بعضٍ لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين أهلها، أو راكبةً متنَ الطريق ظاهرةً للسابلة غيرَ بعيدة عن مسالكهم حتّى تخفى عليهم.

﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾ أي: جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معيّن يليق بحال أبناء السبيل. قيل: كان الغادي مِن قرية يَقيل في أخرى، والرائح منها يبيت في أخرى إلى أن يبلغ الشام. كلّ ذلك كان تكميلًا لِما أُوتوا مِن أنواع النعماء، وتوفيرًا لها في الحضر والسفر.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ على إرادة القول، أي: وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي: متى شئتم مِن الليالي والأيّام ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن كلّ ما تكرهونه، لا يختلف الأمنُ فيها باختلاف الأوقات، أو سيروا فيها آمنين وإن تَطاولت مدّةُ سفركم وامتدّت ليالِيَ وأيّامًا كثيرةً، أو سيروا فيها لياليَ / أعماركم [٣٦٦و]
وأيّامَها، لا تلقَون فيها إلّا الأمن، لكن لا على الحقيقة؛ بل على تنزيل تمكينهم مِن السير المذكور، وتسويةِ مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلةَ أمرِهم بذلك.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ وقُرئ: "يَا رَبَّنَا".[1] بطروا النعمةَ، وسئِمُوا أطيب العيش، وملّوا العافيةَ، فطلبوا الكدّ والتعب، كما طلب بنو[2] إسرائيل الثومَ والبصل مكان المنّ والسلوى. وقالوا: لو كان جَنَا جِنَانِنا أبعدَ لكان أجدرَ أن نشتهيَه، وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوِز وقِفارًا ليركبوا فيها الرواحل، ويتزوّدوا الأزواد، ويتطاولوا فيها على الفقراء، فعجّل الله تعالى لهم الإجابةَ بتخريب تلك القرى المتوسّطة، وجعلها بَلقعًا لا يُسمع فيه داعٍ ولا مجيب.

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٧.

[2] م: بنوا.

وقُرِئ: "بَعِدْ"،[١] و"رَبَّنَا بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"،[٢] و"بُعِدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"[٣] على النداء وإسنادِ الفعل إلى "بَيْنَ" ورفعِه به، كما يُقال: "سِيرَ فرسخان"، و"بُوعِدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا".[٤]

وقُرِئ: "رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"،[٥] و"بَيْنَ سَفَرِنَا"،[٦] و"بَعَّدَ"[٧] برفع ﴿رَبَّنَا﴾ على الابتداء، والمعنى على خلاف الأوّل، وهو استبعاد مسائرهم مع قِصَرها، ودنُوِّها وسهولة سلوكها، لفَرْط تنعّمهم، وغايةِ ترفُّههم، وعدمِ اعتدادهم بنِعم الله تعالى، كأنّهم يَتَشاجَون على الله تعالى ويتحازَنُون عليه.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث عرّضوها للسخط والعذاب حين بَطِرُوا النِّعمةَ،[٨] أو غَمَطوها،[٩] ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: جعلناهم بحيث يتحدّث الناس بهم متعجّبين مِن أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم، ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرّقناهم كلَّ تفريق على أنّ "المُمزَّق" مصدر، أو كلَّ مَطْرَح ومكانِ تفريقٍ، على أنّه اسم مكانٍ. وفي عبارة التمزيق الخاصِّ بتفريق المتّصل وخرقِه مِن تهويل الأمر والدلالة على شدّة التأثير والإيلام ما لا يخفى، أي: مزّقناهم تمزيقًا لا غايةَ وراءه بحيث يُضرَب به الأمثال / في كلّ فُرقة ليس بعدها وِصال، حتّى لحِق غسّان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأَزدُ بِعُمان. [٣٦٦ظ]

وأصل قصّتهم على ما رواه الكلبي عن أبي صالح أنّ عمرو بن عامرٍ مِن أولاد سبأ، وبينهما اثنا عشر أبًا، وهو الذي يقال له: مزيقيا بن ماء السماء، أَخْبَرَته طُرِيفةُ الكاهنة بخراب سدّ مأرِب، وتفريقِ سيل العَرِم الجنّتين.[١٠]

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن أبي الحسن. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٨/٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم الجحدري وأبي عمران الجوني. زاد المسير لابن الجوزي، ٤٩٦/٣.

[٥] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٩/٨.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وابن الحنفية وعمرو بن فائد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٨/٨.

[٨] وفي هامش م: على القراءتين الأوليين. «منه». | وهُما: " رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"، و"رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا".

[٩] وفي هامش م: على القراءات الأواخر. «منه». | وهي: "رَبُّنَا بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"، وما بعدها.

[١٠] انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٤٩٢/٣.

وعن أبي زيد الأنصاري[١] أنّ عَمرًا[٢] رأى جُرذًا يحفر السدّ، فعلم أنّه لا بقاءَ له بعدُ.[٣]

وقيل: إنّه كان كاهنًا وقد علِمه بكهانته، فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف مِن بلد إلى بلد، حتّى انتهى إلى مكّة المعظّمة وأهلُها جُرْهُم، وكانوا قهروا الناس وحازوا ولايةَ البيت على بني إسماعيل عليه السلام وغيرِهم فأرسل إليهم ثعلبة بن عمرو بن[٤] عامر يسألُهم المُقامَ معهم إلى أن يرجع إليه رُوّادُه الذين أرسلهم إلى أصقاع البلاد يطلبون له موضعًا يَسَعُه ومَن معه مِن قومه، فأَبَوا، فاقتتلوا ثلاثة أيّام، فانهزمت جُرْهم، ولم يُفلِتْ منهم إلّا الشَّرِيد، وأقام ثعلبة بمكّة وما حولها في قومه وعساكره حَولًا، فأصابتهم الحمّى، فاضطرُّوا إلى الخروج وقد رجع إليه رُوّاده، فافترقوا فرقتين، فرقة توجّهت نحو عُمانَ، وهم الأَزْدُ[٥] وكِندة وحِميَر ومَن يتلوهم، وسار ثعلبة نحو الشام، فنزل الأَوْسُ والخزرجُ ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة، وهم الأنصار، ومضت غسّان فنزلوا بالشام، وانخزعت خزاعة بمكّة، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر، وهو لُحَيٌّ، فولّي أمر مكّة وحِجابةَ الكعبة، ثمّ جاءهم أولادُ إسماعيل عليه السلام، فسألوهم السُّكنى معهم وحولَهم، فأذِنُوا لهم في ذلك.[٦]

---

١ هو سعيد بن أوس الأنصاري، البصري، أبو زيد (ت. ٢١٥هـ/٨٣٠م). الإمام، العلّامة، حجّة العرب، النحوي، حدّث عن سليمان التيمي، ورؤبة بن العجّاج، وأبي عمرو بن العلاء، وسعيد بن أبي عروبة، وعِدّة. وحدّث عنه خلف بن هشام البزّار، وتلا عليه، وأبو عبيد القاسم، وأبو حاتم السجستاني، وخلق كثير. مِن تصانيفه: **النوادر في اللغة، والهمز، والمطر، وخلق الإنسان، ولغات القرآن، والشجر، وبيوتات العرب، والفرق، وغريب الأسماء**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٩/٤٩٤؛ و**الأعلام** للزركلي، ٣/٩٢.

٢ م: عمروًا.

٣ انظر: **سيرة ابن هشام**، ١/١٣؛ و**تفسير ابن كثير**، ٦/٥١٠.

٤ س: ابن.

٥ الأَزْد: حيّ مِن كهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو الأَزْد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كَهلان. قال أبو عبيدة: «ويقال فيهم: "الأَسْد" بـ"السين" المهملة بدل "الزاي"». قال الجوهري: «وهو بـ"الزاي" أفصح». والأَزْد مِن أعظم الأحياء وأكثرها بطونًا، وأمدّها فروعًا. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٩١.

٦ انظر: **جامع الآثار** للدمشقي، ٢/٣٢٥.

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ فَرْوَةَ بن مُسَيك الغطيفي[١] سأل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن سبأ، فقال له عليه السلام: / «هو رجل كان له [٣٦٧و] عشرة أولاد، ستّة منهم سكنوا اليمن، وهم مَدحِج[٢] وكِندة والأزْد والأشعريّون[٣] وحِمير وأنمار؛[٤] منهم بَجِيلة[٥] وخَثعم،[٦] وأربعة منهم سكنوا[٧] الشام، وهم لَخم وجدام[٨] وعاملة[٩] وغسّان».[١٠]

---

١ هو فَروة بن مُسَيك بن الحارث بن سلمة الغطيفي، المرادي، أبو عمر (ت. نحو ٣٠هـ/ ٦٥٠م). صحابي، أصله مِن اليمن. وفَد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة تسع أو عشر وأسلم. ونزل على سعد بن عبادة، وأجزاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بمبلغ مِن المال، واستعمله على مراد ومذحج وزُبيد، وكتب له كتابًا فيه فرائض الصدقة، فعاد إلى بلاده. وقاتل أهل الردّة بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وبقي إلى خلافة عمر بن الخطّاب، وأقرّه عمر. سكن الكوفة في أواخر أعوامه. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٢٨١/٥؛ و**الأعلام** للزركلي، ١٤٣/٥.

٢ مَذْحِج: لغةٌ في "مَذحِج"، بالذال معجمة، وغير معجمة، قبيلة مِن اليمن مِن ولد مالك. وهو مَدحِج بن أُدَد بن زَيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كَهلان. **شمس العلوم** للحميري، ٢٠٤٢/٤.

٣ الأشعريّون: بطن مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو الأشعَر بن أُدَد بن زَيد يجشب بن عريب بن زيد بن كَهلان، قال أبو عبيدة: وسمّي "الأشعَر" لأنّ أمّه ولدته وهو أشعَر. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١٦٨/١.

٤ بنو أَنمار: حيّ مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو أنمار بن أراش بن عمرو بن غوث بن نبيت بن مالك بن زيد بن كَهلان. قال أبو عبيدة: وولد أَنمار هذا خثعم، وأمّه هند بنت مالك بن العاص بن الشاهد بن علّك، وعنفر والغوث وهنيّة وخُزيمة، وأمّهم بَجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة وبها يُعرفون. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٨٧/١.

٥ بنو بَجيلة: قبيلة مِن أَنمار بن أراش مِن كَهلان مِن القحطانيّة. و"بَجيلة" أمّهم، غلب عليهم اسمها، وهي بَجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة. قال في العِبر: هم بنو بَجيلة بن أنمار بن أراش. قال: وكانت بلادهم مع إخوتهم خثعم في سَروات اليمن والحجاز إلى تبالة، ثمّ افترقوا أيّام الفتح الإسلامي في الآفاق، فلم يبقَ منهم في مواطنهم إلّا القليل. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١٧١/١.

٦ بنو خَثعم: بطن مِن أنمار بن أراش مِن القحطانيّة، وكان لخثعم مِن الولد خلَف، وأمّه عاتكة بنت ربيعة بن نزار. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٢٤٣/١.

٧ م: سكنو.

٨ كذا في الأصول الخطّيّة بـ"الدال" المهملة، والصواب "جُذام" بـ"الذال" المعجمة. وبنو جُذام: بطن مِن كهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو جُذام بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. و"الجُذام" في أصل اللغة اسم للداء المعروف، فيحتمل أنّ اسم الرجل منقول عنه، ويحتمل أنّه مأخوذ مِن "الجَذم"، وهو القطع. انظر: **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٢٠٦/١.

٩ بنو عاملة: بطن مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو عاملة، واسمه الحارث بن عفيرة بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن زيد بن كهلان. وذكر أبو عبيد: أنّ بني عاملة هم بنو الحارث بن مالك بن وديعة بن عفير بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٣٣٣/١.

١٠ انظر: **مسند أحمد**، ٧٥/٥ (٢٨٩٨)؛ و**سنن الترمذي**، ٣٦١/٥ (٣٢٢٢).

لمّا هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرّقوا أيدي سبأ شَذَرَ مَذَرَ، فنزلت طوائف منهم بالحجاز، فمنهم خُزاعة نزلوا بظاهر مكّة، ونزلت الأوس والخزرج بيثرب، فكانوا أوّل مَن سكنها، ثمّ نزل عندهم ثلاث قبائل مِن اليهود؛ بنو[1] قينقاع وبنو[2] قريظة والنضير، فَحالفوا[3] الأوسَ والخزرجَ، وأقاموا عندهم، ونزلت طوائف أُخَرُ منهم بالشام، وهم الذين تنصّروا فيما بعدُ، وهم غسّان وعاملة ولَخم وجدام وتنُوخ[4] وتَغلِب وغيرهم، وسبأ تجمع هذه القبائل كلّها.

والجمهور على أنّ جميع العرب قسمان: قحطانيّة، وعدنانيّة، والقحطانيّة شِعبان: سبأ، وحضرموت، والعدنانيّة شِعبان: ربيعة، ومُضَر، وأمّا قضاعة فمختلف فيها، فبعضهم ينسبونها إلى قَحطان، وبعضهم إلى عدنان، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن قِصّتهم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: شأنُه الصبرُ عن الشهوات ودواعي الهوى، وعلى مشاقّ الطاعات، والشكر على النِّعم، وتخصيصُ هؤلاء بذلك لأنّهم المنتفِعون بها.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: حقّق عليهم ظنّه، أو وجده صادقًا. وقُرئ بالتخفيف،[5] أي: صدَق في ظنّه، أو صدَق بظنّ ظنَّه. ويجوز تعدية الفعل إليه بنفسه؛ لأنّه نوع مِن القول. وقُرئ بنصب ﴿إِبْلِيسَ﴾ ورفعِ "الظّنّ" مع التشديد،[6]

---

[1] م: بنوا.

[2] م: بنوا.

[3] س: فخالفوا.

[4] تَنُوخ: هم حيّ مِن اليمن، مِن القحطانيّة، وذكر المؤيّد صاحب حماة في تاريخه: أنّهم مِن قُضاعة، وقال أبو عبيد: هم ثلاثة أبطن؛ نزار، والأحلاف أسد وعفّان، سمّوا بذلك لأنّهم حلَفوا على المُقام بمكان الشام، والتَّنُّخ المُقام. انظر: نهاية الأرب للقلقشندي، ١/١٨٩.

[5] أي: "صَدَقَ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

[6] أي: "صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

بمعنى: وجده ظنُّهُ صادقًا، ومع التخفيف[١] بمعنى: قال له الصدقَ حين خيّله إغواءَهم، وبرفعهما والتخفيفِ[٢] على الإبدال، وذلك إمّا ظنّه بسبأ حين رأى [٣٦٧ظ] انهماكهم في الشهوات، / أو ببني آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى إلى وسوسته قال: إنّ ذرّيّته أضعف منه عزمًا. وقيل: ظنّ ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنّه يجعل فيها مَن يفسد فيها ويسفك الدماء، وقال: لَأضِلّنّهم ولأُغوينّهم.

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: أهل سبأ أو الناس ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلّا فريقًا هم المؤمنون لم يتّبعوه، على أنّ ﴿مِن﴾ بيانيّة، وتقليلُهم بالإضافة إلى الكفّار، أو إلّا فريقًا مِن فِرق المؤمنين لم يتّبعوه، وهم المخلصون.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: تسلّط واستيلاء بالوَسوسة والاستغواء. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ العِلل. و﴿مَن﴾ موصولة، أي: وما كان تسلّطه عليهم إلّا ليَتعلّق علمنا بمَن يؤمن بالآخرة متميّزًا ممّن هو في شكّ منها تعلّقًا حاليًا يترتّب عليه الجزاء، أو إلّا ليتميّز المؤمن مِن الشاكّ، أو إلّا ليؤمن مَن قُدّر إيمانه، ويَشكّ مَن قُدّر ضلاله، والمراد مِن حصول العلم حصول متعلّقه مبالغةً.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: محافِظ عليه، فإنّ "فَعيلًا" و"مُفاعِلًا" صيغتان متآخِيتان.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

---

[١] أي: "صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي والزهري وجعفر بن محمّد وأبي الجهجاه الأعرابي وبلال بن أبي برزة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٤٠؛ وتفسير القرطبي، ١٤/٢٩٢.

[٢] أي: "صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٤٠.

﴿قُلِ﴾ أي: للمشركين إظهارًا لبطلان ما هم عليه، وتَبكيتًا لهم: ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي: زعمتموهم آلهةً، وهما مفعولا "زَعَمَ"، ثمّ حُذف الأوّل تخفيفًا لطول الموصول بصِلته، والثاني لقيام صِفته -أعني: قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾- مَقامه، ولا سبيل إلى جعله مفعولًا ثانيًا؛ لأنّه لا يلتئِم مع الضمير كلامًا، وكذا ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ لأنهم لا يزعمونه، والمعنى: ادعوهم فيما يهمّكم مِن جلب نفع أو دفع ضرّ لعلّهم يستجيبون لكم إن صحّ دعواكم.

ثمّ أجاب عنهم إشعارًا بتعيّن الجواب، وأنّه لا يقبل المكابَرة، فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مِن خير وشرّ، ونفع وضرّ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أمرٍ ما مِن الأمور. وذِكرُهما للتعميم عُرفًا، أو لأنّ آلهتهم بعضها سماويّة كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضيّة كالأصنام، أو لأنّ الأسبابَ القريبة للخير والشرّ سماويّة وأرضيّة. والجملة استئناف لبيان حالهم.

﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لآلهتهم ﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: شركةٍ، لا خَلقًا ولا ملكًا ولا تصرّفًا، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى ﴿مِنْهُم﴾ مِن آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعينه في تدبير أمرهما.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥ﴾ أي: لا توجد رأسًا، كما في قوله:

ولا ترى الضبّ بها ينجحر[١]

لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٥]، وإنّما عُلِّق النفي بنفعها لا بوقوعها تصريحًا بنفي ما هو غرضهم مِن وقوعها.

---

١ صدره:

ولا يفزع الأرنبَ أهوالُها

البيت لعَمرو بن أحمر الباهلي. و"الإفزاع": الإخافة. و"الأرنبَ": مفعول مقدّم. و"أهوالُها": فاعل "يفزع"، والضميرُ للمفازة والفلاة. و"الانجحار": الدخول في الجُحر؛ وهو ما حفَرَه الهوامّ والسِّباع لأنفسها. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ١٩٢/١٠.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا تقع الشفاعة في حال مِن الأحوال إلّا كائنةً لِمَن أَذِنَ له في الشفاعة مِن النبيّين والملائكة ونحوِهم مِن المستأهِلين لمَقام الشفاعة، فتبيّن حِرمان الكفرة منها بالكلّيّة، أمّا مِن جِهة أصنامهم فلِظهور انتفاءِ الإذن لها ضرورةَ استحالة الإذن في الشفاعة لجمادٍ لا يعقل ولا ينطق، وأمّا مِن جهة مَن يعبدونه مِن الملائكة فلأنّ إذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقّين لها، لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ، ٣٨/٧٨]. ومِن البيِّن أنّ الشفاعة للكفرة بمَعزِل مِن الصواب.

أو لا تنفع الشفاعة مِن الشفعاء المستأهِلين لها في حال مِن الأحوال إلّا كائنةً لمَن أَذِن له، أي: لأجله وفي شأنه مِن المستحقّين للشفاعة، وأمّا مَن عَداهم مِن غير المستحقّين لها فلا تنفعهم أصلًا وإن فُرِض وقوعُها وصدورها عن الشفعاء؛ إذ لم يُؤذَن لهم في شفاعتهم، بل في شفاعة غيرهم، فعلى هذا يثبت حرمانهم عن شفاعة هؤلاء بعبارة النصّ، وعن شفاعة الأصنام / بدلالته؛ [٣٦٨ظ]
إذ حين حُرِمُوها مِن جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين إليها فلَأن يُحْرَمُوها[١] مِن جهة العجَزة عنها أولى. وقُرئ: "أُذِنَ لَهُ" مبنيًّا للمفعول.[٢]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوبِ الشفعاء والمشفوعِ لهم مِن المؤمنين، وأمّا الكفرة فهم مِن موقف الاستشفاع بمَعزِل، وعن التفزيع عن قلوبهم بألفِ مَنزل. و"التفزيع" إزالةُ الفزَع، ثمّ تُرك ذكر الفزَع وأُسند الفعل إلى الجارّ والمجرور. و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لِما ينبئ عنه ما قبلها مِن الإشعار بوقوع الإذن لمَن أَذِن له، فإنّه مسبوق بالاستئذان المستدعي للترقّب والانتظار للجواب، كأنّه سُئِل: كيف يُؤذن لهم؟ فقيل: يتربّصون في موقف الاستئذان والاستدعاء، ويتوقّفون على وجَلٍ وفزَعٍ مَلِيًّا، حتّى إذا أُزيلَ الفَزَع عن قلوبهم بعد اللُّتيّا والتي،[٣] وظهرت لهم تباشير الإجابة ﴿قَالُوا۟﴾ أي: المشفوعُ لهم؛

---

[١] س: يُحْرَموا.

[٢] قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢

[٣] اللُّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

إذ هم المحتاجون إلى الإذن، والمهتمّون بأمره: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: في شأن الإذن؟ ﴿قَالُواْ﴾ أي: الشفعاء؛ لأنهم المباشِرون للاستئذان بالذات، المتوسّطون بينهم وبينه عزّ وجلّ بالشفاعة: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: قال ربُّنا القولَ الحقَّ، وهو الإذنُ في الشفاعة للمستحقّين لها. وقُرئ: "الحَقُّ" مرفوعًا،[١] أي: ما قاله الحقُّ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ مِن تمام كلام الشفعاء، قالوه اعترافًا بغاية عَظَمة جَناب العزّة عزّ وجلّ، وقُصور شأن كلّ مَن سواه، أي: هو المتفرّد بالعلوّ والكبرياء، ليس لأحد مِن أشراف الخلائق أن يتكلّم إلّا بإذنه.

وقُرئ: "فُزِعَ" مخففًا[٢] بمعنى ﴿فُزِّعَ﴾. وقُرئ: "فَزَّعَ" على البناء للفاعل،[٣] وهو الله وحده. وقُرئ: "فُرِّغَ" بـ"الراء" المهملة و"الغين" المعجمة،[٤] أي: نُفِيَ الوجَل عنها وأُفنِيَ، مِن "فَرَغَ الزادُ" إذا لم يبقَ منه شيء، وهو مِن الإسناد المجازي؛ لأنّ الفراغَ -وهو الخلوّ- حالُ ظرفه عند نفاده، فأُسندَ إليه، على عكس قولهم: "جَرى النهر". وعن الحسن تخفيف "الراء"،[٥] وأصله: فَرَغَ الوَجَلُ عنها، أي: انتفى عنها وفَنِي، ثمّ حُذف الفاعل وأُسندَ إلى الجارّ والمجرور، وبه يُعرف حالُ التفريغ. وقُرئ: "افْرُنْقِعَ عَن قُلُوبِهِمْ"[٦] بمعنَى: انكُشِفَ عنها.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم / مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أُمِرَ عليه السلام بتبكيت المشركين، [٣٦٩و]
بحملهم على الإقرار بأنّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرّة فيهما، وأنّ الرازق

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٥/٨.

٣ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما والحسن وأيّوب السختياني وقتادة وأبي مجلز. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٥/٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

هو الله تعالى، فإنّهم لا يُنكرونه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾... ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس، ٣١/١٠].

وحيث كانوا يتلعثمون أحيانًا في الجواب مخافةَ الإلزام قيل له عليه السلام: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواه عندهم أيضًا. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وإنّ أحد الفريقين مِن الذين يوحِّدون المتوحِّدَ بالرزق والقدرةِ الذاتيّة، ويخصّونه بالعبادة، والذين يشركون به في العبادة الجمادَ النازلَ في أدنى المراتب الإمكانيّة، لَعَلَى أحد الأمرين مِن الهدى والضلال المبين، وهذا بعد ما سبَق مِن التقرير البليغ الناطق بتعيين مَن هو على الهدى ومَن هو في الضلال أبلغَ مِن التصريح بذلك، لجريانه على سَنن الإنصاف المُسكِت للخَصم الألدّ.

وقُرئ: "وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ إِمَّا عَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ".[١]

واختلاف الجارّين للإيذان بأنّ الهادي كمَن استعلى مَنارًا ينظر الأشياء ويتطلّع عليها، والضالّ كأنّه منغمِس في ظلامٍ لا يرى شيئًا، أو محبوسٌ في مَطمورة لا يستطيع الخروج عنها.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا أبلغ في الإنصاف، وأبعد مِن الجدل والاعتساف، حيث أُسندَ فيه الإجرامُ -وإن أُريدَ به الزلّةُ وتركُ الأَولى- إلى أنفسهم، ومطلقُ العمل إلى المخاطَبين، مع أنّ أعمالهم أكبر الكبائر.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة عند الحشر والحساب، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يَحكم بيننا ويَفصل بعد ظهور حال كلٍّ منّا ومنكم، بأن يُدخل المحقّين الجنّةَ، والمبطلين النارَ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٥٨٢/٣.

﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾ الحاكم الفيصل في القضايا المنغلقة، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يُقضى به.

﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٧﴾

/ ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم﴾ أي: ألحقتموهم ﴿بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أريدَ بأمرهم بإراءةِ [٣٦٩ظ] الأصنام مع كونها بمَرأًى منه عليه السلام إظهارُ خطئهم العظيم، وإطْلاعُهم على بطلان رأيهم، أي: أرُونِيها لأنظرَ بأيِّ صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة. وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجّة عليهم.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايَسة؛ ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: الموصوف بالغلبة القاهِرة والحكمة الباهِرة، فأين شركاؤكم التي هي أخسّ الأشياء وأذلّها مِن هذه الرتبة العالية؟ والضمير إمّا لله عزّ وعلا، أو للشأن، كما في ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص، ١/١١٢].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٨﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: إلّا إرسالةً عامّةً لهم، فإنّها إذا عمَّتْهم فقد كَفَّتْهم أن يخرج منها أحد منهم، أو إلّا جامعًا لهم في الإبلاغ، فهي حال مِن "الكاف"، و"التاءُ" للمبالغة، ولا سبيلَ إلى جعلها حالًا مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لاستحالة تقدّم الحال على صاحبها المجرور. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، فيحملهم جهلُهم على ما هم عليه مِن الغيّ والضلال.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٩﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن فَرْط جهلهم وغايةِ غيّهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ بطريق الاستهزاء، يعنون به المبشَّرَ به والمنذَرَ عنه، أو الموعودَ بقوله تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾.[١] ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ مخاطِبين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين به.

---

١ سبأ، ٢٦/٣٤.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي: وعدُ يومٍ، أو زمانُ وعدٍ، والإضافة للتبيين. وقُرئ: "مِيعَادٌ يَوْمٌ" منوَّنين[1] على البدل، و"يَوْمًا"[2] بإضمار "أعْني" للتعظيم. ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾[3] عند مفاجأته ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ صفة لـ﴿مِيعَادُ﴾، وفي هذا الجواب مِن المبالغة في التهديد ما لا يخفى، حيث جُعِل الاستِئخار في الاستحالة كالاستِقدام الممتنع عقلًا، وقد مرّ بيانه مرارًا. ويجوز أن يكون نفي الاستئخار[4] والاستقدام غيرَ مقيَّد بالمفاجأة، / فيكون وصفُ "الميعاد" بذلك [٣٧٠و] لتحقيقه وتقريره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مِن الكتب القديمة الدالّة على البعث. وقيل: إنّ كفّار مكّة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأخبروهم أنّهم يجدون نَعته في كتبهم، فغضِبوا، فقالوا ذلك.[5] وقيل: ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ القيامة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ المنكرون للبعث ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في موقف المحاسبة، ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يتحاوَرون ويتراجعون القول، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ بدل مِن ﴿يَرْجِعُ﴾... إلخ، أي: يقول الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ في الدنيا واستتبعوهم في الغيّ والضلال: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ أي: لولا إضلالُكم وصدُّكم لنا عن الإيمان ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتّباع الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

[3] م س ط – ساعة.

[4] س: الاستنحار.

[5] الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٨٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٤٨.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال الذين استكبروا في الجواب؟ فقيل: قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ منكِرين لكونهم هم الصادّين لهم عن الإيمان، مثبتين أنّهم هم الصادّون بأنفسهم بسبب كونهم راسخين في الإجرام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ إضرابًا عن إضرابهم، وإبطالًا له: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل صَدّنا مكرُكم بنا بالليل والنهار، فحُذف المضاف إليه، وأقيمَ مُقامه الظرفُ اتّساعًا، أو جُعل ليلُهم ونهارهم ماكرَين على الإسناد المجازي.

وقُرئ: "بَلْ مَكْرٌ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ" بالتنوين ونصبِ الظرفَين،[١] أي: بل صَدّنا مكرُكم في الليل والنهار، على أنّ التنوين عوض عن المضاف إليه، أو مكرٌ عظيمٌ، على أنّه للتفخيم. وقُرئ: / "بَلْ مَكَرُّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ" بالرفع[٢] والنصب،[٣] [٣٧٠ظ]
أي: تكرُّون الإغواءَ مَكَرًّا دائبًا لا تفترون عنه، فالرفع على الفاعليّة، أي: بل صَدّنا مَكَرُّكم الإغواءَ في الليل والنهار، على ما سبق مِن الاتّساع في الظرف بإقامته مُقام المضافِ إليه، والنصبُ على المصدريّة، أي: بل تَكُرُّون الإغواءَ مكرَّ الليل والنهار، أي: مَكَرًّا دائمًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ ظرف للمَكْر، أي: بل مَكرُكم الدائم وقتَ أمركم لنا ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ على أنّ المراد بمَكرِهم إمّا نفسُ أمرِهم

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن راشد القارئ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

بما ذُكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة، ٥/٢٠]، فإنّ الجَعلين المذكورين نعمة مِن الله تعالى وأيُّ نعمة، وإمّا أمورٌ أُخرُ مقارِنةٌ لأمرهم، داعيةٌ إلى الامتثال به، مِن الترغيب والترهيب وغير ذلك.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: أضمَر الفريقان الندامةَ على ما فعلا مِن الضلال والإضلال، وأخفاها كلّ منهما عن الآخر مخافةَ التعيير، أو أظهروها، فإنّه مِن الأضداد، وهو المناسب لحالهم.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في أعناقهم. والإظهار في موضع الإضمار للتنويه بذمّهم، والتنبيهِ على مُوجِب أغلالهم.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يُجزون إلّا جزاءَ ما كانوا يعملونه، أو إلّا بما كانوا يعملونه، على نَزع الجارّ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ مِن القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا مُنِيَ به مِن قومه مِن التكذيب والكفرِ بما جاء به، والمنافسةِ بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخَرةِ بحظوظ الدنيا وزخارفها، والتكبّرِ بذلك / على المؤمنين، والاستهانةِ بهم [٣٧١و]
مِن أجله، وقولِهم: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم، ١٩/٧٣]، بأنّه لم يُرسل قطّ إلى أهل قرية مِن نذير إلّا قال مترفوهم مثلَ ما قال مُترفوا أهلِ مكّة في حقّه عليه السلام، وكادوا به نحو ما كادوا به عليه السلام، وقاسوا أمور الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمور الدنيا، وزعموا أنّهم لو لم يَكرُموا على الله تعالى لَما رزقهم طيّباتِ الدنيا، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه تعالى لَما حَرَمَهُمُوها، وعلى ذلك الرأي الركيك بنَوا أحكامهم.

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إمّا بناءً على انتفاء العذاب الأخروي رأسًا، أو على اعتقاد أنّه تعالى أكرمهم في الدنيا، فلا يُهينهم في الآخرة على تقدير وقوعها.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾

﴿قُلۡ﴾ ردًّا عليهم وحَسْمًا لمادّة طمَعهم الفارغ، وتحقيقًا للحقّ الذي عليه يدور أمر التكوين: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه[1] له، ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ على مَن يشاء أن يَقْدِره عليه مِن غير أن يكون لأحدٍ من الفريقين داعٍ إلى ما فُعِل به مِن البسط والقَدْر، فربّما يوسِّع على العاصي، ويضيِّق على المطيع، وربّما يعكِس الأمر، وربّما يوسِّع عليهما معًا، وقد يضيِّق عليهما، وقد يوسِّع على شخصٍ تارةً، ويضيِّق عليه أخرى، يفعل كلًّا مِن ذلك حسبَما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة، فلا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب اللذَين مَناطُهما الطاعةُ وعدمُها. وقُرئ: "وَيُقَدِّرُ" بالتشديد.[2]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، فيزعمون أنّ مدار البسط هو الشرف والكرامة، ومدارَ القَدْر هو الهوان، ولا يدرون أنّ الأوّل كثيرًا ما يكون بطريق الاستدراج، / والثاني بطريق الابتلاء ورفع الدرجات. [٣٧١ظ]

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ كلام مستأنَف مِن جهته عزّ وعلا، خُوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغةً في تحقيق الحقّ وتقريرِ ما سبق، أي: وما جماعةُ أموالكم وأولادكم بالجماعة التي تقرِّبكم عندنا قربةً، فإنّ الجمع المكسَّر عقلاؤه وغيرُ عقلائه سواء في حكم التأنيث، أو بالخَصلة التي تقرّبكم. وقُرئ: "بِالَّذِي"،[3] أي: بالشيء الذي.

---

[1] س ط: يبسط.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[3] وبالياء في: ﴿تُقَرِّبُكُمۡ﴾. قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناء مِن مفعول ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾، أي: وما الأموال والأولاد تقرِّبُ أحدًا إلّا المؤمنَ الصالح الذي أنفق أمواله في سبيل الله تعالى، وعلّمَ أولاده الخيرَ، وربّاهم على الصلاح، ورشّحَهم للطاعة. وقيل: مِن أموالكم وأولادكم، على حذف المضاف، أي: إلّا أموالُ مَن... إلخ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَنْ﴾، والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد[١] بالمشار إليه للإيذان بعلوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي: ثابت لهم ذلك، على أنّ الجارّ والمجرورَ خبرٌ لِما بعده، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وفيه تأكيد لتكرّر الإسناد، أو يَثبت لهم ذلك، على أنّ الجارّ والمجرور خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وما بعدَه مرتفع على الفاعليّة. وإضافة "الجَزاء" إلى ﴿ٱلضِّعْفِ﴾ مِن إضافة المصدر إلى المفعول، أصلُه: "فأولئك لهم أن يُجازَوا الضِّعفَ"، ثمّ "جَزاءٌ الضِّعفَ"، ثمّ ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾. ومعناه: أن يضاعَف لهم حسناتُهم، الواحدةُ عشرًا فما فوقها.

وقُرئ: "جَزاءً الضِّعْفُ"،[٢] أي: فأولئك لهم الضِّعفُ جزاءً، و"جَزاءٌ الضِّعْفَ"[٣] / على أن يُجازَوا الضِّعفَ، و"جَزاءٌ الضِّعْفُ"[٤] بالرفع، على أنّ [٣٧٢و] "الضِّعْفُ" بدل مِن "جَزاءٌ".

﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ مِن الصالحات، ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: غُرفاتِ الجنّة ﴿ءَامِنُونَ﴾ مِن جميع المَكارِه.

وقُرئ بفتح "الراء"[٥] وسكونها.[٦] وقُرئ: "فِي الْغُرْفَةِ"[٧] على إرادة الجنس.

---

١ س - العهد.

٢ قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٧ قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالردّ والطَّعن فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ سابقين لأنبيائنا، أو زاعمين أنّهم يفوتوننا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ لا يُجديهم ما عوّلوا عليه نفعًا.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يوسّعه عليه تارةً، ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ أي: يضيّقه عليه تارةً أخرى، فلا تخشَوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله، وتعرّضُوا لِنفحاته تعالى.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ عوضًا إمّا عاجلًا، وإمّا آجلًا. ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنّ غيره واسطة في إيصال رِزقه، لا حقيقةَ لرازِقيّته.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠﴾

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي: المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون مِن دون الله. و﴿يَوۡمَ﴾ ظرف لمُضمَر متأخّر سيأتي تقديره، أو مفعول لمُضمَر مقدَّم، نحو: "اذكر".

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ تقريعًا للمشركين، وتبكيتًا لهم على نهج قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي﴾... إلخ [المائدة، ٥/١١٦]، وإقناطًا لهم عمّا[١] علّقوا به أطماعَهم الفارغة مِن شفاعتهم. وتخصيصُ الملائكة لأنّهم أشرف شركائهم، والصالحون للخطاب منهم، ولأنّ عبادتهم مبدأ الشرك، فبظهور قُصورهم عن رتبة المعبوديّة وتنزّهِهم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الأولويّة. وقُرئ الفعلان بـ"النون".[٢]

---

١ س: ممّا.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٧.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية سؤال الملائكة، كأنّه قيل: فماذا يقول الملائكة حينئذ؟ فقيل: يقولون متنزِّهين عن ذلك: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على التحقّق، أي: أنت الذي نُواليه مِن دونهم، لا موالاةَ بيننا وبينهم، كأنّهم بيّنوا بذلك براءتهم مِن الرضا بعبادتهم، ثمّ أضربوا عن ذلك، ونفَوا أنّهم عبدوهم حقيقةً بقولهم: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ أي: الشياطينَ حيث أطاعوهم في عبادة غير الله سبحانه. وقيل: كانوا يتمثّلون لهم، ويُخيّلون لهم أنّهم الملائكة، فيعبدونهم. وقيل: يدخلون أجواف الأصنام إذا عُبِدَت، فيُعبَدون بعبادتها.

[٣٧٢ظ] ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ الضمير / الأوّل للإنس أو للمشركين، والأكثر بمعنى الكلّ، والثاني للجنّ.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٤٢﴾

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ مِن جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزّه والتبرُّؤ عمّا نسب إليهم الكفرة، يخاطَبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهارًا لعجزهم وقصورهم عند عبَدتهم، وتنصيصًا على ما يوجب خَيبةَ رجائهم بالكلّيّة.

و"الفاء" ليست لترتيب ما بعدها مِن الحِكم على جواب الملائكة، فإنّه محقَّق، أجابوا بذلك أم لا؛ بل لترتيب الإخبار به عليه. ونسبة عدم النفع والضرّ إلى البعض المبهَم للمبالغة فيما هو المقصود الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبَدة بنَظمه في سِلك عدم نفع العبَدة لهم، كأنّ نفع الملائكة لعبَدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبَدة لهم. والتعرّض لعدم الضرّ مع أنّه لا بحثَ عنه أصلًا فإمّا لتعميم العجز، أو لحَمل عدم النفع على تقدير العبادة، وعدمِ الضرّ على تقدير تركها، أو لأنّ المراد دفع الضرّ على حذف المضاف. وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الإطلاق لانعقاد رجائهم على تحقّق النفع يومئذ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطفٌ على "نَقُولُ[1] لِلْمَلَائِكَةِ"،[2] لا على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ كما قيل،[3] لأنّه ممّا يقال يوم القيامة خطابًا للملائكة مترتّبًا على جوابهم المَحكي، وهذا حِكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لِما سيُقال للعبَدة يومئذ إثرَ حكاية ما سيُقال للملائكة، أي: يومَ نحشرهم جميعًا ثمّ نقول[4] للملائكة كذا وكذا، ويقولون كذا وكذا، ونقول للمشركين: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بيان لبعض آخر مِن كفَراتِهم، أي: إذا تتلى عليهم بلسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم / آياتُنا الناطقة بحقّيّة [٣٧٣و] التوحيد وبطلان الشرك ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيستتبعكم بما يستبدِعه مِن غير أن يكون هناك دين إلهي. وإضافة "الآباء" إلى المخاطَبين -لا إلى أنفسهم- لتحريك عِرق العصبيّة منهم مبالغةً في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كلام مَصروف عن وجهه، لا مِصداقَ له في الواقع، ﴿مُّفْتَرًى﴾ بإسناده إلى الله تعالى.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ أي: لأمر النبوّة، أو الإسلام، أو القرآنِ، على أنّ العطف لاختلاف العنوان بأن يُراد بالأوّل معناه، وبالثاني نظمُه المعجِز. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مِن غير تدبّر ولا تأمّل فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر سِحريّته.

---

[1] كذا في الأصول الخطّيّة بـ"النون"، هو مبنيّ على القراءة بـ"النون"، وقد سبق بيانها في سبأ، ٤٠/٣٤.

[2] سبأ، ٤٠/٣٤.

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٨٨/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٥٠/٤.

[4] كذلك هو مبنيّ على القراءة بـ"النون" في الفعلين.

وفي تكرير الفعل، والتصريحِ بذكر الكفرة، وما في "اللامَين"[1] مِن الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وما في ﴿لَمَّا﴾ مِن المسارعة إلى البتّ بهذا القول الباطل؛ إنكارٌ عظيم له، وتعجيبٌ بليغ منه.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فيها دليل على صحّة الإشراك كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم، ٣٥/٣٠]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف، ٢١/٤٣]. وقُرئ: "يُدَرِّسُونَهَا"،[2] و"يَدَّرِسُونَهَا" بتشديد "الدال"،[3] "يفتَعِلون" مِن "الدَّرْس".

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه، وينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، وقد بانَ مِن قبلُ أن لا وجهَ له بوجه مِن الوجوه، فمِن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ؟ وهذا غاية تجهيل لهم، وتسفيهٍ لرأيهم.

ثمّ هدّدهم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المتقدّمة والقرونِ الخالية كما كذّبوا، ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: ما بلغَ هؤلاء عُشرَ ما آتينا أولئك مِن القوّة وطول العمر وكثرة المال، أو ما بلغَ أولئك عُشرَ ما آتينا / هؤلاء مِن البيّنات والهدى، ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى﴾ عطفٌ على ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾... إلخ بطريق التفصيل والتفسير، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾... إلخ [القمر، ٩/٥٤]. [٣٧٣ظ]

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري لهم بالتدمير، فليحذَر هؤلاء مِن مثل ذلك.

---

[1] أراد بهما الاسم الموصول المذكور في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ولام التعريف في قوله: ﴿لِلْحَقِّ﴾ على سبيل التغليب. انظر: حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ٧١٠/٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٩/٨.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٩/٨.

[4] م س ط – قبلهم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: ما أُرشدكم وأنصح لكم إلّا بخَصلة واحدة، هي ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ على أنّه بدل منها، أو بيان لها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي أن تَقوموا مِن مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو تنتصبوا للأمر خالصًا لوجه الله تعالى معرضًا عن المماراة والتقليد، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: متفرّقين اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، فإنّ الازدحام يشوّش الأفهام، ويخلط الأفكار بالأوهام. وفي تقديم ﴿مَثْنَىٰ﴾ إيذان بأنّه أوثَق وأقرب مِن الاطمئنان.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمره صلّى الله عليه وسلّم وما جاء به؛ لتعلموا حقيقتَه وحَقّيّته.

وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استئناف مَسوق مِن جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمّل بأنّ مثل هذا الأمر العظيم الذي تحته[١] مُلك الدنيا والآخرة لا يتصدّى لادّعائه إلّا مَجنونٌ لا يُبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهورِ عَجزه، أو مؤيَّدٌ مِن عند الله مرشَّح للنبوّة، واثِقٌ بحجّته وبرهانه.

وإذ قد علمتم أنّه عليه السلام أرجحُ العالِمين عقلًا، وأصدقُهم قولًا، وأنزهُهم نفسًا، وأفضلُهم علمًا، وأحسنُهم عملًا، وأجمعُهم للكمالات البشريّة؛ وجَب أن تصدّقوه في دعواه، فكيف وقد انضمّ إلى ذلك معجزات تخِرّ لها صُمّ الجبال.

ويجوز أن يتعلّق بما قبله على معنى: ثم تتفكّروا فتعلَموا ما بصاحبكم مِن جِنّة. وقد جُوّز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهاميّة على معنى: ثم تتفكّروا أيّ شيء به مِن آثار الجنون.

---

١ س: تحت.

[٣٧٤و] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ / هو عذاب الآخرة، فإنّه عليه السلام مبعوث في نَسَم الساعة.[1]

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: أيَّ شيء سألتكم مِن أجرٍ على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي السؤال رأسًا، كقول مَن قال لمَن لم يعطِه شيئًا: "إن أعطيتني شيئًا فخذه". وقيل: ﴿مَا﴾ موصولة، أريدَ بها ما سألهم بقوله تعالى: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٥٧]، وقولِه تعالى: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى، ٤٢/٢٣]، واتّخاذُ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى، وقُرباه عليه السلام قُرباهم.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مُطّلِع، يعلم صِدقي وخلوصَ نيّتي. وقُرئ: "إنْ أَجْرِي" بسكون "الياء".[2]

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يُلقيه ويُنزله على مَن يجتبيه مِن عباده، أو يرمي به الباطِلَ فيدمغه، أو يرمي به في أقطار الآفاق، فيكون وعدًا بإظهار الإسلام، وإعلاءِ كلمة الحقّ.

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ صفة محمولة على محلّ ﴿إِنَّ﴾ واسمِها، أو بدل مِن المستكِنّ في ﴿يَقْذِفُ﴾، أو خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف. وقُرئ بالنصب[3] صفةً لـ﴿رَبِّي﴾، أو مقدَّرًا بـ"أعني". وقُرئ بكسر "الغين"،[4] وبالفتح[5] كـ"صَبور" مبالغةِ "غائِب".

---

[1] أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء، ٤/١٦١، عن أبي جَبيرة، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بُعثت في نَسَم الساعة». وأخرجه البزّار في مسنده، ٨/٣٨٩ (٣٤٦٢)، بلفظ: «بُعثت في نَفَس الساعة». و"نَسَمُ الساعة" مِن "النسيم"، أوّلِ هبوب الريح الضعيفة، أي: بُعثت في أوّل أشراط الساعة وضَعفِ مجيئها. النهاية لابن الأثير، «نسم».

[2] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

[4] قرأ بها حمزة وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٦.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام والتوحيد، ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: زهَقَ الشرك بحيث لم يبقَ أثره أصلًا، مأخوذ مِن هلاك الحيّ، فإنّه إذا هلك لم يبقَ له إبداء ولا إعادة، فجُعل مثلًا في الهلاك بالمرّة، ومنه قول عُبيد:[1]

أقفَرَ مِن أهلِه عُبيدُ   فليس يُبدِي ولا يُعيدُ[2]

وقيل: ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ إبليس، أو الصنم، والمعنى: لا ينشئ خَلقًا ولا يُعيد، أو لا يبدئ خيرًا لِأهله ولا يُعيد. وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميّة منصوبة بما بعدها.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الطريق الحقّ / ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فإنّ وبالَ ضلالي عليها؛ لأنّه بسببها؛ إذ هي الحاطّة بالذات، والأمّارة بالسوء، وبهذا الاعتبار قُوبل الشرطيّة بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ لأنّ الاهتداء بهدايته وتوفيقه. وقُرئ: "رَبِّيَ" بفتح "الياء".[3] [٣٧٤ظ]

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يعلم قولَ كلٍّ مِن المهتدي والضالّ وفعلَه، وإن بالغ في إخفائهما.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند الموت، أو البعث، أو يومَ بدر. وعن ابن عبّاس

---

[1] هو عُبيد بن الأبرص بن عَوف بن جشم الأسدي، مِن مضر، أبو زياد (ت. نحو ٢٥ ق هـ/٦٠٠م). شاعر مِن دُهاة الجاهليّة وحكمائها. وهو أحد أصحاب المُجمهَرات المعدودة طبقة ثانية عن المعلّقات. عاصَر أمرَأ القيس، وله معه مناظرات ومناقضات. وعمّر طويلًا حتى قتله النعمان بن المنذر، وقد وفَد عليه في يوم بؤسه. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٥٩/١؛ والأعلام للزركلي، ١٨٨/٤.

[2] لعُبيد بن الأبرص في لسان العرب لابن منظور، «قفر». وفيه: «يُقال: "أقفرَ فلان مِن أهله" إذا انفرَد عنهم وبقي وحدَه».

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

رضي الله عنهما: «أنّ ثمانين ألفًا يغزون الكعبة ليخرّبوها، فإذا دخلوا البيداء خُسف بهم».[١] وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لَرأيتَ أمرًا هائلًا.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون الله عزّ وجلّ بهرَبٍ أو تحصُّنٍ.

﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مِن ظهر الأرض، أو مِن الموقف إلى النار، أو مِن صحراء بدر إلى قَليبها، أو مِن تحت أقدامهم إذا خُسِف بهم. والجملة معطوفة على ﴿فَزِعُواْ﴾. وقيل: على ﴿لَا فَوْتَ﴾، على معنى: إذ فزِعوا فلم يفوتوا وأُخِذوا، ويؤيّده أنّه قُرئ: "وَأَخْذٌ"[٢] بالعطف على محلّه، أي: فلا فوتَ هنا، وهناك أخذٌ.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، وقد مرّ ذكره في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾.[٣]

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ "التناوُش": التناول السَّهل، أي: ومِن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولًا سهلًا ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فإنّه في حيّز التكليف، وهم منه بمَعزِل بعيد، وهو تمثيل حالهم في الاستخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبَعُد بحالِ مَن يريد أن يتناول الشيء مِن غَلوةٍ تناولَه[٤] مِن ذراعٍ في الاستحالة.
[٣٧٥و] وقُرئ بـ"الهمز"[٥] على قلب "الواو" لضمّها، وهو مِن "نَأَشْتُ الشيءَ" / إذا طلبتَه، وعن أبي عمرو: "التّناؤُش" -بـ"الهمز"- التناول مِن بُعد، مِن قولهم: "نَأَشْتُ"

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٣. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء مِن الأرض يُخسف بأوّلهم وآخِرهم»، قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأوّلهم وآخِرهم وفيهم أسواقهم، ومَن ليس منهم؟ قال: «يُخسف بأوّلهم وآخِرهم، ثمّ يبعثون على نيّاتهم». صحيح البخاري، ٦٥/٣ (٢١١٨)؛ صحيح مسلم، ٢٢١٠/٤ (٢٨٨٤).

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

٣ سبأ، ٤٦/٣٤.

٤ قوله: "غَلْوة" هي مقدار رَمية سَهم، وهو هنا مثال للبُعد، كما أنّ الذراع مثال للقُرب بدون قصد للتخصيص. و"تَناولَه" مصدر مضاف للمفعول أو للفاعل. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢١١/٧.

٥ أي: "التّنَاؤُش". قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

إذا أبطأتَ وتأخّرتَ، ومنه قول مَن قال:

تمنّى نئيشًا أن يكون أطاعني وقد حدثَت بعد الأمرِ أمورُ[١]

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، أو بالعذاب الشديد الذي أنذرهم إيّاه، ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ ذلك، في أوانِ التكليف.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ويَرجُمون بالظنّ، ويتكلّمون بما لم يظهر لهم في حقّ الرسول عليه السلام مِن المَطاعن، أو في العذاب المذكور مِن بَتِّ القول بنفيه، ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ مِن جهة بعيدة مِن حاله عليه السلام، حيث ينسبونه عليه السلام إلى الشِّعر والسِّحر والكذب، وأنّ أبعدَ شيء ممّا جاء به الشِّعرُ والسحرُ، وأبعدَ شيء مِن عادته المعروفة فيما بين الداني والقاصي الكذبُ، ولعلّه تمثيل لحالهم في ذلك بحال مَن يرمي شيئًا لا يراه مِن مكان بعيد لا مجال للوهم في لُحوقه.

وقُرئ: "وَيُقْذَفُونَ"[٢] على أنّ الشيطان يُلقي إليهم ويُلقّنهم ذلك، وهو معطوف على ﴿قَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ على حكاية الحال الماضية، أو على ﴿قَالُوٓا۟﴾،[٣] فيكون تمثيلًا لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيّعوه مِن الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِن نفع الإيمان والنجاة مِن النار. وقُرئ بإشمام الضمّ للحاء.[٤] ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأشباههم مِن كفرة الأمم الدارجة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ أي: مُوقعٍ في الرِّيبة، أو ذي رِيبةٍ.

---

[١] لنَهشل بن حَرِّي في لسان العرب لابن منظور، «نأش». وفيه: «أي: تمنّى في الأخير وبعدَ الفَوت أن لو أطاعني، وقد حدثت أمور لا يُستدرك بها ما فات، أي: أطاعني في وقت لا تنفعه فيه الطاعة».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وأبي حيوة ومحبوب عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] قرأ بها ابن عامر والكسائي ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

والأوّل منقول ممَّن يصحّ أن يكون مُريبًا مِن الأعيان إلى المعنى، والثاني مِن صاحب الشكّ إلى الشكّ، كما يقال: "شِعرٌ شاعِر"، والله تعالى[1] أعلم.

[٣٧٥ظ] / عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ سبأ لم يبقَ رسول ولا نبيٌّ إلّا كان له يومَ القيامة رفيقًا ومصافحًا».[2]

---

[1] م - تعالى.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٦٩؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٨٦. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٣٤

سُورَةُ سَبَإٍ

مكية إلاّ «ويرى الذين أوتُوا العلم» الآيةَ فمدنية، وهي أربعٌ أو خمس وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الحَمْدُ لِلهِ﴾ حَمْدُ تعالى نفسَه بذلك المُرادُ به الثناءُ بمضمونه من ثُبوتِ الحمد ـ وهو الوصف بالجميل ـ لِله ﴿الَّذِي لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ مُلكًا وخلقًا، ﴿ولَهُ الحَمدُ في الآخِرةِ﴾ كالدنيا، يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنّة، ﴿وهُوَ الحَكِيمُ﴾ في فِعله ﴿الخَبِيرُ﴾ بخلقه، ٢ ـ ﴿يَعلَمُ ما يَلِجُ﴾: يدخل ﴿في الأرضِ﴾ كماء وغيره، ﴿وما يَخرُجُ مِنها﴾ كنبات وغيره، ﴿وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ﴾ من رِزق وغيره، ﴿وما يَعرُجُ﴾: يصعد ﴿فِيها﴾ من عمل وغيره، ﴿وهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه ﴿الغَفُورُ﴾ لهم.

سُورَةُ سَبَإٍ

قوله: (مِلْكاً) بالكسرِ، ويحتملُ الضَّمَّ.

قوله: (وخَلْقاً) ونِعمَةً، فله الحمْدُ في الدُّنيا لكمالِ قُدرَتِهِ وعلى تمامِ نعمتِهِ.

قوله: (كالدُّنيا) لأنَّ ما في الآخرَةِ أيضاً كذلك، وتقديمُ الصِّلةِ لمزيدِ اختصَاصِ أمورِ الآخرةِ باللهِ.

قوله: (وغيرِهِ) من الدَّفائنِ والبُذورِ والأمواتِ.

قوله: (وغيرِهِ) مِن الحيواناتِ، والفِلزّاتِ، وماءِ العُيونِ.

قوله: (وغيْرِهِ) من الملائكةِ، والكُتُبِ، والأنديَةِ، والصَّواعقِ.

قوله: (مِنْ عَمَلٍ) أي: صالحٍ.

قوله: (وغيْرِهِ) من الملائكةِ، وأرواحِ المؤمنينَ، والأبخرَةِ، والأدخِنَةِ.

قوله: (لَهم) إن وقَعَ لهم تقصيرٌ في شُكرِ نعمِهِ.

٣ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: لا تأتِينا السّاعةُ﴾: القِيامة. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿بَلَى ورَبِّي لَتأتِيَنَّكُم، عالِمِ الغَيبِ﴾ ـ بالجرِّ: صفةٌ، والرفعِ: خبرَ مبتدأ. و«عَلاّمِ» بالجرّ ـ ﴿لا يَعزُبُ﴾: يغيب ﴿عَنهُ مِثقالُ﴾: وزنُ ﴿ذَرّةٍ﴾: أصغرِ نملةٍ ﴿في السَّماواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغرُ مِن ذلِكَ ولا أكبرُ، إلاّ في كِتابٍ مُبِينٍ﴾: بيّنٍ هو اللوح المحفوظ، ٤ ـ ﴿لِيَجزِيَ﴾ فيها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ. أُولئِكَ لَهُم مَغفِرةٌ ورِزقٌ كَرِيمٌ﴾: حسن في الجنّة. ٥ ـ ﴿والَّذِينَ سَعَوا في﴾ إبطال ﴿آياتِنا﴾: القُرآنِ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾، وفي قراءة هنا وفيما يأتي: «مُعاجِزِينَ» أي: مُقدّرين عجزَنا، أو مُسابقين لنا فيفوتونا لظنّهم أنْ لا بعث ولا عقاب،..

قولُه: (بالجَرِّ صِفَةٌ) ﴿ربِّي﴾ مكِّيٌّ وبصريٌّ[1].

قولُه: (والرَّفعِ) نافعٌ وشاميٌّ[2].

قولُه: (خَبرَ مُبتَدَأٍ) أو مبتدأ خبرُهُ: ﴿لا يعزب﴾، وبالكسرِ كسائيٌّ[3].

قولُه: (وَزْنُ) مِقدارُ.

قولُه: (أَصْغَرِ نَمْلَةٍ) أو ذرَّةِ الهباءِ.

قولُه: (بيّنٍ) ورفعُهُما بالابتداءِ، ويؤيِّدُه القراءةُ الشَّاذَّةُ بالفتحِ[4] على نَفْيِ الجنسِ.

قولُه: (فِيهَا) أي: في السَّاعةِ، عِلَّةٌ ﴿لَتَأتِيَنَّكُمْ﴾، وبيانٌ لما يَقتَضي إتيانَها.

قولُه: (حَسَنٌ) لا تَعَبَ فيه، ولا مِنَّةَ مخلوقٍ.

قولُه: (إِبْطَالِ ﴿آياتِنَا﴾) وتزهيدِ النَّاسِ فيها.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ مكِّيٍّ وبصريٍّ[5]، وهي أولى بأن تكونَ أصْلاً به.

قولُه: (مُقَدِّرِينَ) أو: مُعَوِّقينَ عنِ الإيمانِ مَن أرادَهُ، على الأَوْلى.

قولُه: (فَيَفُوتُونَا) أي: كي يفُوتونا، أو مُفَوِّتينَ على زعمِهِم يحسَبونَ أنَّهم يفوتونَنا.

---

(١) ومثلهم عاصم، وكذلك حمزة والكسائي إلا أنهما بلام قبل الألف مشددة، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٨١).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٨٢).

(٤) أي: (ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ)، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٢٢) ونسبت للأعمش وقتادة.

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٨٢).

﴿أُولَئِكَ لَهُم عَذابٌ مِن رِجزٍ﴾: سيئ العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾: مُؤلم. بالجرِّ والرفعِ صِفةً لرجز أو عذاب.

٦ ـ ﴿وَيَرَى﴾: يعلمُ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾: مؤمنو أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأصحابه ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ﴾ أي: القُرآنَ ﴿هُوَ﴾ ـ فصلٌ ـ ﴿الحَقَّ، وَيَهدِي إِلَى صِراطِ﴾: طريقِ ﴿العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ أي: اللهِ ذي العِزّة المحمودة.

٧ ـ ٨ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قال بعضهم على جِهة التعجّب لبعض: ﴿هَل نَدُلُّكُم عَلَى رَجُلٍ﴾، هو مُحمّد، ﴿يُنَبِّئُكُم﴾: يُخبرُكم: ﴿إِذا مُزِّقتُم﴾: قُطّعتم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بمعنى: تمزيقٍ ﴿إِنَّكُم لَفِي خَلقٍ جَدِيدٍ؟ أَفْتَرَى﴾ ـ بفتح الهمزة للاستفهام واستُغني بها عن همزة الوصل ـ ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ في ذلك، ﴿أم بِهِ جِنَّةٌ﴾: جنون تَخيّلَ به ذلك؟

قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرةِ﴾ المُشتملةِ على البعث والعذاب ﴿في العَذابِ﴾ فيها

قولُه: (والرَّفعِ) مكّيٌّ وحفصٌ[1].

قولُه: (مُؤمِنُو أَهلِ الكِتَابِ) أو: أولو العلمِ من الصَّحابةِ ومن تبعَهُم من الأمَّةِ.

قولُه: (فَصلٌ) وما بعدَهُ ثاني مفعولَي: ﴿يرى﴾.

قولُه: (طَرِيْقِ) دينِ الإسلامِ، والهادي هو اللهُ، أو القرآنُ.

قولُه: (هُو مُحَمَّدٌ) يعنُونَ أصدَقَ الصَّادِقينَ.

قولُه: (يُخبِرُكُم) بأعجَبِ الأعاجيبِ.

قولُه: (بمَعنَى: تَمْزِيْقٍ) يعني: أنَّهُ مصدَرٌ ميميٌّ.

قولُه: (إِنَّكُم) نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ [المؤمنون: ٣٥].

قولُه: (للاستِفهَامِ) الأظهرُ الأخصَرُ: بهمزةِ الاستفهامِ.

قولُه: (واستُغنِيَ بِهَا) فحُذِفَت.

قولُه: (فِي ذَلِكَ) أي: في دعوَتِه[2]، والمعنى: اختلقَ عليه قاصِداً الكذبَ، أو اخترَعَ عليه كَذِباً.

قولُه: (تَخَيَّلَ) فيتفوَّهُ بما لا يعقلُهُ من المُحالِ.

قولُه: (فِيهَا) أي: كائِنونَ في العَذابِ في الآخرةِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٨٢).

(٢) في (ص): «قوله في ذلك الافتراء أي في قوله».

﴿والضَّلالِ البَعِيدِ﴾ من الحقّ في الدنيا. ٩ ـ ﴿أفلَم يَرَوا﴾: ينظروا ﴿إلَى ما بَينَ أيدِيهِم وما خَلفَهُم﴾: ما فوقهم وما تحتهم ﴿مِنَ السَّماءِ والأرضِ، إن نَشَأْ نَخسِفْ بِهِمِ الأرضَ أو نُسقِطْ علَيهِم كِسَفًا﴾، بسكون السين وفتحها: قِطعةً ﴿مِنَ السَّماءِ﴾. وفي قراءة في الأفعال الثلاثة بالياء. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المرئيِّ ﴿لَآيَةً لِكُلِّ عَبدٍ مُنِيبٍ﴾: راجعٍ إلى ربّه، تدل على قُدرة الله على البعث وما يشاء.

١٠ ـ ﴿ولَقَد آتَينا داوُدَ مِنّا فَضلًا﴾: نُبوّة وكِتابًا، وقلنا: ﴿يا جِبالُ، أوِّبِي﴾: رجِّعي ﴿مَعَهُ﴾ بالتسبيح، ﴿والطَّيرَ﴾ ـ بالنصب عطفًا على محلّ «الجبال» أي: ودعَوناها تسبّحُ معه. ﴿وأَلَنّا لَهُ الحَدِيدَ﴾ فكان في يده كالعجين، ١١ ـ وقلنا: ﴿أنِ اعمَلْ﴾ منه ﴿سابِغاتٍ﴾: دُروعًا كوامِلَ يجرّها لابسها على الأرض،

قولُه: (فِي الدُّنيَا) ولذا تردَّدوا في أنَّهُ مُفترٍ أو مجنونٌ، ولولا ذلك لعَلموا أنَّه أصدَقُ الخلقِ وأعقَلُهُم.

قولُه: (مَا فَوقَهُم) أو: ما أحاطَ بجوانِبِهِم، ولم يتَفكَّروا أهُم أشَدُّ خَلقاً أم هي؟ وأنَّهُما تحتَ قُدرَتِنا وإرادَتِنا.

قولُه: (وفَتحِهَا) حفصٌ[1].

قولُه: (قِطعَةً) يعني: مفردَهُما.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ، وبإدغامِ الفاءِ في الباءِ كسائيٌّ[2].

قولُه: (راجِعٍ إلى رَبِّهِ) فإنَّهُ يكونُ كثيرَ التَّأمُّلِ في أمرِهِ.

قولُه: (وكِتَاباً) ومِلْكاً، وصوتاً حَسَناً.

قولُه: (بالتَّسْبِيحِ) الباءُ زائدةٌ؛ أي: سَبِّحي معه إذا سبَّحَ.

قولُه: (بالنَّصبِ عَطْفًا على مَحَلِّ الجِبَالِ) ويؤيِّدُهُ القراءةُ الشَّاذَّةُ بالرَّفعِ[3] عطفاً على لفظِها. وقيلَ: إنَّهُ مفعولٌ معهُ لـ﴿أوِّبِي﴾، وكانَ إذا سبَّحَ تُسبِّحُ معه الجبالُ والطَّيرُ، وتجاوبُهُ بأنواعِ اللُّغاتِ.

قولُه: (كالعَجِينِ) والشَّمْعِ.

قولُه: (وقُلنَا ﴿أنِ﴾) بعدَ القولِ لا يكونُ «أن»، فالصَّوابُ تقديرُ: أمَرناهُ؛ أي: بلسانِ المَلَكِ أو الوحي، و﴿أنِ﴾ مفسِّرةٌ أو مصدريَّةٌ.

قولُه: (كَوَامِلَ) واسِعاتٍ، وقُرِئَ: (صابغات)[4] وهو أوَّلُ مَن اتَّخذَها.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٦٦).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٣) أي: (والطيرُ) انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٢٢)، ونسبت للأعرج وعبد الوارث عن أبي عمرو.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٨٩) ونسبت لزيد بن علي.

﴿وقَدِّرْ في السَّرْدِ﴾ أي: نسجِ الدُّروعِ ـ قيل لصانعها سَرّادٌ ـ أي: اجعله بحيثُ تتناسب حَلَقُه، ﴿واعمَلُوا﴾ أي: آلَ داودَ معه ﴿صالِحًا. إِنِّي بِما تَعمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأُجازيكم به.

١٢ ـ ﴿و﴾ سخّرْنا ﴿لِسُلَيمانَ الرِّيحَ﴾ ـ وقراءة الرفع بتقدير: تسخيرُ ـ ﴿غُدُوُّها﴾: مسيرُها من الغُدوة بمعنى الصباح إلى الزوال ﴿شَهرٌ، ورَواحُها﴾: سيرُها من الزوال إلى الغروب ﴿شَهرٌ﴾ أي مسيرتُه، ﴿وأَسَلْنا﴾: أذَبْنا...

قولُه: (تَتَنَاسَبُ) وأصلُ السَّردِ: التَّتابعُ.

قولُه: (حلَقَهُ) الأظهرُ: حلَقها.

قولُه: (أي: آلَ دَاوُدَ) بالرَّفعِ: بيانُ الضَّميرِ، وبالنَّصبِ: تقديرُ نِداءٍ.

قولُه: (وَفي قِرَاءَةِ الرَّفعِ) لشعبةَ[١].

قولُه: (تَسْخِيرُ) الرِّيحِ، أو: ولسليمانَ الرِّيحُ مسخَّرةٌ.

قولُه: (إلى الزَّوَالِ) في «القاموسِ»: الغُدْوَةُ: البُكرةُ، أو ما بينَ الصُّبحِ وطلُوعِ الشَّمسِ[٢]، وقالَ في البُكرةِ: الغدوةُ[٣].

قولُه: (مِنَ الزَّوَالِ) في «القاموسِ»: الرَّواحُ: العَشيُّ، أو من الزَّوالِ إلى اللَّيلِ[٤]، وقالَ في العَشيِّ: آخرُ النَّهارِ[٥].

قولُه: (أي: مَسِيرَتُهُ) محلُّهُ شهرُ الأوَّلِ.

قولُه: (أَذَبْنَا) فيه: أنَّ الإسالَةَ غيرُ الإذابةِ، مع أنَّها تستَدْعي سَبْقَ الجموديَّةِ، اللَّهمَّ إلَّا أن يُقالَ: خَلقناهُ مُذاباً، وعليه يحملُ قولُ البيضاويِّ: «النُّحاسِ المُذابِ»؛ أي: في أصلِ خِلقَتِهِ، ولذا قالَ: «أسالَه لَهُ مِنْ معدنِه، فنَبَعَ منهُ نبوعَ الماءِ مِن اليَنبُوعِ، ولذلك سمَّاهُ عيناً»[٦].

وفي «المبهماتِ»: قال قتادةُ: وكانَ ذلك باليَمَنِ[٧].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٧).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٣١٧).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٣٥٣).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٢١).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٣١١).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٣).

(٧) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٨٨). ورواه عن قتادة الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٦٣).

﴿لَهُ عَينَ القِطرِ﴾ أي: النُّحاسِ، فأُجريَتْ ثلاثة أيام بلياليهنّ كجري الماء ـ وعمَلُ الناس إلى اليوم ممّا أُعطي سُليمانُ ـ ﴿ومِنَ الجِنِّ مَن يَعمَلُ بَينَ يَدَيهِ بِإذنِ﴾: بأمرِ ﴿رَبِّهِ، ومَن يَزِغْ﴾: يعدِل ﴿مِنهُم عَن أمرِنا﴾ له بطاعته ﴿نُذِقْهُ مِن عَذابِ السَّعِيرِ﴾: النار في الآخرة ـ وقيل: في الدنيا بأن يضربه مَلَك بسوط منها ضربة تُحرقه ـ ١٣ ـ ﴿يَعمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ، مِن مَحارِيبَ﴾: أبنيةٍ مُرتفعة يُصعد إليها بدرَج، ﴿وتَماثِيلَ﴾: جمعُ تِمثال وهو كل شيء مثّلته بشيء، أي: صُورًا من نُحاس وزُجاج ورُخام ـ ولم يكن اتّخاذ الصور حرامًا في شريعته ـ ﴿وجِفانٍ﴾: جمع جَفنة ﴿كالجَوابِي﴾: جَمع جابية، وهي حوض كبير، يجتمع على الجفنة ألفُ رجل يأكلون منها، ﴿وقُدُورٍ راسِياتٍ﴾: ثابتات لها قوائمُ لا تتحرّك عن أماكنها، تُتّخذ من الجِبال باليمن يُصعد إليها بالسلاليم، وقلنا: ﴿اعمَلُوا﴾ ـ يا ﴿آلَ داوُدَ﴾ ـ بطاعة الله ﴿شُكرًا﴾ له على ما آتاكم، ﴿وقَلِيلٌ مِن عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾: العامل بطاعتي شكرًا لنعمتي.

قولُه: (وعَمَلُ النُّحَاسِ) وفي نسخةٍ: «وعَمَلُ النَّاسِ»[١].

قولُه: (لَهُ بِطَاعَتِهِ) أي: عمَّا أمَرْناهُ من طاعَةِ سليمانَ.

قولُه: (مِنْهَا) أي: من النَّارِ، وقالَ السُّدِّيُّ ومجاهدٌ: تدركُهُ صاعقَةٌ فتحرِقُهُ[٢].

قولُه: (أَبنِيَةٍ) أو قُصورًا حصينَةً ومساكنَ[٣] شريفَةً، أو مساجِدَ عظيمةً، سُمِّيَت بها؛ لأنَّها يُدفَعُ عنها ويُحارَبُ عليها.

قولُه: (يُصْعَدُ) كأنَّه أخذَ من «القاموسِ»: المحرابُ: الغُرْفةُ، وهي العلِّيةُ، ومن جملةِ معاني المحرابِ على ما ذُكِرَ في «القاموسِ»: الموضعُ ينفردُ به المَلِكُ[٤]، وهو المناسِبُ للمقامِ.

قولُه: (ولمْ يَكُنِ) الظاهرُ: أو؛ يعني: تماثيلَ للملائكةِ والأنبياءِ على ما اعتادوا من العِباداتِ ليَراها النَّاسُ فيَعبُدوا نحو عبادَتِهم.

قولُه: (جَفْنَةٍ) قَصعَةٍ.

قولُه: (لَهُ) أي: للهِ، أو: للشُّكرِ؛ إشارةٌ إلى أنَّه علَّةٌ، وقيلَ: الشُّكرُ يكونُ بالقلبِ واللِّسانِ والجوارِحِ، فقالَ: ﴿اعْمَلُوا﴾ لينبِّهَ على التزامِ الأنواعِ، ولذا قيلَ: نَصبُهُ على المصدرِ.

قولُه: (العَامِلُ) الأنسبُ: البالِغُ الباذِلُ وُسعَهُ في الشُّكرِ.

---

(١) وهكذا هي في النسخ المعتمدة في المتن.

(٢) ذكر القرطبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٧١) نحوه عن السدي.

(٣) في (ص): «ومعالي».

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٣).

١٤ ـ ﴿فلَمّا قَضَينا علَيهِ﴾: على سُليمانَ ﴿المَوتَ﴾ أي: ماتَ، ومكَثَ قائمًا على عصاه حولاً ميّتًا، والجِنُّ تعمل تلك الأعمال الشاقّة على عادتها لا تشعر بموته، حتّى أكلَتِ الأرَضةُ عصاه فخرَّ ميّتًا، ﴿ما دَلَّهُم علَى مَوتِهِ إلاّ دابّةُ الأرْضِ﴾: مصدرُ: أُرِضَتِ الخشبةُ بالبناء للمفعول: أكلتْها الأرَضةُ، ﴿تأكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ بالهمزِ، وتركِه بألِفٍ: عصاه لأنها يُنسأ: يُطرد ويُزجر بها. ﴿فلَمّا خَرَّ﴾ ميتًا ﴿تبَيَّنَتِ الجِنُّ﴾: انكشفَ لهم ﴿أنْ﴾: مُخففةٌ أي: أنّهم ﴿لَو كَانُوا يَعلَمُونَ الغَيبَ﴾، ومنه ما غاب عنهم من موت سُليمان، ﴿ما لَبِثُوا في العَذابِ المُهِينِ﴾: العمل الشاقّ لهم لظنّهم حياتَه خِلاف ظنّهم علمَ الغيب. وعُلِمَ كونُه سَنةً بحساب ما أكلته الأرَضة من العصا بعد موته يومًا وليلة مثلاً.

قولُه: (الأَرَضَةُ) محرَّكةٌ: دُوَيبَّةٌ معروفةٌ، كذا في «القاموسِ»(١).

قولُهُ تعالى: (﴿مَا دَلَّهُمْ﴾) أي: الجنَّ، وقيلَ: آلَ داودَ.

قولُه: (مَصدَرٌ) يعني: أضيفَتْ إلى فِعلِها، فلا يلتبِسْ عليكَ بـ«دابّة الأرض تكلِّمُهُم»، ولعلَّهُ وجهُ التَّأخيرِ لِمَا حقُّهُ التَّقديمُ على: ﴿تَأْكُلُ﴾.

قولُه: (الأَرَضَةُ) بالمدِّ: الدَّابَّةُ، والجمعُ: أَرَضَةٌ، كالكَفَرَةِ والفَجَرَةِ، كذا في «عجائبِ الكرمانيِّ»(٢)، قيلَ: فشكرَتِ الجنُّ للأَرَضَةِ، فهم يأتونَها بالماءِ والطِّينِ في أيِّ موضعٍ هي فيهِ.

قولُه: (بالهَمْزِ) المفتوحِ: للجمهورِ، وبالسَّاكنِ: لابنِ ذكوانَ(٣).

قولُه: (وتَرْكِهِ بأَلِفٍ) نافعٌ وبصريٌّ(٤)، وحقُّهُ تركُهُ.

قولُه: (عَصَاهُ) الأولى: عصاتَهُ، من نَسَأْتُ البعيرَ: إذا طردْتَهُ.

قولُه: (يُنْسَأُ) أي: يُؤخَّرُ.

قولُه: (انْكَشَفَ لَهُم) فـ(تبيَّنَ) لازمٌ بمعنى: ظَهَرَ، فتكونُ ﴿أَنْ﴾ مع صِلَتِها بدلَ اشتمالٍ من ﴿الْجِنُّ﴾ كما تقولُ: تبيَّنَ زَيدٌ جهلُهُ؛ أي: ظَهَرَ جهلُ الجِنِّ للإنسِ، أو متعدٍّ بمعنى: عَلِمَ؛ أي: علمَتِ الجنُّ بعد التِباسِ الأمرِ عليهم.

قولُه: (وَمِنْهُ مَا غَابَ) أي: لعلمُوا(٥) موتَهُ حيثُ ما وَقَعَ، فلم يلبثُوا بعدَهُ حولاً في تَسْخيرِهِ إلى أن سقَطَ،

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٦٣٦).

(٢) انظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ٩٢٩).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٤) انظر المصدر السابق.

(٥) أي: «لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا...».

١٥ ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾، بالصرف وعدمه: قبيلةٍ سُمِّيت باسم جدٍّ لهم من العرب، ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ باليمن، ﴿آيَةٌ﴾: دالّة على قُدرة الله ـ تعالى ـ ﴿جَنَّتَانِ﴾: بدلٌ ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾: عن يمين واديهم وشِماله،

رُوِيَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ[١]: أنَّهُ كانَ مِنْ عادَتِهِ أنْ يعتكفَ في مسجدِ بيتِ المقدِسِ سَنَةً وسنتَينِ، وأقلَّ وأكثرَ، فلمَّا عَلِمَ قُربَ أجلِهِ قالَ: اللَّهمَّ عَمِّ موتي على الجنِّ حتَّى يعلمَ الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمُونَ الغَيْبَ، ثمَّ دَخَلَ المِحْرَابَ واتَّكأَ على عصاهُ، وقبضَهُ مَلَكُ الموتِ[٢]، وكانَ عمُرُه ثلاثاً وخمسينَ سنةً، ومُلِّكَ وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً، وابتدأ عمارَةَ بيتِ المقدسِ لأربعٍ مَضَينَ من ملكِهِ[٣].

قولُه: (وعَدَمِهِ) هذا معدومٌ غيرُ موجودٍ في القراءاتِ، فإنَّ البَزِّيَّ والبصريَّ: بهمزةٍ مفتوحةٍ من غيرِ تنوينٍ، وقُنْبُلاً: بهمزةٍ ساكنةٍ، والباقينَ: بهمزةٍ مكسورةٍ منوَّنةٍ[٤]، وقولُ البيضاويِّ: وعن ابنِ كثيرٍ قَلْبُ همزَتِهِ ألفاً، ولعلَّهُ أخرجَهُ بينَ بينَ فلمْ يؤدِّهِ الرَّاوي كما وجبَ[٥]. ظنُّ سوءٍ مع أنَّ إخراجَهُ بينَ بينَ غيرُ صحيحٍ على مُقتَضى مذهبِ المكِّيِّ وغيرِهِ، فالصَّوابُ أنَّ إسكانَهُ إجراءٌ للوَصلِ مُجرى الوقْفِ.

قولُه: (قَبِيلَةٍ) أو حَيٌّ.

قولُه: (بِاليَمَنِ) وحفصٌ وحمزةُ بالإفرادِ والفتحِ والكسائيُّ بالكسرِ[٦]. أي: موضِعِ سُكْناهُم، أو مسكنِ كلِّ واحدٍ منهُم.

قولُه: (بَدَلٌ) مِنْ: ﴿آيَةٌ﴾.

قولُه: (عَن يَمِيْنِ وَادِيْهِم) أي: جماعةٌ عن يمينِ بَلَدِهِم، وأخرى عن شمالِهِ، كلُّ واحدةٍ منهُما في تقارُبِها وتضايُقِهَا[٧] كأنَّهُما جنَّةٌ واحدةٌ، أو: بُسْتانا كلِّ رجلٍ منهم عن يمينِ مسكنِهِ وعن شمالِهِ، والآيةُ قِصَّتُهُما.

---

(١) لم أقف عليه مسنداً هكذا، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٢) مختصراً.

(٢) لم أقف عليه مسنداً هكذا، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٢) مختصراً.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٦٥)، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٩٩) عن محمد بن إسحاق عن الزهري وغيره.

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٦٧).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٤).

(٦) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٧) قوله: «وتضايقها» بالقاف؛ أي: واتصالها، فإنه كما يُطلق التفسحُ على الانفصال كقوله: ﴿تفسحوا في المجالس﴾ [المجادلة: ١١] يطلق الضيق على الاتصال لأنه لازم معناه. وضبط بالفاء وهو بمعنى القاف؛ أي: تنضم إليها وتتصل بها حتى تكون في حكم شيء واحد وإن تباينت حدودها وملاكها. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ١٩٧). وفي نسخة ذكرها زكريا الأنصاري في «الحاشية على البيضاوي» (٤/ ٥٠٢): «تضامها»، والمعنى في الكل متقارب.

وقيل لهم: ﴿كُلُوا مِن رِزقِ رَبِّكُم، واشكُرُوا لَهُ﴾ على ما رزقكم من النعمة. في أرض سبأ ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ ليس بها سِباخ ولا بعوضة ولا ذُبابة ولا بُرغوث ولا عقرب ولا حيّة، ويمرّ الغريب بها وفي ثيابه قملٌ، فيموت لطِيب هوائها. ﴿وَ﴾ الله ﴿رَبٌّ غَفُورٌ﴾.

١٦ ـ ١٧ ـ ﴿فَأَعرَضُوا﴾ عن شُكره وكفروا، ﴿فَأَرسَلْنا عَلَيهِم سَيلَ العَرِمِ﴾: جمعُ عَرِمة، وهو ما يَمسِك الماءَ من بناء وغيره إلى وقت حاجته، أي: سيلَ واديهم الممسوك بما ذُكر، فأغرق جنّتيهم وأموالهم، ﴿وَبَدَّلْناهُم بِجَنَّتَيهِم جَنَّتَينِ ذَواتَي﴾: تثنيةُ ذوات ـ مفرد على الأصل ـ ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾: مُرٍّ بشع،..

قولُه: (وَقِيْلَ لَهُمْ) أي: قالَ لهم نَبيُّهم، أو لسانُ الحالِ.

قولُه: (أَرْضِ سَبَأ) استئنافٌ للدَّلالةِ على مُوجِبِ الشُّكرِ؛ أي: هذه البلدةُ الَّتي فيها رزقكُمْ ﴿بلدةٌ طيِّبةٌ﴾، وربُّكُمُ الَّذي رزقَكُم وطلبَ شُكرَكم ﴿ربٌّ غفورٌ﴾ فَرَطاتِ[1] من يشكُرُهُ.

قولُه: (سِبَاخٌ) جمعُ: سَبَخَةٍ ـ محرَّكةً ـ: أرضٌ ذاتُ نَزٍّ[2] ومِلْحٍ[3].

قولُه: (ولا حَيَّةٌ) ولا غيرُها من المؤذياتِ.

قولُه: (عَن شُكرِهِ) إلى عبادَةِ الشَّمسِ.

قولُه: (وكَفَرُوا) وكذَّبوا الأُمَناءَ[4]، عن وهبٍ: أرسلَ إليهم ثلاثةَ عشرَ نبيّاً[5].

قولُه: (سَيْلَ وَادِيهِم) فـ﴿العرم﴾ وصفٌ للوادي، وقيل: إنَّه اسمُ وادٍ جاءَ السَّيلُ من قِبَلِهِ، وكانَ ذلك بين عيسى ومحمَّدٍ عليهما السَّلامُ.

قولُه: (ثَمَرٍ) تفسيرٌ لـ﴿أُكُلٍ﴾، وفي نسخةٍ: «مُرٍّ»[6] إذ كلُّ نبتٍ مُرٍّ فهو خَمْطٌ.

قولُه: (بَشِعٍ) فإنَّ الخَمْطَ كُلُّ نبتٍ أخَذَ طَعْماً في مرارَةٍ[7]، وفسَّرهُ بـ«الأراكِ» جماعةٌ من السَّلفِ كابنِ عبَّاسٍ

---

(١) «فرطات» مفعول به لـ﴿غفور﴾؛ أي: غفورٌ ما فرط به في جنب الله من الذنوب.

(٢) في (ص): «تراب».

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٥٢).

(٤) في (ص): «الأنبياء».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٨).

(٦) وهكذا هي في نسخ المتن المعتمدة.

(٧) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٦٦٦).

بإضافةِ «أُكل» بمعنى مأكول وتركِها، ويُعطف عليه ﴿وأَثْلٍ وشَيءٍ مِن سِدرٍ قَلِيلٍ. ذلِكَ﴾ التبديلَ ﴿جَزَيناهُم بِما كَفَرُوا﴾: بكُفرهم. ﴿وهَل يُجازَى إلاّ الكَفُورُ﴾؟ بالياءِ، وبالنونِ مع كسر الزاي ونصب «الكفورَ»، أي: ما يُناقَش إلاّ هو.

١٨ ـ ﴿وجَعَلْنا بَينَهُم﴾ بين سبأٍ ـ وهم باليمن ـ ﴿وبَينَ القُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ بالماء والشجر ـ وهي قرى الشام التي يسيرون إليها للتجارة ـ ﴿قُرًى ظاهِرَةً﴾: مُتواصلة من اليمن إلى الشام،..........

والحسنِ وقتادةَ[١]، وقيلَ: كلُّ شَجَرٍ ذي شَوكٍ، فالتَّقديرُ: أُكلِ [أُكلِ][٢] خمطٍ، فحُذِف المضافِ، وأقيمَ المضافُ إليه مقامَهُ في كونِهِ بدلاً أو عطفَ بيانٍ.

قولُه: (بإضَافَةِ ﴿أُكُلٍ﴾) للبصريِّ[٣].

قولُه: (وتَرْكِهَا) لغَيرِهِ، وأسكنَ الحِرميَّانِ الكافَ[٤].

قولُه: (عَلَيهِ) أي: على ﴿أُكُلٍ﴾ لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإنَّ الأَثْلَ هو الطَّرْفاءُ أو شجرٌ يشبهُهُ، ولا ثمرَ له[٥]، ووُصفَ السِّدرُ بالقِلَّةِ فإنَّ جَناهُ وهو النَّبِقُ ممَّا يطيبُ أُكُلُه، ولذلك يغرَسُ في البساتينِ، وفيه إشارةٌ إلى عدمِ انقطاعِ الرَّحمةِ عنهم بالكلِّيَّةِ معَ استحقاقِهِم كمالَ البليَّةِ، وإيماءٌ إلى قوَّتِهِم، وتسميةُ البدلِ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلةِ والتَّهكُّمِ.

قولُه: (بالرُّسلِ)[٦] أو بكفرانِهِم النِّعمةَ.

قولُه: (بالياءِ) أي: المضمومةِ وفتحِ الزَّاي، ورفعُ (الكَفُورُ) لغيرِ حفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ[٧].

قولُه: (ما يُنَاقَشُ) ويعاقَبُ إلَّا هو؛ أي: البليغُ في الكُفرِ أو الكُفرانِ.

قولُه: (بالمَاءِ والشَّجَرِ) أو التَّوسِعَةِ على أهلِها.

قولُه: (مُتَوَاصِلَةً) يظهَرُ بعضُها لبعضٍ فلا يحتاجونَ إلى دليلٍ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٢) عن ابن عباس والحسن.
ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢٤٠٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٣) عن قتادة.

(٢) من «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٥).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٠).

(٤) انظر المصدرين السابقين.

(٥) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٦٢٠).

(٦) «بالرسل» ليس في المتن، ولعله عقب قول المتن: «بكفرهم»، أو عوض عنه.

(٧) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨١).

﴿وقَدَّرْنا فِيها السَّيرَ﴾ بحيثُ يَقيلون في واحدة ويبيتون في أُخرى إلى انتهاء سفرهم، ولا يحتاجون فيه إلى حمل زاد وماء، وقلنا: ﴿سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وأَيَّامًا آمِنِينَ﴾: لا تخافون في ليل ولا نهار.

١٩ ـ ﴿فقالُوا: رَبَّنا، بَعِّدْ﴾ ـ وفي قراءة: «باعِدْ» ـ ﴿بَيْنَ أسفارِنا﴾ إلى الشام، اجعلْها مَفاوِزَ. ليتطاولوا على الفُقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد والماء، فبطِروا النعمةَ. ﴿وظَلَمُوا أنفُسَهُم﴾ بالكُفر، ﴿فجَعَلْناهُم أحادِيثَ﴾ لمَن بعدهم في ذلك، ﴿ومَزَّقْناهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: فرّقناهم في البلاد كُلّ التفريق. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَآياتٍ﴾: عِبَرًا ﴿لِكُلِّ صَبّارٍ﴾ عن المعاصي ﴿شَكُورٍ﴾ على النِّعم.

٢٠ ـ ﴿ولَقَد صَدَقَ﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿علَيهِم﴾ أي: الكُفّارِ منهم سبأٌ...............

قولُه: (قُلْنَا) بلسانِ القالِ، أو الحالِ لمَّا تمكَّنوا من السَّيرِ في رَغَدٍ وأمنٍ كأنَّهم أُمِروا بذلك وأُذِنَ لهم.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للأكثرِ، وهم غيرُ مكِّيٍّ وبصريٍّ وهشامٍ[١].

قولُه: (لِيَتَطَاوَلُوا) أو: لئلَّا يتمكَّنَ الفقراءُ من تلكَ السَّفْرَةِ.

قولُه: (فَبَطِرُوا) الظَّاهرُ: لمَّا بَطِروا النِّعمةَ وملُّوا العافيةَ ـ كبني إسرائيلَ ـ سألوا اللهَ فأجابَهُم بتخريبِ القُرَى المتوسِّطةِ.

قولُه: (لِمَنْ بَعْدَهُم) يتحدَّثُ النَّاسُ بهم تعجُّباً وضَرْبَ مَثَلٍ، فيقولونَ: تفرَّقوا أيدي سَبَا[٢].

قولُه: (كُلَّ التَّفْرِيقِ) أي: غايتَهُ، حتَّى لحِقَ غسَّانُ منهم بالشَّامِ، وأنمارُ بيثربَ، وجذامُ بتهامةَ، والأزدُ بعمانَ.

قولُه: (على النِّعَمِ) وهو المؤمنُ، فإنَّه إذا أُعطيَ شكَرَ، وإذا ابتُليَ صبرَ.

قولُه: (بالتَّخفِيفِ) غيرُ كوفيٍّ[٣].

قولُه: (مِنْهُم سَبَأٌ) أي: من جملةِ الكفَّارِ أهلُ سبأ، والظَّاهرُ أنَّ الظَّنَّ بأهلِ سبأ حينَ رأى انهماكَهُم في الشَّهواتِ، أو ببني آدمَ حينَ رأى ما رُكِّبَ فيهم من الشَّهوةِ والغضبِ، أو سمعَ من الملائكةِ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] فقالَ: ﴿لَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] وعليه السَّلفُ[٤].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٦٥).

(٢) أي: مذاهب سبأ وطرقها؛ أي: تفرقوا تفرقاً لا اجتماع بعده. وقال الأزهريُّ: العربُ لا تهمز «سَبَا» في هذا الموضع لأنه كَثُر في كلامهم فاستَثقلوا فيه الهمزَ وإن كانت «سبأ» في الأصل مهموزة. انظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ٧٢)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٤١٠)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ٢٧٥).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٦٥).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٦).

﴿إبليسُ ظَنَّهُ﴾ أنهم بإغوائه يتّبعونه، ﴿فاتَّبَعُوهُ﴾ فصَدَقَ، بالتخفيف في ظنّه، أو صَدَّقَ، بالتشديد ظنّه أي: وجده صادقًا، ﴿إلاّ﴾ بمعنى: لكن ﴿فَرِيقًا مِنَ المُؤمِنِينَ﴾ من: للبيان، أي: هم المؤمنون لم يتّبعوه،

٢١ ـ ﴿وما كانَ لَهُ علَيهِم مِن سُلطانٍ﴾: تسليط منّا، ﴿إلاّ لِنَعلَمَ﴾ عِلمَ ظُهور ﴿مَن يُؤمِنُ بِالآخِرةِ، مِمَّن هُوَ مِنها في شَكٍّ﴾، فنُجازيَ كُلًّا منهما. ﴿ورَبُّكَ على كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ﴾: رقيب.

٢٢ ـ ﴿قُلِ﴾ ـ يا مُحمّد ـ لكُفّار مكّة: ﴿ادعُوا الَّذِينَ زَعَمتُم﴾ أي: زعمتموهم آلهةً ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرِه، لينفعوكم بزعمكم. قال تعالى فيهم: ﴿لا يَملِكُونَ مِثقالَ﴾: وزنَ ﴿ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شرّ، ﴿في السَّماواتِ ولا في الأرضِ، ومالَهُم فِيهِما مِن شِركٍ﴾: شركة، ....

قولُه: (أي: وَجَدَهُ) أو: حَقَّقَ ظنَّهُ فيهم، ومحلُّهُ سَبَقَ[1].

قولُه: (بِمَعنَى: لَكِن) هذا مبنيٌّ على تفسيرِهِ من أنَّ ضميرَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للكفَّارِ، وأمَّا على كلامِ غيرِهِ فالاستثناءُ متَّصِلٌ؛ أي: إلا فَريقاً هم المؤمنونَ لم يتَّبِعوهُ، فـ﴿مِنَ﴾ بيانيَّةٌ، وتقليلُهُم بالإضافةِ إلى الكفَّارِ، أو: إلَّا فريقاً من فِرَقِ المؤمنينَ لم يتَّبعوهُ في العصيانِ ـ وهم المخلصونَ ـ فـ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّةٌ، وتقليلُهُم بالنِّسبةِ إلى الفُجَّارِ.

قولُه: (تَسلِيطٍ مِنَّا) أو: تسلُّطٍ واستيلاءٍ منه على المتَّبعينَ بوسوَسةٍ واستغواءٍ.

قولُه: (عِلمَ ظُهُورٍ) ووقوعٍ، فإنَّه كانَ معلوماً بالغَيْبِ؛ أي: ليتعلَّقَ عِلْمُنا بذلك تعلُّقاً يترتَّبُ عليه الجزاءُ، أو: ليتميَّزَ المؤمنُ من الشَّاكِّ، أو: ليؤمنَ مَن قُدِّرَ إيمانُهُ ويشُكَّ مَن قُدِّرَ ضلالُهُ، والمرادُ من حصولِ العِلْمِ: حصولُ متعَلَّقِهِ مبالغةً.

قالَ القاضي: وفي نظمِ الصِّلَتينِ نكتَةٌ لا تخفَى[2]، قالَ الصَّفَويُّ: لم يقلْ: مَن كَفَرَ، في مقابلةِ: ﴿مَنْ يؤمِنُ﴾، ليُعلَمَ أنَّ أدنى شكٍّ في الآخرة كُفرٌ.

قولُه: (لِكُفَّارِ مَكَّةَ) الأَولى: للمشركينَ.

قولُه: (زَعَمْتُمُوهُم آلِهَةً) وهما مَفعولا «زعمَ» حُذفَ الأوَّلُ لطولِ الموصولِ بصلتِهِ، والثاني لقيامِ صفتِهِ ـ وهي: ﴿مِنْ دونِ اللهِ﴾ ـ مقامَهُ.

قولُه: (لِيَنفَعُوكُم) بجلبِ نفعٍ من رِزقٍ وعافيةٍ ونَصْرٍ، وبدفعِ ضُرٍّ من بليَّةٍ ومَرَضٍ وفقرٍ.

قولُه: (قَالَ تَعَالَى) إشعاراً بأنَّه الجوابُ، ولا يقبلُ المكابرَةَ.

قولُه: (شِرْكَةٍ) لا خَلقاً ولا مُلكاً، وذَكَرَهُما للعمومِ العُرفيِّ، أو لأنَّ آلهتَهُم بعضُها سماويَّةٌ كالملائكةِ والكواكبِ، وبعضُها أرضيَّةٌ كالأصنامِ.

---

(١) الآية رقم: (١٧) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٦).

﴿ومالَهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿مِنهُم﴾: من الآلهة ﴿مِن ظَهِيرٍ﴾: مُعينٍ، ٢٣ ـ ﴿ولا تَنفَعُ الشّفاعةُ عِندَهُ﴾ تعالى ـ ردًّا لقولهم: إنّ آلهتهم تشفع عنده ـ ﴿إلاّ لِمَن أذِنَ﴾، بفتح الهمزة وضمها، فيها ﴿لَهُ. حَتّى إذا فُزِّعَ﴾ ـ بالبناء للفاعل والمفعول ـ ﴿عَن قُلُوبِهِم﴾: كَشَفَ عنها الفزعَ بالإذن فيها، ﴿قالُوا﴾ قال بعضهم لبعض استبشارًا: ﴿ماذا قالَ رَبُّكُم﴾ فيها؟ ﴿قالُوا﴾: القولَ ﴿الحَقَّ﴾ أي: قد أذِن فيها. ﴿وهُوَ العَلِيُّ﴾ فوق خلقه بالقهر ﴿الكَبِيرُ﴾: العظيم.

٢٤ ـ ﴿قُلْ: مَن يَرزُقُكُم مِنَ السّماواتِ﴾ المطرَ ﴿والأرضِ﴾ النباتَ؟ ﴿قُلِ: اللهُ﴾ إن لم يقولوه، لا جوابَ غيره، ﴿وإنّا أو إيّاكُم﴾ أي: أحدَ الفريقين ﴿لَعَلَى هُدًى أو في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيِّن. في الإبهام تلطّفٌ بهم داعٍ إلى الإيمان إذا وُفّقوا له. ٢٥ ـ ﴿قُلْ: لا تُسألُونَ عَمّا أجرَمْنا﴾: أذنبْنا، ﴿ولا نُسألُ عَمّا تَعمَلُونَ﴾ لأنّا بريؤون منكم. ٢٦ ـ ﴿قُلْ: يَجمَعُ بَينَنا رَبُّنا﴾ يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يَفتَحُ﴾: يحكم ﴿بَينَنا بِالحَقِّ﴾، فيُدخل المُحقّين الجنّةَ والمُبطلين النارَ. ﴿وهُوَ الفَتّاحُ﴾: الحاكم ﴿العَلِيمُ﴾ بما يحكم به.

قولُه: (عِندَهُ) أي: لا تنفَعُ شفاعةُ شافِعٍ لمشفوعٍ.

قولُه: (وضَمِّهَا) بصريٌّ وحمزةُ وكسائيٌّ[1].

قولُه: (فِيهَا) أي: في الشَّفاعةِ؛ أي: في أن يُشَفَّعَ، أو أن يُشفَعَ له.

قولُه: (للفَاعِلِ) شاميٌّ[2]، غايةٌ لمفهومِ الكلامِ مِن أنَّ ثَمَّ توقُّفاً وانتظاراً للإذنِ؛ أي: يتربَّصونَ فزِعينَ.

قولُه: (كَشَفَ عَنْهَا) أي: عن قُلوبِ الشَّافِعينَ والمشفوعِ لهم، وقيلَ: الضَّميرُ للملائكةِ، وقد تقدَّمَ ذكرُهُم ضِمناً.

قولُه: (القَوْلَ) أي: ﴿قالُوا﴾: قالَ القولَ ﴿الحقَّ﴾، وهو الإذنُ بالشَّفاعَةِ لمنِ ارتَضى، وهُمُ المؤمنونَ، رُوِيَ: أنَّ أوَّلَ مَن يقولُ جبريلُ فيتَّبِعونَهُ[3].

قولُه: (أيْ: أَحَدَ) بالنَّصبِ بدلُ[4] الضَّميرينِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٦٥)

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) روى أبو داود (٤٧٣٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٧) عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تكلم الله بالوحي، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم» قال: «فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق، الحق».

(٤) في (ص) زيادة: «من».

٢٧ ـ ﴿قُلْ: أَرُونِيَ﴾: أعلِموني ﴿الَّذِينَ أَلْحَقتُم بِهِ شُرَكاءَ﴾ في العِبادة. ﴿كَلاَّ﴾: ردعٌ لهم عن اعتقاد شريك له. ﴿بَلْ هُوَ اللهُ العَزِيزُ﴾: الغالب على أمره ﴿الحَكِيمُ﴾ في تدبيره لخلقه. فلا يكون له شريك في مُلكه.

٢٨ ـ ﴿وما أرسَلْناكَ إلاّ كافّةً﴾ ـ حالٌ من «الناس» قُدّم للاهتمام ـ ﴿لِلنّاسِ بَشِيرًا﴾: مُبشّرًا للمؤمنين بالجنّة ﴿ونَذِيرًا﴾: مُنذِرًا للكافرين بالعذاب، ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ أي: كُفّارِ مكّة ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك، ٢٩ ـ ﴿ويَقُولُونَ: مَتى هذا الوَعدُ﴾ بالعذاب، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ فيه؟ ٣٠ ـ ﴿قُلْ: لَكُم مِيعادُ يَومٍ، لا تَستأخِرُونَ عَنهُ ساعةً ولا تَستَقدِمُونَ﴾ عليه. وهو يوم القيامة.

٣١ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة: ﴿لَن نُؤمِنَ بِهذا القُرآنِ، ولا بِالَّذِي بَينَ يَدَيهِ﴾ أي: تقدَّمه كالتوراة والإنجيل الدالَّين على البعث، ....

قولُه: (أعلِمُوني) الإراءَةُ البصَريَّةُ أظهَرُ؛ يعني: لأرى بأيِّ صفَةٍ ألحقتُموهُم باللهِ في استِحقاقِ العبادَةِ.

قولُه: (الغَالِبُ) والضَّميرُ للهِ، أو للشَّأنِ.

قولُه: (حَالٌ مِنَ «النَّاسِ») قالَ القاضي: لا يجوزُ على المختارِ[١]. وقالَ أبو البقاءِ: ضعيفٌ عندَ الأكثرينَ، فإنَّ صاحبَ الحالِ مجرورٌ[٢].

والشَّيخُ تَبِعَ ابنَ مالكٍ[٣] في الجوازِ، لكنْ لا كلُّ ما يجوزُ يَنزلُ عليه القرآنُ ويُقتصرُ عليه، فالصَّحيحُ: أنَّه حالٌ منَ الكافِ، والتاءُ للمبالغةِ؛ أي: إلَّا جامعاً لهم في الإبلاغِ، أو كافًّا للنَّاسِ عن الكُفرِ والمعاصي، أو التَّقديرُ: إلَّا إرسالَةً عامَّةً لهم.

قولُه: (أي: كُفَّارِ مَكَّةَ) الصَّوابُ: إطلاقُ ﴿النَّاسِ﴾ن والمرادُ بالأكثرِ: الكفَّارُ؛ يعني: فيحملُهُم جهلُهُم على مخالَفَتِكَ، ولعلَّ وَضعَ الظَّاهرِ موضِعَ المضمَرِ لدَفْعِ إيهامِ تخصيصِ النَّاسِ بأهلِ زمَنِ الإرسالِ، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الحالِ.

قولُه: (بالعَذَابِ) الموعودِ بقولِهِ: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾.

قولُه: (فِيهِ) أي: الوعدِ، والخطابُ له ﷺ وللمؤمنينَ.

قولُه: (كالتَّورَاةِ) وقيل: (الَّذي بين يدَيْهِ): يومُ القيامةِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤٧).

(٢) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١٠٦٩).

(٣) انظر: «شرحه على التسهيل» (٢/ ٣٣٧).

لإنكارهم له. قال تعالى فيهم: ﴿ولَو تَرَى﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿إذِ الظَّالِمُونَ﴾: الكافرون ﴿مَوقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِم، يَرجِعُ بَعضُهُم إلَى بَعضٍ القَولَ، يَقُولُ الَّذِينَ استُضعِفُوا﴾ الأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ استَكبَرُوا﴾ للرؤساءِ: ﴿لَولا أنتُم﴾ صددتمونا عن الإيمان ﴿لَكُنَّا مُؤمِنِينَ﴾ بالنبيِّ.

٣٢ ـ ﴿قالَ الَّذِينَ استَكبَرُوا لِلَّذِينَ استُضعِفُوا: أنَحنُ صَدَدْناكُم عَنِ الهُدَى بَعدَ إذ جاءَكُم﴾؟ لا، ﴿بَل كُنتُم مُجرِمِينَ﴾ في أنفسكم. ٣٣ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ استُضعِفُوا لِلَّذِينَ استَكبَرُوا: بَل مَكرُ اللَّيلِ والنَّهارِ﴾ أي: مكرٌ فيهما منكم بنا، ﴿إذ تأمُرُونَنا أن نَكفُرَ باللهِ، ونَجعَلَ لَهُ أندادًا﴾: شُركاءَ. ﴿وأسَرُّوا﴾ أي: الفريقانِ ﴿النَّدامةَ﴾ على ترك الإيمان به، ﴿لَمَّا رأَوُا العَذابَ﴾، أي: أخفاها كُلٌّ عن رفيقه مخافةَ التعيير، ﴿وجَعَلْنا الأغلالَ في أعناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في النار، ﴿هَل﴾: ما ﴿يُجزَونَ إلاّ﴾ جزاءَ ﴿ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾ في الدنيا؟

٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ﴿وما أرسَلْنا في قَريَةٍ مِن نَذِيرٍ إلاّ قالَ مُترَفُوها﴾: رُؤساؤها المُتنعِّمون: ﴿إنّا بِما أُرسِلتُم بِهِ كافِرُونَ. وقالُوا: نَحنُ أكثَرُ أموالاً وأولادًا﴾ ممّن آمن، ﴿وما نَحنُ بِمُعَذَّبِينَ. قُلْ: إنَّ رَبِّي يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعه ﴿لِمَن يَشاءُ﴾ امتحانًا ﴿ويَقدِرُ﴾: يُضيّقه لمن يشاء ابتلاءً، ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ أي: كُفّارِ مكّة ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك.

قولُه: (صَدَدْتُمُونَا) الظَّاهرُ: لولا صدُّكُم إيَّانا.

قولُه: (بالنَّبِيِّ) أو باتِّباعِهِ.

قولُه: (لا) يعني: استفهامُهُم للإنكارِ.

قولُه: (مِنكُم بِنَا) الظَّاهرُ: مكرٌ منكُم بنا فيهِما، والحاصلُ: أنَّه اتُّسِعَ في الظَّرفِ وأُضِيفَ المصدرُ إليه، وإلَّا فالأصلُ أنَّ المصدرَ لا يُضافُ إلَّا إلى الفاعلِ أو المفعولِ.

قولُه: (أي: أخفَوهَا) أو: أظهَروها، فإنَّهُ من الأضدادِ؛ إذِ الهمزَةُ تصلُحُ للإثباتِ والسَّلبِ.

قولُه: (فِي النَّارِ) يعني: لا في القيامَةِ، ولا في الدُّنيا؛ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس: ٨] تمثيلٌ، كما سيَأتي.

قولُه: (جَزَاءَ) أو عُدِّي لتضمُّنِه معنى: يَقْضي، أو لنَزعِ الخافِضِ.

قولُه: (ذلِكَ) ما ذُكِرَ من الامتحانِ، فيظنُّونَ أنَّ كثرَةَ الأموالِ والأولادِ للشَّرفِ والكرامةِ، وكثيراً ما يكونُ للاستدراجِ.

٣٧ ـ ﴿وما أموالُكُم ولا أولادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُم عِندَنا زُلفَى﴾: قُربَى، أي: تقريبًا. ﴿إلاّ﴾ لكن ﴿مَن آمَنَ وعَمِلَ صالِحًا فأُولئِكَ لَهُم جَزاءُ الضِّعفِ بِما عَمِلُوا﴾ أي: جزاءُ الحسنةِ مَثلاً بعشر فأكثر، ﴿وهُم في الغُرُفاتِ﴾ من الجنّة ﴿آمِنُونَ﴾ من الموت وغيره ـ وفي قراءةٍ: «الغُرْفةِ» بمعنى الجمع ـ

٣٨ ـ ﴿والَّذِينَ يَسعَونَ في آياتِنا﴾: القُرآنِ بالإبطال ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ لنا: مقدّرين عجزَنا وأنهم يفوتوننا ﴿أُولئِكَ في العَذابِ مُحضَرُونَ﴾.

٣٩ ـ ﴿قُلْ: إنَّ رَبِّي يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعه ﴿لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾ امتحانًا، ﴿ويَقدِرُ﴾: يُضيّقه ﴿لَهُ﴾ بعد البسط أو لمن يشاء ابتلاءً، ﴿وما أنفَقتُم مِن شَيءٍ﴾ في الخير ﴿فَهُوَ يُخلِفُهُ، وهُوَ خَيرُ الرّازِقِينَ﴾. يقال: كُلّ إنسان يَرزُق عائلتَه، أي: من رِزق الله.

٤٠ ـ ٤١ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ نَحشُرُهُم جَمِيعًا﴾ أي: المُشركين، ....

قولُه: (لكِن) أو: إلا أموالُ وأولادُ ﴿مَنْ﴾.

قولُه: (وغَيْرِهِ) من المكارِهِ.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لحَمزةَ[1].

قولُه: (بِمَعنَى الجَمْعِ) لأنَّهُ أُريدَ به الجنسُ.

قولُه: (بالإبْطَالِ) أي: بالرَّدِّ والطَّعنِ فيها.

قولُه: (مُقَدِّرِينَ عَجْزَنَا) تفسيرٌ لقراءَةِ التَّشديدِ[2].

قولُه: (وأنَّهم) مقدِّرينَ أو ظانِّينَ.

قولُه: (ابْتِلاءً) فهذا في شخصٍ واحدٍ باعتبارِ وقتَينِ، أو في المؤمنِ، وما سبقَ في شخصَينِ، أو في الكافرِ، فلا تَكريرَ، وقيل: إنَّه تأكيدٌ.

قولُه تعالى: (﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾) أي: عِوَضاً، إمَّا عاجلاً، أو آجلاً، ولا منعَ[3] مِن جَمعٍ.

قولُه: (أيْ: المُشرِكِينَ) و[غير][4] حفصٍ بالنُّونِ في الفِعلَينِ[5].

---

(١) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٦٥).

(٢) وهي قراءة مكي وبصري، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٨٢).

(٣) في (ص): «مانع».

(٤) أضفتها لكي تستقيم العبارة.

(٥) أي: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿يَقُولُ﴾، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٧).

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلمَلائكَةِ: أهؤُلاءِ إيّاكُم﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وإبدالِ الأُولى ياء، وإسقاطِها ـ ﴿كانُوا يَعبُدُونَ؟ قالُوا: سُبحانَكَ﴾: تنزيهًا لك عن الشريك! ﴿أنتَ وَلِيُّنا مِن دُونِهِم﴾ أي: لا مُوالاة بيننا وبينهم من جِهتنا. ﴿بَل﴾: للانتقال ﴿كانُوا يَعبُدُونَ الجِنَّ﴾ أي: الشياطينَ، أي: يُطيعونهم في عِبادتهم إيانا، ﴿أكثَرُهُم بِهِم مُؤمِنُونَ﴾: مُصدّقون فيما يقولون لهم. ٤٢ ـ قال تعالى: ﴿فاليَومَ لا يَملِكُ بَعضُكُم لِبَعضٍ﴾ أي: بعضُ المعبودين لبعض العابدين ﴿نَفعًا﴾: شفاعة ﴿ولا ضَرًّا﴾: تعذيبًا، ﴿ونَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: كفروا: ﴿ذُوقُوا عَذابَ النّارِ الَّتِي كُنتُم بِها تُكَذِّبُونَ﴾.

٤٣ ـ ﴿وإذا تُتلَى علَيهِم آياتُنا﴾: القُرآنُ ﴿بَيِّناتٍ﴾: واضحاتٍ بلسان نبيّنا مُحمّد ﴿قالُوا: ما هذا إلاّ رَجُلٌ يُرِيدُ أن يَصُدَّكُم عَمّا كانَ يَعبُدُ آباؤُكُم﴾ من الأصنام. ﴿وقالُوا: ما هذا﴾ أي: القرآنُ ﴿إلاّ إفكٌ﴾: كذب ﴿مُفتَرًى﴾ على الله. ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلحَقِّ﴾: القُرآن ﴿لَمّا جاءَهُم: إنْ﴾: ما ﴿هذا إلاّ سِحرٌ مُبِينٌ﴾ بيِّن. قال تعالى: ٤٤ ـ ﴿وما آتَيناهُم مِن كُتُبٍ يَدرُسُونَها، وما أرسَلْنا إلَيهِم قَبلَكَ مِن نَذِيرٍ﴾. فمِن أين كذّبوك؟

قولُه: (بتَحْقِيقِ الهَمْزَتَينِ) شاميٌّ وكوفيٌّ[1].

قولُه: (وإبدَالِ الأُوْلَى يَاءً) لم يقرَأ به أحدٌ، وإنَّما قرأ بتسهيلِها قالونُ والبَزّيُّ، وبإبدالِ الثَّانيةِ وتسهيلِها ورشٌ وقُنبُلٌ، وبإسقاطِ الأولى ـ وقيلَ: الثَّانية ـ: بصريٌّ[2].

قولُه: (للانْتِقَالِ) بل: للإبطالِ على وَجهِ الحقيقةِ.

قولُه: (لهُم) الضَّميرُ الأوَّلُ للإنسِ أو للمشركينَ، والأكثرُ بمعنى: الكلِّ، والثَّاني للجِنِّ.

قولُه: (شَفَاعَةً) فكيفَ نفعاً آخرَ؟

قولُه: (تَعْذِيباً) أي: مَضرَّةً؛ لأنَّ الدَّارَ دارُ ثوابٍ وعِقابٍ، والمُثيبُ والمعاقِبُ هو اللهُ لا إلهَ إلَّا هوَ.

قولُه: (مِنَ الأَصْنامِ) فيستتبعَكُم بما يستَدْعيهِ.

قولُه تعالى: (﴿مِنْ كُتُبٍ﴾) فيها دليلٌ على صِحَّةِ الإشراكِ، وقولُه: (﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾) يدعوهُم إلى الإشراكِ، وينذِرُهُم على تركِهِ، وقد بانَ من قَبْلُ أنَّه لا وجهَ له، فمِن أينَ وَقَعَ لهم هذه الشُّبهَةُ؟ وبهذا ظهرَ معنى قولِهِ: (فَمِنْ أينَ يُكَذِّبُونَ؟) وفي نسخةٍ: «كذَّبوكَ»[3]، يعني: في ذَمِّ الإشراكِ المنقولِ[4] عن اللهِ، ويمكنُ تخفيفُ

---

(١) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ١٧٨).

(٢) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٨٣).

(٣) وهي كذلك في نسخ المتن المعتمدة.

(٤) أي: الذم.

٤٥ ـ ﴿وكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم، وما بَلَغُوا﴾ أي: هؤلاء ﴿مِعشارَ ما آتيناهُم﴾ من القُوّة وطُول العمر وكثرة المال، ﴿فكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ إليهم، ﴿فكَيفَ كانَ نكِيرِ﴾: إنكاري عليهم بالعُقوبة والإهلاك؟ أي: هو واقعٌ موقعَه.

٤٦ ـ ﴿قُلْ: إنّما أعِظُكُم بِواحِدَةٍ﴾، هي ﴿أن تَقُومُوا لِلهِ﴾ أي: لِأجله ﴿مَثنَى﴾ أي: اثنينِ اثنين ﴿وفُرادَى﴾: واحدًا واحدًا، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ فتعلموا: ﴿ما بِصاحِبِكُم﴾ مُحمّدٍ ﴿مِن جِنَّةٍ﴾: جنون، ﴿إنْ﴾: ما ﴿هُوَ إلاّ نَذِيرٌ لكُم بَينَ يَدَي﴾ أي: قَبلَ ﴿عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخرة، إن عصيتموه. ٤٧ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿ما سألتُكُم﴾ على الإنذار والتبليغ ﴿مِن أجرٍ فهُوَ لكُم﴾ أي: لا أسألكم عليه أجرًا. ﴿إن أجرِيَ﴾: ما ثوابي ﴿إلاّ علَى اللهِ، وهُوَ علَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾: مطّلع يعلم صِدقي.

٤٨ ـ ﴿قُلْ: إنَّ رَبِّي يَقذِفُ بِالحَقِّ﴾: يُلقيه إلى أنبيائه، ﴿عَلاّمُ الغُيُوبِ﴾: ما غاب عن خلقه في السماوات والأرض.......................................

«يكذبُونَ»، والمعنى: كَذِبُهُم على اللهِ بالإشراكِ، ويؤيِّدُ الأوَّلَ ما بعدَهُ[١].

قولُه: (مِنَ القُوَّةِ) أو من الآياتِ، والمعشارُ بمعنى: العُشْرِ، كالمِرْباعِ، ولا ثالثَ[٢].

قولُه: (إلَيهِم) ولا تَكريرَ؛ لأنَّ الأوَّلَ مطلَقٌ ـ أي: فعَلوا التَّكذيبَ ـ والثَّانيَ مقيَّدٌ، أو الأوَّلُ مبهَمٌ والثَّاني مبيَّنٌ.

قولُه تعالى: ﴿بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: بخصلَةٍ واحِدةٍ.

قولُه: (أيْ: لِأَجْلِهِ) مُعْرِضاً عن التَّقليدِ والمِراءِ، والقيامُ: الانتصابُ في الأمرِ.

قولُه: (جُنُونٍ) فـ﴿مَا﴾ نافيةٌ، وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميَّةٌ؛ أي: تتفكَّروا أيُّ شيءٍ به من آثارِ الجُنونِ؟!

قولُه: (قَبْلَ) أو: قُدَّامَ، وفي الحديثِ: «بُعِثْتُ في نَسَمِ السَّاعةِ»[٣] أي: أوَّلِها.

قولُه: (والتَّبليغِ) و﴿مَا﴾ شرطيَّةٌ؛ أي: أيَّ شيءٍ.

قولُه: (يُلقِيْهِ) أو يَرمي به الباطلَ فيدمَغُهُ.

(١) أي: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

(٢) أي: لا ثالثَ لهما من ألفاظ، لا يقال: مِسْداسَ ولا مِخْماس. انظر: «الدر المصون» (٩/ ١٩٨).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٥)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٣٢١٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦١)، من حديث أبي جبيرة بن الضحاك رضي الله عنه. وحسن إسناده ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٩)، لكن أبا جبيرة مختلف في صحبته. انظر: «الإصابة» (٧/ ٥٤).

٤٩ ـ ﴿قُلْ: جاءَ الحَقُّ﴾: الإسلام، ﴿وما يُبدِئُ الباطِلُ﴾: الكُفر ﴿وما يُعِيدُ﴾، أي: لم يبق له أثر. ٥٠ ـ ﴿قُلْ: إن ضَلَلتُ﴾ عن الحق ﴿فإنَّما أضِلُّ علَى نَفسِي﴾ أي: إثمُ ضلالي عليها، ﴿وإنِ اهتَدَيتُ فبِما يُوحِي إلَيَّ رَبِّيَ﴾،من القُرآنِ والحِكمة. ﴿إنَّهُ سَمِيعٌ﴾ للدُّعاء ﴿قَرِيبٌ﴾.

٥١ ـ ﴿ولَو تَرَى﴾، يا مُحمّد، ﴿إذْ فَزِعُوا﴾ عِند البعث لرأيت أمرًا عظيمًا ـ ﴿فلا فَوتَ﴾ لهم منّا أي: لا يفوتوننا ـ ﴿وأُخِذُوا مِن مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: القُبور، ٥٢ ـ ﴿وقالُوا: آمَنّا بِهِ﴾: بمُحمّد أو القُرآن. ﴿وأنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ﴾ ـ بالواو، وبالهمزة بدلها ـ أي: تناولُ الإيمان ﴿مِن مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ عن محلّه، إذ هم في الآخرة ومحلّه الدنيا؟ ٥٣ ـ ﴿وقَد كَفَرُوا بِهِ مِن قَبلُ﴾ في الدنيا،..........................

قولُه: (أي: لمْ يَبْقَ لَهُ) أي: للباطِلِ؛ أي: زَهَقَ مأخوذٌ من هلاكِ الحَيِّ، فإنَّهُ إذا هَلَكَ لم يبقَ له إبداءٌ ولا إعادةٌ.

قولُه: (والحِكْمَةِ) فإنَّها وَحيٌ خَفيٌّ.

قولُه: (للدُّعَاءِ) قريبٌ مجيبٌ لمن دعاهُ.

قولُه: (يا مُحَمَّدُ) الكفَّارَ.

قولُه: (البَعْثِ) أو الموتِ، أو يومَ بدْرٍ.

قولُه: (مِنَّا) بهَرَبٍ أو تحَصُّنٍ.

قولُه: (أي: القُبُورِ) إلى النُّشورِ، أو من الموقِفِ إلى النَّارِ[1]، أو مِن ظَهْرِ الأرضِ إلى بَطنِها، أو من صحراءِ بدْرٍ إلى القَليبِ.

قولُه: (بمُحَمَّدٍ) وقد مرَّ ذِكرُه في قولِهِ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِنْ جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

قولُه: (والقُرآنِ) الظَّاهرُ: «أو»[2] وهو أقربُ، أو: باللهِ، ويؤيِّدُه قولُه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [غافر: ٨٤].

قولُه: (وبالهَمْزَةِ) بصريٌّ وكوفيٌّ غيرُ حفصٍ[3].

قولُه: (بَدَلَهَا) أي: عِوضَها، أو على إبدالِ الواو لضمَّتِها اللَّازمةِ.

قولُه: (أي: تَنَاوُلُ) أي: من أينَ لهم أن يتناوَلوا الإيمانَ تناولاً سَهلاً؟

---

(١) في (م) و(د) زيادة: «أو الجنة».

(٢) وهي كذلك في نسخ المتن المعتمدة.

(٣) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٥٩١)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٨٤).

﴿ويَقذِفُونَ﴾: يرمون ﴿بِالغَيبِ مِن مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: بما غاب عِلمه عنهم غَيبةً بعيدة، حيثُ قالوا في النبيّ: ساحرٌ شاعر كاهن، وفي القُرآن: سِحرٌ شِعر كِهانة. ٥٤ ـ ﴿وحِيلَ بَينَهُم وبَينَ ما يَشتَهُونَ﴾ من الإيمان، أي: قَبولِه ﴿كَما فُعِلَ بِأشياعِهِم﴾: أشباههم في الكُفر ﴿مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِهم. ﴿إنَّهُم كانُوا في شَكٍّ مُرِيبٍ﴾: مُوقعِ الرِّيبةَ لهم فيما آمنوا به الآن، ولم يعتدّوا بدلائله في الدنيا.

قولُه: (غَيبَةً بَعِيدَةً) أو من جانبٍ بعيدٍ من أمرِهِ؛ لأنَّ أبعدَ شيءٍ ممَّا جاءَ به السِّحرُ والشِّعرُ.

قولُه: (أيْ: قَبُولِهِ) وفي نسخةٍ: «أو قَبُولِهِ» فـ«أو» للتَّنويعِ، وقيل: من الإيمانِ بالرَّدِّ إلى الدُّنيا، وقيل: من اللَّذَّاتِ النَّفسانيَّةِ والشَّهواتِ الجِسمانيَّةِ، أو من ماءِ الجنَّةِ ونَعيمِها، واللهُ تعالى أعلمُ.

* * *

سورة سبأ

مكِّيَّةٌ، كما رُوي عن ابن عباس وقتادة، وفي «التحرير»: هي مكِّيَّةٌ بإجماعهم، وقال ابنُ عطيَّة: مكِّيَّةٌ إلَّا قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [الآية: ٦][1].

ورَوى الترمذيُّ عن فروة بن مُسيكة المراديّ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، ألَا أقاتلُ من أدبرَ من قومي. الحديث. وفيه: وأُنْزِلَ في سبأ ما أنزل، فقال رجل: يا رسول الله، وما سبأ؟ الحديث[2].

قال ابنُ الحصَّار[3]: هذا يدلُّ على أنَّ هذه القصَّة مدنيَّةٌ؛ لأنَّ مُهاجَرةَ فروة بعد إسلام ثقيف سنةَ تسعٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ قوله: «وأُنْزِلَ» حكايةً عمَّا تقدَّم نزولُه قبلَ هجرته، فلا يأبى كونَها مكِّيَّةً.

وآياتُها خمسٌ وخمسون في الشاميّ، وأربع وخمسون في الباقين. وما قيل: خمسٌ وأربعون. سهوٌ من قلم الناسخ.

ووجهُ اتِّصالها بما قبلَها أنَّ الصفات التي أجريت على الله تعالى في مفتتحها

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٤. وذكر أنه اختلف فيها؛ فقالت فرقة: هي مكية، وقالت فرقة: هي مدنية.

(٢) سنن الترمذي (٣٢٢٢)، وهو عند أحمد (٢٤٠٠٩/ ٨٩)، وأخرجه أبو داود (٣٩٨٨) مختصراً. واسم الصحابي في هذه المصادر: فروة بن مسيك، وهو أشهر كما قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ٨/ ٩٥.

(٣) هو علي بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن موسى، أبو الحسن الأندلسي الأصل، الفاسي المنشأ، له كتابٌ في ناسخ القرآن ومنسوخه ـ سمعه منه الحافظ المنذري ـ وكتاب المدارك، وصل به مقطوع حديث مالك والموطأ، وغيرها، توفي سنة (٦١١هـ). التكملة لوفيات النقلة ٢/ ٣٠٩-٣١٠، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٣١٩، والأعلام ٤/ ٣٣٠-٣٣١.

ممَّا يناسبُ الحكم التي في مختتم ما قبلُ من قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ [الأحزاب:٧٣] إلخ. وأيضاً قد أُشير فيما تقدَّم إلى سؤال الكفَّار عن الساعة على جهة الاستهزاء، وها هنا قد حَكى عنهم إنكارَها صريحاً والطعنَ بمن يقول بالمعاد على أتمِّ وجهٍ، وذكر ممَّا يتعلَّق بذلك ما لم يذكر هناك.

وفي «البحر» أنَّ سبب نزولها أنَّ أبا سفيان قال لكفار مكَّة لما سمعوا: (لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ): كأنَّ محمداً يتوعَّدنا بالعذاب بعد أن نموت، ويتخوفنا[1] بالبعث، واللاتِ والعزَّى لا تأتينا الساعةُ أبداً ولا نبعث، فقال الله تعالى: قل يا محمد: بلى وربِّي لتبعثنّ، قاله مقاتل. وباقي السورة تهديدٌ لهم وتخويف، ومن هذا ظهرت المناسبةُ بين هذه السورة والتي قبلها[2]. انتهى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له عزَّ وجلَّ خلقاً ومُلْكاً وتصرُّفاً بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، جميعُ ما وُجِد فيهما، داخلاً في حقيقتهما أو خارجاً عنهما، متمكِّناً فيهما، فكأنه قيل: له هذا العالم بالأسر، ووصفُه تعالى بذلك - على ما قاله أبو السعود[3] - لتقريرِ ما أفاده تعليقُ الحمد المعرَّف بلام الحقيقة - عند أرباب التحقيق - بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراد المخلوقات به عزَّ وجلَّ، ببيان تفرُّده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك، وكون كلِّ ما سواه سبحانه من الموجودات التي من جملتها الإنسان تحتَ ملكوته تعالى، ليس لها في حدِّ ذاتها استحقاقُ الوجود فضلاً عمَّا عداه من صفاتها، بل كلُّ ذلك نِعَمٌ فائضةٌ عليها من جهتِه عزَّ وجلَّ، فما هذا شأنُه فهو بمعزلٍ من استحقاق الحمد الذي مَدَارُه الجميلُ الصادر عن القادر بالاختيار، فظهر اختصاصُ جميع أفراده به تعالى.

---

(١) في البحر المحيط: ويخوفنا.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٧.
(٣) في تفسيره ٧/ ١٢٠.

وفي الوصف بما ذُكِرَ أيضاً إيذانٌ بأنَّه تعالى المحمودُ على نعم الدنيا، حيث عقَّب الحمدُ بما تضمَّن جميعَ النعم الدنيويَّة، فيكون الكلام نظير قولك: احْمَدْ أخاكَ الذي حملك وكساك. فإنَّكَ تريدُ به: احْمَدْهُ على حملانه وكسوته.

وفي عطف قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ على الصلة كما هو الظاهر إيذانٌ بأنَّه سبحانه المحمودُ على نعم الآخرة؛ ليتلاءم الكلام. وفي تقييد الحمد فيه بأنَّ محلَّه الآخرة إيذانٌ بأنَّ محلَّ الحمد الأوَّل الدنيا لذلك أيضاً، فتفيد الجملتان أنَّه عزَّ وجلَّ المحمودُ على نِعَمِ الدنيا فيها، وأنَّه تبارك وتعالى المحمودُ على نِعَمِ الآخرة فيها.

وجُوِّزَ أن يكون في الكلام صنعة الاحتباك، وأصله: الحمد لله.. إلخ في الدنيا، وله ما في الآخرة والحمد فيها، فأثبتَ في كلٍّ منهما ما حذف من الآخر.

وقال أبو السعود: إنَّ الجملة الثانية لاختصاص الحمد الأخرويِّ به تعالى، إثرَ بيان اختصاص الدنيويِّ به سبحانه، على أنَّ «في الآخرة» متعلِّقٌ بنفس الحمد، أو بما تعلَّق به «له» من الاستقرار، وإطلاقه عن ذكر ما يشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه في الآخرة عن التعيين، كما اكتفي فيما سبق بذكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذكر كون الحمد فيها أيضاً، بل ليعمَّ النِّعَمَ الأخرويَّة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥] وما يكونُ ذريعةً إلى نيلها من النعم الدنيويَّة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] أي: لِمَا جزاؤه هذا النعيمُ من الإيمان والعمل الصالح(١).

وأنت تعلم أنَّ المتبادر إلى الذهن هو ما قُرِّرَ أوَّلاً.

والفرقُ بين الحمدين ـ مع كون نِعَمِ الدنيا ونِعَمِ الآخرة بطريق التفضُّل ـ أنَّ

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٢٠.

الأوَّل على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذُّذ والاغتباط. وقد ورد في الخبر أنَّ أهلَ الجنة يُلْهَمون التسبيحَ كما يُلْهَمون النَّفَس(١).

وقولُ الزمخشريِّ(٢): إنَّ الأوَّل واجبٌ؛ لأنَّه على نعمةٍ متفضَّلٍ بها، والثاني ليس بواجب؛ لأنَّه على نعمةٍ واجبةِ الإيصال إلى مستحقِّها = مبنيٌّ على رأي المعتزلة. على أنَّ قوله: لأنَّه على نعمةٍ واجبة الإيصال. ليسَ على إطلاقه عندهم؛ لأنَّ ما يُعطي اللهُ تعالى العبادَ في الآخرة ليس مقصوراً على الجزاء عندهم، بل بعضُ ذلك تفضُّلٌ وبعضُه أجر.

وتقديم الخبر في الجملة الثانية؛ لتأكيد الحصر المستفادِ من اللام ـ على ما هو الشائع ـ اعتناءً بشأن نِعَمِ الآخرة. وقيل: للاختصاص؛ لأنَّ النِّعَم الدنيويَّة قد تكون بواسطة من يستحقُّ الحمدَ لأجلها، ولا كذلك نِعَمُ الآخرة. وكأنه أرادَ: لتأكيد الاختصاص، أو بَنى الأمر على أنَّ الاختصاص المستفادَ من اللام بمعنى الملابسة التامَّة لا الحصر، كما فصَّله الفاضلُ اليمنيّ، وأمَّا أنَّه أراد لاختصاص الاختصاص، فكما ترى، ويَرِدُ على قوله: ولا كذلك نِعَم الآخرة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فتأمَّل.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمرَ الدارين ودبَّره حسبما تقتضيه الحكمة.

﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ العالمُ ببواطن الأشياء ومكنوناتها، ويلزم من ذلك علمُه تعالى بغيرها، وعمَّم بعضهم مِنْ أوَّلِ الأمر، وما ذكر مبنيٌّ على ما قاله بعضُ أهل اللغة من أنَّ الخبرة تختصُّ بالبواطن؛ لأنَّها من خَبِرَ الأرضَ: إذا شقَّها.

وفي هذه الفاصلة إيذانٌ بأنَّه تعالى كما يستحقُّ الحمدَ لأنَّه سبحانه منعِمٌ يستحقُّه لأنَّه ـ جلَّ شأنه ـ منعوتٌ بالكمال الاختياريِّ، وتكميلُ معنى كونه تعالى منعِماً أيضاً

---

(١) أخرج مسلم (٢٨٣٥): (١٩) من حديث جابر ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهلُ الجنة فيها ويشربون، ولا يتغوَّطون ولا يمتخطون ولا يبولون، ولكنْ طعامُهُم ذاك جُشَاءٌ كَرَشْحِ المسك، يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس».

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٧٨.

بأنَّه على وجه الحكمة والصواب، وعن علمٍ بموضع الاستحقاق والاستيجاب، لا كمن يطلَقُ عليه أنَّه منعمٌ مجازاً.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ استئنافٌ لتفصيل بعض ما يحيطُ به علمه تعالى من الأمور التي نيطت بها مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة.

وجُوِّز أن يكون تفسيراً لخبير، وأن يكون حالاً من ضميره تعالى في: «له ما في السماوات» فيكون: «له الحمد في الآخرة» اعتراضاً بين الحال وصاحبها.

أي: يعلمُ سبحانه ما يدخلُ في الأرض من المطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات، قاله السُّدِّيُّ.

وقال الكلبيُّ: ما يدخلُ فيها من الأموات، وما يخرج منها من جواهر المعادن.

والأولَى التعميمُ في الموصولين، فيشملان كلَّ ما يلجُ في الأرض، ولو بالوضع فيها، وكلَّ ما يخرجُ منها حتى الحيوان، فإنَّه كلَّه مخلوقٌ[1] من التراب.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ أي: من الملائكة، قاله السُّدِّيُّ والكلبيُّ.

والأولَى التعميمُ، فيشمل «ما ينزل» المطرَ والثلجَ والبرَدَ والصاعقةَ والمقاديرَ ونحوها أيضاً، «وما يعرجُ» الأبخرةَ والأدخنةَ وأعمالَ العبادِ وأدعيَتَهم ونحوها أيضاً، ويرادُ بـ «السماء» جهةُ العلوِّ مطلقاً.

ولعلَّ ترتيب المتعاطفات كما سمعت إفادةً للترقِّي في المدح، وضُمِّن العروجُ معنى السير أو الاستقرار ـ على ما قيل ـ فلذا عُدِّي بـ «في» دون «إلى». وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار التضمين، والمراد بـ «ما يعرجُ فيها»: ما يعرجُ في ثخن السماء، ويعلم من العلم بذلك العلمُ بما يعرجُ إليها من باب أولى. فتدبر.

---

(١) في الأصل: مخلوقين.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه والسلميُّ: «يُنَزِّل» بضمِّ الياء وفتح النون وشدِّ الزاي، أي: الله، كذا في «البحر»[1].

وفي «الكشاف» عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قرأ: «نُنَزِّل» بالتشديد ونون العظمة[2].

﴿وَهُوَ﴾ مع كثرة نعمته وسبوغ فضله ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝﴾ للمفرِّطين في أداء مواجب شكرها، فهذا التذنيبُ ـ مع كونه مقرِّراً للخبرة ـ مفصِّلٌ لما أُجمِل في قوله سبحانه: «له ما في السماوات وما في الأرض» يُعْرَف منه كيف كان كلُّه نعمةً، وكالتبصُّر لأنواع النعم الكلِّيَّة، فكلٌّ منه ومن التذنيب السابق في موضعه الأحقِّ[3]، فلا تتوهَّم أنَّ العكسَ أنسب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلِّم جنسَ البشر قاطبةً، لا أنفسهم أو معاصريهم فقط، وبنفي إتيانها نفيَ وجودها بالكلِّيَّة، لا عدمَ حضورها مع تحقُّقها[4] في نفس الأمر، وإنما عبَّروا عنه بذلك لأنَّهم كانوا يُوعَدون بإتيانها. وقيل: لأنَّ وجودَ الأمور الزمانيَّة المستقبلة ـ لا سيما أجزاء الزمان ـ لا يكون إلَّا بالإتيان والحضور. وقيل: هو استبطاءٌ لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية، كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس:٤٨]. والأوَّل أولى.

والجملة ـ قيل ـ معطوفةٌ على ما قبلها عطفَ القصَّة على القصَّة، وجعلُها حاليَّةً غيرُ ظاهر.

﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم، وإثباتٌ لما نفوه، على معنى: ليس الأمر إلَّا إتيانها، وقولُه تعالى: ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تأكيدٌ له على أتمِّ الوجوه وأكملها.

---

(١) ٧/ ٢٥٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٩، وذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٥٣.

(٣) في (م): اللاحق. وهو تصحيف.

(٤) في (م): تحقيقها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ١٢١، والكلام منه.

وجاء القَسَمُ بالربِّ للإشارة إلى أنَّ إتيانَها من شؤون الربوبيَّة، وأتى به مضافاً إلى ضميره ﷺ؛ ليدلَّ على شدَّة القسم. ورَوى هارون ـ كما قال ابن جنِّي[١] ـ عن طليق[٢] قال: سمعت أشياخنا يقرؤون: «ليأتينَّكم» بالياء التحتيَّة، وخُرِّجت على أنَّ الفاعل ضميرُ البعث؛ لأنَّ مقصودهم من نفي إتيان الساعة أنَّهم لا يبعثون. وقيل: الفاعل ضمير «الساعة» على تأويلها باليوم أو الوقت. وتعقَّبه أبو حيان[٣] بأنَّه بعيدٌ؛ إذْ لا يكون مثلُ هذا إلَّا في الشعر نحو:

ولا أرضَ أبـــقـــلَ إبـــقـــالَـــهـــا[٤]

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بدلٌ من المقسم به، على ما ذهب إليه الحوفيُّ وأبو البقاء، وجُوِّزَ أنْ يكون عطفَ بيان، وأجاز أبو البقاء أن يكون صفةً له[٥]. وتُعقِّبَ بأنَّه صفةٌ مشبَّهةٌ، وهي ـ كما ذكره سيبويه في «الكتاب» ـ لا تتعرَّفُ بالإضافة إلى معرفة[٦]، والجمهور على أنَّها تتعرَّفُ بها، ولذا ذهب جمعٌ من الأجلَّة إلى أنَّه صفةٌ.

ووصف سبحانه بإحاطة العلم إمداداً للتأكيد، وتشديداً له إثرَ تشديد، فإنَّ عظمةَ حال المقسَم به تؤذنُ بقوَّة حال المقسَم عليه، وشدَّة ثباته واستقامته؛ لأنَّه بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلَّما كان المستشهَدُ به أعلى كعباً، وأبينَ فضلاً، وأرفعَ منزلةً؛ كانت الشهادةُ أقوى وآكد، والمستشهد عليه أثبتَ وأرسخ. وخُصَّ هذا الوصف بالذكر من بين الأوصاف ـ مع أنَّ كلَّ وصفٍ يقتضي العظمةَ يتأتَّى به ذلك ـ لِمَا أنَّ له تعلُّقاً خاصّاً بالمقسَم عليه؛ فإنَّه أشهرُ أفراد الغيب في الخفاء، ففيه مع رعاية التأكيد حسنُ الإقسام على منوال:

---

(١) في المحتسب ٢/ ١٨٦.

(٢) كذا في المحتسب. ووقع في القراءات الشاذة ص١٢١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٤، والبحر المحيط ٧/ ٢٥٧: طلق. بدل: طليق.

(٣) في البحر المحيط ٧/ ٢٥٧.

(٤) عجز بيت لعامر بن جُوين الطائي، وسلف ٢/ ٢٣٩.

(٥) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٢٠٣.

(٦) انظر الكتاب ١/ ٤٢٥.

وثـــنـــايـــاكِ إنَّـــهـــا إغـــريـــضُ[١]

كأنَّه قيل: وربِّي العالمِ بوقت قيامها لتأتينَّكم. وفيه إدماجُ أن لا كلامَ في ثبوتها.

وقال صاحب «الفرائد»: جيء بالوصف المذكور؛ لأنَّ إنكارَهم البعثَ باعتبار أنَّ الأجزاءَ المتفرِّقة المنتشرةَ يمتنعُ اجتماعها كما كانت؛ يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ الآية [ق:٤]، فالوصف بهذه الأوصاف رَدٌّ لزعمهم الاستحالة، وهو أنَّ من كان علمهُ بهذه المثابة، كيف يمتنع منه ذلك؟ انتهى. واستحسنه الطيبيُّ.

وقال في «البحر»: أتْبَعَ القَسَم بقوله تعالى: «عالم الغيب» وما بعده؛ ليعلم أنَّ إتيانها من الغيب الذي تفرَّدَ به عزَّ وجلَّ.

وما ذُكِرَ أوَّلاً أبعدُ مغزى.

وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليمين أنْ لا يَبقى للمعاندين عذرٌ ما أصلاً، فإنَّهم كانوا يعرفون أمانته ﷺ ونزاهته عن وصمة الكذب، فضلاً عن اليمين الفاجرة، وإنَّما لم يصدِّقوه عليه الصلاة والسلام مكابرةً.

وغَفَل صاحبُ «الفرائد» عن هذه الفائدة فقال: اقتضى المقامُ اليمينَ؛ لأنَّ من أنكر ما قيل له، فالذي وجبَ بعد ذلك إذا أُريد إعادةُ القول له أنْ يكون مقترناً باليمين، وإلَّا كان خطأً بالنظر إلى علم المعاني، وإن كان صحيحاً بالنظر إلى العربية والنحو. وقد يَغْفُلُ الأريب.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامر ورويس وسلام والجحدريُّ وقعنب: «عالمُ» بالرفع[٢]، على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو عالم. وجَوَّزَ الحوفيُّ أن يكون مبتدأً خبرُه

(١) صدر بيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٢/ ٢٨٧، وعجزه:
ولآلٍ تُـــومٌ وبـــرقٌ ومـــيـــضُ

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٧. وقراءة نافع وابن عامر في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩، وفي الأخير قراءة رويس راوية يعقوب. وهي أيضاً قراءة أبي جعفر المدني من العشرة.

محذوف، أي: عالم الغيب هو. وجَوَّز هو وأبو البقاء[١] أنْ يكون مبتدأً والجملةُ بعده خبره.

وقرأ ابنُ وثَّاب والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ: «علَّامِ» بصيغة المبالغة، والخفض[٢].

وقُرِئ: «عالم» بالرفع[٣] بلا مبالغة «الغيوب» بالجمع[٤].

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يَبعد، ومنه: روض عزيب: بعيدٌ من الناس. وقرأ الكسائيُّ بكسر الزاي[٥].

﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدارُ أصغر نملة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كائنةٍ فيهما ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: مثقالِ ذرَّة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ أي: منه، والكلامُ على حدِّ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف:٤٩]. ورفعهما على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ هو اللوح المحفوظ عند الأكثرين. والجملة مؤكِّدةٌ لنفي العزوب.

وقرأ الأعمشُ وقتادة، وأبو عمرو ونافع في روايةٍ عنهما: «ولا أصغرَ ولا أكبرَ» بالنصب[٦]، على أنَّ «لا» لنفي الجنس عاملةٌ عمل «إنَّ»، وما بعدَها اسمها منصوبٌ بها؛ لأنَّه شبيهٌ بالمضاف، ولم ينوَّن للوصف ووزن الفعل، فليس ذلك نحو: «لا مانع لما أعطيت»[٧]، والخبر هو الخبر على قراءة الجمهور.

---

(١) في الإملاء ٤/ ٢٠٣.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٨، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩.
(٣) بعدها في (م): يكون.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٧٩.
(٥) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٥.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٥، والبحر المحيط ٧/ ٢٥٨، وقراءة الأعمش وقتادة في القراءات الشاذة ص١٢١. وقراءة نافع وأبي عمرو المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.
(٧) قطعة من حديث متفق عليه، سلف ١٢/ ٤٨٣، وسلف ثمة الكلام في هذه المسألة.

وقال أبو حيان: «لا» لنفي الجنس، وهي وما بني معها مبتدأ على مذهب سيبويه، والخبر «إلا في كتاب»[(١)].

وما ذكرناه في توجيه القراءتين هو الذي ذهب إليه كثيرٌ من الأجلَّة.

وقيل: إنَّ ذلك معطوفٌ في قراءة الرفع على «مثقال»، وفي القراءة الأخرى على «ذرَّة»، والفتحة فيه نيابة عن الكسرة للوصف والوزن، وإليه ذهبَ أبو البقاء[(٢)].

واستشكلَ بأنَّه يصير المعنى عليه إذا كان الاستثناء متَّصلاً كما هو الأصل: لا يعزبُ عن علمه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلَّا في كتاب مبين، فإنَّه يعزبُ عنه فيه. وفسادُه ظاهرٌ.

والتزمَ السراجُ البلقيني على تقدير العطف المذكور أنْ يكونَ الاستثناءُ من محذوف، والتقدير: ولا شيء إلَّا في كتابٍ، ثم قال: ولا بدع في حذف ما قُدِّر لدلالة الكلام عليه، ويحصل من مجموع ذلك إثباتُ العلم لله تعالى بكلِّ معلومٍ، وأنَّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ في الكتاب.

وقيل: العطفُ على ما ذكر، والاستثناء منقطع، والمعنى: لا يعزبُ عنه تعالى شيءٌ من ذلك، لكن هو في كتاب.

وقيل: العطف على «ذلك»، والكلام نهج قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائبِ[(٣)]

فالمعنى: إن كان يعزبُ عنه شيءٌ، فهو الذي في كتابٍ مبين، لكن الذي في الكتاب لا يعزبُ عنه، فلا يعزبُ عنه شيءٌ. وفيه من البعد ما فيه.

وقيل: إنَّ المرادَ بقوله تعالى: «لا يعزب» إلخ أنَّه تعالى عالمٌ به، والمراد بقوله سبحانه: «إلَّا في كتاب» نحو ذلك؛ لأنَّ الكتاب هو عِلْمُ الله تعالى،

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٥٨، والكتاب ٢/ ٢٧٥.

(٢) الإملاء ٤/ ٢٠٣.

(٣) سلف ٥/ ٤٠٧.

والمعنى: وما يعزبُ عنه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء إلَّا يعلمُه، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلَّا في علمه، فيكون نظيرَ قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. وفيه أنَّه أبعدُ ممَّا قبله.

وقيل: «يعزب» بمعنى يظهر ويذهب، والعطف على ما سمعت، والمعنى: لم يظهر شيءٌ عن الله تعالى بعدَ خلقه له إلَّا وهو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، وتلخيصه: كلُّ مخلوقٍ مكتوب. وفيه أنَّ هذا المعنى لـ «يعزب» غيرُ معروف، وإنَّما المعروف ما تقدَّم. نعم قال الصغانيُّ في «العباب» قال أبو سعيد الضرير: يقال: ليس لفلانٍ امرأة تُعزِبه، أي: تُذْهِب عزبتَه بالنكاح، مثل قولك: تُمرِضُه، أي: تقوم عليه في مرضِه، ثم قال الصغانيُّ: والتركيب يدلُّ على تباعدٍ وتَنَحٍّ، فتفسيره بالظهور بعيدٌ، ولئن سلَّمنا قربَه، فلأيٍّ شيء جمع بين الظهور والذهاب.

وقيل: «إلا» بمعنى الواو، و«هو» مقدَّر في الكلام، والكلام قد تمَّ عند «أكبر»، كأنه قيل: لا يعزبُ عنه ذلك، وهو في كتاب، ومجيءُ «إلَّا» بمعنى الواو ذهبَ إليه الأخفشُ من البصريين، والفرَّاء من الكوفيين[1]. وخرَّجَ عليه قومٌ: ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢]، و: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧].

وقد حكى هذا القولَ مكِّيٌّ في نظير الآية، ثم قال: وهو قولٌ حسن، لولا أنَّ جميعَ البصريين لا يعرفون «إلَّا» بمعنى الواو.

وكأنَّه لم يقف على قول الأخفش، وهو من رؤساء نحاة البصرة، أو لم يعتبره[2]، فلذا قال: جميع البصريين، وقد كثر الكلام في هذا الوجه وارتضاه السراجُ البلقيني، وأنا لا أراهُ مَرْضياً، وإن أوقدَ له ألفُ سراج.

---

(١) انظر معاني القرآن للأخفش ١/٣٤٣، ومعاني القرآن للفراء ٢/٢٨٧-٢٨٨. وانظر ما سلف ١١/١٩٨-١٩٩.

(٢) في الأصل: يعتبروه.

وقيل: العطف على ما سمعت، وضمير «عنه» للغيب، فلا إشكال، إذ المعنى حينئذٍ: لا يبعدُ عن غيبه شيءٌ إلَّا ما كان في اللوح؛ لبروزه من الغيب إلى الشهادة واطِّلاع الملأ الأعلى عليه.

وتُعقِّب بأنَّ المعنى لا يساعدُه؛ لأنَّ الأمر الغيبيَّ إذا برز إلى الشهادة لم يعزب عنه، بل بقي في الغيب على ما كان عليه مع بروزه، ومعناه أنَّ كونَه في اللوح المحفوظ كنايةٌ عن كونه من جملة معلوماته تعالى، وهي إمَّا مغيبةٌ وإمَّا ظاهرةٌ، وكلُّ مغيَّبٍ سيظهر، وإلَّا كان معدوماً لا مغيَّباً، وظهورُه وقتَ ظهوره لا يرفعُ كونَه مغيَّباً، فلا يكون الاستثناء متَّصلاً، ألا ترى أنَّك لو قلت: عِلْمُ الساعة مغيَّبٌ عن الناس إلَّا علمَهم بها حين تقوم ويشاهدونها، لم يكن هذا الاستثناءُ متَّصلاً، كذا قيل، فتأمَّل ولا تغفل.

وأنت تعلم أنَّ هذا الوجه على فرض عدم ورود ما ذُكر عليه ضعيفٌ؛ لأنَّ الظاهرَ الذي يقتضيه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [يونس: ٦١] رجوعُ الضمير إلى الله عزَّ وجلَّ.

والذي ذهب إليه أبو حيان[١] أنَّ الكتابَ ليس هو اللوح، وليس الكلامُ إلَّا كنايةً عن ضبط الشيء والتحفُّظ به.

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: «ولا أصغرِ من ذلك ولا أكبرِ» بكسر الراءين[٢]. وخُرِّجَ على أنَّه نويَ مضافٌ إليه، والتقدير: ولا أصغرِه ولا أكبرِه. و«من ذلك» ليس متعلِّقاً بأفعل، بل هو تبيينٌ؛ لأنَّه لما حذف المضاف إليه أُبهم لفظاً، فبُيِّن بقوله تعالى: «من ذلك»، أي: أعني من ذلك. ولا يخفى أنَّه توجيه شذوذ.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ متعلِّقٌ بقوله سبحانه: «لتأتينَّكم»،

---

(١) في البحر ٧/ ٢٥٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٨.

على أنَّه علةٌ له وبيانٌ لمقتضى إتيانها، فهو من تتمَّة المقسَم عليه، فحاصل الكلام أنَّ الحكمة تقتضي إثباتَها، والعلمُ البالغُ المحيط بالغيب وجميعِ الجزئيات جليِّها وخفيِّها حاصلٌ، والقدرةُ المقتضيةُ لإيجاد العالم وما فيه وجعله نعمةً على ما مرَّ، فقد تمَّ المقتضي، وارتفعَ المانعُ، فليس في الآية اكتفاءٌ في الردِّ بمجرَّد اليمين.

واستظهر في «البحر» تعلُّقه بـ «لا يعزب»، وذهب إليه أبو البقاء[1]. وتُعقِّبَ بأنَّ علمه تعالى ليس لأجل الجزاء.

وقيل: متعلِّق بمتعلَّق «في كتاب». وهو كما ترى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول من حيث اتِّصافه بما في حيِّز الصلة، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك الموصوفون بالإيمان وعمل الأعمال الصالحات ﴿لَهُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ لما فَرَطَ منهم من بعض فرطاتٍ قلَّما يخلو عنها البشر ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ حسنٌ لا تعب فيه ولا مَنَّ عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقدح فيها، وصدِّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مسابقين، يحسبون أنَّهم يفوتوننا، قاله قتادة. وقال عكرمة: مراغمين. وقال ابن زيد: مجاهدين في إبطالها.

وقرأ جمعٌ: «مُعْجِزين» مخفَّفاً[2]. وابنُ كثير وأبو عمرو والجحدريُّ وأبو السمَّال مثقَّلاً[3]؛ قال ابن الزبير: أي: مثبِّطين عن الإيمان من أراده، مدخِلين عليه العجزَ في نشاطه. وقيل: معجزين قدرةَ الله عزَّ وجلَّ في زعمهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر، وفيه إشارةٌ إلى بُعْدِ منزلتهم في الشرِّ

---

(١) في الإملاء ٤/ ٢٠٣.

(٢) ذكرها السمين في الدر المصون ٨/ ٢٩١ عن الجحدري وابن الزبير، وهي قراءة شاذة.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٥٨. وقراءة ابن كثير وأبي عمرو في التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧.

﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ أي: من سيِّئ العذاب وأشدِّه، و«من» للبيان ﴿أَلِيمٌ ۝٥﴾ بالرفع[1] صفة «عذاب».

وقرأ أكثر السبعة بالجرِّ، على أنَّه صفةٌ مؤكِّدةٌ لـ «رجز» بناءً على ما سمعت من معناه، وجعله بعضهم صفةً مؤسِّسةً له بناءً على أنَّ «الرجز» ـ كما روي عن قتادة ـ مطلقُ العذاب، وجُوِّزَ جعلهُ صفة «عذاب» أيضاً، والجرُّ للمجاورة.

والظاهر أنَّ الموصول مبتدأ، والخبر جملة «أولئك لهم عذاب»، وجُوِّز أنْ يكون في محلِّ نصبٍ عطفاً على الموصول قبله، أي: ويجزي الذين سعوا، وجملة «أولئك لهم» إلخ التي بعده مستأنفةٌ، والتي قبله معترضة.

وفي «البحر»: يحتمل ـ على تقدير العطف على الموصول ـ أنْ تكون الجملتان المصدَّرتان بـ «أولئك» هما نفس الثواب والعقاب، ويحتمل أن تكونا مستأنفتين، والثوابُ والعقابُ غير ما تضمنتا ممَّا هو أعظمُ، كـ: رضا الله تعالى عن المؤمن دائماً، وسخطه على الكافر دائماً[2].

وفيه أنَّه كيف يتأتَّى حملُ ذلك على رضا الله تعالى وضدِّه، وقد صرَّح أوَّلاً بالمغفرة والرزق الكريم، وفي مقابله بالعذاب الأليم، وجعل الأول جزاءً.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: ويعلمُ أولو العلم من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن يطأ أعقابَهم من أمَّته عليه الصلاة والسلام، أو مَن آمن من علماء أهل الكتاب، كما روي عن قتادة، كـ: عبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما ﷺ ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ بالنصب على أنَّه مفعول ثانٍ لـ «يرى»، والمفعول الأول هو الموصول الثاني، و«هو» ضمير الفصل.

وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع[3]، على جعل الضمير مبتدأ، وجعله خبراً، والجملة

(١) هي قراءة حفص وابن كثير من السبعة، ويعقوب من العشرة، وقرأ الباقون بالجر. التيسير ص١٨٠، والنشر٢/ ٣٤٩.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

في موضع المفعول الثاني لـ «يرى»، وهي لغة تميم؛ يجعلون ما هو فصلٌ عند غيرهم مبتدأً.

وقوله تعالى: «ويرى» إلخ ابتداءُ كلامٍ غير معطوفٍ على ما قبله، مسوقٍ للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات.

وفي «الكشف»: هو عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ على معنى: وقال الجهلة: لا ساعة، وعلم أولو[1] العلم أنَّه الحقُّ الذي نطق به المنزل إليك الحقُّ.

وتُعقِّبَ بأنَّه تكلُّفٌ بعيدٌ؛ فإنَّ دلالة النظم الكريم على الاهتمام بشأن القرآن لا غير.

وقيل عليه: أنت خبيرٌ بأنَّ ما قبله من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ وقولِه سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ إلخ في شأن الساعة ومنكري الحشر، فكيف يكون ما ذُكر بعيداً بسلامة الأمير، فذكرُ حقِّيَّةِ القرآن بطريق الاستطراد، والمقصود بالذات حقِّيَّةُ ما نطق به من أمر الساعة.

وقال الطبريُّ والثعلبيُّ[2]: إنَّ «يَرى» منصوبٌ بفتحةٍ مقدَّرةٍ عطفاً على «يجزي»، أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة معاينةً أنَّه الحقُّ حسبما علموه قبلُ برهاناً، ويحتجُّوا به على المكذِّبين، وعليه فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ معطوفٌ على الموصول الأول، أو مبتدأ والجملةُ معترضةٌ، فلا يضرُّ الفصل كما توهِّم.

وجُوِّزَ أن يُرَاد بأولي العلم من لم يؤمن من الأحبار، أي: ليعلموا يومئذٍ أنَّه هو الحق، فيزدادوا حسرةً وغمّاً.

وتُعقِّبَ بأنَّ وصفَهم بأولي العلم يأباه؛ لأنها صفةٌ مادحةٌ، ولعلَّ المجوِّزَ لا يسلِّم هذا.

---

(١) في (م): أولي.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٢١٣، وتفسير الثعلبي ٨/ ٧٠.

نعم كون ذلك بعيداً لا ينكر، لا سيَّما وظاهرُ المقابلة بقوله تعالى: «وقال الذين كفروا» يقتضي الحملَ على المؤمنين.

﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي يَقهر ولا يُقهر ﴿ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ المحمود في جميع شؤونه عزَّ وجلَّ، والمراد بصراطه تعالى التوحيدُ والتقوى، وفاعل «يهدي» إمَّا ضمير «الذي أنزل»، أو ضمير الله تعالى، ففي «العزيز الحميد» التفاتٌ، والجملة على الأوَّل إمَّا مستأنفةٌ، أو في موضع الحال من «الذي» على إضمار مبتدأ، أي: وهو يهدي، كما في قوله:

نـجـوتُ وأرْهَـنُـهُـم مـالـكـاً[1]

أو معطوفةٌ على «الحق» بتقدير: وأنَّه يهدي.

وجُوِّزَ أن يكون «يهدي» معطوفاً على «الحقّ» عطف الفعل على الاسم؛ لأنَّه في تأويله، كما في قوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩] أي: قابضات، وبعكسه قوله:

وألـفـيـتـه يـومـاً يـبـرُّ[2] عـدوَّه وبحرَ عطاءٍ يستخفُّ[3] المعابرا

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم كفار قريش، قالوا مخاطباً بعضهم لبعض على جهة التعجُّب والاستهزاء: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون به النبيَّ ﷺ، والتعبيرُ عنه عليه الصلاة والسلام بذلك من باب التجاهل، كأنَّهم لم يعرفوا منه ﷺ إلَّا أنَّه رجلٌ، وهو عليه الصلاة والسلام عندهم أظهرُ من الشمس:

وليس قولُكَ مَنْ هذا بضائِره العربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجمُ[4]

---

(١) أي: وأنا أرهنهم. . .، والبيت لعبد الله بن همام السلولي، كما في إصلاح المنطق ص٢٥٧، ودلائل الإعجاز ص٢٠٥، ومعاهد التنصيص ١/ ٢٨٥، وصدره:

فـلـمَّـا خـشـيـتُ أظـافِـيـرَهُـم

(٢) هكذا في الأصل بتشديد الراء، وفي (م) ومطبوع البحر ٧/ ٢٥٩: يبير. وفي مطبوع ديوان النابغة ص ٦٥ ـ والبيت له ـ: يبيد.

(٣) في (م) ومطبوع البحر المحيط: يستحق.

(٤) هو للفرزدق في مدح زين العابدين. ديوانه ٢/ ١٧٨.

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يحدِّثكم بأمرٍ مستغربٍ عجيب.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «ينبيكم» بإبدال الهمزة ياءً محضةً[١]، وحُكي عنه: «يُنْبِئكم» بالهمز من أنبأ[٢].

﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ «إذا» شرطيَّةٌ، وجوابها محذوفٌ لدلالة ما بعده عليه، أي: تبعثون، أو: تحشرون، وهو العامل في «إذا» على قول الجمهور، والجملة الشرطية بتمامها معمولةٌ لـ «ينبئكم»؛ لأنَّه في معنى: يقول لكم: إذا مُزِّقتم كلَّ ممزَّقٍ تبعثون، ثم أكَّد ذلك بقوله تعالى: «إنَّكم لفي خلقٍ جديد».

وجُوِّز أن يكون «إنكم لفي خلقٍ جديد» معمولاً لـ «ينبئكم»، وهو معلَّقٌ، ولولا اللام في خبر «إنَّ» لكانت مفتوحة، والجملة سدَّت مسدَّ المفعولين، والشرطيَّةُ على هذا اعتراضٌ، وقد مَنَعَ قومٌ التعليقَ في باب أَعْلَمَ، والصحيح جوازُه، وعليه قوله:

حــذارِ فــقــد نُــبِّــئــت إنَّــك لَــلَّــذي ستُجْزَى بما تَسعى فتسعد أو تَشْقَى[٣]

وجُوِّزَ أنْ تكون «إذا» لمحضِ الظرفيَّة، فعاملها الذي دلَّ عليه ما بعدُ يقدَّرُ مقدَّماً، أي: تبعثون أو تحشرون إذا مُزِّقتُم، ولا يجوز أن يكون العامل «يدلُّكم» أو «ينبئكم»؛ لعدم المقارنة، ولا «مزِّقتم»؛ لأنَّ «إذا» مضافة إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا «خلقٍ» ولا «جديد»؛ لأنَّ «إنَّ» لها الصدر، فلا يعملُ ما بعدَها فيما قبلها.

وقال الزَّجَّاجُ: «إذا» في موضع النصب بـ «مُزِّقتم»، وهي بمنزلة «مَنْ» الشرطية، يعملُ فيها الذي يليها[٤].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

(٢) حكاها أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٢٥٩ عن الزمخشري، وفي مطبوع الكشاف ٣/ ٢٨٠: وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه: ينبيكم!

(٣) أورده العيني في شرح الشواهد ٢/ ٤٤٧، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٩، والسمين في الدر المصون ٩/ ١٥٥ دون نسبة.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤١، وفيه: «إن» بدل «من»، وينظر تفصيل هذه المسألة في مغني اللبيب ص١٣٠-١٣١.

وقال السجاوندي: العاملُ محذوف، وما بعدها إنَّما يعملُ فيها إذا كان مجزوماً بها، وهو مخصوصٌ بالضرورة، نحو:

وإذا تُصِبْكَ خصاصةٌ فتجمَّلِ[1]

فلا يُخَرَّج عليه القرآن، فإذا لم تَجْزم كانت مضافةً إلى ما بعدها، والمضاف إليه لا يعملُ في المضاف.

وقال أبو حيان: الصحيح أنَّ العامل فيها فعلُ الشرط كسائر أدوات الشرط[2]. وتمام الكلام على ذلك في كتب النحو.

و«ممزَّق» مصدر جاء على زنة اسم المفعول، كمُسرَّح في قوله:

ألم تعلم مُسَرَّحيَ القوافي ... فلا عِيّاً بهنَّ ولا اجتلابَا[3]

وتمزيقُ الشيء: تخريقه وجعله قِطَعاً قِطَعاً، ومنه قوله:

إذا كنتُ مأكولاً فكن خير آكل ... وإلَّا فأدركني ولمَّا أُمَزَّقِ[4]

والمرادُ: إذا متُّم وفُرِّقت أجسادكم كلَّ تفريقٍ بحيث صرتم رفاتاً وتراباً.

ونصب «كل» على المصدريَّة، وجُوِّز أنْ يكون اسم مكان، فنصب «كل» على الظرفية؛ لأنَّ لها حكم ما تضاف إليه، أي: إذا فُرِّقَتْ أجسادُكم في كلِّ مكانٍ، من القبور وبطون الطير والسباع، وما ذهبت به السيول كلَّ مذهبٍ، وما نسفته الرياح فطرحتهُ كلَّ مُطَّرح.

و«جديد» فعيل بمعنى فاعل عند البصريين، مِنْ جَدَّ الشيءُ إذا صار جديداً،

---

(١) هو عجز بيت لعبد قيس بن خفاف كما في الأصمعيات ص٢٣٠، والمفضليات ص٣٨٥، وصدره:

واستغنِ ما أغناك ربُّك بالغنى

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٦٥١، والمقتضب ١/ ٧٥، و٢/ ١٢٥، والخصائص ١/ ٣٦٧ و٣/ ٢٩٤، والجمل في النحو للزجاجي ص١١٦، والكشاف ٣/ ٢٨٠، وصدره في الديوان: ألم تُخْبَر بمَسْرَحِيَ القوافي.

(٤) البيت للممزَّق العبديّ، كما في الأصمعيات ص١٦٦، والبيان والتبيين للجاحظ ١/ ٣٧٥.

وبمعنى مفعول عند الكوفيين، من جدَّه إذا قطعه، ثمَّ شاع في كلٍّ جديد وإن لم يكن مقطوعاً، كالبناء.

والسبب في الخلاف أنَّهم رأوا العرب لا يؤنثونه، ويقولون: ملحفةٌ جديد، لا: جديدة، فذهب الكوفيون إلى أنَّه بمعنى مفعول، والبصريون إلى خلافه، وقالوا: ترك التأنيث لتأويله بشيءٍ جديد، أو لحمله على فعيل بمعنى مفعول، كذا قيل.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يُنسَبُ إليه من أمر البعث ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه. واستدلَّ به أبو عمرٍو الجاحظ[1] على ما ذهب إليه من أنَّ صدقَ الخبر مطابقتُه للواقع مع الاعتقاد، وكذبه عدمُها معه، وغيرهما ليس بصدقٍ ولا كذب، وذلك أنَّ الكفارَ ـ وهم عقلاءُ من أهل اللسان عارفونَ باللغة ـ حصروا إخبارَ النبيِّ ﷺ بالبعث في الافتراء والإخبار حال الجِنة، على سبيل منع الخلو بالمعنى الأعم، ولا شكَّ أنَّ المراد بالثاني غيرُ الكذب؛ لأنَّه قسيمُه، وغيرُ الصدق؛ لأنَّهم اعتقدوا عدمه، وأيضاً لا دلالة لقولهم: «أم به جِنَّة» على معنى: أم صدق، بوجهٍ من الوجوه، فيجب أنْ يكون بعضُ الخبر ما ليسَ بصادقٍ ولا كاذب؛ ليكون ذلك منه بزعمهم، وإن كان صادقاً في نفس الأمر.

وتوضيحُه أنَّ ظاهر كلامهم هذا يدلُّ على طلب تعيين أحد حالَي النبيِّ ﷺ ـ المستويين في اعتقاد المتكلِّم ـ حين الإخبار بالبعث، وهو يستلزمُ تعيين أحدِ حالتي[2] الخبر، والاستفهام هاهنا للتقرير، فيفيد ثبوتَ أحد الحالين للخبر، ولا شكَّ أنَّ ثبوت أحدهما لا يثبتُ الواسطة ما لم يعتبر تنافيهما[3]، وكذا تنافيهما في الجمع لا يُثبتها، بل لا بدَّ من تنافيهما في الارتفاع، يعني أنَّ خبره عليه الصلاة والسلام بالبعث لا يخلو عن أحد الأمرين المتنافيين، فيكون المراد بالثاني

---

(١) الصواب أن الجاحظ: أبو عثمان، واسمه عمرو. وقد تبع المصنف في هذا الوهم الخفاجيَّ. انظر حاشيته ٧/ ١٩١.

(٢) في (م): حالي.

(٣) في الأصل: تنافيها.

ما هو منافٍ وقسيمٌ للأول، ومعلومٌ أنَّه غيرُ الصدق، فليس الصدقُ عبارةً عن مطابقة الواقع فقط، والكذب عن عدم المطابقة له، كما يقول الجمهور، أو عن مطابقة الاعتقاد له وعدم مطابقته له، كما يقول النظَّام، فيكونان عبارتين عن مطابقتهما وعدم مطابقتهما، وتَثبتُ الواسطة.

وأجيبَ بأنَّ معنى «أم به جِنَّةٌ»: أم لم يفتر، فعبَّر عن عدم الافتراء بالجِنَّة؛ لأنَّ المجنون يلزمُه أن لا افتراءَ له؛ لأنَّه ـ كما دل عليه نقل الأئمة واستعمال العرب ـ الكذبُ عن عمد، ولا عمدَ للمجنون، فالثاني ليس قسيماً للكذب، بل لما هو أخصُّ منه، أعني الافتراء، فيكون ذلك حصراً للخبر الكاذب بزعمهم في نوعيه: الكذب عن عمد، والكذب لا عن عمد، ولو سُلِّم أنَّ الافتراء بمعنى الكذب مطلقاً، فالمعنى: أَقَصَدَ الافتراءَ ـ أي: الكذب ـ أم لم يقصد، بل كذب بلا قصدٍ لما به من الجِنَّة.

وقيل: المعنى: أفترى أم لم يفتر، بل به جنونٌ، وكلام المجنون ليس بخبر؛ لأنَّه لا قصدَ له يُعتَدُّ به ولا شعور، فيكون مرادهم حصره في كونه خبراً كاذباً، أو ليس بخبر، فلا يثبتُ خبرٌ لا يكون صادقاً ولا كاذباً. ونوقش فيه كما لا يخفى على من راجع كتب المعاني.

بقي هاهنا بحثٌ، وهو أنَّ الطيبيَّ أشارَ إلى أنَّ مبنى الاستدلال كون «أم» متَّصلةً. واعترضه بأنَّ الظاهرَ كونُها منقطعةً؛ أمَّا لفظاً، فلاختلاف مدخول الهمزة و«أم»، وأمَّا معنًى: فلأنَّ الكفرة المعاندين لمَّا أَخرَجوا قولهم: «هل ندلُّكم على رجلٍ ينبئكم» مخرجَ الطنز[1] والسخرية، متجاهلين برسول الله ﷺ وبكلامه من إثبات الحشر والنشر، وعقَّبوه بقولهم: «أفترى على الله كذباً» = أَضْرَبُوا عنه إلى ما هو أبلغُ منه ترقِّياً من الأهون إلى الأغلظ، من نسبة الجنون إليه، وحاشاه ﷺ، فكأنَّهم قالوا: دعوا حديثَ الافتراء، فإن هاهنا ما هو أطمُّ منه؛ لأنَّ العاقلَ كيف يحدِّثُ بإنشاء خلقٍ جديد بعد الرفات[2] والتراب؟! ولمَّا كان التعويلُ على ما بعد

---

(١) أي: السخرية. القاموس (طنز).

(٢) في الأصل: الوفات!؟

الإضراب من إثبات الجنون، أوقعَ الإضراب الثاني في كلامه تعالى ردّاً لقولهم، ونفياً للجنون عنه، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وإثباتاً له فيهم، إلى آخر ما قال.

ولم يرتضِ ذلك صاحب «الكشف» فقال: في كلام «الكشاف» إشارةٌ إلى أنَّ «أم» متصلة، وفائدةُ العدول عن الفعل في جُنّ: إيماءٌ إلى أنَّ الثابتَ هو ذلك الشق، كأنَّه قيل: أعَنِ افتراءٍ هذا الكذب العُجاب أم جنونٍ؟ والتقابل لأنَّ المجنونَ لا افتراء له، فالاستدلال على الانقطاع بتخالف العديلين ساقط؛ وأمَّا الترقِّي من الاتصال [فحاصل][1] أيضاً ـ على ما لوَّحَ إليه ـ بوجهٍ ألطف. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ ظاهر الاستدلال يقتضي الاتِّصال، لكن قال الخفاجيُّ: إنَّ كون الاستدلال مبنيًّا على الاتصال غيرُ مسلَّمٍ، فتأمَّل[2].

والظاهر: «أفترى على الله كذباً أم به جِنَّةٌ» من قول بعضهم لبعض.

وفي «البحر»[3]: يحتملُ أنْ يكون من كلام السامع المجيب لمن قال: «هل ندلُّكم» رَدَّدَ بين شيئين، ولم يجزم بأحدهما لما في كلٍّ من الفظاعة.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾ إبطالٌ من جهته تعالى لما قالوا بقسيميه، وإثباتُ ما هو أشدُّ وأفظعُ لهم، ولذا وضع «الذين لا يؤمنون» موضعَ الضمير توبيخاً لهم، وايماءً إلى سبب الحكم بما بعده، كأنَّه قيل: ليس الأمر كما زعموا، بل هم في كمال اختلال العقل، وغاية الضَّلال عن الفهم والإدراك الذي هو الجنون حقيقةً، وفيما يؤدِّي إليه ذلك من العذاب؛ حيث أنكروا حكمةَ الله تعالى في خلق العالم، وكذَّبوه عزَّ وجلَّ في وعده ووعيده، وتعرَّضوا لسخطه سبحانه.

وتقديم العذاب على ما يوجبُه ويستتبعه؛ للمسارعة إلى بيان ما يسوءهم ويفتُّ في أعضادهم، والإشعارِ بغاية سرعة ترتُّبه عليه، كأنَّه يسابقه فيسبقه. ووصف

---

(١) زيادة يقتضيها السياق، وفي حاشية الشهاب: والترقي المذكور حاصلٌ مع الاتصال أيضاً.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٩٢.
(٣) ٧/ ٢٦٠.

الضلال بالبعيد الذي هو وصفُ الضالِّ للمبالغة؛ لأنَّ ضلالهم إذا كان بعيداً في نفسه، فكيف بهم أنفسِهم؟!

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قيل: هو استئنافٌ مسوقٌ لتذكيرهم بما يعاينون ممَّا يدلُّ على كمال قدرته عزَّ وجلَّ، وتنبيههم على ما يحتمل أنْ يقعَ من الأمور الهائلة في ذلك؛ إزاحةً لاستحالتهم الإحياء، حتى قالوا ما قالوا فيمن أخبرهم به، وتهديداً على ما اجترؤوا عليه.

والمعنى: أَعَمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاطَ بجوانبهم من السماء والأرض، ولم يتفكَّروا أنَّهم أشدُّ خلقاً أم هي؟ وأنَّا «إن نشأ نخسف بهم الأرض» كما خسفناها بقارون، «أو نسقط عليهم كسفاً» أي: قطعاً «من السماء» كما أسقطنا على أصحاب الأيكة؛ لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات.

وهو تفسيرٌ ملائمٌ للمقام، إلَّا أنَّ ربطَ قوله تعالى: «إن نشأ» إلخ بما قبله بالطريق الذي ذكره بعيدٌ.

وفي «البحر» أنَّه تعالى وَقَفهم في ذلك على قدرته الباهرة، وحَذَّرهم إحاطة السماء والأرض بهم، وكأنَّ ثَمَّ حالاً محذوفةً، أي: أفلا يرون إلى ما يحيطُ بهم من سماءٍ وأرضٍ مقهوراً[1] تحتَ قدرتنا، نتصرَّفُ فيه كما نريد؟ «إنْ نشأ نخسف بهم الأرض» إلخ. أو: أفلم[2] ينظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم محيطاً بهم، وهم مقهورون فيما بينه؟ «إن نشأ» إلخ. ولا يخلو عن شيء.

وقال العلَّامة أبو السعود: إنَّ قوله تعالى: «أفلم يروا» إلخ استئنافٌ مسوقٌ لتهويل ما اجترؤوا عليه من تكذيبِ آيات الله تعالى، واستعظامِ ما قالوا في حقِّه عليه الصلاة والسلام، وأنَّه من العظائم الموجبة لنزول أشدِّ العقاب، وحلولِ أفظع العذاب من غير رَيْثٍ وتأخير. وقوله تعالى: «إن نشأ» إلخ بيانٌ لما ينبئ عنه ذكر

(١) في الأصل، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٠: مقهور. والمثبت من (م).
(٢) في الأصل و(م): فلم، والمثبت من البحر.

إحاطتهما بهم من المحذور المتوقَّع من جهتهما، وفيه تنبيهٌ على أنَّه لم يبقَ من أسباب وقوعه إلَّا تعلُّقُ المشيئة به، أي: فعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم، بحيثُ لا مفرَّ لهم عنه ولا محيص؟ «إنْ نشأ» جرياً على موجب جناياتهم «نخسف» إلخ[1].

ولا يخفى أنَّ فيه بُعْداً وضعفَ ربطٍ بالنسبة إلى ما سمعت أوّلاً، مع أنَّ ما بَعْدُ ليس فيه كثيرُ ملاءَمةٍ لما قبلَه عليه. ويخطر لي أنَّ قوله تعالى: «أفلم يروا» مسوقٌ لتذكيرهم بأظهر شيءٍ لهم ـ بحيث إنهم يعاينونه أينما التفتوا، ولا يغيبُ عن أبصارهم حيثما ذهبوا ـ يدلُّ على كمال قدرته عزَّ وجلَّ؛ إزاحةً لمَا دعاهم إلى ذلك الاستهزاء والوقيعة بسيِّد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، من زعمهم قصورَ قدرته تعالى عن البعث والإحياء؛ ضرورةَ أنَّ من قَدِرَ على خلق تلك الأجرام العظام لا يعجزُه إعادةُ أجسامٍ هي كَلَا شيءٍ بالنسبة إلى تلك الأجرام، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] وفيه من التنبيه على مزيد جهلهم المشارِ إليه بالضلال البعيد ما فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر ممَّا بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴿لَأَيَةً﴾ أي: لدلالةً واضحةً على كمال قدرة الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يعجزه البعث بعد الموت وتفرُّقِ الأجزاءِ المحاطة بهما. ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑨﴾ أي: راجعٍ إلى ربِّه تعالى، مطيعٍ له جلَّ شأنه؛ لأنَّ المنيبَ لا يخلو من النظر في آيات الله عزَّ وجلَّ والتفكُّر فيها = كالتعليل لِمَا يُشعر به قوله سبحانه: «أفلم يروا» إلخ من الحثِّ على الاستدلال بذلك على ما يزيحُ إنكارهم البعثَ. وفيه تعريضٌ بأنَّهم مُعْرِضون عن ربِّهم سبحانه، غيرُ مطيعين له جلَّ وعلا، وتَخلُّصٌ إلى ذكر المنيبين إليه تعالى على قول، وقوله تعالى: «إنْ نشأ» كالاعتراض جيء به لتأكيد تقصيرهم، والتنبيهِ على أنَّهم بلغوا فيه مبلغاً يستحقُّون به في الدنيا ـ فضلاً عن الأخرى ـ نزولَ أشدِّ العقاب، وحلولَ أفظع العذاب، وأنَّه لم يبق من أسباب ذلك إلَّا تعلُّق المشيئة به، إلَّا أنَّها لم تتعلَّق لحكمة.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٢٣.

وظَنِّي أنه حسن، وتحتملُ الآية غير ذلك، واللهُ تعالى أعلمُ بأسرار كتابه.

وقيل: إنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى مصدر «يروا»، وهو الرؤية، وذُكِّرَ لتأويله بالنظر، والمراد به الفكر.

وقيل: إشارةٌ إلى ما تُليَ من الوحي الناطق بما ذكر.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابن وثَّاب وعيسى والأعمش وابنُ مصرِّف: «يشأ» و«يخسف» و«يسقط» بالياء فيهنَّ، وأدغمَ الكسائيُّ الفاء في الباء في: «يخسف بهم»[1].

قال أبو عليّ: ولا يجوزُ ذلك؛ لأنَّ الباء أضعف في الصوت من الفاء، فلا تدغم فيها، وإن كانت الباء تدغم في الفاء نحو: اضرب فلاناً، وهذا كما تدغم الباء في الميم، نحو: اضرب مالكاً، ولا تدغم الميم في الباء، نحو: اضمم بك[2]؛ لأنَّ الباء انحطَّت عن الميم بفقد الغنَّة التي فيها.

وقال الزمخشريُّ: قرأ الكسائيُّ: «يخسف بهم» بالإدغام، وليست بقوية[3].

وأنت تعلم أنَّ القراءةَ سنَّةٌ متَّبعة، ويوجد فيها الفصيحُ والأفصح، وذلك من تيسير اللهِ تعالى القرآنَ للذكر، وما أدغم الكسائيُّ إلَّا عن سماع، فلا التفاتَ إلى قول أبي عليٍّ ولا الزمخشريّ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ﴾ أي: آتيناه لحسن إنابته وصحَّة توبته فضلاً، أي: نعمةً وإحساناً.

وقيل: فضلاً وزيادةً على سائر الأنبياء المتقدِّمين عليه، أو أنبياء بني إسرائيل، أو على من عدا نبينا ﷺ؛ لأنَّه ما من فضيلةٍ في أحدٍ من الأنبياء عليهم السلام إلا وقد أوتيَ عليه الصلاة والسلام مثلها بالفعل، أو تمكَّن منها فلم يختر إظهارَها.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٠. وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩. وهي قراءة خلف من العشرة.

(٢) في الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٩: اضمم بكراً.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٨١.

أو على الأنبياء مطلقاً، وقد يكون في المفضول ما ليس في غيره، وقد انفردَ عليه السلام بما ذُكر هاهنا.

وقيل: أو على سائر الناس، فيندرجُ فيه النبوَّة والكتاب والملك والصوتُ الحسن.

وتُعقِّبَ بأنَّه إن أريد أنَّ كلّاً منها فضلٌ لا يوجد في سائر الناس، فعدمُ مِثْلِ ملكِه وصوته محلُّ شبهةٍ، وإن أريد المجموع من حيث هو، ففيه أنَّه غيرُ موجودٍ في الأنبياء أيضاً، فلا وجهَ لتخصيصه بهذا الوجه.

وأنا أرى الفضلَ لتفسير الفضل بالإحسان. وتنكيرُه للتفخيم، و«منَّا» أي: بلا واسطةٍ، لتأكيد فخامته الذاتيَّة بفخامته الإضافيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وتقديمه على المفعول الصريح؛ للاهتمام بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر؛ ليتمكَّن في النفس عند وروده فضلَ تمكُّن.

وذكر شؤون داود وسليمان عليهما السلام هنا لمناسبة ذكر المنيب في قوله تعالى: (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) كما أشرنا إليه.

وقال أبو حيَّان: مناسبةُ قصَّتيهما عليهما السلام لما قبلها هي أنَّ أولئك الكفَّار أَنكروا البعثَ لاستحالته في زعمهم، فأُخبروا بوقوع ما هو مستحيلٌ في العادة ممَّا لا يمكنهم إنكارُه، إذ طفحَت ببعضه أخبارهم وأشعارهم[١].

وقيل: ذكر سبحانه نعمتَه عليهما احتجاجاً على ما منحَ نبيَّنا ﷺ، كأنَّه قيل: لا تستبعدوا هذا، فقد تفضَّلنا على عبيدنا قديماً بكذا وكذا، فلمَّا فرغَ التمثيلُ له عليه الصلاة والسلام رجعَ التمثيلُ لهم بسبأ وما كان من هلاكهم بالكفر والعتوّ.

﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: سبِّحي معه، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد، وأخرجه ابنُ جرير عن أبي ميسرة، إلَّا أنه قال: معناه ذلك بلغة الحبشة[٢].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٢.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٢٢٠.

والظاهرُ أنَّه عربيٌّ من التأويب، والمراد: رَجِّعي معه التسبيح، ورِدِّديه.

وقال ابنُ عطية: إن أصلَ ماضيه: آب، وضُعِّفَ للمبالغة[١].

وتعقَّبه في «البحر» بقوله: ويظهر أنَّ التضعيفَ للتعدية؛ لأنَّ آبَ بمعنى رجع لازمٌ صلته اللام[٢]، فعُدِّيَ بالتضعيف، إذ شرحوه بقولهم: رجِّعي معه التسبيح[٣].

يُروى أنَّه عليه السلام كان إذا سَبَّح سبَّحت الجبالُ مثل تسبيحه بصوتٍ يُسمَع منها، ولا يعجزُ الله عزَّ وجلَّ أن يجعلَها بحيثُ تسبِّح بصوتٍ يُسمَع، وقد سبَّح الحصَى في كفِّ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وسُمِع تسبيحُه، وكذا في كفِّ أبي بكرٍ رضي الله عنه[٤]. ولا يبعدُ على هذا أن يقال: إنَّه تعالى خَلَق فيها الفهمَ أوَّلاً، فناداها كما يُنادَى أولو الفهم وأمَرَها.

وقال بعضهم: إنَّه سبحانه نَزَّلَ الجبالَ منزلةَ العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا؛ إشعاراً بأنَّه ما من حيوانٍ وجمادٍ إلَّا وهو منقادٌ لمشيئته تعالى، غيرُ ممتنعٍ على إرادته سبحانه، ودلالةً على عزَّة الربوبيَّة وكبرياء الألوهيَّة، حيث نادى الجبال وأمرَها.

وقيل: المراد بتأويبها حملُها إيَّاه على التسبيح إذا تأمَّل ما فيها. وفيه مع كونه خلاف المأثور أنَّ «معه» يأباه، وأيضاً لا اختصاص له عليه السلام بتأويب الجبال بهذا المعنى، حتى يُفَضَّل به، أو يكون معجزةً له.

وقيل: كان عليه السلام ينوحُ على ذَنْبِه بترجيعٍ وتحزين، وكانت الجبالُ تسعدُه بأصدائها. وفيه أنَّ الصدى ليس بصوتِ الجبالِ حقيقةً، وإنَّما هو من آثار

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧.

(٢) العبارة في البحر ٧/ ٢٦٢: وينظر أن التضعيف للتعدية، وليس للمبالغة؛ إذ اصله آبَ، وهو لازم بمعنى رجع اللازم...، ففي عبارة المصنف تحريف، ومما يدل على ذلك أن آب بمعنى رجع يتعدى بـ «إلى» وليس باللام. ينظر غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ١٢١، واللسان والتاج (أوب)، ومعجم الأفعال المتعدية بحرف ص١١.

(٣) سلف ٢/ ٢٥٤.

صوتِ المتكلِّم على ما قام عليه البرهان، والله تعالى نادى الجبال، وأمرها أن تُؤَوِّبَ معه، وأيضاً أيُّ اختصاصٍ له عليه السلام بذلك، ولصوت كلِّ أحدٍ صدًى عند الجبال؟

وعن الحسن أنَّ معنى «أوِّبي معه»: سيري معه أينَ سار. والتأويب سيرُ النهار، كأنَّ الإنسان يسيرُ الليل، ثم يُرَجِّعُ السيرَ بالنهار، أي: يردِّده. ومن ذلك قول تميم بن مقبل:

لحقنا بحيٍّ أوَّبوا السيرَ بعدما دَفعنا شعاعَ الشمسِ والطَّرفُ يجنحُ[1]

وقول آخر:

يومان يومُ مقاماتٍ وأنديةٍ ويومُ سيرٍ إلى الأعداء تأويبِ[2]

وأورد عليه أنَّ الجبالَ أوتادُ الأرض، ولم ينقل سيرُها مع داود عليه السلام أو غيره.

وقيل: المعنى: تصرَّفي معه على ما يتصرَّف فيه، فكانت إذا سبَّح سبَّحت، وإذا ناح ناحت، وإذا قرأ الزبور قرأت.

وتُعقِّبَ بأنَّه لم يعرف التأويبُ بمعنى التصرُّف في لغة العرب.

وقيل: المعنى: ارجعي إلى مراده فيما يريد؛ من حفرٍ، واستنباطِ أعينٍ، واستخراج معدن، ووضع طريق.

والجملةُ معمولةٌ لقولٍ مضمرٍ، أي: قولنا: يا جبال، على أنَّه بدل من «فضلاً» بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو بدلَ اشتمال، أو: قلنا: يا جبال، على أنَّه بدلٌ من «آتينا». وجُوِّزَ كونُه بدلاً من «فضلاً» بناءً على أنَّه يجوز إبدال الجملة من المفرد، وجَوَّزَ

(١) هو في ذيل ديوان تميم بن أُبيّ بن مقبل رقم (١٤)، وغريب القرآن لابن قتيبة ص٣٥٣.
(٢) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٩٤ والمفضليات ص١٢٠، وخزانة الأدب ٤/ ٢٧. قال البغدادي: المقامة بالفتح: المجلس، وروى أبو عمرو بالضم بمعنى الإقامة. والأندية: الأفنية، والندي والنادي: المجلس... وتأويب: صفة سير، وهو السرعة في السير والإمعان فيه.

أبو حيان الاستئناف[١]، وليس بذاك.

وقرأ ابنُ عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق: «أُوْبِي» بضمِّ الهمزة وسكون الواو[٢]، أمرٌ من الأَوْب، وهو الرجوع، وفرَّق بينهما الراغبُ بأنَّ الأَوْبَ لا يُقال إلَّا في الحيوان الذي له إرادة، والرجوع يقال فيه وفي غيره[٣].

والمعنى على هذه القراءة عند الجمهور: ارجعي معه في التسبيح، وأمرُ الجبال كأمر الواحدة المؤنثة؛ لأنَّ جمع ما لا يعقل يجوزُ فيه ذلك، ومنه: يا خيل الله اركبي، وكذا: ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨] وقد جاء ذلك في جمع من يعقل من المؤنَّث، قال الشاعر:

تركنا الخيلَ والنعمَ المفدَّى ... وقلنا للنساء بها أقيمي[٤]

لكن هذا قليل.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ بالنصب، وهو عند أبي عمرو بن العلاء بإضمار فعلٍ تقديره: وسخَّرنا له الطير، وحكى أبو عبيدة عنه أنَّ ذاك بالعطف على «فضلاً»[٥]، ولا حاجةَ إلى الإضمار؛ لأنَّ إيتاءها إيَّاه عليه السلام تسخيرُها له. وذكر الطيبيُّ أنَّ ذلك كقوله:

علفتُها تبناً وماءً باردا[٦]

وقال الكسائيُّ بالعطف أيضاً، إلَّا أنَّه قدَّر مضافاً، أي: وتسبيح الطير. ولا يُحتاج إليه.

وقال سيبويه: «الطير» معطوفٌ على محلِّ «جبال»[٧] نحو قوله:

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٢.
(٢) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٣.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (أوب).
(٤) البيت لم يعرف قائله، وسلف ١٤/ ١٨٣.
(٥) مجاز القرآن ٢/ ١٤٣.
(٦) عجز بيت لا يعرف قائله، وسلف ٣/ ٣٦٠ و٥/ ٢٩١.
(٧) كذا قال، وسيبويه في الكتاب قد نقل هذا عن الخليل، ثم نقل عنه اختيار الرفع في مثل هذه المسألة. ينظر الكتاب ٢/ ١٨٦-١٨٧، والبحر ٧/ ٢٦٣.

ألا يـا زيـدُ والـضـحـاكَ سِـيـرًا[1]

بنصب الضَّحاك، ومنعه بعضُ النحويين؛ للزوم دخول «يا» على المنادى المعرَّف بـ «أل»، والمجيزُ يقول: رُبَّ شيءٍ يجوز تبعاً ولا يجوز استقلالاً.

وقال الزَّجَّاج: هو منصوبٌ على أنَّه مفعول معه[2].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّه لا يجوز؛ لأن قبله «معه»، ولا يقتضي [الفعل] اثنين من المفعول معه إلَّا على البدل أو العطف، فكما لا يجوز: جاء زيدٌ مع عمرو مع زينب، إلَّا بالعطف، كذلك هذا[3].

وقال الخفاجيُّ: لا يأباه «معه» سواءٌ تعلَّق بـ «أوِّبي» على أنَّه ظرفٌ لغوٌ، أو جُعِل حالاً؛ لأنهما معمولان متغايران، إذ الظرفُ والحال غيرُ المفعول معه، وكلٌّ منها بابٌ على حدة، وإنَّما الموهم لذلك لفظ المعيَّة، فما اعترض به أبو حيَّان غيرُ متوجِّه وإنْ ظُنَّ كذلك، وأقبحُ من الذنب الاعتذارُ؛ حيث أُجيبَ بأنَّه يجوزُ أن يُقال: حُذفت واوُ العطف من قوله تعالى: «والطير» استثقالاً لاجتماع الواوين، أو اعتبر تعلُّق الثاني بعد تعلُّق الأوَّل[4].

وقرأ السلميُّ وابنُ هرمز وأبو يحيى وأبو نوفل ويعقوب وابنُ أبي عبلة وجماعةٌ من أهل المدينة وعاصم في رواية: «والطيرُ» بالرفع[5]، وخُرِّجَ على أنَّه معطوفٌ

---

(١) أورده أبو بكر ابن الأنباريُّ في الأضداد ص٥٣، وابن فارس في مقاييس اللغة ٢/ ٢١٦، والهروي في الأزهية ص١٦٥، وابن السيد البطليوسي في الحلل ص١٩٦، وابن يعيش في شرح المفصل ١/ ١٢٩ دون نسبة. قال ابن يعيش: يروى برفع الضحاك ونصبه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٣.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٦٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ١٩٣.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٦٣، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١ عن الأعرج وعبد الوارث عن أبي عمرو. وذكر القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٦٢ أنها قراءة ابن أبي إسحاق، ونصر عن عاصم، وابن هرمز ومسلمة بن عبد الملك.

=

على «جبال» باعتبار لفظه، وحركتُه لعروضها تشبه حركة الإعراب، ويُغتفرُ في التابع ما لا يُغتفرُ في المتبوع.

وقيل: معطوف على الضمير المستتر في «أوِّبي»، وَسوَّغَ ذلك الفصلُ بالظرف.

وقيل: هو بتقدير: ولتؤوب الطيرُ، نظيرُ ما قيل في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]

وقيل: هو مرفوعٌ بالابتداء، والخبر محذوف، أي: والطير تؤوب.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾ وجعلناه في يده كالشمع والعجين يصرِّفه كما يشاء من غير نارٍ ولا ضربِ مطرقة، قاله السُّدِّيُّ وغيره.

وقيل: جعلناه بالنسبة إلى قوته التي آتيناها إيَّاه ليِّناً كالشمع بالنسبة إلى قوى سائر البشر.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾«أن» مصدريَّة، وهي على إسقاط حرف الجرِّ، أي: ألنَّا له الحديد لعمل سابغات، أو: وأمرناه بعمل سابغاتٍ. والأوَّل أولى.

وأجاز الحوفيُّ وغيرُه أن تكون مفسِّرةً، ولمَّا كان شرطُ المفسِّرة أن يتقدَّمها معنى القول دون حروفه، و«ألنَّا» ليس فيه ذلك، قَدَّر بعضهم قبلها فعلاً محذوفاً فيه معنى القول؛ ليصحَّ كونها مفسِّرةً، أي: وأمرناه أن اعمل، أي: أي اعمل.

وأورد عليه أنَّ حذف المفسَّر لم يعهد.

والسابغات: الدروع، وأصله صفةٌ من السبوغ، وهو التمام والكمال، فغلب على الدروع كالأبطح، قال الشاعر:

= قال ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٤٩: انفرد ابن مهران عن هبة الله بن جعفر عن أصحابه عن روح [راوية يعقوب] برفع الراء من «والطير»، وهي رواية زيد عن يعقوب، ووردت عن عاصم وأبي عمرو. اهـ.

وقراءة عاصم وأبي عمرو المشهورة عنهما بالنصب كقراءة الجمهور.

لا سابغاتٍ ولا جأواءَ باسلةً ‏ تقي المنونَ لَدَى استيفاءِ آجالِ[(١)]

ويقال: سوابغ أيضاً، كما في قوله:

عليها أسودٌ ضارياتٌ لَبوسُهم ‏ سوابغُ بيضٌ لا تُخَرِّقُها النَّبلُ[(٢)]

فلا حاجةَ إلى تقدير موصوف، أي: دروعاً سابغات.

ولا يَرِدُ هذا نقضاً على ما قيل: إنَّ الصفة ما لم تكن مختصَّةً بالموصوف، كحائض، لا يحذفُ موصوفها.

وقرئ: «صابغات» بإبدال السين صاداً لأجل الغين[(٣)].

﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ السرد[(٤)] في الأصل ـ كما قال الراغب ـ: خَرْزُ ما يخشن ويغلظُ، قال الشماخ:

فظلَّت سراعاً خيلُنا في بيوتكم ‏ كما تابعتْ سردَ العِنان الخوارزُ

واستعير لنظم الحديد[(٥)].

وفي «البحر»: هو إتباعُ الشيء بالشيء من جنسه، ويقال للدرع: مسرودة؛ لأنَّه توبع فيها الحَلَق بالحَلَق، قال الشاعر:

وعليهما مسرودتانِ قضاهُما ‏ داودُ أو صَنَعُ السوابغِ تُبَّعُ

ولصانعها: سَرَّاد، وزرَّاد بإبدال السين زاياً[(٦)].

---

(١) هو في شرح قطر الندى لابن هشام ص٢٨١ بتحقيق محيي الدين عبد الحميد، وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان ٢/ ٨ دون نسبة. وجأواء: الجيش العظيم.

(٢) هو لزهير بن أبي سلمى كما في ديوانه ص١٠٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٨٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٣، وحاشية الشهاب ٧/ ١٩٣.

(٤) بعدها في (م): نسج.

(٥) مفردات الراغب (سرد) دون ذكر البيت، وهو في ديوان الشماخ ص١٩٤، وصدره فيه:

شككن بأحساء الذِّناب على هُدًى

وذكره بمثل رواية المصنف القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٦٥، لكن فيه: تباعاً. بدل: سراعاً.

(٦) البحر ٧/ ٢٥٥، والبيت سلف ٧/ ١٦٩.

وفسَّره هنا غيرُ واحدٍ بالنسج، وقال: المعنى: اقتصد في نسج الدروع بحيثُ تتناسبُ حلقها. وابنُ عباس ـ فيما أخرجه عنه ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرقٍ ـ بالحلق[1]، أي: اجعل حلقها على مقادير متناسبة.

وقال ابن زيد: لا تعملها صغيرةً فتضعف، فلا يقوى الدرع على الدفاع، ولا كبيرةً فيُنال صاحبُها من خلالها.

وجاء في روايةٍ أخرى عن ابن عباس تفسيرُها بالمسامير، وروي ذلك عن قتادة ومجاهد، أي: قَدِّر مساميرَها فلا تعملها دقاقاً ولا غلاظاً، أي: اجعلها على مقدارٍ معيَّنٍ دقَّةً وغيرها، مناسبة للثقب الذي هيِّئ لها في الحلقة، فإنَّها إن كانت دقيقةً اضطربت فيها فلم تمسك طرفيها، وإن كانت غليظةً خرقت طرف الحلقة الموضوعة فيه، فلا تمسك أيضاً.

ويبعِدُ هذا أنَّ إلانةَ الحديد له عليه السلام بحيث كان كالشمع والعجين يغني عن التسمير، فإنَّه بعد جمع الحَلَق وإدخال بعضِه في بعض يزال انفصال طرفي كلِّ حلقةٍ بمزج الطرفين، كما يمزج طرفَا حلقة من شمع أو عجين، والإحكامُ بذلك أتمُّ من الإحكام بالتسمير، بل لا يبقى معه حاجةٌ إلى التسمير أصلاً، فلعلَّه إنْ صحَّ مبنيٌّ على أنَّه عليه السلام كان يعملُ الحَلَقَ من غير مزجٍ لطرفي كلٍّ، فيسمِّر للإحكام بعد إدخال بعضه في بعض، ويظهر ذلك على التفسير الثاني لقوله تعالى: «ألنَّا له الحديد»، إذ غايةُ القوَّة كسرُ الحديد كما يريد من غير آلةٍ، دون وصل بعضه ببعض، ولا يعارضُ ذلك ما نُقِل عن البقاعيِّ أنَّه قال: أخبرنا بعضُ من رأى ما نسب إلى داود عليه السلام من الدروع أنَّه بغير مسامير[2]، فإنَّه نقلٌ عن مجهولٍ، فلا يلتفتُ لمثلِه.

وقيل: معنى «قدِّر في السَّرْد»: لا تصرفْ جميعَ أوقاتك فيه، بل مقدار ما يحصل به القوت، وأمَّا الباقي فاصرفه إلى العبادة؛ قيل: وهو الأنسب بالأمر الآتي.

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٧، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٤.
(٢) نظم الدرر ١٥/ ٤٥٩.

وحكي أنَّه عليه السلام أوَّل من صنعَ الدرع حَلَقاً، وكانت قبلُ صفائح، وروي ذلك عن قتادة.

وعن مقاتل أنَّه عليه السلام حين ملك على بني إسرائيل يخرجُ متنكِّراً فيسألُ الناس عن حالِه، فعرضَ له مَلَكٌ في صورة إنسانٍ، فسأله، فقال: نِعْمَ العبدُ لولا خَلَّةٌ فيه، فقال: وما هي؟ قال: يُرزق من بيت المال، ولو أكلَ من عمل يده تمَّتْ فضائله، فدعا الله تعالى أن يعلِّمَه صنعةً، ويسهِّلها عليه، فعلَّمه صنعةَ الدروع، وألانَ له الحديد، فأثرى، وكان ينفقُ ثلثَ المال في مصالح المسلمين، وكان يَفرُغُ من الدرع في بعض يومٍ، أو في بعض ليل، وثمنها ألف درهم.

وأخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» وابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: كان داود عليه السلام يرفعُ في كلِّ يومٍ درعاً، فيبيعها بستَّة آلاف درهم؛ ألفان له ولأهله، وأربعة آلاف يطعمُ بها بني إسرائيل الخبز الحُوَّارَى[1].

وقيل: كان يبيعُ الدرع بأربعة آلاف، فينفقُ منها على نفسه وعياله، ويتصدَّق على الفقراء.

وفي «مجمع البيان» عن الصادق رضي الله عنه أنَّه عمل ثلاث مئة وستين درعاً فباعها بثلاث مئة وستين ألف درهم، فاستغنى عن بيت المال[2].

﴿وَٱعۡمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ خطابٌ لداود وآله عليهم السلام، وهم وإنْ لم يَجْرِ لهم ذكرٌ، يفهمون ـ على ما قال الخفاجيُّ ـ التزاماً من ذكره[3]. وجُوِّزَ أنْ يكون خطاباً له عليه السلام خاصَّةً على سبيل التعظيم.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٧، وهو في نوادر الأصول ١/ ١١٢، والحُوَّارى بالضم وتشديد الواو وراءٍ مفتوحة: ما حوِّر من الطعام، أي: بيض. والخبز الحوَّارى للذي نخل مرة بعد مرة. الصحاح والنهاية (حور).

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ١٨٩.

(٣) حاشية الخفاجي ٧/ ١٩٣-١٩٤.

وأيّاً ما كان، فالظاهرُ أنه أمرٌ بالعمل الصالح مطلقاً، وليس هو على الوجه الثاني أمراً بعمل الدروع خاليةً من عيب.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ فأجازيكم به، وهو تعليلٌ للأمر، أو لوجوب الامتثال به على وجه الترغيب والترهيب.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أي: وسخَّرنا له الريح، وقيل: «لسليمان» عطف على «له» في «ألنَّا له الحديد»، و«الريح» عطف على «الحديد»، وإلانةُ الريح عبارةٌ عن تسخيرها.

وقرأ أبو بكر: «الرِّيْحُ» بالرفع[1] على أنَّه مبتدأ، و«لسليمان» خبرُه، والكلام على تقدير مضاف، أي: ولسليمان تسخيرُ الريح. وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّه مبتدأ، ومتعلَّق الجارِّ كونٌ خاصٌّ، هو الخبر، وليس هناك مضافٌ مقدَّر، أي: ولسليمان الريحُ مسخَّرةٌ.

وعندي أنَّ الجملةَ على القراءتين معطوفةٌ على قوله تعالى: «ولقد آتينا داودَ منَّا فضلاً» إلخ عطف القصَّة على القصَّة.

وقال ابنُ الشيخ: العطفُ على القراءة الأولى على «ألنَّا له الحديد»، وكلتا الجملتين فعليَّةٌ، وعلى القراءة الثانية العطفُ على اسميَّة مقدَّرة دلَّت عليها تلك الجملة الفعليَّة، لا عليها؛ للتخالف، فكأنَّه قيل: ما ذكرنا لداود، ولسليمان الريح؛ فإنَّها كانت له كالمملوك المختصِّ بالمالك، يأمرُها بما يريد، ويسيرُ عليها حيثما يشاء. ثم قال: وإنَّما لم يقل: ومع سليمان الريح؛ لأنَّ حركتها ليست بحركة سليمان، بل هي تتحرك بنفسها، وتحركُ سليمان وجنوده بحركتها، وتسيرُ بهم حيث شاء، وهذا على خلاف تأويب الجبال، فإنَّه كان تبعاً لتأويب داود عليه السلام، فلذا جيء هناك بـ «معه».

وقرأ الحسنُ وأبو حيوة وخالد بن إلياس: «الرياحُ» بالرفع جمعاً[2].

---

(١) التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/٣٤٩.

(٢) البحر المحيط ٧/٢٦٤، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١ عن أبي حيوة فقط.

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: جريُها بالغداة مسيرة شهر، وجريُها بالعشيِّ كذلك، والجملة إمَّا مستأنفةٌ، أو حالٌ من «الريح»، ولا بدَّ من تقدير مضاف في الخبر؛ لأنَّ الغدوَّ والرواحَ ليسا[1] نفس الشهر، وإنَّما يكونان فيه، ولا حاجةَ إلى تقديرٍ في المبتدأ كما فعل مكِّيٌّ، حيث قال: أي: مسير غدوِّها مسيرة شهر، ومسير رواحها كذلك[2]؛ لما لا يخفى.

وقال ابنُ الحاجب في «أماليه»: الفائدةُ في إعادة لفظ الشهر الإعلامُ بمقدار زمن الغدوِّ وزمن الرواح، والألفاظ التي تأتي مبيِّنةً للمقادير لا يحسنُ فيها الإضمار، ألا ترى أنَّك تقول: زنةُ هذا مثقال، وزنةُ هذا مثقال، فلا يحسن الإضمار، كما لا يحسنُ في التمييز، وأيضاً فإنَّه لو أضمر، فالضمير إنَّما يكونُ لما تقدَّم باعتبار خصوصيَّته، فإذا لم يكن له بذلك الاعتبار وجب العدول إلى الظاهر، ألا ترى أنَّك إذا أكرمتَ رجلاً وكسوتَ ذلك الرجل بخصوصه لكانت العبارة: أكرمتُ رجلاً وكسوتُه، ولو أكرمتَ رجلاً وكسوتَ رجلاً آخر لكانت العبارة: أكرمتُ رجلاً وكسوتُ رجلاً، فتبيَّن أنَّه ليس من وضع الظاهر موضع الضمير[3]، كذا في «حواشي الطيبي» عليه الرحمة.

ولا يخفى أنَّ ما ذكره مبنيٌّ على ما هو الغالب، وإلَّا فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر: ١١]، ولم يقتصر على الإعلام بزمن الغدوِّ ليقاس عليه زمن الرواح؛ لأنَّ الريح كثيراً ما تسكنُ أو تضعفُ حركتُها بالعشيِّ، فدُفِعَ بالتنصيص على بيان زمن الرواح توهُّمُ اختلاف الزمانين.

قال قتادة: كانت الريح تقطعُ به عليه السلام في الغدوِّ إلى الزوال مسيرةَ شهرٍ، وفي الرواح من بعد الزوال إلى الغروب مسيرة شهر.

وأخرجَ أحمد في «الزهد» عن الحسن أنَّه قال في الآية: كان سليمانُ عليه

(١) في (م): ليس.
(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٤.
(٣) أمالي ابن الحاجب ١/ ٢٧٢.

السلام يغدو من بيت المقدس، فيَقيلُ بإصطخر، ثم يروحُ من إصطخر، فيَقيلُ بقلعة خراسان[١].

وقد ذُكر حديثُ هذه الريح في بعض الأشعار القديمة، قال وهب ـ ونقلَه عنه في «البحر»ـ: وجدتُ أبياتاً منقورةً في صخرةٍ بأرض كَسْكَر[٢] لبعضِ أصحاب سليمان عليه السلام وهي:

ونحن ولا حولٌ سوى حول ربِّنا نروحُ من الأوطان من أرضِ تدمرِ
إذا نحنُ رحنَا كان ريثُ رواحِنا مسيرةَ شهرٍ والغدوُّ لآخرِ
أناسٌ شَرَوا لله طَوعاً نفوسَهم بنصرِ ابن داودَ النبيِّ المطهَّرِ
لهم في معالي الدين فضلٌ ورفعةٌ وإن نُسِبوا يوماً فمن خير معشرِ
متى تُركبُ الريحُ المطيعةُ أسرعت مبادرةً عن شهرها لم تُقَصِّرِ
تظلُّهم طيرٌ صفوفٌ عليهم متى رَفرفتْ من فوقهم لم تُنَفَّرِ[٣]

وذكر أيضاً ﷺ أنَّه عليه السلام كان مستقرُّه تدمر، وأنَّ الجنَّ قد بنتها له بالصُّفَّاح[٤] والعمد والرخام الأبيض والأشقر، وقال: وفيه يقول النابغة:

إلَّا سليمانَ إذ قال الإلهُ له قم في البريَّة فاصددها[٥] عن الفَنَدِ
وجيِّشِ الجنَّ إنِّي قد أذنتُ لهم يبنونَ تدمرَ بالصُّفَّاح والعَمَدِ[٦]

انتهى.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٧. وإصطخر: مدينة بفارس. معجم البلدان ١/ ٢١١.
(٢) في مطبوع البحر المحيط ٧/ ٢٦٤: يشكر. وكسكر مكان بالعراق. انظر معجم البلدان ٤/ ٤٦١.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٦٤. وفي مطبوعه اختلاف يسير في الأبيات.
(٤) الصُّفَّاح بالضم والتشديد: الحجر العريض. الصحاح (صفح).
(٥) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر المحيط، ووقع في ديوان النابغة، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٧، وخزانة الأدب ٣/ ٤٠٥: فاحددها. وكذا وقع في تفسير الآلوسي أيضاً ١٢/ ٤٨٩، وذكر ثمة البيت الأول.
(٦) ديوان النابغة ص٣٣. وفيه وفي تفسير الثعلبي ٨/ ٧٤، والقرطبي ١٧/ ٢٦٧: وخيِّس. بدل: وجيِّش. ومعنى خيِّس: ذلل. القاموس (خيس). وقال عبد القادر البغدادي في

وما ذكره في تدمر هو المشهور عند العامة، وقد ذَكر ذلك الثعالبيُّ في «تفسيره» مع الأبيات المذكورة[١]، لكن في «القاموس»: تَدْمُر، كتَنْصُر: بنتُ حسان بن أُذَيْنَة، بها سمِّيت مدينتها[٢]. وهو ظاهرٌ في المخالفة، ولعلَّ التعويل على ما فيه إنْ لم يمكن الجمعُ، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وقرأ ابن أبي عبلة: «غَدوتها»، و«رَوحتها» على وزن فَعْلَة[٣]، وهي المرَّة الواحدة من غدا وراح.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: النحاس الذائب، من قَطر يقطُر قطراً وقَطراناً بسكون الطاء وفتحها[٤]. وقيل: الفِلِزَّات؛ النحاس والحديد وغيرهما. وعلى الأول جمهور اللغويين.

وأريد بـ «عين القِطر» مَعْدِنُ النحاس، ولكنَّه سبحانه أساله كما ألانَ الحديدَ لداود، فنبع كما ينبعُ الماءُ من العين، فلذلك سُمِّيَ عينَ القطر باسم ما آل إليه.

وذكر الجلبيُّ أنَّ نسبةَ الإسالة إلى العين مَجازيَّةٌ، كما في: جرى النهر.

وقال الخفاجيُّ[٥]: إن كانت العينُ هنا بمعنى الماء المَعين، أي: الجاري، وإضافتُها كما في لجين الماء، فلا تَجوُّزَ في النسبة، وإنَّما هو من مجازِ الأَوْل، على أن العينَ منبع الماء، ولا حاجة إليه. اهـ. فتأمَّل.

وقال بعضهم: القِطْر: النحاس، و«عين» بمعنى ذات، ومعنى «أسلنا»: أذبنا، فالمعنى: أذبنا له النحاس على نحو ما كان الحديد يلينُ لداودَ عليه السلام، فكانت الأعمالُ تتأتَّى منه وهو باردٌ دون نار، ولم يَلِنْ ولا ذَابَ لأحدٍ قبلَه.

= الخزانة ٣/ ٤٠٥: الفَنَد بفتح الفاء والنون: خطأ الرأي والصنيع، وقال ابن الأعرابي: الفند: الظلم. اهـ.

(١) تفسير أبي إسحاق الثعلبي ٨/ ٧٤.

(٢) القاموس (تدمر).

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٦٤.

(٤) وأما القطران المعروف فبكسرها. حاشية الشهاب ٧/ ١٩٤.

(٥) في حاشيته ٧/ ١٩٤.

والظاهر المؤيَّدُ بالآثار أنَّه تعالى جعلَه في مَعْدِنه عيناً تسيلُ كعيون الماء؛ أخرج ابن المنذر عن عكرمة أنَّه قال في الآية: أَسَالَ اللهُ تعالى له القطرَ ثلاثة أيَّامٍ، يسيلُ كما يسيل الماء، قيل: إلى أين؟ قال: لا أدري.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ قال: سُيِّلَتْ له عينٌ من نحاسٍ ثلاثةَ أيام[1].

وفي «البحر» عن ابن عباس والسُّدِّيِّ ومجاهد قالوا: أُجريت له عليه السلام ثلاثةَ أيامٍ بلياليهنَّ، وكانت بأرض اليمن. وفي روايةٍ عن مجاهد أنَّ النَّحاسَ سالَ من صنعاء[2]. وقيل: كان يسيلُ في الشهر ثلاثة أيام.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ الجارُّ والمجرور متعلِّقاً بمحذوفٍ هو خبرٌ مقدَّم، و«مَنْ» في محلِّ رفع مبتدأ، ويحتملُ أن يكون متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً مقدَّماً من «مَنْ»، وهي في محلِّ نصبٍ، عطف على «الريح».

وجُوِّز أن يكون «من الجن» عطفاً على «الريح»، على أنَّ «مِنْ» للتبعيض، و«من يعمل» بدلٌ منه. وهو تكلُّف.

و«يعمل» إمَّا منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أو مفعوله مقدَّرٌ يفسِّره ما سيأتي إن شاء الله تعالى؛ ليكون تفصيلاً بعد الإجمال، وهو أوقعُ في النفس.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره عزَّ وجلَّ ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومن يعدل منهم عمَّا أمرناه به من طاعة سليمان عليه السلام.

وقرئ: «يُزِغ» بضمِّ الياء من أزاغ مبنيّاً للفاعل[3]، ومفعوله محذوف، أي: من يُمل ويصرف نفسَه أو غيره. وقيل: مبنيّاً للمفعول فلا يحتاج إلى تقدير مفعول[4].

---

(١) الأثران في الدر المنثور ٥/ ٢٢٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٦٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٥.

(٤) ينظر حاشية الشهاب ٧/ ١٩٤.

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢﴾ أي: عذاب النار في الآخرة، كما قال أكثر المفسِّرين، وروي ذلك عن ابن عباس.

وقال بعضهم: المراد تعذيبه في الدنيا، ورُوي عن السُّدِّيِّ أنَّه عليه السلام كان معه مَلَكٌ بيده سَوطٌ من نار، كلَّما استعصَى عليه جنيٌّ ضربهَ من حيث لا يراه الجنيُّ. وفي بعض الروايات أنَّه كان يَحْرِقُ من يخالفُه.

واحتراقُ الجنِّيِّ مع أنَّه مخلوقٌ من النار غيرُ منكرٍ، فإنَّه عندنا ليس ناراً محضةً، وإنَّما النارُ أغلب العناصر فيه.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ﴾ جمع: محراب، وهو ـ كما قال عطية ـ القصر، وسمي باسم صاحبه؛ لأنه يحارب غيره في حمايته، فإنَّ المحراب في الأصل من صيغ المبالغة اسمٌ لمن يكثر الحرب، وليس منقولاً من اسم الآلة، وإن جَوَّزهُ بعضهم، ولابن حَيُّوس[١]:

جمعَ الشجاعةَ والخشوعَ لربِّه ما أحسنَ المحراب في محرابه[٢]

ويطلق على المكان المعروف الذي يقفُ بحذائه الإمام، وهو مما أُحدِث في المساجد، ولم يكن في الصدر الأوَّل، كما قال السيوطيُّ، وألَّف في ذلك رسالةً[٣]، ولذا كَرِهَ الفقهاءُ الوقوفَ في داخله.

وقال ابن زيد: المحاريب: المساكن.

وقيل: ما يصعدُ إليه بالدرج، كالغرف.

وقال مجاهد: هي المساجد، سمِّيت باسم بعضها تجوُّزاً على ما قيل. وهو مبنيٌّ على أنَّ المحراب اسمٌ لحجرةٍ في المسجد يُعبَدُ الله تعالى فيها، أو لموقف الإمام.

---

(١) هو شاعر الشام، أبو الفتيان، محمد بن سلطان بن محمد بن حَيُّوس، الغنوي صاحب الديوان. مات بحلب سنة ثلاث وسبعين وأربع مئة. سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١٣.
(٢) البيت في ديوانه ١/ ٩٩، وسلف ٤/ ١٤٧، وفيه: المحراب. بدل: محرابه.
(٣) سماها: إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب. وقد طبعت أكثر من مرة.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة تفسيرَها بالقصور والمساجد معاً[١].

وجملة «يعملون له ما يشاء» استئنافٌ لتفصيل ما ذُكر من عملهم، وجُوِّزَ كونُها حالاً. وهو كما ترى.

﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ قال الضَّحَّاك: كانت صورَ حيوانات. وقال الزمخشريُّ: صور الملائكة والأنبياء والصلحاء، كانت تُعمَل في المساجد من نحاس وصُفْر وزجاج ورخام؛ ليراها الناس، فيعبدوا نحو عبادتهم[٢]، وكان اتخاذُ الصُّور في ذلك الشرع جائزاً، كما قال الضحَّاك وأبو العالية.

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: اتَّخذ سليمانُ عليه السلام تماثيلَ من نحاس، فقال: يا ربِّ انفخ فيها الروح، فإنَّها أقوى على الخدمة. فنفخ[٣] الله تعالى فيها الروح، فكانت تخدمُه، وإسفنديار من بقاياهم[٤].

وهذا من العجب العجاب، ولا ينبغي اعتقادُ صحَّته، وما هو إلَّا حديثُ خرافة.

وأمَّا ما روي من أنَّهم عملوا له عليه السلام أسدين في أسفل كرسيه، ونَسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعدَ بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعدَ أظلَّه النسران بأجنحتهما؛ فأمرٌ غيرُ مستبعدٍ، فإنَّ ذلك يكونُ بآلاتٍ تتحرَّك عند الصعود وعند القعود، فتحرِّكُ الذراعين والأجنحة. وقد انتهت صنائعُ البشر إلى مثل ذلك في الغرابة.

وقيل: التماثيلُ طِلَّسمات[٥]، فتعمل تمثالاً للتمساح أو للذباب أو للبعوض، فلا يتجاوزُه الممثَّل به ما دام في ذلك المكان، وقد اشتهر عملُ نحو ذلك عن

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٨٢.

(٣) في (م): فينفخ.

(٤) نوادر الأصول ص١١٢.

(٥) الطِّلَّسم: خطوط وأعداد يَزعُم كاتبها أنَّه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية؛ لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكلِّ ما هو غامضٌ مبهمٌ، كالألغاز والأحاجي. المعجم الوسيط (طلسم).

الفلاسفة، وهو مما لا يتمُّ عندهم إلَّا بواسطة بعض الأوضاع الفلكيَّة، وعلى الباب الشهيرة بباب الطلسم من أبواب بغداد تمثالُ حيَّةٍ يزعمونَ أنَّه لمنع الحيَّات عن الإيذاء داخلَ بغداد، ونحن قد شاهدنا مراراً أناساً لسعتهم الحيَّات، فمنهم من لم يتأذَّ، ومنهم من تأذَّى يسيراً، ولم نشاهد موت أحدٍ من ذلك، وقلَّما يسلمُ مَن لَسَعَتْهُ خارجَ بغداد، لكن لا نعتقدُ أنَّ لذلك التمثال مدخلاً فيما ذُكر، ونظنُّ أنَّ ذاك لضعف الصنف الموجود في بغداد من الحيَّات، وقلَّة شرِّه بالطبيعة.

وقيل: كانت التماثيل صور شجرٍ، أو حيوانات محذوفة الرؤوس ممَّا جُوِّزَ في شرعنا.

ولا يُحتاج إلى التزام ذلك إلَّا إذا صحَّ فيه نقلٌ، فإنَّ الحقَّ أنَّ حرمةَ تصوير الحيوان كاملاً لم تكن في ذلك الشرع، وإنَّما هي في شرعنا، ولا فرقَ عندنا بين أنْ تكونَ الصورةُ ذات ظلٍّ وأن لا تكون كذلك، كصورة الفرس المنقوشة على كاغد أو جدارٍ مثلاً.

وحكى مكِّيٌّ في «الهداية»[1] أنَّ قوماً أجازوا التصوير، وحكاه النَّحاسُ[2] أيضاً، وكذا ابنُ الفرس[3]، واحتجُّوا بهذه الآية.

وأنت تعلمُ أنَّه وَرد في شرعنا من تشديد الوعيد على المصوِّرين ما ورد، فلا يلتفتُ إلى هذا القول ولا يصحُّ الاحتجاجُ بالآية. وكأنَّه إنَّما حرمت التماثيل؛ لأنَّه بمرورِ الزمان اتخذها الجهلةُ ممَّا يعبدُ، وظنُّوا وضعَها في المعابد لذلك، فشاعت عبادةُ الأصنام، أو سدًّا لباب التشبُّه بمتَّخذي الأصنام بالكُلِّيَّة.

﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع: جَفْنَة، وهي ما يوضع فيها الطعام مطلقاً، كما ذكره غيرُ واحدٍ.

---

(١) هو الهداية إلى بلوغ النهاية، وهو في سبعين جزءاً في معاني القرآن وأنواع علومه. انظر كشف الظنون ٢/ ٢٠٤١.

(٢) في إعراب القرآن له ٣/ ٣٣٦.

(٣) في أحكام القرآن له ٣/ ٤٤٥.

وقال بعض اللغويين: الجفنة أعظمُ القِصاع، ويليها القَصْعة، وهي ما تُشبع العَشَرة، ويليها الصَّحْفَة، وهي ما تشبعُ الخمسة، ويليها المئكلة، وهي ما تشبع الاثنين والثلاثة، ويليها الصحيفة، وهي ما تشبع الواحد، وعليه فالمراد هنا المطلق؛ لظاهر قوله تعالى (كَٱلْجَوَابِ) أي: كالحياض العظام، جمع: جَابية، من الجباية، أي: الجمع، فهي في الأصل مجازٌ في الطرف أو النسبة؛ لأنَّها يُجبَى إليها، لا جابية، ثم غلبت على الإناء المخصوص غلبةَ الدابَّة في ذوات الأربع.

وجاء تشبيهُ الجفنة بالجابية في كلامهم، من ذلك قولُ الأعشى:

نَفَى الذمَّ عن آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ   كجابيةِ السَّيْحِ العراقيِّ تفهقُ[1]

وقول الأفوهِ الأوديِّ:

وقدورٍ كالرُّبى راسيةٍ   وجفانٍ كالجوابي مُتْرَعَهْ[2]

وذُكِر في سَعة جِفان سليمان عليه السلام أنَّها كان على الواحدة منها ألفُ رجل.

وقرئ: «كالجوابي» بياء[3]، وهو الأصل، وحَذْفُها للاجتزاء بالكسرة، وإجراءِ «أل» مجرى ما عاقبها، وهو التنوين، فكما يحذفُ مع التنوين يحذف مع ما عاقبه.

﴿وَقُدُورٍ﴾ جمع: قِدْر، وهو ما يُطْبَخ فيه من فخَّار أو غيره، وهو على شكلٍ مخصوص.

﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتاتٍ على الأثافي، لا تنزلُ عنها لعظمها، قاله قتادة. وقيل: كانت عظيمةً كالجبال.

---

(١) ديوان الأعشى ص٢٧٥. السَّيح: الماء الذي يسيح على وجه الأرض، أي: يجري. والجابية: الحوض الذي يجبى فيه الماء، أي: يجمع. أمالي القالي ٢/ ٢٩٦. وقال الحريري في درة الغوَّاص ص١٨٠: عنى بالجابية دجلة، وأراد أن جفنة آل المحلَّق تُمَدُّ بالطعام بعد الطعام، كما يُمَدُّ دجلة بالماء بعد الماء. ويقال: فهق الغدير، إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد.

(٢) البيت ليس في ديوان الأفوه. وهو في البحر المحيط ٧/ ٢٥٥، والدر المصون ٩/ ١٦٢، واللباب لابن عادل ١٦/ ٢٨.

(٣) أثبت الياء وصلاً ووقفاً من السبعة ابنُ كثير، وأثبتها في الوصل ورش - راوية نافع - وأبو عمرو. انظر التيسير ص١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.

وقُدِّمت المحاريبُ على التماثيل؛ لأنَّ الصورَ توضعُ في المحاريب، أو تنقشُ على جدرانها.

وقُدِّمت الجفانُ على القدور، مع أنَّ القدور آلةُ الطبخ، والجفان آلةُ الأكل، والطبخُ قبل الأكل؛ لأنَّه لمَّا ذكرت الأبنيةُ الملكيَّة ناسبَ أنْ يشارَ إلى عظمة السِّماط[1] الذي يمدُّ فيها، فذكرت الجفان أوَّلاً لأنَّها تكونُ فيها، بخلاف القدور فإنَّها لا تُحْضَرُ هناك كما ينبئ عنه قولُه تعالى: «راسيات» على ما سمعت أوَّلاً، وكأنَّه لما بيَّن حال الجفان اشتاق الذِّهنُ إلى حال القدور، فذكرت للمناسبة.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ بتقدير القول على الاستئناف أو الحاليَّة من فاعل سخرنا المقدَّر، و«آل» منادى حذف منه حرف النداء.

و«شكراً» نصب على أنَّه مفعولٌ له، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العملَ حقُّه أنْ يكونَ للشكر، لا للرجاء والخوف. أو على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لـ «اعملوا» لأنَّ الشكرَ نوعٌ من العمل، فهو كـ : قعدتُ القرفصاء، وقيل: لتضمين «اعملوا» معنى اشكروا. وقيل: لاشكروا، محذوفاً. أو على أنَّه حالٌ بتأويل اسم الفاعل، أي: اعملوا شاكرين؛ لأنَّ الشكر يعمُّ القلبَ والجوارح. أو على أنَّه صفةٌ لمصدرٍ محذوف، أي: اعملوا عملاً شكراً. أو على أنَّه مفعول به لـ «اعملوا»، فالكلام كقولك: عملت الطاعة. وقيل: إنَّ «اعملوا» أقيم مُقامَ اشكروا مشاكلةً لقوله سبحانه: «يعملون».

وقال ابنُ الحاجب[2]: إنَّه جُعِل مفعولاً به تجوُّزاً.

وأيًّا ما كان، فقد رَوى ابنُ أبي الدنيا، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود[3] قال: لمَّا قيل لهم: «اعملوا آل داود شكراً» لم يأت ساعةٌ على القوم إلَّا ومنهم قائمٌ يصلِّي.

---

(١) السماط: ما يمدُّ ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها. المعجم الوسيط (سمط).

(٢) في أماليه ١/ ٢٧٣.

(٣) كذا في الدر المنثور ٥/ ٢٢٩ وعنه نقل المصنف. والذي في الشكر لابن أبي الدنيا (٧٣)، وشعب الإيمان للبيهقي (٤٥٢٤): عن مسعر.

وفي رواية: كان مصلَّى آل داود لم يخلُ من قائمٍ يصلِّي ليلاً ونهاراً، وكانوا يتناوبونَه، وكان سليمانُ عليه السلام يأكلُ خبز الشعير، ويطعم أهله خشارته[١]، والمساكينَ الدرمكَ؛ وهو الدقيق الحُوَّارى، وما شبع قطُّ، وقيل له في ذلك، فقال: أخافُ إذا شبعتُ أنْ أنسى الجياع.

وجَوَّزَ بعض الأفاضل دخولَ داود عليه السلام في الآل هنا؛ لأنَّ آل الرجل قد يعمُّه. ويؤيِّده ما أخرجَه أحمد في «الزهد» وابنُ المنذر والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن المغيرة بن عتيبة[٢] قال: قال داود عليه السلام: يا ربِّ، هل باتَ أحدٌ من خلقِك أطول ذِكْراً منِّي، فأوحى الله تعالى إليه: الضفدع، وأنزل سبحانه عليه عليه السلام: «اعملوا آل داود شكراً» فقال داودُ عليه السلام: كيف أطيقُ شكرك، وأنتَ الذي تنعمُ عليَّ، ثم ترزقني على النعمة الشكر، فالنعمةُ منك، والشكرُ منك، فكيف أُطيق شكرك؟ فقال جلَّ وعلا: يا داود، الآن عرفتني حقَّ معرفتي.

وجاء في رواية ابن أبي حاتم عن الفضيل أنَّه عليه السلام قال: يا ربِّ، كيف أشكرك، والشكرُ نعمةٌ منك؟ قال سبحانه: الآن شكرتني حين علمتَ النعمَ منِّي[٣].

وكذا ما أخرجه الفريابيُّ وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قال داود لسليمان عليهما السلام: قد ذَكر الله تعالى الشكر، فاكفني قيامَ النهار أكفك قيام الليل. قال: لا أستطيع. قال: فاكفني صلاة النهار، فكفاه[٤].

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس: هو الذي يَشْكُرُ على أحواله كلِّها.

---

(١) في (م): خشادته. والخشارة من الشعير ما لا لبَّ له، وخشار المائدة ما يبقى عليها مما لا خير فيه. المعجم الوسيط (خشر).

(٢) في مطبوع الدر المنثور ٥/ ٢٢٩: عتبة، وفي مطبوع الزهد للإمام أحمد ص٨٨: عيينة، وفي مطبوع شعب الإيمان للبيهقي (٤٤١٣): عقبة. وانظر الجرح والتعديل ٨/ ٢٢٧، وتوضيح المشتبه ٦/ ١٧٠.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٢٩.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٢٨، وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠١.

وفي «الكشاف»: هو المتوفِّرُ على أداء الشكر، الباذلُ وسعه فيه، قد شغلَ به قلبه ولسانه وجوارحَه؛ اعترافاً واعتقاداً وكدحاً، وأكثر أوقاته[١].

وقال السُّدِّيُّ. هو من يشكرُ على الشكر.

وقيل: من يرى عجزَه عن الشكر؛ لأنَّ توفيقَه للشكر نعمةٌ يستدعي شكراً آخرَ لا إلى نهاية.

وقد نظم هذا بعضهم فقال:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجبُ الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلَّا بفضله ... وإن طالتِ الأيَّام واتَّسع العمرُ
إذا مسَّ بالنعماء عمَّ سرورُها ... وإنْ مسَّ بالضرَّاء أعقبها الأجر[٢]

وقد سمعتَ آنفاً ما روي عن داود عليه السلام.

وهذه الجملةُ يحتملُ أن تكون داخلةً في خطاب آل داود، وهو الظاهر، وأن تكونَ جملةً مستقلَّةً جيء بها إخباراً لنبينا ﷺ، وفيها تنبيهٌ وتحريضٌ على الشكر.

وقرأ حمزةُ: «عبادي» بسكون الياء، وفتَحها الباقون[٣].

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ قيل: أي: أَوْقَعْنا على سليمان الموتَ، حاكمين به عليه. وفي «مجمع البيان»: أي: حكمنا عليه بالموت[٤]. وقيل: أَوْجَبْناه عليه.

وفي «البحر»: أي: أنفذنا عليه ما قضينَا عليه في الأزل من الموت، وأخرجناه إلى حيِّز الوجود[٥]. وفيه تكلُّف.

وأيّاً ما كان، فليس المراد بالقضاء أخا القدر، فتدبَّر.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٣.
(٢) هي لمحمود الوراق كما في الفاضل في اللغة والأدب للمبرد ص٩٥، وبهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٣١٧.
(٣) التيسير ص١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.
(٤) مجمع البيان ٢٢/ ١٩٣.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٦٦.

و«لمّا» شَرطيَّة، ما بعدها شرطُها، وجوابها قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ واستدِلَّ بذلك على حرفيتها. وفيه نظر.

وضمير «دلَّهم» عائدٌ على الجنِّ الذين كانوا يعملون له عليه السلام. وقيل: عائدٌ على آل سليمان. ويأباه بحسب الظاهر قولُه تعالى بعد: «تبيَّنت الجنُّ».

والمراد بـ «دابّة الأرض» الأرَضَة، بفتحات، وهي دُوَيبَّة تأكلُ الخشب ونحوه، وتسمى: سُرْفة، بضمِّ السين وإسكان الراء المهملة وبالفاء.

وفي «حياة الحيوان» عن ابن السكِّيت: أنَّها دُوَيبَّةٌ سوداءُ الرأس، وسائرُها أحمر، تتَّخذ لنفسها بيتاً مربَّعاً من دقاق العيدان، تضمُّ بعضَها إلى بعض بلُعابها، ثم تدخل فيه وتموت[1]. وفي المثل: أصنع من سُرْفة[2].

وسمَّاها في «البحر»[3] بِسُوسة الخشب.

و«الأرض» ـ على ما ذهب إليه أبو حاتم وجماعة ـ مصدرُ أرَضَت الدابَّةُ الخشبَ تأرِضه: إذا أكلته، من باب ضرب يضربُ، فإضافةُ «دابَّة» إليه من إضافة الشيء إلى فعله. ويؤيِّدُ ذلك قراءةُ ابن عباس والعبّاس بن الفضل: «الأرَض» بفتح الراء[4]؛ لأنَّه مصدر أرِضَ من باب عَلِم المطاوع لأرَض من باب ضَرَبَ، يقال: أرَضت الدابَّة الخشبَ، بالفتح، فأرِض بالكسر، كما يقال: أكلت القوادحُ[5] الأسنان أكْلاً فأكِلت أكَلاً، فالأرْض بالسكون: الأكل، والأرَض بالفتح: التأثُّر من ذلك الفعل. وقد يفسَّرُ الأولُ بالتأثُّر الذي هو الحاصل بالمصدر؛ لتتوافق القراءتان.

وقيل: «الأرَض»، بالفتح: جمع: أرَضَة، وإضافة «دابَّة» إليه من إضافة العامِّ إلى الخاص.

---

(١) حياة الحيوان ٢/ ٢٠.
(٢) مجمع الأمثال ١/ ٤١١.
(٣) ٧/ ٢٦٦.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٦٦، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١ للواقدي.
(٥) جمع قادحة، وهي دودة تكون في الأسنان. حاشية الشهاب ٧/ ١٩٥.

وقيل: إنَّ «الأرْض» بالسكون بمعناها المعروف، وإضافة «دابَّة» إليها؛ قيل: لأنَّ فعلَها في الأكثر فيها.

وقيل: لأنَّها تؤثِّر في الخشب ونحوه، كما تؤثِّر الأرضُ فيه إذا دُفِن فيها.

وقيل غير ذلك، والأولى التفسيرُ الأوَّلُ، وإنْ لم تجئ الأرضُ في القرآن بذلك المعنى في غير هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ في موضع الحال من «دابَّة»، أي: آكلةً منسأته، والمنسأة: العصا، من نسأتُ البعيرَ: إذا طردتَه؛ لأنَّها يُطردُ بها، أو من نَسَأْتُه: إذا أَخَّرته، ومنه: النسيءُ، ويظهر من هذا أنَّها العصا الكبيرة التي تكون مع الراعي وأضرابه.

وقرأ نافع وأبو عمرو[1] وجماعةٌ: «منساته» بألف، وأصله: منسأته، فأبدلت الهمزة ألفاً بدلاً غير قياسيٍّ، وقال أبو عمرو: أنا لا أهمزها؛ لأنِّي لا أعرفُ لها اشتقاقاً، فإنْ كانت ممَّا لا تهمز فقد احتطت، وإن كانت ممَّا تهمز فقد يجوز لي ترك الهمز فيما يهمز. ولعلَّه بيانٌ لوجه اختيار القراءة[2] بدون همزة، وبالهمز جاءت في قول الشاعر:

ضربتُ بمنسأةٍ وجهَه ... فصارَ بذاك مهيناً ذليلا[3]

وبدونه في قوله:

إذا دببتَ على المنساة من هرمٍ ... فقد تباعدَ منك اللهوُ والغزلُ[4]

---

(١) في الأصل: وأبو عامر، وفي (م): وابن عامر. والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في البحر المحيط ٧/ ٢٦٧ ـ وعنه نقل المصنف ـ والتيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩ وهي قراءة أبي جعفر أيضاً من العشرة.

(٢) في الأصل: القرآن.

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٨٣. وذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٥ بلفظ: منساءة، بدل: منسأة. مستدلاً بها على مجيئها بالهمز والمد على وزن مفعالة.

(٤) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، والجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٣١، والطبري في =

وقرأ ابن ذكوان وبكّار والوليدُ بن أبي عتبة وابن مسلم وآخرون: «منسأْته» بهمزةٍ ساكنة[1]، وهو من تسكين المتحرك تخفيفاً. وليس بقياس، وضعَّف النحاة هذه القراءة؛ لأنَّه يلزمُ فيها أنْ يكون ما قبلَ تاء التأنيث ساكناً غير ألف.

وقيل: قياسها التخفيف بين بين، والراوي لم يضبط. وأنشد هارون بن موسى الأخفش الدمشقيُّ[2] شاهداً على السكون في هذه القراءة قول الراجز:

صريعُ خمرٍ قام من وَكَأْتِهْ كقومةِ الشيخِ إلى مِنْسَأْتِهْ[3]

وقُرِئ بفتح الميم وتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً، و«مِنْساءته» بالمدِّ على وزن مِفعالة[4]، كما يقال في الميضأة ـ وهي آلة التوضُّؤ، وتطلق على محلِّه أيضاً ـ ميضاءة.

وقرئ: «مِنْسَيَتِه» بإبدال الهمزة ياءً[5].

وقرأت فرقةٌ منهم عمرو بن ثابت عن ابن جبير: «من» مفصولةً حرف جرٍّ «سأتِهِ» بجرِّ التاء[6]، وهي طرف العصا، وأصلها ما انعطفَ من طرفي القوس، ويقال فيه: سِيَة أيضاً، استعيرت لما ذكر إمَّا استعارةً اصطلاحيَّةً؛ لأنَّها كانت خضراء فاعوجَّت بالاتِّكاء عليها، على ما ستسمعه إنْ شاء الله تعالى في القصَّة، أو لغويَّة باستعمال المقيَّد في المطلق. وبما ذُكر عُلِم ردُّ ما قاله البَطَلْيَوسيّ بعد ما نقل

= تفسيره ١٩/ ٢٣٩، وابن جني في المحتسب ٢/ ١٨٧، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٨٣، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٥.

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٧، وقراءة ابن ذكوان ـ راوية ابن عامر ـ في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٢) مقرئ دمشق، قرأ على ابن ذكوان وهشام، وله تصانيف في القراءات والعربية، توفي سنة (٢٩٢هـ). السير ١٣/ ٥٦٦.

(٣) الرجز في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٧. وذكره القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٨٣، والأول عنده: وقائم قد قام من تُكَأْتِهْ.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٣، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٧.

(٥) المحتسب ٢/ ١٨٨.

(٦) المحتسب ٢/ ١٨٦، والبحر ٧/ ٢٦٧. ووقع في مطبوع البحر: عمر بن ثابت، بدل: عمرو.

هذه القراءة عن الفراء[١]: إنه تعجرفٌ لا يجوز أن يستعمل في كتاب الله عزَّ وجلَّ، ولم يأتِ به روايةٌ ولا سماع، ومع ذلك هو غيرُ موافقٍ لقصَّة سليمان عليه السلام؛ لأنَّه لم يكن معتمداً على قوس، وإنما كان معتمداً على عصا.

وقُرئ: «أَكَلَتْ منسأته» بصيغة الماضي[٢]، فالجملة إمَّا حالٌ أيضاً بتقدير «قد»، أو بدونه، وإمَّا استئنافٌ بيانيٌّ.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أي: علمت بعد التباسِ أمر سليمان من حياته ومماته عليهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ أنَّهم لو كانوا يعلمون الغيبَ ـ كما يزعمون ـ لعلموا موتَه زمنَ وقوعه، فلم يلبثوا بعدَه حولاً في الأعمال الشاقَّة إلى أن خرَّ.

والمراد بالجنِّ الذين علموا ذلك ضعفاءُ الجنِّ، وبالذين نَفَى عنهم علمَ الغيب رؤساؤهم وكبارهم، على ما روي عن قتادة. وجُوِّز عليه أن يراد بالأمر الملتبس عليهم أمرُ علم الغيب، أو المراد بالجنِّ الجنس، بأن يسند للكلِّ ما للبعض، أو المراد كبارهم المدَّعونَ علمَ الغيب، أي: عَلِمَ المدَّعون علمَ الغيب منهم عجزَهم وأنَّهم لا يعلمون الغيب. وهم وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم لكن أريد التهكُّم بهم كما تقول للمبطل إذا دحضت حُجَّته: هل تبيَّنتَ أنَّك مبطلٌ؟ وأنت تعلم أنَّه لم يزل كذلك متبيِّناً.

وجُوِّز أن يكون «تبين» بمعنى بان وظهر، فهو غيرُ متعدٍّ لمفعول، كما في الوجه الأول، فإنَّ مفعوله فيه «أن لو كانوا» إلخ، وهو في هذا الوجه بدلٌ من «الجن» بدل اشتمال، نحو: تبيَّنَ زيدٌ جهلُه، والظهور في الحقيقة مسندٌ إليه، أي: فلمَّا خرَّ بانَ للناس وظهر أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب.

---

(١) يعني قوله في معاني القرآن ٢/ ٣٥٧: ولو جاء في القراءة: «من سأتِه». إلا أن الفراء قال بعد توجيهها: ولم يقرأ بها أحدٌ علمناه. والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١٩٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٨٣ دون نسبة، وعزاها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١١ لمصحف عبد الله.

ولا حاجة على ما قُرِّرَ إلى اعتبار مضافٍ مقدَّرٍ، هو فاعلُ «تبيَّن» في الحقيقة، إلَّا أنَّه بعد حذفه أقيمَ المضاف إليه مُقامَه، وأسند إليه الفعل، ثم جعل «أن لو كانوا» إلخ بدلاً منه بدل كلٍّ من كلّ، والأصل: تبيَّن أمر الجنِّ أنْ لو كانوا. . إلخ.

وجَعَل بعضهم في قوله تعالى: «أن لو كانوا يعلمون» إلخ قياساً طُويت كُبْراه، فكأنه قيل: لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، لكنَّهم لبثوا في العذاب المهين، فهم لا يعلمون الغيب.

ومجيء «تبيَّن» بمعنى بان وظهر لازماً، وبمعنى أدرك وعلم متعدِّياً = موجودٌ في كلام العرب، قال الشاعر:

تــبــيَّــن لــي أنَّ الــقــمــاءَةَ ذلَّــةٌ   وأنَّ أعــزَّاءَ الــرجــال طــيــالــهــا[1]

وقال الآخر:

أفــاطــم إنِّــي مــيِّــتٌ فــتــبــيَّــنــي   ولا تــجــزعــي كــلُّ الأنــام تــمــوتُ[2]

وفي «البحر»[3] نقلاً عن ابن عطيَّة قال: ذهب سيبويه[4] إلى أنَّ «أنْ» لا موضعَ لها من الإعراب، وإنَّما هي منزَّلةٌ منزلةَ القسم من الفعل الذي معناه التحقيق واليقين[5]، لأنَّ هذه الأفعال التي هي: تحقَّقتُ، وتيقَّنتُ، وعلمتُ، ونحوها،

---

(١) نسبه في الحماسة البصرية ١/ ٣٥ لأنيف بن زبَّان النهشلي، ونسبه عبد القادر البغدادي في الخزانة ٩/ ٤٨٨، وشرح أبيات المغني ٤/ ٦٧-٦٨ لأثال بن عبدة بن الطبيب. وهو في المحتسب ١/ ١٨٤، والمنصف ١/ ٣٤٢، وأمالي ابن الشجري ١/ ٨٦، وشرح المفصل ١٠/ ٨٨ دون نسبة. ونسبه المبرد في الكامل ١/ ١٢١، ٢/ ١٠٤٤ لرجل من بني سعد.

(٢) هو بهذا اللفظ في البحر المحيط ٧/ ٢٦٧، والدر المصون ٩/ ١٦٨.
وذكره أبو عبيد في الأمثال ص٣٣٥، والعسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ١٥٧، والميداني في مجمع الأمثال ٢/ ١٣٣، والصفدي في تصحيح التصحيف ص٥٥٥، برواية:
ولا تــجــزعــي كــل الــنــســاء يــئــيــم.
وهو كذلك في المستقصى ٢/ ٢٢٦ ونسبه فيه لامرئ القيس. وليس في ديوانه.

(٣) ٧/ ٢٦٧-٢٦٨.

(٤) انظر الكتاب ٣/ ١٠٧-١٠٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٢.

تحلُّ محلَّ القسم، فـ «ما لبثوا» جواب القسم لا جواب «لو». اهـ. فتأمَّله فإنِّي لا أكاد أتعقَّلُه وجهاً يُلتفتُ إليه.

وفي «أمالي العزِّ بن عبد السلام» أنَّ «الجنّ» ليس فاعل «تبيَّنت»، بل هو مبتدأ، و«أنْ لو كانوا يعلمون» خبرُه، والجملة مفسِّرةٌ لضمير الشأن في «تبيَّنت» إذ لولا ذلك لكان معنى الكلام: لمَّا مات سليمان وخرَّ ظهرَ لهم أنَّهم لا يعلمون الغيب. وعلمُهم بعدم علمهم الغيب لا يتوقَّف على هذا، بل المعنى: تبيَّنت القصَّة ما هي، والقصَّة قوله تعالى: ﴿ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. اهـ.

والعجبُ من صدور مِثْلِه عن مِثْلِه، وما جعلَه مانعاً عن فاعلية «الجن» مدفوعٌ بما سمعتَ في تفسير الآية كما لا يخفى.

وفي كتاب النحاس إشارةٌ إلى أنَّه قُرئ: «تبيَّنت الجنَّ» بالنصب، على أنَّ «تبيَّنت» بمعنى علمت، والفاعل ضمير «الإنس»، و«الجنَّ» مفعوله[(١)].

وقرأ ابنُ عباس ـ فيما ذكر ابن خالويه[(٢)] ـ ويعقوب بخلافٍ عنه: «تُبُيِّنَت» مبنياً للمفعول[(٣)].

وقرأ أُبيٌّ: «تبيَّنت الإنس»، وعن الضَّحَّاك: «تباينت الإنس» بمعنى تعارفت وتعالمت، والضمير في «كانوا» للجنِّ المذكور فيما سبق. وقرأ ابن مسعود: «تبيَّنت الإنسُ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيب»[(٤)]، وهي قراءاتٌ مخالفةٌ لسواد المصحف مخالفةً كثيرة.

وفي القصة رواياتٌ، فروي أنَّه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المُدَدَ الطِّوال، فلمَّا دنا أجلُه لم يصبح إلَّا رأى في محرابه

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٨، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٧-٣٣٨، ومعاني القرآن له ٥/ ٤٠٥.

(٢) في القراءات الشاذة ص١٢١.

(٣) هي قراءة رويس عن يعقوب. النشر ٢/ ٣٥٠.

(٤) ذكر هذه القراءات الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٣-٢٨٤، والأخيرة في المحتسب ٢/ ١٨٨.

شجرةً نابتةً قد أنطقَها الله تعالى، فيسألُها: لأيِّ شيءٍ أنت؟ فتقول: لكذا، حتى أصبحَ ذاتَ يومٍ، فرأى الخرنوبة[1]، فسألَها، فقالت: نبتُّ لخرابِ هذا المسجد، فقال: ما كان الله تعالى ليخربه وأنا حيٌّ، أنتِ التي على وجهِك هلاكي وخرابُ بيت المقدس. فنزعَها وغرسَها في حائطٍ له، واتخذَ منها عصا، وقال: اللهمَّ عَمِّ على الجنِّ موتي، حتى يُعْلَم أنَّهم لا يعلمون الغيب كما يموِّهون. وقال لملك الموت: إذا أُمِرتَ بي فأعلمني، فقال: أمرتُ بك، وقد بقيَ من عمرك ساعةٌ. فدعا الجنَّ فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له بابٌ، فقام يصلِّي متَّكئاً على عصاه، فقبض روحَه وهو متَّكِئٌ عليها، وكانت الجنُّ تجتمعُ حولَ محرابه أينما صلَّى، فلم يكن جنِّيٌّ ينظرُ إليه في صلاته إلَّا احترقَ، فمرَّ جنيٌّ فلم يسمع صوتَه، ثم رجع فلم يسمع، فنظر إذا سليمان قد خرَّ ميتاً، ففتحوا عنه، فإذا العصا قد أكلتها الأرضة، فأرادوا أنْ يعرفوا وقتَ موته، فوضعوا الأَرَضَة على العصا، فأكلت منها في يومٍ وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانوا يعملونَ بين يديه ويحسَبونه حيًّا، فتبيَّن أنَّهم لو كانوا يعلمون الغيب لما لبثوا في العذاب سنة[2].

ولا يخفى أنَّ هذا من باب التخمين والاقتصارِ على الأقل، وإلَّا فيجوزُ أن تكونَ الأَرَضَةُ بدأت[3] بالأكل بعد موته بزمانٍ كثير، وأنَّها كانت تأكلُ أحياناً وتتركُ أحياناً.

وأما كونُ بدئها في حياته فبعيد، وكونه بالوحي إلى نبيٍّ في ذلك الزمان ـ كما قيل ـ فواهٍ؛ لأنَّه لو كان كذلك لم يحتاجوا إلى وضع الأَرَضَة على العصا ليستعلموا المدَّةَ.

---

(١) في الأصل: الخربوبة، وفي الكشاف ٣/ ٢٨٤ـ والكلام منه ـ: الخروبة. اهـ. والخروبة والخرنوبة: شجر الينبوت، وقيل: الينبوت: الخشخاش. انظر تاج العروس (خرب).

(٢) قال الحافظ ابن كثير بعد ذكر نحو هذا الخبر: وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تُلقِّي من علماء أهل الكتاب، وهي وقف لا يصدَّق منها إلا ما وافق الحق، ولا يكذَّب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

(٣) في الأصل و(م): بدت، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ١٩٦.

ورُوي أنَّ داودَ عليه السلام أسَّسَ بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يُتِمَّه، فوصَّى به إلى سليمان، فأمرَ الجنَّ بإتمامه، فلمَّا بقي من عمره سنة سأل أنْ يُعمَّى عليهم موتُه حتى يفرغوا منه، ولتبطلَ دعواهم علم الغيب.

وهذا بظاهره مخالفٌ لما رُويَ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام هو الذي أسَّس بيتَ المقدس بعد الكعبة بأربعين سنة[١]، ثم خرب، وأعاده داود، وماتَ قبل أن يتمَّه.

وأيضاً أنَّ موسى عليه السلام لم يدخل بيتَ المقدس، بل ماتَ في التِّيْهِ، وجاء في الحديث الصحيح[٢] أنَّه عليه السلام سأل ربَّه عند وفاته أنْ يدنيه من الأرض المقدَّسة رميةً بحجر.

وأيضاً قد روي أنَّ سليمان قد فرغَ من بناء المسجد وتعبَّد فيه، وتجهَّز بعدَه للحجِّ شكراً لله تعالى على ذلك.

وأجيب عن الأوَّل بأنَّ المرادَ تجديد التأسيس، وعن الثاني بأنَّ المرادَ بفسطاط موسى فسطاطه المتوارث، وكانوا يضربونَه يتعبَّدون فيه تبرُّكاً، لا أنَّه كان يُضربُ هنالك في زمنه عليه السلام.

ويحتاجُ هذا إلى نقلٍ، فإنَّ مثلَه لا يُقالُ بالرأي، فإنْ كان فأهلاً ومرحباً.

وقيل: المراد به مجمع العبادة على دين موسى، كما وقع في الحديث: «فسطاط إيمان»[٣].

---

(١) أخرج البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠) من حديث أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي المساجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام» قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة...».

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) يشير إلى حديث ابن عمر الذي أخرجه أبو داود (٤٢٤٢)، وأحمد (٦١٦٨) وفيه: «حتى يصير الناس إلى فسطاطين؛ فسطاطِ إيمان لا نفاق فيه، وفسطاطِ نفاقٍ لا إيمان فيه...»، وذكره القرطبي في التذكرة ص٥٥٩-٥٦٠.

وقال القرطبيُّ في «التذكرة»: المرادُ به فرقةٌ منحازةٌ عن غيرها، مجتمعةٌ تشبيهاً بالخيمة[١].

ولا يخفى ما فيهما، وإن قيل: إنَّهما أظهرُ من الأول.

وعن الثالث بأنَّ المرادَ بالفراغ القربُ من الفراغ، وما قاربَ الشيءَ له حكمه. وفيه بعدٌ.

واختير أنَّ هذا رواية، وذاك رواية، والله تعالى أعلم بالصحيح منهما.

ورُوي أنَّه عليه السلام قد أمر ببناء صرحٍ له، فبنوه، فدخلَه مختلياً ليصفو له يومٌ في الدهر من الكدر، فدخل عليه شابٌّ، فقال له: كيف دخلت عليَّ بلا إذن؟ فقال: إنَّما دخلتُ بإذن. فقال: ومَنْ أذِنَ لك؟ قال: ربُّ هذا الصرح. فعلم أنَّه مَلَكُ الموت أتى لقبض روحه. فقال: سبحان الله! هذا اليوم الذي طلبتُ فيه الصفا، فقال له: طلبتَ ما لم يُخلَق، فاستوثَقَ من الاتِّكاء على عصاه، فقبض روحَه، وخفي على الجنِّ موتُه حتى سقط.

ورويَ أنَّ أفريدون جاء ليصعدَ كرسيَّه، فلما دنا ضرب الأَسَدَانِ ساقَه فكسراها[٢]، فلم يجسُر أحدٌ بعده أنْ يدنو منه، ولذا لم تَقربهُ الجنُّ وخفيَ أمرُ موته عليهم.

ونُظر فيه بأنَّ سليمان كان بعد موسى بمدَّةٍ مديدة، وأفريدون كان قبلَه؛ لأن منوجهر من أسباط أفريدون، وظهر موسى عليه السلام عليه في زمانه.

وعلى جميع الرويات الدالَّة على موته عليه السلام: خرورُه لمَّا كُسِرت العصا؛ لضعفِها بأكل الأرَضة منها، ونسبة الدلالة في الآية إليها نسبةٌ إلى السبب البعيد.

ومن الغريب ما نُقِل عن ابن عباس أنَّه عليه السلام ماتَ في متعبَّده على فراشه

---

(١) التذكرة ص٥٦١.

(٢) في الأصل: فكسراهما. والمثبت من (م)، والكشاف ٣/ ٢٨٤.

وقد أغلقَ الباب على نفسه، فأكلت الأرَضة المنسأة، أي: عتبة الباب، فلمَّا خرَّ، أي: البابُ، عُلِم موتُه، فإنَّ فيه جَعْلَ ضمير «خرَّ» للباب، وإليه ذهب بعضُهم.

وفيه أنَّه لم يُعهَد تسميةُ العتبة منسأة، وأيضاً كان اللازم عليه: خرَّت، بتاء التأنيث. ولا يجيء حذفُها في مثل ذلك إلَّا في ضرورة الشعر، وكونُ التذكير على معنى العود بعيدٌ، فالظاهر عدمُ صحَّة الرواية عن الحبر، والله تعالى أعلم.

وحَكى البغويُّ عنه أنَّ الجنَّ شكروا الأرَضَة، فهم يأتونَها بالماء والطين في جوفِ الخشب[1].

وهذا شيءٌ لا أقول به ولا أعتقدُ صحَّة الرواية أيضاً.

وكان عمره عليه السلام ثلاثاً وخمسين سنة، ومَلَكَ بعد أبيه وعمره ثلاثَ عشرة سنة، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضينَ من ملكه، ثمَّ مضى وانقضى، وسبحان من لا ينقضي ملكه ولا يزولُ[2] سلطانُه.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ الغيبَ لا يختصُّ بالأمور المستقبلة، بل يشملُ الأمور الواقعة التي هي غائبةٌ عن الشخص أيضاً.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ لمَّا ذكر عزَّ وجلَّ حالَ الشاكرين لنعمه، المنيبين إليه تعالى، ذكرَ حال الكافرين بالنعمة، المعرضينَ عنه جلَّ شأنُه؛ موعظةً لقريش، وتحذيراً لمن كفرَ بالنِّعم وأعرضَ عن المنعِم.

وسبأ في الأصل اسمُ رجل، وهو سبأ بن يشجب ـ بالشين المعجمة والجيم، كينصر ـ بنِ يعرب بن قحطان، وفي بعض الأخبار عن فروة بن مسيك قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلت[3]: يا رسول الله، أخبرني عن سبأ، أرجلٌ هو أم امرأة؟ فقال: «هو رجلٌ من العرب ولد عشرةً، تَيَامَنَ منهم ستَّة، وتشاءم منهم أربعة، فأمَّا الذين

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٥٥٢.

(٢) في الأصل: ولا يزال.

(٣) الذي في المصادر أن الراوي رجلٌ مبهم.

تيامنوا، فالأَزْدُ وكندةُ ومَذْحِجٌ والأشعريون وأنمارٌ، ومنهم بَجِيلة، وأمَّا الذين تشاءموا، فعاملةُ وغسَّانُ ولَخْمٌ وجُذامٌ»(١).

وفي «شرح قصيدة عبد المجيد بن عَبْدُون»(٢) لعبد الملك بن عبد الله بن بَدْرُون الحضرميّ البستيّ(٣) أنَّ سبأ بن يشجب أوَّلُ ملوك اليمن في قول، واسمه عبد شمس، وإنَّما سُمِّيَ سبأ؛ لأنَّه أولُ من سَبَى السبيَ من ولد قحطان، وكان ملكه أربعَ مئة وأربعاً وثمانين سنةً، ثمَّ سُمِّيَ به الحيُّ.

ومَنَعَ الصرفَ عنه ابنُ كثير(٤) وأبو عمرو باعتبارِ جَعْلِه اسماً للقبيلة، ففيه العلميَّة والتأنيث، وقرأ قنبل بإسكان الهمزة على نيَّة الوقف(٥).

وعن ابن كثير قلبُ همزته ألفاً(٦)، ولعلَّه سكَّنها أوَّلاً بنيَّة الوقف كقنبل، ثمَّ قلبهَا ألفاً، والهمزةُ إذا سُكِّنت يطَّرد قلبُها من جنس حركة ما قبلها. وقيل: لعلَّه أخرجَها بينَ بين، فلم يؤدِّه الراوي كما وجب.

والمراد بسبأ هاهنا؛ إمَّا الحيُّ أو القبيلة، وإمَّا الرجلُ الذي سمعت، وعليه فالكلام على تقدير مضاف، أي: لقد كان في أولاد سبأ. وجُوِّزَ أنْ يرادَ به البلد، وقد شاعَ إطلاقُه عليه، وحينئذٍ فالضميرُ في قوله تعالى: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ لأهلها، أو لها مراداً بها الحيُّ على سبيل الاستخدام، والأمر فيه على ما تقدَّم ظاهر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٢٢) وفيه: أرض أو امرأة. بدل: أرجل هو أم امرأة. وسلف بعضه ص٥ من هذا الجزء.

(٢) هو عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابرتي، أبو محمد، ذو الوزارتين، أديب الأندلس في عصره، وكان كاتباً مترسلاً عالماً بالتاريخ والحديث، توفي سنة (٥٢٩هـ) وقيل غير ذلك. الأعلام ٤/ ١٤٩.

(٣) هو أبو القاسم، أديب أندلسي، اشتهر بشرحه لقصيدة ابن عبدون، وسماه: كمامة الزهر وفريدة الدهر. توفي (بعد ٦٠٨هـ). الأعلام ٤/ ١٦١.

(٤) في رواية البزي. انظر التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧.

(٥) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧.

(٦) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧٢، وليست في التيسير والنشر. وانظر حاشية الشهاب ٧/ ١٩٦.

والمسكن اسم مكان، أي: في محلِّ سكناهم، وهو كالدار يطلَقُ على المأوى للجميع، وإن كان قطراً واسعاً، كما تسمى الدنيا داراً.

وقال أبو حيَّان: ينبغي أن يحمل على المصدر، أي: في سكناهم؛ لأن كلَّ أحدٍ له مسكنٌ، وقد أُفرد في هذه القراءة، وجَعْلُ المفردِ بمعنى الجمع، كما في قوله:

كُلوا في بعض بطنكم تَعِفُّوا[1]

وقوله:

قد عضَّ أعناقَهم جلدُ الجواميسِ[2]

يختصُّ بالضرورة عند سيبويه[3]. انتهى[4].

وبما ذكرنا لا تبقى حاجة إليه كما لا يخفى.

واسم ذلك المكان مَأْرِب، كمنزل، وهي من بلاد اليمن، بينها وبين صنعاء مسيرةُ ثلاث.

وقرأ الكسائيُّ والأعمش وعلقمة: «مسكِنهم» بكسر الكاف[5] على خلاف القياس، كمسجِد ومَطْلِع، لأنَّ ما ضُمَّت عينُ مضارعِهِ أو فتحت قياسُ المَفْعَل منه زماناً ومكاناً ومصدراً الفتحُ لا غير.

---

(١) عجزه:

فإنَّ زمانكم زمن خميص

وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعلم قائلها. وسلف ١/ ٣٩٩.

(٢) صدره:

الواردون وتيمٌ في ذرا سبأٍ

وهو لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٠، وسلف ١٩/ ٤١١.

(٣) انظر الكتاب ١/ ٢١٠.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٦٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٣، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٩. وقراءة الكسائي في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠. وهي قراءة خلف من العشرة.

وقال أبو الحسن[1]: كسر الكاف لغة فاشيةٌ، وهي لغةُ الناس اليوم، والفتحُ لغةُ الحجاز، وهي اليوم قليلة. وقال الفراء[2]: هي لغةٌ يمانيةٌ فصيحة.

وقرأ الجمهور: «مساكنهم» جمعاً[3]، أي: في مواضع سكناهم.

﴿ءَايَةٌ﴾ أي: علامةٌ دالَّةٌ ـ بملاحظة أخواتها السابقة واللاحقة ـ على وجود الصانع المختار، وأنَّه سبحانه قادرٌ على ما يشاء من الأمور العجيبة، مُجَازٍ للمحسن والمسيء، وهي اسم «كان»، وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدلٌ منها، على ما أشار إليه الفرَّاء[4]، وصرَّح به مكِّي[5] وغيره.

وقال الزجَّاج: خبر مبتدأ محذوف، أي: هي جنَّتان[6].

ولا يشترط في البدل المطابقة إفراداً وغيره، وكذا الخبر إذا كان غيرَ مشتقٍّ، ولم يمنع المعنى من اتحاده مع المبتدأ، ولعلَّ وجه توحيد الآية هنا مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] ولا حاجةَ إلى اعتبار مضافٍ مفردٍ محذوفٍ هو البدل أو الخبر في الحقيقة، أي: قصة جنَّتين.

وذهب ابن عطية[7] ـ بعد أن ضعَّفَ وجه البدلية، ولم يذكر الجهة ـ إلى أنَّ «جنَّتان» مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾.

ولا يظهر، لأنَّه نكرةٌ لا مسوِّغَ للابتداء بها، إلَّا إن اعتقد أنَّ ثَمَّ صفةً

---

(١) هو الأخفش سعيد بن مسعدة، وذكر قوله الفارسي في الحجة ٦/ ١٤.
(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٧.
(٣) هي قراءة أبي بكر عن عاصم، ونافع، وابن عامر، وابن كثير، وأبي عمرو، وأبي جعفر، ويعقوب. انظر التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠.
(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٨.
(٥) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٥.
(٦) انظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٨.
(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٣.

محذوفةً، أي: جنَّتان لهم، أو: جنَّتان عظيمتان، وعلى تقدير ذلك يبقى الكلام متفلِّتاً عما قبلَه.

وقرأ ابن أبي عبلة: «جنَّتين» بالنصب على المدح[١]. وقال أبو حيان: على أنَّ «آية» اسمُ «كان»، و«جنَّتين» الخبر[٢].

وأيًّاما كان، فالمراد بالجنَّتين ـ على ما روي عن قتادة ـ جماعتان من البساتين؛ جماعةٌ عن يمين بلدهم، وجماعةٌ عن شماله، وإطلاقُ الجنَّة على كلِّ جماعةٍ؛ لأنَّها لتقارب أفرادها وتضامِّها كأنَّها جنَّةٌ واحدةٌ، كما تكون بلادُ الريف العامرة وبساتينُها.

وقيل: أريد بستانَا كلِّ رجلٍ منهم عن يمين مسكنه وشماله، كما قال سبحانه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: ٣٢]، قيل: ولم تجمع؛ لئلَّا يلزمَ أنَّ لكلِّ مسكنِ رجلٍ جنةً واحدةً لمقابلة الجمع بالجمع. ورُدَّ بأنَّ قوله تعالى: (عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ) يدفعُ ذلك؛ لأنَّه بالنظر إلى كلِّ مسكنٍ، إلَّا أنها لو جُمعت أوهم أنَّ لكلِّ مسكنٍ جناتٍ عن يمينٍ، وجناتٍ عن شمال، وهذا لا محذورَ فيه، إلَّا أنْ يُدَّعَى أنَّه مخالفٌ للواقع.

ثمَّ إنَّه قيل: إنَّ «في» فيما سبق بمعنى «عند»، فإنَّ المساكن محفوفةٌ بالجنَّتين لا ظرفٌ لهما.

وقيل: لا حاجةَ إلى هذا، فإنَّ القريبَ من الشيء قد يجعل فيه مبالغةً في شدَّة القرب.

ولكلٍّ وجهةٌ، لكن أنت تعلمُ أنَّه إذا أُريدَ بالمساكن أو المسكن ما يصلحُ أنْ يكونَ ظرفاً لبلدهم المحفوفة بالجنَّتين أو لمحلِّ كلٍّ منهم المحفوفة بهما = لم يحتج إلى التأويل أصلاً، فلا تَغفُل.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ بتقدير قولٍ، أي: قال لهم نبيُّهم: «كلوا» إلخ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٣، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٠.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٧٠.

وفي «مجمع البيان» قيل: إنَّ مساكنَهم كانت ثلاثة عشر قريةً، في كلِّ قريةٍ نبيٌّ يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، يقول: «كلوا من رزق ربكم» إلخ[١].

وقيل: ليس هناك قولٌ حقيقةً، وإنَّما هو قولٌ بلسان الحال.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ⑮﴾ أي: هذه البلدةُ التي فيها رزقُكم بلدةٌ طيِّبَةٌ، وربُّكم الذي رزقكم وطلبَ شكركم ربٌّ غفورٌ فَرَطاتِ من يشكره، والجملةُ استئنافٌ للتصريح بموجب الشكر.

ومعنى «طيِّبةٌ»: زكيَّةٌ مستلذَّة. يروى أنَّها كانت لطيفةَ الهواء، حسنةَ التربة، لا تَحدث فيها عاهةٌ، ولا يكونُ فيها هامَّةٌ، حتى إنَّ الغريبَ إذا حلَّها وفي ثيابه قملٌ أو براغيثُ ماتت.

وقيل: المراد بطيبها صِحَّةُ هوائها، وعذوبةُ مائها، ووفورُ نزهتها، وأنَّه ليس فيها حَرٌّ يؤذي في الصيف، ولا بردٌ يؤذي في الشتاء.

وقرأ رويسٌ بنصب «بلدة» وجميع ما بعدها[٢]، وذلك على المدح والوصفية. وقال أحمد بن يحيى: بتقدير: اسكنوا بلدةً طيبة، واعبدوا ربًّا غفوراً.

ومن الاتفاقات النادرة أنَّ لفظ «بلدة طيبة» بحساب الجُمَّل، واعتبارِ هاء التأنيث بأربع مئة ـ كما ذهب إليه كثيرٌ من الأدباء ـ وقعَ تاريخاً لفتح القسطنطينية[٣]، وكانت نزهةَ بلاد الروم.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن الشكر كما يقتضيه المقام، ويدخل فيه الإعراضُ عن الإيمان؛ لأنَّه أعظم الكفر والكفران.

وقال أبو حيَّان: أعرضوا عمَّا جاء به إليهم أنبياؤهم الثلاثة عشر، حيث دعوهم إلى الله تعالى، وذكَّروهم نعمَه سبحانه، فكذَّبوهم وقالوا: ما نعرفُ لله نعمةً[٤].

---

(١) مجمع البيان ٢٢/ ١٩٨.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٤، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٠.
(٣) أي: سنة (٨٥٧هـ).
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٠.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: الصعب، من عَرِمَ الرجل، مثلَّث الراء، فهو عارمٌ وعَرِم، إذا شَرِس خلقُه وصَعُبَ، وفي معناه ما جاء في روايةٍ عن ابن عباس من تفسيره بالشديد.

وإضافةُ السيل إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة، ومن أبَاها من النحاة قال: التقدير: سيلَ الأمرِ العَرِمِ.

وقيل: «العرم»: المطر الشديد، والإضافة على ظاهرها.

وقيل: هو اسمٌ للجُرَذ الذي نَقَبَ عليهم سدَّهم، فصار سبباً لتسلُّطِ السيل عليهم، وهو الفأر الأعمى الذي يقال له: الخُلْد، وإضافة السيل إليه لأدنى ملابسة.

وقال ابن جبير: العَرِم: المُسَنَّاة، بلسان الحبشة. وقال الأخفش: هو بهذا المعنى عربيّ.

وقال المغيرة بن حكيم وأبو ميسرة: العرم في لغة اليمن جمع عَرِمة، وهي كلُّ ما بُنِيَ أو سُنِّم ليُمسِكَ الماء، ويقال لذلك البناء بلغة الحجاز المسنَّاة، والإضافةُ كما في سابقه، والملابسة في هذا أقوى.

وعن ابن عباس وقتادة والضحاك ومقاتل: هو اسمُ الوادي الذي كان يأتي السيلُ منه وبُنِيَ السدُّ فيه، ووجه إضافة السيل إليه ظاهرٌ.

وقرأ عروة[1] بن الورد ـ فيما حكى ابن خالويه ـ: «العَرْم» بإسكان الراء تخفيفاً[2]، كقولهم في الكَبِد: الكَبْد.

رويَ أنَّ بلقيس لمَّا ملكت اقتتلَ قومُها على ماء واديهم، فتركت ملكها وسكنت قصرها، وراودوها على أن ترجع، فأبت، فقالوا: لَتَرْجِعِنَّ أو لنقتلنَّك، فقالت لهم: أنتم لا عقولَ لكم ولا تطيعوني، فقالوا: نطيعك، فرجعت إلى واديهم، وكانوا إذا مُطِروا أتاهم السيلُ من مسيرة ثلاثة أيام، فأمَرت فسدَّ ما بين الجبلين

(١) في الأصل و(م): عزرة، والمثبت من المصادر على ما يأتي.
(٢) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٧١.

بمُسَنَّاةٍ، بالصخر والقار، وحبست الماء من وراء السَّدِّ، وجَعلت له أبواباً بعضُها فوق بعض، وبَنَتْ من دونه بركةً منها اثنا عشر مخرجاً على عدَةِ أنهارِهم، وكان الماء يخرجُ لهم بالسويَّة إلى أنْ كان من شأنها مع سليمان عليه السلام ما كان.

وقيل: الذي بنى لهم السدَّ هو حِمْيَر أبو القبائل اليمنيَّة.

وقيل: بناه لقمان الأكبر ابن عاد، ورصفَ أحجاره بالرصاص والحديد، وكان فرسخاً في فرسخ.

ولم يزالوا في أرغدِ عيشٍ، وأخصب أرض، حتى إنَّ المرأةَ تخرجُ وعلى رأسها المِكْتَلُ، فتعمل بيديها وتسير، فيمتلئ المكتلُ ممَّا يتساقط من أشجار بساتينهم، إلى أن أعرضوا عن الشكر، وكذَّبوا الأنبياءَ عليهم السلام، فسلَّط الله تعالى على سدِّهم الخُلْدَ، توالد[1] فيه فخرقه، فأرسلَ سبحانه سيلاً عظيماً، فحمل السدَّ وذهب بالجنان وكثيرٍ من الناس.

وقيل: إنَّه أذهب السدَّ، فاختلَّ أمرُ قسمة الماء ووصوله إلى جنانهم، فيبست وهلكت.

وكان ذلك السيلُ ـ على ما قيل ـ في ملك ذي الأذعار بن حسان في الفترة بين نبيِّنا ﷺ وعيسى عليه السلام.

وفيه بحثٌ على تقدير القول بأنَّ الإعراض كان عمَّا جاءهم به أنبياؤهم[2] الثلاثة عشر، كما ستعلمه إنْ شاء الله تعالى عن قريب.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي: أذهبنا جنَّتيهم، وآتينا بدلها ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ أي: ثمرٍ ﴿خَمْطٍ﴾ أي: حامضٍ أو مرٍّ.

وعن ابن عباس: الخمط: الأراك. ويقال لثمره مطلقاً أو إذا اسودَّ وبلغ: البربر[3].

---

(١) في (م): فوالد.

(٢) في (م): جاءهم من أنبيائهم.

(٣) كذا في الأصل و(م). ولعل الصواب: البرير، وهو ثمر الأراك عامة. وقيل: البرير الأول، أي: أول ما يظهر من ثمر الأراك، وهو حلو. انظر تاج العروس (برر).

وقيل: شجر الغضا، ولا أعلم هل له ثمرٌ أم لا؟

وقال أبو عبيدة: كلُّ شجرةٍ مُرَّةٍ ذات شوك[١].

وقال ابن الأعرابيّ: هو ثمرُ شجرةٍ على صورة الخشخاش، لا يُنتفع به، وتسمَّى تلك الشجرة ـ على ما قيل ـ بـ: فَسْوة الضَّبُع.

وهو على الأول: صفةٌ لـ «أُكُل»، والأمر في ذلك ظاهر.

وعلى الأخير: عطفُ بيانٍ على مذهب الكوفيين المجوِّزين له في النكرات. وقيل: بدل.

وعلى ما بينهما: الكلام على حذف مضاف، أي: أكلٍ أكلِ خمطٍ، وذلك المضاف بدلٌ من «أكلٍ»، أو عطف بيان عليه، ولمَّا حذف أقيم المضاف إليه مقامَه، وأعرب بإعرابه، كما في «البحر»[٢].

وقيل: هو بتقدير: أكل ذي خمط.

وقيل: هو بدل، من باب: يعجبني القمر فلكُه. وهو كما ترى.

ومُنع جَعْلُه وصفاً من غير ضربٍ من التأويل؛ لأنَّ الثمر لا يوصفُ بالشجر، لا لأنَّ الوصفَ بالأسماء الجامدة لا يطَّرد، وإن جاء منه شيء، نحو: مررتُ بقاعٍ عَرْفجٍ[٣]. فتأمَّل.

وقرأ أبو عمرو: «أكلِ خمط» بالإضافة[٤]، وهو من باب: ثوبِ خزٍّ. وقرأ ابن كثير: «أكْلٍ» بسكون الكاف والتنوين[٥].

---

(١) انظر مجاز القرآن ٢/ ١٤٧.

(٢) ٧/ ٢٧١.

(٣) القاع: أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام. والعرفج: نبات، وقول العرب: مررت بقاع عرفج كله، معناه: مررت بقاعٍ خشنٍ كلّه، وإنما قدّر بخشن لأن العرفج شاكٌّ، والشوك خشن المسّ. ينظر شرح المشكل من شعر المتنبي ص٤٦.

(٤) التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠، وهي قراءة يعقوب من العشرة.

(٥) وهي قراءة نافع أيضاً. انظر التيسير ص٨٣، ١٨٠، والنشر ٢/ ٢١٦.

﴿وَأَثْلٍ﴾ ضربٌ من الطَّرفاء، على ما قاله أبو حنيفة اللغويُّ في كتاب «النبات» له. وعن ابن عباس تفسيره بالطرفاء. ونقل الطبرسيُّ قولاً أنَّه السَّمُر[1].

وهو عطفٌ على «أكل»، ولم يجوِّز الزمخشريُّ[2] عطفه على «خَمْطٍ» معلِّلاً بأنَّ الأثل لا ثمرَ له. والأطباء كداود الأنطاكيِّ[3] وغيره يذْكرون له ثمراً كالحِمَّص، ينكسرُ عن حبٍّ صغار، ملتصق بعضه ببعض، ويفسِّرون الأثل بالعظيم من الطَّرفاء. ويقولون في الطَّرفاء: هو بريٌّ لا ثمر له، وبستانيٌّ له ثمر. لكن قال الخفاجيُّ[4]: لا يعتمد على الكتب الطبية في مثل ذلك. وفي القلب منه شيءٌ، ونحن قد حقَّقنا أنَّ للأثل ثمراً، وكذا لصنف من الطرفاء، إلَّا أنَّ ثمرهما لا يؤكل، ولعلَّ مراد النافي نفي ثمرةٍ تؤكَل، والأطباء يعدُّون ما تخرجه الشجر غيرَ الورق ونحوه ثمرةً، أُكلت أم لا.

ومثله في العطف على ذلك[5] قولُه تعالى: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾.

وحكى الفضيلُ[6] بن إبراهيم أنَّه قُرئ: «أثلاً وشيئاً» بالنصب عطفاً على «جنَّتين».

والسدر: شجر النَّبِق. وقال الأزهريُّ: السدر سدران؛ سدرٌ لا ينتفعُ به ولا يَصلحُ ورقهُ للغَسول، وله ثمرةٌ عفصةٌ لا تؤكل، وهو الذي يسمى الضَّال، وسدرٌ ينبتُ على الماء، وثمره النَّبِق، وورقه غَسولٌ يشبه شجر العنَّاب[7]. انتهى.

---

(١) السمرة، بضمِّ الميم: من شجر الطلح، والجمع سَمُرٌ وسَمُرات. اللسان (سمر).

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٨٥.

(٣) في كتابه تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب ١/ ٣٧.

(٤) في حاشيته ٧/ ١٩٨.

(٥) بعدها في (م): في.

(٦) كذا في الأصل و(م). والذي في القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٧١ـ وعنه نقل المصنف ـ: الفضل. ولعله الفضل بن إبراهيم النحوي الكوفي، روى القراءة عن الكسائي، وروى القراءة عنه عبيد الله بن محمد بن أحمد الأملي. غاية النهاية ٢/ ٨.

(٧) تهذيب اللغة ١٢/ ٣٥٣.

واختلف في المراد هنا، فقيل: الثاني، ووصف بـ «قليل» لفظاً ومعنى، أو معنى فقط، وذلك إذا كان نعتاً لـ «شيء» المبيَّن به؛ لأنَّ ثمره ممَّا يطيبُ أكله، فجُعل قليلاً فيما بُدِّلوا به؛ لأنَّه لو كثر كان نعمةً لا نقمة، وإنَّما أوتوه تذكيراً للنِّعم الزائلة؛ لتكون حسرةً عليهم.

وقيل: المراد به الأول حتماً؛ لأنَّه الأنسبُ بالمقام، ولم يذكر نكتة الوصف بالقليل عليه.

ويمكن أن يقال في الوصف به مطلقاً: إنَّ السدر له شأنٌ عند العرب، ولذا نصَّ الله تعالى على وجوده في الجنة، والبستانيُّ منه لا يخفى نفعه، والبريُّ يَستظِلُّ به أبناء السبيل، ويأنسون به، ولهم فيه منافع أخرى، ويُستَأنسُ لعلوِّ شأنه بما أخرجه أبو داود في «سننه»، والضياء في «المختارة»، عن عبد الله بن حُبْشِيٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع سِدْرَةً صوَّبَ اللهُ رأسَه في النار»[1]. وبما أخرجه البيهقيُّ عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه في مرض موته: «اخرج يا عليّ، فقل عن الله لا عن رسول الله: لعنَ الله من يقطعُ السدر»[2].

وفي معناهما عدَّةُ أخبار لها عدَّة طرق، والكلُّ فيما أرى محمولٌ على ما إذا كان القطعُ عبثاً، ولو كان السِّدر في ملكه.

وقيل في ذلك: مخصوصٌ بسدر المدينة، وإنَّما نهي عن قطعه ليكون أنساً وظلّاً لمن يهاجر إليها.

وقيل: بسدر الفلاة ليستظلَّ به أبناء السبيل والحيوان.

---

(١) سنن أبي داود (٥٢٣٩)، والمختارة للضياء ٩/ ٢٣٧، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٨٥٥٧).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ١٤٠-١٤١، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في المصنف (١٩٧٥٧). وهو حديث مرسل، وأبو جعفر هو الباقر محمد بن علي بن الحسين.

وقيل: بسدر مكّة؛ لأنها حرمٌ[1].

وقيل: بما إذا كان في ملك الغير، وكان القطع بغير حقٍّ.

والكلُّ كما ترى، وأيّاً ما كان، ففي التنصيص عليه ما يشيرُ إلى أنَّ له شأناً، فلمَّا ذَكر سبحانه ما آل إليه حالُ أولئك المعرضين، وما بُدِّلوا بجنَّتيهم، أتى جلَّ وعلا بما يتضمَّن الإيذانَ بحقارة ما عُوِّضوا به، وهو ممَّا له شأنٌ عند العرب، أعني السدر وقلَّته، والإيذانُ بالقلَّة ظاهرٌ، وأما الإيذانُ بالحقارة فمن ذكر «شيءٍ»، والعدولِ عن أن يقال: وسدر قليل، مع أنَّه الأخصرُ الأوفق بما قبلَه، ففيه إشارةٌ إلى غاية انعكاس الحال، حيث أومأ الكلام إلى أنَّهم لم يؤتوا بعد إذهاب جنتيهم شيئاً ممَّا لجنسه شأنٌ عند العرب إلَّا السدر، وما أوتوه من هذا الجنس حقيرٌ قليل.

وتسمية البدل جنَّتين مع أنَّه ما سمعت؛ للمشاكلة والتهكُّم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من التبديل، وما فيه من معنى البعد للإشارة إلى بعد رتبته في الفظاعة، أو إلى مصدر قوله تعالى: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾، كما قيل في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] ومحلُّه على الأول النصبُ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ، وعلى الثاني النصبُ على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ للفعل المذكور.

والتقديم للتعظيم والتهويل، وقيل: للتخصيص، أي: ذلك التبديل جزيناهم لا غيره، أو ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاءً آخر.

﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: بسبب كفرانهم النعمة، حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضدَّها.

وقيل: بسبب كفرهم بالرسل الثلاثة عشر الذين بعثوا إليهم.

واستشكل هذا مع القول بأنَّ السيل العرم كان زمنَ الفترة؛ بأنَّ الجمهورَ قالوا:

---

(١) وجاء في حديث عبد الله بن حُبْشيّ السالف قريباً في رواية الطبراني في الأوسط (٢٤٤١) زيادة: «يعني من سدر الحرم».
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٨٤: ورجاله ثقات.

لا نبيَّ بين نبيِّنا وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ومن الناس من قال: بينهما صلى الله تعالى عليهما وسلم أربعةُ أنبياء؛ ثلاثةٌ من بني إسرائيل، وواحدٌ من العرب، وهو خالد العبسيّ، وهو قد بُعِثَ لقومه، وبنو إسرائيل لم يبعثوا للعرب.

وأجيب بأنَّ ما كان زمنَ الفترة هو السيلُ العرم لا غير، والرسلُ الثلاثة عشر هم جملةُ من كان في قومهم من سبأ بن يشجب إلى أن أهلكهم الله تعالى أجمعين، فتأمَّل ولا تغفُل.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧﴾ أي: ما نجازي مثلَ هذا الجزاء الشديد المستأصِل إلَّا المبالغَ في الكفران، أو الكفر، فلا يتوجَّه على الحصر إشكالُ أنَّ المؤمنَ قد يعاقب في العاجل.

وفي «الكشف»: لا يَرِدُ[1] أنَّ المؤمنَ أيضاً يعاقبُ، فإنَّه ليس بعقابٍ على الحقيقة، بل تمحيصٌ، ولأنَّه أريدَ المعاقبة بجميع ما يفعله من السوء، ولا كذلك للمؤمن، ولا مانع من أن يكونَ الجزاءُ عامّاً في كلِّ مُكَافَأةٍ، وأريد به المعاقبةُ مطلقاً من غير تقييدٍ بما سبق لقرينة: «جزيناهم بما كفروا»؛ لتعيين المعاقبة فيه، بل قال الزمخشريُّ[2]: هو الوجهُ الصحيح، وذلك لعدم الإضمار، ولأنَّ التذييل هكذا آكدُ وأسدُّ موقعاً. ولا يتوجَّه الإشكالُ لما في «الكشف».

وقرأ الجمهورُ: «يُجَازَى» بضمِّ الياء وفتح الزاي مبنيّاً للمفعول، «الكفورُ» بالرفع على النيابة عن الفاعل[3].

وقرئ: «يُجازِي» بضمِّ الياء وكسر الزاي مبنيّاً للفاعل، وهو ضميرُه تعالى وحده، «الكفورَ» بالنصب على المفعوليَّة[4].

---

(١) في (م): لا يراد.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٨٥.

(٣) هي قراءة نافع، وشعبة عن عاصم، وابن عامر، وابن كثير، وأبي عمرو، وأبي جعفر. انظر التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٩ ونقل عن أبي حاتم نسبتها لقتادة وابن وثاب والنخعي.

وقرأ مسلم بن جندب: «يُجْزَى» مبنيّاً للمفعول، «الكفورُ» بالرفع على النيابة[1].

والمُجَازاة ـ على ما سمعتَ عن الزمخشريّ ـ المكافأة، لكن قال الخفاجيُّ: لم تَرِد في القرآن إلَّا مع العقاب، بخلاف الجزاء، فإنَّه عامٌّ، وقد يخصُّ بالخير[2].

وعن أبي إسحاق[3]: تقول: جزيتُ الرجل في الخير، وجازيته في الشرِّ. وفي معناه قول مجاهد: يقال في العقوبة: يُجَازَى، وفي المثوبة: يُجْزَى.

وقال بعضُ الأجلَّة: ينبغي أن يكون أبو إسحاق قد أراد أنَّك اذا أرسلتَ الفعلين ولم تُعدِّهما إلى المفعول الثاني كانا كذلك، وأمَّا إذا ذكرته، فيستعملُ كلٌّ منهما في الخير والشر.

ويَرِدُ على ما ذكر «جزيناهم بما كفروا»، وكذا: «وهل يُجْزَى» في قراءة مسلم، إذ الجزاء في ذلك مستعملٌ في الشرِّ مع عدم ذكر المفعول الثاني، وقوله:

جَزى بنوه أبَا الغيلان عن كبرٍ وحسنِ فعلٍ كما يُجْزَى سِنِمَّارُ[4]

وقال الراغب: يقال: جزيته وجازيته، ولم يجئ في القرآن إلَّا جزى دون جازى، وذلك لأنَّ المجازاةَ المكافأة، وهي مقابلةُ نعمةٍ بنعمة هي كفؤها، ونعمةُ الله عزَّ وجلَّ تتعالى عن ذلك، ولهذا لا يستعملُ لفظ المكافأة فيه سبحانه وتعالى[5].

وفيه غفلةٌ عمَّا هنا، إلَّا أنْ يقال: أراد أنَّه لم يجئ في القرآن «جازى» فيما هو نعمةٌ مسنداً إليه تعالى، فإنَّه لم يخطر لي مجيءُ ذلك فيه، والله تعالى أعلم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢١، والمحتسب ٢/ ١٨٨، والبحر المحيط ٧/ ٢٧١.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٩٨.
(٣) هو الزجاج، وكلامه في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٥.
(٤) نسبه الأصفهاني في الأغاني ٢/ ١٤٥ لسليط بن سعد. وانظر خزانة الأدب ١/ ٢٩٣. وهو من شواهد ابن عقيل، الشاهد ١٥٣.
(٥) المفردات (جزى).

ويحسنُ عندي قول أبي حيان: أكثرُ ما يُستعمل الجزاء في الخير والمجازاةُ في الشرّ، لكن في تقييدهما قد يقع كلٌّ منهما موقعَ الآخر(١).

وفي قوله سبحانه: «جزيناهم بما كفروا» دون: جازيناهم بما كفروا، على الوجه الثاني في اسم الإشارة ما يحكي تمتُّعَ القوم بما يسرُّ، ووقوعَهم بعده فيما يسيء ويضرّ. ويمكن أن تكونَ نكتةُ التعبير بـ «جزى» الأكثر استعمالاً في الخير، ويجوز أنْ يكون التعبيرُ بذاك أولاً، وبـ «نجازي» ثانياً؛ ليكون كلٌّ أوفقَ بعلَّته، وهذا جارٍ على كلا الوجهين في الإشارة، فتدبَّر جدّاً.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ إلى آخره، عطفٌ بمجموعه على مجموع ما قبله عطفَ القصَّة على القصَّة، وهو حكايةٌ لما أوتوا من النعم في مسايرهم ومتاجرهم، وما فعلُوا بها من الكفران، وما حاقَ بهم بسبب ذلك، وما قبلُ كان حكايةً لما أوتوا من النعم في مساكنهم ومحلِّ إقامتِهم، وما فَعلوا بها، وما فُعِلَ بهم.

والمراد بالقرى التي بورك فيها قرى الشام، وذلك بكثرة أشجارها وأثمارها، والتوسعة على أهلها.

وعن ابن عباس: هي قرى بيت المقدس.

وعن مجاهد: هي السَّراوية(٢).

وعن وهب: قرى صنعاء.

وقال ابن جبير: قرى مأرب.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٧١.

(٢) كذا في الأصل و(م). ووقع في مطبوع تفسير مجاهد ٢/ ٢٢٥: الشراة، وفي البحر المحيط ٧/ ٢٧١: السرواي، وفي تفسير الطبري ١٩/ ٢٦٢: السروات. ولعلها الصواب، فالطبري رحمه الله أوردها في سياق تفسيره «قرى ظاهرة» بـ: قرى عربية. والسراة كما في القاموس (سرى): أعلى كل شيء، وسراة مضافة إلى بَجيلة، وزهران، وعنز، والحجر.... مواضع معروفة.

والمعوَّل عليه الأول، حتى قال ابن عطية: إنَّ إجماعَ المفسِّرين عليه[١].

ومعنى «ظاهرة» على ما روي عن قتادة: متواصلة يقرب بعضها من بعض، بحيث يظهر لمن في بعضها ما في مقابلته من الأخرى، وهذا يقتضي القرب الشديد، لكن سيأتي قريباً إنْ شاء الله تعالى ما قيل في مقدار ما بين كلِّ قريتين.

وقال المبرِّد: «ظاهرة»: مرتفعة، أي: على الآكام والظِّراب، وهي أشرفُ القرى.

وقيل: «ظاهرة»: معروفة، يقال: هذا أمرٌ ظاهر، أي: معروف، وتعرف القرية لحسنها، ورعايةِ أهلها المارينَ عليها.

وقيل: «ظاهرة»: موضوعة على الطرق؛ ليسهل سيرُ السابلة فيها.

وقال ابن عطية: الذي يظهر لي أنَّ معنى «ظاهرة»: خارجة عن المدن، فهي عبارةٌ عن القرى الصغار التي في ظواهر المدن.

كأنَّه فصل بهذه الصفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي المدن.

وظواهر المدن ما خرج عنها في الفيافي، ومنه قولهم: نزلنا بظاهر البلد الفلاني، أي: خارجاً عنه، ومنه قول الشاعر:

فلو شهدتني من قريشٍ عصابةٌ قريشِ البطاح لا قريشِ الظواهِرِ[٢]

يعني الخارجين[٣] من بطحاء مكة.

ويقال للساكنين خارج البلد: أهل الضواحي، وأهل البوادي أيضاً.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلنا نسبةَ بعضها إلى بعضٍ على مقدارٍ معيَّنٍ من السير، قيل: مَنْ سار من قريةٍ صباحاً وصلَ إلى أخرى وقتَ الظهيرة والقيلولة،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٥.
(٢) هو لذكوان مولى عمر بن الخطاب كما في الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٧١، وتاريخ دمشق ٧/ ٣٢٢، والوافي بالوفيات ١٤/ ٤١.
(٣) في (م): يعني أن الخارجين، والمثبت من الأصل والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦.

ومَنْ سارَ بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب، فلا يحتاج لحمل زادٍ، ولا مبيتٍ في أرضٍ خاليةٍ، ولا يخافُ من عدوٍّ ونحوه.

وقيل: كان بين كلِّ قريتين ميل.

وقال الضحاك: مقادير المراحل، كانت القرى على مقاديرها، وهذا هو الأوفق بمعنى «ظاهرة» على ما سمعت عن قتادة، وكذا بقوله سبحانه: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ فإنَّه مؤذِنٌ بشدَّة القرب، حتى كأنَّهم لم يخرجوا من نفس القرى.

والظاهر أن «سيروا» أمرٌ منه عزَّ وجلَّ على لسان نبيٍّ أو نحوه، وهو بتقدير القول، أي: قلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ أي: متى شئتم من ليل ونهار ﴿ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ من كلِّ ما تكرهونَه لا يختلفُ الأمنُ فيها باختلاف الأوقات.

وقدَّم الليالي لأنها مظنَّةُ الخوف من مغتال، وإن قيل: الليل أخفى للويل[1]، أو لأنَّها سابقةٌ على الأيام.

أو قلنا: سيروا فيها آمنين، وإن تطاولت مدَّةُ سفركم وامتدَّت لياليَ وأياماً كثيرة؛ قال قتادة: كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان، ولو وَجَدَ الرجلُ قاتل أبيه لم يَهِجْهُ.

أو: سيروا فيها لياليكم وأيَّامكم، أي: مدَّة أعماركم، لا تلقونَ فيها إلَّا الأمن، وقُدِّمت الليالي لسبقها.

وأيَّاما كان، فقد علم فائدةُ ذكر الليالي والأيام، وإن كان السيرُ لا يخلو عنهما.

وجُوِّزَ أن لا يكون هناك قولٌ حقيقةً، وإنَّما نُزِّل تمكينُهم من السير المذكور وتسوية مباديه وأسبابه منزلةَ القول لهم وأمرِهم بذلك، والأمر على الوجهين للإباحة.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لمَّا طالت بهم مدَّة النعمة بَطروا، وملُّوا، وآثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير، كما فعل بنو إسرائيل، وقالوا: لو كانت متاجرنا أبعدَ كان ما نجلبه منها أشهى وأغلى، فطلبوا تبديلَ اتصال العمران، وفصلَ

(١) مجمع الأمثال ٢/ ١٩٣.

المفاوز والقفار، وفي ضمن ذلك إظهارُ القادرين منهم على قطعها بركوب الرواحل وتزوُّد الأزواد الفخرَ والكِبْرَ على الفقراء العاجزين عن ذلك، فعجَّل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب القرى المتوسِّطة، وجعلها بَلْقَعاً لا يُسمع فيها داعٍ ولا مجيب.

والظاهر أنَّهم قالوا ذلك بلسان القال، وجَوَّزَ الإمام أن يكونوا قالوا: «باعِد» بلسان الحال، أي: فلمَّا كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم[1].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام: «بَعِّد» بتشديد العين فعل طلب[2].

وابن عباس وابن الحنفيَّة وعمرو بن فائد[3]: «ربُّنا» رفعاً، «بَعَّدَ» بالتشديد فعلاً ماضياً[4].

وابن عباس وابن الحنفيَّة أيضاً وأبو رجاء والحسن ويعقوب وزيد بن عليّ وأبو صالح وابن أبي ليلى والكلبيّ ومحمد بن عليّ وسلام وأبو حيوة: «ربُّنا» رفعاً، و«باعد» طلباً من المفاعلة[5].

وابن الحنفية أيضاً وسعيد بن أبي الحسن ـ أخو الحسن ـ وسفيان بن حسين وابن السميفع: «ربَّنا» بالنصب «بَعُدَ» بضمِّ العين فعلاً ماضياً، «بينَ» بالنصب، إلَّا سعيداً منهم فإنَّه يضمُّ النون، ويجعلُ «بينُ» فاعلاً[6]، ومَن نَصَبَ فالفاعل عنده ضميرٌ يعود على «السير».

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٣) في الأصل و(م): قائد، والمثبت هو الصواب.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٢. وزاد ابن جني وابن عطية نسبتها لابن يعمر.

(٥) كذا ذكر المصنف، والصواب أن «باعد» على هذه القراءة فعلٌ ماضٍ مفتوح العين. كما في النشر ٢/ ٣٥٠ عن يعقوب. ومثله في المحتسب ٢/ ١٨٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، والبحر ٧/ ٢٧٢-٢٧٣، كما أن المصنف نفسه سيذكر قريباً أن مَن رفع «ربنا» لا يكون الفعل عنده إلا ماضياً.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٣.

ومن نصبَ «ربَّنا» جعله منادى، فإنْ جاء بعده طلبٌ كان ذلك أشَراً وبَطَراً، وفاعِلْ بمعنى فَعِّلْ، وإن جاءَ فعلاً ماضياً كان ذلك شكوى من مسافة ما بين قراهم مع قصرها؛ لتجاوزهم في الترفُّه والتنعُّم، أو شكوى ممَّا حلَّ بهم من بُعْدِ الأسفار التي طلبوها بعدَ وقوعها، أو دعاءً بلفظ الخبر.

ومَن رفع «ربُّنا» فلا يكون الفعل عنده إلَّا ماضياً، والجملة خبريَّةٌ متضمِّنةٌ للشكوى، على ما قيل.

ونصبُ «بين» بعد كلِّ فعلٍ متعدٍّ في إحدى القراءات ماضياً كان أو طلباً ـ عند أبي حيان[1] ـ على أنَّه مفعولٌ به، وأيَّدَ ذلك بقراءة الرفع، أو على الظرفيَّة، والفعلُ منزَّل منزلةَ اللازم، أو متعدٍّ مفعولُه محذوف، أي: السير، وهو أسهلُ من إخراج الظرف الغيرِ المتصرِّف عن ظرفيته.

وقرئ: «بوعد» مبنيًّا للمفعول[2]. وقرأ ابن يعمر: «سفرنا» بالإفراد[3].

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث عرَّضوها للسخط والعذاب، حين بطروا النعمة وغمطوها.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمع: أحدوثة، وهي ما يُتَحدَّث به على سبيل التلهِّي والاستغراب، لا جمع حديث على خلاف القياس.

وجعلهم نفسَ الأحاديث؛ إمَّا على المبالغة، أو تقدير المضاف، أي: جعلناهم بحيث[4] يتحدَّثُ الناس بهم، متعجِّبين من أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم.

وقيل: المراد: لم يبق منهم إلَّا الحديثُ عنهم، ولو بقيَ منهم طائفةٌ لم يكونوا أحاديث.

---

(١) في البحر ٧/ ٢٧٣.
(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٨١ عن أبي معاذ.
(٣) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٣.
(٤) في (م): بحديث.

﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرَّقناهم كلَّ تفريق، على أن الممزَّق مصدر، أو: كلَّ مطَّرح ومكان تفريق، على أنَّه اسم مكان.

وفي التعبير بالتمزيق الخاصِّ بتفريق المتَّصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالةِ على شدة التأثير والإيلام ما لا يخفى، أي: مزَّقناهم تمزيقاً لا غايةَ وراءه، بحيث يُضْرَب مثلاً في كلِّ فُرقةٍ ليس بعدها وصال.

وعن ابن سلام أنَّ المراد: جعلناهم تراباً تذروه الرياح. وهو أوفق بالتمزيق، إلَّا أنَّ جميعَ أجلَّة المفسرين على خلافه، وأنَّ المراد بتمزيقهم تفريقهم بالتباعد. وقد تقدَّم لك غيرَ بعيد حديثُ كيفية تفرُّقهم في جواب رسول الله ﷺ لفروة بن مسيك.

وفي «الكشاف»(١): لحقَ غسان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان.

وفي «التحرير»: وقع منهم قضاعة بمكَّة، وأسد بالبحرين، وخزاعة بتهامة.

وظاهرُ الآية أنَّ ذلك كان بعد إرسال السيل العرم، وفي «البحر»: أنَّ في الحديث أنَّ سبأ أبو عشرة قبائل، فلمَّا جاء السيل على مأرب تيامن منها ستةُ قبائل، وتشاءمت أربعة(٢).

وزعم بعضُهم أنَّ تفرُّقَهم كان قبيل مجيء السيل.

قال عبد الملك في «شرح قصيدة ابن عبدون»: إنَّ أرض سبأ من اليمن كانت العمارةُ فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكبِ المُجِدِّ، وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعضٍ مسيرةَ أربعة أشهر، فمزِّقوا كلَّ ممزَّقٍ، وكان أول من خرج من اليمن في أول الأمر عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا(٣)، وكان سبب خروجه أنّه كانت له زوجةٌ كاهنةٌ يقال لها: طريفة الخير، وكانت رأت في منامها أنَّ سحابةً غشيت

---

(١) ٣/ ٢٨٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٧٣. وهو حديث فروة بن مسيك السالف.

(٣) ولقِّب عمرو بذلك لأنه كان يلبسُ كلَّ يوم حلتين ويمزقهما بالعشي، يكره العود فيهما، ويأنف أن يلبسهما غيره. القاموس (مزق).

أرضَهم، فأرعدت وأبرقت، ثمَّ صَعَقت فأحرقت كلَّ ما وقعت عليه، ففزعت طريفةُ لذلك فزعاً شديداً، وأتت الملك عَمْراً وهي تقول: ما رأيت كاليوم أزال عني النوم، رأيتُ غيماً أرعدَ وأبرقَ، وزمجرَ وأصعقَ، فما وقع على شيءٍ إلَّا أحرقَ. فلما رأى ما داخَلَها من الفزع سكَّنها، ثمَّ إن عَمْراً دخل على حديقةٍ له ومعه جاريتان من جواريه، فبلغ ذلك طريفة، فخرجت إليه، وخرجَ معها وصيفٌ لها اسمه سنان، فلمَّا برزت من بيتها عرض لها ثلاث مَنَاجد منتصباتٍ على أرجلهنَّ، واضعاتٍ أيديهنَّ على أعينهنَّ - وهي دوابُّ تشبه اليرابيع - فقعدت إلى الأرض واضعةً يديها على عينيها، وقالت لوصيفها: إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرني، فلمَّا ذهبت أخبرها فانطلقت مسرعةً، فلمَّا عارضها الخليج الذي في حديقة عمرو وَثَبَتْ من الماء سلحفاةٌ فوقعت على الطريق على ظهرها، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع، وتستعينُ بذنبها، فتحثو التراب على بطنها من جنباته، وتقذفُ بالبول على بطنها قذفاً، فلمَّا رأتَها طريفة جلست إلى الأرض، فلمَّا عادت السلحفاة إلى الماء مضت طريفة إلى أن دخلت على عمرو، وذلك حين انتصف النهار، في ساعة شديدٍ حرُّها، فإذا الشجرُ يتكافأ[1] من غير ريح، فلمَّا رآها استحيى منها، وأمر الجاريتين بالانصراف إلى ناحية، ثم قال لها: يا طريفة، فكهنت وقالت: والنورِ والظلماءِ والأرضِ والسماءِ إنَّ الشجر لهالكٌ، وليعودنَّ الماء كما كان في الزمن السالك. قال عمرو: من أخبركِ بهذا؟ قالت: أخبرتني المناجد بسنين شدائد، يقطع فيها الولد الوالد. قال: ما تقولين؟ قالت: أقول قولَ الندمان لهيفاً، لقد رأيتُ سلحفاة تجرفُ الترابَ جرفاً، وتقذفُ بالبول قذفاً، فدخلْتُ الحديقةَ، فإذا الشجرُ من غير ريحٍ يتكفَّأ. قال: ما ترين في ذلك؟ قالت: هي داهيةٌ دهياء من أمورٍ جسيمةٍ ومصايب عظيمة. قال: وما هو، ويلك؟ قالت: أجل، وإنَّ فيه الويل، وما لك فيه من نيل، وإنَّ الويلَ فيما يجيء به السيل. فألقي عمرو عن فراشه وقال: ما هذا يا طريفة؟ قالت: خطبٌ جليلٌ، وحزنٌ طويلٌ، وخلف قليل. قال:

---

(١) كذا في الأصل و(م). وفي مروج الذهب ٣/ ٣٨٠: يتكفَّأ. ولعلها الصواب كما ستأتي قريباً.

وما علامةُ ما تذكرين؟ قالت: اذهب إلى السدِّ، فإذا رأيت جُرَذاً يُكثر بيديه في السدِّ الحفرَ، ويقلبُ برجليه من أَجَلِّ الصخر[1]، فاعلم أنَّ الغمر غمر، وأنَّه قد وقع الأمر. قال: وما الذي تذكرين؟ قالت: وعدٌ من الله تعالى نزل، وباطلٌ بطلَ، ونكالٌ بنا نكلَ، فبغيرك يا عمرو يكون الثَّكَل. فانطلق عمرو، فإذا الجُرَذ يقلبُ برجليه صخرةً ما يقلُّها خمسونَ رجلاً، فرجع وهو يقول:

أبصرتُ أمراً عادني منه أَلَمْ

وهاجَ لي من هوله بَرْحُ السَّقَمْ

من جُرَذٍ كفحل خنزير الأَجَمْ

أو كبش صرم من أفاويق الغَنَمْ

يسحبُ قطراً من جلاميد العَرَمْ

له مخاليبٌ وأنيابٌ قضمْ

ما فاته سحلاً من الصخر قَصَمْ

فقالت طريفة: وإنَّ من علامة ذلك الذي ذكرتُه لك أنْ تجلسَ فتأمر بزجاجةٍ، فتوضع بين يديك، فإنَّ الريحَ يملؤها من تراب البطحاء من سهل الوادي وحَزْنِه، وقد علمتَ أنَّ الجنان مظلَّلة لا يدخلها شمسٌ ولا ريح، فأمر عمرو بزجاجةٍ فوضعت بين يديه، ولم تمكث إلَّا قليلاً حتى امتلأت من التراب، فأخبرها بذلك، وقال لها: متى يكون ذلك الخراب الذي يحدث في السَّدِّ؟ قالت له: فيما بيني وبينك سبع سنين. قال: ففي أيِّها يكون؟ قالت: لا يعلم بذلك إلَّا الله تعالى، ولو علمه أحد لعلمتُه، وإنَّه لا تأتي عليّ ليلةٌ فيما بيني وبين السبع سنين إلَّا ظننتُ هلاكه في غدها أو في مسائها.

ثم رأى عمرو في منامه سيلَ العرم. وقيل له: إنَّ آية ذلك أنْ ترى الحصباء قد ظهرت في سعف النخل، فنظر إليها فوجدَ الحصباء قد ظهرت فيها، فعلم أنَّه واقعٌ،

---

(١) في مروج الذهب ٣/ ٣٨٢: من الجبل الصخر.

وأنَّ بلادهم ستخرب، فكتم ذلك، وأجمع على بيع كلِّ شيءٍ له بأرض مأرب، وأن يخرج منها هو وولده، ثمَّ خشي أن تنكرَ الناسُ عليه ذلك، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه إليه أن يتأبَّى عليه، وأن يفعل ذلك به في الملأ من الناس، وإذا لطمه، يرفع هو يده ويلطمه، ثمَّ صنع عمرٌو طعاماً، وبعث إلى أهل مأرب أنَّ عَمْراً قد صنع طعاماً يوم مجد وذكر، فاحضُروا طعامه، فلمَّا جلس الناس للطعام، جلس عنده ابنُه الذي أمرَه بما قد أمره، فجعل يأمره فيتأبَّى عليه، فرفع عمرو يده فلطمَه، فلطمه ابنُه، وكان اسمه: مالكاً، فصاح عمرو: واذلَّاه، يوم فخر عمرو وبهجته صبيٌّ يضربُ وجهَه، وحلفَ ليقتلنَّه، فلم يزالوا يرغبون إليه حتى ترك، وقال: والله لا أقيم بموضعٍ صُنع فيه بي هذا، ولأبيعنَّ أموالي حتى لا يرثَ بعدي منها شيئاً، فقال الناس: بعضهم لبعض اغتنموا غيظَ عمرو واشتروا منه أموالَه قبل أنْ يرضى، فابتاعَ الناسُ منه كلَّ ماله بأرض مأرب، وفشا بعضُ حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم، فقام ناسٌ من الأزد، فباعوا أموالهم، فلما أكثروا البيعَ استنكر الناس ذلك، فأمسكوا عن الشراء، فلما اجتمعت إلى عمرو أموالهُ أخبرَ الناس بشأن السيل وخرج، فخرج لخروجه منها بشرٌ كثيرٌ، فنزلوا أرضَ عكٍّ، فحاربتهم عكٌّ، فارتحلوا عن بلادهم، ثم اصطلحوا، وبقوا بها حتى مات عمرو، وتفرقوا في البلاد، فمنهم من سار إلى الشام، وهم أولاد جفنة بن عمرو بن عامر، ومنهم من سار إلى يثرب، وهم أبناء قيلة الأوس والخزرج، وأبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، وسارت أزد السراة إلى السراة، وأزد عُمان إلى عُمان، وسار مالك بن فهم إلى العراق، ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض اليمن طيِّئ، فنزلت أجأ وسلمى، ونزلت أبناء ربيعة بن حارثة بن عامر بن عمرو تهامة، وسُمُّوا خزاعة؛ لانخزاعهم من إخوانهم، ثم أرسل الله تعالى على السدِّ السيلَ فهدمه، وفي ذلك يقول ميمون بن قيس الأعشى[1]:

وفي ذاك للمؤتسي أسوةٌ ومأربُ عفَّا[2] عليها العرمْ

---

(١) ديوانه ص٩٣.

(٢) في الديوان: قفَّى.

رخامٌ بَنَتْهُ لهم حميرٌ إذا جاء موَّاره[١] لم يَرِمْ
فأروى الزروع وأعنابها على سَعَةٍ ماؤهم إذ قُسِمْ
فصاروا أيادي ما يقدرو ن منه على شرب طفل فُطِمْ[٢]

وذكر الميداني عن الكلبيِّ عن أبي صالح أنَّ طريفةَ الكاهنة قد رأت في كهانتها أنَّ سدَّ مأرب سيخرب، وأنَّه سيأتي سيلُ العرم فيخرب الجنتين، فباع عمرو بن عامر أموالَه، وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكَّة، فأقاموا بها وبما حولها، فأصابتهم الحُمَّى، وكانوا ببلدٍ لا يدرون فيه ما الحمَّى، فدعوا طريفة فشكوا إليها الذي أصابَهم، فقالت لهم: قد أصابني الذي تَشْكُون، وهو مفرِّقٌ بيننا. قالوا: فماذا تأمرين؟ قالت: من كان منكم ذا همٍّ بعيدٍ وجملٍ شديد ومزادٍ جديد، فليلحق بقصر عُمان المشيد. فكانت أزد عمان، ثم قالت: من كان منكم ذا جَلَدٍ وقسر، وصبر على أزمات الدهر، فعليه بالأراك من بطن مر، فكانت خزاعة. ثم قالت: من كان منكم يريدُ الراسيات في الوحل، المطعمات في المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل. فكانت الأوس والخزرج. ثم قالت: من كان منكم يريدُ الخمر والخمير، والملك والتأسير[٣]، ويلبس الديباج والحرير، فليلحق ببصرى وغوير. وهما من أرض الشام، فكان الذين سكنوها آل جفنة من غسان، ثم قالت: من كان منكم يريدُ الثياب الرقاق، والخيل العتاق، وكنوز الأرزاق، والدم المهراق، فليلحق بأرض العراق، فكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش، ومن كان بالحيرة، وآل محرق[٤].

والحقُّ أنَّ تمزيقَهم وتفريقَهم في البلاد كان بعد إرسال السيل، نعم لا يبعدُ خروجُ بعضهم قبيله حين استشعروا وقوعَه، وفي المثل: ذهبوا أيدي سبا، ويقال:

---

(١) في الديوان: جاءه ماؤهم.

(٢) الشطر الأول كما جاءت روايته في الديوان:

فطاروا سراعاً وما يقدرو

(٣) في مجمع الأمثال للميداني: والتأمير.

(٤) مجمع الأمثال ١/ ٢٧٦-٢٧٧.

تفرَّقوا أيدي سبا، ويروى: أيادي، وهو بمعنى الأولاد؛ لأنَّهم أعضاد الرجل لتَقوِّيه بهم.

وفي «المفصَّل» أنَّ الأيديَ الأنفسُ كنايةً أو مجازاً. قال في «الكشف»: وهو حسنٌ، ونصبُه على الحاليَّة بتقدير: مثل؛ لاقتضاء المعنى إيَّاه، مع عدم تعرُّفه بالإضافة.

وقيل: إنَّه بمعنى البلاد أو الطرق من قولهم: خذ يد البحر، أي: طريقه وجانبه، أي: تفرَّقوا في طرقٍ شتى.

والظاهر أنَّه على هذا منصوبٌ على الظرفيَّة بدون تقدير «في» كما أشار إليه الفاضلُ اليمني، وربَّما يُظَنُّ أن الأيدي أو الأيادي بمعنى النعم، وليس كذلك، ويقال في الشخص إذا كان مشتَّت الهمِّ موزَّعَ الخاطرِ: كان أياديَ سبا، وعليه قول كُثيِّر عزَّة:

أيادي سبا يا عزُّ ما كنت بعدكم فلم يَحْلُ بالعينين بعدك منظر[1]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من قصتهم ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: شأنه الصبر على الشهوات ودواعي الهوى وعلى مشاقِّ الطاعات، وقيل: شأنُه الصبر على النعم، بأن لا يبطرَ ولا يطغى. وليس بذاك.

﴿شَكُورٍ ١٩﴾ شأنه الشكر على النعم. وتخصيص هؤلاء بذلك؛ لأنهم المنتفعون بها.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: حقَّق عليهم ظنَّه، أو وجد ظنَّه صادقاً.

والظاهر أن ضمير «عليهم» عائد على سبأ، ومنشأ ظنِّه رؤيةُ انهماكِهم في الشهوات.

وقيل: هو لبني آدم، ومنشأ ظنِّه أنَّه شاهدَ أباهم آدم عليه السلام، وهو قد أصغى إلى وسوسته، فقاس الفرع على الأصل، والولد على الوالد.

وقيل: إنَّه أدرك ما رُكِّب فيهم من الشهوة والغضب، وهما منشئان للشرور.

---

(١) ديوان كثير ص١٥٠.

وقيل: إنَّ ذاك كان ناشئاً من سماع قول الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ يوم قال سبحانه لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ويمكن أن يكون منشأ ذلك ما هو عليه من السوء كما قيل:

إذا ساء فعلُ المرء ساءتْ ظنونُه وصدَّق ما يعتادُهُ من توهُّم[١]

وجُوِّز أن يكون كلُّ ما ذكر منشأً لظنِّه في سبأ.

والكلامُ على الوجه الأول في الضمير ـ على ما قال الطيبيُّ ـ تتمَّةٌ لسابقه، إمَّا حالاً أو عطفاً، وعلى الثاني هو كالتذييل تأكيداً له.

وقرأ البصريون[٢]: «صَدَق» بالتخفيف، فنصب «ظنَّه» على إسقاط حرف الجرِّ، والأصل: صدق في ظنِّه، أي: وجدَ ظنَّه مصيباً في الواقع، فصدق حينئذٍ بمعنى أصاب مجازاً.

وقيل: هو منصوبٌ على أنَّه مصدرٌ لفعل مقدَّر، أي: يظنُّ ظنَّه، ك: فَعَلْتَه جهدَك، أي: تَجْهَدُ جهدَك، والجملة في موقع الحال، و«صدق» مفسَّرٌ بما مرَّ.

ويجوزُ أن يكون منصوباً على أنَّه مفعولٌ به، والفعلُ متعدٍّ إليه بنفسه؛ لأنَّ الصدقَ أصلُه في الأقوال، والقولُ ممَّا يتعدَّى إلى المفعول به بنفسه، والمعنى: حقَّق ظنَّه، كما في الحديث: «صَدَقَ وَعْدَه ونَصَرَ عَبْدَه»[٣]، وقولِه تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقرأ زيد بن علي وجعفرُ بن محمد رضي الله عنهم، والزهريُّ، وأبو الجهجاه[٤] الأعرابيُّ من

---

(١) البيت للمتنبي وهو في ديوانه ٤/ ٢٦٤.

(٢) أبو عمرو ويعقوب. وقرأ بها أيضاً نافع وأبو جعفر المدنيان، وابن عامر الشامي، وابن كثير المكي. انظر التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٣) ورد هذا اللفظ في عدة أحاديث، منها حديث ابن عمر عند النسائي ٨/ ٤٢، وابن ماجه (٢٦٢٨). وحديث عبد الله بن عمرو عند أبي داود (٤٥٤٧).

(٤) كذا ذكر المصنف تبعاً لأبي حيان في البحر ٧/ ٢٧٣. ووقع في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٣، =

فصحاء العرب، وبلال بن أبي برزة بنصب «إبليس» ورفع «ظنه»، كذا في البحر[١].

والظاهر أنَّ ذلك مع قراءة «صدَّق» بالتشديد، أي: وجده ظنُّه صادقاً، لكن ذكر ابنُ جنّي[٢] أنَّ الزهريَّ كان يقرأ ذلك مع تخفيف «صدق» أي: قال له الصِّدقَ حين خَيَّلَ له إغواءَهم[٣].

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «إبليسُ ظنُّه» برفعهما[٤]، بجعل الثاني بدل اشتمال، وأبهم الزمخشريُّ القارئَ بذلك فقال: قُرئ بالتخفيف ورَفْعِهما، على معنى: صَدَق عليهم ظنُّ إبليس، ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في «صدق»، كقوله:

فدت نفسي وما ملكت يميني ... فوارسَ صدَّقت فيهم ظنوني[٥]

وهو ظاهرٌ في أنَّه لم يقرأ أحدٌ بذلك، والله تعالى أعلم.

وعلى جميع القراءات «عليهم» متعلِّقٌ بالفعل السابق، وليس متعلِّقاً بالظنِّ على شيء منها.

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: سبأ، وقيل: بنو آدم ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ أي: إلَّا فريقاً هم المؤمنون لم يتَّبعوه، على أن «مِن» بيانيَّة، وتقليلهم إمَّا لقلَّتهم في حدِّ ذاتهم، أو لقلَّتهم بالإضافة إلى الكفار، وهذا متعيِّنٌ على القول برجوع الضمير إلى بني آدم.

وكأنِّي بك تختارُ كون القلَّة في حدِّ ذاتهم على القول برجوع الضمير إلى سبأ؛ لعدم شيوع كثرة المؤمنين في حدِّ ذاتهم منهم.

= ومعاني القرآن ٥/ ٤١٣ ـ كلاهما للنحاس ـ والقراءات الشاذة ص١٢١، والمحتسب ٢/ ١٩١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٣: أبو الهجهاج.

(١) ٧/ ٢٧٣.

(٢) في المحتسب ٢/ ١٩١.

(٣) في الأصل: إغوائهم، وفي (م): إغواؤهم، والمثبت هو الصواب، وهو منصوب على المفعولية، وفاعل «خيَّل» ضمير يعود على الظن. حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٠.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٣.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٨٦، والبيت لأبي الغول الطُّهوي كما في حماسة أبي تمام ١/ ٣٨ (بشرح المرزوقي)، وكتاب الحيوان للجاحظ ٣/ ١٠٦، والأمالي ١/ ٢٦٠، وخزانة الأدب ٦/ ٤٣٤.

أو: إلَّا فريقاً من فرق المؤمنين لم يتَّبعوه، وهم المخلصون، فـ «من» تبعيضيَّة، والمراد مطلقُ الاتِّباع الذي هو أعمُّ من الكفر.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: تسلُّطٍ واستيلاء بالوسوسة والاستغواء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ العلل، و«مَنْ» موصولة، وجَعْلُها استفهاميَّةً بعيدٌ. والعلمُ المستقبل المعلَّل ليس هو العلم الأزليَّ القائم بالذات المقدَّسة، بل تعلُّقه بالمعلوم في عالم الشهادة الذي يترتَّب عليه الجزاء بالثواب والعقاب، وهو مضمَّنٌ معنى التميُّز لمكان «من»، أي: ما كان له عليهم تسلُّطٌ لأمرٍ من الأمور، إلَّا لتعلُّقِ علمنا بـ «من يؤمنُ بالآخرة» متميِّزاً «ممَّن هو منها في شك» تعلُّقاً حاليًّا يترتَّبُ عليه الجزاء، وإلى هذا يشيرُ كلام كثير من أئمَّة التفسير.

وقيل: المعنى: لنجعل المؤمن متميِّزاً من غيره في الخارج، فيتميَّز عند الناس.

وقيل: المراد من وقوع العلم في المستقبل وقوعُ المعلوم؛ لأنَّه لازمُه، فكأنَّه قيل: ما كان ذلك لأمرٍ من الأمور إلَّا ليؤمنَ مَن قُدِّرَ إيمانُه، ويضلَّ مَن قُدِّرَ ضلاله، وعَدَل عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالغة؛ لما فيه من جُعْلِ المعلوم عينَ العلم.

وقيل: المراد بالعلم الجزاء، فكأنَّه قيل: [النجزيَ][1] على الإيمان وضدِّه.

وقيل: العلم على ظاهره، إلَّا أنَّ المستقبل بمعنى الماضي، وعِلْمُ الله تعالى الأزليُّ بأهل الشكِّ يستدعي تسلُّطَ الشيطان عليهم.

وقيل: المراد: لنعامِل معاملة من كأنَّه لا يعلم ذلك، وإنَّما يُعمل ليَعلم.

وقيل: المراد: ليعلم أولياؤنا وحزبنا ذلك.

ولا يخفى عليك ما في بعض هذه الأقوال.

وكان الظاهر: إلَّا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممَّن لا يؤمن بها، وعدل عنه إلى ما في النظم الجليل لنكتةٍ، وهي أنَّه قوبل الإيمانُ بالشكِّ؛ ليؤذنَ بأنَّ أدنى مراتب الكفر مهلكة، وأوردَ المضارعَ في الجملة الأولى إشارةً إلى أنَّ المعتبر في الإيمان

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٠، والكلام فيه بنحوه.

الخاتمة، ولأنَّه يحصلُ بنظرٍ تدريجيٍّ متجدِّدٍ، وأتى بالثانية اسميَّةً إشارةً إلى أنَّ المعتبرَ الدوامُ والثبات على الشكِّ إلى الموت. ونوَّنَ شكّاً للتقليل، وأتى بـ «في» إشارةً إلى أنَّ قليلَه كأنَّه محيطٌ بصاحبه، وعدَّاه بـ «من» دون «في» وقدَّمه؛ لأنَّه إنَّما يضرُّ الشكُّ الناشئُ منها، وأنَّه يكفي شكٌّ مّا فيما يتعلَّقُ بها.

وقرأ الزهريُّ: «ليُعْلَم» بضمِّ الياء وفتح اللام مبنيّاً للمفعول[1].

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ أي: وكيلٌ قائمٌ على أحواله وشؤونه، وهو إمَّا مبالغةٌ في حافظ، وإمَّا بمعنى مُحافظ، كجليس ومجالس، وخليط ومخالط، ورضيع ومراضع، إلى غير ذلك.

﴿قُلِ﴾ يا محمد للمشركين الذين ضُرِب لهم المثلُ بقصَّة سبأ المعروفة عندهم بالنقل في أخبارهم وأشعارهم، تنبيهاً على بطلانِ ما هم عليه وتبكيتاً لهم: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي: زعمتموهم آلهةً، كذا قدَّره الجمهور، على أنَّ الضميرَ مفعولٌ أول، وآلهة مفعولٌ ثانٍ، وحذف الأول تخفيفاً؛ لأنَّ الصلةَ والموصول بمنزلة اسم واحد، فهناك طولٌ يُطْلَب تخفيفه، والثاني لأنَّ صفته - أعني قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ - سدَّت مسدَّه، فلا يلزم إجحافٌ بحذفهما معاً.

ولا يجوزُ أنْ يكون «من دون الله» هو المفعول الثاني، إذ لا يتمُّ به مع الضمير الكلام، ولا يلتئم النظام، فأيُّ معنًى معتبرٍ لهم من دون الله، على أنَّ في جواز حذف أحد مفعولي هذا الباب اختصاراً خلافاً، ومن أجازه قال: هو قليلٌ في كلامهم.

وكذا لا يجوز أنْ يكون «لا يملكون»؛ لأنَّ ما زعموه ليس كونهم غير مالكين، بل خلافه، وليس ذلك أيضاً بزعمٍ بالمعنى الشائع - لو سُلِّم أنَّه صَدَر منهم - بل حقٌّ.

وقال ابنُ هشام: الأولَى أن يقدَّرَ: زعمتم أنهم آلهةٌ؛ لأنَّ الغالب على «زعم» أن لا يقع على المفعولين الصريحين، بل على ما يسدُّ مسدَّهما من «أنَّ»

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩١، والكشاف ٣/ ٢٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٤.

وصلتها[١]، ولم يقع في التنزيل إلَّا كذلك[٢]، أي: فالأنسبُ أن يوافق المقدَّرُ المصرَّحَ به في التنزيل.

ورُجِّحَ تقديرُ الجمهور بأنَّه أبعدُ عن لزوم الإجحاف.

والأمر للتوبيخ والتعجيز، أي: ادعوهم فيما يهمُّكم من دفع ضرٍّ أو جلب نفعٍ، لعلَّهم يستجيبون لكم، إن صحَّ دعواكم. روي أنَّ ذلك نزلَ عند الجوع الذي أصابَ قريشاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ كلامٌ مستأنفٌ في موقع الجواب، ولم يمهلهم ليجيبوا إشعاراً بتعيُّنه، فإنَّه لا يقبل المكابرة.

وجُوِّزَ تقديرُ: ثم أجب عنهم قائلاً: «لا يملكون» إلخ، وهو متضمِّنٌ بيان حال الآلهة في الواقع، وأنَّهم إذا لم يملكوا مقدار ذرَّةٍ، أي: من خيرٍ وشرٍّ، ونفعٍ وضرٍّ، كيف يكونون آلهةً تُعبد؟!

﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أمرٍ من الأمور، وذكر السماوات والأرض للتعميم عرفاً، فيراد بهما جميعُ الموجودات، وهذا كما يقال: المهاجرون والأنصار، ويراد جميع الصحابة ﷺ، فلا يتوهَّمُ أنَّهم يملكون في غيرهما.

ويجوز أن يقال: إنَّ ذِكْرَهما لأنَّ بعضَ آلهة المخاطَبين سماويَّةٌ كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضيَّةٌ كالأصنام، فالمراد نفي قدرة السماويِّ منهم على أمرٍ سماويّ، والأرضيّ على أمرٍ أرضيّ، ويُعْلَم نفيُ قدرته على غيره بالطريق الأولى، أو لأنَّ الأسباب القريبةَ للخير والشَّرِّ سماويَّةٌ وأرضيَّةٌ، فالمراد نفي قدرتهم بشيءٍ من الأسباب القريبة، فكيف بغيرها؟!

﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لآلهتهم ﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: شركة؛ لا خلقاً ولا ملكاً

---

(١) في (م): وصلتهما.

(٢) مغني اللبيب ص٧٧٤.

ولا تصرُّفاً. ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: لله عزَّ وجلَّ ﴿مِنْهُم﴾ أي: من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: مُعِيْنٍ يعينُه سبحانه في تدبير أمرهما.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: لا توجدُ رأساً، كما في قوله:

على لاحبٍ لا يُهْتَدى بمناره[1]

لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإنَّما عُلِّقَ النفيُ بنفعها دون وقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، على ما اختاره الزمخشريُّ[2]. و«مَنْ» عبارةٌ عن الشافع، واللام الداخلة عليه للاختصاص، مثلها في: الكرم لزيد، ولام «له» صلةُ «أَذِنَ»، والمراد نفي شفاعة آلهتهم لهم، لكن ذكر ذلك على وجهٍ عامٍّ؛ ليكون طريقاً برهانيّاً، أي: لا تنفعُ الشفاعةُ في حالٍ من الأحوال، أو كائنةً لمن كانت إلَّا كائنةً لشافعٍ أُذِنَ له فيها من النبيين والملائكة ونحوِهم من المستأهلين لمقام الشفاعة.

ومن البيِّنِ أنَّهم لا يؤذنُ لهم في الشفاعة للكفار، فقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، والشفاعةُ لهم بمعزلٍ عن الصواب، وعدمُ الإذن للأصنام أبينُ وأبين، فتبيَّنَ حرمانُ هؤلاء الكفرة منها بالكليَّة.

أو «مَن» عبارةٌ عن المشفوع له، واللام الداخلة عليه للتعليل، ولام «له» صلةُ «أَذِنَ»، أي: لا تنفعُ الشفاعة إلَّا كائنةً لمشفوعٍ أذن له، أي: لشفيعه، على الإضمار؛ لأنَّ المشفوع لم يصدر عنه فعلٌ حتى يؤذَنَ له فيه أنْ يشفعه.

واختار الزمخشريُّ أنَّ لام «له» للتعليل، أي: إلَّا لمن وقع الإذنُ للشفيع لأجله، ووجهُ على ما في «الكشف» حصولُ الإشارة إلى الشافع والمشفوع؛ لأنَّ

(١) هو صدر بيت لامرئ القيس، كما في ديوانه ص٦٦، وعجزه:

إذا سافه العَوْدُ النباطيُّ جرجرا

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٨٧.

المأذونَ لأجله المشفوع، والمأذون الشافع، ولأنَّ الغرضَ بيانُ محلِّ النفع ـ وهو المشفوع ـ كان التصريحُ بذكره أهمّ.

ولا يخفى أنَّ الوجهَ السابق ظاهرُ التكلُّف، فيه الإضمارُ الذي لا يقتضيه المقام، وحاصل المعنى على هذا: لا تنفعُ الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها إلَّا كائنةً لمن وقعَ الإذنُ للشفيع لأجله وفي شأنه من المستحقِّين للشفاعة، وأمَّا من عداهم من غير المستحقِّين لها، فلا تنفعهم أصلاً، وإن فُرِضَ وقوعُها من الشفعاء، إذ لم يؤذن لهم في شفاعتهم، بل في شفاعة غيرهم، ويثبتُ من هذا حرمانُ هؤلاء الكفرة من شفاعة الشفعاء المستأهلين للشفاعة بعبارة النَّصِّ، وعن[1] شفاعة الأصنام بدلالته، إذ حين حُرِموها من جهة القادرين عليها في الجملة، فلأَنْ يحرمُوها من جهة العجزة عنها بالكلِّيَّة أولى.

وذهب أبو حيَّان[2] إلى أنَّ الاستثناء من أعمِّ الذوات، أي: لا تنفع الشفاعة لأحدٍ إلَّا لمن.. إلخ، واستَظْهَر احتمالَ أن تكون «مَن» عبارةً عن المشفوع له.

واللام ـ نظراً إلى الظاهر ـ متعلِّقةٌ بـ «الشفاعة»، وجَوَّزَ أبو البقاء[3] تعلُّقها بـ «تنفع». وتُعقِّبَ[4] بأنَّه لا يتعدَّى إلَّا بنفسه. وقال أبو حيان فيه: إنَّ المفعولَ متأخِّرٌ، فدخول اللام قليل[5].

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: «أُذِنَ» مبنيًّا للمفعول[6]، فـ «له» قائمٌ مقام فاعله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ صيغة التفعيل للسلب، كما في: قرَّدت البعير، إذا أزلتَ قُرَاده، ومنه التمريض، فالتفزيعُ إزالةُ الفزع، وهو ـ على ما قال الراغب ـ انقباضٌ ونِفارٌ يعتري الإنسان من الشيء المخيف[7].

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٧/ ١٣١: ومن.

(٢) في البحر ٧/ ٢٧٦.

(٣) في الإملاء ٢/ ١٩٧.

(٤) في (م): وتعقبه.

(٥) البحر ٧/ ٢٧٦.

(٦) التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠. وهي قراءة خلف من العشرة.

(٧) المفردات (فزع).

و«حتى» للغاية، واختلفوا في المغيَّا، إذ لم يكن قبلها ما يصلحُ أن يكون مغيّاً بحسب الظاهر، واختلفوا لذلك في المراد بالآية اختلافاً كثيراً؛ فقيل: هو ما يفهم من حديث الشفاعة، ويشيرُ إليه، وذلك أنَّ قوله تعالى: (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) يؤذنُ بشفعاء ومشفوعٍ لهم، وأنَّ هناك استئذاناً في الشفاعة، ضرورةَ أنَّ وقوعَ الإذن يستدعي سابقية ذلك، وهو مستدعٍ للترقُّب والانتظار للجواب، وحيث إنَّه كلامٌ صادرٌ عن مقام العظمة والكبرياء - كيف وقد تقدَّمه ما تقدَّمه - يدلُّ على كون الكلِّ في ذلك الموقف خلفَ سُرَادق العظمة، ملقًى عليهم رداءُ الهيبة، وما بعدَ حرفِ الغاية أيضاً شديدُ الدلالة على ذلك، فكأنَّه قيل: يقف[1] الشفعاء والمشفوع لهم في ذلك الموقف الذي يتشبَّثُ فيه المستشفعون بأذيال الرجاء من المستشفَع بهم، ويقوم فيه المستشفَع به على قدم الالتجاءِ إلى الله جلَّ جلاله، فيطرقُ باب الشفاعة بالاستئذان فيها، ويبقون جميعاً منتظرين وجِلين فزعين، لا يدرون ما يُوَقِّع لهم الملكُ الأعظم جلَّ وعلا على رقعة سؤالهم، وماذا يصحُّ لهم بعد عرض حالهم، حتى إذا أزيلَ الفزعُ عن قلوب الشفعاء والمشفوع لهم بظهور تباشير حسن التوقيع، وسطوعِ أنوار الإجابة والارتضاء من آفاق رحمة الملك الرفيع، قالوا - أي: قال بعضهم لبعض، والظاهر أنَّ البعضَ القائلَ المشفوعُ لهم، وإن شئت فأَعِدِ الضمير إليهم من أوّل الأمر، إذ هم الأشدُّ احتياجاً إلى الإذن، والأعظمُ اهتماماً بأمره -: ماذا قال ربكم في شأن الإذن بالشفاعة، قالوا - أي: الشفعاء، فإنَّهم المباشرون للاستئذان بالذات، المتوسِّطون لأولئك السائلين بالشفاعة عنده عزَّ وجل -: قال ربُّنا القولَ الحقَّ، أي: الواقعَ بحسب ما تقتضيه الحكمة، وهو الإذنُ بالشفاعة لمن ارتضى.

والظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ من تتمَّة كلام الشفعاء، قالوه اعترافاً بعظمة جناب العزَّة جلَّ جلاله، وقصورِ شأن كلٍّ من سواه، أي: هو جلَّ شأنُه المتفرِّدُ بالعلوِّ والكبرياء، لا يشاركُه في ذلك أحدٌ من خلقه، وليس لكلٍّ منهم - كائناً من كان - أن يتكلَّم إلَّا من بعد إذنه جلَّ وعلا.

---

(١) في (م): تقف.

وفيه من تواضعهم بعد ترفيع قَدْرِهم بالإذن لهم بالشفاعة ما فيه، وفيه أيضاً نوعٌ من الحمد، كما لا يخفى.

وهذه الجملة المغيَّاة بما ذُكر لا يبعد أن تكون جواباً لسؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه قيل: كيف يكونُ الإذن في ذلك الموقف للمستأذنين، وكيف الحالُ فيه للشافعين والمستشفعين؟ فقيل: يقفون منتظرين وَجِلِين فزعين، حتى إذا.. إلخ.

والآيات دالَّةٌ على أنَّ المشفوعَ لهم هم المؤمنون، وأمَّا الكفرةُ فهم عن موقف الاستشفاع بمعزلٍ، وعن التفزيع عن قلوبهم بألفِ ألفِ مَنْزِلٍ.

وجَعَلَ بعضُهم - على هذا الوجه من كون المغيَّا ما ذُكر - ضميرَ «قلوبهم» للملائكة، وخصَّ الشفعاء بهم، وضميرَ «قالوا» الأوَّل لهم أيضاً، وضميرَ «قالوا» الثاني للملائكة الذين فوقَهم، وهم الذين يبلِّغون ذلك إليهم، وقال: إنَّ فزعَهم إمَّا لما يُقْرَنُ به الإذنُ من الأمر الهائل، أو لغشيةٍ تصيبهم عند سماع كلام الله جلَّ شأنه، أو من ملاحظةِ وقوع التقصير في تعيين المشفوع لهم بناءً على ورود الإذن بالشفاعة إجمالاً. وهو كما ترى.

وقال الزجَّاج: تفسيرُ هذا أنَّ جبرائيلَ عليه السلام لمَّا نزل إلى النبيِّ ﷺ بالوحي ظنَّت الملائكةُ - عليهم السلام - أنَّه نزلَ بشيءٍ من أمر الساعة، ففزعت لذلك، فلما انكشفَ عنها الفزع، «قالوا: ماذا قال ربكم» سألَتْ: لأيِّ شيءٍ نزل جبريل عليه السلام، «قالوا: الحقَّ»[1]. اهـ. رويَ ذلك عن قتادة ومقاتل وابن السائب، بيد أنَّهم قالوا: إنَّ الملائكة صعقوا لذلك، فجعلَ جبريلُ عليه السلام يمرُّ بكلِّ سماء، ويكشفُ عنهم الفزعَ، ويخبرهم أنَّه الوحي.

ولم يبيِّن الزجَّاجُ وجهَ اتِّصال الآية بما قبلها، ولا بَحَثَ عن الغاية بشيء.

وقد ذكر نحوَ ذلك الإمام الرازيُّ[2]، ثم قال في ذلك: إنَّ «حتى» غايةٌ متعلِّقةٌ

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٣.

(٢) في تفسيره ٢٥/ ٢٥٥.

بقوله تعالى: «قل»؛ لأنَّه تنْبيهٌ[1] بالوحي، فلمَّا قال سبحانه: «قل» فَزع مَن في السماوات. وهو لعمري من العجب العجاب.

وقال الفاضل الطيبيُّ بعد[2] نقله ذلك التفسير: وعليه أكثرُ كلام المفسِّرين، ويعضدُه ما روينا عن البخاريِّ والترمذيِّ وابنِ ماجه عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا قَضَى الله تعالى الأمرَ في السماء ضربت الملائكةُ أجنحتَها خُضْعاناً لقوله تعالى، كأنَّه سلسلةٌ على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي[3] قال الحق، وهو العليُّ الكبير»[4].

وعن أبي داود: عن ابن مسعود قال: «إذا تكلَّم الله تعالى بالوحي سَمِعَ أهلُ السماء صلصلةً كجَرِّ السِّلسلة على الصَّفا، فيُصْعَقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيَهم جبريلُ، فإذا أتاهم جبريلُ عليه السلام، فُزِّعَ عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل! ماذا قال ربُكم[5]؟ فيقول: الحقَّ [فينادون: الحقَّ] الحقَّ»[6].

ثم ذكر في أمر الغاية واتِّصال الآية بما قبلها على ذلك أنَّه يُستَخرج معنى المغيَّا من المفهوم، وذلك أنَّ المشركين لمَّا ادَّعوا شفاعةَ الآلهة والملائكة، وأجيبوا بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والملائكة، وسمَّيتموهم باسمه تعالى، والتجِئوا إليهم، فإنَّهم لا يملكونَ مثقال ذرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، ولا تنفع الشفاعةُ من هؤلاء إلَّا للملائكة، لكن مع الإذنِ والفزعِ العظيم، وهم لا يشفعون إلَّا للمَرْضيِّين، فعبَّر عن الملائكة عليهم السلام بقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ الآية كناية، كأنَّه قيل: لا تنفعُ الشفاعةُ إلَّا لمن هذا شأنُه ودأبُه، وأنَّه لا يثبتُ عند صدمةٍ من صدمات هذا

(١) في (م): تبينه. وفي مطبوع تفسير الرازي: بينه.
(٢) بعدها في الأصل: أن. وهي مقحمة.
(٣) في صحيح البخاري ـ والحديث مسوق بلفظه ـ: للذي.
(٤) صحيح البخاري (٤٧٠١) و(٤٨٠٠)، وسنن الترمذي (٣٢٢٣)، وسنن ابن ماجه (١٩٤).
(٥) كذا في الأصل و(م). وفي سنن أبي داود: ربك.
(٦) سنن أبي داود (٤٧٣٨)، وما بين حاصرتين منه.

الكتاب المبين، وعند سماع كلام الحقِّ، يعني الذين إذا نزل عليهم الوحيُ يفزعون ويصعقون، حتى إذا أتاهم جبريل عليه السلام فُزِّعَ عن قلوبهم، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقول: الحقَّ. انتهى.

ولا يخفَى على من له أدنى تمييزٍ حالُه، وأنَّه ممَّا لا ينبغي أن يعوَّل عليه.

وقولُ ابن عطيَّة: إنَّ تأويل الآية بالملائكة إذا سمعت الوحيَ إلى جبريل، أو الأمر يأمر الله تعالى به، فتسمع كجرِّ سلسلة الحديد على الحديد[1]، فتفزع تعظيماً وهيبةً، وقيل: خوفَ قيام الساعة، هو الصحيحُ، وهو الذي تضافرت[2] به الأحاديث = ناشئٌ من حرمان ابن[3] عطيَّةٍ سلامة الذوق، وتدقيق النظر.

والتفسيرُ الذي ذكرناه أوَّلاً بمراحل في الحسن عمَّا ذكر عن أكثر المفسرين، وما سمعتَ من الرواية لا ينافيه، إذ لا دلالة فيه على أنَّه عليه الصلاة والسلام ذكر ذلك في معرض تفسيرِ الآية، ولا تنافي بين التفزيعين، وكأنَّ الأكثر من المفسرين نظروا إلى ظاهر طباق اللفظ مع الحديث، فنزَّلوا الآيةَ على ذلك، فوقعوا فيما وقعوا فيه، وإن كثروا وجلُّوا. والقائلُ بما سبقَ نظر إلى طباق المقام، وحقَّق عدمَ المنافاة، وظهرَ له حالُ ما قالوه فعدلَ عنه.

وأخرج ابنُ جرير وابن أبي حاتم عن الضحَّاك أنَّه قال في الآية: زعمَ ابنُ مسعود أنَّ الملائكة المعقِّبات الذين يختلفونَ إلى أهل الارض يكتبونَ أعمالهم إذا أرسلهم الربُّ تبارك وتعالى فانحدروا، سُمِعَ لهم صوتٌ شديدٌ، فيحسب الذين أسفلَ منهم من الملائكة أنَّه من أمر الساعة، فيخرُّون سجَّداً، وهذا كلما مرُّوا عليهم، فيفعلون [ذلك] من خوف ربِّهم تبارك وتعالى[4].

وابنُ مسعود عندي أجلُّ من أن يحملَ الآية على هذا، فالظاهر أنَّه لا يصحُّ

---

(١) في المحرر الوجيز لابن عطية: على صفوان.

(٢) في(م) والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٨: تظاهرت.

(٣) قوله: ابن، ساقط من (م).

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٣٧. وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٨١. وما بين حاصرتين منهما. والضحاك لم يدرك ابن مسعود.

عنه. ومثل هذا ما زعمَه بعضهم أنَّ ذاك فزعُ ملائكةِ أدنى السماوات عند نزول المدبِّرات إلى الأرض.

وقيل: إنَّ «حتى» غايةٌ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: «زعمتم» أي: زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع، ثمَّ تركتم ما زعمتم وقلتم: قال الحقَّ، وإليه يشيرُ ما أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنَّه قال في الآية: حتى اذا فَزَّعَ الشيطان عن قلوبهم، ففارقهم وأمانيَّهم وما كان يضلُّهم به، «قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا الحق وهو العليُّ الكبير»، ثمَّ قال: وهذا في بني آدم ـ أي: كفارهم ـ عند الموت، أقرُّوا حين لا ينفعُهم الإقرار[1].

والظاهر أنَّ في الكلام عليه التفاتاً من الخطاب في «زعمتم» إلى الغيبة في «قلوبهم»، وأنَّ ضمير «قالوا» الأول للملائكة الموكَّلين بقبض أرواحهم، والمراد بالتفزيع عن القلوب كشفُ الغطاء وموانعِ إدراك الحقِّ عنها.

وما نُقِل عن الحسن من أنَّه قال: إنما يقال للمشركين: ماذا قال ربُّكم، أي: على لسان الأنبياء عليهم السلام، فأقرُّوا حين لا ينفع = يحتملُ أن يكون كالقول المذكور في أنَّ ذلك عند الموت، ويحتمل أن يكون قولاً بأنَّ ذلك يوم القيامة، إلَّا أنَّ في جَعْلِ «حتى» غايةً للزعم عليه غيرُ ظاهر، إذ لا يستصحبهم ذلك إلى يوم القيامة حقيقةً كما لا يخفى.

وأبعدُ من هذا القول كونُ ذلك غايةً لقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾، وضمير «قلوبهم» لـ «مَن» باعتبار معناه، والتفزيعُ: كشفُ الغطاء وموانعِ إدراك الحقِّ. بل هو ممَّا لا ينبغي حملُ كلام الله تعالى عليه.

وزعم بعضُهم أنَّ المعنى: إذا دعاهم إسرافيل عليه السلام من قبورهم، قالوا مجيبين: «ماذا قال ربكم». حكاه في «البحر»، ثمَّ قال: والتفزيعُ من الفزع الذي هو الدعاء والاستصراخ، كما قال زهير:

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٣٧، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٨١ من قول ابن زيد.

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم طوالَ الرِّماح لاضعافٌ ولا عُزْلُ[1]

وأنت تعلمُ أنَّ التفزيعَ بالمعنى المذكور لا يتعدَّى بـ «عن»، وأمرُ الغاية عليه غيرُ ظاهر، وبالجملة ذلك الزعم ليس بشيء.

واختار أبو حيَّان أنَّ المغيَّا الاتِّباع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وضميرُ «قلوبهم» عائدٌ إلى ما عاد إليه ضميرُ الرفع في «اتَّبعوه»، أعني: الكفار، وكذا ضمير «قالوا» الثاني، وضمير «قالوا» الأول للملائكة، وكذا ضمير «ربكم»، وجملةُ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ اعتراضية بين الغاية والمغيَّا، والتفزيعُ حالَ مفارقة الحياة أو يومَ القيامة، ويجعل[2] اتِّباعهم إبليسَ مُستَصْحباً لهم إلى ذلك اليوم مجازاً[3]. ولا يخفى بُعْدُه، والوجه عندي ما ذُكِر أوَّلاً.

و«ماذا» تحتملُ أن تكون منصوبةً بـ «قال»، أي: أيُّ شيءٍ قال ربكم؟ وتحتملُ أن تكون في موضع رفع، على أنَّ «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«ذا» اسم موصول خبره، وجملة «قال» صلة الموصول، والعائد محذوف، أي: ما الذي قاله ربكم؟

وقرأ ابن عباس وابن مسعود وطلحة وأبو المتوكل الناجي وابن السميفع وابن عامر ويعقوب: «فَزَّع» بالتشديد والبناء للفاعل[4]، والفاعل ضميرُ الله تعالى المستتر، أي: أزالَ اللهُ تعالى الفزعَ عن قلوبهم. وقال أبو حيان: هو ضميره تعالى إن كان ضمير «قلوبهم» للملائكة، وإنْ كان للكفار، فهو ضمير مغويهم[5].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨-٢٧٩، والبيت في ديوان زهير ص١٠٢. وفيه: لا قصار. بدل: لا ضعاف.

(٢) في (م): ويجعل.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٧٧.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨، وقراءة ابن عامر ـ من السبعة ـ في التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥١، وفي الأخير قراءة يعقوب من العشرة.

(٥) البحر ٧/ ٢٧٨.

وقرأ الحسن: «فُزِعَ» بالتخفيف والبناء للمفعول[١]، فـ «عن قلوبهم» نائب الفاعل كما في قراءة الجمهور.

وقرأ هو وأبو المتوكِّل أيضاً وقتادة ومجاهد: «فَرَّغ» بالفاء والراء المهملة والغين المعجمة مشدَّداً مبنيًّا للفاعل[٢]، بمعنى أزال.

وقرأ الحسن أيضاً كذلك إلَّا أنَّه خفَّف الراء[٣].

وقرأ عبد الله بن عمر ـ ﵄ ـ والحسن أيضاً وأيوب السختيانيُّ وقتادة أيضاً وأبو مجلز: «فُرِّغَ» كذلك أيضاً إلَّا أنهم بنوه للمفعول[٤].

وقرأ ابن مسعود ـ في رواية ـ وعيسى: «افرنقع» قيل: بمعنى: تفرَّق[٥]. وقال الزمخشريُّ: بمعنى: انكشف[٦]. والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين، كما ركِّب اقمطرَّ من حروف القمط مع زيادة الراء، وفيه إيهامُ أنَّ العين والراء من حروف الزيادة، وليس كذلك.

وقرأ ابن أبي عبلة: «الحقُّ» بالرفع[٧]، أي: مقولُه الحقُّ.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أُمِرَ ﷺ أنْ يقول ذلك تبكيتاً للمشركين بحملهم على الإقرار بأنَّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، وأنَّ الرزاقَ هو الله عزَّ وجلَّ، فإنَّهم لا ينكرونَه، وحيث كانوا يتلعثمون أحياناً في الجواب مخافةَ الإلزام، قيل له عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواه عندهم أيضاً.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩١، والكشاف ٣/ ٢٨٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١١، والبحر ٧/ ٢٧٨.

(٢) المحتسب ٢/ ١٩١ـ دون ذكر مجاهد ـ والبحر المحيط ٧/ ٢٧٨، والدر المصون ٩/ ١٨٢.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨، وذكرها في المحتسب ٢/ ١٩٢ عن الحسن وقتادة بخلاف عنهما.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٩، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٨، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٢ عن ابن مسعود، وفي المحتسب ٢/ ١٩٢ عن عيسى.

(٦) الكشاف ٣/ ٢٨٨.

(٧) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨.

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ أي: وإنَّ أحدَ الفريقين: منَّا معشرَ الموحِّدين المتوحدَ بالرِّزق والقدرة الذاتيَّة، العابديهِ وحده عزَّ وجلَّ، ومنكم فرقة المشركين به العاجزينَ[1] في أنفسهم عن دفع أدنى ضرٌّ، وجلب أحقر نفع، وفيهم[2] النازل إلى أسفل المراتب الإمكانية = المتصفون[3] بأحد الأمرين من الاستقرار على الهدى والانغماس في الضلال. وهذا من الكلام المنصف؛ الذي كلُّ مَن سمعه مِن مُوالٍ أو مُنافٍ قال لمن خوطب به: قد أنصفكَ صاحبك.

وفي دَرْجِه بعد تقدمة ما قدَّم من التقرير البليغ دلالةٌ ظاهرةٌ على مَن هو مِن الفريقين على هدى، ومن هو في ضلال، ولكن التعريضَ أبلغُ من التصريح، وأوصلُ بالمجادل إلى الغرض، وأهجمُ به على الغلبة، مع قلَّة شغب الخصم، وفَلِّ شوكته بالهوينا، ونحوُه قولُ الرجل لصاحبه: قد علم الله تعالى الصادقَ منِّي ومنك، وإن أحدنا لكاذب، ومنه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب، وكان قد هجا رسول الله ﷺ قبل أن يسلم:

أتــهــجــوه ولــســت لــه بــكــفءٍ ... فــشــرُّكــمــا لــخــيــركــمــا الــفــداءُ[4]

وقول أبي الأسود:

يــقــول الأرذلــون بــنــو قــشــيــرٍ ... طَــوَال الــدهــر لا تــنــســى عــلــيًّــا
بــنــو عــمِّ الــنــبــيِّ وأقــربــوه ... أَحَــبُّ الــنــاس كــلِّــهــمُ إلــيَّــا
فــإن يــكُ حــبُّــهــمْ خــيــراً أُصِــبْــهُ ... ولــســتُ بــمــخــطــئٍ إنْ كــان غــيًّــا[5]

وذهب أبو عبيدة[6] إلى أن «أو» بمعنى الواو، كما في قوله:

---

(١) قوله: العاجزين، مفعول به لقوله: المشركين.
(٢) أي: وفي العاجزين.
(٣) قوله: المتصفون، خبر قوله: وإن أحد الفريقين...
(٤) ديوان حسان ص٩، وسلف ١٨/ ٢٥٤، وفيه: أتشتمه. بدل: أتهجوه.
(٥) ديوان أبي الأسود، صنعة السكري ص ١٥٣-١٥٤، ورواية البيت الأخير فيه:
فــإن يــك حــبــهــم رشــداً أُصــبْــه ... وفــيــهــم أســوة إن كــان غــيًّــا
(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٤٨.

سيَّانِ كسرُ رغيفه ... أو كسرُ عظمٍ من عظامه[1]

والكلامُ من باب اللفِّ والنشر المرتَّب، بأن يكون «على هدى» راجعاً لقوله تعالى: «إنَّا»، و«في ضلال» راجعاً لقوله سبحانه: «إيَّاكم»، فإنَّ العقلَ يحكمُ بذلك، كما في قول امرئ القيس:

كأنَّ قلوبَ الطير رَطباً ويابساً ... لَدَى وكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي[2]

ولا يخفى بُعْدُه.

وأيًّاما كان فليس هذا من باب التقيَّة في شيءٍ كما يزعمه بعضُ الجهلة.

والظاهر أنَّ «لعلى هدى» إلخ خبر «إنَّا أو إياكم» من غير تقدير حذف، إذ المعنى: إنَّ أحدنا لمتَّصفٌ بأحد الأمرين، كقولك: زيدٌ أو عمرو في السوق أو في البيت.

وقيل: هو خبر «إنَّا»، وخبر «إيَّاكم» محذوفٌ تقديره: لعلى هدى أو في ضلال مبين.

وقيل: هو خبر «إيَّاكم»، وخبر «إنَّا» محذوفٌ لدلالة ما ذُكر عليه، و«إيَّاكم» على تقدير «إنَّ»، ولكنَّها لمَّا حُذِفت انفصل الضمير.

وفي «البحر»[3]: لا حاجةَ إلى تقدير الحذف في مثل هذا، وإنَّما يُحتَاجُ إليه في نحو: زيد أو عمرو قائم. فتدبَّر.

والمتبادرُ أنَّ «مبين» صفة «ضلال»، ويجوز أن يكون وصفاً له ولـ «هدى»، والوصف وكذا الضمير يلزم إفراده بعد المعطوف بـ «أو».

وأدخل «على» على «الهدى» للدلالة على استعلاء صاحبه وتمكُّنه واطِّلاعه على ما يريد، كالواقف على مكانٍ عالٍ، أو الراكب على جوادٍ يركضه حيث شاء،

---

(١) هو لدعبل بن علي الخزاعي. شعر دعبل ص٤٢٤.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٣٨.

(٣) ٧/ ٢٨٠.

و«في» على «الضلال» للدلالة على انغماسِ صاحبه في ظلامٍ، حتى كأنَّه في مهواةٍ مظلمةٍ، لا يدري أين يتوجَّه، ففي الكلام استعارةٌ مكنيَّةٌ أو تبعيَّة.

وفي قراءة أبيّ: «إنَّا أو إيَّاكم إمَّا على هدًى أو في ضلال مبين»[1].

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ هذا أبلغ في الإنصاف، حيث عبَّر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمنٌ بما يعبَّر به عن العظائم، وأسند إلى النفس، وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبَّر به عن الهفوات، وأسند للمخاطبين، وزيادةً على ذلك أنَّه ذكر الإجرامَ المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالَّة على التحقُّق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدلُّ على ذلك.

وذُكر أنَّ في الآية تعريضاً، وأنه لا يضرُّ بما ذكر، وزعم بعضُهم أنَّها من باب المتاركة، وأنَّها منسوخةٌ بآية السيف.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يومَ القيامة عند الحشر والحساب ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ يقضي سبحانه بيننا ويفصلُ بعد ظهور حال كلٍّ منَّا ومنكم بالعدل، بأنْ يُدخِل المحقِّين الجنَّة والمبطلين النار.

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ القاضي في القضايا المنغلقة، فكيف بالواضحة كإبطال الشرك وإحقاق التوحيد، أو القاضي في كلِّ قضيَّةٍ خفيَّة كانت أو واضحة. والمبالغة على الأول في الكيف، وعلى الثاني في الكَمِّ، ولعلَّ الوجه الأوَّل أولى.

وفيه إشارةٌ إلى وجه تسمية فصل الخصومات فتحاً، وأنه في الأصل لتشبيه ما حكم فيه بأمرٍ منغلق، كما يشبَّه بأمرٍ منعقد في قولهم: حلَّال المشكلات.

وقرأ عيسى: «الفاتح»[2].

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ بما ينبغي أنْ يُقضَى به، أو بكلِّ شيءٍ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٩.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٠.

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ﴾ استفسارٌ عن شبهتهم بعد إلزام الحجَّة عليهم زيادةً في تبكيتهم.

و«أرى» ـ على ما استظهره أبو حيان[1] ـ بمعنى أَعْلَمَ، فتتعدَّى إلى ثلاثة مفاعيل: ياء المتكلم، والموصول، و«شركاء»، وعائد الموصول محذوفٌ، أي: ألحقتموهم، والمراد: أعلموني بالحجَّة والدليل كيف وجهُ الشركة؟!

وجُوِّزَ كون «رأى» بصريَّةً تعدَّت بالنقل لاثنين: ياء المتكلم، والموصول. و«شركاء» حالٌ من ضمير الموصول المحذوف، أي: ألحقتموهم متوهَّماً شركتهم، أو مفعولٌ ثانٍ لـ «أَلْحَقَ»؛ لتضمينه معنى الجعل أو التسمية، والمراد: أرونيهم لأنظرَ بأيِّ صفةٍ ألحقتموهم بالله عزَّ وجلَّ الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة، أو ألحقتموهم به سبحانه جاعليهم أو مسمِّيهم شركاء، والغرضُ إظهارُ خطئهم العظيم.

وقال بعض الأجلَّة: لم يُرد من «أروني» حقيقته؛ لأنَّه ﷺ كان يراهم ويعلمهم، فهو مجازٌ وتمثيل، والمعنى: ما زعمتموه شريكاً إذا برزَ للعيون، وهو خشبٌ وحجر، تمَّت فضيحتُكم. وهذا كما تقولُ للرجل الخسيس الأصل: اذكر لي أباكَ الذي قايستَ به فلاناً الشريف، ولا تريدُ حقيقة الذكر، وإنَّما تريدُ تبكيته، وأنَّه إن ذكر أباه افتضح.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عن زعم الشركة بعدما كسره بالإبطال، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧] بعدما حجَّ قومه.

﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ أي: الموصوفُ بالغلبة القاهرة المستدعية لوجوب الوجود ﴿الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ الموصوفُ بالحكمة الباهرة المستدعية للعلم المحيط بالأشياء. وهؤلاء الملحَقون عن الاتِّصاف بذلك في معزلٍ، وعن الحوم حول ما يقتضيه بألف ألف منزل.

والضميرُ إمَّا عائدٌ لما في الذهن، وما بعده ـ وهو «الله» الواقع خبراً له ـ يفسِّره، و«العزيز الحكيم» صفتان للاسم الجليل. أو عائدٌ لـ «ربنا» في قوله سبحانه: «يجمع

---

(١) في البحر ٧/ ٢٨٠.

بيننا ربنا»[١]، على ما قيل. أو هو ضمير الشأن، و«الله» مبتدأ، و«العزيز الحكيم» خبره، والجملة خبر ضمير الشأن؛ لأنَّ خبرَه لا يكون إلَّا جملةً على الصحيح.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ المتبادرُ أنَّ «كافَّة» حالٌ من الناس، قُدِّم مع «إلَّا» عليه للاهتمام، كما قال ابن عطية[٢]. وأصلُه من الكفِّ بمعنى المنع، وأريد به العموم؛ لما فيه من المنع من الخروج، واشتهر في ذلك حتى قطع النظر فيه عن معنى المنع بالكليَّة، فمعنى جاء الناس كافَّةً: جاؤوا جميعاً، ويشير إلى هذا الإعراب ما أخرج ابن أبي شيبة وابنُ المنذر عن مجاهد أنَّه قال في الآية: أي: إلى الناس جميعاً. وما أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب أنَّه قال: أي: للناس كافَّةً[٣].

وكذا ما أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة أنَّه قال في الآية: أرسلَ اللهُ تعالى محمَّداً ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمُهم على الله تعالى أطوعُهم له[٤]. وما نقل عن ابن عباس أنَّه قال: أي: إلى العرب والعجم وسائر الأمم.

وهو مبنيٌّ على جواز تقديم الحال على صاحبها المجرور بالحرف، وهو الذي ذهب إليه ـ خلافاً لكثير من النحاة ـ أبو عليّ وابنُ كيسان وابنُ بَرْهان والرضيّ وابنُ مالك، حيث قال:

وسَبْقَ حالٍ ما بحرفٍ جُرَّ قد ... أَبَوْا ولا أمنعُهُ فقد ورد[٥]

وأبو حيان، حيث قال بعد أن نقل الجوازَ عمَّن عدا الرضي من المذكورين: وهو الصحيح، ومن أمثلة أبي عليٍّ: زيدٌ خيرَ ما يكون خيرٌ منك، وقال الشاعر:

إذا المرء أعيته المروءةُ ناشئاً ... فمطلبُها كهلاً عليه شديد[٦]

---

(١) في الأصل و(م): يفتح بيننا ربنا، والصواب المثبت. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٣.
(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٠.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٣٧.
(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٣٧، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٨٨.
(٥) البيت من ألفيته المشهورة. انظر شرح ابن عقيل ١/ ٦٤٠.
(٦) نسب لأعرابي من بني قريع، كما في شرح الحماسة للتبريزي ٣/ ٨٨، والحماسة البصرية =

وقال آخر:

تسلَّيتُ طرّاً عنكم بعد بَيْنِكم بذكراكمُ حتى كأنكُمُ عندي[1]

وقد جاء تقديمُ الحال على صاحبها المجرور وعلى ما يتعلَّق به، ومن ذلك قوله:

مشغوفةً بك قد شُغِفْتُ وإنَّما حَتَمَ الفراقُ فما إليك سبيلُ[2]

وقول آخر:

غافلاً تَعرِضُ المنيَّةُ للمَرْ ءِ فيُدعى ولاتَ حينَ إباءُ[3]

وإذا جاز تقديمها على المجرور والعامل فتقديمُها عليه دون العامل أجوز[4]. انتهى.

وجعلوا هذا الوجه أحسن الأوجه في الآية، وقالوا: إنَّ ما عداه تكلُّف.

واعترِضَ بأنَّه يلزمُ عليه عملُ ما قبل «إلَّا» - وهو «أَرْسَلَ» - فيما بعدها وهو «للناس»، وليس بمستثنى ولا مستثنى منه ولا تابعٍ[5] له، وقد منعوه.

وأجيب بأنَّ التقدير: وما أرسلناك للناس إلَّا كافَّةً، فهو مقدَّمٌ رتبةً، ومثله كافٍ في صحة العمل، مع أنهم يتوسَّعون في الظرف ما لا يتوسَّعون في غيره.

= ص٩٣٨ (تحقيق عادل جمال، مطبعة الخانجي)، وخزانة الأدب ٣/ ٢١٩-٢٢٠. ونسبه ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ٢٤٦-٢٤٧ للمعلوط. وهو في البيان والتبيين ١/ ٢٧٤ دون نسبة.

(١) هو في شرح الشواهد الكبرى للعيني ٣/ ١٦٠، والبحر المحيط ٧/ ٢٨١، والدر المصون ٩/ ١٨٧ دون نسبة.

(٢) هو في شرح الشواهد الكبرى للعيني ٣/ ١٦٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨١، والدر المصون ٩/ ١٨٧ دون نسبة.

(٣) هو في شرح الشواهد الكبرى ٣/ ١٦١، والبحر المحيط ٧/ ٢٨١، والدر المصون ٩/ ١٨٧ دون نسبة.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٨١.

(٥) في الأصل و(م): ولا تابعاً. والمثبت من حاشية الشهاب.

وقال الخفاجيُّ عليه الرحمة: الأحسن أن يجعل «للناس» مستثنًى، على أنَّ الاستثناء فيه مفرَّغ، وأصله: ما أرسلناك لشيءٍ من الأشياء إلَّا لتبليغ الناس كافَّةً، وأما تقديره بـ: ما أرسلناك للخلق مطلقاً إلَّا للناس كافَّةً، على أنَّه مستثنًى، فركيكٌ جدًّا[١]. اهـ.

ولا يخفى أنَّ في الآية ـ على ما استحسنَه ـ حذفَ المضاف، والفصلَ بين أداة الاستثناء والمستثنى، وتقديمَ الحال على صاحبها، والكلُّ خلافُ الأصل، وقلَّما يجتمعُ مثل ذلك في الكلام الفصيح.

واعترض عليه أيضاً بأنَّه يلزم حينئذٍ جعلُ اللام في «للناس» بمعنى «إلى». وليس بشيءٍ؛ لأنَّ «أرسل» يتعدَّى باللام و«إلى»، كما ذكره أبو حيان[٢] وغيره، فلا حاجةَ إلى جعلها بمعنى «إلى»، على أنَّه لو جعلت بمعناها لا يلزم خطأٌ أصلاً؛ لمجيء كلٍّ من اللام و«إلى» بمعنى الآخر، وكذا لا حاجةَ إلى جعلها تعليليَّةً، إلَّا على ما استحسنه الخفاجيُّ.

وقال غير واحد: إنَّ «كافةً» اسمُ فاعل من كَفَّ، والتاء فيه للمبالغة، كتاء راوية ونحوه، وهو حالٌ من مفعول «أرسلناك»، و«للناس» متعلِّقٌ به، وإليه ذهب أبو حيان[٣]، أي: ما أرسلناك إلَّا كافاً ومانعاً للناس عن الكفر والمعاصي. وإلى الحاليّة من الكاف ذهب أبو عليٍّ أيضاً[٤]، إلَّا أنَّه قال: المعنى: إلَّا جامعاً للناس في الإبلاغ. وتعقَّبهُ أبو حيان بأنَّ اللغةَ لا تساعدُ على ذلك؛ لأنَّ كفَّ ليس بمحفوظٍ أنَّ معناه جمع.

وفيه منعٌ ظاهرٌ؛ لأنه يقال: كفَّ القميص إذا جمع حاشيته، وكفَّ الجرح إذا

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٤.
(٢) في البحر ٧/ ٢٨٢.
(٣) ينظر البحر ٧/ ٢٨١.
(٤) قوله: أبو علي، سبق قلم. والصواب: أبو إسحاق. وهو الزجاج. وكلامه في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٤، ونقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٢٨١.

ربطَه بخرقة تحيطُ به، وقد قال ابن دريد: كلُّ شيءٍ جمعتَه فقد كففته[1]، مع أنَّه جُوِّزَ أنْ يكون مجازاً من المنع؛ لأن ما يُجمع يَمتنعُ تفرُّقه وانتشاره.

وقيل: إنه مصدرٌ، كالكاذبة والعاقبة والعافية، وهو أيضاً حالٌ من الكاف؛ إمَّا باقٍ على مصدريَّته بلا تقدير شيءٍ مبالغةً، وإمَّا بتأويل اسم الفاعل، أو بتقدير مضاف، أي: إلَّا ذا كافة، أي: ذا كفٍّ، أي: منعٍ للناس من الكفر. وقيل: ذا منعٍ من أن يشذُّوا عن تبليغك.

وذهب بعضهم إلى أنَّه مصدرٌ وقع مفعولاً له، ولم يشترط في نصبه اتحادُ الفاعل، كما ارتضاه الرضي.

وذهب العلامة الزمخشريُّ إلى أنَّه اسم فاعل من الكفِّ، صفة لمصدرٍ محذوفٍ، وتاؤه للتأنيث، أي: ما أرسلناك إلَّا إرسالةً كافَّةً، أي: عامَّةً لهم، محيطةً بهم؛ لأنَّها إذا شملتهم فقد كفتهم عن أن يخرج منها أحدٌ منهم[2].

واعترِضَ عليه بأنَّ «كافة» لم ترد عن العرب إلَّا منصوبةً على الحال، مختصَّةً بالمتعدِّد من العقلاء، وأنَّ حذف الموصوف، وإقامةَ الصفة مقامه إنَّما يكون لما عُهِدَ وصفُه بها، بحيث لا تصلحُ لغيره.

وأجيب بأنَّ «كافة» ها هنا غيرُ ما التزم فيه الحالية، وإن رجعا إلى معنًى واحد، وما قيل من أنَّه لم تستعمله العربُ إلَّا كذلك ليس بشيءٍ، وإقامةُ الصفة مقامَ موصوفها منقاسٌ مطَّردٌ بدون شرط إذا قامت عليه قرينة، وذكرُ الفعل قبلَه دالٌّ على تقدير مصدره، كما في: قمت طويلاً وحسناً، أي: قياماً طويلاً وحسناً.

وفي «الحواشي الخفاجيَّة»: قد صحَّ أنَّ عمر رضي الله عنه قال في كتابه لآل بني كاكلة: قد جعلتُ لآل بني كاكلة على كافَّةِ بيت المسلمين لكلِّ عامٍ مئتي مثقالٍ ذهباً إبريزاً. وقاله عليٌّ كرم الله وجهه حين أمضاه[3].

---

(١) جمهرة اللغة ١/ ١١٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٠.

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي ٧/ ٢٠٣، والخبر سلف ١٠/ ٣١٦.

فقد استعملَ هذان الإمامان «كافَّةً» في غير العقلاء، وغير منصوبٍ على الحاليَّة.

ولا يخفى أنَّ بعض ما اعترض به على هذا الوجه يُعترَضُ به على بعض الأوجه السابقة أيضاً، والجواب هو الجواب.

والذي أختاره في الآية ما هو المتبادر، ولا بأس بالتقدُّم، والاستعمال واردٌ عليه، ولا قياسَ يمنعُه، وأمرُ تخطِّي العامِل «إلا» إلى ما ليس مستثنى ولا مستثنى منه سهلٌ؛ لحديث التوسُّع في الظرف، والآيةُ عليه أظهرُ في الاستدلال على عموم رسالته ﷺ، وهي في ذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، ولو استدلَّ بها القاضي أبو سعيد لبهت اليهوديّ، وقد يستدلُّ عليه بما لا يكادُ يُنكِره من فعله ﷺ مع اليهود في عصره ودعوته عليه الصلاة والسلام إيَّاهم إلى الإسلام.

﴿بَشِيرًا﴾ لمن أسلم بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن لم يسلم بالعقاب، والوصفان حالان من مفعول «أرسلناك»، وقد يجعلان على بعض الأوجه السابقة بدلاً من «كافة» نحو بدل المفصَّلِ من المجمل، فتأمَّل.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ذلك، فيحملهم جهلُهم على الإصرار على ما هم عليه من الغيِّ والضلال.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: لجهلهم حقيقةً أو حكماً، ولذا لم يعطف بالفاء. وقيل: «يقولون» أي: من فرط تعنُّتهم، وعدم العطف بالفاء لذلك.

وقيل: الحاملُ فرط الجهل، وعدمُ العطف بالفاء لظهور تفرُّعِه على ما قبله، ومثلُه يُوكَلُ إلى ذهن السامع، وقيل: إنَّ ذاك لأنَّ فرطَ الجهل غير الجهل. وهو كما ترى، وقيل: لأنَّ هذا حالُ بعضٍ، وعدم العلم في قوله تعالى: «لا يعلمون» حالُ بعضٍ آخر.

والذي يظهر لي أنَّ القائلين بالفعل هم بعضُ المشركين المعاصرين له ﷺ لا أكثرُ الناس مطلقاً، وأنَّ المراد بصيغة المضارع الاستمرار التجدُّديّ.

وقيل: عبَّر بها استحضاراً للصورة الماضية لنوع غرابة، والأصل: وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بطريق الاستهزاء يعنون المبشَّر به والمنذرَ عنه، أو الموعود بقوله

تعالى: «يجمعُ بيننا ربنا ثمَّ يفتحُ بيننا» ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٩﴾ مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين به.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أو وعدُ يوم، على أنَّ «ميعاد» مصدرٌ ميميٌّ، أو اسمٌ أقيم مُقام المصدر ـ على ما نقل عن أبي عبيدة[1] ـ وهو بمعنى الموعود. وقيل: الكلام على تقدير مضاف، أي: لكم وقوع وعد يوم، أو نجزُ وعدِ يومٍ. وتنوين «يوم» للتعظيم، أي: يومٍ عظيم.

وجُوِّزَ أن يكون الميعادُ اسم زمان، وإضافته إلى «يوم» للتبيين، أي: لبيان زمان الوعد بأنَّه يومٌ مخصوصٌ، نحو: سَحْقُ ثوب[2]، وبعيرُ سانيةٍ[3].

وأُيِّدَ الوجهُ الأول بوقوع الكلام جواباً لقولهم: «متى هذا الوعد». والوجه الثاني أنَّه قرئ: «ميعادٌ يومٌ» برفعهما وتنوينهما[4]، فإنَّ «يوم» على هذه القراءة بدل، وذلك يقتضي أنَّ الميعادَ نفسُ اليوم، وكونُه بدلَ اشتمالٍ بعيد، وكذا ما قال أبو حيَّان[5] من أنَّه على تقدير محذوف، أي: قل لكم ميعادُ ميعادُ يومٍ، فلما حُذِف المضافُ أُعرِب ما قام مقامه بإعرابه.

وقرأ ابن أبي عبلة: «ميعادٌ» بالرفع والتنوين «يوماً» بالنصب والتنوين[6]، قال الزمخشريُّ: وهو على التعظيم بإضمار فعل، تقديره: لكم ميعاد، أعني يوماً من صفته كيت وكيت، ويجوز الرفع على هذا أيضاً[7].

وجُوِّزَ أن يكون على الظرفيَّة لـ «ميعاد» على أنَّه مصدر بمعنى الموعود لا اسم زمان.

---

(١) انظر مجاز القرآن ٢/ ١٤٩.
(٢) السَّحق: الثوب الخلق الذي انسحق وبلي، ويضاف للبيان، فيقال: سحق بُرْدٍ، وسحق عمامة، وسحق ثوب. ينظرالنهاية (سحق)، والمغرب ص٣٨٦.
(٣) السانية: البعير الذي يسقى عليه، ومن أمثالهم: أذل من بعير سانية. المستقصى ١/ ١٣٢.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٠، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٢.
(٥) في البحر ٧/ ٢٨٢.
(٦) البحر المحيط ٧/ ٢٨٢، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٢ لليزيدي.
(٧) الكشاف ٣/ ٢٩٠، وفيه: ويجوز أن يكون الرفع على هذا، أعني التعظيم.

وقال في «البحر»: يجوز أن يكون انتصابه على الظرف، والعامل فيه مضافٌ محذوف، أي: إنجازُ وعدٍ يوماً من صفته كيتَ وكيت.

وقرأ عيسى: «ميعادٌ» منوَّناً «يومَ» بالنصب من غير تنوين، مضافاً إلى الجملة[١]، ووجهُ النصب ما مرَّ آنفاً.

﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾ إذا فاجأكم ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: عنه ساعةً، والهاء ـ على ما قال أبو البقاء ـ يجوزُ أن تعود على «ميعاد»، وأن تعود على «يوم»، وعلى أيِّهما عادت كانت الجملةُ وصفاً له[٢]. وفي «الإرشاد»: هي صفةٌ لازمةٌ لـ «ميعاد»، وفي الجواب ـ على تقدير تقييد النفي بالمفاجأة ـ من المبالغة في التهديد ما لا يخفى[٣].

ويجوز أنْ يكون النفيُ غير مقيَّدٍ بذلك، فيكون وصفُ الميعاد بما ذكر لتحقيقه وتقريره[٤]، وقد تقدَّم الكلامُ في نظير هذه الجملة فتذكَّر.

ولمَّا كان سؤالهم عن الوقت على سبيل التعنُّت أجيبوا بالتهديد، وحاصله أنَّه لوحظ في الجواب المقصودُ من سؤالهم لا ما يعطيه ظاهر اللفظ، وليس هذا من الأسلوب الحكيم، فإنَّ البليغَ يلتفتُ لفت المعنى.

وقال الطيبيُّ: هو منه، سألوا عن وقت إرساء الساعة، وأجيبوا عن أحوالهم فيها، فكأنَّه قيل: دعوا السؤال عن وقت إرسائها، فإنَّ كينونَته لا بدَّ منه، بل سلوا عن أحوال أنفسكم حيث تكونون مبهوتين متحيِّرين فيها من هول ما تشاهدون، فهذا أليقُ بحالكم من أنْ تسألوا عنه. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّه متضمِّنٌ الجوابَ بأنَّ ذلك اليومَ لا يعلمه إلَّا الله عزَّ وجلَّ؛ لمكان تنكير «يوم». وهو تعسُّفٌ لا حاجةَ إليه.

واختلف في هذا اليوم، فقيل: يوم القيامة، وعليه كلام الطيبيّ. وقيل: يوم مجيء أَجَلِهم وحضور منيَّتهم. وقيل: يوم بدر.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٢.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٢١٣.

(٣) إرشاد العقل السليم ٧/ ١٣٣.

(٤) في (م): وتقديره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم مشركو العرب ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب القديمة، كما روي عن قتادة والسديِّ وابن جريج. ومرادهم نفي الإيمان بجميع ما يدلُّ على البعث من الكتب السماويَّة المتضمِّنة لذلك، ويروى أنَّ كفارَ مكَّة سألوا أهل الكتاب عن الرسول ﷺ، فأخبروهم أنَّهم يجدونَ صفتَه عليه الصلاة والسلام في كتبهم، فأغضبَهم ذلك فقالوا ما قالوا. وضُعِّفَ بأنَّه ليس في السياق والسباق ما يدلُّ عليه.

وقيل: الذي بين يديه القيامة. وخطَّأ ابنُ عطيَّة قائلَه بأنَّ ما بين اليد في اللغة المتقدِّم[١]. وتُعقِّبَ بأنَّه قد يراد به ما مضى، وقد يراد به ما سيأتي.

نعم يضعِّفُ ذلك أنَّ ما بين يدي الشيء يكون من جنسه، لكن محصَّل كلامهم على هذا أنَّهم لم يؤمنوا بالقرآن ولا بما دلَّ عليه.

وأمَّا ادِّعاءُ أنَّ الأكثر كونُه لما مضى، فقد قيل أيضاً: إنَّه غير مسلَّم.

وحكى الطبرسيُّ أنَّ المراد بالذين كفروا اليهود[٢]، وحينئذٍ يُرادُ بما بين يديه الإنجيل.

ولا يخفى أنَّ هذا القول ممَّا لا ينبغي أنْ يُلتَفت إليه، وليس في السباق والسياق ما يدلُّ عليه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، أو لكلِّ واقفٍ عليه. ومفعول «ترى»: «إذ»، أو محذوفٌ و«إذ» ظرفٌ له، أي: أي[٣] حال الظالمين، و«لو» للتمنِّي مصروفاً إلى غيره تعالى، لا جوابَ لها، أو هو مقدَّرٌ، أي: لرأيتَ أمراً فظيعاً، أو نحوه، و«الظالمون» ظاهرٌ وُضِع موضعَ الضمير؛ للتسجيل وبيان علَّة استحقاقهم، والأصلُ: ولو ترى إذ هم موقوفون عند ربهم،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢١.

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ٢١٠.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعلَّ تكرار لفظة: أي. لا معنى له.

أي: في موقف المحاسبة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يتحاورونَ ويتراجعونَ القول، والجملةُ في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ استئنافٌ لبيان تلك المحاورة، أو بدلٌ من «يرجع» إلخ، أي: يقولُ الأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ في الدنيا واستتبعوهم في الغيِّ والضلال: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ صددتمونا عن الهدى ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ بما جاءَ به الرسول ﷺ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا قال الذين استكبروا لمَّا اعترَضَ عليهم الأتباعُ ووبَّخوهم؟ فقيل: قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أنكروا أن يكونوا هم الذين صدُّوهم عن الإيمان، وأثبتوا أنَّهم هم الذين صدُّوا أنفسهم، أي: لسنا نحن الذين حلْنَا بينكم وبين الإيمان بعد إذ صَمَّمتم على الدخول فيه، بل أنتم منعتم أنفسَكم حظَّها بإجرامكم وإيثاركم الكفرَ على الإيمان.

ووقوع «إذ» مضافاً إليها الظرفُ شائعٌ في كلامهم، كوقوعها مضافة، وذلك من باب الاتِّساع في الظروف لا سيما الزمانية. وبهذا يُجَاب عمَّا قيل: إنَّ «إذ» من الظروف اللازمة للظرفيَّة، فكيف وقعت ها هنا مجرورةً مضافاً إليها؟

وقال صاحب «الفرائد»: إنَّ «إذ» هاهنا جُرِّدَت عن معنى الظرفية، وانسلخت عنه رأساً، وصيِّرت اسماً صرفاً؛ لأنَّ المرادَ من وقت مجيء الهدى هو الهدى، لا الوقتُ نفسه، فلذا أضيف إليها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ إضراباً عن إضرابهم، وإبطالاً له: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل صدَّنا مكرُكم بنا في الليل والنهار، فحُذِف المضاف إليه، وأقيم مقامه الظرفُ اتِّساعاً، أو جعل الليل والنهار ماكرين على الإسناد المجازيّ.

وقيل: لا حاجةَ إلى ذلك، فإنَّ الإضافة على معنى «في».

وتُعقِّبَ بأنَّها ـ مع أنَّ المحققين لم يقولوا بها ـ يَفُوتُ باعتبارها المبالغة.

ويُعلَم ممَّا أشرنا إليه أنَّ «مكر» فاعلٌ لفعلٍ محذوف، وجُوِّزَ أن يكون خبرَ مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، أي: سبب كفرنا مكرُ الليل والنهار، أو: مكر الليل والنهار سببُ كفرنا.

وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر: «بل مكرٌ الليلَ والنهارَ» بالتنوين ونصب الظرفين[1]، أي: بل صدَّنا مكرُكم ـ أو: مكرٌ عظيم[2] ـ في الليل والنهار.

وقرأ محمد بن جعفر[3] وسعيد بن جبير وأبو رزين وابن يعمر أيضاً: «مَكَرُّ الليلِ والنهار» بفتح الميم والكاف وتشديد الراء والرفع مع الإضافة، أي: بل صَدَّنا كرور الليل والنهار واختلافهما، وأرادوا ـ على ما قيل ـ الإحالة على طول الأمل والاغترارِ بالأيام مع [أمر][4] هؤلاء الرؤساء بالكفر بالله عزَّ وجلَّ.

وقرأ ابن جبير أيضاً وراشد القارئ وطلحة كذلك، إلَّا أنَّهم نصبوا: «مَكَرَّ» على الظرف[5]، أي: بل صددتمونا مَكَرَّ الليل والنهار، أي: في مَكَرِّهما، أي: دائماً، وجُوِّزَ أنْ يكون مفعولاً مطلقاً، أي: تكرون الإغراءَ مَكَرّاً دائماً لا تفترون عنه. وجَوَّزَ صاحب «اللوامح» كونه ظرفاً لـ «تأمروننا» بعد، وتَعقَّبه أبو حيان[6] بأنَّه وهمٌ؛ لأنَّ ما بعد «إذ» لا يعمل فيما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ بدل من الليل والنهار، أو تعليلٌ للمكر، وجَعَله في

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٣. وهي عن قتادة في المحتسب ٢/ ١٩٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٨.

(٢) قوله: مكرٌ عظيمٌ، على اعتبار أن التنوين للتفخيم، وقوله قبله: مكركم، على اعتبار أنه عوض عن المضاف إليه. ينظر تفسير أبي السعود ٧/ ١٣٤.

(٣) في القراءات الشاذة ص١٢٢: جعفر بن محمد. ووقع في مطبوع البحر المحيط ٧/ ٢٨٣: وقرأ سعيد بن جبير بن محمد وأبو رزين. وهي في المحتسب ٢/ ١٩٣ عن سعيد بن جبير وأبي رزين.

(٤) ما بين حاصرتين من المحرر الوجيز ٤/ ٤٢١، والبحر ٧/ ٢٨٣.

(٥) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٣، والبحر ٧/ ٢٨٣، وعنه نقل المصنف.
قال أبو حيان: وراشد هذا من التابعين، ممن صحح المصاحف بأمر الحَجَّاج. اهـ. وهو ابن نجيح الحِمَّاني، أبو محمد البصري، من رجال التهذيب.

(٦) في البحر ٧/ ٢٨٣.

«الإرشاد» ظرفاً له، أي: بل مكركُم الدائمُ وقتَ أمركم لنا ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ على أنَّ مكرهم إمَّا نفسُ أمرهم بما ذُكر، وإمَّا أمورٌ آخر مقارِنةٌ لأمرهم، داعيةٌ إلى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك[1].

وجملة: «قال الذين استضعفوا» إلخ عطفٌ على جملة «يقول الذين استضعفوا» إلخ وإن تغايرتا مضيّاً واستقبالاً. ولمَّا كان هذا القول رجوعاً منهم إلى الكلام دون قول المستكبرين: «أنحن صددناكم» ـ فإنَّه ابتداءُ كلامٍ وقعَ جواباً للاعتراض عليهم ـ جيء بالعاطف هاهنا، ولم يجئ به هناك على ما اختاره بعضهم.

وقيل: إنَّ النكتة في ذلك أنَّه لمَّا حكى قول المستضعفين بعد قوله تعالى: «يرجع بعضهم إلى بعض القول» كان مظنَّة أن يقال: فماذا قال الذين استكبروا للذين استضعفوا، وهل كان بين الفريقين تراجع؟ فقيل: قال الذين استكبروا كذا، وقال الذين استضعفوا كذا، فأخرجَ مجموع القولين مخرجَ الجواب، وعطفَ بعض الجواب على بعض، فتدبَّر.

والأنداد جمع: نِدٍّ، هو شائع فيمن يَدَّعي أنَّه شريكٌ مطلقاً، لكن ذكر الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه في تفسيره الجاري فيه على مسلك المفسِّرين «إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن» ـ وبخطِّه الشريف النورانيِّ رأيتُه ـ أنه مخصوصٌ بمن يدَّعي الألوهيَّة كفرعون وأضرابه؛ لأنَّه بذلك نَدَّ عن الله تعالى، وشردَ عن رحمته سبحانه. وقال الشيخ: لأنَّه شردَ عن العبودية له جلَّ شأنه.

﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ أي: أضمرَ الظالمون من الفريقين: المستكبرين والمستضعفين ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ على ما كان منهم في الدنيا من الضلال والإضلال نظراً للمستكبرين، ومن الضلال فقط نظراً للمستضعفين، والقول بحصول ندامتهم على الإضلال أيضاً ـ باعتبارِ قَبوله ـ تكلُّفٌ، ولم يظهروا ما يدلُّ عليها من المحاورة وغيرها.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٣٤.

﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ لأنَّهم بُهِتوا لمَّا عاينوه، فلم يقدروا على النطق، واشتغلوا عن إظهارها بشغل شاغل.

وقيل: أخفاها كلٌّ عن صاحبه مخافةَ التعيير.

وتُعقِّب بأنَّه كيف يتأتَّى هذا مع قول المستضعفين لرؤسائهم: «لولا أنتم لكنَّا مؤمنين»، وأيُّ ندامةٍ أشد من هذا؟ وأيضاً مخافةُ التعيير في ذلك المقام بعيدةٌ. وقيل: «أسرُّوا الندامةَ» بمعنى أظهروها، فإنَّ أسرَّ من الأضداد، إذ الهمزةُ تصلحُ للإثبات وللسلب، فمعنى أسرَّه: جعله سرًّا، أو: أزالَ سرَّه، ونظيره: أَشْكَيْتُ؛ وأنشدَ الزمخشريُّ لنفسه:

شكوتُ إلى الأيام سوء صنيعها ... ومن عجب باكٍ تشكَّى[1] إلى المُبْكي

فما زادت الأيَّامُ إلَّا شكايةً ... وما زالت الأيامُ تُشْكِي ولا تُشْكِي

وتعقَّبَ ابنُ عطيَّة هذا القول بأنَّه لم يثبت قطُّ في لغةٍ أنَّ «أسرّ» من الأضداد[2].

وأنت تعلم أنَّ المثبِتَ مقدَّمٌ على النافي، فلا تغفل.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ﴾ أي: القيود ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المستكبرون والمستضعفون، والأصل: في أعناقهم، إلَّا أنَّه أظهرَ في مقام الإضمار؛ للتنويه بذمِّهم، والتنبيه على موجب إغلالهم.

واستظهر أبو حيان عمومَ الموصول، فيدخل فيه الفريقان المذكوران وغيرهم؛ لأنَّ من الكفار من لا يكون له أتباعٌ تراجعه القولَ في الآخرة، ولا يكون هو تابعاً لرئيسٍ له، كالغلام الذي قتلَه الخضرُ عليه السلام[3].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٣٣﴾ أي: لا يجزون إلَّا مثلَ الذي كانوا يعملونَه من الشرِّ، وحاصله: لا يجزونَ إلَّا شرّاً.

---

(١) في (م): فشكى.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢١.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٣.

و«جزى» قد يتعدَّى إلى مفعولين بنفسه، كما يشيرُ إليه قولُ الراغب، يقال: جزيتُه كذا وبكذا[1]. وجُوِّزَ كونُ «ما» في محلِّ النصبِ بنزع الخافض، وهو إمَّا الباء، أو «عن»، أو «على»، فإنَّه ورد تعديةُ «جزى» بها جميعاً. وقيل: إنَّ هذا التعدِّي لتضمينه معنى القضاء. ومتى صحَّ ما سمعت عن الراغب لم يحتَج إلى هذا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: نذيراً من النُّذر ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي: المتوسِّعون في النعم فيها، والجملة في موضع الحال: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ بزعمكم من التوحيد وغيره. والجارُّ الثاني متعلِّق بما عنده، والأول متعلِّق بقوله تعالى: ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، وهو خبرُ «إنَّ».

وظاهر الآية أنَّ مترفي كلِّ قريةٍ قالوا لرسولهم ذلك، وعليه فالجمع في «أرسلتم» للتهكُّم. وقيل: لتغليب المخاطب على جنس الرسل، أو على أتباعه المؤمنين به.

وقال بعض الأجلَّة: الكلام من باب مقابلة الجمع بالجمع، فقيل: الجمعُ الأول الرسل المدلول عليه بقوله تعالى: «أرسلتم»، والثاني «كافرون»، فقد كفر كلٌّ برسوله، وخاطبه بمثله، فلا تغليبَ في الخطاب في «أرسلتم».

وقيل: الجمع الأول: «نذير»؛ لأنَّه يفيد العموم في الحكاية لا المحكيّ؛ لوقوعه في سياق النفي. وليس كلُّ قومٍ مُنْكِراً لجميع الرسل، فحمل على المقابلة.

والكلام مسوقٌ لتسلية رسول الله ﷺ ممَّا ابتلي به من مخالفة مترفي قومه وعداوتهم له عليه الصلاة والسلام، وتخصيص المترفين بالتكذيب؛ لأنَّهم في الأغلب أوَّل المكذِّبين للرسل عليهم السلام؛ لِمَا شُغلوا به من زخرفة الدنيا، وما غَلب على قلوبهم منها، فهم منهمكون في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها، بخلاف الفقراء، فإنَّ قلوبَهم لخلوِّها من ذلك أقبلُ للخير، ولذلك تراهم أكثرَ أتباع الأنبياء عليهم السلام، كما جاء في حديث هرقل[2].

---

(١) المفردات (جزى).

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس ﵄.

﴿وَقَالُوا۟﴾ الضمير للمترفين الذين تقدَّم ذكرُهم. وقيل: لقريش. والظاهر المتبادر هو الأول، والمراد حكايةُ ما شجَّعهم على الكفر بما أُرسل به المنذِرون، أي: وقال المترفون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ أي: أموالنا وأولادنا كثيرةٌ جداً، فأفعل للزيادة المطلقة، وجُوِّزَ بقاؤه على ما هو الأكثرُ استعمالاً، والمفضَّل عليه محذوف، أي: نحن أكثرُ منكم أموالاً وأولاداً.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ بشيءٍ من أنواع العذاب الذي يكدِّرُ علينا لذَّة كثرة الأموال والأولاد، من خوف الملوك، وقهر الأعداء، وعدم نفوذ الكلمة، والكدِّ في تحصيل المقاصد، ونحو ذلك.

وإيلاء الضمير حرفَ النفي للإشارة إلى أنَّ المخاطبين أو المؤمنين ليسوا كذلك.

وحاصل قولهم: نحن في نعمةٍ لا يشوبُها نقمة، وهو دليلُ كرامتنا على الله عزَّ وجلَّ ورضاه عنَّا، فلو كان ما نحنُ عليه من الشرك وغيره ممَّا تدعونا إلى تركه مخالفاً لرضاه لما كنَّا فيما كنَّا فيه من النعمة.

ويجوز أن يكونوا قد قاسُوا أمورَ الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمور الدنيا، وزَعموا أن المنعَمَ عليه في الدنيا منعَمٌ عليه في الآخرة، وإلى هذا الوجه ذهب جمعٌ، وقالوا: نَفيُ كونهم معذَّبين؛ إمَّا بناءً على انتفاء العذاب الأخرويِّ رأساً، وإمَّا بناءً على اعتقاد أنَّه تعالى أكرمهم في الدنيا، فلا يهينهم في الآخرة، على تقدير وقوعها.

وقال الخفاجيُّ في وجه إيلاء الضمير حرفَ النفي: إنَّه اشارةٌ إلى أنَّ المؤمنين معذَّبون استهانةً بهم؛ لظنِّهم أنَّ المالَ والولد يدفعُ العذاب عنهم، كما قاله بعض المشركين[١].

وأنت تعلم أنَّ الأظهرَ عليه التفريع.

وذهب أبو حيَّان[٢] إلى أنَّ المرادَ بالعذاب المنفيِّ أعمُّ من العذاب الأخرويّ

(١) حاشية الشهاب الخفاجي ٧/ ٢٠٦.

(٢) في البحر المحيط ٧/ ٢٨٥.

والعذاب الدنيوي الذي قد ينذِر به الأنبياءُ عليهم السلام ويتوعَّدون به قومهم إن لم يؤمنوا بهم.

ولعل ما ذكرناه أوَّلاً أنسبُ بالمقام، فتأمَّل جداً.

﴿قُلْ﴾ ردّاً لما زعموه من أنَّ ذلك دليلُ الكرامة والرضى: ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطَه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على من يشاء أنْ يقدرَه عليه، فربَّما يوسِّع سبحانه على العاصي، ويضيِّقُ على المطيع، وربَّما يعكس الأمرَ، وربَّما يوسِّع عليهما معاً، وقد يضيِّقُ عليهما معاً، وقد يوسِّعُ على شخصٍ مطيعٍ أو عاصٍ تارةً، ويضيِّقُ عليه أخرى، يفعل كلّاً من ذلك حسبما تقتضيه مشيئتُه عزَّ وجلَّ المَبْنيَّةُ على الحِكَم البالغة، فلو كان البسط دليل الإكرام والرضى لاختصَّ به المطيع، وكذا لو كان التضييق دليلَ الإهانة والسخط لاختصَّ به العاصي، وليس فليس.

والحاصل ـ كما قيل ـ منعُ كون ذلك دليلاً على ما زعموا؛ لاستواء المُعادي والمُوالي فيه.

وقال جمعٌ: أريد أنَّه تعالى يفعلُ ذلك حسب مشيئته المبنيَّة على الحكم، فلا ينقاس عليه أمرُ الثواب والعقاب اللذين مناطُهما الطاعة وعدمها.

وقال ناصر الدين: لو كان ذلك لكرامةٍ أو هوانٍ يوجبانه لم يكن بمشيئته تعالى[1]. وهو مبنيٌّ على أنَّ الإيجاب ينافي الاختيار والمشيئة، وقد قال به الخفاجيُّ[2] أخذاً من كلام مولانا جلال الدين، ورَدَّ به على من ردّ.

ولا يخفى أنَّ دعوى المترفين الإيجاب على الله تعالى فيما هم فيه من بسط الرزق، وكذا فيما فيه أعداؤهم من تضييقه، غيرُ ظاهرةٍ حتى يُرَدَّ عليهم بإثبات المشيئة التي لا تجامعُ الإيجاب.

وقرأ الأعمش: «ويقدِّر» مشدداً هنا وفيما بعد[3].

---

(١) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧٥.

(٢) في حاشيته ٧/ ٢٠٦.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٥، والدر المصون ٩/ ١٩٢.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ذلك، فمنهم من يزعم أنَّ مدار البسط الشرفُ والكرامة، ومدارَ التضييق الهوانُ والحقارة، ومنهم من تحيَّر واعترضَ على الله تعالى في البسط على أناسٍ والتضييق على آخرين، حتى قال قائلهم:

كم عالمٍ عالمٍ أعيت مذاهبُه وجاهلٍ جاهلٍ تَلْقَاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأفهام حائرةً وصيَّر العالِمَ النحريرَ زنديقا[١]

وعنَى هذا القائلُ بالعالم النحرير نفسَه، ولعمري إنه بوصف الجاهل البليد أحقُّ منه بهذا الوصف، فالعالم النحرير من يقول:

ومن الدليلِ على القضاء وحكمِه[٢] بؤسُ اللبيب وطيبُ عيش الأحمقِ[٣]

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ كلامٌ مستأنفٌ من جهته عزَّ وجلَّ، خُوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغةً في تحقيق الحقِّ وتقرير ما سبق، كذا في «إرشاد العقل السليم»[٤].

وجُوِّزَ أن يكون ما تقدَّم لنفي أن يكون القرب والكرامة مداراً وعلَّةً لكثرة الرزق، وهذا لنفي أن تكون[٥] كثرة الرزق سبباً للقرب والكرامة، ويكونُ الخطابُ للكفرة.

و«التي» واقعٌ على الأموال والأولاد، وحيث إنَّ الجمع المكسَّر عقلاؤه وغيرُ عقلائه سواءٌ في حكم التأنيث، وكان المجموع بمعنى جماعة؛ صحَّ الإفراد

---

(١) نسبهما العباسي في معاهد التنصيص ١/ ١٤٧ لابن الراوندي، ونسبهما أبو إسحاق الوطواط في غرر الخصائص الواضحة ص١٣٦ للخبرارزي، ونُسبا في طبقات الشافعية ٤/ ٢٣٢ لأبي العلاء المعري.
(٢) جاء في هامش الأصل: وكونه. نسخة.
(٣) البيت للشافعي كما في الوافي بالوفيات ٢/ ١٧٨، وطبقات الشافعية ١/ ٣٠٥، ومعاهد التنصيص ١/ ١٥١، وحاشية الشهاب ٧/ ٢٠٦، وغيرها.
(٤) ٧/ ١٣٦.
(٥) في (م): وهذا النفي أن يكون.

والتأنيث، أي: وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التي تقرِّبكم عندنا قُربة، ولا حاجةَ إلى تقدير مضاف في النظم الكريم، وما ذُكر تقديرُ معنًى لا إعراب.

وعن الزجاج أنَّ في الكلام حذفاً في أوله؛ لدلالة ما في آخره، والتقدير: وما أموالكم بالتي تقرِّبكم عندنا زلفى، ولا أولادكم بالتي.. إلخ[1].

وأنت تعلم أنَّه لا حاجةَ إليه أيضاً.

وجُوِّزَ أن تكون «التي» صفةً لموصوفٍ مفردٍ مؤنثٍ تقديره: بالتقوى، أو: بالخصلة التي.

وجَوَّزَ الزمخشريُّ أنْ تكون «التي» كنايةً عن التقوى؛ لأنَّ المقرِّب إلى الله تعالى ليس إلَّا تلك، أي: وما أموالكم ولا أولادكم بتلك الموضوعة للتقريب[2].

وقرأ الحسن: «باللاتي» جمعاً[3]. وهو راجعٌ للأموال والأولاد، كـ «التي» على ما سمعت أولاً.

وقرئ: «بالذي» أي: بالشيء الذي يقرِّبكم[4].

و «زلفى» مصدرٌ كالقربى، وانتصابُه على المصدريَّة من المعنى.

وقرأ الضحاك: «زُلَفاً» بفتح اللام وتنوين الفاء[5]، جمع: زُلْفَة، وهي القُربة.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناءٌ من مفعول «تُقَرِّبكم» على ما ذهب إليه جمع، وهو استثناءٌ متصلٌ إذا كان الخطاب عامّاً للمؤمنين والكفرة، ومنقطعٌ إذا كان خاصّاً بالكفرة، فالموصول في محلِّ نصبٍ، أو رفع على أنَّه مبتدأٌ ما بعده خبره، أو خبره مقدر، أي: لكنْ مَن آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعملُه يقربانه.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٥.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٢.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٥.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٥.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٥.

واستظهر أبو حيان الانقطاع، وقال في «البحر»: إنَّ الزجَّاج[1] ذهب إلى بدليته من المفعول المذكور، وغلَّطه النحاس[2] بأنَّ ضميرَ المخاطب لا يجوزُ الإبدال منه، فلا يقال: رأيتُكَ زيداً، ومذهبُ الأخفش والكوفيين أنَّه يجوز أنْ يبدل من ضميري المخاطب والمتكلم، لكن البدل في الآية لا يصحُّ، ألا ترى أنَّه لا يصحُّ تفريغُ الفعل الواقع صلة لما بعدَ «إلَّا»، فلو قلت: ما زيدٌ بالذي يضرب إلَّا خالداً. لم يصح[3]. اهـ.

وذكر بعضُ الأجلَّة أن جعلَه استثناءً من المفعول لا يصحُّ على جعل «التي» كنايةً عن التقوى؛ لأنه يلزم أن تكون الأموال والأولاد تقوى في حقِّ غير من آمن وعمل صالحاً، لكنها غير مقرِّبة. وقيل: لا بأس بذلك، إذ يصحُّ أن يقال: وما أموالكم ولا أولادكم بتقوى إلَّا المؤمنين، وحاصله أنَّ المال والولد لا يكونان تقوى ومقرِّبَيْنِ لأحدٍ إلَّا للمؤمنين. واذا كان الاستثناءُ منقطعاً صحَّ واتَّضح ذلك.

وجُوِّز أنْ يكون استثناءً من «أموالكم وأولادكم» على حذف مضاف، أي: إلَّا أموال مَن آمن وعمل صالحاً وأولادهم. وفي هذا ـ إذا جعل «التي» كنايةً عن التقوى ـ مبالغةٌ من حيث إنَّه جعل مال المؤمن الصالح وولده نفس التقوى، ثمَّ إنَّ تقريبَ الأموال المؤمنَ الصالح بإنفاقها فيما يرضي الله تعالى، وتقريبَ الأولاد بتعليمهم الخير وتفقيههم في الدين وترشيحهم للصلاح والطاعة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى «من»، والجمع باعتبار معناها، كما أنَّ الإفراد فيما تقدَّم باعتبار لفظها. وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوِّ رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل، أي: فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي: لهم أن يجازيَهم الله تعالى الضعف، أي: الثوابَ المضاعف، فيجازيهم على الحسنة بعشر أمثالها أو بأكثر إلى سبع مئة، فإضافة «جزاء» إلى «الضعف» من إضافة المصدر إلى مفعوله.

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٥.

(٢) في إعراب القرآن له ٣/ ٣٥٢.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٥-٢٨٦.

وقرأ قتادة: «جزاءٌ الضعفُ» برفعهما[1]، فـ«الضِّعفُ» بدل. وجَوَّز الزجاج كونَه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الضعف[2].

ويعقوب ـ في رواية ـ بنصب «جزاءً»، ورفع «الضعفُ»[3]، فـ«جزاء» تمييز، أو حال من فاعل «لهم» إنْ كان «الضعف» مبتدأ، أو منه إن كان فاعلاً، أو نصب على المصدر لفعله الذي دلَّ عليه «لهم»، أي: يجزون جزاء.

وقرئ: «جزاءٌ» بالرفع والتنوين، «الضعفَ» بالنصب على إعمال المصدر[4].

﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الصالحات ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ أي: في غرفات الجنَّة ومنازلها العالية ﴿ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ من جميع المكاره الدنيويَّة والأخرويَّة.

وقرأ الحسن وعاصم ـ بخلافٍ عنه ـ والأعمش ومحمد بن كعب: «في الغُرْفات» بإسكان الراء[5]. وقرأ بعض القرَّاء بفتحها[6]. وابن وثاب والأعمش وطلحة وحمزة وخلف: «في الغُرْفة» بالتوحيد وإسكان الراء[7]، وابن وثاب أيضاً بالتوحيد وضمِّ الراء[8]. والتوحيد على إرادة الجنس؛ لأنَّ الكلَّ ليسوا في غرفةٍ واحدة، والمفردُ أخصرُ مع عدم اللبس فيه.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا﴾ بالردِّ والطعن فيها ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ ـ أي: بحسب زعمهم الباطلِ ـ اللهَ عزَّ وجلَّ، أو الأنبياءَ عليهم السلام، وحاصله: زاعمينَ سبقَهم، وعدمَ قدرة الله تعالى أو أنبيائه عليهم السلام عليهم. ومعنى المفاعلة غير مقصود هاهنا.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٦.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٦.
(٣) هي رواية رويس عنه. انظر النشر ٢/ ٣٥١.
(٤) أوردها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٢، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٢٣.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٨٦، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٢ عنهم دون ذكر عاصم. وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٦) القراءات الشاذة ص١٢٢، والكشاف ٣/ ٢٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٦.
(٧) البحر المحيط ٧/ ٢٨٦ دون ذكر خلف، وذكرها عنه القرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٢٣.
(٨) الدر المصون ٩/ ١٩٦.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي بَعُدَتْ منزلتهم في الشر ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾ لا يجديهم ما عَوَّلوا عليه نفعاً. وفي ذكر العذاب دون موضعه ما لا يخفى من المبالغة.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: يوسِّعُه سبحانَه عليه تارةً، ويضيِّقه عليه أخرى، فلا تخشوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله تعالى، وتقرَّبوا لديه عزَّ وجلَّ بأموالكم، وتعرَّضوا لنفحاته جلَّ وعلا، فمساقُ الآية للوعظ والتزهيد في الدنيا، والحضِّ على التقرُّب إليه تعالى بالإنفاق، وهذا بخلاف مساقِ نظيرها المتقدِّم، فإنَّه للردِّ على الكفرة كما سمعت. وأيضاً ما سبق عامٌّ، وما هنا خاصٌّ في البسط والتضييق لشخصٍ واحد باعتبار وقتين، كما يشعر به قوله تعالى هنا: «له» وعدمُ قوله هناك، والضمير وإن كان في موضعِ من المبهم، إلَّا أنَّ سبق النظير خالياً عن ذلك، وذكر هذا بعدُ مشتملاً عليه، كالقرينة على إرادة ما ذُكر، فلا تغفل.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ يحتمل أنْ تكون «ما» شرطيةً في موضع نصب بـ «أنفقتم»، وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ جواب الشرط. ويحتمل أنْ تكون بمعنى «الذي» في موضع رفع بالابتداء، والجملة بعدُ خبرُه، ودخلت الفاء لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط. و«من شيء» تبيين على الاحتمالين.

ومعنى «يخلفه»: يعطي بدلَه وما يقوم مقامه عوضاً عنه، وذلك إمَّا في الدنيا بالمال، كما هو الظاهر، أو بالقناعة التي هي كنزٌ لا يفنى، كما قيل، وإمَّا في الآخرة بالثواب الذي كلُّ خلفٍ دونَه.

وخصَّه بعضهم بالآخرة، أخرج الفريابيُّ وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: إذا كان لأحدكم شيءٌ فليقتصد، ولا يتأوَّل هذه الآية: (لَهُۥٓ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ)، فإنَّ الرزقَ مقسومٌ، ولعلَّ ما قُسِم له قليلٌ، وهو ينفقُ نفقة الموسع عليه.

وأخرج مَن عدا الفريابي من المذكورين عنه أنه قال في الآية: أي: ما كان من خلفٍ فهو منه تعالى، وربَّما أنفقَ الإنسان مالَه كلَّه في الخير ولم يُخْلَفْ حتى يموت[1].

(١) الأثران في الدر المنثور ٥/ ٢٣٨-٢٣٩.

ومثلها: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦] يقول: ما آتاها من رزقٍ فمنه تعالى، وربما لم يرزقها حتى تموت.

والأول أظهرُ؛ لأنَّ الآيةَ في الحثِّ على الإنفاق، وأنَّ البَسْطَ والقَدْرَ إذا كانا من عنده عزَّ وجلَّ فلا ينبغي لمن وُسِّع عليه أنْ يخاف الضيعةَ بالإنفاق، ولا لمن قُدِرَ عليه زيادتها، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ تذييلٌ يؤيِّد ذلك، كأنَّه قيل: فيرزقه من حيث لا يحتسب.

وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يومٍ يصبحُ العباد فيه إلَّا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهمَّ أَعْطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أَعْطِ ممسكاً تلفاً»(١).

وأخرج البيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «كلَّ ما أنفقَ العبدُ نفقةً، فعلى الله تعالى خلفها ضامناً، إلَّا نفقةً في بنيانٍ أو معصية»(٢).

وأخرج البخاريُّ وابن مردويه عن أبي هريرة أنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: أَنْفِقْ يا ابنَ آدم أُنْفِقْ عليك»(٣).

وأخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ المعونةَ تنزلُ من السماء على قَدْرِ المؤونة»(٤).

وفي حديثٍ طويل عن الزبير: «قال الله تبارك وتعالى: أَنفق أُنفقْ عليك، وأوسع أوسع عليك، ولا تضيِّق أضيق عليك، ولا تصرَّ فأصرَّ عليك، ولا تخزن فأخزن عليك، إنَّ بابَ الرزق مفتوحٌ من فوق سبع سماوات، متواصلٌ إلى العرش، لا يُغلَقُ ليلاً ولا نهاراً، يُنزِل الله تعالى منه الرزق على كلِّ امرئٍ بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته، فمن أكثر أُكْثِرَ له، ومن أقلَّ أُقِلَّ له، ومن أمسك أُمسِكَ عليه،

(١) صحيح البخاري (١٤٤٢)، وصحيح مسلم (١٠١٠). وسلف ٣/٤٥٨.
(٢) شعب الإيمان (١٠٧١٢).
(٣) صحيح البخاري (٧٤٩٦).
(٤) نوادر الأصول ص١١٣، الأصل الثالث والسبعون.

يا زبير فكل وأطعم، ولا تُوكِ فيوكَى عليك، ولا تحصي فيحصَى عليك، ولا تقتِّر فيقتَّر عليك، ولا تعسِّر فيعسَّر عليك». الحديث[1].

ومعنى «الرازقين»: الموصلين للرزق والموهبين له، فيطلق الرازقُ حقيقةً على الله عزَّ وجلَّ وعلى غيره، ويشعر بذلك: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨]. نعم لا يُقَال لغيره سبحانه: رزَّاقٌ[2]، فلا إشكال في قوله سبحانه: «وهو خير الرازقين». ووجه الأَخْيَرية في غاية الظهور.

وقيل: إطلاقُ الرازق على غيره تعالى مجازٌ باعتبار أنَّه واسطةٌ في إيصال رزقه تعالى، فهو رازقٌ صورةً، فاستشكل أمرُ التفضيل بأنَّه لا بدَّ من مشاركة المفضَّل للمفضَّل عليه في أصل الفعل حقيقةً لا صورة.

وأجاب الآمديُّ بأنَّ المعنى: خيرُ من تسمَّى بهذا الاسم وأطلق عليه حقيقةً أو مجازاً، وهو ضربٌ من عموم المجاز.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: المستكبرين والمستضعفين، أو الفريقين وما كانوا يعبدون من دون الله عزَّ وجلَّ. و«يوم» ظرفٌ لمضمرٍ متقدِّم، أي: واذكر يوم، أو متأخر، أي: ويوم نحشرهم جميعاً ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إلى آخره، يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيطُ به نطاق المقال.

وظاهرُ العطف بـ «ثم» يقتضي أنَّ القولَ للملائكة متراخٍ عن الحشر، وفي الآثار ما يشهدُ له، فقد روي أنَّ الخلقَ بعد أن يُحشَروا يبقون قياماً في الموقف سبع آلاف سنة لا يُكَلَّمون[3]، حتى يَشفع في فصل القضاء نبيُّنا ﷺ، فلعلَّه عند ذلك يقول سبحانه وتعالى للملائكة عليهم السلام: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ تقريعاً للمشركين وتبكيتاً وإقناطاً لهم عمَّا علَّقوا به أطماعَهم الفارغة من شفاعة الملائكة

(١) نوادر الأصول ص١٥١، الأصل السادس عشر والمئة، ومعنى: ولا توكِ فيوكى عليك. قال الفيومي في المصباح المنير(الوكاء): الوكاء: حبل يُشَدُّ به رأس القِرْبة. وأوكيتُ السِّقاء: شددت فمه بالوكاء.

(٢) في الأصل و(م): رازق. والتصويب من النسخة النعمانية.

(٣) لم نقف عليه.

عليهم السلام؛ لعلمه سبحانه بما تُجيب به على نهج قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة:١١٦]، وتخصيصُهم بالذكر لأنَّهم أشرفُ شركاء المشركين الذين لا كتاب لهم، والصالحون عادةً للخطاب. وعبادتهم مبدأ الشرك بناءً على ما نقل ابنُ الورديِّ في «تاريخه» من أنَّ سبب حدوث عبادة الأصنام في العرب أنَّ عمرو بن لحي مرَّ بقومٍ بالشام، فرآهم يعبدون الأصنام، فسألهم، فقالوا له: هذه أربابٌ نتخذها على شكل الهياكل العلويَّة، فنستنصر بها ونستسقي، فتبعَهم، وأتى بصنمٍ معه إلى الحجاز، وَسَوَّل للعرب فعبدوه، واستمرَّت عبادةُ الأصنام فيهم إلى أن جاءَ الإسلام، وحدثت عبادةُ عيسى عليه السلام بعد ذلك بزمانٍ كثير.

فبظهور قصورهم عن رتبة المعبوديَّة وتنزُّههم عن عبادتهم، يظهر حال سائر الشركاء بطريق الأولوية.

و«هؤلاء» مبتدأ، و«كانوا يعبدون» خبره، و«إياكم» مفعول «يعبدون» قُدِّم للفاصلة، مع أنَّه أهمُّ لأمر التقريع.

واستدلَّ بتقديمه على جواز تقديم خبر «كان» ـ إذا كان جملةً ـ عليها، كما ذهب إليه ابن السرَّاج، فإنَّ تقديمَ المعمول مؤذِنٌ بجواز تقديم العامل.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ هذه القاعدة ليست مطَّردة، ثم قال: والأولى منعُ ذلك، إلَّا أن يدلَّ على جوازه سماعٌ من العرب(١).

وقرأ جمهور القراء: «نحشرهم»، «ثم نقول» بالنون في الفعلين(٢).

﴿قَالُوا۟﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا تقول الملائكة حينئذ؟ فقيل: تقول منزِّهين(٣) عن ذلك: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على التحقُّق، أي: أنت الذي نواليه من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم، كأنَّهم بيَّنوا بذلك براءتهم من الرضى بعبادتهم، ثم أضربوا عن ذلك، ونفوا أنَّهم

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٧.

(٢) التيسير ص١٠٧، والنشر ٢/ ٢٥٧. وقرأ حفص ويعقوب بالياء.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وجاء في تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٧ـ والكلام منه ـ: متنزهين.

عبدوهم حقيقةً بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، كما روي عن مجاهد، حيث كانوا يطيعونَهم فيما يسوِّلون(١) لهم من عبادة غير الله تعالى.

وقيل: صَوَّرت الشياطينُ لهم صور قومٍ من الجنِّ، وقالوا: هذه صورُ الملائكة فاعبدوها. فعبدوها.

وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عُبِدت فيُعْبَدون بعبادتها.

وقيل: أرادوا أنَّهم عبدوا شيئاً تخيَّلوه صادقاً على الجنِّ، لا صادقاً علينا، فهم يعبدونَ الجنَّ حقيقةً دوننا.

وقال ابن عطية: يجوزُ أن يكونَ في الأمم الكافرة مَن عَبَد الجنَّ، وفي القرآن آياتٌ يظهر منها أنَّ الجنَّ عُبِدت، في سورة الأنعام وغيرها(٢).

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ الضمير الثاني للجنِّ، والأول للمشركين، والأكثر على ظاهره؛ لأنَّ من المشركين من لم يؤمن بهم وعبدهم اتِّباعاً لقومه، كأبي طالب، أو الأكثر بمعنى الكلِّ، واختار في «البحر» الأولَ؛ لأنَّ كونه بمعنى الكلِّ ليس حقيقةً، وقال: إنَّهم لم يدَّعوا الإحاطة، إذ يكون في الكفار من لم يُطْلِع اللهُ تعالى الملائكةَ عليهم السلام عليهم، أو أنَّهم حكموا على الأكثر بإيمانهم بالجنِّ؛ لأنَّ الإيمان من أعمال القلب، فلم يذكروا الاطِّلاع على عمل جميع قلوبهم؛ لأنَّ ذلك لله عزَّ وجلَّ(٣).

وجُوِّزَ أن يكون الضمير الأول للإنس، فالأكثر على ظاهره، أي: غالبهم مصدِّقون أنَّهم آلهة، وقيل: مصدِّقون أنَّهم بنات الله ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:١٥٨] وقيل: مصدِّقون أنَّهم ملائكة.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ من جملة ما يقال للملائكة عليهم السلام عند جوابهم بالتبرُّؤ عمَّا نَسب إليهم المشركون؛ يخاطبون بذلك على رؤوس

---

(١) في الأصل: يسولوه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤، والمراد قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية: ١٠٠].

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٧.

الأشهاد؛ إظهاراً لعجزهم وقصورهم عن زاعمي عبادتهم، وتنصيصاً على ما يوجب خيبةَ رجائهم بالكلية. وقيل: للكفار، وليس بذاك.

والفاء لترتيب الإخبار بما بعدها على جواب الملائكة عليهم السلام، ونسبةُ عدم النفع والضرِّ إلى البعض المبهَم للمبالغة فيما هو المقصود، الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدَة بنظمه في سلك عدم نفع العبدَة لهم، كأنَّ نفعَ الملائكة لعبدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم.

والتعرُّضُ لعدم الضرِّ ـ مع أنه لا بحث عنه ـ لتعميم العجز، أو لحمل عدمِ النفع على تقدير العبادة، وعدم الضرِّ على تقدير تركها.

وقيل: لأنَّ المراد دفعُ الضرِّ، على حذف المضاف. وفيه بُعْدٌ.

والمراد بـ «اليوم» يوم القيامة، وتقييد الحكم به ـ مع ثبوته على الإطلاق ـ لانعقاد رجاء المشركين على تحقُّق النفع يومئذٍ.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ عطفٌ على «نقول للملائكة». وقيل: على «لا يملك».

وتُعقِّبَ بأنَّه ممَّا يقال يوم القيامة خطاباً للملائكة مترتِّباً على جوابهم المحكي، وهذا حكايةٌ لرسول الله ﷺ لمَا سيقال للعبدة يومئذٍ إثرَ حكاية ما سيقال للملائكة عليهم السلام. وأجيب بأنَّ ذلك ليس بمانعٍ. فتدبر.

ووقع الموصول هنا وصفاً للمضاف إليه، وفي «السجدة» في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الآية: ٢٠] صفة للمضاف، فقال أبو حيان: لأنَّهم ثمت كانوا ملابسين للعذاب، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] فوصف لهم ثمت ما لابَسوه، وهنا لم يكونوا ملابسين له، بل ذلك أول ما رأوا النار عقب الحشر، فوصف لهم ما عاينوه[١].

وكون الموصول هنا نعتاً للمضاف على أنَّ تأنيثَه مكتسَبٌ لتتحد الآيتان = تكلُّفٌ سمج.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٧.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بيانٌ لبعضٍ آخر من كفرهم، أي: إذا تتلى عليهم بلسان الرسول ﷺ آياتُنا الناطقةُ بحقِّيَّة التوحيد وبطلان الشرك ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا﴾ يعنون رسولَ الله ﷺ التالي للآيات، والإشارةُ للتحقير ـ قاتلَهم الله تعالى ـ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيجعلَكم من أتباعه من غير أن يكون له دينٌ إلهيٌّ، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم؛ لتحريك عِرْق العصبيَّة منهم، مبالغةً في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَآ﴾ يعنونَ القرآن المتلوَّ، والإشارةُ كالإشارة السابقة ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كلامٌ مصروفٌ عن وجهه، لا مصداق له في الواقع ﴿مُّفْتَرًى﴾ بإسناده إلى الله عز وجل.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي: لأمر النبوَّة التي معها من خوارق العادة ما معها، أو للإسلام المفرِّق بين المرء وزوجه وولده، أو القرآن الذي تتأثَّر به النفوس، على أنَّ العطف لاختلاف العنوان، بأنْ يُرَاد بالأول معناه، وبالثاني نظمُه المعجز ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ من غير تدبُّرٍ ولا تأمُّل فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ ظاهرٌ سحريَّته.

وفي ذكر «قال» ثانياً، والتصريح بذكر الكفرة، وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه[1]، وما في «لمَّا» من المسارعة إلى البتِّ بهذا القول الباطل = إنكارٌ عظيمٌ له وتعجيب[2] بليغٌ منه.

وجُوِّزَ أن تكون كلُّ جملةٍ صدرت من قومٍ من الكفرة.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ أي: أهل مكَّة ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ تقتضي صحَّة الإشراك ليعذروا فيه، فهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] وقوله سبحانه: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١] وإلى هذا ذهب ابن زيد.

---

(١) قوله: وما في اللامين...، يعني به مجيء القائلين والمقول فيه معرَّفين، الأول ـ وهو «الذين كفروا» ـ بالموصولية، والثاني ـ وهو «للحق» ـ بأل العهدية المساوية للموصولية في العهد، فلذا قال: في اللامين، تغليباً. حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٩.

(٢) في الأصل و(م): وتعجب، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٦، وتفسير أبي السعود ٧/ ١٣٨.

وقال السُّدّيّ: المعنى: ما آتيناهم كتباً يدرسونها فيعلموا بدراستها بطلانَ ما جئتَ به. ويرجعُ إلى الأول، والمقصود نفي أن يكون لهم دليلٌ على صحَّة ما هم عليه من الشرك.

و«من» صلة، وجمع الكتب إشارة ـ على ما قيل ـ إلى أنَّه لشدَّة بطلانه واستحالة إثباته بدليلٍ سمعيٍّ أو عقليٍّ يحتاج إلى تكرُّر الأدلة وقوَّتها، فكيف يُدَّعى ما تواترت الأدلَّة النيِّرة على خلافه.

وقرأ أبو حيوة: «يَدَّرِسُونَها» بفتح الدال وشدِّها وكسر الراء[1]، مضارع ادَّرس افتعل من الدرس، ومعناه: يتدارسونها، وعنه أيضاً: «يُدَرِّسونها» من التدريس[2]، وهو تكرير الدرس، أو من دَرَّسَ الكتاب مخففاً، ودَرَّس الكتب ـ مشدَّداً ـ التضعيفُ فيه باعتبار الجمع.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: وما أرسلنا إليهم قبلَك نذيراً يدعوهم إلى الشرك، وينذرهم بالعقاب على تركه، وقد بان من قبلُ أنْ لا وجهَ له بوجهٍ من الوجوه، فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ؟! وفيه من التهكُّم والتجهيل ما لا يخفى.

ويجوزُ أن يراد أنَّهم أمِّيُّون كانوا في فترةٍ، لا عذرَ لهم في الشرك، ولا في عدم الاستجابة لك، كأهلِ الكتاب الذين لهم كتبٌ ودينٌ يأبون تركَه ويحتجُّون على عدم المتابعة بأنَّ نبيَّهم حذَّرهم تركَ دينه، مع أنَّه بيِّنُ البطلان؛ لثبوت أمرِ من قبله باتِّباعه وتبشيرِ الكتب به.

وذكر ابنُ عطية أنَّ الأرضَ لم تخلُ من داعٍ إلى توحيد الله تعالى، فالمراد نفي إرسال نذيرٍ يختصُّ بهؤلاء ويشافههم، وقد كان عند العرب كثيرٌ من نذارة إسماعيلَ عليه السلام، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] ولكن لم يتجرَّد للنذارة وقاتلَ عليها إلَّا محمَّدٌ ﷺ[3]. اهـ.

(١) المحتسب ٢/ ١٩٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٩.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٨٩.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤.

ثمَّ إنَّه تعالى هدَّدهم بقوله سبحانه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المتقدِّمة والقرون الخالية بما كذَّبوا ﴿وَمَا بَلَغُوا۟﴾ أي: أهل مكَّة ﴿مِعْشَارَ﴾ أي: عشر ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ وقال قومٌ: المعشار: عُشْرُ العشر، ولم يرتضه ابنُ عطيَّة[1]. وقال الماورديُّ[2]: المراد المبالغة في التقليل، أي: ما بلغوا أقلَّ قليلٍ ممَّا آتينا أولئك المكذِّبين من طول الأعمار وقوة الأجسام وكثرة الأموال.

﴿فَكَذَّبُوا۟﴾ أي: أولئك المكذِّبون ﴿رُسُلِى﴾ الذين أرسلتُهم إليهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ أي: إنكاري لهم بالتدمير، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك.

والفاء الأولى سببيَّة، و«كذب» الأول تَنزَّلَ[3] منزلةَ اللازم، أي: فعل الذين من قبلهم التكذيبَ وأقدموا عليه، ونظيرُ ذلك أن يقول القائل: أَقْدَمَ فلانٌ على الكفر، فكفر بمحمدٍ ﷺ. ومن هنا قالوا: إنَّ «كذبوا رسلي» عطفٌ على «كذب الذين» عطفَ المقيَّد على المطلق، وهو تفسيرُ معنًى، و«ما بَلَغوا» اعتراض، والفاء الثانية فصيحةٌ، فيكون المعنى: فحين كذَّبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير، فكيف كان نكيري لهم. وجعل التدمير إنكاراً تنزيلاً للفعل منزلة القول، كما في قوله:

. ونَـشْـتـمُ بـالأفـعـال لا بـالـتـكـلُّـمِ[4]

أو على نحو:

تـحـيـةُ بَـيْـنِـهـم ضـربٌ وجـيـعُ[5]

وجَوَّز بعضُهم أن تكون صيغة التفعيل في: «كذب الذين» للتكثير، وفي «كذبوا» للتعدية، والمكذِّب فيهما واحد، أي أنَّهم أكثروا الكذب وأَلِفُوه فصار سجيَّةً لهم، حتى اجترؤوا على تكذيب الرسل، وعلى الوجهين لا تكرار.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤.
(٢) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٥.
(٣) لفظة: تنزل. من (م)، وليست في الأصل.
(٤) عجز بيت لمعبد بن علقمة، وسلف ٧/ ٢٧٦.
(٥) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٥/ ٦٤.

وجُوِّز أن يكون «كذَّبوا رسلي» منعطفاً على «ما بَلَغوا» من تتمَّة الاعتراض، والضمير لأهل مكَّة، يعني هؤلاء لم يبلغوا معشار ما آتينا أولئك المكذِّبين الأوَّلين، وفضَلوهم في التكذيب؛ لأنَّ تكذيبَهم لخاتَم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام تكذيبٌ لجميع الرسل عليهم السلام من وجهين، وعليه لا يُتَوَهَّم تكرارٌ كما لا يخفى.

وكون جملة «ما بَلَغوا» معترضةً هو الظاهر، وجعلُ «وكذب الذين من قبلهم» تمهيداً؛ لئلَّا تكون تلك الجملة كذلك، يدفعه: «فكيف كان نكير»؛ لأنَّ معناه للمكذِّبين الأولين ألبتة، فلا التئام دون القول بكونها معترضة.

وإرجاع ضمير «بَلَغوا» إلى أهل مكَّة، والضمير المنصوب في «آتيناهم» إلى «الذين من قبلهم»، وبيان الموصول بما سمعت، هو المرويُّ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد.

وقيل: الضمير الأول للذين من قبلهم، والضمير الثاني لأهل مكَّة، أي: وما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى.

وقيل: الضميران للذين من قبلهم، أي: كذبوا وما بلغوا في شكر النعمة ومقابلة المنَّة عشر ما آتيناهم من النعم والإحسان إليهم. واستظهر ذلك أبو حيان معلِّلاً له بتناسق الضمائر، حيث جعل ضمير «فكذبوا» للذين من قبلهم[1]، فلا تغفل.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: ما أرشدكم وأنصح لكم إلَّا بخصلةٍ واحدةٍ، وهي - على ما قال قتادة - ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ على أنَّه في تأويل مصدر بدلٌ منها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي قيامكم، أو مفعولٌ لفعلٍ محذوف، أي: أعني قيامكم.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٩-٢٩٠.

وجَوَّز الزمخشريُّ كونَه عطف بيان لـ «واحدة»[١]. واعترض بأن «أن تقوموا» معرفة؛ لتقديره بـ: قيامكم، وعطف البيان يشترطُ فيه عند البصريين أن يكون معرفةً من معرفة، وهو عند الكوفيين يتبعُ ما قبلَه في التعريف والتنكير، والتخالف ممَّا لم يذهب إليه ذاهب.

والظاهر أنَّ الزمخشريَّ ذاهبٌ إلى جواز التخالف، وقد صرَّح ابنُ مالك في «التسهيل» بنسبة ذلك إليه[٢]، وهو من مجتهدي علماء العربية، وجُوِّزَ أن يكون قد عبَّر بعطف البيان وأراد البدل لتآخيهما، وهذا إمام الصناعة سيبويه يسمِّي التوكيدَ صفةً، وعطفَ البيان صفةً[٣]، ثمَّ إنَّ كون المصدر المسبوك معرفةً أو مؤوَّلاً بها دائماً غيرُ مسلَّم.

والقيام مجازٌ عن الجدِّ والاجتهاد. وقيل: هو على حقيقته، والمراد القيام عن مجلس رسول الله ﷺ. وليس بذاك، وقد رُوي نفيُ إرادته عن ابن جريج.

أي: إن تجدُّوا وتجتهدوا في الأمر بإخلاصٍ لوجه الله تعالى ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: متفرِّقين اثنين اثنين وواحداً واحداً، فإنَّ في الازدحام على الأغلب تهويشَ الخاطر، والمنعَ من الفكر، وتخليطَ الكلام، وقلَّة الإنصاف[٤]، كما هو مشاهدٌ في الدروس التي يجتمعُ فيها الجماعة، فإنَّه لا يكاد يوقف فيها على تحقيق.

وفي تقديم «مثنى» إيذانٌ بأنَّه أوثق وأقرب إلى الاطمئنان. وفي «البحر»[٥]: قدّم لأنَّ طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرةٍ واحدةٍ، فإذا انقدحَ الحقُّ بين الاثنين فكَّر كلٌّ واحدٍ منهما بعد ذلك، فيزيدُ بصيرةً، وشاع الفتح بين الاثنين.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٤.

(٢) التسهيل ص ١٧٥، وشرحه لابن مالك ٣/ ٣٢٦.

(٣) انظر الأول في الكتاب ٢/ ٣٥١، ٣٥٩، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٥، ٣٩١، والثاني فيه ٢/ ١٩٢.

(٤) في الأصل: الإنصات. والمثبت من (م) والبحر ٧/ ٢٩٠.

(٥) ٧/ ٢٩١.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمره ﷺ وما جاء به لتعلموا حقِّيَّته. والوقف عند أبي حاتم هنا، وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استئنافٌ مسوقٌ من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمُّل؛ بأنَّ مثل هذا الأمر العظيم الذي تحتَه ملكُ الدنيا والآخرة لا يتصدَّى لادّعائه إلَّا مجنونٌ لا يبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان، وظهورِ عجزه، أو مؤيَّدٌ من عند الله تعالى، مرشَّحٌ للنبوَّة، واثقٌ بحجَّته وبرهانه، وإذ قد علمتم أنَّه عليه الصلاة والسلام أرجحُ الناس عقلاً، وأصدقُهم قولاً، وأزكاهم نفساً، وأفضلُهم علماً، وأحسنُهم عملاً، وأجمعُهم للكمالات البشرية = وجبَ أنْ تصدِّقوه في دعواه، فكيف وقد انضمَّ إلى ذلك معجزاتٌ تخرُّ لها صمُّ الجبال.

والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بـ «صاحبكم» للإيماء إلى أنَّ حاله ﷺ مشهورٌ بينهم؛ لأنَّه نشأ بين أظهرهم معروفاً بما ذكرنا.

وجُوِّزَ أن يكون متعلِّقاً بما قبله، والوقفُ على «جِنَّة» على أنَّه معمولٌ[1] لفعل: علم، مقدَّر لدلالة التفكُّر عليه؛ لكونه طريق العلم، أي: «ثم تتفكروا» فتعلموا «ما بصاحبكم من جِنَّة». أو معمولٌ لـ «تتفكَّروا» على أنَّ التفكُّر مجازٌ عن العلم، أو معمول له بدون ارتكاب تجوُّزٍ؛ بناءً على ما ذهب إليه ابنُ مالك في «التسهيل» من أنَّ «تفكَّر» يعلَّق حملاً على أفعال القلوب[2].

وجُوِّزَ أن يكون هناك تضمينٌ، أي: ثمَّ تتفكروا عالمين ما بصاحبكم من جِنَّة.

وقال ابن عطية[3]: هو عند سيبويه جوابُ ما ينزل منزلةَ القسم؛ لأنَّ «تفكَّر» من الأفعال التي تعطي التمييز[4] كـ «تبيَّن»، وتكون الفكرة على هذا في آيات الله تعالى والإيمان به. اهـ. وهو كما ترى.

و«ما» مطلقاً نافية، والباء بمعنى «في»، و«من» صلة.

---

(١) في (م): مفعول.

(٢) شرح التسهيل لابن مالك ٢/ ٨٩.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، وذكره عنه أيضاً أبو حيان في البحر ٧/ ٢٩١.

(٤) في المحرر الوجيز: التي تعطي التحقيق، والمذكور موافق لما في البحر.

وقيل: «ما» للاستفهام الإنكاريّ، و«من» بيانيَّة، وجُوِّزَ أنْ تكون صلةً أيضاً. وفيه تطويلُ المسافة، وطيُّها أولى.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ هو عذابُ الآخرة، فإنَّه ﷺ مبعوثٌ في نَسَمِ الساعة[1]، وجاء: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين»، وضمَّ عليه الصلاة والسلام الوسطى والسبابة على المشهور[2].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: مهما سألتكم من نفعٍ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفيُ السؤال رأساً، كقولك لصاحبك: إنْ أعطيتني شيئاً فخذه. وأنت تعلمُ أنَّه لم يعطِك شيئاً. ف «ما» شرطية مفعول «سألتكم»، وهو المرويُّ عن قتادة.

وقيل: هي موصولة، والعائد محذوف، و«من» للبيان، ودخلت الفاء في الخبر لتضمُّنها معنى الشرط، أي: الذي سألتكموه من الأجر فهو لكم وثمرته تعودُ إليكم، وهو ـ على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ إشارةٌ إلى المودَّة في القربى في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وكونُ ذلك لهم على القول بأنَّ المراد بالقربى قرباهم ظاهر، وأما على القول بأنَّ المراد بها قرباه عليه الصلاة والسلام، فلأنَّ قرباه ﷺ قرباهم أيضاً، أو هو إشارةٌ إلى ذلك وإلى ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧] وظاهرٌ أنَّ اتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتُهم الكبرى.

وجوز كون «ما» نافيةً، و«من» صلة، وقوله سبحانه: «فهو لكم» جواب شرط مقدَّر، أي: فإذا لم أسألكم فهو لكم. وهو خلافُ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ يؤيِّدُ إرادةَ نفي السؤال رأساً.

---

(١) يشير إلى حديث أبي جبيرة رضي الله عنه مرفوعاً: «بعثتُ في نسم الساعة» قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٠٩: أخرجه البزار بإسناد حسن من حديث أبي جبيرة بن الضحاك الأنصاري، وأخرجه الحسن بن سفيان، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية [٤/١٦١]. ومعنى: نَسَم الساعة. هو من النسيم أول هبوب الريح الضعيفة، أي: بُعثت في أول أشراط الساعة. النهاية (نسم).

(٢) سلف عند تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.

وقُرئ: «إنْ أجريْ» بسكون الياء[1].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ أي: مُطّلعٌ، فيعلم سبحانه صدقي وخلوصَ نيَّتي.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ قال السُّدِّيُّ وقتادة: بالوحي، وفي روايةٍ أخرى عن قتادة: بالقرآن، والمآلُ واحد.

وأصلُ القذف: الرميُ بدفعٍ شديدٍ، وهو هنا مجازٌ عن الإلقاء. والباء زائدة، أي: إنَّ ربي يلقي الوحي وينزلُه على قلب من يَجتبيه من عباده سبحانه.

وقيل: القذف مُضَمَّنٌ معنى الرمي، فالباء ليست زائدة.

وجُوِّز أن يراد بالحقِّ مقابل الباطل، والباء للملابسة، والمقذوف محذوف، والمعنى: إنَّ ربِّي يلقي ما يلقي إلى أنبيائه عليهم السلام من الوحي بالحقِّ لا بالباطل.

وعن ابن عباس: إنَّ المعنى يقذف الباطلَ بالحقِّ، أي: يورده عليه حتى يبطلَه عزَّ وجلَّ ويزيلَه، والحقُّ مقابل الباطل، والباء مثلها في قولك: قتلته بالضرب.

وفي الكلام استعارةٌ مصرّحةٌ تبعيَّة، والمستعار منه حسِّيٌّ، والمستعار له عقليّ. وجُوِّزَ أن تكون الاستعارة مكنيَّة.

وقيل: المعنى: يرمي بالحقِّ إلى أقطار الآفاق، على أنَّ ذلك مجازٌ عن إشاعته، فيكون الكلام وعداً بإظهار الإسلام وإفشائه. وفيه من الاستعارة ما فيه.

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ خبرٌ ثانٍ، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو سبحانه علَّامُ الغيوب، أو صفةٌ محمولةٌ على محلِّ «إنَّ» مع اسمها، كما جوَّزهُ الكثير من النحاة، وإنْ منعَه سيبويه، أو بدلٌ من ضمير «يقذف»، ولا يلزم خلوُّ جملة الخبر من العائد؛ لأنَّ المبدل منه ليس في نيَّة الطرح من كلِّ الوجوه. وقال الكسائيُّ: هو نعتٌ لذلك الضمير، ومذهبُه جوازُ نعت المضمر الغائب.

---

(١) هي قراءة شعبة عن عاصم، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، ويعقوب وخلف. انظر التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.

وقرأ عيسى وزيدُ بن عليٍّ وابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة وأبو حيوة وحرب عن طلحة: «عَلَّامَ» بالنصب[(١)]، فقال الزمخشريُّ: صفة لـ «ربِّي»[(٢)]. وقال أبو الفضل الرازي وابن عطية[(٣)]: بدل. وقال الحوفي: بدلٌ أو صفة. وقيل: نصب على المدح.

وقرأ ابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائيُّ: «الغِيوب» بالكسر كالبيوت، والباقون بالضم كالعشور، وهو فيهما جمع[(٤)].

وقرئ بالفتح كصبور على أنه مفرد للمبالغة[(٥)].

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلامُ والتوحيد، أو القرآن.

وقيل: السيف؛ لأنَّ ظهورَ الحقِّ به. وهو كما ترى.

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: الكفر والشرك ﴿وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: ذهبَ واضمحلَّ بحيثُ لم يبقَ له أثرٌ، مأخوذٌ من هلاك الحيِّ، فإنَّه إذا هلك لم يبق له إبداءٌ، أي: فعلُ أمرٍ ابتداءً، ولا إعادة، أي: فِعْلُه ثانياً، كما يقال: لا يأكل ولا يشرب، أي: ميت، فالكلام كنايةٌ عما ذكر، أو مجازٌ متفرِّعٌ على الكناية، وأنشدوا لعبيدِ بن الأبرص:

أقفرَ من أهله عبيدُ ... فاليوم لا يبدي ولا يعيدُ[(٦)]

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٩٢. وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥ عن عيسى وابن أبي إسحاق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٥.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، والكلام من البحر ٧/ ٢٩٢.

(٤) قراءة أبي بكر وحمزة في التيسير ص ١٠١، والنشر ٢/ ٢٢٦. وقراءة الكسائي وابن ذكوان المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.

(٥) انظر الكشاف ٣/ ٢٩٥، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٩٢.

(٦) البيت في الأغاني ٢٢/ ٨٨ وفيه:

فليس يبدي ولا يعيد

وذكر محققه أن في بعض النسخ:

فاليوم لا يبدي ولا يعيد

=

وقال جماعةٌ: الباطل: إبليس، وإطلاقه عليه لأنه مبدؤه ومنشؤه، ولا كناية في الكلام عليه، والمعنى: لا ينشئ خلقاً ولا يعيد، أو: لا يُبْدِئُ خيراً لأهله ولا يعيد، أي: لا ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وقيل: هو الصنم، والمعنى ما سمعت. وعن أبي سليمان أنَّ المعنى: إنَّ الصنمَ لا يبتدئ من عنده كلاماً فيجاب، ولا يردُّ ما جاء من الحقِّ بحجَّة.

و «ما» على جميع ذلك نافية، وقيل: هي على ما عدا القول الأوَّل للاستفهام الإنكاريّ، منتصبةٌ بما بعدها، أي: أيَّ شيءٍ يبدئ الباطل، وأيَّ شيء يعيد؟ ومآله النفي.

والكلام جُوِّزَ أن يكون تكميلاً لما تقدَّم، وأن يكون من باب العكس والطرد، وأن يكون تذييلاً مقرِّراً لذلك، فتأمل.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحقِّ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: عائداً ضررُ ذلك ووباله عليها، فإنَّها الكاسبةُ للشرور والأمَّارةُ بالسوء ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحقِّ ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فإنَّ الاهتداءَ بهدايته تعالى وتوفيقه عزَّ وجلَّ.

و «ما» موصولةٌ أو مصدريَّة، وكان الظاهر: وإن اهتديتُ فلها، كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، أو: إن ضللتُ فإنما أضلُّ بنفسي، ليظهر التقابل، لكنَّه عدلَ عن ذلك اكتفاءً بالتقابل بحسب المعنى؛ لأنَّ الكلام عليه أجمع، فإنَّ كلَّ ضررٍ فهو من النفس وبسببها، وعليها وبالُه.

وقد دلَّ لفظُ «على» في القرينة الأولى على معنى اللام في الثانية، والباء في الثانية على معنى السببيَّة في الأولى، فكأنَّه قيل: قل: إنْ ضللتُ فإنما أضلُّ بسبب نفسي على نفسي، وإن اهتديتُ فإنَّما اهتدي لنفسي بهداية الله تعالى وتوفيقه سبحانه. وعبَّر عن هذا بـ «ما يوحي إليَّ ربي» لأنه لازمه.

= ثم قال: والرواية التي معنا أصوب، لأن الأبيات من مخلع البسيط، أما المصراع الوارد في تلك النسخ فمن الرجز. اهـ.

وأورده البغدادي في الخزانة ١١٨/٢ بمثل رواية المصنف.

وجَعْلُ «على» للتعليل ـ وإن ظهر عليه التقابل ـ ارتكابٌ لخلاف الظاهر من غير نكتة.

وجُوِّزَ أن يكون معنى القرينة الأولى: قل إن ضللتُ فإنَّما أضلُّ عليَّ لا على غيري. ولا يظهرُ عليه أمر التقابل مطلقاً.

والحكم ـ على ما قال الزمخشريُّ[1] ـ عامٌّ، وإنما أمر ﷺ أنْ يسندَه إلى نفسه؛ لأنَّ الرسولَ إذا دخل تحته مع جلالة محلِّه وسداد طريقته، كان غيره أولى به.

وقال الإمام: أي: إن ضلال نفسي كضلالكم؛ لأنه صادرٌ من نفسي ووباله عليها، وأما اهتدائي فليس كاهتدائكم بالنظر والاستدلال، وإنَّما هو بالوحي المنير[2]. فيكون مجموع الحكمين عنده مختصًّا به عليه الصلاة والسلام، وفيما ذكره دلالة ـ على ما قال الطيبي ـ على أنَّ دليل النقل أعلى وأفخم[3] من دليل العقل. وفيه بحث.

وقرأ الحسن وابن وثَّاب وعبد الرحمن المقري: «ضَلِلت» بكسر اللام، و«أَضَلُّ» بفتح الضاد، وهي لغة تميم. وكسر عبد الرحمن همزة «إِضل»[4].

وقُرِئ: «رَبِّيَ» بفتح الياء[5].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾ فلا يخفى عليه سبحانه قولُ كلٍّ من المهتدي والضالّ وفعلُه، وإنْ بالغَ في إخفائهما، فيجازِي كلّاً بما يليق به[6].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أي: اعتراهم انقباضٌ ونِفَارٌ من الأمر المهول المخيف. والخطاب في «ترى» للنبيِّ ﷺ، أو لكلٍّ من تصحُّ منه الرؤية.

ومفعول «ترى» محذوفٌ، أي: الكفار، أو فزعَهم، أو هو «إذ» على التجوُّز،

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢٩٦.
(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٧١.
(٣) في (م): وأفخم.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٩٢.
(٥) هي قراءة أبي عمرو ونافع وأبي جعفر. انظر التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.
(٦) لفظة: به. ليست في (م).

إذ المراد برؤية الزمان رؤيةُ ما فيه، أو هو متروكٌ؛ لتنزيل الفعل منزلةَ اللازم، أي: لو تقع منك رؤية، وجواب «لو» محذوف، أي: لرأيتَ أمراً هائلاً.

وهذا الفزع ـ على ما أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ـ يومَ القيامة(١)، والظاهرُ عليه أنَّه فزعُ البعث، وهو مرويٌّ عن الحسن.

وأخرج ابنُ المنذر وغيره عن قتادة أنَّه في الدنيا عند الموت، حين عاينوا الملائكةَ عليهم السلام(٢).

وأخرج عبد بن حميد عن الضحَّاك أنَّه يومُ بدر(٣). فقيل: هو فزع الحرب.

وعن السُّدِّيِّ وابن زيد: فزع ضرب أعناقهم ومعاينة العذاب.

وقيل: في آخر الزمان حين يظهر المهدي ويَبعث إلى السفيانيِّ جنداً فيهزمهم، ثم يسير السفيانيُّ إليه، حتى إذا كان ببيداء من الأرض خُسِف به وبمن معه، فلا ينجو منهم إلَّا المخبر عنهم، فالفزعُ فزع ما يصيبهم يومئذٍ.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون اللهَ عزَّ وجلَّ بهربٍ أو نحوه عمَّا يريد سبحانه بهم.

﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ من الموقف إلى النار، أو من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من صحراء بدر إلى القليب، أو من تحت أقدامهم إذا خُسِف بهم. والمراد بذكر قرب المكان سرعةُ نزول العذاب بهم، والاستهانة بهم وبهلاكهم، وإلَّا فلا قرب ولا بُعْدَ بالنسبة إلى الله عزَّ وجلَّ.

والجملة عطفٌ على «فَزعوا» على ما ذهب إليه جماعة، قال في «الكشف»: وكأنَّ فائدة التأخير أنْ يقدّر: فلا فوت، ثانياً؛ إمَّا تأكيداً، وإما أنَّ أحدهما غير الآخر تنبيهاً على أنَّ عدمَ الفوت سببٌ للأخذ، وأنَّ الأخذ سببٌ لتحقُّقه وجوداً. وفيه مبالغة حسنة.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٠.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٤٠، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم أيضاً. وهو في تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٣٣.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٤٠.

وقيل: على «لا فوت» على معنى: فلم يفوتوا وأخذوا، واختاره ابن جنِّي معترضاً على ما تقدَّمَ بأنَّه لا يراد: ولو ترى وقتَ فزعهم وأخذِهم، وإنما المراد: ولو ترى إذ فزعوا ولم يفوتوا وأخذوا[1]. وبما نُقل عن «الكشف» يتحصَّل الجواب عنه.

وجُوِّزَ كونها حالاً من فاعل «فَزعوا»، أو من خبر «لا» المقدَّر، وهو «لهم»، بتقدير «قد» أو بدونه.

والفاء في «فلا فوت» قيل: إنْ كانت سببيَّةً فهي داخلةٌ على المسبَّب؛ لأنَّ عدمَ فوتهم من فزعهم وتحيُّرهم، وإنْ كانت تعليليَّة فهي تدخل على السبب؛ لترتُّب ذكره على ذكر المسبَّب، وإذا عطف «أخذوا» عليه أو جعل حالاً من الخبر يكون هو المقصود بالتفريع.

وقرأ عبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه وطلحة: «فلا فوتٌ وأخذٌ» مصدرين منوَّنين[2]. وقرأ أبيّ: «فلا فوتَ» مبنياً، و«أخذٌ» مصدراً منوَّناً[3]. وإذا رفع «أخذ» كان خبرَ مبتدأ محذوف، أي: وحالهم أخذٌ، أو مبتدأٌ خبره محذوف، أي: وهناك أخذٌ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان[4]، وقال الزمخشريُّ: قرئ «وأخذٌ» بالرفع، على أنَّه معطوفٌ على محلِّ «لا فوت»، ومعناه: فلا فوت هناك وهناك أخذ[5].

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالله عزَّ وجلَّ، على ما أخرجه جمعٌ عن مجاهد[6].

(١) المحتسب ٢/ ١٩٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٣، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٢ عن عبد الرحمن فقط.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٩٣.

(٤) في البحر ٧/ ٢٩٣.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٩٦.

(٦) الدر المنثور ٥/ ٢٤١ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣١٤.

وقالت فرقة: أي: بمحمد ﷺ، وقد مرَّ ذكره في قوله سبحانه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ:٤٦].

وقيل: الضمير للعذاب. وقيل: للبعث. ورُجِّحَ رجوعه إلى محمدٍ عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ الإيمان به ﷺ شاملٌ للإيمان بالله عزَّ وجلَّ وبما ذُكر من العذاب والبعث.

﴿وَأَنَّى لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ التناوش: التناول، كما قال الراغب[1]، ورويَ عن مجاهد.

وقال الزمخشريُّ: هو تناولٌ سهلٌ لشيءٍ قريب، يقال: ناشَهُ يَنُوشُه، وتَنَاوشَه القومُ، وتناوشوا في الحرب: ناش بعضُهم بعضاً بالسلاح[2]. وقال الراجز:

فهي تنوشُ الحوضَ نوشاً من عَلَا   نوشاً به تَقْطَعُ أجوازَ الفلا[3]

وإبقاؤه على عمومه أولى، أي: من أين لهم أن يتناولوا الإيمان ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ فإنَّه في حيِّز التكليف، وهم منه بمعزلٍ بعيد.

ونقل في «البحر»[4] عن ابن عباس تفسير «التناوش» بالرجوع، أي: من أين لهم الرجوعُ إلى الدنيا، وأنشد ابن الأنباريّ:

---

(١) في المفردات (نوش).

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٦.

(٣) هو في مجاز القرآن ٢/ ١٥٠ (البيت الأول منه)، ولسان العرب (نوش) منسوباً لغيلان بن حريث. ونسب في الصحاح ولسان العرب (علا) لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٢١٠.
وورد دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وإصلاح المنطق ص ٢٦٦، وأدب الكاتب ص ٥٠٣، والكامل ٣/ ١٤٣٣، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥-٣١٦، والمنصف لابن جني ١/ ١٢٤.
وقال البطليوسي في الاقتضاب ص ٤٢٧: لا أعلم لمن هذا الرجز.
وذكر سيبويه البيت الأول منه في الكتاب ٣/ ٤٥٣. قال البغدادي في خزانة الأدب ٩/ ٤٣٩: وهذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعلم قائلها.

(٤) ٧/ ٢٩٣.

تـــمـــنَّـــى أنْ تــؤوبَ إلـــيَّ مَـــيٌّ ولـيـس إلـى تـنـاوشـهـا سـبـيـلُ[١]

ولا يخفى أنَّه ليس بنصٍّ في ذلك. والمرادُ تمثيلُ حالهم في الاستخلاص بالإيمان بعدما فاتَ عنهم وبَعُدَ بحالِ مَن يريدُ أن يتناول الشيءَ بعد أنْ بَعُدَ عنه وفات في الاستحالة.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وأبو عمرو وأبو بكر: «التناؤش» بالهمز[٢]، وخُرِّج على قلب الواو همزةً.

قال الزجاج: كلُّ واوٍ مضمومةٍ ضمَّةً لازمةً، فأنت بالخيار فيها، إن شئت أبقيتَها، وإن شئتَ قلبتَها همزةً، فتقول: ثلاث أَدْوُرٍ بلا همز، وثلاث أدؤر بالهمز[٣].

وتعقَّب ذلك أبو حيان فقال: إنَّه ليس على إطلاقه، بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كانت مدغماً فيها نحو: تعوُّد وتعوُّذ، مصدرين، وقد صَرَّحَ بذلك في «التسهيل»، ولا إذا صحَّت في الفعل نحو: تَرَهْوَكَ تَرَهْوُكاً، وتعاونَ تعاوُناً، وعلى هذا لا يصحُّ التخريج المذكور؛ لأنَّ التناوش كالتعاون في أنَّ واوه قد صحَّت في الفعل، إذ تقول: تناوش، فلا يهمز.

وقال الفراء[٤]: هو من نَأَشْتُ، أي: تأخَّرتُ، وأنشد قولَ نهشل:

تـمـنَّـى نَـئِـيْـشـاً أنْ يـكـون أطـاعـنـي وقـد حَـدَثـت بـعـد الأمـور أمـورُ[٥]

---

(١) الزاهر لابن الانباري ١/ ٢٤٤، وهو أيضاً في النكت والعيون ٤/ ٤٥٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٩٣.
ووقع في الزاهر والمحرر: إليك. بدل: إلي.

(٢) التيسير ص ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥١، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٩.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٥.

(٥) نسبه الزمخشري في المستقصى ١/ ٣٠٢، والبصري في حماسته ٢/ ٣٧، وابن منظور في اللسان (نأش) لنهشل بن حَرِّي.

=

أي: تمنَّى أخيراً، والضميرُ للمولَى في قوله:

ومولًى عصاني واستبدَّ برأيه كما لم يُطَع فيما أشار[١] قصيرُ

فالهمزةُ فيه أصليَّةٌ، واللفظ وردَ من مادتين.

وقال بعضهم: هو من نأشت الشيءَ، إذا طلبتَه، قال رؤبة:

أقحمني جارُ أبي الخابوش إليك نأش القدر النؤوش[٢]

فالهمزة أصليَّةٌ أيضاً.

قيل: والتناؤش على هذين القولين بمعنى التناول من بُعْدٍ؛ لأنَّ الأخير يقتضي ذلك، والطلب لا يكون للشيء القريب منك الحاضر عندك، فيكون «من مكان بعيد» تأكيداً، أو يجرَّد التناوش لمطلق التناول. وحمل البعد في قيده على البعد الزمانيّ بحثَ فيه الشهاب بأنَّه غيرُ صحيح؛ لأنَّ المستعارَ منه هو في المكان، وما ذكر من أحوال المستعار له[٣].

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ حالٌ أو معطوفٌ أو مستأنفٌ، والأول أقرب، والضمير المجرور لما عاد عليه الضميرُ السابق في «آمنا به». ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل ذلك في أوان التكليف.

= وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥، والزاهر ١/ ٢٤٤، والصحاح (نأش) دون نسبة.

(١) في (م): أشاء. وهي غير واضحة في الأصل. والمثبت من اللسان (نأش)، وحاشية الشهاب ٧/ ٢١٢. ورواية البيت في الحماسة البصرية: في البقتين. بدل: فيما أشار.

(٢) ديوان رؤبة ص٧٧-٧٨، وفيه: أبي الخاموش، وقد اضطربت المصادر فيه، فجاء في غريب الحديث لإبراهيم الحربي ٢/ ٨٨٤: أبي الحاشوش. وفي المخصص لابن سيده ١٣/ ٥١: أفحمني جار أبي الخاموش. وفي تفسير البيضاوي (ومعه حاشية الشهاب) ٧/ ٢١٢: أبي الخاموش، مثل رواية الديوان.
قال الشهاب الخفاجي في حاشيته: وأقحمني في بيت رؤبة بالقاف والحاء المهملة، بمعنى الجاني، وأبو الخاموش بالخاء والشين المعجمتين عَلَم رجلٍ. وقيل: أفحم بالفاء، والجاموس بالجيم. ولست على ثقة منه. اهـ.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٢١٣.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: وكانوا يرجمون بالمظنون، ويتكلَّمون بما لم يظهر لهم ولم ينشأ عن تحقيق في شأن الله عزَّ وجلَّ، فينسبونَ إليه سبحانه الشريكَ، ويقولون: الملائكةُ بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، أو في شأن الرسول عليه الصلاة والسلام، فيقولون فيه ـ وحاشاه ـ: شاعر، وساحر، وكاهن، أو في شأن العذاب، أو البعث، فيبتُّون القولَ بنفيه.

﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ من جهةٍ بعيدة من أمر مَن تكلَّموا في شأنه، والجملة عطف على «وقد كفروا»، وكان الظاهر: وقَذَفوا، إلَّا أنه عدلَ إلى صيغة المضارع حكايةً للحال الماضية.

والكلام قيل: لعله تمثيلٌ لحالهم مِنَ التكلُّم بما يظهرُ لهم ولم ينشأ عن تحقيقٍ بحالِ من يرمي شيئاً لا يراه من مكانٍ بعيد. لا مجال للظنِّ في لحوقه.

وجوَّز الزمخشريُّ كونَه عطفاً على «قالوا آمنا به» على أنَّهم مُثِّلوا في طلبهم تحصيلَ ما عطَّلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم: آمنا في الآخرة ـ وذلك مطلبٌ مستبعدٌ ـ بمن يقذفُ شيئاً من مكانٍ بعيدٍ لا مجال للظنِّ في لحوقه، حيث يريد أنْ يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً[(١)].

وقرأ مجاهد وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو: «يُقْذَفون» مبنيّاً للمفعول[(٢)]. قال مجاهد: أي: ويَرجمهم الوحيُ بما يكرهون ممَّا غاب عنهم من السماء، وكأنَّ الجملةَ في موضع الحال من ضمير «كفروا»، كأنه قيل: وقد كفروا به من قبل، وهم يُقْذَفون بالحقِّ الذي غاب عنهم وخفيَ عليهم. والمراد تعظيم أمر كفرهم.

وجُوِّزَ أن يُرَاد بالغيب ما خفي من معايبهم، أي: وقد كفروا، وهم يقذفهم الوحيُ من السماء ويرميهم بما خفي من معايبهم.

وقال أبو الفضل الرازي: أي: ويُرمون بالغيب من حيث لا يعلمون، ومعناه:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٦-٢٩٧.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٤، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٧ عن مجاهد فقط.

يجازَون بسوء أعمالهم، ولا علم لهم بمأتاه؛ إمَّا في حال تعذُّر التوبة عند معاينة الموت، وإمَّا في الآخرة. انتهى. وفي حالية الجملة عليه نوعُ خفاء.

وقال الزمخشريُّ: أي: وتَقذفهم الشياطينُ بالغيب ويلقِّنونهم إيَّاه[1]. وكأنَّ الجملة عطف على «قد كفروا».

وقيل: أي: يلقونَ في النار. وهو كما ترى.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال ابن عباس: هو الرجوع إلى الدنيا. وقال الحسن: هو الإيمان المقبول. وقال قتادة: طاعةُ الله تعالى. وقال السُّدِّيُّ: التوبة. وقال مجاهد: الأهلُ والمال والولد.

وقيل: أي: حيل بين الجيش والمؤمنين بالخسف بالجيش، أو بينهم وبين تخريب الكعبة، أو بينهم وبين النجاة من العذاب، أو بينهم وبين نعيم الدنيا ولذَّتِها، وروي ذلك عن مجاهد أيضاً.

و«حيل» مبنيٌّ للمجهول، ونائب الفاعل ـ كما قال أبو حيان ـ ضميرُ المصدر، أي: وحيل هو، أي: الحول، وحاصله: وقعت الحيلولة، ولإضماره لم يكن مصدراً مؤكِّداً، فناب مناب الفاعل، وعلى ذلك يخرَّجُ قوله:

وقالت متى يُبْخَل عليك ويُعْتَللْ يَسؤكَ وإن يُكْشفْ غرامُك تَدربِ[2]

أي: يعتلل هو، أي: الاعتلال.

وقال الحوفيُّ: قام الظرفُ مقام الفاعل. وتعقَّبه في «البحر»[3] بأنه لو كان كذلك لكان مرفوعاً، والإضافة إلى الضمير لا تسوِّغُ البناء، وإلا لساغ: جاء غلامَك، بالفتح، ولا يقوله أحد. نعم للبناء للإضافة إلى المبنيِّ مواضعُ أحكمت في النحو، وماذا يقول الحوفيُّ في قوله:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٥. والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٤٢.

(٣) ٧/ ٢٩٤.

وقد حيل بين العير والنَّزوان[1]

فإنَّه نصب «بينَ» مع إضافتها إلى معرب

وقرأ ابنُ عامر والكسائي بإشمام الضَّمِّ للحاء[2].

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة. و«من قبل» متعلِّق بـ «أشياعهم»، على أنَّ المراد مَن اتَّصفَ بصفتهم «من قبل» أي: في الزمان الأول. ويرجِّحه أنَّ ما يفعل بجميعهم في الآخرة إنَّما هو في وقت واحدٍ. أو متعلِّقٌ بفعل إذا كانت الحيلولة في الدنيا.

وعن الضحاك أنَّ المرادَ بـ «أشياعهم» أصحاب الفيل، والظاهر أنَّه جعل الآية في السفيانيِّ ومن معه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾ أي: مُوقعٍ في ريبة، على أنَّه من أَرَابه: أَوْقَعه في ريبة وتهمة، أو: ذي ريبة، من أرابَ الرجلُ: صارَ ذا ريبة، فإمَّا أن يكون قد شَبَّه الشكَّ بإنسانٍ يصحُّ أن يكون مريباً على وجه الاستعارة المكنيَّة التخييلية، أو يكون الإسنادُ مجازيًّا أسند فيه ما لصاحب الشكِّ للشكِّ مبالغةً، كما يقال: شعر شاعر، وكأنه من هنا قال ابن عطية: الشكُّ المريبُ أقوى ما يكونُ من الشَّكِّ[3]، وضميرُ الجمع للإشباع، وقيل: لأولئك المحدَّث عنهم. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في بعض آيات السورة ما قيل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ أشير بالجبال إلى عالم المُلك، وبالطير إلى عالم الملكوت، وقد ذكروا أنه إذا تمكن الذكر سرى في جميع أجزاء البدن، فيسمعُ الذاكرُ كلَّ جزءٍ منه ذاكراً، فإذا ترقَّى حالُه يسمعُ كلَّ ما في عالم الملك كذلك، فإذا ترقَّى يسمعُ كلَّ ما في الوجود كذلك ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) سلف ١/ ٢٣٣، وهو لصخر بن عمرو بن الشريد، وصدره:

أهمُّ بأمر الحزم لا أستطيعه

(٢) التيسير ص ١٨١، والنشر ٢/ ٢٠٨، وهي قراءة رويس راوية يعقوب من العشرة أيضاً.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ القلب ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ وهي الحِكَمُ البالغة التي تظهر من القلب على اللسان ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: في سرد الحديث، بأن تتكلَّم بالحكمة على قَدْرِ ما يتحمَّله عقل مخاطبك، وقد ورد: كلِّموا الناس بما يعرفون، أتريدونَ أن يكذَّب الله تعالى ورسوله ﷺ[1].

ومن هنا يصعبُ الجوابُ عمَّن تكلم من المتصوفة بما ينكرُه أكثر من يسمعُه من العلماء، وبه ضلَّ كثيرٌ من الناس.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ ريح العناية ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ فكان يتصرَّف بالهمَّة وقذف الأنوار في قلوب متَّبعيه من مسافة شهر ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ إشارةٌ إلى قوة باطنه، حيث انقادَ له مَن جُبِلَ على المخالفة وفعل الشرور.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ وهو مَن شَكَره بالأحوال، أعني التخلُّقَ بأخلاق الله تعالى.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى أن الضعيفَ قد يفيد القويَّ علماً.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي مقامات أهل الباطن من العارفين ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ وهي مقامات أهل الظاهر من الناسكين ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ﴾ في ليالي البشرية ﴿وَأَيَّامًا﴾ في أيام الروحانية ﴿ءَامِنِينَ﴾ في خفارة الشريعة.

وقال بعض الفرقة الجديدة الكشفيَّة[2]: القرى المبارك فيها: الأئمَّة رضي الله عنهم، والقرى الظاهرة: الدعاة إليهم والسفراء بينهم وبين شيعتهم.

﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بميلهم إلى الدنيا وتركِ السير لسوء استعدادهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الهيبة تمنع الفهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي: ما أخرجناك من العدم إلى الوجود ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾

(١) هو من قول سيدنا علي، وسلف ١٣/ ٣٠٨.
(٢) سلف التعريف بهذه الطائفة ٢١/ ١٣٥.

الأولين والآخِرين ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وهذا حاله عليه الصلاة والسلام في عالم الأرواح وفي عالم الأجساد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذ لا نورَ لهم يهتدون به.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ هؤلاء قُطَّاع الطريق على عباد الله تعالى، ومِثْلُهم المنكرون على أولياء الله تعالى، الذين يُنَفِّرون الناس عن الاعتقادِ بهم واتِّباعهم.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ من القرآن، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه نورٌ لا يبقى معه ديجور، أو مراتبُ الاهتداء به متفاوتةٌ حسب تفاوت الفهم الناشئ من تفاوت صفاء الباطن وطهارته، وقد ورد أنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً(١)، ولا يكاد يصلُ الشخص إلى باطنه إلَّا بتطهير باطنه، كما يرمز إليه قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩].

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لفهمِ ظاهره وباطنه إلى ما شاء من البطون، فإنَّه جلَّ وعلا القادر الذي يقول للشيء كن فيكون.

---

(١) ولم يصح في ذلك شيء، ومع ذلك فقد قالوا: إن الظاهر هو اللفظ، والباطن هو المعنى، وينظر ما سلف ١/١٠٩.

(سورة سبأ)

مكية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾

﴿الْحَمْدُ﴾ إن أجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود، وإن أجرى على الاستغراق فله لكل المحامد الاستحقاق ﴿لِلَّهِ﴾ بلام التمليك لأنه خالق ناطق الحمد أصلًا فكان بملكه مالك الحمد للتحميد أهلًا ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقًا وملكًا وقهرًا فكان حقيقًا بأن يحمد سرًا وجهرًا ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ كما هو له في الدنيا إذ النعم في الدارين من المولى، غير أن الحمد هنا واجب لأن الدنيا دار تكليف وثم لا، لعدم التكليف وإنما يحمد أهل الجنة سرورًا بالنعيم وتلذذًا بما نالوا من الأجر العظيم بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: الآية ٧٤]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: الآية ٣٤]، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ بتدبير ما في السماء والأرض ﴿الْخَبِيرُ﴾ بضمير مَن يحمده ليوم الجزاء والعرض.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

﴿يَعْلَمُ﴾ مستأنف ﴿مَا يَلِجُ﴾ ما يدخل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من الأموات والدفائن ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وجواهر المعادن ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار

وأنواع البركات ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ يصعد إليها من الملائكة والدعوات ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بإنزال ما يحتاجون إليه ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ لما يجترئون عليه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي مُنكِروا البعث ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ نفي للبعث وإنكار لمجيء الساعة ﴿قُلۡ بَلَىٰ﴾ أوجب ما بعد النفي بـ «بلى» على معنى أن ليس الأمر إلا إتيانها ﴿وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ ثم أُعيد إيجابه مؤكدًا بما هو الغاية في التوكيد والتشديد وهو التوكيد باليمين بالله عزَّ وجلّ، ثم أمدَّ التوكيد القسمي بما اتبع المقسم به من الوصف بقوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ لأن عظمة حال المقسم به تؤذِن بقوة حال المقسم عليه وبشدة ثباته واستقامته لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلما كان المُستَشهَد به أرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمُتَشهَد عليه أثبت وأرسخ، ولمّا كان قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها في الخفية كان الوصف بما يرجع إلى علم الغيب أولى وأحق.

(﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ **مدني وشامي أي هو عالم الغيب** ﴿**علام الغيب**﴾ **حمزة وعليّ**) على المبالغة ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ﴾ (**وبكسر الزاي: عليٍ. يقال: عزب يعزُب**

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه ثقتي. **قوله**: (﴿**عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ**﴾ **مدنيّ وشاميّ**) أي قرأه نافع المدنيّ وابن عامر الشاميّ برفع الميم على هو عالم الغيب كما قال المصنّف رحمه الله (**أي هو عالم الغيب**) أو مبتدأ وخبره ما بعده وابن كثير وأبو عمرو وعاصم بجرّه نعتًا لربي. **قوله**: (**علام الغيوب حمزة وعليّ**) على المبالغة أي قرأه حمزة وعليّ الكسائي بعد العين بلام ألف مشددة وخفض الميم. **قوله**: (**وبكسر الزاي: عليّ**) الكسائي والباقون بضمّها. **قوله**: (**يقال: عَزَبَ يعزُب**

ويعزب إذا غاب وبعُد) ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ من مثقال ذرة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ من مثقال ذرّة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ إلا في اللوح المحفوظ، ﴿ولا أصغر ولا أكبر﴾ بالرفع عطف على ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ ويكون «إلا» بمعنى لكن، أو رفعًا بالابتداء والخبر ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ واللام في ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما قصروا فيه من مدارج الإيمان ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لما صبروا عليه من مناهج الإحسان متعلق بـ ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تعليلًا له.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ جاهدوا في ردّ القرآن ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقين ظانّين أنهم يفوتوننا. (﴿مُعَجِّزِينَ﴾ **مكي وأبو عمرو أي مثبطين)** الناس عن اتّباعها وتأملها أو ناسبين الله إلى العجز ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع ﴿أَلِيمٌ﴾ (مكي) وحفص (**ويعقوب**) صفة لعذاب أي عذاب أليم من سيىء العذاب. قال (**قتادة**): الرجز سوء العذاب، وغيرهم بالجرّ صفة لرجز.

ويعزب إذا غاب وبعُد) في المصباح عزب الشيء عزوبًا من باب قعد بعد وعزب من بابي قتل وضرب غاب وخفي. اهـ. وفي مختار الصحاح عَزَبَ بَعُد وغاب وبابه دخل وجلس. اهـ.

قوله: (﴿مُعَجِّزِينَ﴾ **مكيّ وأبو عمرو)** أي قرأه ابن كثير المكيّ وأبو عمرو البصري بغير ألف بعد العين وتشديد الجيم والباقون بألف بعد العين وتخفيف الجيم. **قوله**: (**أي مثبطين**) أي معوقين ومانعين في المصباح ثبطه تثبيطًا قعد به عن الأمر وشغله عنه ومنعه تخذيلًا ونحوه. اهـ.

قوله: (**مكيّ**) أي قرأه ابن كثير المكيّ. **قوله**: (**ويعقوب**) بن إسحٰق الحضرمي البصري وليس من السبعة. **قوله**: (**قتادة**) بن دعامة بن عزيز[1]

---

(١) قوله: عزيز بن عمرو بن ربيعة.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾

﴿وَيَرَى﴾ في موضع الرفع بالاستئناف أي ويعلم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني أصحاب رسول الله ﷺ ومَن يطأ أعقابهم من أمته أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا (**كعبد الله بن سلام**) وأصحابه، والمفعول الأول لـ ﴿يَرَى﴾ ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ أي الصدق (**وهو فصل**) و﴿ٱلْحَقَّ﴾ مفعول ثانٍ أو في موضع النصب معطوف على ﴿لِيَجْزِيَ﴾ وليعلم أولوا العلم عند مجيء الساعة أنه الحق علمًا لا يُزاد عليه في الإيقان ﴿وَيَهْدِيٓ﴾ الله أو الذي أُنزل إليك ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو دين الله.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقال قريش بعضهم لبعض ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمدًا ﷺ. وإنما نكّروه مع أنه كان مشهورًا علمًا في قريش وكان إنباؤه بالبعث شائعًا عندهم تجاهلًا به وبأمره وباب التجاهل في البلاغة والي سحرها ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي يحدّثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تُبعَثون وتُنشؤون خلقًا جديدًا بعد أن تكونوا

السَدوسي البصري كان تابعيًا وكان عالمًا كبيرًا وكانت ولادته سنة ستين للهجرة وتُوفي سنة سبع عشرة ومائة بواسط، وقيل: ثماني عشرة رضي الله تعالى عنه.

قوله: (**كعبد الله بن سلام**) بن الحارث الإسرائيلي ثم الأنصاري كان حليفًا لهم من بني قينقاع وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام وكان اسمه في الجاهلية الحصين فسمّاه رسول الله ﷺ حين أسلم عبد الله وكان إسلامه لما قدم النبيّ ﷺ المدينة مهاجرًا وتُوفي سنة ثلاث وأربعين. **قوله**: (**وهو فصل**) ويسميه الكوفيون عمادًا.

(رفاتًا) وترابًا ويمزِّق أجسادكم **(البِلى)** كل ممزق أي يفرِّقكم كل تفريق، **فالممزق** **(مصدر)** بمعنى التمزيق، والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي تُبعَثون، والجديد فعيل بمعنى فاعل عند البصريين تقول **(جدَّ)** فهو جديد كقلَّ فهو قليل ولا يجوز ﴿إِنَّكُمْ﴾ بالفتح للام في خبره.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أهو مُفْتَرٍ على الله كذبًا فيما ينسب إليه من ذلك والهمزة للاستفهام وهمزة الوصل حذفت استغناء عنها ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ ثم قال سبحانه وتعالى: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء وهو مُبَرَّأ منهما بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار وفيما يؤدِّيهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك. وذلك أجنّ الجنون، **(جعل وقوعهم في العذاب رسيلًا لوقوعهم في الضلال)** كأنهما كائنان في وقت واحد، لأن الضلال لما

قوله: (رفاتًا) أي حطامًا مكسرًا مفتتًا أو غبارًا وقال الفرّاء: هو التراب وهو قول مجاهد. **قوله**: (البِلى) في المصباح بلى الثوب يبلى من باب تعب بلى بالكسر والقصر وبلاء بالفتح والمدّ خلق فهو بال وبلي الميت أفنته الأرض.اهـ. وأيضًا فيه خلق الثوب بالضم إذا بلي فهو خلق بفتحتين وأخلق الثوب بالألف لغة وأخلقة يكون الرباعي لازمًا ومتعديًا.اهـ. **قوله**: (مصدر[1] ميمي). **قوله**: (جدّ) بمعنى صار جديدًا أو اتخذ جديدًا وهو ضد الخلق.

قوله: (جعل وقوعهم في العذاب رسيلًا) أي تابعًا مقارنًا (**لوقوعهم في الضلال**) حيث أعطف أحدهما على الآخر بالواو المؤذنة بالاجتماع في الوقوع مع أن ضلالهم كائن في الدنيا والعذاب في الآخرة ومع ذلك قدّمه على الضلال في اللفظ للمبالغة في استحقاقهم له ورسيل الرجل الذي يراسله مراسلة في نضال أو

---

(١) وهو قياس كل ما زاد على الثلاثة أنه يجيء مصدره وزمانه ومكانه على زنة اسم مفعوله.

كان العذاب من لوازمه جعلا كأنهما مقترنان. ووصف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازي لأن البعيد صفة الضالّ إذا بَعُد عن (**الجادة**).

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ﴾ (**وبالإدغام: عليّ**) للتقارب بين الفاء والباء، وضعَّفه البعض لزيادة صوت الفاء على الباء ﴿الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾ (**الثلاثة بالياء: كوفي غير عاصم**) لقوله: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ (﴿كِسَفًا﴾ **حفص**) ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ (**أي أُعموا فلم ينظروا**) إلى السماء والأرض وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم لا يقدرون (**أن ينفذوا من أقطارهما**) وأن يخرجوا عمّا هم فيه من ملكوت الله ولم يخافوا أن يخسف الله بهم، أو يُسقِط عليه كسفًا لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول وبما جاء به كما فعل بقارون

غيره والمراد هنا مطلق الاتصال والمقارنة. **قوله**: (**الجادّة**) في المصباح الجادّة وسط الطريق ومعظمه والجمع الجواد مل دابة ودواب. اهـ.

قوله: (**وبالإدغام علي...**) الخ أي أدغم علي الكسائي الفاء في الباء وأظهرها الباقون. **قوله**: (**الثلاثة بالياء: كوفي غير عاصم...**) الخ أي قرأ حمزة الكوفي وعلي الكسائي غير عاصم الكوفي ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾ بالياء في الثلاثة والباقون بالنون. **قوله**: (﴿كِسَفًا﴾[1] **حفص**) أي قرأ حفص بفتح السين والباقون بسكونها ولا يذهب عليك أن كلًّا من كسَف وكِسْف جمع كسفة بمعنى قطعة. **قوله**: (**أي أُعموا فلم ينظروا**) يريد أن الفاء في ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ للعطف على مقدر بعد الهمزة وأن قوله: أفلم يروا معطوف على ذلك المقدّر والتقدير كما ذكره فصح بذلك وجه الجمع بين الهمزة المقتضية لصدر الكلام والفاء المقتضية لتقدم المعطوف عليه. **قوله**: (**أن ينفذوا**) أي يخرجوا (**من أقطارهما**) أي نواحي

---

(١) أي قطعًا.

(وأصحاب الأيكة) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما تدلّان عليه من قدرة الله تعالى ﴿لَآيَةً﴾ لدلالة ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه مُطيع له إذ المُنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب مَن يكفر به.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ﴾ **(بدل من** ﴿فَضْلًا﴾**)** أو من ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بتقدير قولنا: يا جبال، أو قلنا: يا جبال ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ من التأويب **(رجعي معه التسبيح)** ومعنى تسبيح الجبال أن الله يخلق فيها تسبيحًا فيسمع منها كما يسمع من المُسَبِّح لداود عليه السلام (﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ **عطف على محل الجبال)** (﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ **عطف على لفظ الجبال)** وفي هذا النظم من الفخامة ما لا يخفى حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا وإذا دعاهم أجابوا إشعارًا بأنه مامن حيوان و**(جماد)** إلا وهو منقاد لمشيئة الله تعالى، ولو قال آتينا داود منّا فضلًا تأويب الجبال معه (﴿**والطيرُ**﴾) لم يكن فيه هذه الفخامة. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾

السماء والأرض. **قوله: (وأصحاب الأيكة)** أي الغيضة أي الشجر الملتفّ بعضه على بعض قوم شعيب.

قوله: (بدل من ﴿فَضْلًا﴾**)** بدل الكل للتقرير وكمال التوضيح. **قوله: (رجعي معه التسبيح)** قرينة اعتبار التسبيح ما ذكر في صورة صٓ قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [الآيتان ١٨، ١٩]، وسورة الأنبياء قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الآية ٧٩]. **قوله:** (﴿وَٱلطَّيْرَ﴾) منصوب بإجماع القراء السبعة **(عطف على محل الجبال)** لأن كل منادى في موضع النصب. **قوله: (**﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ **عطف على لفظ الجبال)** قرأ يعقوب[١] (﴿**والطيرُ**﴾) بالرفع عطفًا على لفظها تشبيهًا للحركة البنائية العارضة[٢] بحركة الإعراب. **قوله: (جماد)** في لسان العرب الجُماد الحجارة واحدها

---

(١) ليس من السبعة.

(٢) وهي الضم لعروضها وعدم أصلها.

وجعلناه له ليِّنًا كالطين المعجون يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب (**بمطرقة**). وقيل: لانَ الحديد في يده لما أُوتي من شدة القوة.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ «أن» بمعنى (**أي**) أو (**أمرناه أن اعمل** ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾) دروعًا واسعة تامّة من السبوغ وهو أول مَن اتخذها، وكان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدَّق على الفقراء. وقيل: كان يخرج متنكِّرًا فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم ما تقولون في داود فيثنون عليه فقيَّض الله له ملكًا في صورة آدمي فسأله على عادته فقال: نِعْمَ الرجل لولا خصلة فيه وهو أنه يطعم عياله من بيت المال فسأله عند ذلك ربه أن يسبِّب له ما يستغني به عن بيت المال فعلمه صنعة الدروع ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ لا تجعل المسامير دقاقًا (**فتقلق**) ولا غلاظًا (**فتقصم**) الحلق، والسرد: نسج الدروع ﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾ الضمير لداود وأهله ﴿صَٰلِحًا﴾ خالصًا يصلح للقبول ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

جمد. اهـ. **قوله**: (بمطرقة) في المصباح المطرقة بالكسر ما يطرق به الحديد. اهـ.

قوله: (أي أمرناه أن اعمل) لما كان من شرط أن المفسّرة أن يتقدمها ما هو بمعنى القول ولَمْ يتقدم هنا إلّا قوله: ﴿وَأَلَنَّا﴾ قدّر ما هو بمعنى القول أي وأمرناه أن اعمل. **قوله**: (﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾) موصوفها محذوف وهو دروع بقرينة قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ إذ السرد نسج الدروع. **قوله**: (فتقلق) في المصباح قلق قلقًا فهو قلق من باب تعب اضطرب. اهـ.

قوله: (فتقصم) في المصباح قصمت العود قصمًا من باب ضرب كسرته فأبنته. اهـ. وعبارة الشهاب أي اجعلها على مقدار معين غلظًا وغيره مناسبة للثقب الذي هُيِّىءَ لها من ملتقى طرفي الحلقة فإنها إن كانت دقيقة اضطربت فيها فلم يمسك طرفها وإن كانت غليظة خرقت حرف الحلقة الموضوعة فيه فلا يمسكه أيضًا. اهـ.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح وهي الصبا. **(ورفع ﴿ٱلرِّيحُ﴾ أبو بكر وحماد والمفضل)** أي (﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحُ﴾ **مسخرة)** ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك، وكان يغدو من دمشق فيقيل **(باصطخر)** فارس وبينهما مسيرة شهر ويروح من إصطخر فيبيت **(بكابل)** وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل: كان يتغدّى بالري ويتعشى بسمرقند ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي معدن النحاس فالقطر النحاس **(وهو الصفر)** ولكنه أساله وكان يسيل **(في الشهر)** ثلاثة أيام كما يسيل الماء وكان قبل سليمان لا يذوب، **(وسمّاه عين القطر باسم ما آل إليه)** ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ «من» في موضع نصب أي وسخَّرنا من الجن من يعمل ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمر ربّه ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ ومن يعدل منهم ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرنا به من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذاب الآخرة. وقيل: كان معه مَلَك بيده سوط من نار فمَن زاغ عن أمر سليمان عليه السلام ضرب ضربة أحرقته.

قوله: (ورفع ﴿ٱلرِّيحُ﴾ أبو بكر وحماد والمفضل) أي قرأ أبو بكر شعبة بن عياش وحماد بن زياد والمفضل بن محمد كلهم عن عاصم الريح بالرفع على الابتداء والخبر في الجار قبله أو محذوف والباقون بالنصب بإضمار فعل أي وسخرنا. **قوله: (﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحُ﴾ مسخرة)** فالمحذوف مسخرة على أنه خبر للريح ولسليمان مسخرة فالتقديم لاهتمام أو للحصر. **قوله: (باصطخر)** بكسر الهمزة وسكون الصاد وفتح الطاء المهملة وسكون الخاء المعجمة وبعدها راء هي من بلاد فارس. **قوله: (بكابل)** مدينة مشهورة بأرض الهند. **قوله: (وهو الصفر)** في المصباح الصفر مثل قفل وكسر الصاد لغة النحاس. اهـ.

قوله: (في الشهر) أي من كل شهر. **قوله: (وسمّاه عين القطر باسم ما آل إليه)** أي ولما كان مآل المعدن إلى السيلان وإن كان في نفسه جامدًا قبل الإسالة سماه عينًا باعتبار ما آل إليه أمره.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ (**أي مساجد أو مساكن**) ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي صور السِّباع والطيور. ورُوِيَ أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه و(**نسرين**) فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظلَّه النسران بأجنحتهما وكان التصوير مُباحًا حينئذ (﴿وَجِفَانٍ﴾ **وصحاف جمع**) جفنة (﴿كَٱلْجَوَابِ﴾) جمع جابية وهي الحياض الكبار: قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل. ﴿كالجوابي﴾ (**في الوصل والوقف: مكي ويعقوب وسهل، وافق أبو عمرو في الوصل، الباقون بغير ياء**) اكتفاء بالكسرة ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات على (**الأثافي**) لا تنزل عنها لعظمها. وقيل: إنها باقية باليمن وقلنا لهم: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي ارحموا أهل البلاد واسألوا ربكم العافية (**عن الفضل**) و﴿شُكْرًا﴾ مفعول له أو حال أي شاكرين أو اشكروا شكرًا لأن ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾ فيه معنى اشكروا من حيث إن العمل للمُنعِم شُكْر له أو مفعول به يعني إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم فاعملوا أنتم شكرًا، وسُئِل (**الجنيد بن محمد**) عن الشكر فقال: بذل المجهود بين

قوله: (**أي مساجد أو مساكن**) سميت بها لأنها يذب عنها ويحارب عليها.
قوله: (**نسرين**) في المصباح النسر طائر معروف والجمع أنسر ونسور مثل فلس وأفلس وفلوس. اهـ.

قوله: (﴿وَجِفَانٍ﴾ **وصحاف جمع**) صحفة وهي الإناء من جنس القصعة.
قوله: (﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ **في الوصل والوقف: مكي ويعقوب وسهل**) أي قرأ ابن كثير المكيّ ويعقوب بن إسحٰق وسهل بن محمد وليسا من السبعة بإثبات الياء وقفا ووصلا. **قوله**: (**وافق أبو عمرو في الوصل**) أي قرأ أبو عمرو بإثبات الياء بعد الباء الموحدة في الوصل دون الوقف. **قوله**: (**الباقون بغير ياء**) وقفًا ووصلًا.
قوله: (**الأثافي**) جمع أثفية بضم الهمزة وتشديد الياء وهي ما يوضع عليه القدر.
قوله: (**عن الفضيل**) بن عياض مات بمكة في المحرم سنة سبع وثمانين ومائة.
قوله: (**الجنيد بن محمد**) مات سنة سبع وتسعين ومائتين.

يدي المعبود ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾ بسكون الياء: حمزة وغيره بفتحها ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ المتوفِّر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا وكدحًا. وعن ابن عباس رضي الله عنه: مَن يشكر على أحواله كلها. وقيل: مَن يشكر على الشكر. وقيل: مَن يرى عجزه عن الشكر. وحُكِي عن داود عليه السلام أنه جزَّأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي على سليمان ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي الجن وآل داود ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي الأرَضة وهي دويبة يقال لها (**سُرْفَة والأرض فعلها**) فأُضيفت (**إليه**). يقال: (**أرضت الخشب**) أرضًا إذا أكلتها الأرَضة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ والعصا تسمى منسأة لأنه ينسأ بها أي يطرد، و(﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾ **بغير همز: مدني وأبو عمرو**) ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ سقط سليمان ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ علمت الجن كلهم علمًا بيّنًا بعد التباس الأمر على عامَّتهم وضعفتهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟﴾ بعد موت سليمان ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ ورُوِيَ أن داود عليه السلام أسَّس بناء بيت المقدس في موضع (**فسطاط**) موسى عليه السلام فمات قبل أن يتمّه فوصَّى به إلى سليمان فأمر الشياطين بإتمامه، فلما بقي من عُمرِه سنة سأل ربه أن يعمي عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب وكان عمر سليمان ثلاثًا وخمسين سنة، ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقي في ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت

قوله: (سُرْفَة) هي دُوَيْبَة تأكل الخشب. **قوله**: (**والأرض فعلها**) أعني أكلها الخشبة. **قوله**: (**إليه**) أي إلى فعلها. **قوله**: (**أرضت الخشب**) بالبناء للمفعول. **قوله**: (﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾ **بغير همز مدني وأبو عمرو**) أي قرأه نافع المدنيّ وأبو عمرو بألف محضة وقرأه الباقون بهمزة مفتوحة ويسكن ابن عامر الهمزة. **قوله**: (**فسطاط**) في المصباح الفسطاط بضم الفاء وكسرها بيت من الشعر والجمع فساطيط. اهـ.

المقدس لأربع مضين من ملكه. ورُوِيَ أن أفريدون جاء ليصعد كرسيّه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها **(فلم يجسر)** أحد بعده أن يدنو منه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ **(بالصرف بتأويل الحي، وبعدمه: أبو عمرو بتأويل القبيلة**

وفي حاشية البيضاوي للعلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب قوله في موضع فسطاط موسى عليه الصلاة والسلام الفسطاط الخيمة وبيت الشعر ونحوه. وقد استشكل هذا بأن موسى لم يدخل بيت المقدس حتى أنه عند موته سأل الله تعالى أن يدنيه منه مقدار رمية حجر فدفن عند الكثيب الأحمر وهو ضريحه المعروف الآن. وأجيب كان عندهم فسطاط له يتوارثونه ويضربونه ثمة تبركًا يتعبدون فيه فبنى البيت في ذلك الموضع لا أنه كان يضرب هناك في زمن موسى عليه الصلاة والسلام ولا يخفى بعده وأن مثله لا يقال بالرأي فإن كان فأهلًا ومَرْحبًا ولو قيل: المراد مجمع العبادة على دين موسى كما وقع في الحديث فسطاط إيمان. وقال القرطبي في التذكرة: المراد به فرقة منحازة عن غيرها مجتمعة تشبيهًا بالخيمة أو المدينة كان أظهر انتهت والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله: (فلم يجسر) في مختار الصحاح جَسَر على كذا أَقْدم يَجْسُر بالضم جَسارة بالفتح. اهـ. وفي المصباح جَسَر على عدوه جسورًا من باب قعد وجسارة أيضًا هو جسور وامرأة جسور أيضًا. اهـ.

قوله: (بالصرف بتأويل الحي، وبعدمه: أبو عمرو بتأويل القبيلة) أي قرأ عمرو وكذا البزي بعد الموحدة بهمزة مفتوحة من غير تنوين لأنه صار اسم قبيلة وقنبل بهمزة ساكنة والباقون بهمزة مكسورة منوّنة وإذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفًا ولهما أيضًا الروم مع التسهيل.

فائدة: اعلم أن الروم والاختلاس يشتركان في التبعيض إلّا أن الروم أخصّ من حيث إنه لا يكون في الفتح والنصب ويكون في الوقف دون الوصل والثابت

﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ **حمزة وحفص** ﴿مسكِنهم﴾ **علي وخلف**) وهو موضع سكناهم وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها باليمن أو مسكن كل واحد منهم، (**غيرهم** ﴿**مساكنهم**﴾) ﴿ءَايَةٌ﴾ اسم كان ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من ﴿ءَايَةٌ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره الآية جنتان، ومعنى كونهما آية أن أهلها لمّا أعرضوا عن شكر الله سلبهم الله النعمة ليعتبروا ويتّعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر (**وغمط النّعَم**)، أو جعلهما آية أي علامة دالّة على قدرة الله وإحسانه ووجوب شكره ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ (**أراد جماعتين من البساتين**) جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها، وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامّها كأنها جنة واحدة كما تكون بساتين

من الحركة أقل من الذاهب والاختلاس أعم لكونه يتناول الحركات الثلاث كما في لا يُهدَى ونعمّا ويأمركم عند بعض القراء في الأمثلة الثلاثة ولا يخص بالآخر وهو محل الوقف والثابت من الحركة أكثر من الذاهب وذلك أن يأتي بثُلُثَيْهَا وهذا لا يضبط إلا بالمشافهة بالسماع من أفواه أرباب أداء القراءة.

فائدة أخرى: معنى التسهيل جعل الهمزة بينها وبين حرف حركتها فإن كانت مفتوحة فبين الهمزة والألف وإن كانت مكسورة فبين الهمزة والياء وإن كانت مضمومة فبين الهمزة والواو فاحفظ هذه القاعدة فإنها كثيرة الفائدة.

قوله: (﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ **حمزة وحفص**) أي قرأ حمزة وحفص بسكون السين وفتح الكاف ولا ألف بينهما إشارة إلى أنها لشدّة اتصال المنافع والمرافق كالمسكن الواحد. **قوله**: (﴿مسكِنهم﴾ **علي وخلف**) أي قرأ علي الكسائي وخلف كذلك إلّا أنه بكسر الكاف. **قوله**: (**غيرهم** ﴿**مساكنهم**﴾) أي قرأ الباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الكاف. **قوله**: (**وغَمْط النعم**) أي كفرانها وسترها في مختار الصحاح غَمِط النعمة من باب فهم وضرب ولم يشكرها. اهـ.

قوله: (**أراد جماعتين من البساتين...**) الخ جواب عما يقال كيف عظم الله تعالى جنتي أهل سبأ وجعلهما آية دالّة على ما ذكر مع أن المسكن المتوسط بين جنتين كثير في الدنيا وتقرير الجواب أن ما ذكرت إنما يرد أن لو كان المراد بستانين اثنين فحسب وليس كذلك بل المراد جماعتان من البساتين جماعة عن يمين بلدهم

البلاد العامرة، **(أو أراد بستاني كل رجل منهم)** عن يمين مسكنه وشماله ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو لما قال لهم لسان الحال، أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك. ولما أمرهم بذلك أتبعه قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة، وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم ربٌّ غفور لمن شكره. قال ابن عباس: كانت سبأ **(على ثلاث فراسخ)** من صنعاء وكانت أخصب البلاد، تخرج المرأة وعلى رأسها المِكتَل فتعمل بيدها وتسير بين تلك الشجر فيمتلىء المِكتَل مما يتساقط فيه من الثمر وطيبها ليس فيها بَعُوض ولا ذُباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حيّة، ومَن يمر بها من الغرباء يموت قمله لطيب هوائها.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن دعوة أنبيائهم فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي المطر الشديد أو العَرِم اسم الوادي **(أو هو الجرذ)**

وأخرى عن شماله سميت كل جماعة منها جنة لكونها في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة.

قوله: (أو أراد بستاني كل رجل منهم...) الخ أي ويجوز أن يكون المراد بستانين اثنين وتعظيمهما من حيث إن مسكن كل رجل متوسط بينهما وكون جميع المساكن هكذا حالة عظيمة. **قوله: (على ثلاث فراسخ)** الفرسخ ثلاثة أميال والميل أربعة آلاف ذراع.

قوله: (أو هو الجرذ) بضم الجيم وفتح الراء والذال المعجمة نوع من الفأر أعمى ويقال له الخلد أيضًا لإقامته عند جحره لعماه وإضافة السيل إليه من قبيل إضافة المسبب إلى سببه فإنه كان سببًا لخراب السكر وانقلاب الماء المحتبس وراء السكر عليهم وذلك أن أهل سبأ كانوا يقتتلون على واديهم عند احتياجهم إلى سقي بساتينهم فسدت لهم بلقيس الملكة ما بين الجبلين بالصخور والقير فحبست بذلك السدّ ماء العيون والأمطار وجعلت لهم أبوابًا ثلاثة بعضها فوق بعض وبنت من دونه

الذي نقب عليهم **(السَّكْر)** لما طغوا سلّط الله عليهم الجرذ فنقبه من أسفل فغرقهم ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المذكورتين ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ وتسمية البدل جنتين **(للمشاكلة)** وازدواج الكلام كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: الآية ٤٠]، ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأكل الثمر يثقل ويخفف **(وهو قراءة نافع ومكي)**، والخمط شجر الأراك، وقيل: كل شجر ذي شوك ﴿وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ الأثل شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عودًا، ووجه من نون الأكل ـ وهو غير أبي عمرو ـ أن أصله ذواتي أكل خمط فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه، أو وصف الأكل بالخمط كأنه قيل: ذواتي **(أكل بشع)**، ووجه أبي عمر أن أكل الخمط في معنى البرير وهو ثمر الأراك إذا كان **(غضًا)** فكأنه قيل ذواتي **(برير)**، والأثل والسدر معطوفان على

بركة عظيمة وجعلت فيها اثني عشر مخرجًا على عدد أنهارهم إلى أراضيهم وبساتينهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء وإذا استغنوا سدّوها فإذا جاء المطر اجتمع إليه ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السدّ فاجتمع فيه إلى أن صار كالبحر فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه في البركة فكانوا يسقون من الباب الأعلى إلى أن يتسفل الماء عنه ثم من الباب الثاني ثم من الثالث الأسفل فلا ينفذ الماء إلى أن ينقطع احتياجهم إلى سقي الأراضي ثم يجتمع فيه الماء أوان الشتاء فيصير كالبحر أيضًا فيسقون منه في السنة المقبلة كما سقوا في السنة الماضية فكانت تقسم الماء بينهم على هذا الوجه في كل سنة فبقوا على ذلك بعدها مدة فلما طغوا نقب الجرذ السكر بسببه وانقلب البحر عليهم فغرق بلادهم ودفن الرمل بيوتهم ومنازلهم وتفرّقوا في البلدان أيدي سبأ. **قوله: (السَّكْر)** بفتح السين وسكون الكاف ثم راء مهملة السدّ على الماء. **قوله: (للمشاكلة)** اللفظية للتهكم بهم. **قوله: (وهو قراءة نافع ومكيّ)** أي سكن الكاف نافع المدنيّ وابن كثير المكيّ وضمها الباقون. **قوله: (أكل بشع)** في القاموس البشع ككتف من الطعام الكريه فيه مرارة. اهـ. أي مرّ بشع أي كريه الطعم يأخذ بالحلق فلا يمكن أكله فسر الخمط بثلاثة أوجه، الأول أنه شجر الأراك والأكل ثمره ويقال له البرير، والثاني كل شجر ذي شوك، والثالث ما ذكره الزجاج وهو أنه كل نبت أخذ طعمًا من مرارة حتى لا يمكن أكله. **قوله: (برير)** في المصباح البرير مثال كريم ثمر الأراك إذا اشتدّ. اهـ. **قوله: (غضًا)** في

﴿أُكُلٍ﴾ لا على ﴿خَمْطٍ﴾ لأن الأثل لا أكل له. وعن الحسن: قلل السدر لأنه أكرم ما بدلوا لأنه يكون في الجنان.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي جزيناهم ذلك بكفرهم فهو مفعول ثانٍ مقدّم (**﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ كوفي غير أبي بكر. ﴿وهل يجازى إلا الكفور﴾ غيرهم**) يعني وهل نجازي مثل هذا الجزاء إلا مَن كفر النعمة ولم يشكرها أو كفر بالله، أو هل يعاقب لأن الجزاء وإن كان عامًّا يستعمل في معنى المعاقبة وفي معنى الإثابة لكن المراد الخاص وهو العقاب. (**وعن الضحاك**): كانوا (**في الفترة**) التي بين عيسى ومحمد عليهما السلام.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين سبأ ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعة على أهلها في النِّعَم والمياه وهي قرى الشام ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ متواصلة يرى بعضها من بعض

مختار الصحاح شيء غَضّ وغضيض أي طَرِيٌّ. اهـ. وأيضًا فيه شيء طَرِيّ بيّن الطراوة. اهـ.

قوله: (**﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ كوفي غير أبي بكر. ﴿وهل يجازى إلا الكفور﴾ غيرهم**) أي قرأ حمزة والكسائي وحفص بالنون مضمومة وكسر الزاي الكفور بالنصب والباقون بالياء المضمومة ونصب الزاي الكفور بالرفع. **قوله:** (**وعن الضحاك**) بن مخلد قال الصّميري ومن أصحاب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه الإمام الضحّاك بن مخلد أبو عاصم والضحاك هذا هو المعروف بالنبيل، قال الذهبي: أجمعوا على توثيق أبي عاصم مات بالبصرة في ذي الحجة سنة اثنتي عشرة ومائتين وهو ابن تسعين سنة وأشهر وقيل: سنة ثلاث عشرة روى له الشيخان. **قوله:** (**في الفَتْرة**) أي انقطاع بعث الرسل ودروس أعلام دينهم.

لتقاربها فهي ظاهرة لأعين الناظرين، أو ظاهرة **(للسابلة)** لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم وهي أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم **(يقيل)** المسافر في قرية ويروح في أخرى إلى أن يبلغ الشام ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ وقلنا لهم سيروا ولا قول ثمة، ولكنهم لما مكّنوا من السير وسُوِّيَت لهم أسبابه فكأنهم أمروا بذلك ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي سيروا فيها إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات أي سيروا فيها آمنين لا تخافون عدوًّا ولا جوعًا ولا عطشًا وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت أيامًا وليالي.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ١٩﴾

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا: يا ليتها كانت بعيدة فنسير على **(نجائبنا)**، ونربح في التجارات ونفاخر في الدواب والأسباب، **(بطروا)** النعمة **(وملوا)** العافية فطلبوا الكدّ والتعب، **(﴿بَعِّدْ﴾ مكي وأبو عمرو)**

قوله: **(للسابلة)** في المصباح السابلة الجماعة المختلفة في الطرقات في حوائجهم. اهـ. **قوله**: **(يقيل)** في المصباح قال: يقيل قيلًا وقيلولة نام نصف النهار. اهـ.

قوله: **(نجائبنا)** في لسان العرب النجائب جمع نجيبة تأنيث النجيب. اهـ. وأيضًا فيه النجيب من الرجال الكريم الحسيب وكذلك البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين. اهـ. وأيضًا فيه النجيب من الإبل والجمع النُّجُب والنجائب. اهـ. **قوله**: **(بطر والبطر)** طغيان من كثرة النعم. **قوله**: **(وملوا)** في المصباح مللته ومللت منه مللًا من باب تعب وملالة سئمت وضجرت والفاعل ملول. اهـ.

قوله: **(﴿بَعِّدْ﴾ مكيّ وأبو عمرو)** أي قرأ ابن كثير المكيّ وأبو عمرو وكذلك هشام ﴿بعِّد﴾ بتشديد العَيْن[1] ولا ألف قبلها فعل طلب والباقون بألف قبل

---

(١) على لفظ الأمر من باب التفعيل وقراءة باعد من المفاعلة للمبالغة لا للمغالبة.

﴿وَظَلَمُوٓاْ﴾ بما قالوا ﴿أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ (**يتحدث الناس بهم**) ويتعجبون من أحوالهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وفرّقناهم تفريقًا (**اتخذه الناس مثلًا مضروبًا يقولون: «ذهبوا أيدي سبأ» و«تفرقوا أيادي سبأ»**) فلحق (**غسان**) بالشام و(**أنمار**) بيثرب و(**جذام**) بتهامة و(**الأزد بعمان**) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي ﴿شَكُورٍ﴾ للنّعَم أو لكل مؤمن لأن الإيمان نصفان نصفه شكر ونصفه صبر.

العين وتخفيف العين. **قوله**: (**يتحدث الناس بهم**...) الخ إشارة إلى أن الأحاديث جمع أحدوثة وهي ما يتحدث به على سبيل التلهي والاستغراب لا جمع حديث على خلاف القياس.

قوله: (**اتخذه الناس مثلًا مضروبًا يقولون: «ذهبوا أيدي سبأ» و«تفرّقوا أيادي سبأ»**) أي تفرّقوا في طرق شتى واليد في كلام العرب تطلق على الطريق يقال: أخذ يد البحر أي طريقه وقيل: أيادي سبأ أولاده لأن الأولاد أعضاد الرجل لتقوّيه بهم والمعنى تفرّقوا مثل تفرّق أولاد سبأ وفي المفصل الأيادي الأنفس كناية أو مجازًا وهو أحسن من تفسيره بالطرق وبالأولاد وسبأ مهموز في الأصل غير أنه التزم التخفيف في هذا المثل ولا بد من إضمار لفظ المثل في هذا المثل لأن أيدي سبأ وقع حالًا من فاعل ذهبوا وهو معرفة لأن إضافته حقيقية ومن حق الحال أن تكون نكرة والتقدير ذهبوا متفرقين.

قوله: (**غسّان**) اسم قبيلة. **قوله**: (**أنمار**) أبو بطن من العرب. **قوله**: (**جذام**) وزان غراب قبيلة من اليمن. **قوله**: (**الأزد بعمان**) قال الجوهري: أزد[١] أبو حَيٍّ من اليمن وهو أزد بن غوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ وهو بالسين أفصح يقال: أزد شنوءة وأزد عمان وأزد السراة. اهـ.

وقوله: (**بعُمان**) بضم العين وتخفيف الميم، قال الجوهري: عمان مخففًا بلد والعمان الذي بالشام عمان بالفتح والتشديد وهو غير مراد هنا لتقدّم ذكر الشام.

---

(١) الأزد لغة في الأسد وهو أسد بالسين أفصح كذا في لسان العرب.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ **بالتشديد: كوفي**) أي حقّق عليهم ظنه (**أو وجده صادقًا**)، وبالتخفيف: غيرهم أي صدق (**في ظنه**) ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ لأهل سبأ أو لبني آدم. وقلّل المؤمنين بقوله: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لقلتهم بالإضافة إلى الكفّار ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧].

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم﴾ لإبليس على الذين صار ظنه فيهم صدقًا ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ موجودًا ما علمناه معدومًا (**والتغير على المعلوم لا على العلم**).

قوله: (﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ **بالتشديد**) أي بتشديد الدال بعد الصاد (**كوفي**) أي قرأه أهل الكوفة أي حققه عليهم ظنه أو وجده صادقًا وبالتخفيف غيرهم أي صدق في ظنه. **وقوله**: (**أو وجده صادقًا**) أي بناء فعل للوجدان مثل افعل. **وقوله**: (**في ظنه**) أي نصب ظنه بنزع الخافض.

قوله: (**والتغير على المعلوم لا على العلم**) قال العلّامة الرازي رحمه الله: إن علم الله تعالى من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو في كونه عالمًا لا يتغير ولكن يتغير تعلّق علمه فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما في نفس الأمر فعلم الله سبحانه وتعالى في الأزل أن العالم سيوجد فإذا وجد علمه موجودًا بذلك العلم وإذا عدم علمه معدومًا بذلك مثاله أن المرآة المصقولة الصافية يظهر فيها صورة زيد إن قابلها ثم إذا قابلها عمرو تظهر فيها صورته والمرآة لم تتغير في ذاتها ولا تبدلت في صفاتها وإنما التغير في الخارجات، فكذلك هٰهنا قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي ليقع في العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن وكان قبله فيه أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو. اهـ.

﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ (وَرَبُّكَ) عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ **(محافظ عليه وفعيل ومفاعل متآخيان)**.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿قُلِ﴾ لمُشركي قومك ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي زعمتموهم آلهة من دون الله، فالمفعول الأول الضمير الراجع إلى الموصول وحذف كما حذف في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: الآية ٤١] استخفافًا لطول الموصول بصلته. والمفعول الثاني آلهة وحذف لأنه موصوف صفته ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهومًا، فإذًا مفعولا زعم محذوفان بسببين مختلفين، والمعنى ادعو الذين عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسمَّيتموهم باسمه والتجئوا إليهم **(فيما يعروكم)** كما تلتجئون إليه وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته، ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شرّ أو نفع أو ضرّ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ وما لهم في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ تعالى ﴿مِنْهُم﴾ من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ من **(عوين)** يعينه على

قوله: (﴿وَرَبُّكَ﴾) فيه مزيد لطف له عليه الصلاة والسلام. **قوله**: **(محافظ عليه)** فسّره بالمحافظ وهو المراقب المطلع على جميع الأحوال لأن الحفظ لا يتعدى بعلى فلا يقال: حفظ عليه بل حفظه ولأن معنى الحفظ الحراسة والاستظهار وكل واحد منهما غير ملائم لهذا المقام بل الملائم هنا معنى المراقبة وفي الصحاح حفظت الشيء حفظًا أي حرسته وحفظته أيضًا استنظرته والمحافظة المراقبة والحفيظ المحافظ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٤]. **قوله**: **(فعيل ومفاعل متآخيان)** أي متماثلان يقعان بمعنى واحد كالرقيب والجليس بمعنى المجالس والمراقب.

قوله: **(فيما يعروكم)** في المصباح عراه أمر واعتراه أصابه. اهـ. **قوله**: **(عوين)** بمعنى معاون.

تدبير خلقه يريد أنهم على هذه الصفة من العجز فكيف يصحّ أن يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجى.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي أذِن له الله يعني إلا مَن وقع الإذن للشفيع لأجله وهي اللام الثانية في قولك: «أذِن لزيد لعمرو» أي لأجله، وهذا تكذيب لقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، (﴿أُذِنَ لَهُۥ﴾ **كوفي غير عاصم إلا الأعمش**) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها ربّ العزّة في إطلاق الإذْن و (﴿فَزَّعَ﴾ **شامي**) أي الله تعالى، والتفزيع إزالة الفزع و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لما فُهِم من أن ثم انتظارًا للإذن وتوقفًا وفزعًا من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذَن لهم أو لا يؤذَن لهم كأنه قيل: يتربصون ويتوقعون (**مليًا**) فزعين حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴿قَالُوا۟﴾ سأل بعضهم بعضًا ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟﴾ قال: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي القول الحق وهو الإذْن بالشفاعة (**لمَن ارتضى**).

قوله: (﴿أُذِنَ لَهُۥ﴾ **كوفيّ غير عاصم إلا الأعمش**) في إتحاف فضلاء البشر بقراءات الأربعة عشر للعلّامة الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي الشافعي الشهير بالبناء. واختلف في ﴿أَذِنَ لَهُۥ﴾ فأبو عمرو وحمزة والكسَائي وخلف بضم الهمزة مبنيًا للمفعول وله نائب الفاعل وافقهم الأعمش واليزيدي والحسن والباقون بفتحها مبنيًا للفاعل وهو الله تعالى انتهى بحروفه.

قوله: (و﴿فَزَّعَ﴾ **شاميّ**) أي قرأ ابن عامر الشاميّ وكذا يعقوب بن إسحٰق الحضرمي البصري بفتح الفاء والزاي مبنيًا للفاعل والضمير لله تعالى أي أزال الله تعالى الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بالإذن. وقرأ الآخرون بضم الفاء وكسر الزاي مشددة مبنيًا للمفعول والنائب الظرف بعده. **قوله:** (مَليًا) أي طويلًا.
قوله: (**لمن ارتضى**) وهم المؤمنون.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ أمره بأن يقررهم بقوله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: «يرزقكم الله» وذلك للإشعار بأنهم مُقِرُّون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به لأنهم إن تفوَّهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم فما لكم لا تعبدون مَن يرزقكم وتؤثرون عليه مَن لا يقدر على الرزق، وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ومعناه وإن أحد الفريقين من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال، وهذا من الكلام المُنصِف الذي كل مَن سمعه من موالٍ أو مُنافٍ قال لمَن خوطب به: قد أنصفك صاحبك.

وفي درجة بعد تقدم ما قدم من التقرير دلالة غير خفية على مَن هو من الفريقين على الهدى ومَن هو في الضلال المبين ولكن التعرّض أوصل بالمجادل إلى الغرض، ونحوه قولك للكاذب: «إن أحدنا لكاذب». وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال لأن صاحب الهدى كأنه مُستَعْلٍ على فرس جواد **(يركضه)** حيث شاء، والضالّ كأنه **(ينغمس)** في ظلام لا يرى أين يتوجه.

قوله: **(يركضه)** في المصباح ركض الرجل ركضًا من باب قتل ضرب برجله ويتعدى إلى مفعول فيقال: ركض الفرس إذا ضربته ليعدو. اهـ.

قوله: **(ينغمس)** في مختار الصحاح غمسه في الماء مقله فيه وبابه ضرب وانغمس واغتمس بمعنى. اهـ. وأيضًا فيه مقله في الماء غمسه وبابه نصر. اهـ.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ **(هذا أدخل في الإنصاف)** من الأول حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين وهو مزجور عنه محظور، والعملَ إلى المخاطبين وهو مأمور به مشكور ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يحكم ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ بلا جور ولا ميل ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الحاكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالحكم.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم﴾ أي ألحقتموهم ﴿بِهِۦ﴾ بالله ﴿شُرَكَآءَ﴾ في العبادة معه.

ومعنى قوله: ﴿أَرُونِيَ﴾ **(وكان يراهم)** أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله وأن يطلعهم على حالة الإشراك به ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه أي ارتدعوا عن هذا القول وتنبّهوا عن ضلالكم ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب فلا يشاركه أحد وهو ضمير الشأن ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره.

قوله: (هذا أدخل في الإنصاف) فإنه تنزّل من المكافحة الصريحة ونسبة الضلال إليهم في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ الآية إلى تردد في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ثم منه إلى نسبة الإجرام إلى نفسه والعمل إليهم ولما كان ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ الآية نازلًا بدرجتين عن أصل الكلام كان أبلغ وأدخل في الإنصاف.

قال صاحب الانتصاف: وذكر الإجرام المضاف إلى النفس بصيغة الماضي الذي معنى التحقيق وذكر العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطي ذلك.

قوله: (وكان يراهم) أي وقد كان يراهم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ **(إلا إرساله عامَّة لهم)** محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. وقال الزجَّاج: معنى الكافَّة في اللغة الإحاطة، والمعنى أرسلناك جامعًا للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعله حالًا من الكاف والتاء على هذا للمبالغة كتاء الراوية والعلَّامة ﴿بَشِيرًا﴾ بالفضل لمن أقرّ ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعدل لمَن أصرَّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ أي القيامة المُشار إليها في قوله: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ﴾ الميعاد ظرف الوعد من مكان أو زمان وهو هنا الزمان ويدل عليه قراءة **(مَن قرأ ﴿ميعادٌ يومٌ﴾)** فأبدل منه اليوم، وأما الإضافة فإضافة تبيين كما تقول: **(«بعير سانية»** ﴿لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾) أي لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال ولا التقدم إليه بالاستعجال، ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم أنهم سألوا عن ذلك وهم منكرون له تعنتًا

قوله: **(إلا إرساله عامة لهم)** على أن كافة صفة مصدر محذوف وأن تعليل تفسيرًا لكافة بالعامة المحيطة فكأنه قيل: أريد بالكافة العامة لأن الشمول والعموم مستلزم الكف فيكون كناية أو مجازًا بمعنى عامة لهم محيطة بهم لأن الإرسالة إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم من الكف وهو المنع يقال: كف يكف أي منع.

قوله: **(من قرأ ﴿ميعادٌ يومٌ﴾)** منوّنين. **قوله**: **(بعير سانية)** السانية الناضجة وهي الناقة التي يستقى عليها يقال: سنت الناقة تسنو إذا سقت الأرض وفي المثل سير السواني سفر لا ينقطع. **قوله**: (﴿لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾) لا تتأخرون (﴿عَنۡهُ﴾) عن هذا الميعاد (﴿سَاعَةً﴾) ولو آنا (﴿وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾) الواو استئنافية لا عاطفة.

لا استرشادًا فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقًا للسؤال على الإنكار والتعنّت وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخّرًا عنه ولا تقدمًا عليه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي **(أبو جهل وذووه)** ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ما نزل قبل القرآن من كتب الله أو القيامة والجنة والنار حتى إنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله، **(وأن تكون)** لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء **(حقيقة)** ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ﴾ يرد ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ في الجدال أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسول الله ﷺ أو للمخاطب: ولو ترى في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف **(المحاورة)** ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب فحذف الجواب ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي **(للرؤوس)** والمقدّمين ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ لولا دعاؤكم إيّانا إلى الكفر لكنّا مؤمنين بالله ورسوله.

قوله: (أبو جهل) اسمه عمرو وكنيته أبو الحكم وإنما رسول الله ﷺ والمسلمونَ كنوه أبا جهل فبقي عليه ونسي اسمه وكنيته. **قوله: (وذووه)** أي أصحابه. **قوله: (وأن تكون)** تامة. **قوله: (حقيقة)** اسم تكون. **قوله: (المحاورة)**[١] المجاوَبَةُ. **قوله: (للرؤوس)** في الصحاح الرأس يجمع في القلة أرؤس وفي الكثرة رُؤُوس. اهـ.

وفي شرح القاموس للعلّامة السيد محمد مرتضى رحمه الله (الرأس) أي معروف وأجمعوا على أنه مذكّر (و) الرأس (أعلى كل شيء) ومن المجاز الرأس (سيّد القوم). اهـ. فالمراد هنا الرؤساء[٢].

(١) في المصباح حاورته راجعته الكلام. (٢) جمع رئيس مثل شريف وشرفاء.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ أولي الاسم أي نحن حرف الإنكار لأن المراد أن يكون هم الصادّين لهم عن الإيمان وإثبات أنهم هم الذين صدّوا بأنفسهم عنه وأنهم أتوا من قبل اختيارهم ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ إنما وقعت «إذ» مضافًا إليها وإن كانت «إذ» و«إذا» من الظروف اللازمة للظرفية لأنه قد اتّسع في الزمان ما لم يتسع في غيره فأُضيف إليها الزمان ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين لاختياركم وإيثاركم الضلال على الهدى لا بقولنا وتسويلنا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ لم يأتِ بالعاطف في ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وأتى به في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ لأن الذين استضعفوا مرَّ أول كلامهم فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بل مكركم بنا بالليل والنهار فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه، أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي أي الليل والنهار مكرا بطول السلامة فيهما حتى ظننا أنكم على الحق ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أشباهًا.

والمعنى أن المستكبرين لما أنكروا بقولهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أن ذلك بكسبهم واختيارهم، كرَّ عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا: ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا

(دائبًا) ليلًا ونهارًا وحملكم إيّانا على الشِّرك واتخاذ الأنداد ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أضمروا أو أظهروا وهو من الأضداد وهم الظالمون في قوله: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ (يندم) المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المُضِلِّين ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الجحيم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي في أعناقهم فجاء بالصريح للدلالة على ما استحقوا به الأغلال ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ نبي ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ متنعموها ورؤساؤها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ (مما مُنِي به) من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به وأنه لم يرسل قطّ إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ أهل مكة وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد كما قال:

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظرًا إلى أحوالهم في الدنيا، وظنوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم، فأبطل الله ظنهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كيف يشاء، فربما وسّع على العاصي وضيّق على المُطيع وربما عكس، وربما وسّع عليهما أو ضيّق عليهما فلا ينقاس عليهما أمر الثواب وذلك قوله:

قوله: (دائبًا) أي دائمًا (يندم) في مختار الصحاح نَدِم على ما فعل من باب طرب وسلم. اهـ.

قوله: (مما مُني به) أي ابتلي يقال: منوته ومنيته أي ابتليته وهو بصيغة المجهول والفاعل هو الله تعالى أي مما مناه الله تعالى من أذى قومه.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ قدر الرزق تضييقه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: الآية ٧]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقرّبكم، وذلك أن الجمع المكسّر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث، والزلفى والزلفة كالقربى والقربة ومحلها النصب على المصدر أي تقرّبكم قربة كقوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: الآية ١٧]، ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الاستثناء من «كم» في ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ يعني أن الأموال لا تقرّب أحدًا إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرب أحدًا إلا من علّمهم الخير ووفقهم في الدين و(**رشحهم**) للصلاح والطاعة. وعن ابن عباس: «إلا» بمعنى «لكن» ومن شرط جوابه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ وهو من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك لهم أن يُجازوا الضعف (**ثم** ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾) ثم جزاءُ الضعف، ومعنى جزاء الضعف أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرًا (**وقرأ يعقوب ﴿جزاءً الضعفُ﴾ على «فأولئك لهم الضعف جزاء»**) ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ بأعمالهم ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي غرف منازل الجنة (﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ **حمزة**) ﴿ءَامِنُونَ﴾ من كل هائل وشاغل.

قوله: (**رشحهم**) أي يُرَبِّيْهِم في المصباح رشح الندى النبت ترشيحًا ربّاه فترشح. اهـ.

قوله: (**ثم** ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾) بالإضافة. **قوله**: (**وقرأ يعقوب ﴿جزاءً الضعفُ﴾ على فأولئك لهم الضعف جزاء**) في تفسير العلّامة البغوي رحمه الله. قرأ يعقوب جزاء منصوبًا منوّنًا الضعف رفع تقديره فأولئك لهم الضعف جزاء وقراءة العامة بالإضافة. اهـ. **قوله**: (﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ **حمزة**) أي قرأ حمزة بسكون

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ في إبطالها ﴿مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يوسع ﴿لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ﴾ «ما» شرطية في موضع النصب (﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ **بيانه** ﴿فَهُوَ﴾) ﴿يُخْلِفُهُ﴾ يعوّضه لا مُعَوِّض سواه (**إما عاجلًا بالمال أو آجلًا بالثواب**) جواب الشرط ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ المطعِمين لأن كل ما رزق غيره من سلطان أو سيد أو غيرهما فهو من رزق الله أجراه على أيدي هؤلاء، وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم: الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممّن يشتهي فكم من مُشْتَهٍ لا يجد وواجد لا يشتهي.

الراء ولا ألف بعد الفاء على التوحيد على إرادة الجنس ولعدم اللبس لأنه معلوم أن لكل أحد غرفة تخصّه. وقد اجتمع على التوحيد في قوله تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: الآية ٧٥] ولأن الواحد أخفّ فوضع موضع الجمع مع أمن اللبس والباقون بضم الراء وألف بعد الفاء على الجمع جمع سلامة، وقد أجمع على الجمع في قوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: الآية ٥٨].

قوله: (﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ **بيانه**) أي من شيء قليل كنصف تمرة. **قوله**: (﴿فَهُوَ﴾) أي الله سبحانه وتعالى.

قوله: (**إما عاجلًا**) أي في الدنيا (**بالمال أو آجلًا**) أي في الآخرة (**بالثواب**) فأو لمنع الخلو لأنه تعالى لكرمه يعوّض في الدنيا بإعطاء المال بدله أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد وبالثواب في الآخرة وفيه إشارة إلى رد تخصيصه بالآخرة وإن نقل ذلك عن مجاهد صاحب الكشّاف لما ورد في الأحاديث الصحيحة نحو لكل منفق خلف ولكل ممسك تلف. قنوي رحمه الله.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ **(وبالياء فيهما: حفص ويعقوب)**. هذا خطاب للملائكة وتقريع للكفّار وارد على المثل السائر:

(إياك أعني واسمعي يا جارة)

قوله: (وبالياء فيهما: حفص ويعقوب) أي قرأ حفص ويعقوب ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ بالياء والباقون بالنون. **قوله:**

(إياكِ أَعنِي وَاسْمَعي يا جارة[١])

أول مَن قال ذلك سهل بن مالك الفزاريّ وذلك أنه خرج يريد النعمان فمرّ ببعض أحياء طَيِء فسأل عن سيّد الحيّ فقيل له: حارثة بن لأمٍ الطائي فأمّ رحله فلم يصبه شاهدًا فقالت له أخته: انزل في الرحب والسعة فنزل فأكرمته ولاطفته ثم خرجت من خبائها فرأى أجمل أهل دهرها وأكملهم، وكانت عقيلة قومها وسيدة نسائها فوقع في نفسه منها شيء فجعل لا يدري كيف يرسل إليها ولا ما يوافقها من ذلك فجلس بفناء الخباء يومًا وهي تسمع كلامه فجعل ينشد ويقول:

يا أخت خير البدو والحَضاره ... كيف ترين في فتى فَزَاره
أصبح هوى حرَّةٍ مِعْطاره ... إياك أعني واسمعي يا جاره

فلما سمعت قوله: عرفت أنه إياها يعني فقالت: ماذا يقول ذي عقل أَرِيب ولا رأي مصيب ولا أَنْفَ نجيب فأقم ما أقمت مكرمًا ثم ارتحل متى شئت مسلمًا، ويقال: أجابته نظمًا فقالت:

إني أقول يا فتى فزاره ... لا أبتغي الزوج ولا الدعاره[٢]
ولا فراق أهل هذي الجاره ... فارحل إلى أهلك باستخاره

---

(١) الجائر الظالم جمع جَوَرَة وجُوَرة على غير قياس لأن فَعَلة لفاعل من الناقص كقاضٍ وقضاةٍ وجارةٍ وهو اسم جمع كرفقة أو أصله جائرة على تقدير جماعة فحذفت عينه، كذا في المحيط.

(٢) الدّعارة والدِّعارة، الفسق والخبث والشر، ١٢ منه رحمه الله.

ونحوه قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ [المائدة: الآية ١١٦] الآية.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهًا لك أن يعبد معك غيرك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ الموالاة خلاف المعاداة وهي مفاعلة من الولي وهو القرب والولي **(يقع على الموالي والموالَى)** جميعًا، والمعنى أنت الذي تواليه ﴿مِن دُونِهِم﴾ إذ لا موالاة بيننا وبينهم فبيَّنوا بإثبات موالاة الله ومُعاداة الكفَّار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لأن مَن كان على هذه الصفة كانت حاله مُنافية لذلك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله، أو كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها، أو صوَّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا هذه صور الملائكة فاعبدوها ﴿أَكْثَرُهُم﴾ أكثر الإنس أو الكفّار ﴿بِهِم﴾ بالجن ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾.

فاستحيى الفتى وقال: ما أردت منكرًا واسوأتاه قالت: صدقت فكأنها استحيت من تسرّعها إلى تهمه فارتحل فأتى النعمان فحيّاه وأكرمه فلما رجع نزل على أخيها فبينا هو مقيم عندهم تطاعت إليه نفسها وكان جميلًا فأرسلت إليه أن اخطبني إن كان لك إليّ حاجة يومًا من الدهر فإني سريعة إلى ما تريد فخطبها وتزوجها وسار بها إلى قومه، يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئًا غيره.

كذا في كتاب مجمع الأمثال للعلّامة أبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني[1] النيسابوري رحمه الله تعالى.

قوله: (يقع على المُوالي) بكسر اللام **(والمُوالَى)** بفتح اللام وهو هٰهنا بمعنى الموالي يعنون إنما نواليك بالعبودية لك ولا نواليهم بعبادتهم لنا.

---

(١) بفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون هذه النسبة إلى ميدان زياد بن عبد الرحمٰن وهي محلة في نيسابور، ١٢ منه.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة ولا مَضَرَّة لأحد، لأن الدار دار ثواب وعقاب والمُثيب والمُعاقب هو الله. فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف والناس فيها مُخَلَّى بينهم يتضارّون ويتنافعون، والمراد أنه لا ضارّ ولا نافع يومئذ إلا هو. ثم ذكر عاقبة الظالمين بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بوضع العبادة في غير موضعها معطوف على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي إذا قُرِىء عليهم القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات ﴿قَالُوا۟﴾ أي المشركون ﴿مَا هَٰذَا﴾ أي محمد ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وقالوا، والعدول عنه دليل على إنكار عظيم وغضب شديد ﴿لِلْحَقِّ﴾ للقرآن أو لأمر النبوّة كله ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وعجزوا عن الإتيان بمثله ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي الحق ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بتّوه على أنه سحر ثم بتّوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سمّاه سحرًا.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي ما أعطينا مشركي مكة كتبًا يدرسونها فيها برهان على صحة الشِّرك ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ ولا أرسلنا إليهم نذيرًا ينذرهم بالعقاب إن لم يُشرِكوا. ثم توعَّدهم على تكذيبهم بقوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي وكذب الذين تقدموهم من الأمم الماضية والقرون الخالية

الرسل كما كذبوا ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتي الأولون من طول الأعمارِ وقوة الأجرام وكثرة الأموال والأولاد ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للمكذبين الأولين فليحذروا من مثله.

(**وبالياء في الوصل والوقف: يعقوب**) أي فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال ولم يغنِ عنهم استظهارهم بما هم مُستَظهِرون، فما بال هؤلاء؟ وإنما قال: ﴿فَكَذَّبُوا۟﴾ وهو مستغنى عنه بقوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لأنه لما كان معنى قوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفعل الذين من قبلهم التكذيب وأقدَموا عليه جعل تكذيب الرُّسُل (**مُسَبَّبًا عنه**) وهو كقول القائل: «أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ».

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ بخصلة واحدة وقد فسَّرها بقوله: ﴿أَن تَقُومُوا۟﴾ على أنه عطف بيان لها وقيل هو بدل، وعلى هذين الوجهين هو في محل الجر. وقيل: هو في محل الرفع على تقدير وهي أن تقوموا، والنصب على تقدير أعني، وأراد بقيامهم القيام عن مجلس رسول الله ﷺ وتفرّقهم عن مجتمعهم عنده، أو قيام القصد إلى الشيء دون النهوض والانتصاب، والمعنى إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلَّصتم وهي أن تقوموا ﴿لِلَّهِ﴾ أي لوجه الله خالصًا لا لحَمِيَّة ولا عصبية بل لطلب الحق ﴿مَثْنَىٰ﴾ اثنين اثنين ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ فردًا فردًا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به، أما الاثنان فيتفكّران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق، وكذلك الفرد يتفكر في نفسه

قوله: (**وبالياء في الوصل والوقف: يعقوب**) في الإتحاف أثبت الياء في نكير وصلًا ورش وفي الحالين يعقوب. اهـ.

قوله: (**مسببًا عنه**) أي عن كونهم أهل التكذيب فعطف عليه عطف المسبب على السبب.

بعدل و(**نصفة**) ويعرض فكره على عقله. ومعنى تفرّقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما (**يشوش الخواطر**) ويعمي البصائر ويمنع من الرَّوِيَّة ويَقِلُّ الإنصاف فيه ويكثر (**الاعتساف ويثور عجاج**) التعصّب ولا يسمع إلا نصرة المذهب. و﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾ معطوف على ﴿تَقُومُواْ﴾ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون. والمعنى ثم تتفكّروا فتعلموا ما بصاحبكم من جِنَّة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قدام عذاب شديد وهو عذاب الآخرة وهو كقوله عليه السلام: بعثت بين يدي الساعة». ثم بيّن أنه لا يطلب أجْرًا على الإنذار بقوله:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على إنذاري وتبليغي الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ جزاء الشرط تقديره أي شيء سألتكم من أجْر كقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر: الآية ٢] ومعناه نفي مسألة الأجْر رأسًا نحو ما لي في هذا فهو لك أي ليس فيه شيء (﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ **مدني وشامي وأبو عمرو وحفص**)، وبسكون الياء: غيرهم ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيعلم أني لا أطلب الأجْر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه.

قوله: (**نصفة**) في المصباح أنصفت الرجل إنصافًا عاملته بالعدل والقسط والاسم النصفة بفتحتين لأنك أعطيته من الحق ما تستحقه لنفسك. اهـ.

قوله: (**يشوش الخواطر**) أي يفرق الأفكار. **قوله**: (**الاعتساف**) في مختار الصحاح العسف الأخذ على غير الطريق وبابه ضرب، وكذا التعسّف والاعتساف. اهـ. **قوله**: (**يثور**) في المصباح ثار الغبار يثور ثورًا وثؤرًا على فعول وثورانًا هاج. اهـ. **قوله**: (**عجاج**) في لسان العرب العَجَاج الغُبَار. اهـ.

قوله: (﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ **مدنيّ وشاميّ وأبو عمرو وحفص**...) الخ أي قرأ نافع المدنيّ وابن عامر الشاميّ وأبو عمرو وحفص ﴿أَجْرِىَ﴾ في الوصل بفتح الياء والباقون بالسكون.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ بالوحي. والقذف توجيه السهم ونحوه بدفع واعتماد ويُستعار لمعنى الإلقاء ومنه ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٦]، ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ [طه: الآية ٣٩]، ومعنى يقذف بالحق يُلقيه ويُنزله على أنبيائه **(أو يرمي به الباطل)** فيدمغه ويزهقه ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ مرفوع على البدل من الضمير في ﴿يَقۡذِفُ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ الإسلام والقرآن ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي زال الباطل وهلك لأن الإبداء والإعادة من صفات الحي فعدمهما عبارة عن الهلاك، والمعنى جاء الحق وزهق الباطل كقوله: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ [الإسراء: الآية ٨١] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة أصنام فجعل يطعنها بعود معه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد». وقيل: الباطل الأصنام. وقيل: إبليس لأنه صاحب الباطل أو لأنه هالك كما قيل له الشيطان مَن شاطَ إذا هلك أي لا يخلق الشيطان ولا الصنم أحدًا ولا يبعثه فالمنشىء والباعث هو الله. ولما قالوا: قد ضللت بترك دين آبائك قال الله تعالى:

﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾﴾

﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ﴾ عن الحق ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ إن ضللت فمني وعليّ ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ أي فبتسديده بالوحي إليّ. وكان قياس التقابل أن يقال وإن اهتديت فإنما أهتدي لها كقوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ [الإسراء: الآية ١٥]. **(ولكن هما متقابلان معنى)**، لأن النفس كل ما عليها وضار لها فهو بها وبسببها لأنها الأمارة بالسوء، وما لها مما ينفعها فبهداية

قوله: (أو يرمي به الباطل) تصوير لإبطاله ومبالغة فيه. وكذا الكلام في فيدمغه إذ الدمغ وهو كسر الدماغ بحيث يشقّ غشاؤه المؤدّي إلى زهوق الروح وهو تصوير لإبطاله على نهج المبالغة.

قوله: (ولكن هما متقابلان معنى. . .) الخ فالموضعان مشتملان على بيان السبب وإن اشتمل الأول على بيان مآل الضلال أيضًا.

ربها وتوفيقه، وهذا حكم عام لكل مكلّف، وإنما أمر رسوله أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لما أقوله لكم ﴿قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم يجازيني ويجازيكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ جوابه محذوف أي لرأيت أمرًا عظيمًا وحالًا هائلة ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند البعث أو عند الموت أو يوم بدر ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا مهرب أو فلا يفوتون الله ولا يسبونه ﴿وَأُخِذُوا۟﴾ عطف على ﴿فَزِعُوا۟﴾ أي فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم أو على لا فوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الموقف إلى النار إذا بعثوا أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا **(أو من صحراء بدر إلى القليب)**.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ حين عاينوا العذاب ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بمحمد عليه السلام لمرور ذكره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: الآية ٤٦] أو بالله ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ التناوش: التناول أي كيف يتناولون التوبة وقد بعدت عنهم، يريد أن التوبة كانت تقبل منهم في الدنيا وقد ذهبت الدنيا وبعدت من الآخرة. وقيل: هذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما نفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا، **(مثلت حالهم بحال مَن يريد أن يتناول الشيء من غلوة كما يتناول الآخر من قيس ذراع. ﴿التناؤش﴾ بالهمزة: أبو عمرو وكوفي غير حفص)**

قوله: **(أو من صحراء بدر إلى القليب)** والقليب البئر قبل أن تطوى يذكر ويؤنث والمراد بها بئر معينة ببدر، والبدر ماء بين مكة والمدينة رمي فيها القتلى من المشركين وخاطبهم رسول الله ﷺ بقوله: «فهل وجدتم ما وعد ربكم...» الخ. **قوله: (مثلت حالهم بحال مَن يريد أن يتناول الشيء من غَلْوة كما يتناول الآخر من قِيس ذراع)** تناولًا سهلًا لا تعب فيه. **وقوله: (من غلوة)** الغلوة رمية سهم. **وقوله:** (من قِيس) في لسان العرب القِيْس والقاس القَدْرُ يقال: قِيس رمح وقاسه. اهـ. **قوله:** (﴿التناؤش﴾ **بالهمزة: أبو عمرو كوفي غير حفص**) أي قرأ أبو

همزت الواو لأن كل واو مضمومة ضمّتها لازمة إن شئت أبدلتها همزة وإن شئت لم تبدل نحو قولك: «أدور وتقاوم»، وإن شئت قلت: «أدؤر وتقاؤم». **(وعن ثعلب)**: التناؤش بالهمز التناول من بعد، وبغير همز التناول من قرب.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ من قبل العذاب أو في الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ معطوف على ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ على حكاية الحال الماضية يعني وكانوا

عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي بعد الألف بهمزة مضمومة والباقون بعد الألف بواو مضمومة.

قوله: (وعن ثعلب) هو أبو العباس أحمد بن يحيىٰ بن زيد بن سَيَّار النحويّ المعروف بثعلب كان إمام الكوفيين في النحو واللغة سمع ابن الأعرابي والزبير بن بكار. وروى عنه الأخفش الأصغر وأبو بكر بن الأنباري وأبو عمر الزاهد وغيرهم، وكان ثقة حجة صالحًا مشهورًا بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم مقدمًا عند الشيوخ منذ هو حدث. وكان ابن الأعرابيّ إذا شكَّ في شيء قال له ما تقول يا أبا العباس في هذا ثقة بغزارة حفظه.

وقال أبو بكر بن مجاهد المقري قال لي ثعلب: يا أبا بكر اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا واشتغل أصحاب الفقه بالفقه ففازوا واشتغلت أنا بزيد وعمرو فليت شعري ماذا يكون حالي في الآخرة فانصرفت من عنده فرأيت النبيّ ﷺ تلك الليلة في المنام فقال لي: أقرىء أبا العباس عني السلام وقل له أنت صاحب العلم المستطيل قال أبو عبد الله الروزباريّ العبد الصالح: أراد أن الكلام به يكمل والخطاب به يجمل وأن جميع العلوم مفتقرة إليه. وُلد في سنة مائتين لشهرين مضيا منها وتُوفي يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى وقيل: لعشر خلون منها سنة إحدى وتسعين ومائتين ببغداد ودُفن بمقبرة باب الشام رحمه الله تعالى.

ومن تصانيفه كتاب الفصيح وهو صغير الحجم كثير الفائدة. وكتاب المصون، وكتاب اختلاف النحويين، وكتاب معاني القرآن، وكتاب ما تلحن فيه

يتكلمون بالغيب أو بالشيء الغائب يقولون لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عن الصدق أو عن الحق والصواب، أو هو قولهم في رسول الله ﷺ شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي لأنهم لم يشاهدوا منه سحرًا ولا شعرًا ولا كذبًا.

وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأنه أبعد شيء مما جاء به السحر والشعر وأبعد شيء من عاداته التي عرفت بينهم وجربت الكذب (﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ **عن أبي عمرو وَعليّ البناء للمفعول**) أي تأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه وإن شئت فعلقه بقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ على أنه مثَّلهم في طلبهم تحصيل ما عطَّلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ في الآخرة وذلك مطلب مُستَبعد بمَن يقذف شيئًا من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائبًا عنه بعيدًا.

ويجوز أن يكون الضمير في ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ للعذاب الشديد في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: الآية ٤٦].

وكانوا يقولون وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا، فهذا كان قذفهم بالغيب وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف.

العامة، وكتاب القراءات، وكتاب معاني الشعر، وكتاب التصغير، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف، وكتاب ما يجري وما لا يجري، وكتاب الشواذ، وكتاب الأمثال، وكتاب الأيمان، وكتاب الوقف والابتداء، وكتاب الألفاظ، وكتاب الهجاء، وكتاب المجالس وكتاب الأوسط، وكتاب إعراب القرآن وكتاب المسائل، وكتاب حد النحو وغير ذلك.

قوله: (﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ **عن أبي عمرو وعليّ البناء للمفعول**) وفي نسخة ويقذفون محبوب عن أبي عمرو على البناء للمفعول عبارة السمين، وقرأ أبو حيوة ومجاهد ومحبوب عن أبي عمرو ويقذفون مبنيًا للمفعول.اهـ. وعبارة الكشاف وقرىء ﴿ويقذفون بالغيب﴾ على البناء للمفعول.اهـ.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَحِيلَ﴾ وحجز ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة أو من الرد إلى الدنيا كما حُكِي عنهم بقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: الآية ١٢] والأفعال التي هي ﴿فَزِعُوا۟﴾ ﴿وَأُخِذُوا۟﴾ ﴿وَحِيلَ﴾ كلها للمضي والمراد بها الاستقبال لتحقق وقوعه ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ بأشباههم من الكفرة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ﴾ من أمر الرُّسُل والبعث ﴿مُّرِيبٍۭ﴾ موقع في الريبة من أرابه إذا أوقعه في الريبة، هذا ردٌّ على مَن زعم أن الله لا يعذب على الشك والله أعلم.

وعبارة البيضاوي وأبي السعود وقرىء ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ على أن الشيطان يلقي إليهم ويلقنهم. اهـ.

وعبارة كتاب المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ولغات العرب ومن ذلك قراءة مجاهد ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ بضم الياء وفتح الذال. اهـ. فافهم والله سبحانه وتعالى أعلم وعلمه أتمّ.

تمّت سورة سبأ والحمد لله على التمام،
وعلى سائر الإنعام، والصلاة والسلام على سيّد الأنام،
وعلى آله وأصحابه الكرام، ما دام تحرك الفلك في الليالي والأيام